

الحياة العلم والدين

تصنيف

الإمام ميرزا أبي حامد محمد بن محمد الغفراني

المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

وبذلك كتاب

المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار

في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

للعلمة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العزفي

المتوفى في سنة ٨٠٨ هـ

وتماما للنفع أقمنا بالكتاب في آخره ثلاثة كتب:

الأول: تعريف الأحياء بمضائل الإحياء للعلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله
ابن شيخ بن عبد الله العيدروس يعلوك

الثاني: الإملاء عن إشكالات الإحياء للإمام العزالي؛ وذهب اعتراضات
أوردتها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الإحياء.

الثالث: عوارف المعارف: للمعارف بالله تعالى الإمام السهروردي

الجزء الأول

دار المعرفة

بيروت - لبنان

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

ترجمة الإمام الغزالي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الهادي إلى الصواب . وأشهد أن لا إله إلا الله الكريم الوهاب ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله من آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب . اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن أحيا سننه إلى يوم الدين .

أما بعد : فهذه نبذة من تاريخ حياة الإمام الغزالي رحمه الله تعالى نوردها ليعلم القارىء شيئاً عنه وبالله التوفيق هو الإمام الجليل ، محمد بن محمد بن أحمد أبو حامد الطوسي الغزالي ، حجة الإسلام . ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام ، جامع أشتات العلوم ، والمبرز في المنقول منها والمفهوم . جرت الأئمة قبله لشأواً ما قنع منه بالغاية ، ولا وقف عند مطلب بل لم يبرح في دأب لا يقضى له بنهاية ، حتى أدخل من الأقران كل خصم بلغ مبلغ السها ، وأخذ من نيران البدع كل ما لا تستطيع أيدي المجالدين مسها . كان رضى الله عنه ضرغاما إلا أن الأسود تنضام لديه وتتوارى ، وبدراً تماماً إلا أن هداه يشرق نهارة ، وبشرا من الخلق إلا أنه الطود العظيم ، وبعض الناس ولكن مثل ما بعض الجماد الدر التنظيم . . جاء والناس إلى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء لمصاييح السماء . وأفقر من الجدباء إلى قطرات الماء ، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيفي بجلاد مقاله ، ويحمي حوزة الدين ولا يلطخ بدم المعتدين حد نصاله ، حتى أصبح الدين وثيق العرى . وانكشفت غياهب الشبهات وما كانت إلا حديثاً مفترى .

هذا مع ورع طوى عليه ضميره ، وخلوة لم يتخذ فيها غير الطاعة سميره ، ترك الدنيا وراء ظهره ، وأقبل على الآخرة مخلصاً لله في سره وجهره .

مولده

ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة ، وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكان بطوس ، ولما حضرته الوفاة وصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير وقال له : إن لي لتأسفا عظيما على تعلم الخط وأشتهى استدراك ما فاتني في ولدي هذين فعليهما ولا عليك أن ينفد في ذلك جميع ما أخلفه لهما . فلما مات أقبل الصوفي علي تعليمهما إلى أن فني ذلك النذر البسير الذي خلفه لهما أبوهما وتعذر على الصوفي

القيام بقوتها فقال لهما : اعلموا أني قد أنفقت عليكم ما كان لكما وأنا رجل من أهل الفقر والتجريد .
ليس لي مال فأواسيكم به . وأصالح ما أرى لكما أن تاجبا إلى مدرسة كما لكما من طلبه العلم فيحصل لكما
قوت يعينكما على وقتكما ففعلا ذلك وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهم . وكان الغزالي يحكي
هذا ويقول : طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا الله .

صفة والده

ويحكي أن أباه كان فقيراً صالحاً لا يأكل إلا من كسب يده في عمل غزل الصوف ويطوف على المنفعة
ويجالسهم ويتوفر على خدمتهم ويجد في الإحسان إليهم والنفقة بما يمكنه عليهم وأنه كان إذا سمع كلامهم
بكى وتضرع وسأل الله أن يرزقه ولداً ويجعله فقيهاً ويحضر مجالس الوعظ فإذا طاب وقته بكى وسأل الله
أن يرزقه ولداً واعظاً . فاستجاب الله دعوتيه .

أما أبو حامد فكان أفقر أقرانه ، وإمام أهل زمانه . وفارس ميدانه . كلبة شهد بها الموافق والمخالف ،
وأقر بحقيقتها المعادي والمخالف .

وأما أحمد فكان واعظاً تنفلق الصم عند استماع تحذيره . وترعد فرائص الحاضرين في مجالس تذكيره

تلقية العلوم

قرأ الغزالي رضي الله عنه في صباه طرفاً من الفقه يبليده على أحمد بن محمد الراذ كان ثم سافر إلى جرجان
أبي نصر الإسماعيلي وعلق عنه التعليقة ثم رجع إلى طوس . قال الإمام أسعد الميمني فسمعتة يقول : قطعت
علينا الطريق وأخذ العيارون جميع مامعي ومضوا . فكتبهم . فالتفت إلى مقدمهم وقال : ارجع ويحك وإلا
هلك . فقلت له : أسألك بالذي ترجو فسلامة منه أن ترد على تعليقتي فقط فما هي شيء تنتفعون به . فقال
لي : وما هي تعليقتك ؟ فقلت : كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة عليها . فضحك وقال :
كيف تدعى أنك عرفت عليها . وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ثم أمر بعض
أصحابه فسلم إلى المخلاة .

قال الغزالي رحمه الله : فقلت هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به أمرى . فلما وافيت طوس أقبلت على
الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقت . وصرت بحيث لو قطع الطريق لم أتجرد من علمي . وقد روى
هذه الحكاية عن الغزالي أيضاً الوزير نظام الملك كما هو مذكور في ترجمة نظام الملك من ذيل ابن السمعاني .

قدومه نيسابور وملازمته لإمام الحرمين

ثم إن الغزالي قدم نيسابور ولزم لإمام الحرمين وجد واجتهد حتى برع المذهب والخلاف والأصليين
والجدل والمنطقي ؛ وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك ، وفهم كلام أرباب هذه العلوم ، وتصدى للرد
عليهم وإبطال دعاويهم . وصنفت في كل فن من هذه العلوم كتباً أحسن تأليفها وأجاد وضعها وترصيفها

ترجمة الإمام الغزالي

وكان رضى الله عنه شديد الذكاء عجيب الفطرة مفرط الإدراك ، بعيد الغور ، غواصاً على المعاني الدقيقة جبل علم مناظراً محجاجاً وكان إمام الحرمين يصف تلامذته فيقول : الغزالي بحر مغرق ، والكنيا : أسد مخرق ، والخوافي : نار تحرق .

زيارته للوزير نظام الملك

ثم لما مات إمام الحرمين خرج الغزالي إلى العسكر قاصداً للوزير نظام الملك ، وناظر الأئمة والعلماء في مجلسه وقهر الخصوم ، وظهر كلامه على الجميع ، واعترفوا بفضله ، وتلقاه صاحب التعميم والتبجيل ، وولاه تدريس مدرسته ببغداد . وأمره بالتوجه إليها ، فقدم بغداد في سنة أربع وثمانين وأربع مائة ودرس بالنظامية ، وأعجب الخلق حسن كلامه وكإل فضله وفصاحة لسانه ونكته الدقيقة وإشارات اللطيفة ، وأحبوه وأحلوه محل العين بل أعلى وقالوا أهلاً بمن أصبح لأجل المناصب أهلاً .

إقامته على التدريس

وأقام على التدريس وتعليم العلم مدة عظيم الجاه زائد الحشمة على الرتبة مشهور الإسم ، تضرب به الامثال وتشدد إليه الرحال إلى أن شرفت نفسه عن رذائل الدنيا فرفض ما فيها من التقدم والجاه ، وترك كل ذلك وراء ظهره وقصديت الله الحرام ، فخرج وتوجه إلى الشام في ذى القعدة سنة ثمان وثمانين ، واستناب أخاه في التدريس وجاور بيت المقدس ، ثم عاد إلى دمشق واعتكف في زاويته بالجامع الأموي المعروفة اليوم بالغزالية نسبة إليه .

زهده وورعه

ولبس الثياب الخشنه ، وقلل طعامه وشرابه ، وأخذ في التصنيف للإحياء ، وصار يطوف المشاهد ، ويזור التراب والمساجد ، ويأوى إلى الفقار ، ويروض نفسه ويجاهدها جهاد الأبرار ، ويكلفها مشاق العبادات ، ويبلوها بأنواع القرب والطاعات ، إلى أن صار قطب الوجود ، والبركة العامة لكل موجود ، والطريق الموصل إلى رضا الرحمن .

تكلمه على لسان أهل الحقيقة

ثم رجع إلى بغداد وعقد بها مجلس الوعظ ، وتكلم على لسان أهل الحقيقة ، وحدث بكتاب الإحياء . قال ابن النجار : ولم يكن له أستاذ ولا طلب شيئاً من الحديث ، لم أر له إلا حديثاً واحداً سيأتى ذكره في هذا الكتاب — يعني تاريخه — قلت : ولم أره ذكر هذا الحديث بعد . وقد أخبرنا أبو الحافظ بحديث من حديثه أوردناه في الطبقات الكبرى .

ما شهد له به العلماء العاملون

قال الإمام محمد بن يحيى : الغزالي هو الشافعي الثاني : وقال أسعد الميني لا يصل إلى معرفة علم الغزالي

وفضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ السكّال في عقله وقال أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد المنعم العبدري : رأيت بالاسكندرية فيما يرى النائم كأن الشمس طلعت من مغربها ، فعبر ذلك بعض المعبرين ببدعة تحدث فيهم فوصلت بعد أيام والمركب بإحراق كتب الغزالي بالمرية .

توزيع أعماله على الأوقات

ثم إن الغزالي عاد إلى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدة يسيرة . ثم رجع إلى طوس واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية ؛ ووزع أوقافه على وظائف من ختم القرآن ، ومجالسة أرباب القلوب والتدريس لطلبة العلم ، وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات إلى أن انتقل إلى رحمة الله ورضوانه طيب الثناء ، أعلى منزلة من نجوم السماء ؛ وأهدى للأمة من البدر في الظلماء لا يبغضه إلا حاسد أو زنديق .

ما حصل لمبغضيه من البلاء

ولقد كان في ثغر الاسكندرية من مدة قريبة أدركها أشياخنا شخص يبغض الغزالي ويعتبه ، فرأى النبي ﷺ في المنام ؛ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما إلى جانبه ، وكان الغزالي واقف بين يديه وهو يقول : يا رسول الله هذا - يعني الرائي - يتكلم في يؤذيني قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هاتوا السياط . وأمر به ف ضرب بين يديه لأجل الغزالي وقام هذا الرجل من النوم وأثر السياط على ظهره .

مصنفاته رضي الله عنه

ومن تصانيف الغزالي : البسيط ، والوسيط ، والوجيز ، والخلاصة ، والمستصفي ، والمنخول ، وتحصين الأدلة ، وشفاء العليل ، والأسماء الحسنى ، والرد على الباطنية ، ومنهاج العابدين وإحياء علوم الدين . وغير ذلك من التصانيف .

وفاته رحمه الله تعالى

توفي بطوس يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة ، ولو أردنا استيعاب ترجمته لطال الشرح وفيما أوردناه مقنع وبلاغ .

ترجمة الإمام العراقي

وإليك ترجمة الإمام العراقي مخرج أحاديث الإحياء :

قال الإمام الحافظ السيوطي في كتابه حسن المحاضرة في باب ذكر من كان بمصر من حفاظ الحديث ونقاده:

العراقي هو الإمام الكبير الحافظ زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن حافظ العصر ، ولد بمنشأة المهراني بين مصر والقاهرة في جمادى الأولى سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، وعنى بالفن وتقدم فيه بحيث كان شيوخ عصره يبالغون في الثناء عليه بالمعرفة . كالسبكي والعلائي وابن كثير وغيرهم . ونقل عنه الإسنوي في المهمات ووصفه بحافظ العصر . وكذلك وصفه في الترجمة ابن سيد الناس .

وله مؤلفات في الفن بديعة كالألفية التي اشتهرت في الآفاق وشرحها ، ونظم الاقتراح ، وتخريج أحاديث الإحياء - وهو الذي بين يدي القارىء - وتكملة شرح الترمذي لابن سيد الناس .

وشرع في إملاء الحديث من سنة ست وتسعين فأحيا الله تعالى به سنة الإملاء بعد أن كانت دائرة فأملى أكثر من أربعمئة مجلس ، وكان صالحاً متواضعاً ضيق المعيشة . مات في ثامن شعبان سنة ست وثمانمئة وراثه تلميذه الحافظ ابن حجر العسقلاني بقصيدة غراء فانظرها هناك .

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله أولاً ، حمداً كثيراً متوالياً ؛ وإن كان يتضاءل دون حق جلالة حمد الحامدين .
وأصلى وأسلم على رسله ثانياً صلاة تستغرق مع سيد البشر سائر المرسلين .
وأستحيره تعالى ثالثاً فيما انبثت عزمي من تحرير كتاب في إحياء علوم الدين .
وأنتدب لقطع تعجبك رابعاً أيها العاذل المتغالي في العذل من بين زمرة الجاحدين ، المسرف في التفرغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أحيا علوم الدين فأينعت بعد اضمحلالها ، وأعيا فهم الملحد من دركها فرجعت بكلامها ،
أحمد وأستكين له من مظالم أنقضت الظهور بأفقالها ؛ وأعبده وأستعين به لعصام الأمور وعضالها ، وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة وافية بحصول الدرجات وظلالها ؛ واقية من حلول الدركات وأموالها ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أطلع به فجر الإيمان من طلبة القلوب وضلالها ، وأسمع به وقر الآذان وجلا به
زين القلوب بصقالها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم صلاة لا قاطع لانصالها .
وبعد : فلما وفق الله تعالى لإكمال الكلام على أحاديث إحياء علوم الدين ، في سنة إحدى وخمسين تعذر الوقوف
على بعض أحاديثه فأخرت تبييضه إلى سنة ستين فظفرت بكثير مما عذب عني عليه ثم شرعت في تبييضه في مصنف
متوسط حجمه وأنا مع ذلك متباطئ في إكمالها غير متعزص لتركها وإهماله إلى أن ظفرت بأكثر مما كنت لم أقف
عليه وتكرر السؤال من جماعة في إكمالها فأجبت وبادرت إليه ولكني اختصرته في غاية الاختصار ليسهل تحصيله
وحمله في الأسفار فاقصرت فيه على ذكر طرف الحديث وصحايه ومخرجه وبيان صحته أو حسنه أو ضعف مخرجه
فإن ذلك هو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة بل وعند كثير من المحدثين عند المذاكرة والمناظرة وأبين ما ليس له
أصل في كتب الأصول ، والله أسأل أن ينفع به إنه خير مشول .

فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليه وإلا عزوته إلى من أخرجه من بقية الستة
وحيث كان في أحد الستة لم أعزه إلى غيرها إلا لغرض صحيح بأن يكون في كتاب التزم مخرجه الصحة أو يكون
أقرب إلى لفظه في الإحياء وحيث كرر المصنف ذكر الحديث ، فإن كان في باب واحد منه اكتفيت بذكره أول
مرة وربما ذكرته فيه ثانياً وثالثاً لغرض أو لذهول عن كونه تقدم ، وإن كرره في باب آخر ذكرته ونهيت على أنه
قد تقدم وربما لم أنبه على تقدمه لذهول عنه ، وحيث عزوت الحديث لمن أخرجه من الأئمة فلا أريد ذلك اللفظ
بعينه بل قد يكون بلفظه وقد يكون بمعناه أو باختلاف على قاعدة المستخرجات ، وحيث لم أجد ذلك الحديث ذكرت
ما ينفي عنه غالباً وربما لم أذكره . وسميته :

المغني عن حل الأسفار في الأسفار : في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

جعل الله خالصاً لوجهه الكريم ووسيلة إلى النعيم المقيم .

والإنكار من بين طبقات المنكرين الغافلين؛ فلقد حل عن لسان عقدة الصمت وطوقى عهدة الكلام وقلادة النطق: ما أنت مثابر عليه من العمى عن جليلة الحق، مع اللجاج في نصرة الباطل وتحسين الجهل، والتشغيب على من آثر النزوع قليلاً عن مراسم الخلق ومال ميلاً يسيراً عن ملازمة الرسم إلى العمل بمقتضى العلم طمعاً في نيل ما تعبده الله تعالى به من تزكية النفس وإصلاح القلب، وتداركاً لبعض مافرط من إضاعة العمر يائساً عن تمام حاجتك في الحيرة وانحيازاً عن عمار من قال فيهم صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه: أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله سبحانه بعلمه^(١)، ولعمري إنه لاسبب لإصرارك على التكبر إلا الداء الذي عم الجسم الغفير بل شمل الجماهير من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل بأن الأمر لادّ والخطب جدّ والآخرة مقبلة والدنيا مدبرة والأجل قريب والسفر بعيد والزاد طفيف والخطر عظيم والطريق سدّ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير ردّ وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكث: فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وقد شغل منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون وقد استحوز على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان، وأصبح كل واحد بما جل حطه مشغولاً، فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً حتى ظل علم الدين مندرساً، ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطعام، أو حذل يتدرب به طالب المباحة إلى الغلة والإلحاح أو يجمع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام، إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام.

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح بما سماه الله سبحانه في كتابه: فقها وحكمة وعلماء وضياء ونوراً وهداية ورشداً، فقد أصبح من بين الخلق مطوياً وصار نسياً منسياً.

ولما كان هذا ثلماً في الدين ملأاً وخطباً مدلهماً، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً، لإحياء لعلوم الدين، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحاً لمباهى العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين.

وقد أسسته على أربعة أرباع وهي: ربيع العبادات، وربيع العادات، وربيع المهلكات، وربيع المنجيات. وصدرت الجملة بكتاب العلم لأنه غاية المهم لا تكشف أولاً عن العلم الذي تعبد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الأعيان بطلبه، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(٢)، وأميز فيه العلم النافع من الضار، إذ قال صلى الله عليه وسلم «نعوذ بالله من علم لا ينفع»^(٣)، وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب، وانخداعهم بلامع السراب، واقتناعهم من العلوم بالقشر عن الباب. ويشتمل ربيع العبادات على عشرة كتب:

كتاب العلم، وكتاب قواعد العقائد، وكتاب أسرار الطهارة، وكتاب أسرار الصلاة، وكتاب أسرار الزكاة، وكتاب أسرار الصيام، وكتاب أسرار الحج، وكتاب آداب تلاوة القرآن، وكتاب الأذكار والدعوات، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات.

أحاديث الخطبة

(١) حديث «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله علمه» رواه الطبراني في الصغير والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف (٢) حديث «طلب العلم فريضة على كل مسلم» رواه ابن ماجه من حديث أنس وضعفه أحمد والبيهقي وغيرهما (٣) حديث «نعوذ بالله من علم لا ينفع» رواه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد حسن.

وأما ربيع العادات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب آداب الأكل ، وكتاب آداب النكاح ، وكتاب أحكام الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة .

وأما ربيع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين : شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور .

وأما ربيع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والانس والرضا ، وكتاب النية والصدق والإخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكير ، وكتاب ذكر الموت .

فأما ربيع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليه ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه ، وأكثر ذلك مما أهمل في فن الفقهاء .

وأما ربيع العادات فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها ودقائق سننها وخفايا الورع في مجاريها وهي مما لا يستغنى عنها متدين .

وأما ربيع المهلكات فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتركه النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته ، ثم أذكر سببه الذي منه يتولد ، ثم الآفات التي عليها تترتب ثم العلامات التي بها تتعرف ، ثم طرق المعالجة التي بها منها يتخلص ، كل ذلك مقروناً بشواهد الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربيع المنجيات فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصادقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها وسببها الذي به تجتلب وثمرتها التي منها تستفاد وعلامتها التي بها تتعرف وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل ؛ ولقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتباً ، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور (الأول) حل ما عقده وكشف ما أجمله (الثاني) ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه (الثالث) إيجاز ما طولوه وضبط ما قررروه (الرابع) حذف ما كرروه ولم يثبت ما قررروه (الخامس) تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلاً إذ الكل وإن تواردوا على منهج واحد فلا مستكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه ، أو لا يغفل عن التنبيه ولكن يسهو عن إمراده في الكتب ، أو لا يسهو ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف ؛ فبهذه خواص هذا الكتاب مع كونه حاوياً لمجامع هذه العلوم .

ولأنما حملني على تأسيس هذا الكتاب على أربعة أرباع أمران : أحدهما - وهو الباعث الأصلي - أن هذا الترتيب في التحقيق والتفهم كالضرورة لأن العلم الذي يتوجه به إلى الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة وعلم المكاشفة ، وأغنى

بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط ، وأعنى بعلم المعاملة ما يطلب منه مع الكشف العمل به والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة التي لارخصة في إيداعها الكتب وإن كانت هي غاية مقصد الطالبين ومطعم نظر الصديقين ، وعلم المعاملة طريق إلية ولكن لم يتكلم الانبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا في علم الطريق والإرشاد إلية . وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيماء على سبيل التمثيل والإجمال ، علماً منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال - والعلماء ورثة الانبياء - فما لهم سبيل إلى العدول عن نهج التأسى والاقتداء ثم إن علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر ، أعنى العلم بأعمال الجوارح - وإلى علم باطن - أعنى العلم بأعمال القلوب والجاري على الجوارح إما عادة وإما عبادة ، والوارد على القلوب التي هي بحكم الاحتجاب عن الحواس من عالم الملكوت إما محمود وإما مذموم فبالواجب انقسم هذا العلم إلى شطرين ظاهر وباطن والشرط الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم إلى عادة وعبادة ، والشرط الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم إلى مذموم ومحمود ، فكان المجموع أربعة أقسام ولا يشذ نظر في علم المعاملة عن هذه الأقسام . الباعث الثاني . أني رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة في الفقه الذي صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى المتدرع به إلى المباهاة والاستظهار بجاهه ومنزلته في المنافسات وهو مرتب على أربعة أرباع والمترقي يرى المحبوب محبوب فلم أبعد أن يكون تصوير الكتاب بصورة الفقه تلطفاً في استدراج القلوب ولهذا تلتفت بعض من رام استمالة قلوب الرؤساء إلى الطب فوضعه على هيئة تقويم النجوم موضوعاً في الجداول والرقوم وسماه تقويم الصحة ليكون أنسهم بذلك الجنس جاذباً لهم إلى المطالعة والتلطف في اجتذاب القلوب إلى العلم الذي يفيد حياة الأبد أهم من التلطف في اجتذابها إلى الطب الذي لا يفيد إلا صحة الجسد، فثمرة هذا العلم طب القلوب والأرواح المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد ، فأين منه الطب الذي يعالج به الأجساد وهي معرضة بالضرورة للفساد في أقرب الآماد ؟ فنسأل الله سبحانه التوفيق للرشاد والسداد ، إنه كريم جواد .

كتاب العلم

وفيه سبعة أبواب

(الباب الأول) في فضل العلم والتعليم والتعلم (الباب الثاني) في فرض العين وفرض الكفاية من العلوم وبيان حد الفقه والكلام من علم الدين وبيان علم الآخرة وعلم الدنيا (الباب الثالث) فيما تعدد العامة من علوم الدين وليس منه ، وفيه بيان جنس العلم المذموم وقدره (الباب الرابع) في آفات المناظرة وسبب اشتغال الناس بالخلاف والجدل (الباب الخامس) في آداب المعلم والمتعلم (الباب السادس) في آفات العلم والعلماء والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة (الباب السابع) في العقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار .

الباب الأول

في فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهد من النقل والعقل

فضيلة العلم

شواهد من القرآن قوله عز وجل (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط) فانظر

كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثني بالملائكة وثالث بأهل العلم ؛ وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً وجلاءً ونبلًا . وقال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام . وقال عز وجل ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وقال تعالى ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ وقال تعالى ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به ﴾ تنبيهاً على أنه اقتدر بقوة العلم . وقال عز وجل ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ بين أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم . وقال تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ وذو حكمه في الوقائع إلى استنباطهم والحق رتبته برتبة الأنبياء في كشف حكم الله . وقيل في قوله تعالى ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم - يعنى العلم - وريشاً - يعنى اليقين - ولباس التقوى ﴾ يعنى الحياء . وقال عز وجل ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلنقصن عليهم لعلم ﴾ وقال عز وجل ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ وقال تعالى ﴿ خلق الإنسان عليه البيان ﴾ وإنما ذكر ذلك في معرض الامتحان . وأما الاخبار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده ،^(١) وقال صلى الله عليه وسلم : العلماء ورثة الأنبياء ،^(٢) ، ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الرئاسة لتلك الرتبة . وقال صلى الله عليه وسلم ، يستغفر للعالم ما في السموات والأرض^(٣) وأى منصب يزيد على منصب من تشغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له . وقال صلى الله عليه وسلم : إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً وترفع المملوك حتى يدرك مدارك الملوك^(٤) ، وقد نهى بهذا على ثمراته في الدنيا ، ومعلوم أن الآخرة خير وأبقى . وقال صلى الله عليه وسلم : خصلتان لا يكونان في منافق : حسن سمع وفقه في الدين^(٥) ولا تشكن في الحديث لنفاق بعض فقهاء الزمان ؛ فإنه ما أراد به الفقه الذى ظننته ، وسيأتى معنى الفقه . وأدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا ، وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برئ بها من النفاق والرياء . وقال صلى الله عليه وسلم : أفضل الناس المؤمن العالم الذى إن احتجج إليه نفع وإن استغنى عنه أغنى نفسه^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم^(٧) وقال صلى الله عليه وسلم : أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد : أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل ، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيا فهم

كتاب العلم : الباب الأول

- (١) حديث (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده) متفق عليه من حديث معاوية دون قوله (ويلهمه رشده) وهذه الرواية عند الطبراني في الكبير .
 (٢) حديث (العلماء ورثة الأنبياء) أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي الدرداء .
 (٣) حديث (يستغفر للعالم ما في السموات والأرض) هو بعض حديث أبي الدرداء المتقدم .
 (٤) الحديث (الحكمة تزيد الشريف شرفاً) أخرجه أبو داود في الحلية ، وابن عبد البر في بيان العلم ، وعبد الغنى الأزدى في آداب الحديث من حديث أنس بإسناد ضعيف .
 (٥) حديث (خصلتان لا يجتمعان في منافق . . . الحديث) أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة وقال حديث غريب .
 (٦) حديث (أفضل الناس المؤمن العالم . . . الحديث) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على أبي الدرداء بإسناد ضعيف ولم أره مرفوعاً .
 (٧) حديث (الإيمان عريان . . . الحديث) أخرجه الحاكم في تاريخ نيسابور من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف

على ما جاءت به الرسل (١) . وقال صلى الله عليه وسلم « لموت قبيلة أيسر من موت عالم (٢) » وقال عليه الصلاة والسلام « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من حل من أمتي أربعين حديثاً لقي الله عز وجل يوم القيامة فتيماً عالماً (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « من تفقه في دين الله عز وجل كفاه الله تعالى ما أهله ورزقه من حيث لا يحتسب (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « أوحى الله عز وجل إلى إبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم إني أعلم أحب كل علم (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « العالم أمين الله سبحانه في الأرض (٩) » وقال صلى الله عليه وسلم « صفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس : الأمراء والفقهاء (١٠) » وقال عليه السلام « إذا أتى على يوم لا ازداد فيه علمياً يقربني إلى الله عز وجل فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم (١١) » وقال صلى الله عليه وسلم في تفضيل العلم على العبادة والشهادة « فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي (١٢) » فانظر كيف جعل العلم مقارناً لدرجة النبوة وكيف حط رتبة العمل المجتهد عن العلم وإن كان العابد لا يتعلم عن علم بالعبادة التي يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب (١٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء (١٤) » فأعظم بمرتبة هي تلوان النبوة وفوق الشهادة مع ما ورد في فضل الشهادة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما عبد الله تعالى بشيء أفضل من فقه في الدين ، وفقه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه (١٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « خير دينكم أيسره وخير العبادة الفقه (١٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « فضل المؤمن العالم على

- (١) حديث « أقرب الناس من درجة السوة أهل العلم والجهاد ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في فصل العالم العفيف من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (٢) حديث « لموت قبيلة أيسر من موت عالم » أخرجه الضراي وابن عبد البر من حديث أبي الدرداء ، وأصل الحديث عند أبي الدرداء (٣) حديث « الناس معادن ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .
- (٤) حديث « يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء » أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف .
- (٥) حديث « من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة » أخرجه ابن عبد البر في العلم من حديث ابن عمر وضعفه (٦) حديث « من حل من أمتي أربعين حديثاً لقي الله يوم القيامة فتيماً عالماً » أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس وضعفه (٧) حديث « من تفقه في دين الله كفاه الله همه .. الحديث » رواه الخطيب في التاريخ من حديث عبد الله بن جزء الرندي بإسناد ضعيف (٨) حديث « أوحى الله إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن عليهما أحب كل علم » ذكره ابن عبد البر تعليلاً ولم يلق له بإسناد (٩) حديث « العالم أمين الله في الأرض » أخرجه ابن عبد البر من حديث معاذ بسند ضعيف (١٠) حديث « صفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس .. الحديث » أخرجه ابن عبد البر وأبو نعيم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (١١) حديث « إذا أتى على يوم لا ازداد فيه علمياً يقربني ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية وابن عبد البر في العلم من حديث عائشة بإسناد ضعيف (١٢) حديث « فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن صحيح (١٣) حديث « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان ، وهو قطعة من حديث أبي الدرداء المتقدم (١٤) حديث « يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » رواه ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان بإسناد ضعيف (١٥) حديث « ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين ... الحديث » رواه الطبراني في الأوسط ، وأبو بكر الأيجري في كتاب فضل العلم ، وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف . وعند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند ضعيف « فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد » (١٦) حديث « خير دينكم أيسره وأفضل العبادة الفقه » أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف ، والشطر الأول عد أحمد من حديث محمد بن ابن الأدرع بإسناد جيد ، والشطر الثاني عند الطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف

المؤمن العابد بسبعين درجة (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إنكم أصبحتم في زمن كثير فقهاؤه قليل قرائه وحطباؤه قليل سائلوه كثير معطوه ، العمل فيه خير من العلم . وسأقى على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه قليل معطوه كثير سائلوه ، العلم فيه خير من العمل (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضرا الجواد المضمهر سبعين سنة (٣) ، وقيل : يا رسول الله ، أى الأعمال أفضل ؟ فقال ، العلم بالله عز وجل ، فقبل : أى العلم تريد ؟ قال صلى الله عليه وسلم : العلم بالله سبحانه ، فقيل له : نسأل عن العمل وتحبيب العلم ! فقال صلى الله عليه وسلم : إن قليل العمل ينفع مع العلم بالله ، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل بالله (٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يبعث الله سبحانه العاد يوم القيامة ثم يبعث العلماء ثم يقول : يا معشر العلماء ، إنى لم أضع علمى فيكم إلا لعلى بكم ولم أضع علمى فيكم لأعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم (٥) ، نسأل الله حسن الخاتمة . وأما الآثار فقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لكيل : يا كميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه الثقة ، والعلم يركو بالإنفاق . وقال على أيضا رضى الله عنه : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلثة لا يسدها إلا خلف منه وقال رضى الله عنه نطما :

ما الفجر إلا لأهل العلم لهم على الهدى لمن استهدى أدلاء

وقدر كل امرئ ما كان يحسه والجاهلون لأهل العلم أعداء

ففر بعلم تعيش حيا به أبدا الناس مرقى وأهل العلم أحياء

وقال أبو الأسود : ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خير سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه ، وسئل ابن المبارك : من الناس ؟ فقال : العلماء . قيل : فن الملوك ؟ قال : الزهاد . قيل : فن السفلة ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين ولم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم ؛ فالإنسان لإنسان بما هو شريف لأجله ، وليس ذلك بقوة شخصه ، فان أجل أقوى منه ، ولا بعظمه فإن الفيل أعظم منه ، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه ، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطناً منه ، ولا ليجمع فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه ، بل لم يخلق إلا للعلم . وقال بعض العلماء : ليت شعري أى شيء أدرك من فاته العلم ، وأى شيء فاته من أدرك العلم . وقال عليه الصلاة والسلام : من أوتي القرآن فرأى أن أحدا أوتي خيراً منه فقد حقر ما عظم الله تعالى ، وقال فتح الموصلى رحمه الله : أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت ؟ قالوا : بلى قال : كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت . ولقد صدق فإن غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته ، كما أن غذاء الجسد الطعام ، ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لا يشعر به ؛ إذ حب الدنيا

(١) حديث (فصل المؤمن الدائم على المؤمن العابد بسبعين درجة) . أخرجه ابن عدى من حديث أبى هريرة بإسناد ضعيف ولا يلى إلى نحوه من حديث عبد البر بن عوف . (٢) حديث (إنكم أصبحتم في زمان كثير فقهاؤه... الحديث) أخرجه الطبراني من حديث حزام بن حكيم عن عمه ، وقيل عن أبيه وإسناده ضعيف . (٣) حديث (بين العالم والعابد مائة درجة) الأصبهاني في الترغيب والترهيب من حديث ابن عمر عن أبيه وقال (سبعون درجة) بسند ضعيف ، وكذا رواه صاحب مسند الفردوس من حديث أبى هريرة . (٤) حديث (قيل يا رسول الله أى الأعمال أفضل فقال العلم بالله...) الحديث أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف . (٥) حديث (يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء...) الحديث رواه الطبراني من حديث أبى موسى بسند ضعيف .

وشغله بها أبطل إحساسه ؛ كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح في الحال وإن كان واقعا ؛ فإذا حط الموت عنه أعباء الدنيا أحس بهلاكه وتحسر تحسراً عظيماً لا ينفعه وذلك كإحساس الآمن خوفاً والمفتيق من سكره بما أصابه من الجراحات في حالة السكر أو الخوف ، فعوذ بالله من يوم كشف الغطاء فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا . وقال الحسن رحمه الله : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ورفعته موت رواته ، فوالذي نفسى بيده ليودنّ رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم ، فإن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها ، وكذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه وأحمد بن حنبل رحمه الله . وقال الحسن في قوله تعالى ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ إن الحسنة في الدنيا هي العلم والعبادة ، وفي الآخرة هي الجنة . وقيل لبعض الحكماء : أى الأشياء تقتنى ؟ قال : الأشياء التي إذا غرقت سفينتك سبحت معك ، يعنى العلم وقيل . أراد بغرق السفينة هلاك بدنه بالموت . وقال بعضهم : من اتخذ الحكمة لجأماً اتخذها الناس إماماً ، ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار . وقال الشافعى رحمه الله عليه : من شرف العلم أن كل من نسب إليه ولو في شيء حقير فرح ، ومن رفع عنه حزن . وقال عمر رضي الله عنه : يا أيها الناس عليكم بالعلم فإن الله سبحانه رداه يحبه ، فمن طلب باباً من العلم رداه الله عز وجل رداً ، فإن أذنب ذنباً استعته ثلاث مرات ثلثا يسلبه رداه ذلك وإن تطاول به ذلك الذنب حتى يموت . وقال الأحنف رحمه الله : كاد العلماء أن يكونوا أرباباً وكل عز لم يوطد بعلم فألى ذل مصيره . وقال سالم بن أبي الحمد : اشتراى مولاي بثلاثمائة درهم وأعقتنى ، فقلت بأى شيء أحترف ؟ فاحترفت بالعلم فامت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائراً فلم أذن له . وقال الزبير بن أبي بكر : كتب إلى أبي بالعراق : عليك بالعلم فإنك إن افتقرت كان لك مالا ، وإن استغنيت كان لك جمالا . وحكى ذلك في وصايا لقمان لابنه قال : يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن الله سبحانه يحبي القلوب بنور الحكمة كما يحبي الأرض بوابل السماء . وقال بعض الحكماء : إذا مات العالم بكاه الحوت في الماء والطير في الهواء ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره . وقال الزهرى رحمه الله : العلم ذكر ولا تحبه إلا ذكراً الرجال .

فضيلة التعلم

أما الآيات فقوله تعالى ﴿ فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ﴾ وقوله عز وجل ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم : من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا وما فيها ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : اطلبوا العلم

(١) حديث (عن مالك طريقاً يطلب فيه علماً ... الحديث) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث صفوان بن عسال (٣) حديث (لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة) أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي ذر وليس له سند به ، والحديث عند ابن ماجه بلفظ آخر (٤) حديث (باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا) أخرجه ابن حبان في روضة القلاء ، وابن عبد البر موقوفاً على الحسن البصري ، ولم أره مرفوعاً إلا بلفظ (خير له من مائة ركعة) رواه الطبراني في الأوسط بسند ضيف من حديث أبي ذر

ولو بالصين^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، وقال عليه الصلاة والسلام « العلم خزان مفاتيحها السؤال ، ألا فاسألوا فإنه يؤجر فيه أربعة . السائل والعالم والمستمع والمحب لهم »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه »^(٣) ، وفي حديث أبي ذر رضى الله عنه « حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة وعيادة ألف مريض وشهود ألف جنازة ، فقيل يا رسول الله ، ومن قراءة القرآن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « وهل ينفع القرآن إلا بالعلم ؟ »^(٤) ، وقال عليه الصلاة والسلام « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام فينبه بين الأنبياء في الجنة درجة واحدة »^(٥) ، وأما الآثار فقال ابن عباس رضى الله عنهما ذلك طالبا فعرزت مطلوباً . وكذلك قال ابن أبي مليكة رحمه الله : ما رأيت مثل ابن عباس ، إذا رأيته رأيت أحسن الناس وجها . وإذا تكلم فأعرب الناس لسانا وإذا أفتى فأكثر الناس علما . وقال ابن المبارك رحمه الله : عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة ؟ وقال بعض الحكماء : إني لا أرحم رجلا كرحتي لأحد رجلين : رجل يطلب العلم ولا يفهم ، ورجل يفهم العلم ولا يطلبه . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : لأن أتعلم مسألة أحب إلى من قيام ليلة . وقال أيضا : كن عالما أو متعلما أو مستمعا ولا تكن الرابع فتهلك . وقال عطاء : مجلس علم يكفر سبعين مجلساً من مجالس اللهو . وقال عمر رضى الله عنه : موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . وقال الشافعى رضى الله عنه : طلب العلم أفضل من النافلة . وقال ابن عبد الحكم رحمه الله : كنت عندما لك أقرأ عليه العلم فدخل الظهر فجمعت الكتب لأصلي فقال : يا هذا ما الذى قمت إليه بأفضل مما كنت فيه إذا صحت النية . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : من رأى أن الغدق إلى طلب العلم ليس بجهد فقد نقص في رأيه وعقله .

فضيلة التعليم

أما الآيات فقوله عز وجل : ﴿ ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ والمراد هو التعليم والإرشاد . وقوله تعالى ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليديننه للناس ولا يكتمونه ﴾ وهو إيجاب للتعليم . وقوله تعالى ﴿ وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ وهو تحريم للكتمان كما قال تعالى في الشهادة ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « ما آتى الله عالما علما إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه »^(٦) ، وقال تعالى ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ﴾ وقال تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ وقال تعالى ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً رضى الله عنه إلى اليمن « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها »^(٧)

(١) حديث « اطلبوا العلم ولو بالصين » أخرجه ابن عدى والبيهقى في المدخل والشعب من حديث أنس ، وقال البيهقى : متنه مشهور وأسانيده ضعيفة . (٢) حديث (العلم خزان مفاتيحها السؤال ... الحديث) رواه أبو نعم من حديث علي سرفوعا بإسناد صحيح . (٣) حديث « لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله » أخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه في التفسير وإن السنن وأبو نعم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف . (٤) حديث أبي ذر (حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ... الحديث) ذكره ابن الجوزى في الموضوعات من حديث عمر ولم أجده من طريق أبي ذر . (٥) حديث « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ... الحديث » أخرجه الداريمى وابن السنن في رياضة المتعلمين من حديث الحسن ، وقيل : هو ابن علي ، وقيل : هو ابن يسار البصرى مرسل . (٦) حديث « ما آتى الله عالما علما إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين ... الحديث » أخرجه أبو نعم في فضل العالم العفيف من حديث ابن مسعود بنحوه ، وفي الخلفيات نحوه من حديث أبي هريرة . (٧) حديث قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث معاذ ، وفي الصحيحين من حديث سهل ابن سعد أنه قال ذلك لعل

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : من تعلم باباً من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صديقاً ^(١) ، وقال عيسى صلى الله عليه وسلم : من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السموات . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم القيامة يقول الله سبحانه للعابدين والمجاهدين : ادخلوا الجنة ، فيقول العلماء بفضل علمنا تعبدوا وجاهدوا ، فيقول الله عز وجل : أنتم عندي كبعض ملائكتي اشفعوا تشفعوا فيشفعون ثم يدخلون الجنة ^(٢) ، وهذا إنما يكون بالعلم المتعدي بالتعليم لا العلم اللازم الذي لا يتعدى . وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل لا ينتزع العلم انتزاعاً من الناس بعد أن يؤتيهم إياه ولكن يذهب بذهاب العلماء ، فكلم ذهاب عالم ذهب بما معه من العلم ، حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالا إن سئلوا أفتوا بغير علم فيضلون ويضلون ^(٣) . وقال صلى الله عليه وسلم : من علم علماً فكتبه الله يوم القيامة بلجام من نار ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : نعم العطية ونعم الهدية كلمة تسمعها فتطوى عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله سبحانه وما والاها أو معلماً أو متعلماً ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملة في جحرها حتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن بلغه فبلغه ^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : كلمة من الخير يسمعها المؤمن فيعملها ويعمل بها خير له من عبادة سنة ^(٩) ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه والثاني يعدلون الناس ، فقال : أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعدلون الناس وإنما بعثت معلماً ثم عدل إليهم وجلس معهم ^(١٠) ، وقال صلى الله عليه وسلم : مثل ما بعثني الله عز وجل به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله عز وجل بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وكانت منها طائفة قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ^(١١) ، اهـ ، فالأول ذكره مثلاً للبتفع بعلمه ، والثاني ذكره مثلاً للنافع ، والثالث ذكره للحروم منها

(١) حديث « من تعلم باباً من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صديقاً » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٢) حديث « إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للمجاهدين والمجاهدين ادخلوا الجنة ... الحديث » أخرجه أبو العباس الذهبي في العلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٣) حديث « إن الله لا ينتزع العلم انتزاعاً من الناس ... الحديث » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو (٤) حديث « من علم علماً فكتبه الله يوم القيامة بلجام من نار » رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة ، قال الترمذي : حديث حسن (٥) حديث « نعم العطية ونعم الهدية كلمة تسمعها فتطوى عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة » حديث (٦) حديث « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ... الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة ، قال الترمذي حسن غريب . (٧) حديث « إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر يصلون على معلم الناس الخير » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال غريب ، وفي نسخة : حسن صحيح (٨) حديث « ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن .. الحديث » أخرجه ابن عبد البر من رواية محمد بن المنكدر مرسل نحوه ، ولا يقيم من حديث عبد الله بن عمرو « ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة ترديه هدى أو ترده عن ردى » (٩) حديث « كلمة من الحكمة يسمعها المؤمن يعمل بها ويعلمها ... الحديث » أخرجه ابن المبارك في الرهد والرفائق من رواية زيد بن أسلم مرسل نحوه ، وفي مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف « كلمة حكمة يسمعها الرجل خير له من عبادة سنة » (١٠) حديث : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله ... الحديث : أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف . (١١) حديث « مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي موسى

وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به ^(١) الحديث ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الدال على الخير كفاعله ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم : « لاحسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله عز وجل حكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس ، ورجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الخير ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم : « على خلفائي رحمة الله » قيل : ومن خلفائك ؟ قال : « الذين يحيون سنتي ويعلمونها عباد الله ^(٤) » ، وأما الآثار فقد قال عمر رضي الله عنه : من حدث حديثا فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك للصلي . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « مسلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر . وقال بعض العلماء : « العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه فليحظر كيف يدخل . وروى أن سفيان الثوري رحمه الله قدم عسقلان فكك لايسأله لإنسان ، فقال : « اكرؤا لي لأخرج من هذا البلد ، هذا بلد يموت فيه العلم . وإنما قال ذلك حرصاً على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به وقال عطاء رضي الله عنه : دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكي ، فقلت : ما بك ؟ قال : ليس أحد يسألني عن شيء . وقال بعضهم : العلماء سرج الأزمنة ، كل واحد مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره . وقال الحسن رحمه الله : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم : أي أهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية . وقال عكرمة : « إن لهذا العلم ثمنا . قيل وما هو ؟ قال : أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه . وقال يحيى بن معاذ : العلماء أرحم بأمة محمد صلى الله عليه وسلم من آبائهم وأمهاتهم . قيل : وكيف ذلك ؟ قال لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة . وقيل : أول العلم الصمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره . وقيل : علم علك من يحل وتعلم من يعلم ماتجهل ؛ فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت . وقال معاذ بن جبل في التعليم والتعلم ورأيت أيضاً رفوعاً : « تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قرينة ، وهو الأنيس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبر على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة ، يقتدى بهم ، أدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلقتهم وبأجنحتهم تمسحهم ، وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها ^(٥) » ، لأن العلم حياة القلوب من العمى . ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، والتفكير فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله عز وجل وبه يعبد ، وبه يوحد وبه يمجّد ، وبه يتورع ، وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء . نسأل الله تعالى حسن التوفيق .

(١) حديث (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ... الحديث) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث (الدال على الخير كفاعله) أخرجه الترمذى من حديث أنس وقال غريب . ورواه مسلم وأبو داود والترمذى وصححه عن أبي مسعود البدرى باللفظ (من دل على خير فله مثل أجر فاعله) (٣) حديث (لاحسد إلا في اثنتين ... الحديث)

متفق عليه من حديث ابن مسعود (٤) حديث (على خلفائي رحمة الله ... الحديث) رواه ابن عبد البر في العلم ، والهروى في ذم الكلام من حديث الحسن ، فقيل هو ابن علي وقيل ابن يسار المصري فيكون مراسلاً ، وابن السنن وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث علي بن عوف . (٥) حديث معاذ (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة .. الحديث بطوله) رواه

أبو الشيخ ابن جبان في كتاب الثواب ، وابن عبد البر وقال : ليس له إحدان قوى

في الشواهد العقلية

اعلم أن المطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم ونفاسته ، ومالم تفهم الفضيلة في نفسها ولم يتحقق المراد منها لم يمكن أن تعلم وجودها صفة للعلم أو لغيره من الخصال ، فلقد ضل عن الطريق من طمع أن يعرف أن زيدا حكيم أم لا ، وهو لعدم يفهم معنى الحكمة وحقيقتها . والفضيلة مأخوذة من الفضل وهي الزيادة ؛ فإذا تشارك شيان في أمر واختص أحدهما بمزيد يقال فضله وله الفضل عليه مهما كانت زيادته فيما هو كال ذلك الشيء كما يقال : الفرس أفضل من الخمار بمعنى أنه يشاركه في قوة الحمل ويزيد عليه بقوة الكثر والفرّ وشدة العدو وحسن الصورة ، فلو حرص حمار اختص سلعة زائدة لم يقل إنه أفضل ؛ لأن تلك زيادة في الجسم ونقصان في المعنى وليست من الكمال في شيء ، والحيوان مطلوب لمعناه وصفاته لجسمه ؛ فإذا فهمت هذا لم يخف عليك أن العلم فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الأوصاف ، كما أن للفرس فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الحيوانات ؛ بل شدة العدو فضيلة في الفرس وليست فضيلة على الإطلاق ، والعلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة ؛ فإنه وصف كمال الله سبحانه وبه شرف الملائكة والأنبياء ، بل الكيس من الخيل خير من البليد فهو فضيلة على الإطلاق من غير إضافة . واعلم أن الشيء الفيس المرغوب فيه ينقسم إلى ما يطلب لغيره ، وإلى ما يطلب لذاته ، وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعا فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره ، والمطلوب لغيره : الدراهم والدنانير فإنهما حيران لامنفعة لهما ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى يسر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء بمثابة واحدة . والذي يطلب لذاته : فالسعادة في الآخرة ولذة النظر لوجه الله تعالى . والذي يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن ، فإن سلامة الرجل مثلا مطلوبة من حيث إنها سلامة للبدن عن الألم ومطلوبة للشيء والتوصل إلى المآرب والحاجات ، وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيته لذينا في نفسه فيكون مطلوبا لذاته ، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى ولا يتوصل إليه إلا به ، وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل ، فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال ، وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشيء أيضا بشرف ثمرته ؛ وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين والالتحاق بأفق الملائكة ومقارنة الملائكة الأعلى ، هذا في الآخرة وأما في الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام في الطباع حتى إن أغبياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة بل البهيمة بطبعها توقر الإنسان لشعورها بتميز الإنسان بكمال مجاوز لدرجتها : هذه فضيلة العلم مطلقا ثم تختلف العلوم كما سيأتي بيانه وتفاوت لا محالة فضائلها بتفاوتها . وأما فضيلة التعليم والتعلم فظاهرة مما ذكرناه ، فإن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلبا للأفضل فكان تعليمه إفادة للأفضل ، وبيانه أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا ، فإن الدنيا مزرعة الآخرة وهي الآلة الموصلة إلى الله عز وجل لمن اتخذها آلة ومنزلا لمن اتخذها مستقرا ووطنا ؛ وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين . وأعمالهم وحرفهم وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام :

(أحدها) أصول لأقوام لا عالم دونها ، وهي أربعة : الزراعة ، وهي للطعام . والحياكة ، وهي لللبس . والبناء ،

وهو للسكن . والسياسة ، وهى للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها .
(الثانى) ماهى مهية لكل واحدة من هذه الصناعات وخدمة لها : كالحداثة فإنها تخدم الزراعة وجملة من الصناعات بإعداد آلاتها كالحلاجة والغزل فإنها تخدم الحياكة بإعداد عملها .

(الثالث) ماهى متممة للأصول ومزينة ، كالطحن والخبز للزراعة ؛ وكالفصارة والخياطة للحياكة ؛ وذلك بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضى مثل أجزاء الشخص بالإضافة إلى جملة فإنها ثلاثة أضرب أيضا : إما أصول كالقلب والكبد والدماغ ؛ وإما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين والأعصاب والأوردة ، وإما مكمل لها ومزينة كالأظفار والأصابع والحاجبين ، وأشرف هذه الصناعات أصولها ، وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح ولذلك تستدعى هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها مالا يستدعى سائر الصناعات ، ولذلك يستخدم لأمحالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناعات والسياسة في استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجى فى الدنيا والآخرة على أربع مراتب : الأولى - وهى العليا : سياسة الأنبياء عليهم السلام وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً فى ظاهريهم وباطنيهم . والثانية : الخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً ولكن على ظاهريهم لا على باطنيهم . والثالثة : العلماء بالله عز وجل وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء ، وحكمهم على باطن الخاصة فقط ، ولا يرتفع فهم العامة على الاستفادة منهم ولا تنتهى قوتهم إلى التصرف فى ظاهريهم بالإلزام والمنع والشرع .

والرابعة : الوعاظ وحكمهم على بواطن العوام فقط ؛ فأشرف هذه الصناعات الأربع بعد النبوة لإفادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهنكة وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة وهو المراد بالتعليم ؛ وإنما قلنا إن هذا أفضل من سائر الحرف والصناعات لأن شرف الصناعات يعرف بثلاثة أمور : إما بالالتفات إلى الغريزة التى بها يتوصل إلى معرفتها كفضل العقول العقلية على اللغوية : إذ تدرك الحكمة بالعقل ، واللغة بالسمع ، والعقل أشرف من السمع ؛ وإما بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة ، وإما بملاحظة المحل الذى فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة : إذ محل أحدهما الذهب ومحل الآخر جلد الميتة ؛ وليس يخفى أن العلوم الدينية وهى فقه طريق الآخرة إنما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء ، والعقل أشرف صفات الإنسان كما سيأتى بيانه ؛ إذ به تقبل أمانة الله ، وبه يتوصل إلى جوار الله سبحانه . وأما عموم النفع فلا يستراب فيه فإن نفعه وثمرته سعادة الآخرة . وأما شرف المحل فكيف يخفى والمعلم متصرف فى قلوب البشر ونفوسهم ، وأشرف موجود على الأرض جنس الإنس وأشرف جزء من جواهر الإنسان قلبه ، والمعلم مشغول بتكيله وتجليته وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عز وجل ، فتعليم العلم من وجه : عبادة الله تعالى ، ومن وجه خلافة الله تعالى ، وهو من أجل خلافة الله ؛ فإن الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم الذى هو أخص صفاته . فهو كالحازن لأنفس خزائنه ؛ ثم هو مأذون له فى الإنفاق منه على كل محتاج إليه ؛ فأى رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وبين خلقه فى تقريبهم إلى الله زلفى وسياقتهم إلى جنة المأوى ، جعلنا الله منهم بكرمه ؛ وصلى الله على كل عبد مصطفى .

الباب الثانى

فى العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما

وفيه بيان ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية ، وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أى حد هو وتفضيل علم الآخرة .

بيان العلم الذى هو فرض عين : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : اطلبوا العلم ولو بالصين ، واختلف الناس فى العلم الذى هو فرض على كل مسلم ، ففتروا فيه أكثر من عشرين فرقة ، ولا نطيل بنقل التفصيل ، ولكن حاصله أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذى هو بصدده ، فقال المتكلمون : هو علم الكلام ، إذ به يدرك التوحيد ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته ، وقال الفقهاء : هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل ، وضوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة ، وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة ، إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها . وقال المتصوفة : المراد به هذا العلم ، فقال بعضهم : هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل . وقال بعضهم : هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان . وقال بعضهم : هو علم الباطن ، وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك وصرفوا اللفظ عن عومه . وقال أبو طالب المكي : هو العلم بما يتضمنه الحديث الذى فيه مباني الإسلام ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ^(١) ، إلى آخر الحديث ، لأن الواجب هذه الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها وبكيفية الوجوب . والذى ينبغى أن يقطع به المحصل ولا يستريب فيه ما سذكره : وهو أن العلم كما قدمناه فى خطبة الكتاب ينقسم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة ، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة . والمعاملة التى كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة : اعتقاد ، وفعل ، وترك ؛ فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السنّ ضحوة نهار مثلاً فأول واجب عليه تعلم كلتي الشهادة وفهم معناهما وهو قول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وليس يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة ، بل يكفيه أن يصدق به ويعتقده جزماً من غير اختلاج ريب واضطراب نفس ، وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان ؛ إذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل ^(٢) . فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت وكان العلم الذى هو فرض عين عليه فى الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما ، وليس يلزمه أمر ورأه هذا فى الوقت ، بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعاً لله عز وجل غير عاص له ، وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض وليس ذلك ضرورياً فى حق كل شخص بل يتصور الانفكاك وتلك العوارض إما أن تكون فى الفعل وإما فى الترك وإما فى الاعتقاد . أما الفعل : فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة ، فإن كان صحيحاً وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل فى الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم ، فلا يبعد أن يقال : الظاهر بقاؤه فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت . ويمتثل أن يقال : وجوب العلم الذى هو شرط العمل بعد وجوب العمل فلا يجب قبل الزوال ، وهكذا فى بقية الصلوات فإن عاش إلى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم : وهو أن وقته من الصبح إلى غروب الشمس ؛ وأن الواجب فيه النية والإمساك عن الأكل والشرب والوقوع ، وأن ذلك يتهدى إلى رؤية الهلال أو شاهدين ؛ فإن تجدد له مال أو كان له مال عند بلوغه لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة ، ولكن لا يلزمه فى الحال إنما يلزمه عند

الباب الثانى

(١) حديث (بنى الإسلام على خمس ... الحديث) متفق عليه من حديث ابن عمر (٢) حديث : اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل : مشهور فى كتب السير والحديث ؛ فعند مسلم قصة صمام بن ثعلبة .

تمام الحول من وقت الإسلام ؛ فإن لم يملك إلا الإبل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإبل ، وكذلك في سائر الأصناف ، فإذا دخل في أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة إلى علم الحج مع أن فعله على التراخي فلا يكون تعلمه على الفور ، ولكن ينبغي لعلماء الإسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخي على كل من ملك الزاد والراحلة إذا كان هو مالكا حتى ربما يرى الحزم لنفسه في المبادرة فعند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله ، فإن فعل ذلك نفل فعليه أيضاً نفل فلا يكون تعلمه فرض عين وفي تحريم السكوت عن التنبيه على وجوب أصل الحج في الحال نظر يليق بالفقه ، وهكذا التدريج في علم سائر الأفعال التي هي فرض عين . وأما التروك فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال ، وذلك يختلف بحال الشخص إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام ، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر ، ولا على البدوى تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن ، فذلك أيضاً واجب بحسب ما يقتضيه الحال ، فما يعلم أنه ينفك عنه لا يجب تعلمه وما هو ملابس له يجب تنبيهه عليه كما لو كان عند الإسلام لا بساً للحريز ، أو جالساً في الغصب ، أو ناظراً إلى غير ذى محرم ، فيجب تعريفه بذلك وما ليس ملابساً له ولكنه يصدد التعرض له على القرب كالأكل والشرب فيجب تعليمه ، حتى إذا كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه ، وما وجب تعليمه وجب عليه تعلمه . وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب عليها بحسب الخواطر ، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك . فإن لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يستفد أن كلام الله سبحانه قديم وأنه مرئي وأنه ليس محلاً للحوادث إلى غير ذلك مما يذكر في المعتقدات ، فقد مات على الإسلام إجماعاً ، ولكن هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع وبعضها يخطر بالسماع من أهل البلد ، فإن كان في بلد شاع فيه الكلام وتناطق الناس بالبدع فينبغي أن يصاب في أول بلوغه عنها بتلقي الحق ، فإنه لو ألقى إليه الباطل لوجب لإزائته عن قلبه وربما عسر ذلك ، كما أنه لو كان هذا المسلم تاجراً وقد شاع في البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربا ، وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين ومناه العلم بكيفية العمل الواجب ، فن علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرض عين ، وما ذكره الصوفية من فهم خواطر العدو ومة الملك حق أيضاً ولكن في حق من يتصدى له ، فإذا كان الغالب أن الإنسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد فيلزمه أن يتعلم من علم ربح المهلكات ما يرى نفسه محتاجاً إليه ، وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، ^(١) ولا ينفك عنها بشر ، وبقية ما سنده من مذمومات أحوال القلب كالكبر والعجب وأخواتها تتبع هذه الثلاث المهلكات ، ولزائتها فرض عين ، ولا يمكن إزالتها إلا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ومعرفة علاماتها ومعرفة علاجها ؛ فإن من لا يعرف الشر يقع فيه ، والعلاج هو مقابلة السبب بضده ، وكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبب ، وأكثر ما ذكرناه في ربح المهلكات من فروض الأعيان ، وقد تركها الناس كافة اشتغالا بما لا يعني . ومما ينبغي أن يسادر في إلقائه إليه إذا لم يكن قد انتقل عن ملة إلى ملة أخرى : الإيمان بالجنة والنار والحشر والنشر حتى يؤمن به ويصدق ، وهو من تنمة كلمتي الشهادة ، فإنه بعد التصديق بكونه عليه السلام رسولا

(١) حديث (ثلاث مهلكات : شح مطاع ... الحديث) أخرجه البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث

أنس بإسناد ضعيف

ينبغي أن يفهم الرسالة التي هو مبلغها : وهو أن أطاع الله ورسوله فله الجنة ، ومن عصاها فله النار ، فإذا انتبهت لهذا التدرج علمت أن المذهب الحق هو هذا ، وتحققت أن كل عبد هو في مجارى أحواله في يومه وليلته لا يخلو من وقائع في عبادته ومعاملاته عن تجدد لوازم عليه فيلزمه السؤال عن كل ما يقع له من التوارد ويلزمه المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالباً ؛ فإذا تبين أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بالعلم المعروف بالآلاف واللام في قوله صلى الله عليه وسلم ؛ طلب العلم فريضة على كل مسلم ؛ علم العمل الذي هو مشهور الوجوب على المسلمين لا غير ؛ فقد اتضح وجه التدرج ووقت وجوبه ، والله أعلم .

بيان العلم الذي هو فرض كفاية

اعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم والعلوم بالإضافة إلى الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية ؛ وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب ، ولا التجربة مثل الطب ، ولا السماع مثل اللغة : فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح ، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة : أما فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب ، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان . وكالحساب ؛ فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والموارث وغيرهما . وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عن يقوم بها خرج أهل البلد . وإذا قام بها واحد كفي وسقط الفرض عن الآخرين . فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالزراعة والحياكة والسياسة بل الحياطة . فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وخرجوا بتعرضهم أنفسهم للهلاك . فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه . فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله . وأما ما يعد فضيلة لأفريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه . ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه . وأما المذموم فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبة والتليسات . وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التي لا تنفع فيها . وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه .

أما العلوم الشرعية وهي المقصودة بالبيان : فهي محمودة كلها ولكن قد يلتبس بها ما يخلن أنها شرعية وتكون مذمومة فتقسم إلى المحمودة والمذمومة . أما المحمودة فلها أصول وفروع ومقدمات ومتممات وهي أربعة أضرب (الضرب الأول) الأصول : وهي أربعة كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله عليه السلام وإجماع الأمة وآثار الصحابة والإجماع أصل من حيث إنه يدل على السنة فهو أصل في الدرجة الثالثة . وكذا الآثار فإنه أيضاً يدل على السنة . لأن الصحابة رضي الله عنهم قد شاهدوا الوحي والتنزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم عيانه وربما لا تحيط العبارات بما أدرك بالقرائن . فن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتسك بآثارهم وذلك بشرط مخصوص على وجه مخصوص عند من يراه ولا يليق بيانه بهذا الفن (الضرب الثاني) الفروع : وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبه لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره كما فهم من قوله عليه السلام لا يقضى القاضي وهو غضبان ^(١) ، أنه لا يقضى إذا كان خائفاً أو جائعاً أو متألماً بمرض .

(١) حديث (لا يقضى القاضي وهو غضبان) متفق عليه من حديث أبي بكر .

وهذا على ضربين : أحدهما : يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه والمتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا . والثاني : ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه الحمودة والمذمومة وما هو مرضى عند الله تعالى ، وما هو مكروه وهو الذي يحويه الشطر الأخير من هذا الكتاب ، أعني جملة كتاب إحياء علوم الدين ، ومنه العلم بما يترشح من القلب على الجوارح في عباداتها وعاداتها ، وهو الذي يحويه الشطر الأول من هذا الكتاب . (والضرب الثالث) المقدمات ، وهي التي تجرى منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو ؛ فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما ، ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع لإذجات هذه الشريعة بلغة العرب وكل شريعة لا تظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة ومن الآلات علم كتابة الخط إلا أن ذلك ليس ضرورياً إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) أمياً . ولو تصور استقلال الحفظ بجميع ما يسمع لاستغنى عن الكتابة ، ولكنه صار يحكم العجز في الغالب ضرورياً (الضرب الرابع) المتمات : وذلك في علم القرآن ؛ فإنه ينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير ؛ فإن اعتياده أيضاً على النقل ، إذ اللغة بمجرد ما تستقل به وإلى ما يتعلق بأحكامه كعرفة الناسخ والمنسوخ والعامة والخاص والنص والظاهر . وكيفية استعمال البعض منه مع البعض ، وهو العلم الذي يسمى أصول الفقه ويتناول السنة أيضاً . وأما المتمات في الآثار والأخبار فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم وأسماء الصحابة وصفاتهم ، والعلم بالعدالة في الرواة ، والعلم بأحوالهم ليميز الضعيف عن القوي ، والعلم بأعمارهم ليميز المرسل عن المسند وكذلك ما يتعلق به ؛ فهذه هي العلوم الشرعية وكلها محمودة بل كلها من فروض الكفايات . فإن قلت : لم ألحق الفقه بعلم الدنيا ؟ فاعلم أن الله عز وجل أخرج آدم عليه السلام من التراب وأخرج ذريته من سلاله من طين ومن ماء دافق ، فأخرجهم من الأضلاب إلى الأرحام ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى العرض ثم إلى الجنة أو إلى النار ؛ فهذا مبدئهم وهذا غايتهم وهذه منازلهم . وخلق الدنيا زاداً للعباد ليتناول منها ما يصلح للزود ؛ فلو تناولوها بالعدل لانقطع الخصومات وتعطل الفقهاء ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات فست الحاجة إلى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به ؛ فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات ؛ فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا ، ولعمري إنه متعلق أيضاً بالدين . لكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا ؛ فإن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا يتم الدين إلا بالدنيا . والملك والدين توأمان ؛ فالدين أصل والسلطان حارس ، وما لأصل له فهدوم ، وما لحارس له فضائع ، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان وطريق الضبط في فصل الحكومات بالفقه . وكما أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين في الدرجة الأولى ؛ بل هو معين على ما لا يتم الدين إلا به ، فكذلك موقفة طريق السياسة فعلوم أن الحج لا يتم إلا ببذرة تحرس من العرب في الطريق ولكن الحج شيء وسلوك الطريق إلى الحج شيء ثان ، والقيام بالحراسة التي لا يتم الحج إلا بها شيء ثالث ، ومعرفة طرق الحراسة وحيلها وقوانينها شيء رابع ، وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة ويدل على ذلك ما روى مسنداً لا يفتي الناس إلا ثلاثة : أمير أو مأمور

(١) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً : أي لا يحسن الكتابة : أخرجه ابن مردويه في التفسير من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً « أنا محمد بن أبي الأعمى » وفيه ابن لهيعة ، ولأن جابن والدارقطني والحاكم والبيهقي وصححه من حديث ابن مسعود « قولوا اللهم صل على محمد النبي الأعمى » والبخاري من حديث البراء « وأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب » .

أو متكلف^(١) ، فالأمير هو الإمام وقد كانوا هم المفتون ، والمأمور نائبه ، والمتكلف غيرهما : وهو الذي يتقصد تلك العهدة من غير حاجة . وقد كان الصحابة رضی الله عنهم يحتزون عن الفتوى ، حتى كان يحيل كل منهم على صاحبه ، وكانوا لا يحتزون إذا سئلوا عن علم القرآن وطريق الآخرة . وفي بعض الروايات بدل المتكلف : المرائي ؛ فإن من تقلد خطر الفتوى وهو غير متعين للحاجة فلا يقصد به إلا طلب الحياء والمال . فإن قلت : هذا إنناستقام لك في أحكام الجراحات والحدود والغرامات وفصل الخصومات ، فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ريع العبادات من الصيام والصلاة ولا فيما يشتمل عليه ريع العادات من المعاملات من بيان الحلال والحرام ، فاعلم أن أقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التي هي أعمال الآخرة ثلاثة : الإسلام والصلاة والزكاة والحلال والحرام ؛ فإذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة ، وإذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهو في غيرها أظهر . أما الإسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد وفي شروطه وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان . وأما القلب فخرج عن ولاية الفقيه لعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرباب السيوف والساطنة عنه حيث قال : « هلا شققت عن قلبي ؟ »^(٢) ، والذي قتل من تكلم بكلمة الإسلام معذرا بأنه قال ذلك من خوف السيف ، بل يحكم الفقيه بصحة الإسلام تحت ظلال السيوف ، مع أنه يعلم أن السيف لم يكشف له عن نيته ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهل والحيرة ، ولكنه مثير على صاحب السيف فإن السيف يمتد إلى رقبته واليد ممتدة إلى ماله وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله مادام له رقبة ومال ، وذلك في الدنيا ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « امرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قاتلهم فقد عصبوا مني دماءهم وأموالهم »^(٣) . وجعل أثر ذلك في الدم والمال . وأما الآخرة فلا نضع فيها الأموال بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها ، وليس ذلك من الفقه ، وإن خاض الفقيه فيه كان كما لو خاض في الكلام والطب وكان خارجا عن فقه . وأما الصلاة فالفقيه يفتي بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط وإن كان غافلا في جميع صلاته من أولها إلى آخرها مشغولا بالتفكير في حساب معاملاته في السوق إلا عند التكبير ، وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة ، كما أن القول باللسان في الإسلام لا ينفع ، ولكن الفقيه يفتي بالصحة أي أن ما فعله حصل به امتثال صيغة الأمر وانقطع به عنه القتل والتعزير ، فأما الخشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر لا يتعرض له الفقيه ولو تعرض له لكان خارجا عن فقه ، وأما الزكاة فالفقيه ينظر إلى ما يقطع به مطالبة السلطان حتى إنه إذا امتنع عن أدائها فأخذها السلطان قهرا حكم بأنه برئت ذمته . وحكى أن أبا يوسف القاضي كان يهب ماله لزوجته آخر الحول ويستوهب مالها إسقاطا للزكاة ، لحكى ذلك لأبي حنيفة رحمه الله فقال ذلك من فقهه . وصدق فإن ذلك من فقه الدنيا ولكن مضرت في الآخرة أعظم من كل جناية ، ومثل هذا هو العلم الضار . وأما الحلال والحرام فالورع عن الحرام من الدين ، ولكن الورع له أربع مراتب (الأولى) الورع الذي يشترط في عدالة الشهادة : وهو الذي يخرج بتركه الإنسان عن أهلية الشهادة والقضاء والولاية وسو الاحتراز عن الحرام المظاهر (الثانية) ورع الصالحين : وهو التوقي من الشبهات التي يتقابل فيها الاحتمالات . قال صلى الله عليه وسلم : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الإثم حزاز القلوب »^(٥) ، (الثالثة) ورع

(١) حديث « لا يفتي الناس إلا ثلاثة . . . الحديث » أخرجه ابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بإسناد لا يضر على الناس ، وإسناده حسن . (٢) حديث « هلا شققت عن قلبي » أخرجه مسلم من حديث أسامة بن زيد (٣) حديث « امرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . . . الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة ومروان بن عمر (٤) حديث « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وابن حبان من حديث الحسن بن علي (٥) حديث « الإثم حزاز القلوب » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود ، ورواه العدي في مسنده موثوقا عليه

المتقين وهو ترك الحلال المحض الذى يخاف منه أداؤه إلى الحرام . قال صلى الله عليه وسلم « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة مما به بأس »^(١) ، وذلك مثل التورع عن التحدث بأحوال الناس خيفة من الانجرار إلى الغيبة ، والتورع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النشاط والبطر المؤدى إلى متارفة المحظورات (الرابعة) ورع الصديقين وهو الإعراض عما سوى الله تعالى خوفاً من صرف ساعة من العمر إلى ما لا يفيد زيادة قرب عند الله عز وجل وإن كان يعلم ويتحقق أنه لا يفضى إلى حرام ، فهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه إلا الدرجة الأولى : وهو ورع الشهود والقضاء وما يقدح في العدالة والقيام بذلك لا ينفي الإثم في الآخرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو ابصرت قلبك « استفت قلبك وإن أفتركت وإن أفتركت »^(٢) ، والفقيه لا يتكلم في حازات القلوب وكيفية العمل بها بل فيما يقدح في العدالة فقط ، فإن جميع نظر الفقيه مرتبط بالدنيا التي بها صلاح طريق الآخرة ، فإن تكلم في شيء من صفات القلب وأحكام الآخرة فذلك يدخل في كلامه على سبيل التطفل كما قد يدخل في كلامه شيء من الطب والجساب والنجوم وعلم الكلام ، وكما تدخل الحكمة في الذر والشعر . وكان سفيان الثوري وهو إمام في علم الظاهر يقول : إن طلب هذا ليس من زاد الآخرة ، كيف وقد اتفقوا على أن الشرف في العلم العمل به فكيف يظن أنه علم الظاهر واللعان والسلم والإجارة والصرف ، ومن تعلم هذه الأمور ليتقرب بها إلى الله تعالى فهو مجنون ، وإنما العمل بالقلب والجوارح في الطاعات ، والشرف هو تلك الأعمال .
فإن قلت : لم سويت بين الفقه والطب إذ الطب أيضاً يتعلق بالدنيا وهو صحة الجسد وذلك يتعلق به أيضاً صلاح الدين ، وهذه التسوية تخالف إجماع المسلمين ؟ فاعلم أن التسوية غير لازمة بل بينهما فرق ، وأن الفقه أشرف منه من ثلاثة أوجه (أحدها) أنه علم شرعى إذ هو مستفاد من النبوة ، بخلاف الطب فإنه ليس من علم الشرع (الثاني) أنه لا يستغنى عنه أحد من سالكى طريق الآخرة ألبتة لا الصحيح ولا المريض . وأما الطب فلا يحتاج إليه إلا المرضى وهم الأقلون (الثالث) أن علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة لأنه نظر في أعمال الجوارح ، ومصدر أعمال الجوارح ومنشؤها صفات القلوب ، فالمحمود من الأعمال يصدر عن الأخلاق المحمودة المنجية في الآخرة ، والمذموم يصدر من المذموم ، وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب . وأما الصحة والمرض فذئبوا هما صفاء في المزاج والأخلاق وذلك من أوصاف البدن لا من أوصاف القلب ، فهما أضيف للفقه إلى الطب ظاهر شرفه ، وإذا أضيف علم طريق الآخرة إلى الفقه ظهر أيضاً شرف علم طريق الآخرة * فإن قلت : فصل لى علم طريق الآخرة تفصيلاً يشير إلى تراجمه وإن لم يمكن استقصاء تفاصيله . فاعلم أنه قسمان : علم مكاشفة وعلم معاملة ، فالقسم الأول علم المكاشفة وهو علم الباطن وذلك غاية العلوم ، فقد قال بعض العارفين : من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة ، وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله . وقال آخر : من كان فيه خصلتان لم يفتح له شيء من هذا العلم : بدعة ، أو كبر . وقيل : من كان محباً للدنيا أو مصراً على هوى لم يتحقق به وقد يتحقق بسائر العلوم ، وأقل عقوبة من ينكره أنه لا يذوق منه شيئاً وينشد على قوله :

وارض لمن غاب عنك غيبته فذاك ذنب عقابه فيه

وهو علم الصديقين والمقربين ، أعنى علم المكاشفة فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتركيبته من صفاته

(١) حديث « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به .. الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عطية السعدى . (٢) حديث « استفت قلبك وإن أفتركت » أخرجه أحمد من حديث وابصة .

المذمومة ، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني بحملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه ، وبصفاته الباقيات التامات ، وبأفعاله ، وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة ، ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا ، والمعرفة بمعنى البتة والنبي ، ومعنى الوحي ، ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين ، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحي إليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والأرض ، ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه ، ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولة الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعباد القبر والصراط والميزان والحساب ، ومعنى قوله تعالى ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ ومعنى قوله تعالى ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ ومعنى لقاء الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم ومعنى القرب منه والنزول في جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملائكة الأعلى ومقارنة الملائكة والنبیین ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدري في جوف السماء إلى غير ذلك مما يطول تفصيله ، إذ للناس في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى ، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة وأن الذي أعدّه الله لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء . وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها ، وكذا يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالهجر عن معرفته ، وبعضهم يدعى أموراً عظيمة في المعرفة بالله عز وجل ، وبعضهم يقول حدّ معرفة الله عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام : وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم ، فنعني بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جليلة الحق في هذه الأمور اتضاحاً يجرى مجرى العيان الذي لا يشك فيه ، وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدورها وخبثها بقاذورات الدنيا ، وإعما نعي بعلم طريق الآخرة : العلم بكيفية تصفيل هذه المرأة عن هذه الخبائث التي هي الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله ، وإنما تصفيتها وتطهيرها بالكف عن الشهوات والافتداء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في جميع أحوالهم ، فبقدر ما ينجلي من القلب ويحاذى به شطر الحق يتلألأ فيه حقائقه ، ولا سبيل إليه إلا بالرياضة التي يأتي تفصيلها في موضعها ، وبالعلم والتعليم ، وهذه هي العلوم التي لا تسطر في الكتب ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشيء منها إلا مع أهله ، وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة ، وبطريق الأسرار ، وهذا هو العلم الخفي الذي أراده صلى الله عليه وسلم بقوله « إن من العلم كهية المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى ، فإذا نطقوا به لم يحفظه إلا أهل الاغترار بالله تعالى فلا تحقروا علماً آتاه الله تعالى علماً منه ، فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه إياه ^(١) » ، وأما القسم الثاني : وهو علم المعاملة ، فهو علم أحوال القلب : أما ما يحمد منها فكالصبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، والرضا ، والزهد ، والتقوى ، والقناعة ، والسجاء ، ومعرفة المنّة لله تعالى في جميع الأحوال ، والإحسان ، وحسن الظن ، وحسن الخلق ، وحسن المعاشرة ، والصدق ، والإخلاص ، فمعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التي بها تكتسب وثمرتها وعلامتها ومعالجتها ما صعب منها حتى يقوى وما زال حتى يعود من علم الآخرة ،

(١) حديث « إن من العلم كهية المكنون ... الحديث » رواه أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين له في التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضيف .

وأما ما يذم ، نخوف الفقر ، وسخط المقدور ، والغفل ، والحقد ، والحسد ، والغش ، ومطلب العلو ، وحب التناء ، وحب طول البقاء في الدنيا للتمتع ، والكبر ، والرياء ، والغضب ، والاذنفة ، والعداوة ، والبخضاء والطمع ، والبخل ، والرغبة ، والبذخ ، والأشر ، والبطر ، وتعظيم الأغنياء ، والاستهانة بالفقراء ، والفخر ، والخيلاء ، والتنافس ، والمباهاة والاستكبار عن الحق ، والخوض فيما لا يعني ، وحب كثرة الكلام ، والصلف ، والتزين للخلق ، والمداهنة ، والعجب ، والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس ، وزوال الحزن من القلب ، وخروج الخشية منه ، وشدة الانتصار للنفس إذا نالها الذل ، وضعف الانتصار للحق ، واتخاذ إخوان العلاية على عداوة السر ، والأمن من مكر الله سبحانه وتعالى في سلب ما أعطى ، والابتكال على الطاعة ، والمكر ، والخيانة ، والمحادعة وطول الأمل ، والقسوة ، والفظاظة ، والفرح بالدنيا والأسف على فواتها ، والأنس بالمخلوقين والوحشة لمرافقهم والجفاء ، والطيش ، والمجلة ، وقلة الحياء ، وقلة الرحمة ، فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش ومنابت الأعمال المحظورة . وأضدادها - وهي الأخلاق الحمودة - منبع الطاعات والقربات ، فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة ، وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة ، فالمرضى عنها هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة ، كما أن المريض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا ، فنظر الفقهاء في فروض العين بالإضافة إلى صلاح الدنيا ، وهذا بالإضافة إلى صلاح الآخرة . ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني حتى عن الإخلاص مثلاً أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة ، ولو سأله عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها ، وإن احتجج لم تخل البلد عن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها ، فلا يزال يتم فيها ليلاً ونهاراً وفي حفظه ودرسه يغفل عما هو مهم في نفسه في الدين ، وإذا روجع فيه قال : اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على نفسه ويعلى غيره في تعلمه ، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حتى الأمر في فرض الكفاية لقدّم عليه فرض العين ، بل قدّم عليه كثيراً من فروض الكفايات ؛ فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ، ثم لا نرى أحداً يشتغل به ، ويتهاترون على علم النقح لاسبغ الخلافات والمجذليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع ؛ فليت شعري كيف يرخّص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لاقائهم ؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولى الأوقاف والوصايا وحياسة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأفران والتسلط به على الأعداء ؟ هيهات هيهات ، قد اندرس علم الدين بتلييس العلماء السوء ؛ فآله تعالى المستعان وإليه الملاذ في أن يعيدنا من هذا الغرور الذي يسخط الرحمن ويضحك الشيطان ، وقد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقرّين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب : كان الإمام الشافعي رضي الله عنه يجلس بين يدي شيبان الراعي كما يقعد الصبي في المكتب ويسأله : كيف يفعل في كذا وكذا ؟ فيقال له : مثلك يسأل هذا البدوي ؟ فيقول : إن هذا وفق لما أغفلناه . وكان أحمد بن حنبل رضي الله عنه ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخي ولم يكن في علم الظاهر بمنزلةهما وكانا يسألانه ، وكيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما قيل له كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجد في كتاب ولا سنة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « سلوا الصالحين واجعلوه شورى

ينهم^(١) ، ولذلك قيل : علماء الظاهر زينة الأرض والملك ، وعلماء الباطن زينة السماء والمكوت . وقال الجنيد رحمه الله قال السري شيخى يوماً : إذا قت من عندي فـ تجالس ؟ قلت : المحاسبي ، فقال : نعم خد من علمه وأدنه ، ودع عنك تشقيقه الكلام ورده على المتكلمين ، ثم لما وليت سمعته يقول : جعلك الله صاحب حديث صوفياً ولا جعلك صوفياً صاحب حديث : أشار إلى أن من حصل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح ، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه . فإن قلت : فلم لم تورد في أقسام العلوم : الكلام والفلسفة ، وتبين أنهما مدمومان أو محمردان ؟ فأعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من لادلة التي ينتفع بها ، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه ، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع كما سيأتي بيانه ، وإما مشاعة بالتعلق بمناقضات الفرق لها ، وتطويل بنقل لمقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات تزديها الطباع وتمجها الاسماع ، وبعضها حوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأول وكان الخوض فيه بالكلية من البدع ، ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ، ونبت جماعة لفقهوا لها شيئاً ورتبوا فيها كلاماً مؤلفاً ، فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه ، بل صار من فروض الكفايات وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة ، وذلك إلى حد محدود - سذكره في الباب الذي يلي هذا إن شاء الله تعالى - وأما الفلسفة فليست علماً برأسها بل هي أربعة أجزاء (أحدها) الهندسة والحساب ، وهما مباحان كما سبق ولا يمنع عنهما إلا من يحاف عليه أن يتجاوز بهما إلى علوم مذمومة ؛ فإن أكثر الممارسين لها قد خرجوا منهما إلى البدع ، فيصان الضعيف عنهما - لا لعينهما - كما يسان عصبي عن شاطئ النهر خيفة عليه من الوقوع في النهر وكما يسان حديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار خوفاً عليه ، مع أن القوى لا يندب إلى مخالطتهم (الثاني) المنطق وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه ، ووجه الحد وشروطه ، وهما داخلان في علم الكلام (الثالث) الإلهيات ، وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته ؛ وهو داخل في الكلام أيضاً ، والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم ، بل انفردوا بمذهب : بعضها كفر وبعضها بدعة ، وكما أن الاعتزال ليس علماً برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة ، فكذلك الفلاسفة (الرابع) الطبيعيات ، وبعضها مخائف للشرع والدين والحق ، فهو جهل وليس بعلم حتى نوره في أقسام العلوم ، وبعضها بحث عن صفات الاجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها ، وهو شبيه بنظر الاطباء ؛ إلا أن الطبيب ينظر في بدن الإنسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح ، وهم ينظرون في جميع الاجسام من حيث تتغير وتتحرّك ؛ ولكل للطب فضل عليه وهو أنه محتاج إليه . وأما علومهم في الطبيعيات فلا حاجة إليها فإذا علم الكلام صار من جملة الصاعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن تخیلات المبتدعة ، وإنما حدث ذلك بحدوث البدع كما حدثت حاجة الإنسان إلى استئجار البدرقة في طريق الحج بحدوث ظلم العرب وقطعهم الطريق ؛ ولو ترك العرب عدوانهم لم يكن استئجار الحراس من شروط طريق الحج ؛ فلذلك لو ترك المبتدع هذيانه لما افتقر إلى الزيادة على ما عهد في عصر الصحابة رضي الله عنهم ؛ فليعلم المتكلم حذره من الدين وأن موقعه منه موقع الحارس في طريق الحج ؛ فإذا تجرد الحارس للحراسة لم يكن من جملة الحاج ، والمتكلم إذا تجرد للمناظرة والمدافعة ولم يسلك طريق الآخرة ولم يشتغل بتعهده

(١) حديث : قيل له كيف فعل إذا جاء أمر لم نجهده في كتاب الله ولا سنة رسوله ؟ ... الحديث . رواه الطبراني من حديث ابن عباس وفيه عبد الله بن كيدان ضعه الجمهور .

الغاب وصلاحه لم يكن من جملة علماء الدين أصلاً ، وليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التي شاركه فيها سائر العوام وهي من جملة أعمال ظاهر القلب واللسان ، وإنما يتميز عن العامى بصناعة المجادلة والحراسة ، فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله وجميع ما أشرنا إليه في علم المكاشفة فلا يحصل من علم الكلام ، بل يكاد أن يكون الكلام حجاباً عليه وماذا عنه ، وإنما الوصول إليه بالمجاهدة التي جعلها الله سبحانه مقدمة للهداية حيث قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ * فإن قلت : فقد رددت حد المتكلم إلى حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة ، كما أن حد البذرقة حراسة أقمشة الحجيج عن نهب العرب ، ورددت حد الفقيه إلى حفظ القانون الذي به يكف الساطان شر بعض أهل العدوان عن بعض ، وهاتان رتبتان نازلتان بالإضافة إلى علم الدين ، وعلماء الأمة المشهورون بالفضل هم الفقهاء والمتكلمون وهم أفضل الخلق عند الله تعالى ، فكيف تنزل درجاتهم إلى هذه المنزلة السافلة بالإضافة إلى علم الدين ؟ فاعلم أن من عرف الحق بالرجال لحار في متاهات الضلال ، فاعرف الحق تدرف أهله إن كنت سالكا طريق الحق ، وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس فلا تغفل عن الصحابة وعلو منصبهم ، فقد أجمع الذين عرضت بذكهم على تقدمهم وأنهم لا يدرك في الدين شأوهم ولا يشق غبارهم ولم يكن تقدمهم بالكلام والفقه بل بعلم الآخرة وسلوك طريقها ، وما فضل أبو بكر رضي الله عنه الناس بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام ، ولكن بشيء وقر في صدره (١) كما شهد له سبب المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ فابكن حرصك في طلب ذلك السر فهو الجوهر النفيس والدر المكنون ، ودع عنك ما تطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيمه وتعظيمه لأسباب ودواع يطول تفصيلها ، فلقد قبض رسوا ، الله صلى الله عليه وسلم عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم كلهم علماء بالله ، أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صناعة الكلام ، ولا نصب نفسه للفتيا منهم أحد إلا بضعة عشر رجلاً ، ولقد كان ابن عمر رضي الله عنهما منهم ، وكان إذا سئل عن الفتيا يقول للسائل : اذهب إلى فلان الأمير الذي تقلد أمور الناس ، وضعها في عنقه إشارة إلى أن الفتيا في القضايا والاحكام من توابع الولاية والسلطة ، ولما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود : مات تسعة أعشار العلم ، فقيل له : أتقول ذلك وفيما جلة الصحابة ؟ فقال : لم أرد علم الفتيا والاحكام وإنما أريد العلم بالله تعالى ، أفترى أنه أراد صناعة الكلام والجدل ، فما بالك لا تنحصر على معرفة ذلك العلم الذي مات بموت عمر تسعة أعشاره ، وهو الذي سد باب الكلام والجدل وضرب ضميمًا بالذرة لما أورد عليه سؤالا في تعارض آيتين في كتاب الله ، وهجره وأمر الناس بهجره وأما قولك إن المشهورين من العلماء هم الفقهاء والمتكلمون ، فاعلم أن ما ينال به الفضل عند الله شيء وما ينال به الشهرة عند الناس شيء آخر ؛ فلقد كان شهرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة وكان فضله بالسر الذي وقر في قلبه وكان شهرة عمر رضي الله عنه بالسياسة وكان فضله بالعلم بالله الذي مات تسعة أعشاره بموته ، وبقصده التقرب إلى الله عز وجل في ولايته وعده وشفقته على خلقه ، وهو أمر باطن في سره ، فأما سائر أفعاله الظاهرة فيتصور صدورها من طالب الجاه والاسم والسمعة والراغب في الشهرة ، فتكون الشهرة فيما هو المهلك ، والفضل فيما هو سر لا يطلع عليه أحد ، فالفقهاء والمتكلمون مثل الخلفاء والقضاة والعلماء ، وقد انقسموا ، فمنهم من أراد الله سبحانه بعلومه وفتواه وذبه عن

(١) حديث « ما فضل أبو بكر الناس بكثرة صلاة ولا كثرة صيام ... الحديث » أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من قول أبي بكر بن عبد الله المزني ولم أجده مرغوما

سنة نبيه ولم يطلب به رياء ولا سمعة ، فأولئك أهل رضوان الله تعالى وفضلهم عند الله لعملهم بعلمهم وإرادتهم وجه الله سبحانه بفتواهم ونظرهم ، فإن كل علم عمل فإنه فعل مكتسب ، وليس كل عمل علما ، والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى بعلمه فيكون مثابا على علمه من حيث إنه عامل لله سبحانه وتعالى به ، والسلطان يتوسط بين الخلق لله فيكون مرضيا عند الله سبحانه ومثابا ، لامن حيث إنه متكفل بعلم الدين ، بل من حيث هو متقلد بعمل يقصد به التقرب إلى الله عز وجل بعلمه . وأقسام ما يتقرب به إلى الله تعالى ثلاثة : علم مجرد وهو علم المكاشفة ، وعمل مجرد وهو كمدل السلطان مثلا وضبطه للناس ، ومركب من عمل وعلم وهو علم طريق الآخرة فإن صاحبه من العلماء والعمال جميعا ، فانظر إلى نفسك أتكون يوم القيامة في حزب علماء الله ، وأعمال الله تعالى ، أوفى حزبيهما فتضرب سهما مع كل فريق منهما ، فهذا أهم عليك من التقليد لمجرد الاشتهار كما قيل :

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

على أننا سنقتل من سيرة فقهاء السلف ما تعلم به أن الذين اتحلوا مذاهبيهم طلوهم وأنهم من أشد خصمايهم يوم القيامة فإنهم ما قصدوا بالعلم إلا وجه الله تعالى ، وقد شوهوا من أحوالهم ما هو من علامات علماء الآخرة كاستيائى بيانه في باب علامات علماء الآخرة ، فإنهم ما كانوا متجردين لعلم الفقه ، بل كانوا مشغولين بعلم القلوب ومراقبين لها ، ولكن صرفهم عن التدريس والتصنيف فيه ماصرف الصحابة عن التصنيف والتدريس في الفقه ، مع أنهم كانوا فقهاء مستقلين بعلم الفتوى والصوارف والدواعى متيقنة ، ولا حاجة إلى ذكرها .

ونحن الآن نذكر من أحوال فقهاء الإسلام ما تعلم به أن ما ذكرناه ليس طعننا فيهم بل هو طعن فيمن أظهر الاقتداء بهم منتحلا مذاهبيهم وهو مخالف لهم في أعمالهم وسيرهم ، فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق - أعني الذين كثر أتباعهم في المذاهب خمسة : الشافعى ، ومالك ، وأحمد بن حنبل ، وأبو حنيفة ، وسفيان الثوري رحمه الله تعالى . وكل واحد منهم كان عابدا وزاهدا عالما بعلوم الآخرة وفقها في مصالح الخلق في الدنيا ومربدا بفقهه وجه الله تعالى ، فهذه خمس حصل اتبعهم فقهاء العصر من جعلتها على خصلة واحدة وهى التشمير والمبالغة في تفاريع الفقه ، لأن الحاصل الأربع لا تصلح إلا للآخرة ، وهذه الخصلة الواحدة تصلح الدنيا والآخرة ، إن أريد بها الآخرة قل صلاحها للدنيا شروا لها وادعوا بها مساهبة أولئك الأئمة ، وهيات أن تقاس الملائكة بالحدادين ، ولنورد الآن من أحوالهم ما يدل على هذه الحاصل الأربع ، فإن معرفتهم بالفقه ظاهرة .

أما الإمام الشافعى رحمه الله تعالى فيدل على أنه كان عابدا : ما روى أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء : ثلثا للعلم ، وثلثا للعبادة . وثلثا للنوم . قال الربيع : كان الشافعى رحمه الله يحتم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة . وكان البويطى أحد أصحابه يحتم القرآن في رمضان في كل يوم مرة . وقال الحسن الكرايسى : بت مع الشافعى غير ليلة فكان يصلى نحو من ثلث الليل فما رأته يزيد على خمسين آية ، فإذا أكثر فائة آية ، وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله لنفسه ولجميع المسلمين والمؤمنين ، ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ فيها وسأل النجاة لنفسه وللمؤمنين ، وكأنما جمع له الرجاء والخوف معا ، فانظر كيف يدل اقتصاره على خمسين آية على تبحره في أسرار القرآن وتدبره فيها وقال الشافعى رحمه الله : ما شبع من ست عشرة سنة لأن الشيع يثقل البدن ويقسى القلب ويزيل الفطنة ويجلب الوم ويضعف صاحبه عن العبادة ، فانظر إلى حكته في ذكر آفات الشيع ، ثم في جده في العبادة ، إذ طرح الشيع لاجلها ، ورأس التعبد لتقليل الطعام . وقال الشافعى رحمه الله : ما حلفت بالله تعالى لا صادقا ولا كاذبا قط ، فانظر

إلى حرمة وثوقه لله تعالى ، ودلالة ذلك على علمه بجلال الله سبحانه . وسئل الشافعي رضي الله عنه عن مسألة فسكت ، فقيل له : ألا تحيب رحك الله ؟ فقال : حتى أدري الفضل في سكوتي أوفي جوابي ؟ فأنظر في مراقبته للسانه مع أنه أشد الأعضاء تسلطا على الفقهاء وأعصاها عن الضبط والقهر ، وبه يستبين أنه كان لا يتكلم ولا يسكت لا لنيل الفضل وطلب الثواب . وقال أحمد بن يحيى بن الوزير : خرج الشافعي رحمه الله تعالى يوما من سوق القناديل متبناه فإذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم ، فالتفت الشافعي إلينا وقال : نزهوا أسماعكم عن استماع الخناكا تنزهون ألسنتكم عن النطق به ، فإن المستمع شريك القائل ، وإن السفیه لينظر إلى أخبث شيء في إنائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم ولو ردت كلمة السفیه لسعد رادها كما شق بها قائلها . وقال الشافعي رضي الله عنه : كتب حكيم إلى حكيم : قد أوتيت علما فلا تدنس عليك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم . وأما زهده رضي الله عنه فقد قال الشافعي رحمه الله : من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب . وقال الحميدي : خرج الشافعي رحمه الله إلى اليمن مع بعض الولاة فانصرف إلى مكة بعشرة آلاف درهم فضرب له خباء في موضع خارجا من مكة فكان الناس يأتونه ، فما برح من موضعه ذلك حتى فرقهما كلها . وخرج من الحمام مرة فأعطى الحمامي مالا كثيرا . وسقط سوطه من يده مرة فرفعه إنسان إليه فأعطاه جزاء عليه خمسين دينارا . وسخاوة الشافعي رحمه الله أشهر من أن تحكى ورأس الزهد السخاء ، لأن من أحب شيئا أمسكه ولم يفارق المال إلا من صغرت الدنيا في عينه وهو معنى الزهد . ويدل على قوة زهده وشدة خوفه من الله تعالى واشتغال همه بالآخرة : ما روى أنه روى سفيان بن عيينة حديثا في الرقاق فغشي على الشافعي فقيل له : قد مات ، فقال : ان مات فقد مات أفضل زمانه . وما روى عبد الله بن محمد البلوي قال : كنت أنا وعمر بن نباتة جلوسا نتناكر العباد والزهاد فقال لي عمر : ما رأيت أروع ولا أفصح من محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه : خرجت أنا وهو والحارث بن أبيب إلى الصفا وكان الحارث تلميذ الصالح المري فافتتح يقرأ وكان حسن الصوت ، فقرأ هذه الآية عليه ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ فرأيت الشافعي رحمه الله وقد تغير لونه واقشعر جلده واضطرب اضطرابا شديدا وخر مغشيا عليه فلما أفاق جعل يقول : أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين ، اللهم لك خضعت قلوب العارفين وذلت لك رقاب المشتاقين ، إلهي هب لي جودك وجلتي بسترک واعف عن تقصيري بكرم وجهك . قال : ثم مشى وانصرفنا فلما دخلت بغداد وكان هو بالعراق فقعدت على الشط أتوضأ للصلاة إذ مر بي رجل فقال لي : يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك في الدنيا والآخرة ، فالتفت فإذا أنا برجل يتبعه جماعة ، فأسرعت في وضوئي وجعلت أقفو أثره ، فالتفت إلى فقال : هل لك من حاجة ؟ فقلت : نعم ، تعلمني بما علمك الله شيئا ، فقال لي اعلم أن من صدق الله نجا ، ومن أشفق على دينه سلم من الردى ، ومن زهد في الدنيا قرت عينه بما يراه من ثواب الله تعالى غدا ، أفلا أزيذك ؟ قلت : نعم . قال من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان : من أمر بالمعروف واتمى ونهى عن المنكر وانتهى ، وحافظ على حدود الله تعالى ، ألا أزيذك ؟ قلت بلى ، فقال : كن في الدنيا زاهدا وفي الآخرة راغبا وصدق الله تعالى في جميع أمورك تتج مع الناجين ، ثم مضى ، فسألت : من هذا ؟ فقالوا : هو الشافعي فأنظر إلى سقوطه مغشيا عليه ثم إلى وعظه كيف يدل ذلك على زهده وغاية خوفه ! ولا يحصل هذا الخوف والزهد إلا من معرفة الله عز وجل فإنه ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ولم يستفد الشافعي رحمه الله هذا الخوف والزهد من علم كتاب السلم والإجارة وسائر كتب الفقه ، بل هو من علوم الآخرة المستخرجة من القرآن والأخبار

لإدحكم الأولين والآخرين مودعة فيهما . وأما كونه عالما بأسرار القلب وعلوم الآخرة فتدبره من الحكم المسأورة عنه ، روى أنه سئل عن الرياء فقال على البديهة : الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء فنظروا إليها بسوء اختيار النفوس فأحببت أعمالهم . وقال الشافعي رحمه الله تعالى : إذا أنت خفت على عملك العجب فانظر رضا من تطلب ؟ وفي أي ثواب ترغب ؟ ومن أي عقاب ترهب ؟ وأي عافية تشكر ؟ وأي بلاء تذكر ؟ فإنك إذا تفكرت في واحد من هذه الخصال صغر في عينك عملك ، فانظر كيف ذكر حقيقة الرياء وعلاج العجب وهما من كبار آفات القلب ! وقال الشافعي رضي الله عنه : من لم يصن نفسه لم ينفعه عليه . وقال رحمه الله : من أطاع الله تعالى بالعلم نفعه سره . وقال : مامن أحد إلا له محب ومبغض ، فإذا كان كذلك فكأن مع أهل طاعة الله عز وجل ، وروى أن صد القاهر بن عبد العزيز كان رجلا صالحا ورعا وكان يسأل الشافعي رضي الله عنه عن مسائل في الورع والشافعي رحمه الله يقبل عليه لورعه ، وقال للشافعي يوما : أيما أفضل الصبر أو المحنة أو التمكن ، فقال الشافعي رحمه الله : التمكن درجة الأنبياء ، ولا يكون التمكن إلا بعد المحنة ، فإذا امتحن صبر وإذا صبر مكن ؛ ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنه وآتاه ملكا ، والتمكين أفضل الدرجات ، قال الله عز وجل ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكن ، قال الله تعالى ﴿ وآتيناه أهله ومثاهم معهم - الآية ﴾ فهذا الكلام من الشافعي رحمه الله يدل على تبخره في أسرار القرآن وإطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء ، وكل ذلك من علوم الآخرة . وقيل للشافعي رحمه الله : متى يكون الرجل عالما ؟ قال : إذا تحقق في علم الدين فعله وعرض لسائر العلوم فذا في فاته فعند ذلك يكون عالما ، فإنه قيل لجالينوس إنك تأمر الداء الواحد بالأدوية الكثيرة المجمععة ! فقال : إنما المقصود منها واحد وإنما يجعل معه غيره لتسكن حدة لأن الأفراد قاتل ، فهذا وأمثاله مما لا يحصى يدل على علو رتبته في معرفة الله تعالى وعلوم الآخرة . وأما إرادته بالفقه والمناظرة فيه وجه الله تعالى : فيدل عليه ما روى عنه قال : وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم وما نسب إلى شيء منه ، فانظر كيف اطلع على آفة العلم وطلب الاسم له وكيف كان مزه القلب عن الالتفات إليه مجرد النية فيه لوحه الله تعالى . وقال الشافعي رضي الله عنه . ما ناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطئ . وقال : ما كليت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويؤمن ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ ، وما كليت أحدا قط وأنا أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه : وقال : ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت محبته ، ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقطت من عيني ورفضته ، فهذه العلامات هي التي تدل على إرادة الله تعالى بالفقه والمناظرة ، فانظر كيف تابعه الناس من جملة هذه الخصال الخمس على خصلة واحدة فقط ، ثم كيف خالفوه فيها أيضا ، ولهذا قال أبو ثور رحمه الله : ما رأيت ولا رأى الرامون مثل الشافعي رحمه الله تعالى . وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه : ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله تعالى ، فانظر إلى إنصاف الداعي إلى درجة المدح وله وقس به الأفران والأمثال من العلماء في هذه الأعصار وما بينهم من المشاحنة والبغضاء لتعلم تقصيرهم في دعوى الاقتداء بهؤلاء ، ولكنرة دعائه له قال له ابنه : أي رجل كان الشافعي حتى تدعوه كل هذا الدماء ؟ فقال أحمد : يا بني كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للدينيا وكالعافية للناس ، فانظر هل لهدين من خلف وكان أحمد رحمه الله يقول : مامس أحد بيده محبرة إلا وللشافعي رحمه الله في عنقه منة . وقال يحيى بن سعيد القطان :

ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو فيها للشافعي لما فتح الله عز وجل عليه من العلم ووقفه للسداد فيه . وانقتصصر على هذه التبعة من أحواله فان ذلك خارج عن الحصر ، وأكثر هذه المناقب نقلناه من الكتاب الذي صنفه الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي رحمه الله تعالى في مناقب الشافعي رضي الله عنه وعن جميع المسلمين .

وأما الإمام مالك رضي الله عنه فإنه كان أيضاً متحلياً بهذه الخصال الخمس ، فانه قيل له : ما تقول يا مالك في طالب العلم ؟ فقال : حسن جميل ولكن انظر إلى الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمشي فالزمه ، وكان رحمه الله تعالى في تعظيم علم الدين مبالغاً ، حتى كان إذا أراد أن يتحدث توضع على صدر فراشه وسرح لحيته واستعمل الطيب وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة ثم حدث ، فقيل له في ذلك فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال مالك : العلم نور يجعله الله حيث يشاء وليس بكثرة الرواية ، وهذا الاحترام والتوقير يدل على قوة معرفته بحلال الله تعالى . وأما إرادته وجهه الله تعالى بالعلم فيدل عليه قوله : الجدل في الدين ليس بشيء . ويدل عليه قول الشافعي رحمه الله : إني شهدت مالكا وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها : لأدري . ومن يرد غير وجهه الله تعالى بعلمه فلا تسمع نفسه بأن يقر على نفسه بأنه لا يدري ، ولذلك قال الشافعي رضي الله عنه : إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب ، وما أحد أمن على من مالك . وروى أن أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره ثم دس عليه من يسأله ، فروى على ملاء من الناس : ليس على مستكره طلاق ، فضربه بالسياط ، ولم يترك رواية الحديث . وقال مالك رحمه الله : ما كان رجل صادقاً في حديثه ولا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه مع الهرم آفة ولا خرف . وأما زهده في الدنيا فيدل عليه ما روى أن المهدي أمير المؤمنين سأله فقال له : هل لك من دار ؟ فقال : لا ولكن أحدثك « سمعت ربيعة بن أبي عبد الرحمن يقول : نسب المرء داره ، وسأله الرشيد : هل لك دار ؟ فقال : لا ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال : اشتر بها داراً فأخذها ولم ينفعها ، فلما أراد الرشيد الشخص قال لمالك رحمه الله : ينبغي أن تخرج معنا فاني عزمتم على أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان رضي الله عنه الناس على القرآن ، فقال له : أما حمل الناس على الموطأ فليس إليه سبيل ، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا ، فعند كل أهل مصر علم وقد قال صلى الله عليه وسلم « اختلاف أمي رحمة »^(١) ، وأما الخروج معك فلا سبيل إليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون »^(٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام « المدينة تنفي خبيثها كما ينفي الكبر خبيث الحديد »^(٣) ، وهذه دنانيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها ، يعني أنك إنما تكلفني مفارقة المدينة لما اصططنعتني إلى فلا أؤثر الدنيا على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهكذا كان زهد مالك في الدنيا . ولما حملت إليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لا تنتشر عليه وأصحابه كان يفرقها في وجوه الخير ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا وليس الزهد فقد المال : وإنما الزهد فراغ القلب عنه ولقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزهاد . ويدل على احتقاره للدنيا ما روى عن الشافعي رحمه الله أنه قال : رأيت على باب مالك كراعاً من أفراس خراسان ويقال مصر ما رأيت أحسن منه فقلت لمالك رحمه الله : ما أحسنه فقال : هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله ، فقلت : دع لنفسك منها دابة تركبها

(١) حديث « اختلاف أمي رحمة » ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية تعليلاً وأسنده في المدخل من حديث ابن عباس بلفظ « اختلاف أصحابي لكم رحمة » وإسناده ضعيف (٢) حديث « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » متفق عليه من حديث سفيان ابن أبي زهير (٣) حديث « المدينة تنفي خبيثها » الحديث « متفق عليه من حديث أبي هريرة .

فقال : إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها نبي الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة فانظر إلى سخامه إذ وهب جميع ذلك دفعة واحدة وإلى توقيره لربة المدينة ويدل على إرادته بالعلم وجه الله تعالى واستحقاق الدنيا : ما روى أنه قال دخلت على هرون الرشيد فقال لي : يا أبا عبد الله ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ . قال : فقلت أعز الله مولانا الأمير ، إن هذا العلم منكم خرج فإن أنتم أعزتموه عزوان أنتم أذلتموه ذل والعلم يؤتى ولا يأتي ، فقال : صدقت ، اخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس .

وأما أبو حنيفة رحمه الله تعالى فلقد كان أيضا عابدا زاهدا ، بالله تعالى ، غائما منه ، مريدا وجه الله تعالى بعلمه ، فأما كونه عابدا فيعرف بما روى عن ابن المبارك أنه قال : كان أبو حنيفة رحمه الله له مروءة وكثرة صلاة . وروى حماد بن أبي سليمان أنه كان يحيي الليل كله . وروى أنه كان يحيي نصف الليل فتر يوما في طريق فأشار إليه إنسان وهو يمشي فقال لآخر : هذا هو الذي يحيي الليل كله ، فلم يزل بعد ذلك يحيي الليل كله وقال : أنا أستحي من الله سبحانه أن أوصف بما ليس في من عبادته . وأما زهده فقد روى عن الربيع بن عاصم قال : أرسلني يزيد بن عمر بن هبيرة فقدمت بأبي حنيفة عليه ، فأراده أن يكون حاكما على بيت المال فأبى ، فضربه عشرين سوطا . فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل العذاب ! قال الحكم بن هشام الثقفي : حدثت بالشام حديثا في أبي حنيفة أنه كان من أعظم الناس أمانة وأراده السلطان على أن يتولى مغانج خزائنه أو يضرب ظهره فاختر عذابهم له على عذاب الله تعالى . وروى أنه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك ، فقال : أتذكرون رجلا عرضت عليه الدنيا بخذافيرها ففتر منها . وروى عن محمد بن شجاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبي حنيفة : قد أمر لك أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور بعشرة آلاف درهم . قال : فارضى أبو حنيفة ، قال : فلما كان اليوم الذي توقع أن يؤتى بالمال فيه صلى الصبح ثم تفضى بثوبه فلم يتكلم ، لحاه رسول الحسن بن قحطبة بالمال ، فدخل عليه ، فلم يكلمه ، فقال لبعض من حضر : ما يكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة ، أي هذه عادته . فقال : ضعوا المال في هذا الجراب في زاوية البيت ، ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته وقال لابنه : إذا مت ودفتموني فخذ هذه البكرة واذهب بها إلى الحسن ابن قحطبة فقل له خذ وديعتك التي أودعتها أبا حنيفة . قال ابنه : ففعلت ذلك ، فقال الحسن : رحمة الله على أبيك فلقد كان شحيحا على دينه . وروى أنه دعى إلى ولاية القضاء فقال : أنا لا أصلح لهذا ، فقيل له : لم ؟ فقال : إن كنت صادقا فأصلح لها ، وإن كنت كاذبا فالكاذب لا يصلح للقضاء . وأما علمه بطريق الآخرة وطريق أمور الدين ومعرفة الله عز وجل فيدل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده في الدنيا ، وقد قال ابن جريج : قد بلغني عن كوفيك هذا النعمان بن ثابت أنه شديد الخوف لله تعالى . وقال شريك النخعي : كان أبو حنيفة طويل الصمت حائما الفكر قليل المحادثة للناس ، فهذا من أوضح الإشارات على العلم الباطني والاشتغال بمهمات الدين ، فمن أوتي الصمت والزهد فقد أوتي العلم كله ، فهذه نبذة من أحوال الأئمة الثلاثة .

وأما الإمام أحمد بن حنبل وسفيان الثوري رحمهما الله تعالى فأتباعهما أقل من أتباع هؤلاء ، وسفيان أقل أتباعا من أحمد ، ولكن اشتهارهما بالورع والزهد أظهر ، وجميع هذا الكتاب مشحون بحكايات أفعالهما وأقوالهما فلا حاجة إلى التفصيل الآن ، فانظر الآن في غير هؤلاء الأئمة الثلاثة وتأمل أن هذه الأحوال والأقوال والأفعال في الإعراض عن الدنيا والتجرد لله عز وجل هل يشمرها مجرد العلم بفروع الفقه من معرفة السلم والإجارة والظهار والإبلاء واللعان ، أو يشمرها علم آخر أعلى وأشرف منه ، وانظر إلى الذين ادعوا الاقتداء هؤلاء أصدقاؤنا دعواهم أم لا

الباب الثالث

فيما يعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها

وفيه بيان الوجه الذي قد يكون به بعض العلوم مذموماً وبيان تبديل أسامي العلوم وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها .

بيان علة ذم العلم المذموم لعلك تقول : العلم هو معرفة الشيء على ما هو به وهو من صفات الله تعالى فكيف يكون الشيء علماً ويكون مع كونه علماً مذموماً ؟ فاعلم أن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب ثلاثة (الأول) أن يكون مؤدياً إلى ضرر ما إما لصاحبه أو لغيره ، كما يذم علم السحر والطلسمات وهو حق ، إذ شهد القرآن له وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين ، وقد سحر ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرض بسببه حتى أخبره جبريل عليه السلام بذلك وأخرج السحر من تحت حجر في قعر بئر ، وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمر حسابية في مطالع النجوم ، فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور ويرصد به وقت مخصوص من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع ، ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين ، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله تعالى العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور ، ومعرفة هذه الأسباب من حيث إنها معرفة ليست بمذمومة ولكنها ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق والوسيلة إلى الشر شر ، فكان ذلك هو السبب في كونه علماً مذموماً ، بل من اتبع ولياً من أولياء الله ليقتله وقد اختفى منه في موضع حزين إذا سأل الظالم عن محله لم يحز تنبيهه عليه ؛ بل وجب الكذب فيه ؛ وذكر موضعه إرشاد وإفادة علم بالشيء على ما هو عليه ، ولكنه مذموم لأدائه إلى الضرر (الثاني) أن يكون مضراً بصاحبه في غالب الأمر ، كعلم النجوم ، فإنه في نفسه غير مذموم لذاته ، إذ هو حساب ، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب ، إذ قال عز وجل ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ وقال عز وجل ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ . والثاني : الأحكام ، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض ، وهو معرفة لمجاري سنة الله تعالى وعادته في خلقه ولكن قد ذمه الشرع . قال صلى الله عليه وسلم : إذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا ^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : أخاف على أمتي بعدى ثلاثاً : حيف الأئمة ، والإيمان بالنجوم ، والتكديب بالقدر ^(٣) . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : تعلموا من النجوم ما تهتدون به في البر والبحر ثم أمسكوا ، وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه : أحدها : أنه مضر بأكثر الخلق ، فإنه إذا ألقى إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب ، وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة ، وأنها الآلهة المدبرة لأنها جواهر شريفة سماوية ، ويعظم وقعها في القلوب فيبقى القلب ملتفتاً إليها ، ويرى الخير والشر محدوراً أو مرجحاً من جهتها ،

الباب الثالث

(١) حديث « سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم » متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث « إذا ذكر القدر فأمسكوا ... الحديث » رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن

(٣) حديث « أخاف على أمتي بعدى ثلاثاً : حيف الأئمة ... الحديث » أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي مجاشع بإسناد ضعيف

وينمحي ذكر الله سبحانه عن القلب ، فإن الضميف يقصر نظره على الوسائط ، والعالم الراسخ هو الذى يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه وتعالى ، ومثال نظر الضميف إلى حصول ضوء الشمس عقيب طلوع الشمس ، مثال العلة لو خلق لها عقل وكانت على سطح قرطاس وهى تنظر إلى سواد الخط يتجدد ، فتعتقد أنه فعل القلم ولا تترقى في نظرها إلى مشاهدة الأصابع ، ثم منها إلى اليد ، ثم منها إلى الإرادة المحركة اليد ، ثم منها إلى الكاتب القادر المريد ، ثم منه إلى خالق اليد والقدرة والإرادة ؛ فأكثر نظر الخلق مقصور على الأسباب القريبة السافلة . مقطوع من الترقى إلى مسبب الأسباب ؛ فهذا أحد أسباب النهى عن النجوم . وثانيها : أن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك في حق آحاد الأشخاص لا يقيناً ولا طناً ، فالحكم به حكم بهول ، فيكون ذمه على هذا من حيث إنه جهل لا من حيث إنه علم ، فلقد كان ذلك معجزة لإدريس عليه السلام فيما يحكى وقد اندرس وانمحي ذلك العلم وانمحق ، وما يتفق من إصابة المجمع على ندور فهو اتفاق لأنه قد يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقيها إلا بعد شروط كثيرة ليس في قدرة البشر الاطلاع على حقائقها ، فإن اتفق أن قدر الله تعالى بقية الأسباب وقعت الإصابة ، وإن لم يقدر أخطأ ، ويكرن ذلك كتخمين الإنسان في أن السماء تمطر اليوم مهما رأى الغيم يجتمع وينبعث من الجبال فيتحرك ظنه بذلك ، وربما يحمى النهار بالشمس ويذهب الغيم ، وربما يكون بخلافه ، ويجرد الغيم ليس كافياً في مجيء المطر وبقية الأسباب لا تدرك ، وكذلك تخمين الملاح أن السفينة تسلم اعتماداً على ما ألفه من العادة في الرياح وتلك الرياح أسباب خفية هو لا يطلع عليها ، فتارة يصيب في تخمينه وتارة يخطئ ، ولهذا العلة يمنع القول عن النجوم أيضاً . وثالثها : أنه لا فائدة فيه ، فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا ينفى وتضييع العمر الذى هو أنفس بضاعة الإنسان في غير فائدة وذلك غاية الخسران ؛ فقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون عليه فقال « ما هذا ؟ فقالوا : رجل علامة . فقال : بماذا ؟ قالوا بالشعر وأنساب العرب . فقال : علم لا ينفع وجهل لا يضر ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إنما العلم آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة ، فإذا خوض في النجوم وما يشبهه اقتحام خطر وخوض في جهالة من غير فائدة ، فإن ما قدركائن ، والاحتراز منه غير ممكن ، بخلاف الطب فإن الحاجة ماسة إليه وأكثر أدلته بما يطلع عليه ، وبخلاف التعبير وإن كان تخميناً لأنه جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ولا خطر فيه (السبب الثالث) الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم ، فهو مذموم في حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها ، وخفيها قبل جليلها ، وكالبحث عن الأسرار الإلهية ، إذ يطلع الفلاسفة والمتكلمون إليها ولم يستقلوها ، ولم يستقل بها وبالوقوف على طرق بعضها إلا الأنبياء والأولياء ، فيجب كف الناس عن البحث عنها وردهم إلى ما نطق به الشرع ، ففي ذلك مقنع للوفيق ، فكم من شخص غاض في العلوم واستضر بها ولولم يخض فيها لكان حاله أحسن في الدين بما صار إليه ولا ينكر كون العلم ضاراً لبعض الناس كما يضر لحم الطير وأنواع الحلوى اللطيفة بالصبي الرضيع ، بل رب شخص ينفعه الجهل ببعض الأمور ، فلقد حكى أن بعض الناس شكاً إلى طيب عقم امرأته وأنها لا تلد ، فجلس الطيب نبضها وقال : لا حاجة لك إلى دواء الولادة فانك ستموتين إلى

(١) حديث : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون فقال « ما هذا ؟ فقالوا : رجل علامة ... الحديث » أخرجه ابن عبد البر من حديث ابن مبررة وصفه . وفي آخر الحديث « إنما العلم آية محكمة ... إلى آخره » وهذه القطعة عند أبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو

أربعين يوماً ، وقد دل النبض عليه ، فاستشعرت المرأة الخوف العظيم وتخص عليها عيشها ، وأخرجت أمورها ورفقتها ، وأوصت ، وبقيت لا تأكل ولا تشرب حتى انقضت المدة فلم تمت ، فناء زوجها إلى الطبيب وقال له : لم تمت ، فقال الطبيب : قد علمت ذلك لجامعها الآن فإنها تلد ؛ فقال : كيف ذاك؟ قال : رأيتها سميكة وقد انعقد الشحم على فم رحمها ، فعلت أنها لا تهزل إلا بحوف الموت ، فغوفتها بذلك حتى هزلت وزال المانع من الولادة : فهذا ينهلك على استشعار خطر بعض العلوم ويفهمك معنى قوله صلى الله عليه وسلم « نعوذ بالله من علم لا ينفع »^(١) ، فاعتبر بهذه الحكاية ولا تكن بماناً عن علوم ذمها الشرع وزحر عنها ، ولازم الاقتداء بالصعابة رضى الله عنهم ، واقتصر على اتباع السنة ، فالسلامة في الاتباع ، والخطر في البحث عن الأشياء والاستقلال ، ولا تنكسر الحجج برأيك ومعتوك ودليلك وبرهانك وزعمك أنى أبحث عن الأشياء لأعرفها على ما هي عليه ، فأى ضرر في التفكير في العلم فإن ما يعود عليك من ضرره أكثر ، وكمن شئ تطلع عليه فيضرك اطلاعك عليه ضرراً يكاد يهلكك في الآخرة إن لم يتداركك الله برحمته . واعلم أنه كما يطلع الطبيب الحاذق على أسرار في المعالجات يستبعد ما من لا يعرفها فكذلك الأنبياء أطباء القلوب والعلماء بأسباب الحياة الآخوية ، فلا تتحكم على سننهم بمعتوك فتهلك ، فكم من شخص يصيبه عارض في أصبعه فيقتضى عقله أن يطلعه ، حتى يذهب الطبيب الحاذق أن علاجه أن يطفى الكف من الجانب الآخر من البدن فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد من حيث لا يعلم كيفية انشعاب الأعصاب ومنابتها ووجه التفافها على البدن ؟ فهكذا الأمر في طريق الآخرة ، وفي دقائق سنن الشرع وآدابه ، وفي عقائده التي تعبد الناس بها أسرار ولطائف ليست في سعة العقل وقوته الإحاطة بها ، كما أن في خواص الأحجار أموراً عجائب غاب عن أهل الصنعة عليها حتى لم يقدر أحد على أن يعرف السبب الذي به يجذب المغناطيس الحديد ؛ فالمعجائب والغرائب في العقائد والأعمال ، وإفادتها لصفاء القلوب ونقاها وطهارتها وتركيتها وإصلاحها للترقى إلى جوار الله تعالى وتعرضها لنفحات فضله أكثر وأعظم مما في الأدوية والمقافير ، وكما أن العقول تقصر عن إدراك منافع الأدوية مع أن التجربة سبيل إليها في العقول تقصر عن إدراك ما ينفع في حياة الآخرة مع أن التجربة غير متطرفة إليها ، وإنما كانت التجربة تتطرق إليها لورجع إلينا بعض الأموات فأخبرنا عن الأعمال المقبولة النافعة المقربة إلى الله تعالى زلنى وعن الأعمال المبعدة عنه ، وكذا عن العقائد ، وذلك مما لا يطمع فيه فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبي صلى الله عليه وسلم ويفهمك موارد إشاراته ، فاحذر العقل بعد ذلك عن التصرف ولازم الاتباع فلا تسلم إلا به والسلام ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن من العلم جهلاً وإن من القول عيا »^(٢) ، ومعلوم أن العلم لا يكون جهلاً ولكنه يؤثر تأمير الجهل في الإضرار . وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « قليل من التوفيق خير من كثير من العلم »^(٣) ، وقال عيسى عليه السلام : ما أكثر الشجر وليس كلها بشجر وليس كلها بطيب ، وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع !

بيان ما بديل من أفاظ العلوم

اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الاسامى المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض

(١) حديث « نعوذ بالله من علم لا ينفع » أخرجه ابن عبد البر من حديث جابر بسند حسن ، وهو عند ابن ماجه بلطف « نعوذوا » وقد تقدم . (٢) حديث « إن من العلم جهلاً ... الحديث » رواه أبو داود من حديث بريدة وفي إسناده من يجهل . (٣) حديث « قليل من التوفيق خير من كثير من العلم » لم أجده أصلاً ، وقد ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة ، وقال « العقل بدل العلم » ، ولم يخرج له ولده في مسنده

للفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول ، وهي خمسة ألفاظ : الفقه ، والمسلم ، والتوحيد ، والتذكير ، والحكمة ؛ فهذه أسام محمودة ، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين ، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة ، فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها ليسوع لإطلاق هذه الاسام عليهم (اللفظ الأول) الفقه ؛ فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل ؛ إذا خصصوه بمعرفة الفروع القريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها ؛ فن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الأفقه ، وافتد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الاعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ؛ ويدلك عليه قوله عز وجل ﴿ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعناق واللعان والسلم والإجارة ؛ فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف ، بل التجرد له على الدوام يقضى القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له . وقال تعالى ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى ؛ ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد ، وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به قديما وحديثا . قال تعالى ﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ﴾ الآية ؛ فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه ؛ فانظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى ، أو هو نتيجة عدم مذكراته من العلوم . وقال صلى الله عليه وسلم « علماء فقهاء ^(١) ، للذين وفدوا عليه . وسئل سعد بن إبراهيم الزهري رحمه الله أى أهل المدينة أفقه ؟ فقال : أقام الله تعالى ؛ فكانه أشار إلى ثمرة الفقه ، والتقوى ثمرة العلم الباطني دون الفتاوى والأفضية . وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أنبشكم بالفقيه كل الفقيه ؟ قالوا بلى ، قال : من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله ، ولم يؤسهم من روح الله ، ولم يدع القرآن رغبة منه إلى مساواه ^(٢) ، ولما روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم « لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب ^(٣) » ، قال : فالتفت إلى زيد الرقاشي وزياد الغيري وقال : لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص احدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سردا ، إنما كنا نقعد فنذكر الإيمان وتدبر القرآن وتتفقه في الدين ونعد نعم الله علينا تفقها ، فسمى تدبر القرآن وعد النعم تفقها . قال صلى الله عليه وسلم « لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ، وحتى يرى للقرآن وجوها كثيرة ^(٤) » ، وروى أيضا موقوفا على أبي الدرداء رضى الله عنه مع قوله « ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد متنا ، وقد سأل فرقد السجى الحسن عن الشيء فأجابه ، فقال : إن الفقهاء يخالفونك ؛ فقال الحسن رحمه الله : مكثت أملك فريقد ، وهل رأيت فقيها بعينك ؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الورع الكاف نعمة عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم الناصح لمجاعتهم ؛ ولم يقل في جميع في ذلك : الحافظ لفروع الفتاوى ، ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى في الأحكام الظاهرة ، ولكن كان بطريق

(١) حديث « علماء حكماء فقهاء » رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد ، والخليل في التاريخ من حديث سويد بن الحارث بإسناد ضعيف (٢) حديث « ألا أنبشكم بالفقيه كل الفقيه ... الحديث » رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق ، وأبو بكر بن السنن وابن عبد البر من حديث علي . وقال ابن عبد البر : أكثرهم يوقفونه عن علي (٣) حديث أنس « لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس ... الحديث » رواه أبو داود بإسناد حسن .

(٤) حديث « لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ... الحديث » أخرجه ابن عبد البر من حديث شداد بن أوس وقال : لا يصح منه وما .

العموم والشمول أو بطريق الاستتباع ؛ فكان لإطلاعهم له على علم الآخرة أكثر . فبان من هذا التخصيص تليس بعث الناس على التجرد له والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب ، ووجدوا على ذلك معيناً من الطبع ، فإن علم الباطن غامض والعمل به عسير ، والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر ، فوجد الشيطان مجالاً لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع (اللفظ الثاني) العلم : وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه ، حتى أنه لما مات عمر رضى الله عنه قال ابن مسعود رحمه الله ، لقد مات تسعة أعشار العلم فمترّفه بالآلاف واللام ثم فسرّه العلم بالله سبحانه وتعالى ، وقد تصرفوا فيه أيضاً بالتخصيص حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها ؛ فيقال : هو العالم على الحقيقة ، وهو الفحل في العلم ، ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعدّ من حملة الضعفاء ولا يعدونه في زمرة أهل العلم . وهذا أيضاً تصرف بالتخصيص ، ولكن ما ورد من فضائل العلم والعلماء أكثره في العلماء بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وصفاته . وقد صار الآن مطلقاً على من لا يحيط من علوم الشرع بشيء سوى رسوم جدلية في مسائل خلافية ، فيعدّ بذلك من خول العلماء مع حمله بالتفسير والأخبار وعلم المذهب وغيره ، وصار ذلك سبباً مهلكاً لخلق كثير من أهل الطلب للعلم (اللفظ الثالث) التوحيد : وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم والقدرة على التشديق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات ، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد وسمى المتكلمون العلماء بالتوحيد ، مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول بل كان يشتدّ منهم التكبر على من كان يفتح باباً من الجدل والمهارة ؛ فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الطاهرة التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أول السماع فلقد كان ذلك معلوماً للكل ، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله ، وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين ، وإن فهموه لم يتصفوا به ؛ وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائل ، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله ؛ فهذا مقام شريف لإحدى ثمراته التوكل كما سيأتى بيانه في كتاب التوكل . ومن ثمراته أيضاً ترك شكاية الخلق ، وترك الغضب عليهم ، والرضا والتسليم لحكم الله تعالى . وكانت إحدى ثمراته قول أنى بكر الصديق رضى الله عنه لما قيل له في مرضه أنطلب لك طبيباً فقال : الطبيب أمرضى ، وقول آخر لما مرض ف قيل له ماذا قال لك الطبيب في مرضك ؟ فقال : قال لي إني فعال لما أريد .

وسمى في كتاب التوكل وكتاب التوحيد شواهد ذلك . والتوحيد جو هو نفيس وله قشران : أحدهما أبعاد عن اللب من الآخر ، فخصص الناس الاسم بالقشر وبصناعة الحراسة للقشر وأهملوا اللب بالكلية ؛ فالقشر الأول : هو أن تقول بلسانك لا إله إلا الله ، وهذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذي صرح به النصارى ، ولكنه قد يصدر من المنافق الذي يخالف سره جهره . والقشر الثاني : أن لا يكون في القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده وكذلك التصديق به وهو توحيد عوام الخلق والمتكلمون كما سبق حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة . والثالث : وهو اللباب - أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائل ، وأن يعبد عبادة يفرد بها فلا يعبد غيره ، ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى ، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده . قال الله تعالى ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : أبغض إله عبد في الأرض

عند الله تعالى هو الهوى ^(١) ، وعلى التحقيق من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواه ، إذ نفسه مائلة إلى دين آباه فيتبع ذلك الميل ، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى ، ويخرج من هذا التوحيد التسخنط على الخلق والالتفات إليهم ، فإن من يرى الكل من الله عز وجل كيف يتسخنط على غيره ، فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام وهو مقام الصديقين ، فأنظر إلى ماذا حول وبأى قشر قنع منه ، وكيف اتخذوا هذا معتصماً في التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذى يستحق الحمد الحقيقي ، وذلك كإفلاس من يصبح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول ﴿ وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض خيفاً ﴾ وهو أول كذب يفتخ به كل يوم إن لم يكن وجه قلبه متوجهاً إلى الله تعالى على الخصوص : فإنه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجهه إلا إلى الكعبة وما صرفه إلا عن سائر الجهات ، والكعبة ليست جهة للذى فطر السموات والأرض . حتى يكون المتوجه إليها متوجهاً إليه ، تعالى عن أن تحته الجهات والأقطار . وإن أراد به وجه القلب وهو المطلوب المتعبد به فكيف يصدق في قوله وقلبه متردد في أوطاره وحاجاته الدنيوية ومتصرف في طلب الخيل في جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب ، ومتوجه بالكلية إليها ، فتى وجهه وجهه للذى فطر السموات والأرض وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد ، فالمراد هو الذى لا يرى إلا الواحد ولا يوجه وجهه إلا إليه ، وهو امتثال قوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ وليس المراد به القول باللسان ، وإنما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى . وإنما موقع فنظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب ، وهو معدن التوحيد ومنبعه (اللفظ الرابع) الذكر والتذكير ، فقد قال الله تعالى ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ وقد ورد في الثناء على مجالس الذكر أحبار كثيرة كقوله صلى الله عليه وسلم : إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قيل : وما رياض الجنة ؟ قال . مجالس الذكر ^(٢) ، وفي الحديث : إن الله تعالى ملائكة سياحين في الدنيا سوى ملائكة الخلق إذا رأوا محاسن الذكرينادى بعضهم بعضاً ألا هلموا إلى بعميتكم فأتونهم ويخفون بهم ويستمعون . ألا فاذكروا الله وذكروا أنفسكم ^(٣) ، فنقل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعاظ في هذا الزمان يواظبون عليه وهو القصص والأشعار والتطع والطامات ، أما القصص فهي بدعة ، وقد وردت في السلف عن الحلوس إلى القصص وقالوا لم يكن ذلك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) ولا في زمن أبي بكر ولا عمر رضي الله عنهما ، حتى ظهرت الفتنة وظهر القصص وروى أن ابن عمر رضي الله عنهما خرج من المسجد فقال : ما أخرجني إلا القاص ولولاه لما خرجت . وقال ضمرة : قلت لسفيان الثوري لستقبل القاص بوحدها ؟ فقال ولوا البدع ظهوركم ، وقال ابن عون : دخلت على ابن سيرين فقال : ما كان اليوم من خبر ؟ فقلت : نهى الأمير القصاص أن يقصوا . فقال : وفق للصواب . ودخل الأعمش جامع البصرة فرأى قاصاً يقص ويقول : حدثنا الأعمش ، فتوسط الحلقة وجعل ينتف شعر لبطه ، فقال القاص ، يا شيخ ، ألا تستحي ؟ فقال : لم ؟ أنا في سنة وأنت في كذب ، أنا الأعمش وما حدثتك وقال أحمد ، أكثر الناس كذباً القصاص والسؤال . وأخرج على رضي الله عنه القصاص من مسجد جامع البصرة ،

(١) حديث « آدمس لله عد في الأرض عند الله هو الهوى » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف .

(٢) حديث « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أس وحسنه .

(٣) حديث « إن الله ملائكة سياحين في الهواء سوى ملائكة الخلق ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله في الهواء والترمذى « سياحين في الأرض » وقال مسلم سياره .

(٤) حديث : لم تكن القصص في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . رواه ابن ماجه من حديث عمر بإسناد حسن

فلما سمع كلام الحسن البصري لم يخرج له إذا كان يتكلم في علم الآخرة والتفكير بالموت والتفكير على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها ويذكر بآلاء الله ونعماته وتقدير العبد في شكره ويعرف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرفها ونكث عهدها وخطر الآخرة وأهوالها ، فهذا هو التذكير المحمود شرعا الذي روى الحديث عليه في حديث أبي ذر رضي الله عنه حيث قال : « حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة . وحضور مجلس علم أفضل من عبادة ألف مريض ، وحضور مجلس علم أفضل من شهود ألف جنازة ، فقيل : يا رسول الله ، ومن قراءة القرآن ؟ قال : وهل تنفع قراءة القرآن إلا بالعلم ^(١) ، وقال عطاء رحمه الله : مجلس ذكر يكفر سبعين مجلسا من مجالس الله ، فقد اتخذ المذخر فون هذه الأحاديث حجة على تركية أنفسهم ، ونقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم : وذهلوا عن طريق الذكر المحمود ، واشتغلوا بالقصص التي تنطرق إليها الاختلافات والزيادة والنقص وتخرج عن القصص الواردة في القرآن وتزيد عليها ، فإن من القصص ما ينفع سماعه ، ومنها ما يضر وإن كان صدقا . ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضر ، فمن هذا نهى عنه ، ولذلك قال أحمد بن حنبل رحمه الله : ما أخرج الناس إلى قاص صادق ، فإن كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأموال دينهم وكان القاص صادقا صحيح الرواية فليست أرى بها بأسا ، فليحذر الكذب وحكايات أحوال تولى إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك ممانيتها أو عن كونها هفوة نادرة مرذقة بتفكيرات متداركة بحسنات تغطي عليها ، فإن العاقل يمتنع بذلك في مساهلاته وهفواته ، ويمهد لنفسه عذرا فيه ، ويحتج بأنه حتى كبت وكبت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر ، فكنا لصدد المعاصي ، فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر مني ، ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لا يدري ، فيبعد الاحتراز عن هذين المذنبين فلا بأس به ، وعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة وإلى ما يشتمل عليه القرآن ، ويصح في الكتب الصحيحة من الأخبار ، ومن الناس من يستحيز وضع الحكايات المرغبة في الطاعات ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق ، فهذه من نزعات الشيطان ، فإن في الصدق مندوحة عن الكذب ، وفيما ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم غنية عن الاختراع في الوعظ ، كيف وقد كره تكلف السجع وعد ذلك من التصنع . قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لابنه عمر وقد سمعه يسجع - : هذا الذي يبغضك إلى لا قضيت حاجتك أبدا حتى تتوب - وقد كان جاءه في حاجة - وقد قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن رواحة في سجع من ثلاث كلمات « لياك والسجع يا ابن رواحة ^(٢) ، فكان السجع المذنب المتكلف ما زاد على كلمتين : ولذلك لما قال الرجل في دية الجنين : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح ولا استهل ، ومثل ذلك يطل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أجمع كسجج الأعراب ^(٣) ، وأما الأشعار فتكثر في المواضع مذموم . قال الله تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ﴿ وقال تعالى ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار : ما يتعلق بالتواضع في العشق وجمال الممشوق وروح الوصال وألم الفراق ، والمجلس لا يحوى إلا أجلافا العوام ، وبواطنهم مشحونة بالشهوات ، وقلوبهم غير متفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة ؛ فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو مستكن

(١) حديث أبي ذر « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة » تقدم في الباب الأول

(٢) حديث « لياك والسجع يا ابن رواحة » لم أجده هكذا ، ولأحمد وأبي داود وابن السني وأبو نعيم في كتاب الرياضة من حديث عائشة بإسناد صحيح أنها قالت لما ناب لياك والسجع فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا يسجعون ولا ينحان واجتنب السجع ، وفي البخاري نحوه من قول ابن عباس (٣) حديث « أجمع كسجج الأعراب » أخرجه مسلم من حديث المغيرة

فيها فلتشتمل فيها نيران الشهوات ، فيزعقون ويتواجدون ؛ وأكثّر ذلك أو كله يرجع إلى نوع فساد ، فلا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة ^(١) » ، ولو حوى المجلس الخواص الذين وقع الاطلاع على استغراق قلوبهم بحب الله تعالى ولم يكن معهم غيرهم ، فإن أوثك لا يضر معهم الشعر الذي يشير ظاهره إلى الخلق ، فإن المستمع ينزل كل ما يسمعه على ما يستولى على قلبه ، كما سيأتى تحقيق ذلك فى كتاب السماع ، ولذلك كان الجنيد رحمه الله يتكلم على بضعة عشر رجلا ، فإن كثروا لم يتكلم ، وماتم أهل مجلسه قط عشرين وحضر جماعة باب دار ابن سالم ، فقيل له : تكلم فقد حضر أصحابك ، فقال : لا ، ما هؤلاء أصحابي ، إنما هم أصحاب المجلس ، إن أصحابي هم الخواص : وأما الشطح : فنعنى به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية (أحدهما) الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشاهدة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا ، وقلنا كذا ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذى صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله أنا الحق ، وبما حكى عن أبي يزيد البسطامى أنه قال سبحاني سبحاني ، وهذا فن من الكلام عظيم ضرره فى العوام ، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة ملاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوى ، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة من الأعمال مع تركية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغنياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزحرفة ، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدال ، والعلم حجاب ، والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق ، فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره وعظم فى العوام ضرره ، حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة ، وأما أبو يزيد البسطامى رحمه الله فلا يصح عنه ما يحكى وإن سمع ذلك منه فله كان يحكيه عن الله عز وجل فى كلام يردده فى نفسه ، كما لو سمع وهو يقول « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني » ، فإنه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية (الصنف الثانى) من الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر راقية وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل ، إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خطى فى عقله وتشويش فى خياله لقلّة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر . وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ، لقلّة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعانى بالألفاظ الرشيدة ، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منها معانى ما أريدت بها ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه . وقد قال صلى الله عليه وسلم « ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم ^(٢) » وقال صلى الله عليه وآله وسلم « كلوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله ^(٣) » ، وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع ، فكيف فيما لا يفهمه قائله . فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره . وقال عيسى

(١) حديث « إن من الشعر لحكمة » أخرجه البخارى من حديث أبي بن كعب

(٢) حديث « ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم » رواه العقيلي فى الضعفاء وابن السى وأبو نعيم فى الرىاء من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ، وإسلم فى مقدمة صحيحه موقوفا على ابن مسعود (٣) حديث « كلوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون ... الحديث » رواه البخارى موقوفا على ، ورقمه أبو منصور الديلى فى مستند الفردوس من طريق أبي نعيم

عليه السلام : لاتضعوا الحكة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء . وفي لفظ آخر من وضع الحكة في غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم ؛ إن للحكة حقاً وإن لها أهلاً ، فأعط كل ذي حق حقه . وأما الطامات فيدخلها ما ذكرناه في الشطح ؛ وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة ، كدأب الباطنية في التأويلات ؛ فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم ؛ فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوفق به والباطن لا ضبط له ، بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى ؛ وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر ، وإنما قصد أصحابها الإغراب ؛ لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له ؛ وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم كما حكيناه من مذاهبيهم في كتاب المستظهر المصنف في الرد على الباطنية . ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم في تأويل قوله تعالى ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أنه إشارة إلى قلبه وقال هو المراد بفرعون وهو الطاعى على كل إنسان . وفي قوله تعالى ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ أى ما يتوكل عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل فينبغى أن يليقه . وفي قوله صلى الله عليه وسلم « تسحروا فإن في السحور بركة »^(١) ، أراد به الاستغفار في الأسحار وأمثال ذلك حتى يحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره ، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعاً ، كتنازل فرعون على القلب ؛ فإن فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده ودعوة موسى له وكأبي جهل وأبي لهب وغيرهما من الكفار وليس من جنس الشياطين والملائكة بالملم يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه ، وكذا حل السحور على الاستغفار ، فإنه كان صلى الله عليه وسلم يتناول الطعام ويقول : تسحروا^(٢) ، وهلموا إلى الغذاء المبارك^(٣) ، فهذه أمور يدرك بالتواتر والحس بطلانها نقلاً ، وبعضها يعلم بغالب الظن ، وذلك في أمور لا يتصلق بها الإحساس ؛ فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين على الخلق ، ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصري مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم ، فلا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم ، من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار^(٤) ، معنى إلا هذا النمط ؛ وهو أن يكون عرصه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه ، فيستجر شهادة القرآن إليه ، ويحمله عليه ، من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية ، ولا ينبغى أن يفهم منه أنه يجب أن لا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر ، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين حسة معان وستة وسبعة . ونعلم أن جميعها غير مسموع من النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع ، فيكون ذلك مستتبها بحسن الفهم وطول الفكر ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنه ، اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل^(٥) ،

(١) حديث « تسحروا فإن في السحور بركة » متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث « تناول الطعام في السحور » رواه البخاري من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت تسحراً (٣) حديث « هلموا إلى الغذاء المبارك » رواه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث العراب بن سارية وضعفه ابن القطان .

(٤) حديث « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وحسنه ، وهو عند أبي داود من رواية ابن العبد ، وعند النسائي في الكبرى (٥) حديث « اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل » قاله لابن عباس رواه البخاري من حديث ابن عباس دون قوله « وعلمه التأويل » وهو بهذه الرياء عند أحمد وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد

ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالالفاظ ويرغم أنه يقصد بها دعوة الخلق إلى الخالق يضاهي من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هو في نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع ، كن يضع في كل مسألة يراها حقاً حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم فذلك ظلم وضلال ودخول في الوعيد المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم « من كذب على متعمداً فليتبوأ عقده من النار »^(١) ، بل الشر في تأويل هذه الالفاظ أطم وأعظم ، لأنها مبدلة للثقة بالالفاظ ، وقاطعة طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعي الخلق عن العلوم المحمودة إلى المدمومة ، فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الاسامى فإن اتبعت هؤلاء اعتادا على الاسم المشهور من غير التفات إلى ما عرف في العصر الأول كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من يسمى حكيماً ، فإن اسم الحكيم ، صار يطلق على الطيب والشاعر والمنجم في هذا العصر ، وذلك بالغفلة عن تبديل الالفاظ (اللفظ الخامس) وهو الحكمة ، فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطيب والشاعر والمنجم حتى على الذى يدرج القرعة على أكف السوادية في شوارع الطرق . والحكمة هي التي أنى الله عز وجل عليها فقال تعالى ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا وما فيها »^(٢) ، فأنظر ما الذى كانت الحكمة عبارة عنه ، وإلى ماذا نقل ، وقس به بقية الالفاظ واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء ، فإن شرهم على الدين أعظم من شر الشياطين ، إذ الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق ، ولهذا لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شر الخلق أبى وقال « اللهم اغفر » حتى كثر رواه عليه فقال « هم علماء السوء »^(٣) ، فقد عرفت العلم المحمود والمذموم ومثار الالتباس وإليك الخيرة في أن تنظر لنفسك فتقتدى بالسلف . أو تتدلى بحبل الغرور وتشبه بالخلاف ، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس ، وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث ، وقد صح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء » فقيل : ومن الغرباء ؟ قال ، الذين يصلحون ما أفسده الناس من سنن والذين يحيون ما أماتوه من سنن^(٤) ، وفي آخر « هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم »^(٥) ، وفي حديث آخر « الغرباء ناس قليل صالحون بين ناس كثير ، من يبعضهم في الخلق أكثر من يحبهم »^(٦) ، وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث يمقت ذاكرها ، ولذلك قال الثوري رحمه الله : إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخطئ ، لأنه إن نطق بالحق أبغضوه .

بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة

اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام : قسم هو مذموم قليله وكثيره وقسم هو محمود قليله وكثيره ، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل وقسم يحمد منه مقدار الكفاية ولا يحمد الفاضل عليه والاستقصاء فيه ، وهو مثل

(١) حديث « من كذب على متعمداً فليتبوأ عقده من النار » متفق عليه من حديث أنى هريرة وعلى وأس .
 (٢) حديث « كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا » تقدم بحقه (٣) حديث لما سئل عن شر الخلق أبى وقال « اللهم اغفر » الحديث . رواه الداريمى بحقه من رواية الأحوس بن حكيم عن أبيه مرسل وهو ضعيف ، ورواه الزارقي مسنده من حديث مما لا سند ضعيف .
 (٤) حديث « بدأ الإسلام غريباً .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث أنى هريرة مختصراً ، وهو بتأمله عند الترمذى من حديث عمرو بن عوف وحسنه (٥) حديث « هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم » يقوله في وصف الغرباء ، لم أر له أصلاً .
 (٦) حديث « الغرباء ناس قليلون صالحون » أخرجه أحمد بن حنبل من حديث عبد الله بن عمرو .

أحوال البدن ، فإن منها ما يحمده قليله وكثيره كالصحة والحال ، ومنها ما يدم قليله وكثيره كالقبح وسوء الخلق ، ومنها ما يحمده الاقتصاد فيه كبدل المال فإن التبذير لا يحمده فيه وهو بذل ، وكالشجاعة فإن التهور لا يحمده فيها ، وإن كان من جنس الشجاعة فكذلك العلم . فالقسم المذموم منه قليله وكثيره هو مالا فائدة فيه في دين ولا دنيا ، إذ فيه ضرر يغلب نفعه كعلم السحر والطلسمات والنجوم ، فبعضه لافائدة فيه أصلاً ، وصرف العمر الذي هو أنفوس ما يملكه الإنسان إليه إضاعة ، وإضاعة النفيس مذمومة . ومنه ما فيه ضرر يزيد على ما يظن أنه يحصل به من قضاء وطرف في الدنيا ، فإن ذلك لا يعتد به بالإضافة إلى الضرر الحاصل عنه . وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ، وسننه في خلقه ، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا ، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة ، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب ، فإنه البحر الذي لا يدرك غوره وإنما يحوم الحائمون على سواحه وأطرافه بقدر ما يسر لهم ، وما خاص أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراستخون في العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتفاوت تقدير الله تعالى في حقهم ، وهذا هو العلم الممكنون الذي لا يسطر في الكتب ، ويعين على التنبيه له التعلم ومشاهدة أحوال علماء الآخرة ، كما سيأتي علامتهم ، هذا في أول الأمر ويعين عليه في الآخرة المحاهدة والرياضة وتصفية القلب وتفريغه عن علائق الدنيا والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء ، ليتضح منه لكل ساع إلى طله بقدر الرزق لا بقدر الجهد ولكن لاغنى فيه عن الاجتهاد ، فالمجاهدة مفتاح الهداية لا مفتاح لها سواها . وأما العلوم التي لا يحمده منها إلا مقدار محصور فهي العلوم التي أوردناها في فروع الكفايات ، فإن في كل علم منها اقتصاراً وهو الأقل ، واقتصاداً وهو الوسط ، واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد لا مرد له إلى آخر العمر ، فكن أحد رجلين : إما مشغولاً بنفسك ، وإما متفرغاً لغيرك بعد الفراغ من نفسك ، ولرباك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك ، فإن كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذي هو فرض عليك بحسب ما يقتضيه حالك ، وما يتعلق منه بالأعمال الطاهرة من تعلم الصلاة والطهارة والصوم ، وإنما الأهم الذي أمهله الكل علم صفات القلب وما يحمده منها وما يدم ، إذ لا ينفعك بشر عن الصفات المذمومة مثل الحرص والحسد والرياء والكبر والعجب وأخواتها وجميع ذلك مهلكات ، وإهمالها من الواجبات ، مع أن الاشتغال بالأعمال الظاهرة يضاهي الاشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذى بالجرب والدمامل والتهاون بإخراج المادة بالعصد والإسهال ، وحسوية العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كما يشير الطريقة من الأطباء بطلاء ظاهر البدن ، وعلماء الآخرة لا يشيرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر بإفساد منابتها وقلع مغارسها من القلب ، وإنما فرع الأكثرين إلى الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح واستصعاب أعمال القلوب ، كما يفرع إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرة ، فلا يرال يتعب في الطلاء ويريد في المواد وتتضاعف به الأمراض ، فإن كنت مريداً للآخرة وطالباً للنجاة وهارباً من الهلاك الأبدى فاشتغل بعلم العلل الباطنة وعلاجها على ما فصلناه في ربيع المهلكات ، ثم ينجز بك ذلك إلى المقامات المحمودة المذكورة في ربيع المنجيات لا محالة ، فإن القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود؛ والأرض إذا نقيت من الحشيش نبت فيها أصناف الزرع والرياحين ، وإن لم تفرغ من ذلك لم تنبت ذاك ، فلا تشتغل بفروض الكفاية لاسيما وفي زمرة الخلق من قد قام بها فإن مهلك نفسه فيها به صلاح غيره سفيه ، فما أشد حماقة من دخلت الأفاعى والعقارب تحت ثيابه وهمت بقتله وهو يطلب مدبة يدفع بها الذباب عن غيره عن لا يغيثه ولا ينجيها مما يلاقه من تلك الحيات والعقارب إذا همت به . وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنه وصار ذلك ديدنا

لك وعادة متيسرة فيك - وما أبعد ذلك منك - فاشتغل بفروض الكفايات وراعى التدرج فيها ؛ فابتدى* ، بكتاب الله تعالى ثم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن من علم الباسخ والمنسوخ والمفصول والموصول والمحكم والمتشابه وكذلك في السنة ، ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف ، ثم بأصول الفقه ؛ وهكذا إلى بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت ؛ ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طلباً للاستقصاء ؛ فإن العلم كثير والعمر قصير ، وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها ، وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه ؛ فاقصر من شائع علم اللغة على ما تفهم منه كلام العرب وتنطق به ، ومن غريبه على غريب القرآن وغريب الحديث ودع التعمق فيه ، واقصر من النحو على ما يتعلق بالكتاب والسنة فما من علم إلا وله اقتصار واقتصاد واستقصاء . ونحن نسير إليها في الحديث والتفسير والفقه والكلام لتفيس بها غيرها ، فالإقتصار في التفسير ما يبلغ ضعف القرآن في المقدار كما صنفه على الواحدى النيسابورى وهو الوحيد ؛ والاقتصاد ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن كما صنفه من الوسيط فيه وما وراء ذلك استقصاء مستغنى عنه فلا مرد له إلى انتهاء العمر . وأما الحديث فالإقتصار فيه تحصيل ما فى الصحيحين بتصحيح نسخة على رجل خير لعلم متن الحديث . وأما حفظ أسامى الرجال فقد كفيت فيه بما تحمله عنك من قبلك ؛ ولك أن تقول على كتبهم ، وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين ولكن تحصله تحصيلاً تقدر منه على طلب ما تحتاج إليه عند الحاجة ؛ وأما الاقتصاد فيه فأن تضيف إليهما ما خرج عنهما مما ورد في المسندات الصحيحة . وأما الاستقصاء فما وراء ذلك إلى استيعاب كل ما نقل من الضعيف والقرى والصحيح والسقيم مع معرفة الطرق الكثيرة فى النقل ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصاهم . وأما الفقه فالإقتصار فيه على ما يحويه مختصر المزنى رحمه الله وهو الذى رتبناه فى حلاصة المختصر ، والاقتصاد فيه ما يبلغ ثلاثة أمثاله وهو القدر الذى أوردناه فى الوسيط من المذهب ، والاستقصاء ما أوردناه فى البسيط إلى ما وراء ذلك من المطولات . وأما الكلام فقصوده حماية المعتقدات التى نقلها أهل السنة من السلف الصالح لا غير ؛ وما وراء ذلك طلب لكشف حقائق الأمور من غير طريقها ، ومقصود حفظ السنة تحصيل رتبة الإقتصار منه بمعتقد مختصر ؛ وهو القدر الذى أوردناه فى كتاب قواعد العقائد من حلة هذا الكتاب ، والاقتصاد فيه ما يبلغ قدر مائة ورقة وهو الذى أوردناه فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد ، ويحتاج إليه لمناظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب الباطل ، وذلك لا ينفع إلا مع العوام قبل اشتداد تعصبهم ، وأما المبتدع بعد أن يعلم من الجدل ولو شيئاً يسيراً فقلما ينفع منه الكلام ؛ فإنك إن ألحمته لم يترك مذهبه وأحال بالقصور على نفسه وقدر أن عند غيره جواماً ما وهو عاجز عنه ، وإنما أنت ملبس عليه بقوة المجادلة . وأما الباطل إذا صرف عن الحق بنوع جدل يمكن أن يرد إليه بمثله قبل أن يشتد التعصب للأهواء ؛ فإذا اشتد تعصبهم وقع اليأس منهم ؛ إذ التعصب سبب يرسخ العقائد فى النفوس وهو من آفات علماء السوء ؛ فإنهم يبالغون فى التعصب للحق وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار ، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة ، وتتوفر بواعثهم على طلب نصره الباطل ، ويقوى غرضهم فى التمسك بما نسبوا إليه ، ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح فى الخلوة - لافى معرض التعصب والتحجير - لانجحوا فيه ، ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع ولا يستميل الاتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم ، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم ، وسموه ذبا عن الدين ونضالا عن المسلمين ، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة

في النفوس . وأما الخلافات التي أحدثت في هذه الأعصار المتأخرة وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يعهد مثلها في السلف فإياك وأن تحوم حولها ، واجتنبها اجتناب السم القاتل فإنها الداء العضال وهو الذي رد الفقهاء كلهم إلى طلب المنافسة والمباهاة على ما سيأتيك تفصيل غواياها وآفاتهما . وهذا الكلام ربما يسمع من قائمه فيقال : الناس أعداء ما جهلوا فلا تظن ذلك ، وعلى الخبر سقطت . فاقبل هذه النصيحة من ضيع العرفيه زمانا ، وزاد فيه على الأولين تصنيفا وتحقيقا وجدلا وبيانا ، ثم ألهمه الله رشده وأطلعه على عيبه فبهجه واشتغل بنفسه : فلا يفترنك قول من يقول الفتوى عماد الشرع ولا يعرف علله إلا بعلم الخلاف ، فإن علل المذهب مذكورة في المذهب ، والزيادة عليها مجادلات لم يعرفها الأولون ولا الصحابة وكانوا أعلم لعل الفتاوى من غيرهم ، بل هي مع أنها غير مفيدة في علم المذهب ضائرة مفسدة لذوق الفقه ، فإن الذي يشهد له حدس المفتي إذا صح ذوقه في الفقه لا يمكن تمشيته على شروط الجدل في أكثر الأمر ، فمن ألف طبعه رسوم الجدل أذعن ذهنه لمقتضيات الجدل وجبن عن الإذعان لذوق الفقه ، ولما يشتغل به من يشتغل لطلب الصيت والجاه ويتعال بأنه يطلب علل المذهب ، وقد ينفض عليه العمر ولا تصرف همته إلى علم المذهب ، فكمن من شياطين الجن في أمان ، واحتز من شياطين الإنس فإنهم أراحوا شياطين الجن من التعب في الإغواء والإضلال ، وبالجملة فالمرضى عند العقلاء أن تقدر نفسك في العالم وحدك مع الله وبين يديك الموت والعرض والحساب والجنة والنار ، وتأمل فيما يعنيك مما بين يديك ، ودع عنك ما سواه والسلام . وقد رأى بعض الشيوخ بعض العلماء في المنام فقال له : ما خبر تلك العلوم التي كنت تجادل فيها وتماظر عليها فبسط يده ونفخ فيها وقال : طاحت كلها هباء منثورا وما انتفعت إلا بركتين خلصتا لي في جوف الليل . وفي الحديث « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل »^(١) ، ثم قرأ ﴿ ما ضربه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ﴾ وفي الحديث في معنى قوله تعالى ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ ﴾ الآية : « هم أهل الجدل الذين عناهم الله بقوله تعالى : فاحذرهم »^(٢) ، وقال بعض السلف : يكون في آخر الزمان قوم يغلق عليهم باب العمل ويفتح لهم باب الجدل . وفي بعض الأخبار إنكم في زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتي قوم يلهمون الجدل^(٣) وفي الخبر المشهور « ابغض الخلق إلى الله تعالى الألد الخصم »^(٤) ، وفي الخبر « ما أتى قوم المطلق إلا منعوا العمل »^(٥) والله أعلم .

الباب الرابع

في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها

اعلم أن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولاهم الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أئمة علماء بالله تعالى فقهاء في أحكامهم وكانوا مستقلين بالفتاوى في الأقضية ، فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادرا في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة ، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها ، وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا ، وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهدهم كما نقل من سيرهم ، فلما أهضمت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها

(١) حديث « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي أمامة . قال

الترمذي : حسن صحيح

(٢) حديث « هم أهل الجدل الذين عنى الله بقوله فاحذرهم » متفق عليه من حديث عائشة (٣) حديث « إنكم في زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتي قوم يلهمون الجدل » لم أجده (٤) حديث « أبغض الخلق إلى الله الألد الخصم » متفق عليه من حديث عائشة (٥) حديث « ما أتى قوم المطلق إلا منعوا العمل » لم أجده أصلا .

بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام ، اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجارى أحكامهم ، وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صفو الدين ومواطبة على سميت علماء السلف ، فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا ؛ فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات ، فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاية عليهم مع إعراضهم عنهم ، فاشترأوا لطلب العلم توصلاً إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاية ؛ فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاية ، وتعزفوا إليهم ، وطلبوا الولايات والصلات منهم ، فنهى من حرم ومنهم من أنجح ، والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال ، فأصبح الفقهاء - بعد أن كانوا مطلوبين - طابئين ، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراس عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم ، إلا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله ، وقد كان أكثر الإقبال في تلك الأعصار على علم الفتاوى والأفضية لشدّة الحاجة إليها في الولايات والحكومات ، ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها : فعلمت رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف ، ورتبوا فيه طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات ، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة ، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين ، لإشفاقاً على خلق الله ونصيحة لهم . ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه . لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية المنفضية إلى إهراق الدماء وتحريب البلاد ، ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص ، فترك الناس الكلام وفنون العلم واثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبى حنيفة على الخصوص ، وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم ، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى ، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمرّون عليه إلى الآن ، ولستأ ندرى ما الذى يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار ؟ فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافات والمناظرات لا غير ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معهم ، ولم يسكنوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين

بيان التلبس في تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف

أعلم أن هؤلاء قد يستدرجون الناس إلى ذلك بأن غرضنا من المناظرات المباحة عن الحق ليتضح ، فإن الحق مطلوب والتعاون على النظر في العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر ، هكذا كان عادة الصحابة رضى الله عنهم في مشاوراتهم كشاورهم في مسألة الجد والأخوة وحد شرب الخمر ووجوب الغرم على الإمام إذا أخطأ ، كما نقل من لجهاض المرأة جنينها خوفاً من عمر رضى الله عنه ؛ وكما نقل من مسائل الفرائض وغيرها وما نقل عن الشافعي وأحمد ومحمد بن الحسن ومالك وأبي يوسف وغيرهم من العلماء رحمهم الله تعالى . ويطلعك على هذا التلبس ما ذكره وهو أن التعاون على طلب الحق من الدين ولكن له شروط وعلامات ثمان ، الأول : أن لا يشتغل به وهو من

فروض الكفايات من لم يتفرغ من فروض الأعيان ، ومن عليه فرض عين فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن متصدده الحق فهو كذاب . ومثاله من يترك الصلاة في نفسه ويتجرد في تحصيل الثياب ونسجها ويقول عرضي أستر عورة من يصلي عريانا ولا يجد ثوباً ؛ فإن ذلك ربما يتفق ووقوعه ممكن كما يزعم الفقيه أن وقوع النواذر التي عنها المحث في الخلاف ممكن . والمشتغلون بالمناظرة مهملون لأمرهم فرض عين بالاتفاق ومن توجه عليه رد ودبنة في الحال فقام وأحرم بالصلاة التي هي أقرب القربات إلى الله تعالى عصي به ، فلا يكنى في كون الشخص مطيعاً كون فعله من جنس الطاعات مالم يراع فيه الوقت والشروط والترتيب . الثاني : أن لا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة فإن رأى ما هو أهم وفعل غيره عصي بفعله وكان مثاله مثال من يرى جماعة من العطاش أشرفوا على الهلاك وقد أهلهم الناس وهو قادر على إحيائهم بأن يسقيهم الماء فاشتغل بتعلم الحجامة ، وزعم أنه من فروض الكفايات ولو خلا البلد عنها لهلك الناس وإذا قيل له في البلد جماعة من الحجاجين وفيهم غنية فيقول هذا لا يخرج هذا الصل عن كونه فرض كفاية . فحال من يفعل هذا ويهمل الاشتغال بالواقعة الملحة بجماعة العطاش من المسلمين كحال المشتغل بالمناظرة وفي البلد فروض كفايات مهمة لا قائم بها فأما الفتوى فقد قام بها جماعة ولا يخلو بلد من جملة الفروض المهمة ولا يلتفت الفقهاء إليها وأقربها الطب ؛ إذ لا يوجد في أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتداد شهادته فيما يعول فيه على قول الطبيب شرعاً ولا يرغب أحد من الفقهاء في الاشتغال به ، وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من فروض الكفايات وربما يكون المناظر في مجلس مآثرته مشاهداً للحريز ملبوساً ومفروضاً وهو ساكت وينظر في مسألة لا يتفق وقوعها قط وإن وقعت قام بها جماعة من الفقهاء ، ثم يزعم أنه يريد أن يتقرب إلى الله تعالى بفروض الكفايات . وقد روى أنس رضي الله عنه أنه : قيل يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ فقال عليه السلام : إذا ظهرت المداينة في خياركم والفاحشة في شراركم وتحول الملك في صغاركم والفقه في أراذلكم ^(١) ، الثالث : أن يكون المناظر مجتهداً يفتي برأيه لا بذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما حتى إذا ظهر له الحق من مذهب أبي حنيفة ترك ماوافق رأى الشافعي وأفتى بما ظهر له كما كان يفعله الصحابة رضي الله عنهم والأئمة . فأما من ليس له رتبة الاجتهاد وهو حكم كل أهل العصر وإنما يفتي فيما يسأل عنه ناقلاً عن مذهب صاحبه فلو طهر له ضعف مذهبه لم يحزه أن يتركه ، فأى فائدة له في المناظرة ومذهبه معلوم وليس له الفتوى بغيره ؟ وما يشكل عليه يلزمه أن يقول : لعل عند صاحب مذهبي جواباً عن هذا فإني لست مستقلاً بالاجتهاد في أصل الشرع : ولو كانت مباحثته عن المسائل التي فيها وجهان أو قولان لصاحبه لكان أشبه ، فإنه ربما يفتي بأحدهما فيستفيد من البحث ميلاً إلى أحد الجانبين ولا يرى المناظرات جارية فيها قط ، بل ربما ترك المسألة التي فيها وجهان أو قولان وطلب مسألة يكون الخلاف فيها مبتوتاً . الرابع : أن لا يناظر إلا في مسألة واقعة أو قرية الوقوع غالباً فإن الصحابة رضي الله عنهم ما تشاوروا إلا فيما تجدد من الوقائع أو ما يغلب وقوعه كالفرأض ، ولا ترى المناظرين يهتمون بانتقاد المسائل التي تعم البلوى بالفتوى فيها بل يطلبون الطبوليات التي تسمع فيتسع مجال الجدل فيها كيفما كان الأمر ،

الباب الرابع

(١) حديث أنس : قيل يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . الحديث « أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن .

وربما يتركون ما يكثر وقوعه ويقولون هذه مسألة خبرية أو هي من الزوايا وليست من الطبوليات ، فن العجائب أن يكون المطلب هو الحق ثم يتركون المسألة لأنها خبرية ومدرک الحق فيها هو الإخبار أو لأنها لأنها ليست من الطبول فلا تطول فيها الكلام . والمقصود في الحق أن يقصر الكلام ويبلغ الغاية على القرب لا أن يطول .

الخامس : أن تكون المناظرة في الخلوة أحب إليه وأهم من المحافل وبين أظهر الأکابر والسلاطين فإن الخلوة أجمع للفهم وأحرى بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق ، وفي حضور الجمع ما يحرك دواعي الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محملاً أو مبطلاً ، وأنت تعلم أن حرصهم على المحافل والجامع ليس لله وأن الواحد منهم يخلو بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه وربما يقترح عليه فلا يجيب وإذا ظهر مقدم أو انتظم جمع لم يغادر في قوس الاحتيال منزعا حتى يكون هو المتخصص بالكلام . السادس : أن يكون في طلب الحق كناشدا ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه ويرى رفيقه مينا لا خصما ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق ، كما لو أخذ طريقاً في طلب ضالته فنهض صاحبه على ضالته في طريق آخر فإنه كان يشكره ولا يذمه ويكرمه ويفرح به ؛ فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضي الله عنهم حتى أن امرأة ردت على عمر رضي الله عنه ونهته على الحق وهو في خطبته على ملا من الناس فقال : أصابت امرأة وأخطأ رجل . وسأل رجل عليا رضي الله عنه فأحابه فقال : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ولكن كذا كذا فقال : أصبت وأخطأت وفوق كل ذي علم عليم . واستدرك ابن مسعود على أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما فقال أبو موسى : لا تسألوني عن شيء وهذا الخبر بين أظهركم . وذلك لما سئل أبو موسى عن رجل قاتل في سبيل الله فقتل فقال : هو في الجنة . وكان أمير الكوفة فقام ابن مسعود فقال : أعد على الأمير فلعله لم يفهم ؟ فأعادوا عليه فأعاد الجواب فقال ابن مسعود . وأنا أقول إن قتل فأصاب الحق فهو في الجنة . فقال أبو موسى : الحق ما قال . وهكذا يكون لإنصاف طالب الحق ؟ ولو ذكر مثل هذا الآن لأقل فقيه لأنكره واستبمده وقال : لا يحتاج إلى أن يقال أصاب الحق فإن ذلك معلوم لكل أحد . فانظر إلى مناظري زمانك اليوم كيف يسود وجه أحدهم إذا اتضح الحق على لسان خصمه وكيف يتجمل به وكيف يجهد في مجادته بأقصى قدرته وكيف يذم من أحبه طول عمره ثم لا يستحي من تشبيه نفسه بالصحابة رضي الله عنهم في تعاونهم على النظر في الحق ؟ السابع : أن لا يمنع معينه في النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ومن إشكال إلى إشكال ، وهكذا كانت مناظرات السلف ؛ ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة فيألهو عليه كقوله : هذا لا يلزمي ذكره ، وهذا يناقض كلامك الأول فلا يقبل منك ؛ فإن الرجوع إلى الحق مناقض للباطل ويجب قبوله . وأنت ترى أن جميع المجالس تنقضي في المداينات والمجادلات حتى يقيس المستدل على أصل بعللة يظنها فيقال له : ما الدليل على أن الحكم في الأصل معلل بهذه العلة ؟ فيقول : هذا ما ظهر لي ؛ فإن طهر لك ما هو أوصح منه وأولى فاذكره حتى أنظر فيه . فيبصر المعارض ويقول فيه معان سوى ما ذكرته وقد عرفتها ولا أذكرها إذ لا يلزمي ذكرها ، ويقول المستدل عليك إيراد ما تدعيه وراء هذا ويبصر المعارض على أنه لا يلزمه ويتوخي مجالس المناظرة بهذا الجنس من السؤال وأمثاله ولا يعرف هذا المسكين أن قوله : إنى أعرفه ولا أذكره إذ لا يلزمي ، كذب على الشرع ؛ فإنه إن كان لا يعرف معناه وإنما يدعيه ليعجز خصمه فهو فاسق كذاب عصي الله تعالى وتعرض لسخطة بدعواه معرفة هو حال عنها وإن كان صادقا فقد فسق بإخفائه ما عرفه من أمر الشرع . وقد سأله أخوه المسلم ليفهمه وينظر فيه فإن كان قويا رجع إليه وإن كان ضعيفا أظهر له ضعفه وأخرجه عن ظلمة الجهل إلى نور العلم . ولا خلاف أن إظهار

ما علم من علوم الدين بعد السؤال عنه واحب لازم فعنى قوله : لا يلزمنى ؛ أى فى شرع الجدل الذى أبدعناه بحكم التشهى والرغبة فى طريق الاحتيال والمصارعة بالكلام لا يلزمنى وإلا فهو لازم بالشرع ، فإنه بامتناعه عن الذكر إما كاذب وإما فاسق فتفحص عن مشاورات الصحابة ومفاوضات السلف رضى الله عنهم هل سمعت فيها ما يضاهى هذا الجنس وهل منع أحد من الانتقال من دليل إلى دليل ومن قياس إلى أثر ومن خبر إلى آية ؟ بل جميع مناظراتهم من هذا الجنس إذ كانوا يذكرون كل ما يخطر لهم كما يخطر وكانوا ينظرون فيه . الثامن : أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم . والغالب أنهم يحترزون من مناظرة الفحول والأكابر خوفا من ظهور الحق على ألسنتهم فيرغبون فيمن دونهم طمعاً فى ترويج الباطل عليهم ووراء هذه شروط دقيقة كثيرة ولكن فى هذه الشروط الثمانية ما يهديك إلى من يناظر الله ومن يناظر لعله . واعلم بالجملة أن من لا يناظر الشيطان وهو مستول على قلبه وهو أعدى عدوه ولا يزال يدعو إلى هلاكه ثم يشتغل بمناظرة غيره فى المسائل التى يحتج فيها مصيب أو مسام للدهيب فى الأجر فهو ضحكة الشيطان وعبرة للخلصين ولذلك شمت الشيطان به لما غمسه فيه من ظلمات الآفات التى تعددها ونذكر تفاصيلها ؛ فنسأل الله حسن العون والتوفيق .

بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق

اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإلحاح وإظهار الفضل والشرف والتشديد عند الناس وقصد المباهاة والمראה واستمالة وجوه الناس هى منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند الله إبليس . ونسبها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتركية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل والسرقة . وكما أن الذى خير بين الشرب والفواحش وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش فى سكره فكذلك من غاب عليه حب الإلحاح والغلبة فى المناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلك إلى إضممار الحباثت كلها فى النفس وهيئ فيه جميع الأخلاق المذمومة . وهذه الأخلاق ستأتى أدلة مذمتها من الأخبار والآيات فى ريع المهلكات . ولكننا نشير الآن إلى مجامع ما تهيج المناظرة فيها الحسد ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ^(١) ، ولا ينفك المناظر عن الحسد فانه تارة يغلب وتارة يغلب وتارة يحمد كلامه وأخرى يحمد كلام غيره . فما دام يبقى فى الدنيا واحد يذكره بقوة العلم والنظر أو يظن أنه أحسن منه كلاماً وأقوى نظراً فلا بد أن يحسده ويحب زوال النعم عنه وانصراف القلوب والوجوه عنه إليه . والحسد نار محرقة فمن بلى به فهو فى العذاب فى الدنيا وللعذاب الآخرة أشد وأعظم ؛ ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : خذوا العلم حيث وجدتموه ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فإنهم يتغايبون كما تتغايب التيوس فى الزرية . ومنها التكبر والترفع على الناس فقد قال صلى الله عليه وسلم : من تكبر وضعه الله ومن تواضع رفعه الله ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى : العظمة لإزاري والكبرياء رداؤى فمن نازعنى فيهما قصمته ^(٣) ، ولا ينفك المناظر عن التكبر على

(١) حديث : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب « أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة ، وقال البخارى : لا يصح . وهو عند ابن ماجه من حديث أس بن ساد ضعيف ، وفى تاريخ بغداد بإسناد حسن

(٢) حديث : من تكبر وضعه الله ... الحديث « أخرجه الحطيب من حديث عمر بن أساد صحيح وقال : غريب من حديث الثورى » وابن ماجه نحوه من حديث أبى سعيد بسند حسن . (٣) حديث : الكبرياء رداؤى والعظمة لإزاري ... الحديث « أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان من حديث أبى هريرة وهو عند مسلم بلفظ : الكبرياء رداؤه » من حديث أبى هريرة وأبى سعيد .

الأفان والأمال والترفع إلى فوق قدره حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المحاسن يتنافسون فيه في الارتفاع والانخفاض والقرب من وسادة الصدر والبعد عنها والتقدم في الدخول عند مضائق الطرق، وربما يتعمال الغنى والمكار الخداع منهم بأنه ينبغي صيانة عز العلم، « وأن المؤمن منزه عن الإذلال لنفسه ^(١) » فتعبر عن التواضع الذي أثنى الله عليه وسائر أنبيائه بالذل وعن التكبر الممقوت عند الله بعز الدين تحريفاً للاسم وإضلالاً للخلق به كما فعل في اسم الحكمة والعلم وغيرهما. ومنها الحقد فلا يكاد المناظر يخلو عنه. وقد قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن ليس بحقود ^(٢) »، وورد في ذم الحقد ما لا يخفى. ولا ترى مناظراً يقدر على أن لا يضر حقداً على من يحرك رأسه من كلام خصمه ويتوقف في كلامه فلا يقابله بحسن الإصغاء بل يضطر إذا شاهد ذلك إلى إصهار الحقد وتربيتة في نفسه وغاية تماسكه الإخفاء بالنفاق وبترشيع منه إلى الظاهر لا بحالة في غالب الأمر. وكيف ينمك عن هذا ولا يتصور اتفاق جميع المستمعين على ترجيح كلامه واستحسان جميع أحواله في إirاده وإصداره؟ بل لو صدر من خصمه أدنى سبب فيه قلة مبالاة بكلامه أنفوس في صدره حقد لا يقاحه مدى الدهر إلى آخر العمر. ومنها العيبة وقد شبهها الله بأكل الميتة ولا يزال المناظر مثابراً على أكل الميتة فإنه لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته، وغاية تحفظه أن يصدق فيما يحكيه عليه ولا يكذب في الحكاية عنه فيحكي عنه لا بحالة ما يدل على قصور كلامه وعجزه وقصان فضله وهو الغيبة، فأما الكذب فبهتان وكذلك لا يقدر على أن يحفظ لسانه عن التعرض لعرض من يعرض عن كلامه ويصغى إلى خصمه ويقبل عليه حتى ينسب إلى الجبل والحماقة وقلة الفهم والبلاهة. ومنها تزكية النفس، قال الله سبحانه وتعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ وقيل لحكيم: ما الصدق القبيح؟ فقال: ثناء المرء على نفسه. ولا يخلو المناظر من الثناء على نفسه بالقوة والغلبة والتقدم على الأفان ولا ينفك في أتماء المناظرة عن قوله: لست بمن يخفى عليه أمثال هذه الأمور وأنا المتفنن في العلوم والمستقل بالأصول وحفظ الأحاديث وغير ذلك مما يتمدح به تارة على سبيل الصلف وتارة للحاجة إلى ترويح كلامه. ومعلوم أن الصلف والتمدح مذمومان شرعا وعقلا ومنها التجسس وتتبع عورات الناس، وقد قال تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ والمناظر لا ينفك عن طلب عورات أقرانه وتتبع عورات خصومه حتى إنه ليخبر ب ورود مآظر إلى بلده فيطلب من يخبر بواطن أحواله ويستخرج بالسؤال متابعه حتى يعدها ذخيرة لنفسه في إفصاحه وتخجيله إذا مست إليه حاجة حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه ففساه يعثر على هفوة أو عيب به من قرع أو غيره، ثم إذا أحس بأدنى غلبة من جهته عرض به إن كان متماسكا ويستحسن ذلك منه ويعد من لطائف التسبب ولا يمتنع عن الإفصاح به إن كان متبجحا بالسفاهة والاستهزاء، كما حكى عن قوم من أكابر المناظرين المعدودين من فخرهم. ومنها الفرح لمساءة الناس والغم لمساوئهم ومن لا يجب لأخيه المسلم ما يجب لنفسه فهو بعيد من أخلاق المؤمنين، فكل من طلب المباهاة بإظهار الفضل يسره لا بحالة ما يسوء أقرانه وأشكاله الذين يسامونه في الفضل ويكون التباغص بينهم كما بين الضرائر فكأن إحدى الضرائر إذا رأت صاحبته من بعيد ارتعدت فرائصها واصفرت لونها فكذا ترى المناظر إذا رأى مناظرأ تغير لونه واضطرب عليه فكره فكانه يشاهد شيطانا ماردا أو سبعا ضاريا، وأين الاستئناس والاسترواح الذي كان يجري بين علماء الدين عند اللقاء وما نقل عنهم من المؤاخاة والتناصر والتسامح في السراء

(١) حديث « نهى المؤمن عن إذلال نفسه » أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه من حديث حذيفة « لا ينبغي للمؤمن أن يذل

نفسه » (٢) حديث « المؤمن ليس بحقود » لم أقف له على أصل.

والضراء حتى قال الشافعي رضي الله عنه : العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل ؟ فلا أدري كيف يدعى الاقتداء
بمذهبه جماعة صار العلم بينهم عداوة قاطعة ! فهل يتصور أن ينسب الإنسان بينهم مع طلب الغلبة والمباهاة هيئات
وناهيك بالشر شراً أن يلزمك أخلاق المنافقين ويبرئك عن أخلاق المؤمنين والمتقين . ومنها النفاق فلا يحتاج إلى
ذكر الشواهد في ذمه وهم مضطرون إليه فإنهم يلقون الخصوم ومحبيهم وأشياهم ولا يجدون بداً من التودد إليهم
باللسان وإظهار الشوق والاعتداد بمكانهم وأحوالهم ، ويعلم ذلك المخاطب والمخاطب وكل من يسمع منهم أن ذلك
كذب وزور ونفاق وخجور فإنهم متوددون بالالسة متباغضون بالقلوب نعوذ بالله العظيم منه ؛ فقد قال صلى الله عليه
وسلم : إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالالسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا في الأرحام لعنهم الله
عند ذلك فأصمهم وأعمى أنصارهم^(١) ، رواه الحسن وقد صح ذلك بمشاهدة هذه الحالة . ومنها الاستكبار عن الحق
وكرهته والحرص على الماراة فيه حتى إن أبغض شيء إلى الناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق ومنهما ظهر تشمر
لجده وإنكاره بأقصى جهده وبذل غاية إمكانه في المخادعة والمكر والحيلة لدفعه حتى تصير الماراة فيه عادة طبيعية
فلا يسمع كلاماً إلا وينبعث من طبعه داعية الاعتراض عليه حتى يغلب ذلك على قلبه في أدلة القرآن والفاظ الشرع
فيضرب البعض منها بالبعض ، والمرء في مقابلة الباطل محدور إذ ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ترك المراء
بالحق على الباطل . قال صلى الله عليه وسلم : من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتاً في ربض الجنة ومن ترك المراء
وهو محق بنى الله له بيتاً في أعلى الجنة^(٢) ، وقد سوى الله تعالى بين من افترى على الله كذباً وبين من كذب بالحق
فقال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه ﴾ وقال تعالى ﴿ من أظلم ممن كذب على
الله وكذب بالصدق إذ جاءه ﴾ ومنها الرياء وملاحظة الخلق والجهد في استمالة قلوبهم وصرف وجوههم . والرياء
هو الداء العضال الذي يدعو إلى أكبر الكبائر - كما سيأتي في كتاب الرياء - والمناظر لا يقصد إلا الظهور عند الخلق
وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه ؛ وهذه عشر خصال من أمهات الفواحش الباطنة سوى ما يتفق لغير المتماسكين منهم من
الخصام المؤدى إلى الضرب والسك والطم وتمزيق الثياب والاختد بالحق وسب الوالدين وشم الاستاذين والقذف الصريح
فإن أولئك ليسوا معدودين في زمرة الناس المعتبرين وإنما الأكابر والعقلاء منهم هم الذين لا ينفكون عن هذه الخصال
العشر ، نعم قد يسلم بعضهم من بعضها مع من هو ظاهر الانحطاط عنه أو ظاهر الارتفاع عليه أو هو بعيد عن بلده
وأسباب معيشته ، ولا ينفك أحد منهم عنه مع أشكاله المقارنين له في الدرجة . ثم يتشعب من كل واحدة من هذه
الخصال العشر عشر أخرى من الرذائل لم نطول بدكرها وتفصيل آحادها مثل : الأنفة ، والغضب ، والبغضاء ،
والطمع ، وحب طلب المال ، والحاء للتمكن من الغلبة ، والمباهاة ، والأشر ، والبطر ، وتعظيم الأغنياء والسلاطين
والتردد إليهم والاختد من حرامهم ، والتجمل بالخيول والمرائب والثياب المحظورة ، والاستحقار للناس بالفخر
والخيلاء ، والخوض فيما لا يعني ، وكثرة الكلام ، وخروج الخشبة والخوف والرحمة من القلب ، واستيلاء
النفلة عليه حتى لا يدري المصلي منهم في صلاته ما صلى وما الذي يقرأ ومن الذي يناجيهِ ؟ ولا يحس بالخشوع من
قلبه مع استغراق العمر في العلوم التي تعين في المناظرة مع أنها لا تنفع في الآخرة : من تحسين العبارة وتسجيع اللفظ

(١) حديث : إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالالسن وتباغضوا بالقلوب ... الحديث أخرجه الطبراني من حديث سلمان
بإسناد ضعيف (٢) حديث : من ترك المراء وهو مبطل ... الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجة من حديث أنس مع
اختلاف . قال الترمذي ! حسن .

وحفظ النوادر إلى غير ذلك من أمور لا تحصى . والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم ولهم درجات شتى ولا ينفك أعظمهم ديناً وأكثرهم عقلاً عن جمل من مواد هذه الأخلاق وإنما غايته إخفاؤها ومجاهدة النفس بها . واعلم أن هذه الرذائل لازمة للمشغل بالتدكير والوعظ أيضاً إذا كان قصده طلب القبول وإقامة الجاه ونيل الثروة والعزة وهي لازمة أيضاً للمشغل بعلم المذهب والفتاوى إذا كان قصده طلب القضاء وولاية الأوقاف والتقدم على الأقران . وبالجملة هي لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الله تعالى في الآخرة فالعلم لا يهمل العالم بل يهلكه هلاك الأبدي أو يحياه حياة الأبدي ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه » فلقد ضره مع أنه لم ينفعه ؛ وليته نجاه من رأساً برأس ؛ وهيهات هيهات بخطر العلم عظيم ؛ وطالبه طلب الملك المؤبد ، والتعيم السرمدي ، فلا ينفك عن الملك أو الهلك ؛ وهو كطالب الملك في الدنيا ، فإن لم يتفقد له الإصابة في الأموال لم يطمع في السلامة من الإذلال بل لا بد من لزوم أفصح الأحوال * فإن قلت : في الرخصة في المناظرة فائدة وهي ترغيب الناس في طلب العلم إذ لولا حب الرياسة لاندست العلوم ؛ فقد صدقت فيما ذكرته من وجه ولكنه غير مفيد إذ لولا الوعد بالكرة والصولحان واللعب بالعصافير ما رغب الصبيان في المكتب وذلك لا يدل على أن الرغبة فيه محمودة ، ولولا حب الرياسة لاندرس العلم . ولا يدل ذلك على أن طالب الرياسة ناج بل هو من الذين قال صلى الله عليه وآله وسلم فيهم « إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ^(٢) » ، فطالب الرياسة في نفسه هالك وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا وذلك فيمن كان ظاهر حاله في ظاهر الأمر ظاهر حال علماء السلف ولكنه يضر قصد الجاه ، فثاله مثال الشمع الذي يحترق في نفسه ويستضيء به غيره فصلاح غيره في هلاكه وأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فثاله مثال النار المحرقة التي تأكل نفسها وغيرها . فالعلماء ثلاثة : إما مهلك نفسه وغيره وهم المصححون بطلب الدنيا والمقبلون عليها ، وإما مسعد نفسه وغيره وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهر أو باطن ، وإما مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره وقصده في الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه ، فإنا من أي الأقسام أنت ومن الذي اشتغلت بالاعتداد له ؟ فلا تظن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوحه تعالى من العلم والعمل . وسيايتك في كتاب الرياء بل في جميع ربيع المهلكات ما ينفي عنك الريبة فيه إن شاء الله تعالى .

الباب الخامس

في آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن ننظم تفاريقها عشر حل :

الوظيفة الأولى : تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقرينة الباطن إلى الله تعالى ؛ وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخبار فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس

(١) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » أخرجه النسائي من حديث أنس بإسناد صحيح .

(٢) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

الأوصاف. قال صلى الله عليه وسلم « نبي الدين على النظافة »^(١)، وهو كذلك باطنا وظاهرا قال الله تعالى ﴿إنما المشركون نجس﴾ تنبيه للعقول على الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر بالحس فالمشرك قد يكون زليفي الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر أى باطنه ماطخ بالخبائث . والنجاسة عبارة عما يجتنب ويطلب البعد عنه وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب فإنها مع خبثها في الحال مهلكات في المآل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ، لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ^(٢) ، والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط آروهم ومحل استقرارهم ؛ والصفات الرديئة مثل والغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب ناجحة فأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي ما يشاء﴾ وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها وهم المقدسون المطهرون المبرهون عن الصفات المذمومة فلا يلاحظون لإلطيا ولا يعمرون بما عندهم من خزان رحمة الله إلا لطيا طاهرا . ولست أقول المراد بلمط « البيت » هو القلب و« بالكلب » هو الغضب والصفات المذمومة ولكني أقول هو تنبيه عليه ، وفرق بين تعبير الطواهر إلى البواطن وبين التنبيه للباطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر ، ففارق الباطنية بهذه الدقيقة ، فإن هذه طريق الاعتبار وهو ملك العلماء والأبرار إذ معنى الاعتبار أن يبر ما ذكر إلى غيره فلا يقتصر عليه كما يرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيها له عبرة بأن يعبر منها إلى التنبيه لكونه أيضا عرضة المصائب وكون الدنيا بصدد الانقلاب ، فعبره من غيره إلى نفسه ومن نفسه إلى أصل الدنيا عبرة محمودة فاعبر أنت أيضا من البيت الذي هو بناء الخلق إلى القلب الذي هو بيت من بناء الله تعالى ومن الكلب الذي ذم لصفته - لصورته - وهو ما فيه من سببية ونجاسة إلى الروح السكببية وهي السببية . واعلم أن القلب المشحون بالغضب والشه إلى الدنيا والتكلب عليها والحرص على التزويق لأعراض الناس كلب في المعنى وقلب في الصورة ، فنور البصيرة يلاحظ المعاني لا الصور . والصورة في هذا العالم غالبية على المعاني والمعاني باطنة فيها . وفي الآخرة تتبع الصور المعاني وتقلب المعاني . فذلك يحشر كل شخص على صورته المنووبة « فيحشر الممزق لأعراض الناس كلبا ضاريا . والشه إلى أموالهم ذمبا عاديا ، والمتكبر عليهم في صورة نمر ، وطالب الرياسة في صورة أسد »^(٣) . وقد وردت بذلك الأخبار وشهده الاعتبار عند ذوي البصائر والأنصار . فإن قلت : كم من طالب ردى الأخلاق حصل العلوم فهيات ما أبعد عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة الجالب للسعادة فإن من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصي سمرم قاتلة مهلكة وهل رأيت من يتناول سما مع عله بكونه سما قاتلا ؟ إنما الذي تسمعه من المترسمين حديث يلفقونه بألسنتهم مرة ويرددونه بقلوبهم أخرى وليس ذلك من العلم في شيء . قال ابن مسعود رضي الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف في القلب . وقال بعضهم : إنما العلم الخشية لقوله تعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم . ولذلك قال بعض المحققين : معنى قولهم « تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا الله » أن العلم أبى وامتنع علينا فلم تتكشف لنا حقيقة وإنما حصل لنا

الباب الخامس

(١) حديث « نبي الدين على النظافة » لم أحده هكذا . وفي الضعفاء لأن حيار من حديث عائشة « تنظفوا فإن الإسلام نظيف » وللطبراني في الأوسط سند ضعيف جداً من حديث ابن مسعود « النظافة ادعوا إلى الأيمان » (٢) حديث « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب » متفق عليه من حديث أبي طلحة الأنصاري (٣) حديث « حصر المرق لأعراض الناس في صورة كلب ضار ... الحديث » أخرجه التعلي في التفسير من حديث البراء بسند ضعيف .

حديثه والفاظه : فإن قلت : أرى جماعة من العلماء والفقهاء المحققين برزوا في الفروع والأصول وعدوا من جملة الفضول وأخلافهم ذميمة لم يتطهروا منها ؟ فيقال : إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك أن ما اشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علما وإنما غناؤه من حيث كونه عملا لله تعالى إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى وقد سبقت إلى هذا إشارة . وسيأتيك فيه مزيد بيان وإيضاح إن شاء الله تعالى . الوظيفة الثانية : أن يقلل علاقته من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإنَّ العلاقة شاغلة وصارفة (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) ومهما توزعت الشكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قيل : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيك كله فإذا أعطيتك كله فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطر ، والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق مائه فنشفت لا . من بعضه واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المردع . الوظيفة الثالثة : أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على سخط بل يلتقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ويدعن النصيحة إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق . وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته . قال النعنع : صلى زيد بن ثابت على جنازة فحبرت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد : خل عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالكبراء وقبل زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ليس من أخلاق المؤمنين التعلق إلا في طلب العلم ^(٢) ، فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ومن تكبره على المعلم أن يستكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين وهو عين الحماقة فإن العلم سبب النجاة والسعادة ، ومن يطلب مهريا من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل ، وضراوة سبع البار بالجهال بالله تعالى أشد من ضراوة كل سبع فالحكمة ضالة المؤمن يفتسها حيث يظهر بها ويتقلد المنفعة لمن ساقها إليه كائنا من كان ؛ فلذلك قيل :

العلم حرب للفتى المتعالى كالسيل حرب للسكان العالي

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع قال الله تعالى (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلا للعلم فهما ، ثم لاتعينه القدرة على الفهم حتى يلتقي السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كل ما أتى إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنفعة . فليكن المتعلم لمعلمه كأرض دمنة نالت مطرا غزيرا فتشربت جميع أجزائها وأذغنت بالكلية لقبوله . ومهما أشار عليه المعلم بطريق في التعلم فليقلده وليدع رأيه فإن خطأ مرشده أزع له من صوابه في نفسه إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها ، فكم من مريض محروور يعالجه الطبيب في بعض أوقاته بالحرارة ليزيد في قوته إلى حد يحتمل صدمة العلاج فيعجب منه من لاخبرة له به ، وقد نبه الله تعالى بقصة الخضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر (إنك لن تستطع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال (فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) ثم لم يصبر ولم يزل في مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما . وبالجمله كل متعلم استبقى لنفسه رأيا واختيارا

(١) حديث « أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت » وقوله « هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء » أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل إلا أنهم قالوا « هكذا فعل » قال الحاكم : صحيح الإسناد على شرط مسلم (٢) حديث « ليس من أخلاق المؤمن التعلق إلا في طلب العلم » أخرجه ابن عدى من حديث معاذ وأبي أمامة بإسنادين صحيحين

دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران .

* فإن قلت : فقد قال الله تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون ﴾ فالسؤال مأمور به ؟ فاعلم أنه كذلك ولكن فيما يأذن المعلم في السؤال عنه فإن السؤال عما لم تبلغ مرتبتك إلى فهمه مذموم ، ولذلك منع الخضر موسى عليه السلام من السؤال : أى دع السؤال قبل أوانه فالمعلم أعلم بما أنت أهل له وبأوان الكشف . ومالم يدخل أوان الكشف في كل درجة من مراقب الدرجات لا يدخل أو ان السؤال عنه . وقد قال على رضي الله عنه : إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال ولا تغتته في الجواب ، ولا تلج عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشى له سرا ولا تفتن أحدا عنده ولا تطلبن عثرته ، وإن زل قبلت معدرته ، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى مادام يحفظ أمر الله تعالى ، ولا تجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته .

الوظيفة الرابعة ؛ أن يحتز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإضعاف إلى اختلاف الناس ، سواء كان ما غاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة : فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع ، بل ينبغى أن يتقن أولا الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه ، ثم بعد ذلك يصفى إلى المذاهب والشبه . وإن لم يكن أستاذه مستقلا باختيار رأى واحد وإنما عاده نقل المذاهب وما قيل فيها فليحذر منه فإن لإصله أكثر من إرشاده فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم ، ومن هدا حاله يعد في عمى الخيرة وتيه الجهل ، ومنع المبتدئ عن الشبه يضاهى منع الحديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار ، وندب القوي إلى النظر في الاختلافات يضاهى حث القوي على مخالطة الكفار ؛ ولهذا يمنع الجبان عن التهجم على صف الكفار ويندب الشجاع له . ومن الغفلة عن هذه الدقيقة طن بعض الضعفاء أن الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عنهم من المساهلات جائز ، ولم يدر أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء . وفي ذلك قال بعضهم : من رآني في البداية صار صديقا ، ومن رآني في النهاية صار زنديقا ، إذ النهاية ترد الأعمال إلى الباطن وتسكن الجوارح إلا عن روائب الفرائض ؛ فيترامى للناظرين أنها بطالة وكسل وإهمال ، وهيئات فذلك مرابطة القلب في عين الشهود والحضور وملازمة الذكر الذي هو أفضل الأعمال على الدوام ؛ وتشبه الضعيف بالقوي فيما يرى من ظاهره أنه هفوة يضاهى اعتذار من يلقي نجاسة يسيرة في كوز ماء ويتعلل بأن أضعاف هذه النجاسة قد بلقي في البحر والبحر أعظم من الكوز فما جاز للبحر فهو للكوز أحوز . ولا يدرى المسكين أن البحر بقوته يحيل النجاسة ماء فتقلب عين النجاسة باستيلائه إلى صفته ، والقليل من النجاسة يغلب على الكوز ويحمله إلى صفته ، ومثل هذا جوز للتبى صلى الله عليه وسلم مالم يجوز لغيره حتى أيسح له تسع نسوة ^(١) إذ كان له من القوة ما يتمدى منه صفة العدل إلى نساءه وإن كثرن ، وأما غيره فلا يقدر على بعض العدل بل يتمدى ما يتهن من الضرر إليه حتى ينجر إلى مصيبة الله تعالى في طلبه رضاهن . فما أطلع من قاس الملائكة بالحدادين

الوظيفة الخامسة : أن لا يدع طالب العلم فنا من العلوم المحمودة ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه وإلا اشتغل بالآم منه واستوفاه وتطرف من البقية ؛ فإن العلوم متعاونه وبعضها مرتبط ببعض ، ويستفيد منه في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب

(١) حديث « أيسح له صلى الله عليه وسلم تسعة نسوة » وهو معروف . وفي الصحيحين من حديث ابن عباس « كان عد النبي صلى الله عليه وسلم تسع ... الحديث » .

جهله ؛ فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إلفك قديم ﴾ . قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض * يجد مرا به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى ، أو معينة على السلوك نوعاً من الإعانة ، ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود ، والقوام بها حفظة كحفاظ الرباطات والثغور ، ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته أجر في الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالى .

الوظيفة السادسة : أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعى الترتيب ويبتدئ بالآهم . فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بسمه ويصرف جوامع فوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة أعني قسمي المعاملة والمكاشفة ، فغاية المعاملة المكاشفة . وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى ؛ ولست أعني به الاعتقاد الذي يتلقفه العايم ورائة أو تلقفا ؛ ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصيل الكلام عن مرواغات الخصوم كما هو غاية المتكلم ، بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبد طهر بالمجاهدة باطنه عن الخبايا حتى يفتنى إلى رتبة إيمان أبي بكر رضي الله عنه الذي لو وزن إيمان العالمين لرجح^(١) كما شهد له به سيد البشر صلى الله عليه وسلم ، فاعندى أن ما يعتقده العايم ويرتبه المتكلم الذي لا يزيد على العايم إلا في صنعة الكلام ، ولأجله سميت صناعته كلاماً ، وكان يعجز عنه عمر عثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم ، حتى كان يفضلهم أبو بكر بالسر الذي وقر في صدره . والعجب ممن يسمع مثل هذه الأقوال من صاحب الشرع - صلوات الله وسلامه عليه - ثم يزدرى ما يسمعه على وفقه ويزعم أنه من ترهات الصوفية وأن ذلك غير معقول ؛ فينبغي أن تتلذذ في هذا فعنده ضيعت رأس المال ، فكن حريصاً على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين ولا يرشدك إليه إلا حرصك في الطلب .

وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل وهو بحر لا يدرك منتهى غوره ، وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ثم الأولياء ثم الذين يلونهم . وقد روى أنه رأى صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين في مسجد وفي يد أحدهما رقعة فيها : إن أحسنت كل شيء فلا تظن أنك أحسنت شيئاً حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء . وفي يد الآخر كنت قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظلم ، حتى إذا عرفته رويت بلا شرب

الوظيفة السابعة : أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله ؛ فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض ، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدرج . قال الله تعالى ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾ أي لا يجاوزون فحاشي يحكموه علماً وعملاً ، وليكن قصده في كل علم يتجراه الترقى إلى ما هو فوقه ؛ فينبغي ألا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه ، ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه ، ولا بمخالفتهم موجب علمهم بالعمل ؛ فترى جماعة تركوا النظر في العقليات والفقهيات ، متعللين فيها بأنها لو كان لها أصل لأذركه أربابها ؛ وقد مضى كشف هذه الشبهة في كتاب (معيار العلم) وترى طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطأ شاهده من طبيب ، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفق لواحد ، وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ اتفق لآخر . والكل خطأ ، بل

(١) حديث « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح » أخرجه ابن عدى من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف ؛ ورواه البيهقي في الشعب موقوفاً على عمر بإسناد صحيح .

ينبغي أن يعرف الشيء في نفسه ، فلا كل علم يستقل بالإحاطة به كل شخص ولذلك قال علي رضي الله عنه : لا تعرف الحق بالرجال . اعرف الحق تعرف أهله

الوظيفة الثامنة : أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم ، وأن ذلك يراد به شيان : أحدهما : شرف الثمرة والثاني : وثاقة الدليل وقوته ، وذلك كعلم الدين وعلم الطب فان ثمرة أحدهما الحياة الابدية وثمره الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف . ومثل علم الحساب وعلم النجوم فان علم الحساب أشرف لوثاقته أدلته وقوتها وإن نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته والحساب أشرف باعتبار أدلته وملاحظة الثمرة أولى : ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين . وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم فإياك أن ترغب إلا فيه وأن تحرص إلا عليه .

الوظيفة التاسعة : أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل القرب من الله سبحانه والارتقاء إلى جوار الملائكة الأعلى من الملائكة والمقربين ، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه وعمارة السفهاء ومباهاة الأفران وإن كان هذا مقصده طالب لا محالة الأفرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة : ومع هذا فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحقدارة إلى سائر العلوم أعنى علم الفتاوى وعلم النحو واللغة المتعلقة بالكتاب والسنة وغير ذلك مما أوردناه في المقدمات والمتمات من ضروب العلوم التي هي فرض كفاية ، ولا تفهم من غلونا في التثاء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم فالتكفلون بالعلوم كالتكفلين بالثغور والمراطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله فهم المقاتل ومنهم الردء ومنهم الذي يسقيهم الماء ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتمهدهم ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم فكذلك العلماء قال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ وقال تعالى ﴿ هم درجات عند الله ﴾ والفضيلة نسبية . واستحقاقنا للصياغة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين فلا تظن أن ما نزل عن الرتبة القصوى سائط القدر بل الرتبة العليا للأنبياء ثم الأولياء ثم العلماء الراحمين في العلم ثم الصالحين على تفاوت درجاتهم وبالجملة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ ومن قصد الله تعالى بالعلم أى علم كان نفعه ورفعه لا محالة . الوظيفة العاشرة : أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره . ومعنى المهم ما يهملك - ولا يهملك إلا شأنك في الدنيا والآخرة . وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجري مجرى العيان فالأهم ما يبقى أبد الآباد وعند ذلك تصوير الدنيا منزلاً والبدن مركباً والأعمال سعيّاً إلى المقصد ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى ففيه النعيم كله وإن كان لا يعرف في هذا العالم قدره إلا الأفلون . والعلوم بالإضافة إلى سعادة لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم - أعنى النظر الذي طلبه الأنبياء وفهموه دون ما سبق إلى فهم العوام والمتكلمين - على ثلاث مراتب تفهمها بالموازنة بمثال وهو أن العبد الذي علق عتقه وتمكينه من الملك بالحج وقيل له إن حججت وأتممت وصلت إلى العتق والملك جميعاً وإن ابتدأت بطريق الحج والاستعداد له وعافك في الطريق مانع ضرورى فلك العتق والخلاص من شقاء الرق فقط دون سعادة الملك فله ثلاثة أصناف من الشغل ، الأول . تهيئة الأسباب بشراء الناقة وخرز الراوية وإعداد الزاد والراحلة والثاني السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلاً بمد منزل . والثالث : الاشتغال بأعمال الحج ركناً بعد ركناً ثم بعد الفراغ والنزوع عن هيئة الإحرام وطواف الوداع استحقاق التعرض للملك والسلطنة ، وله في كل مقام منازل من أول إعداد الأسباب إلى آخره ،

من أول سلوك البوادي إلى آخره ، ومن أول أركان الحج إلى آخره . وليس قرب من ابتداء بأركان الحج من السعادة كقرب من هو بعد في إعداد الزاد والراحلة ولا كقرب من ابتداء بالسلوك بل هو أقرب منه ، فالعلوم أيضاً ثلاثة أقسام : قسم يجري مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن في الدنيا . وقسم يجري مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات وهو تطهير الباطن عن كدورات الصمات وطلوع تلك العقبات الشائخة التي عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقين فهذا سلوك الطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله وكما لا ينفي علم المنازل وطرق البوادي دون سلوكها كذلك لا يعني علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب ولكن المباشرة دون العلم غير ممكن . وقسم ثالث يجري مجرى نفس الحج وأركانه وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ما ذكرناه في تراجم المكاشفة وههنا بحجة وفوز بالسعادة والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة . وأما الفوز بالسعادة فلا يناله إلا العارفون بالله تعالى وهم المقربون المنعمون في حوار الله تعالى بالروح والريحان وجنة النعيم وأما المموسعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال الله عز وجل ﴿ فَمَا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحَ وَرَيْحَانٍ وَجَنَّةٍ نَعِيمٍ وَأَمَا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ وكل من لم يتوجه إلى المقصد ولم يتهض له أو انتهض إلى جهته لا على قصد الامتثال والعبودية بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال ومن الضالين فله نزل من حميم وتصلي حجيم . واعلم أن هذا هو حق اليقين عند العلماء الراشحين أعني أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن هي أقوى وأجلى من مشاهدة الأنصار وترقوا فيه عن حد التقليد لمجرد السماع ، وحالهم حال من أخبر فصدق ثم شاهد فحقق وحال غيرهم حال من قبل بحس التصديق والإيمان ولم يحظ بالمشاهدة والعيان . فالسعادة وراء علم المكاشفة وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التي هي سلوك طريق الآخرة وقطع عقبات الصفات . وسلوك طريق نحو الصفات المذمومة وراء علم الصفات وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك في ذلك وراء علم سلامة البدن ومساعدة أسباب الصحة . وسلامة البدن بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذي يتوصل به إلى الملبس والمطعم والسكن وهو منوط بالسلطان وقانونه في ضبط الناس على منهج العدل والسياسة في ناصية الفقيه . وأما أسباب الصحة في ناصية الطبيب ومن قال « العلم علان : علم الأبدان وعلم الأديان ، وأشار به إلى الفقه أراد به العلوم الظاهرة الشائعة للعلوم العزيزة الباطنة » فإن قلت : لم شبهت علم الطب والفقه بإعداد الزاد والراحلة ؟ فأعلم أن الساعي إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن ولست أعني بالقلب اللحم المحسوس بل هو من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس ولطيفة من لطائفه تارة يعبر عنه بالروح وتارة بالنفس المهيمنة ، والشرع يعبر عنه بالقلب لأنه المطية الأولى لذلك السر وبواسطته صار جميع الدن مطية وآلة لتلك اللطيفة ، وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة وهو مضمون به بل لارخصة في ذكره ، وغاية المأذون فيه أن يقال هو جوهر نفيس ودرّ عزيز أشرف من هذه الأجرام المريئة وإنما هو أمر إلهي كما قال تعالى ﴿ ويستلئونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ وكل المخلوقات منسوبة إلى الله تعالى ولكن نسبته أشرف من نسبة سائر أعضائه البدن فله الخلق والأمر جميعاً ، والأمر أعلى من الخلق . وههنا الجوهرة النفيسة الحاملة لأمانة الله تعالى المتقدمة بهذه الرتبة على السموات والأرضين والجبال إذ أبين أن يحملنها وأشفقن منها من عالم الأمر : ولا يفهم من هذا أنه تعريض بقدمها فإن القائل بقدم الأرواح مغرور جاهل لا يدري ما يقول فلنقبض عنان البيان عن هذا الفن وهو وراء ما نحن بصدد . والمقصود أن هذه اللطيفة هي الساعية إلى قرب الرب لأنها من أمر الرب فنه مصدرها وإليه

مرجعها ، وأما البدن فطبيعتها التي تركيبها وتسعى بواسطتها ، فالبدن لها في طريق الله تعالى كالثاقفة للبدن في طريق الحج وكالراوية الخازنة للماء الذي يفتقر إليه البدن فكل علم مقصده مصلحة البدن فهو من جملة مصالح المطية . ولا ينبغي أن الطب كذلك فإنه قد يحتاج إليه في حفظ الصحة على البدن ولو كان الإنسان وحده لاحتاج إليه : والفقه يفارقه في أنه لو كان الإنسان وحده ربما كان يستغنى عنه ولكنه خلق على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده إذ لا يستقل بالسعى وحده في تحصيل طعامه بالحراثة والزرع والخبز والطبخ وفي تحصيل الملابس والمسكن وفي إعداد آلات ذلك كله فاضطر إلى المخالطة والاستعانة . ومهما اختلط الناس واثرت شهواتهم تجاوزوا أسباب الشهوات وتنازعوا وتقاتلوا وحصل من قتالهم هلا كههم بسبب التنافس من خارج كما يحصل هلا كههم بسبب تضاد الاخلاط من داخل ، وبالطب يحفظ الاعتدال في الاخلاط المتنازعة من داخل ، وبالساسة والعدل يحفظ الاعتدال في التنافس من خارج ، وعلم طريق اعتدال الاخلاط طب ، وعلم طريق اعتدال أحوال الناس في المعاملات والأفعال فقه . وكل ذلك لحفظ البدن الذي هو مطية فالمتجرد لعلم الفقه أو الطب إذا لم يجاهد نفسه ولا يصلح قلبه كالتجرد لشراء الثاقفة وعلفها وشراء الراوية وخرزها إذا لم يسلك بادية الحج . والمستغرق عمره في دقائق السكبات التي تحرق في مجادلات الفقه كالمستغرق عمره في دقائق الأسباب التي بها تستحكم الخيوط التي تخرز بها الراوية للحج . ونسبة هؤلاء من السالكين لطريق إصلاح القلب الموصل إلى علم المكاشفة كنسبة أوثاك إلى سالكى طريق الحج أو ملابسى أركانه : فتأمل هذا أولا واقبل النصيحة بجاننا ممن قام عليه ذلك غالبا ولم يصل إليه إلا بعد جهد جهيد وحراة تامة على مبانة الخلق العامة والخاصة في النزوع من تقليدهم بمجرد الشهوة ، فهذا القدر كاف في وظائف المعلم .

بيان وظائف المرشد المعلم

اعلم أن الإنسان في علمه أربعة أحوال كحالة في اقتناء الأموال : إذ لصاحب المال حال استعادة فيكون مكتسبا ، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنيا عن السؤال . وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعا ، وحال بذل لغيره فيكون به سخيا متفضلا وهو أشرف أحواله . فكذلك العلم يقتضى كما يقتضى المال فله حال طلب واكتساب وحال تحصيل يقضى عن السؤال وحال استبصار وهو التفكير في المحصل والتتبع به وحال تبصير وهو أشرف الأحوال : فمن علم وعمل وعلم فهو الذى يدعى عظيما في ملكوت السموات فإنه كالشمس تضى لغيرها وهى مضيئة فى نفسها وكالمسك الذى يطيب غيره وهو طيب . والذى يعلم ولا يعمل به كالدفر الذى يفيد غيره وهو خال عن العلم وكالمسن الذى يشحذ غيره ولا يقطع والإبرة التى تكسو غيرها وهى عارية وذباله المصباح تضى لغيرها وهى تحترق كاقيل :

ما هو إلا ذباله وقدت تضى للناس وهى تحترق

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما فليحفظ آدابه ووظائفه (الوظيفة الأولى) الشفقة على المتعلمين وأن يحرمهم بجرى بنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده »^(١) ، بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا : ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية والمعلم سبب الحياة الباقية . ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم وإنما المعلم هو المفيد للحياة الآخورية الدائمة أعنى معلم علوم الآخرة أو علوم

(١) حديث « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة

الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا ، فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه . وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادر ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا . فإن العلماء وأبناء الآخرة مسافرون إلى الله تعالى وسالكون إليه الطريق من الدنيا ، وسنوها وشهورها منازل الطريق . والترافق في الطريق بين المسافرين إلى الأمصار سبب التواد والتحاب فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى والترافق في طريقه ؟ ولا ضيق في سعادة الآخرة فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ولا سعة في سعاداتهم الدنيا فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم . والعالون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) وداخون في مقتضى قوله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) (الوظيفة الثانية) أن يقتدى لصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فلا يطلب على إفادة العلم أجرا ولا يقصد به جزاء ولا شكراً بل يعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه ولا يرى لنفسه منة عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها ، كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض فكيف تقلده منة وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى ؟ ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال عز وجل (وباقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله) فإن المال وما في الدنيا خادم البدن والبدن مركب النفس ومطيتها والمخدوم هو العلم إذ به شرف النفس . فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه فجعل المخدوم خادماً والمخدوم غدوماً وذلك هو الانتكاس على أم الرأس ، ومثله هو الذي يقوم في العرض الأكبر مع المجرمين ناكس رؤوسهم عند ربهم . وعلى الجملة فالفضل والمنة للعلم فانظر كيف انتهى أمر الدين إلى قوم يرمون أن مقصودهم التقرب إلى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والكلام والتدريس فيهما وفي غيرهما ؟ فانهم يذلون المال والجاء ويتحملون أصناف الذل في خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات ولوتركوا ذلك لتركوا ولم يختلف إليهم ثم يتوقع المعلم من المتعلم أن يقوم له في كل نائبة وينصر وليه ويعادى عدوه وينتهض جهاراً له في حاجاته ومسخر بين يديه في أوطاره : فإن قصر في حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه . فأخس معلم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ثم لا يستحي من أن يقول غرضي من التدريس نشر العلم تقرباً إلى الله تعالى ونصرة لدينه فانظر إلى الأمارات حتى ترى ضروب الاغترارات (الوظيفة الثالثة) أن لا يدع من نصيح المتعلم شيئاً وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقييح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده : فإن علم من باطنه أنه لا يطلب العلم إلا للدنيا نظر إلى العلم الذي يطلبه فإن كان هو علم الخلاف في العقيدة والجدل في الكلام والفتاوى في الخصومات والأحكام فيمنعه من ذلك فإن هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولا من العلوم التي قيل فيها « تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون لإلا الله » وإنما ذلك علم التفسير وعلم الحديث وما كان الأولون يشتغلون به من علم الآخرة ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها فإذا تعلمه الطالب وقصد به الدنيا فلا بأس أن يتركه فإنه يثمر له طمعا في الوعظ والاستبناح ولكن قد يتنبه في أثناء الأمر أو آخره إذ فيه العلوم المخوفة من الله تعالى المحقرة للدنيا المعظمة للآخرة ، وذلك

يوشك أن يؤدي إلى الصواب في الآخرة حتى يتعظ بما يعظ به غيره . ويجرى حب القبول والجاه مجرى الحب الذى ينثر حوالى الفح ليقتنص به الطير وقد فعل الله ذلك بعباده إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها إلى بقاء النسل . وخلق أيضا حب الجاه ليكون سببا لإحياء العلوم وهذا متوقع فى هذه العلوم فأما الخلافيات المحضة ومجادات الكلام ومعرفة التفاريع الغريبة فلا يزيد التجرد لها مع الإعراض عن غيرها إلا قسوة القلب وغفلة عن الله تعالى وتباديا فى الضلال وطلبا للجاه إلا من تداركه الله تعالى برحمته أو مزج به غيره من العلوم الدينية . ولا برهان على هذا كالتجربة والملاحظة فانظر واعتبر واستبصر لتشاهد تحقيق ذلك فى العباد والبلاد والله المستعان . وقد روى سفيان الثورى رحمه الله حزينا فقيلا له : مالك ؟ فقال : صرنا متجرا لأبناء الدنيا يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاضيا أو عاملا أو قهرمانا (الوظيفة الرابعة) وهى من دقائق صناعة التعليم أن يحرر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض مأمكنا ولا يصرح . وطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ فإن التصريح يهتك حجاب الهيئة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الإصرار إذ قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل معلم : لو منع الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا مانهنا عنه إلا وفيه شيء (١) ، وينهك على هذا قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نهيها عنه ؛ فما ذكرت القصة معك لتكون سمرأ بل لتنبه بها على سبيل العبرة ولأن التعريض أيضا يميل النفوس الفاصلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه ويفيد هرج التفتن لمعناه رغبة فى العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته (الوظيفة الخامسة) أن المتكفل ببعض العلوم ينبغى أن لا يقبح فى نفس المتعلم العلوم التى وراءه ، كعلم اللغة إذ عاداته تقيح علم الفقه . ومعلم الفقه عاداته تقيح علم الحديث والتفسير وأن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن المعجائر ولا تغار للعقل فيه ، ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول : ذلك هروع وهو كلام فى حيض النسوان هأين ذلك من الكلام فى صفة الرحمن ؟ فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغى أن تجتنب بل المتكفل بعلم واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غيره وإن كان متكفلا بعلوم فينبغى أن يراعى التدرىج فى ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة (الوظيفة السادسة) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه مالا يبالغه عقله فينفره أو يخط عليه عقله اقتداء فى ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم (٢) » ، فليتب إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها وقال صلى الله عليه وسلم « ما أحد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم » وقال على رضى الله عنه - وأشار إلى صدره - « إن ههنا لعلومأ جملة لو وحدت لها حملة ، وصدق رضى الله عنه فقلوب الأبرار قبور الأسرار . فلا ينبغى أن يفتشى العالم كل ما يعلم إلى كل أحد ؛ هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلا للانتفاع به فكيف فيما لا يفهمه ؟ وقال عيسى عليه السلام : لا تملقوا الجواهر فى أعناق الخنازير فإن الحكمة خير من الجواهر ومن كرهها فهو شر من الخنازير » ولذلك قيل : كل لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار : وسئل بعض العلماء عن شىء فلم يجب فقال السائل : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجأ بلجام من نار (٣) » ، فقال :

(١) حديث « لو منع الناس عن فت البعر لفتوه ... الحديث » لم أجده (٢) حديث « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نزل الناس منازلهم ... الحديث » رواه فى جزء من حديث أبي بكر بن الصخير من حديث عمر أخضر منه - وعبد أبي داود من حديث عائشة « أنزلوا الناس منازلهم » (٣) حديث « من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجأ بلجام من نار » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف ؛ وتقدم حديث أبي هريرة بنحوه .

اترك اللحام واذهب فإن جاء من يفقه وكتمته فلياجمني فقد قال الله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) تنديها على أن حفظ العلم بمن يفسده ويضره أولى ، وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق :

أأنثر درا بين سارحة العم فأصبح محزوما براعية الغم
لأنهم أمسوا بجهل لقدره فلا أنا أصحى أن أطوقه بهم
فإن لطف الله اللطيف بلطفه وصادعت أهلا للعلوم وللحكم
نشرت مفيداً واستفدت مودة وإلا فمحزون لدى ومكتنم
فمن منج الجهال علما أضاعه ومن منع المستوحين فقد ظلم

(الوظيفة السابعة) أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلتقي إليه الجلى اللائق به ولا يذكر له وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه فإن ذلك يفتر رغبته في الجلى ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق . فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه في كمال عقله وأشد هم حماقة وأضعفهم عقلاً هو أفرحهم بكال عقله . وبهذا يعلم أن من قيد من العوام بقيد الشرع ورسخ في نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل وحسن مع ذلك سريره ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده بل ينبغي أن يحل وحرفته ، فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر اتحل عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخوض فيرتفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي وينقلب شيطاناً مريداً بهلك نفسه وعبره ؛ بل لا ينبغي أن يحاص مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر مهمهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة في الصاعات التي هم بصدددها ويملا قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار كما نطق به القرآن ولا يحرك عليهم شبهة فإنه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويحسر عليه حلها فيشقى ويهلك . وبالجمل لا ينبغي أن يفتح للعوام باب البحث فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص (الوظيفة الثامنة) أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فله لأن العلم يدرك بأبصار والعمل يدرك بالابصار وأرباب الابصار أكثر . فإذا خالف العمل العلم منع الرشد وكل من تناول شيئاً وقال للناس لا تناولوه فإنه مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به . ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ومتى استوى الطل والعود أعوج ؟ ولذلك قيل في المعنى :

لأنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكثر من وزر الجاهل إذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون به . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها . ولذلك قال على رضي الله عنه قسم ظهري رجلان ؛ عالم مهتك وجاهل متنسك ؛ فالجاهل يفر الناس بتنسكه ، والعالم يفرهم بتهتكه . والله اهل .

الباب السادس

في آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

قد ذكرنا ماورد من فضائل العلم والعلماء ، وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذاباً يوم القيامة . فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ونعني بعلماء الدنيا

علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها قال صلى الله عليه وسلم : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « العلم علمان : علم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على خلقه وعلم في القلب فذلك العلم النافع »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يكون في آخر الزمان عباد جهال وعلماء فساق »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء ولتصرفوا به وجره الناس اليكم فن فعل ذلك فهو في النار »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من كتم علماً عنده ألجمه الله بلجام من نار » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لانا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال . فقيل : وما ذلك ؟ فقال : من الأئمة المضلين »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من ازداد علماً ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعداً »^(٦) ، وقال عيسى عليه السلام : إلى متى تصفون الطريق للدلجين وأتئم مقيمون مع المتحيرين ، فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظيم خطر العلم فإن العالم إما متعرض لهلاك الأبد أو لسعادة الأبد ولأنه بالخوض في العلم قد حرم السلامة إن لم يدرك السعادة . وأما الآثار فقد قال عمر رضي الله عنه : « إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المناقاة العليم . قالوا : وكيف يكون منافاة عالماً ؟ قال : عليم اللسان جاهل القلب والعمل . وقال الحسن رحمه الله : لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجري في العمل مجرى السفهاء . وقال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال : كني بترك العلم إضاعة له . وقيل لإبراهيم بن عيينة : أي الناس أطول ندماً ؟ قال : أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره وأما عند الموت فعالم مقطوع . وقال الخليل بن أحمد : الرجال أردمة ، رجل يدرى ويدري أنه يدرى ذلك عالم فاتبعوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فذلك نائم فأيقظوه ، ورجل لا يدرى ويدري أنه لا يدرى فذلك مسترشد فأرشدوه ، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فذلك جاهل فإرضوه . وقال سفيان الثوري رحمه الله : يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل . وقال ابن المبارك : لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل . وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : إني لأرحم ثلاثة : عزيز قوم ذل وغني قوم افتقر وعالم تلعب به الدنيا . وقال الحسن : عقوبة العلماء موت القلب ، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة وأنشدوا :

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ومن يشتري دنياه بالدين اعجب
واعجب من هدين من باع دينه بدنيا سواء فهو من ذين اعجب

الباب السادس

(١) حديث « لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً » أخرجه ابن حبان في كتاب روضة العقلاء ، والبيهقي في المدخل موقفاً على أبي الدرداء ولم أجده مرفوعاً . (٢) حديث « العلم علمان علم على اللسان ... الحديث » أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر وابن عبد البر من حديث الحسن مرسلاً بإسناد صحيح ، وأسند الخطيب في التاريخ من رواية الحسن عن جابر بإسناد جيد وأعله ابن الجوزي . (٣) حديث « يكون في آخر الزمان عباد جهال وعلماء فسقة » أخرجه الحاكم من حديث أس وهو ضعيف . (٤) حديث « لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح . (٥) حديث « لانا من غير الدجال أخوف نايكم من الدجال » الحديث أخرجه أحمد من حديث أبي ذر بإسناد جيد . (٦) حديث « من ازداد علماً ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعداً » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسنده الفردوس وحديث على بإسناد ضعيف إلا أنه قال « زهداً » وروى ابن حبان في روضة العقلاء موقفاً على الحسن « من ازداد علماً ثم ازداد هلى الدنيا حرصاً لم يزد من الله إلا بعداً » وروى أبو الفتح الأزدي في الضعفاء من حديث على « من ازداد بالله علماً ثم ازداد للدنيا حباً ازداد الله عليه غضاً »

وقال صلى الله عليه وسلم « إن العالم ليعذب عذاباً يطيّف به أهل النار استعظماً لشدة عذابه ^(١) » ، أراد به العالم الفاجر . وقال أسامة بن زيد : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيّف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت آمر بالخير ولا آتية وأنهى عن الشر وآتية ^(٢) » ، وإنما يضاعف عذاب العالم في معصيته لأنه عصى عن علم ولذلك قال الله عز وجل ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ لأنهم جحدوا بعد العلم ، وجعل اليهود شراً من النصارى مع أنهم ما جعلوا لله سبحانه ولداً ولا قالوا : إنه ثالث ثلاثة ، إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة إذ قال الله ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ وقال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ وقال تعالى - في قصة بلعام بن باعوراء - ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ حتى قال ﴿ فَثَلَّ كَثَلُ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكَ يَلْهَثُ ﴾ فكذلك العالم الفاجر فان بلعام أوتى كتاب الله تعالى فأخذ إلى الشهوات فشبه بالكلب أى سواء أوتى الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث إلى الشهوات . وقال عيسى عليه السلام : مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هى تشرب الماء ولا هى تترك الماء يخلص إلى الزرع ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها حص وباطنها نتن ، ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى : فهذه الأخبار والآثار تبين أن العالم الذى هو من أبناء الدنيا أخص حالاً وأشدّ عذاباً من الجاهل . وأن الفاسقين المقربين هم علماء الآخرة ولهم علامات : فمنها أن لا يطلب الدنيا بعلمه فان أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم أنهما متضادتان وأنهما كالضرتين مهما أُرصيت إحداهما أسخطت الأخرى وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى وأنهما كالشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر وأنهما كقندين أحدهما مملوء والآخر فارغ فيقدر ما تصب منه في الآخر حتى يمتلئ يفرغ الآخر . فان من لا يعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذاتها بألمها ثم انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل . فان المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك فكيف يكون من العلماء من لا عقل له ؟ ومن لا يعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر مسلوب الإيمان فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وأن الجمع بينهما طمع فى غير مطمع ؟ فهو جاهل بشرائع الانبياء كلهم بل هو كافر بالقرآن كله من أوله إلى آخر فكيف يعدّ من زمرة العلماء ؟ ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعدّ من حزب العلماء من هذه درجته ؟ وفي أخبار داود عليه السلام حكاية عن الله تعالى « إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا أثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذىذ مناجاتي ، ياداد ولا تسأل عنى عالماً قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادى ، ياداد وإذا رأيت لى طالباً فكن له خادماً ؛ ياداد من رد إلى هارباً كتيته جهيداً ومن كتيته جهيداً لم أعذبه أبداً » ولذلك قال الحسن رحمه الله : عقوبة العلماء موت القلب وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة . ولذلك قال يحيى بن معاذ : إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا . وقال سعيد بن المسيب رحمه الله : إذا رأيت العالم يغشى الأمراء

(١) حديث « إن العالم يعذب عذاباً يطيّف به أهل النار . الحديث » لم أجده بهذا اللفظ وهو معنى حديث أسامة المذكور بعده

(٢) حديث أسامة بن زيد « يؤتى بالعالم يوم القيامة ويقال فى النار فتندلق أفتابه . الحديث » متفق عليه باللفظ « الرجل »

فهو لص ، وقال عمر رضى الله عنه : إذا رأيتم للعالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محب يخوض فيما أحب وقال مالك بن دينار رحمه الله : قرأت في بعض الكتب السالفة إن الله تعالى يقول إن أهون ما أصنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتي من قلبه . وكتب رجل إلى أخ له : إنك قد أوتيت علماً فلا تطفئن نور عليك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم ، وكان يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله يقول لعلماء الدنيا : يا أصحاب العلم قصوركم قيصريه وبيوتكم كسروية وأثوابكم ظاهرية وأخفافكم جالوتية ومراكبكم قارونية وأوانيكم فرعونية وما تمكم جاهلية ومذاهبكم شيطانية فأين الشريعة المحمدية ؟ قال الشاعر :

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب ؟

وقال الآخر :

يا معشر القسراء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد ؟
وقيل لبعض العارفين : أتري أن من تكون المعاصي قرة عينه لا يعرف الله ؟ قال لا شك أن من تكون الدنيا عنده أثر من الآخرة أنه لا يعرف الله تعالى . وهذا دون ذلك بكثير ولا تظن أن ترك المال يكفي في الحقوق بعلماء الآخرة فإن الجاه أضر من المال . ولذلك قال بشر « حدثنا ، باب من أبواب الدنيا فإذا سمعت الرجل يقول « حدثنا » فأنما يقول : أوسعوا لي . ودهن بشر بن الحرث بضعة عشر ما بين قطرة وقوصرة من الكتب وكان يقول : أنا أشتى أن أحدث ، ولو ذهبت عنى شهوة الحديث لحديث ، وقال هو وغيره : إذا اشتيت أن تحدث فاسكت فإذا لم تشته تحدث . وهذا لأن التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد أعظم لذة من كل تنعم في الدنيا فمن أجاب شهوته فيه فهو من أبناء الدنيا . ولذلك قال الثوري : فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد وكيف لا تخاف فتنته وقد قيل لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً) وقال سهل رحمه الله : العلم كله دنيا والآخرة منه العمل به والعمل كله هباء إلا الإخلاص . وقال : الناس كلهم موقى إلا العلماء والعلماء سكارى إلا العاملين والعاملون كلهم مغرورون إلا المحصلين والمخلص على وجل حتى يدري ماذا يختم له به . وقال أبو سليمان المداري رحمه الله : إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر في طلب المعاش ، فقد ركن إلى الدنيا وإنما أراد به طلب الأسانيد العالية أو طلب الحديث الذي لا يحتاج إليه في طلب الآخرة ، وقال عيسى عليه السلام : كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على طريق دنياه وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به ؟ وقال صالح بن كيسان البصري : أدرت الشيوخ وهم يتعوزون بالله من الفاجر العالم بالسنة . وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من طلب علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة »^(١) ، وقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد . فقال عز وجل في علماء الدنيا (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً) وقال تعالى في علماء الآخرة (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم) وقال بعض السلف : العلماء يحشرون في زمرة الأنبياء والقضاة يحشرون في زمرة السلاطين . وفي معنى القضاة كل فقيه قصده طلب الدنيا بعلمه . وروى

(١) حديث أبي هريرة « من طلب علماً مما يبتغى به وجه الله ليصيب به عرضاً ... الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه

أبو الدرداء رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أوحى الله عز وجل إلى بعض الأنبياء : قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أتمر من الصبر لىأى يحادعون وبى يستهزئون لافتحن لهم فتنة تذر الحليم حيران (١) » ، وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علماء هذه الأمة رحلان : رجل آتاه الله علماً فبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعاً ولم يشتري به ثمناً فذلك يصلى عليه طهر السماء وحيتان الماء ودواب الأرض والكرام الكاتبون يقدم على الله عز وجل يوم القيامة سيداً شريفاً حتى يوافق المرسلين ، ورجل آتاه الله علماً فى الدنيا ففطن به على عباد الله وأخذ عليه طمعاً واشترى به ثمناً فذلك يأتى يوم القيامة ملجأ بلجام من نار ينادى مناد على رؤوس الخلائق هذا فلان بن فلان آتاه الله علماً فى الدنيا ففطن به على عباد الله وأخذ به طمعاً واشترى به ثمناً فيعذب حتى يفرغ من حساب الناس (٢) » ، وأشد من هذا ما روى أن رجلاً كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول حدثنى موسى صلى الله عليه وسلم حدثنى موسى نوحى الله حدثنى موسى كلسم الله حتى أترى وكثر ماله فنقده موسى عليه السلام فجعل يسأل عنه ولا يحس له خبراً حتى حاه رجل ذات يوم وفى يده خنزير وفى عنقه جبل أسود فقال له موسى عليه السلام : أتعرف فلاناً ؟ قال : نعم قال هو هذا الخنزير ، فقال موسى : يارب أسألك أن تردده إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا ؟ فأوحى الله عز وجل إليه : لو دعوتنى بالذى دعانى به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه ولكن أخبرك لم صنعت هذا به ؟ لأنه كان يطلب الدنيا بالدين ، وأغلظ من هذا ما روى معاذ بن جبل رضى الله عنه موقوفاً ومرفوعاً فى رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع (٣) » ، وفى الكلام تنميق وزيادة ولا يؤمن على صاحبه الخطأ وفى الصمت سلامة وعلم . ومن العلماء من يخون علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره فذلك فى الدرك الأول من النار . ومن العلماء من يكون فى علمه بمنزلة السلطان إن رد عليه شيء من علمه أو تموون بشيء من حقه غضب فذلك فى الدرك الثانى من النار . ومن العلماء من يجعل علمه وغرائب حديثه لأهل الشرف واليسار ولا يرى أهل الحاجة له أهلاً فذلك فى الدرك الثالث من النار . ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا فيفتى بالخطأ والله تعالى يبغض المتكفين فذلك فى الدرك الرابع من النار . ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهود والنصارى ليغزو به علمه فذلك فى الدرك الخامس من النار . ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة ونبلًا وذكرًا فى الناس فذلك فى الدرك السادس من النار . ومن العلماء من يستغزه الزهو والعجب فان وعظ عنف وإن وعظ أنف فذلك فى الدرك السابع من النار . فعليك يا أخى بالصمت فيه تغلب الشيطان . وإياك أن تضحك من غير عجب أو تمشى فى غير أرب . وفى خبر آخر : « إن العبد لينشر له من الثناء ما يملأ ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بموضة (٤) » ، وروى أن الحسن حمل إليه رجل من حراسان كيساً بعد انصرافه من مجلسه فيه خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب من رقيق البز وقال : يا أباسعيد هذه نفقة وهذه كسوة ؟ فقال الحسن : عافاك الله تعالى ، ضم إليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك إنه من

(٢) حديث أبي الدرداء « أوحى الله إلى بعض الأنبياء : قل للذين يتفقهون لغير الدين . الحديث » أخرجه ابن عسبد الر بإسناد ضعيف (٢) حديث ابن عباس « علماء هذه الأمة رحلان . . الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط بإسناد ضعيف (٣) حديث معاذ « من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع . . الحديث » أخرجه أبو ديم وابن الجوزى فى الموضوعات (٤) حديث « إن العبد لينشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بموضة » لم أجده هكذا وفى الصحيحين من حديث أبي هريرة « لما لآتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بموضة »

جلس مثل مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله تعالى يوم القيامة ولا خلاق له . وعن جابر رضي الله عنه موقوفا ومرفوعا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تجلسوا عند كل عالم إلا إلى عالم يدعوكم من خمس إلى خمس : من الشك إلى اليقين ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الرغبة إلى الزهد ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن العداوة إلى النصيحة ^(١) ، وقال تعالى ﴿ نخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن ﴿ الآية ، فعترف أهل العلم بإيثار الآخرة على الدنيا . ومنها أن لا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشئ ما لم يكن هو أول عامل به . قال الله تعالى ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ وقال تعالى ﴿ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ وقال تعالى ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ وقال تعالى ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ وقال تعالى ﴿ واتقوا الله واسمعوا ﴾ وقال تعالى لعيسى عليه السلام « يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مررت ليلة أسرى في بأقوام تقرض شفاهم بمقاريض من نار فقلت : من أنتم ؟ فقالوا : كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهى عن الشر ونأتيه ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « هلاك أمتي عالم فاجر وعابد جاهل ، وشر الشرار شرار العلماء ، وخير الخياري خيار العلماء ^(٣) » ، وقال الأوزاعي رحمه الله : شككت المواويس ما تجد من نتن جيف الكفار فأوحى الله إليها : بطون علماء السوء أنتم بما أنتم فيه . وقال الفصيل بن عياض رحمه الله : بلغني أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عدة الأوثان . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : ويل لمن لا يعلم مرة وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات . وقال الشعبي : يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم : ما أدخلكم النار ولما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديكم وتعليمكم ؟ فيقولون إنما كنا نأمر بالخير ولا نفعله وننهى عن الشر ونفعله . وقال حاتم الأصم رحمه الله ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسبه وهلك هو . وقال مالك ابن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت مرعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا . وأنشدوا :

ما واعظ الناس قد أصبحت متبها إذ عبت منهم أمورا أنت تأتيا
أصحت تصحهم بالوعظ محتدا فالمواقات لعمرى أنت جانيها
تعيب دنيا وناسا راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبة فيها
وقال آخر : لاته عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : مررت بحجر بمكة مكتوب عليه « اقلبنى تعتبر ، فقلبتة فإذا عليه مكتوب « أنت بما تعلم لا تعمل فكيف تطلب علم ما لم تعلم » ؟ وقال ابن السبك رحمه الله : كم من مدكر بالله ناس الله ! وكم من محترف بالله جرى على الله : وكم من مقرب إلى الله بعيد من الله ! وكم من داع إلى الله فاز من الله ! وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله ! وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : لقد أعربنا في كلامنا فلم نلحن ولحننا في أعمالنا فلم نعرّب . وقال الأوزاعي : إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع . وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال : حدثني عشرة

(١) حديث جابر « لا تجلسوا عند كل عالم .. الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية وابن الجوزي في الموضوعات

(٢) حديث « مررت ليلة أسرى في بأقوام تقرض شفاهم بمقاريض من نار .. الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث أنس .

(٣) حديث « هلاك أمتي عالم فاجر وشر الشرار العلماء .. الحديث » أخرجه الدارمي من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسل آخر الحديث نحوه وقد تقدم ولم أجد صدر الحديث

من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا ، كنا ندرس العلم في مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا ^(١) ، وقال عيسى عليه السلام : مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت في السر فحملت فظهر حملها فافتضحت فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رموس الأشهاد . وقال معاذ رحمه الله : احذروا زلة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم فيتبعونه على زلته . وقال عمر رضي الله عنه : إذا زل العالم زل يزلته عالم من الخلق ، وقال عمر رضي الله عنه : ثلاث بهن ينهدم الزمان إحداهن زلة العالم . وقال ابن مسعود : سيأتي على الناس زمان تملح فيه عدوبة القلوب فلا ينتفع بالعلم يومئذ علمه ولا متعلمه فتكون قلوب علماءهم مثل السباح من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عدوبة ، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة ويغطي مصابيح الهدى من قلوبهم فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يحشى الله بلسانه والفجور ظاهر في عمله ، فما أخصب الأسن يومئذ وما أجذب القلوب ! فوالله الذي لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالى والمعلمين تعلموا لغير الله تعالى . وفي التوراة والإنجيل مكتوب : لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم . وقال حذيفة رضي الله عنه : إنكم في زمان من ترك فيه عشر ما يعلم هلك ، وسيأتي زمان من عمل فيه بعشر ما يعلم نجا وذلك لكثرة الباطلين . واعلم أن مثل الحالم مثل القاضي وقد قال صلى الله عليه وسلم : القضاة ثلاثة : قاض قضي بالحق وهو يعلم فذلك في الجنة وقاض قضي بالجور وهو يعلم أولا يعلم فهو في النار وقاض قضي بغير ما أمر الله به فهو في النار ^(٢) ، وقال كعب رحمه الله : يكون في آخر الزمان علماء يزهدون الناس في الدنيا ولا يزهدون ، ويخوفون الناس ولا يخافون ، وينهون عن غشيان الولاية ويأتونهم ، ويؤثرون الدنيا على الآخرة يأكلون بالستنتهم ، يقربون الأغنياء دون الفقراء ، يتغايرون على العلم كما تتغايرون النساء على الرجال ؛ يفضأ أحدهم على جلسائه إذا جالس غيره ، أولئك الجبارون أعداء الرحمن . وقال صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان ربما يسوفكم بالعلم ، فقيل : يا رسول الله وكيف ذلك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم فلا يزال للعلم قائلاً وللعمل مسوفاً حتى يموت وما عمل ^(٣) ، وقال سري السقطي (اعتزل رجل للتعب كان حريصاً على طلب علم الظاهر فسأله فقال : رأيت في النوم قائلاً يقول لي : إلى كم تضع العلم صيغتك الله ، فقلت : إلى لأحفظه فقال : حفظ العلم العمل به ، فتركت الطلب وأقبلت على العمل . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم الخشية) وقال الحسن : تعلموا ما شئتم أن تعلموا فوالله لا يأجركم الله حتى تعملوا فإن السفهاء همته الرواية والعلماء همته الرعاية : وقال مالك رحمه الله : إن طلب العلم لحسن وإن نشره لحسن إذا صحت فيه النية ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فلا تؤثرن عليه شيئاً . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : أنزل القرآن ليعمل به فاتخذتم دراسته عملاً وسيأتي قوم يشقونهم مثل القناة ليسوا بخياركم والعالم الذي لا يعمل كالمرضى الذي يصف الدواء وكالجائع الذي يصف لذائذ الأطعمة ولا يجدها . وفي مثله قوله تعالى ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ وفي الخبر : إنما أخاف على أمتي زلة عالم

(١) حديث عبد الرحمن بن غنم عن عشرة من أصحابه « تعلموا شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا » علاقه ابن عبد البر وأسند ابن عدى وأبو نعيم والطبيب - في كتاب اقتضاء العلم - حل - من حديث معاذ فقط - بسند ضعيف ورواه الدارمي موقوفاً على معاذ بسند صحيح .

(٢) حديث « القضاة ثلاثة .. الحديث » أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وهو صحيح

(٣) حديث « إن الشيطان ربما يسوفكم بالعلم . الحديث » في الجامع من حديث أنس بسند ضعيف

وجدال منافق في القرآن^(١) ، ومنها أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغوب في الطاعات مجتنباً للعلوم التي يقل نفعها ويكثر فيها الجدال والقييل والقال . فشال من يعرض عن علم الأعمال ويشغل بالجدال مثل رجل مريض به عالج كثيرة وقد صادف طبيباً حاذقاً في وقت ضيق يخشى فواته فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية وغرائب الطب وترك مهمه الذي هو مؤاخذ به ، وذلك محض السفه . وقد روى « أن رجلاً جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : علمني من غرائب العلم ، فقال له : ما صنعت في رأس العلم ؟ فقال : وما رأس العلم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم ، هل عرفت الرب تعالى ؟ قال : نعم ، فما صنعت في حقه ؟ قال : ما شاء الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : هل عرفت الموت ؟ قال نعم ، قال : فما أعددت له ؟ قال : ما شاء الله ، قال صلى الله عليه وسلم : إذهب فأحكم ما هناك ثم تعال نعلمك من غرائب العلم^(٢) » بل ينبغي أن يكون المتعلم من حنس ماروى عن حاتم الأصم - تلميذ شقيق البانخي رضى الله عنهما - أنه قال له : شقيق منذ كم صحبتني ؟ قال حاتم : منذ ثلاث وثلاثين سنة ، قال : فما تعلمت مني في هذه المدة ؟ قال : ثمان مسائل ، قال شقيق له : إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب عمري معك ولم تعلم إلا ثمان مسائل ؟ قال : يا أستاذ لم أعلم غيرها وإنى لا أحب أن أكذب ، فقال هات هذه الثمان مسائل حتى أسمعها ، قال حاتم : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوباً فهو مع محبوبه إلى القبر فاذا وصل إلى القبر فارقه فجعلت الحسنات محبوبى فاذا دخلت القبر دخل محبوبى معى . فقال : أحسنت يا حاتم فما الثانية ؟ فقال : نظرت في قول الله عز وجل ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ فعملت أن قوله سبحانه وتعالى هو الحق فأجهدت نفسى في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى . الثالثة أنى نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل من محه شيء له قيمة ومتمدار رفعه وحفظه ثم نظرت إلى قول الله عز وجل ﴿ ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ﴾ فكلما وقع معى شيء له قيمة ومتمدار وجهته إلى الله لسبق عده محضراً . الرابعة : أنى نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال وإلى الحسب والشرف والنسب فنظرت فيها فإذا هى لا شيء ثم نظرت إلى قول الله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ فعملت في التقوى حتى أكون عند الله كريماً ، الخامسة : أنى نظرت إلى هذا الخلق وهم يظعن بعضهم في بعض ويلعن بعضهم بعضاً وأصل هذا كله الحسد ثم نظرت إلى قول الله عز وجل ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴾ فتركت الحسد واجتنت الخلق وعلمت أن القسمه من عند الله سبحانه وتعالى فتركت عداوة الخلق عني . السادسة : نظرت إلى هذا الخلق يبغي بعضهم على بعض ويقاتل بعضهم بعضاً فرحمت إلى قول الله عز وجل ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ فعاديته وحده واجتهدت في أخذ حذرى منه لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدو لى فتركت عداوة الخلق غيره . السابعة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له ثم نظرت إلى قوله تعالى ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ فعملت أنى واحد من هذه الدواب التي على الله رزقها فاستغفلت بما لله تعالى على وتركت مالى عنده . الثامنة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق - هذا على ضيعته وهذا على تجارته وهذا على صناعته وهذا على صحة بدنه - وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله فرجعت إلى

(١) حديث « إنما أخاف على أمتي زلة عالم .. الحديث » أخرجه الطبراني من حديث أبي الدرداء ، ولابن حبان نحوه من حديث عمرات بن حصين . (٢) حديث « أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم دال على من غرائب العلم .. الحديث » رواه ابن السني وأبو نعيم في كتاب الرياضة لها ، وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المنصور مرسل وموضف جداً (٩ - إحياء علوم الدين - ١)

قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فتوكلت على الله عز وجل فهو حسبي ، قال شقيق : يا حاتم وفقك الله تعالى فأني ذلمت في علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم فوجدت جميع أنواع الخير والديانة وهي تدور على هذه اثمان مسائل فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة فهذا الفن من العلم لا يهتم بإدراكه والتفطن له إلا علماء الآخرة فأما علماء الدنيا فيشتغلون بما يتييسر به اكتساب المال والجاه ويهملون أمثال هذه العلوم التي بعث الله بها الأنبياء عليهم السلام وقال الضحاك بن مزاحم : أدركتهم وما يتعلم بعضهم من بعض إلا الورع وم اليوم ما يتعلمون إلا الكلام ، ومنها أن يكون غير مائل إلى الترفه في المطعم والمشراب والتنعم في الملابس والتجمل في الأثاث والمسكن بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك ويتشبه فيه بالسلف رحمهم الله تعالى ويميل إلى الاكتفاء بالأقل في جميع ذلك وكلما زاد إلى طرف القلة ميله ازداد من الله قرباً وارتفع في علماء الآخرة حظه . ويشهد لذلك ما حكى عن أبي عبد الله الخواص - وكان من أصحاب حاتم الأصم - قال : دخلت مع حاتم إلى الري ومنا ثلاثمائة وعشرون رجلاً يريد الحج وعليهم الزرمانقات وليس معهم جراب ولا طعام فدخلنا على رجل من التجار متكشف يحب المساكين فأضافنا تلك الليلة فلما كان من الغد قال لحاتم : ألك حاجة فأني أريد أن أعود فقيها لنا هو عليل ؟ قال حاتم عيادة المريض وبها فضل والنظر إلى الفقيه عبادة وأنا أيضاً أجيء مملك . وكان العليل محمد بن مقاتل - قاضي الري - فلما جئنا إلى الباب فإذا قصر مشرف حسن فبقى حاتم متفكراً يقول : باب عالم على هذه الحالة ؟ ثم أذن لهم فدخلوا فإذا دار حناء فوراء واسعة نرموز إذا بزة وستور فبقى حاتم متفكراً ثم دخلوا إلى المجلس الذي هو فيه وإذا بفرش وطيبة وهو راقد عليها وعند رأسه غلام ويده مذبذبة فقعد الزائر عند رأسه وسأل عن حاله وحاتم قائم فأومأ إليه ابن مقاتل أن اجلس فقال لأجلس فقال لعل لك حاجة فقال : نعم ، قال : وما هي ؟ قال : مسألة أسألك عنها قال : سل ، قال : قم فاستو جالساً حتى أسألك . فاستوى جالساً قال حاتم : علمك هذا من أين أخذته ؟ فقال : من الثقات حدثوني به ، قال : عن ؟ قال : عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ؟ قال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ورسول الله صلى الله عليه وسلم عن ؟ قال : عن جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل . قال حاتم فنيما أداه جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأداه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وأصحابه إلى الثقات وأداه الثقات إليك هل سمعت فيه من كان في داره لإشراف وكانت سعتها أكثر كان له عند الله عز وجل منزلة أكبر : قال : لا . قال : فكيف سمعت ؟ قال : سمعت أنه من زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وأحب المساكين وقدم لآخرته كانت له عند الله المنزلة ، قال له حاتم : فأنت بمن اقتديت بأبائي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم والصالحين رحمهم الله أم بفرعون ونمرود أول من نبى بالجهنم والآجر ؟ يا علماء السوء مثلكم يراه الجاهل المتكالب على الدنيا الراغب فيها فيقول : العالم على هذه الحالة : أفلا أكون أنا شراً منه ؟ وخرج من عنده فزدد ابن مقاتل مرضاً وبلغ أهل الري ما جرى بينه وبين ابن مقاتل فقالوا له : إن الطنافسي بقزوين أكثر توسعاً منه . فسار حاتم متعمداً فدخل عليه فقال . رحمه الله أنا رجل أجمعى أحب أن تعلمني مبتدأ ديني ومفتاح صلاتي كيف أتوضأ للصلاة ؟ قال : نعم وكرامة يا غلام مات إناؤه فيه ماء . فألقى به فقعد الطنافسي فتوضأ ثلاثاً ثلاثاً ثم قال : هكنا فتوضأ . فقال حاتم : مكانك حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد ، فقام الطنافسي وقعد حاتم فتوضأ ثم غسل ذراعيه أربعاً أربعاً فقال الطنافسي : يا هذا أسرفت . قال لحاتم : فبماذا ؟ قال غسلت ذراعيك أربعاً . فقال حاتم : يا سبحان الله العظيم أنا في كف من ماء أسرفت وأنت في جميع هذا كله لم تسرف ؟ ففلم الطنافسي

أنه قصد ذلك دون التعلم فدخل منزله فلم يخرج إلى الناس أربعين يوماً فلما دخل حاتم بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا : يا أبا عبد الرحمن أنت رجل ولكن أعجمي وليس يكلمك أحد إلا قطعته ، قال : معي ثلاث خصال أظهر بهن على خصمي أفرح إذا أصاب خصمي وأحزن إذا أخطأ وأحفظ نفسي أن لا أحمل عليه . فبأن ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال : سبحان الله ما أعقله قوموا بنا إليه . فلما دخلوا عليه قال له : يا أبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا ؟ قال : يا أبا عبد الله لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال : تغفر للقوم جهلكم وتمنع جهلكم منهم وتبذل لهم شيئك وتكون من شيئهم آيساً ، فإذا كنت هكذا سلمت ، ثم سار إلى المدينة فاستقبله أهل المدينة فقال : يا قوم أية مدينة هذه ؟ قالوا : مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فأين قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصلي فيه ؟ قالوا : ما كان له قصر إنما كان له بيت لاطئ بالأرض ، قال : فأين قصور أصحابه رضى الله عنهم ؟ قالوا : ما كان لهم قصور إنما كان لهم بيوت لاطئة بالأرض ؛ قال حاتم : يا قوم فهذه مدينة فرعون ، فأخذوه وذهبوا به إلى السلطان وقالوا . هذا العجمي يقول هذه مدينة فرعون ، قال الوالي : ولم ذلك ؟ قال حاتم : لا تعجل على أنا رجل أعجمي غريب دخلت البلد فقلت مدينة من هذه فقالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت فأين قصر وقص القصة ، ثم قال : وقد قال الله تعالى ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ فأنتم بمن تأسيتم أبرس رسول الله صلى الله عليه وسلم أم بفرعون أول من بي بالخص والآخر ؟ فخلوا عنه وتركوه . فهذه حكاية سخام الأصم رحمه الله تعالى . وسيأتى من سيرة السلف في البذاذة وترك التجمل ما يشهد لذلك في مواضعه . و تحقيق فيه أن التزين بالمباح ليس محرام ولكن الخوض فيه يوجب الانس به حتى يشق تركه ، واستدامة الزينة لا تتمكن إلا بمباشرة أسباب في الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصي من المداينة ومراعاة الخلق ومراماتهم وأمور أخر هي محظورة والحزم اجتناب ذلك لأن من خاص في الدنيا لا يسلم منها ألبتة ولو كانت السلامة مبذولة مع الخوض فيها لكان صلى الله عليه وسلم لا يبالغ في ترك الدنيا حتى نزع القميص المطرز بالعلم ^(١) ونزع خاتم الذهب في أثناء الخطبة ^(٢) إلى غير ذلك مما سيأتى بيانه . وقد حكى أن يحيى بن يزيد النوفلي كتب إلى مالك ابن أنس رضى الله عنهما « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على رسوله محمد في الأولين والآخرين ، من يحيى ابن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس ، أما بعد فقد بلغني أنك تليس الدقاق وتأكل الرقاق وتجلس على الوطى . وتجعل على بابك حاجبا وقد جلست مجلس العلم وقد ضربت إليك المطى وارتحل إليك الناس واتخذوك إماما ورضوا بقولك ؛ فاتق الله تعالى يا مالك وعليك بالتواضع . كنبت إليك بالنصيحة من كتابا ما طلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام ، فكتب إليه مالك « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على الله سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . من مالك ابن أنس إلى يحيى بن يزيد سلام الله عليك ، أما بعد : فقد وصل إلى كتابك فوق من موقع النصيحة والشفقة والأدب أمتعتك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيرا وأسأل الله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فأما ما ذكرت لى أنى آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطى . فمن فعل ذلك واستغفر الله تعالى فقد قال الله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ ولأنى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه . ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام » فانظر إلى إنصاف مالك إذ اعترف أن

(١) حديث « نزع القميص المعلم » . تنفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث « نزع الخاتم الذهب في أثناء الخطبة » متفق عليه من حديث ابن عمر .

ترك ذلك خير من الدخول فيه وأفتى بأنه مباح وقد صدق فيهما جميعا ومثل مالك في منصبه إذا سمحت نفسه بالإنصاف والاعتراف في مثل هذه النصيحة فتقوى أيضا نفسه على الوقوف على حدود المباح حتى لا يحمله ذلك على المراءاة والمداينة والتجاوز إلى المكروهات وأما غيره فلا يتدر عليه فالتعريض على التسعم بالمباح خطر عظيم وهو بعيد من الخوف والخشية وخاصة علماء الله تعالى الخشية وخاصة الخشية التباعد من مظان الخطر . ومنها أن يكون مستقصيا عن السلاطين فلا يدخل عليهم ألبته مادام يجد إلى الفرار عنهم سبيلا بل ينبغي أن يحتزن عن مخالطتهم وإن جاءوا إليه فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين . والمخالط لا يخلو عن تكلف في طيب مرضاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم طلبة . ويجب على كل متدين الإنكار عليهم وتضييق صدرهم بإظهار ظلمهم وتقبح فعلهم فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدرى نعمة الله عليه أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهنا لهم أو يتكلف في كلامه كلاما لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو الهب الصريح أو أن يطع في أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت وسيأتي في كتاب الحلال والحرام ما يجوز أن يؤخذ من أموال السلاطين وما لا يجوز من الإدرار والجواز وغيرهما . وعلى الجملة فمدخالطتهم مفتاح للشروع وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط . وقال صلى الله عليه وسلم « من بدا جفا - يعني من سكن البادية جفا - ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتكرهون فمن أنكر فقد برئ ومن كره فقد سلم ولكن من رضى وتابع أبده الله تعالى . قيل : أفلا نقاتلهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لا ماضوا »^(٢) ، وقال سمعان : في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزأرون للملوك . وقال حذيفة : لياكم ومواقف الفتن ، قيل وما هي ؟ قال : أبواب الأمراء بدخل أحدكم على الأمير فيصدق به بالكذب ويقول فيه ما ليس فيه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « العلماء أمناء الرسل على عباد الله تعالى ما لم يخالطوا السلاطين فإذا فعلوا ذلك فقد خابوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم »^(٣) . رواه أنس . وقيل للأعمش : ولقد أحبت العلم لكثرة من يأحده عنك فقال : لا تعجلوا تلك يموتون قبل الإدراك وثلك يلزمون أبواب السلاطين فهم شر الخلق والثلث الباقي لا يفلح منه إلا القليل . ولذلك قال سعيد بن المسيب رحمه الله : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحذروا منه فإنه لص . وقال الأوراعى ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء »^(٤) ، وقال مكحول الدمشقي رحمه الله ، من تعلم القرآن وتفقه في الدين ثم صحب السلطان تملقا إليه وطمعا فيما لديه خاض في بحر من نار جهنم بعدد خطاه . وقال سمنون : ما أسمع بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيسئل عنه فيقال هو عند الأمير قال : وكنت أسمع أنه يقال إذا رأيتم العالم يجب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى حرقت ذلك ؛ إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك وأنتم ترون ما ألقاه به من الغائلة والمطاطة وكثرة المخالفة لهواه ولوددت أن أجو من الدخول عليه كدفاقا مع أنى لأأخذ منه شيئا ولا أشرب له شربة ماء . ثم قال : وعلماء زماننا شر من علماء بني إسرائيل يخبرون السلطان بالرخص وبما يوافق

(١) حديث « من بدا جفا .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث ابن عباس

(٢) حديث « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتكرهون .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث أم سلمة (٣) حديث أنس « العلماء أمناء الرسل على عباد الله .. الحديث » أخرجه العقيلي في الضعفاء ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات .

(٤) حديث « شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء » أخرجه ابن ماجه بالشرط الأول نحوه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

هواه ولو أخبروه بالذى عليه وفيه نجاته لاستغفلهم وكره دخولهم عليه وكان ذلك نجاتهم لهم عند ربهم. وقال الحسن: كان فيمن كان قبلكم رجل له قدم في الإسلام وصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم - قال عبد الله بن المبارك عن به سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه - قال وكان لا يغشى السلاطين ويفر عنهم . فقال له بنوه : يأتى هؤلاء من ليس هو مثلك في الصحبة والقدم في الإسلام فلو أتيتهم ، فقال : يا بني آتى حيفة قد أحاط بها قوم والله لن تستطيع لأشارتهم فيها ؛ قالوا يا أبا نازلة إذن نهلك ههنا قال ، يا بني لأن أموت مؤمناً مهزولاً أحب إلى من أن أموت منافقاً سمينا قال الحسن : خصمهم والله إذ علم أن التراب يأكل اللحم والسمن دون الإيمان . وفى هذا إشارة إلى أن الداخل على السلطان لا يسلم من النفاق ألبته وهو مضاد للإيمان . وقال أبو ذر أسلمة : يا سلمة لا تغش أبواب السلاطين فإنك لا تصيب شيئاً من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه . وهذه فتنة عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشيطان عليهم لاسيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو ، إذ لا يزال الشيطان يلقي إليه : أن فى وعطك لهم ودخولك عليهم ما يجرهم عن الظلم ويقيم شعائر الشرع إلى أن يخيل إليه أن الدخول عليهم من الدين ، ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلطف فى الكلام ويدهان وبحوض فى الثناء والإطراء وفيه هلاك الدين . وكان يقال : العلماء إذا علموا عملوا فإذا عملوا شغلوا فإذا شغلوا فقدوا فإذا فقدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا : وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الحسن : أما بعد فأشرف على بأقوام أستعين بهم على أمر الله تعالى . فكتب إليه : أما أهل الدين فلا يريدونك وأما أهل الدنيا فلن تريدكم ولكن عليك بالاشراف فإنهم يصوبون شرفهم أن يدنسوه بالحياة . هذا فى عمر بن عبد العزيز رحمه الله وكان أرهد أهل زمانه ! فإذا كان شرط أهل الدين الهرب منه فكيف يستنسب طلب غيرهم ومخالطته ؟ ولم يزل السلف العلماء مثل الحسن والتورى وابن المبارك والفضيل وإبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط يتكلمون فى علماء الدنيا من أهل مكة والشام وغيرهم إما ليلهم إلى الدنيا وإما لمخالطتهم السلاطين منها أن لا يكون مسارعا إلى الفتيا بل يكون متوقفاً ومعتزلاً ما وجد إلى الخلاص سبيلاً . فإن سئل عما يعلمه تحقيقاً بنص كتاب الله أو بهص حديث أو إجماع أو قياس أو قياس حتى أفتى ، وإن سئل عما يسك فيه قال : لأدرى ! وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتحمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان فى غيره غنية هذا هو الحزم لأن تقلد خطر الاحتياط عظيم وفى الخبر « العلم ثلاثة : كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدرى ^(١) » قال النسعى : « لأدرى » نصف العلم . ومن سكت حيث لا يدري لله تعالى فليس بأقل أجراً ممن نطق لأن الاعتراف بالجهل أشد على النفس هكدا كانت عادة الصحابة والسلف رضى الله عنهم . كان ابن عمر إذا سئل عن الفتيا قال : اذهب إلى هذا الأمير الذى تقلد أمور الناس وضيها فى عقه ؛ وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الذى يفتى الناس فى كل ما يستفتونه لمخون ، وقال : جنة العالم « لأدرى » فإن أخطأها فقد أصيبت مقاتله . وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : ليس شيء أسند على الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم ، يقول : انظروا إلى هذا سكوته أشد على من كلامه . ووصف بعضهم الأبدال فقال : اكلمهم فافة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة ؛ أى لا يتكلمون حتى يسألوا وإذا سئلوا ووجدوا من يكلمهم سكتوا فإن اضطروا أجابوا وكأوا يعدون الابتداء قبل السؤال من السهولة الخفية للكلام . ومر على وعبد الله رضى الله عنهما برجل يتكلم على الناس فقال : هذا يقول اعرفونى . وقال بعضهم : إنما العالم الذى إذا سئل عن المسئلة فكأنما يقلع صرصه . وكان ابن عمر يقول : تريدون

(١) حديث « العلم ثلاثة : كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدرى » أخرجه الخطيب فى أسماء من روى عن مالك موقفاً عن ابن عمر ولأبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً نحوه مع اختلاف وقد تقدم

أن تجعلونا جسرا تعبرون علينا إلى جهنم . وقال أبو حصص التيسابورى : العالم هو الذى يحاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة من أين أجت ؟ وكان إبراهيم التيمى إذا سئل عن مسألة يبكى ويقول : لم تحدوا غيرى حتى احتجتم إلى . وكان أبو العالية الرياحى وإبراهيم بن أدهم والثورى يتكلمون على الاثنين والثلاثة والنمر اليسير فإذا كثروا انصروا . وقال صلى الله عليه وسلم : ما أدري أعزير نبي أم لا ؟ وما أدري أتبع ملعون أم لا ؟ وما أدري ذو القرنين نبي أم لا ؟^(١) ، ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حير البقاع فى الأرض وشرها قال : لا أدري ، حتى نزل عليه حبريل عليه السلام فسأله فقال : لا أدري ، إلى أن أعلمه الله عز وجل أن حير البقاع المساجد وشرها الأسواق^(٢) ، وكان ابن عمر رضى الله عنهما يسئل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع . وكان ابن عباس رضى الله عنهما يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة . وكان فى الفقهاء من يقول : لا أدري ، أكثر ممن يقول : أدري ، منهم سميان الثورى ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل والفضيل بن عياض وبشر بن الحرث . وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى : أدركت فى هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منهم أحد يسئل عن حديث أو فتيا إلا ودأن أخاه كفاه ذلك . وفى لفظ آخر : كانت المسئلة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر ويردها الآخر إلى الآخر حتى تعود إلى الأول وروى أن أصحاب الصفة أهدى إلى واحد منهم رأس مشوى وهو فى غاية الضر فأهداه إلى الآخر وأهداه الآخر إلى الآخر ؛ هكذا دار بينهم حتى رجع إلى الأول . فأنظر الآن كيف انعكس أمر العلماء فصار المهروب منه مطلوباً والمطلوب مهروباً عنه ؟ ويشهد لحسن الاحتراز من تقلد الفتاوى ما روى مسنداً عن بعضهم . أنه قال : لا يفتى الناس إلا ثلاثة : أمير أو مأمور أو متكلف . وقال بعضهم : كان الصحابة يتدافعون أربعة أشياء : الإمامة والوصية والوديعة والفتيا . وقال بعضهم : كان أسرعهم إلى الفتيا أقلهم علماً واشدهم دفعا لها أورعهم . وكان شغل الصحابة والتابعين رضى الله عنهم فى خمسة أشياء : قراءة القرآن وعمارة المساجد وذكر الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وذلك لما سمعوه من قوله صلى الله عليه وسلم : كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا ثلاثة : أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله تعالى^(٣) ، وقال تعالى ﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ الآية . ورأى بعض العلماء بعض أصحاب الرأى من أهل الكوفة فى المنام فقال : ما رأيت فيما كنت عليه من الفتيا والرأى ؟ فكره وجهه وأعرض عنه وقال : ما وجدناه شيئاً وماحدثنا عافيت . وقال ابن حصين : إن أحدهم ليفتى فى مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب رضى الله عنه لجمع لها أهل بدر . فلم يزل السكوت دأب أهل العلم إلا عند الضرورة . وفى الحديث : إذا رأيتم الرجل قد أوتى صمتاً وزهداً فاتربوا منه فإنه يلحق الحكمة^(٤) ، وقيل العالم إما عالم عامة وهو المفتى وهم أصحاب السلاطين أو عالم خاصة وهو العالم بالتوحيد وأعمال القلوب ، وهم أصحاب الزوايا المتفرقون المنفردون . وكان يقال : مثل أحمد بن حنبل مثل دجلة كل أحد يفتقر منها ، ومثل بشر بن الحرث مثل بشر عذبة مغطاة لا يقصدها إلا واحد بعد واحد . وكانوا يقولون : فلان عالم

(١) حديث : ما أدري أعزير نبي أم لا .. الحديث ، أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث : لما سئل عن خير البقاع وشرها قال لا أدري حتى نزل جبريل .. الحديث ، أخرجه أحمد وأبو يعلى والبرار

والحاكم وصححه ونحوه من حديث ابن عمر (٣) حديث : كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا ثلاثة .. الحديث ، أخرجه الترمذى

وابن ماجه من حديث أم حبيبة ، قال الترمذى حديث عريب (٤) حديث : لن رأيتم الرجل قد أوتى صمتاً وزهداً .. الحديث أخرجه

ابن ماجه من حديث ابن خلاد بإسناد ضعيف

وفلان متكلم وفلان أكثر كلاماً وفلان أكثر عملاً ، وقال أبو سليمان : المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام وقيل : إذا كثرت العلم قل الكلام وإذا كثرت الكلام قل العلم وكتب سليمان إلى أبي الدرداء رضى الله عنهما - وكان قد آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) . يا أخى بلغنى أنك قعدت طيباً تداوى المرضى ، فانظر فإن كنت طيباً فتكلم فإن كلامك شفاء وإن كنت متطياً فالله الله لا تقتل مسلماً . فكان أبو الدرداء يتوقف بعد ذلك إذا سئل وكان أنس رضى الله عنه إذا سئل يقول : سلوا مولانا الحسن . وكان ابن عباس رضى الله عنهما إذا سئل يقول : سلوا حارثة ابن زيد وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : سلوا سعيد بن المسيب . وحكى أنه روى صحابى فى حضرة الحسن عشرين حديثاً فسئل عن تفسيرها فقال : ما عندى إلا ما رويت ، فأخذ الحسن فى تفسيرها حديثاً حديثاً ، فتم جبراً من حسن تفسيره وحفظاً ، فأخذ الصحابى كفاً من حصى ورمم به وقال : تسألونى عن العلم وهذا الخبر بين أظهركم ومنها أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه وصدق الرجاء فى انكشاف ذلك من المحاهدة والمراقبة فإن المحاهدة تفضى إلى المشاهدة ، ودقائق علوم القلب تنفجر بها ينابيع الحكمة من القلب ، وأما الكتب والتعليم فلا تنى بذلك بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعَدِّ إنما تتفتح بالمحاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة والجلوس مع الله عز وجل فى الخلوة مع حضور القلب بصافى الفكرة والانتقطاع إلى الله تعالى عما سواه فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف ، فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على عاونة مسموعة بكلمة ، وكم من مقتصر على المهم فى التعلم ومتوفر على العمل ومراقبة القلب فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوى الأبواب ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ^(٢) ، وفى بعض الكتب السالفة : يابى إسرائيل لا تقولوا العلم فى السماء من ينزل به إلى الأرض ولا فى تحوم الأرض من يصعد به ولا من وراء البحار من يعبر به ، العلم مجعول فى قلوبكم تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين وتحلقوا لى بأخلاق الصديقين أظهر العلم فى قلوبكم حتى يغطىكم ويغمركم . وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله : حرج العلماء والعباد والزهاد من الدنيا وقلوبهم مقفلة ولم تفتح إلا قلوب الصديقين والشهداء . ثم تلا قوله تعالى (وعنده معارج الغيب لا يعلمها إلا هو) الآية ولولا أن إدراك قلب من له قلب بالنور الباطن حاكم على علم الظاهر لما قال صلى الله عليه وسلم : استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك ، وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تعالى : لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ^(٣) . . . الحديث ، فكم من معان دقيقة من أسرار القرآن تخطر على قلب المتجزيدين المذكر والمكر تحلو عنها كتب التفسير ولا يطلع عليها أفضل المفسرين وإذا انكشف ذلك للمريد المراقب وعرض على المفسرين استحسونه وعلموا أن ذلك من تنبيهات القلوب الزكية واللطاف الله تعالى بالهمم العالية المتوجهة إليه . وكذلك فى علوم المكاشفة وأسرار علوم المعاملة ودقائق خواطر القلوب فإن كل علم من هذه العلوم بحر لا يدرك عمقه وإنما يحوصه كل طالب بقدر ما رزق منه وبحسب ما وفق له من حسن العمل وفى وصف هؤلاء العلماء قال على رضى الله عنه فى حديث طويل . القلوب أوعية وخيرها أوعاها للخير ، والناس ثلاثة عالم ربانى ومتعلم على سبيل النجاة ومهيج رعاع اتباع لكل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا

(١) حديث « مؤاخاة صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء » أخرجه البخارى من حديث أبي جعة

(٢) حديث « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث أسى وضعفه (٣) حديث « لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمياً وبصيراً » متفق عليه من حديث أبي هريرة بن لفظ « سمعه وبصره » وهو فى الحلية كما ذكره المؤلف من حديث أنس بسند ضعيف

بنور العلم ولم يلجئوا الى ركن وثيق ، العلم حير من المال ، العلم بحرسك وانت تحرس المال والعلم يزكو على الإنفاق والمال ينقصه الإنفاق ، والعلم دين يدان به تكسب به الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته ؛ العلم حاكم والمال محكوم عليه ، ومنفعة المال تروى بزواله مات ، خزان الأموال وهم أجياء والعلماء أحياء باقون ما بقي الدهر ، ثم تنفس الصعداء وقال . هاهنا علمنا بما لو وجدت له حملة « بل اجد طالبا غير مأمون يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا ويستطيل بنعم الله على أوليائه ويستظهر بحجته على خلقه ، او منقادا لأهل الحق لكن ينزرع الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لا بصيرة له لا ذا ولا ذاك ؛ أو منهوما باللدات سلس القياد في طلب الشهوات ، أو مغرى بجمع الأموال والادخار منقاداً لهواه أقرب شبها بهم الأنعام السائمة ؛ اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه ثم لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهر مكشوف وإما خائف مهوور لكيلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته وكم وأين أولئك ؟ هم الأقلون عدداً الأعظمون قدراً أعيانهم مفتودة وامثالهم في القلوب موحودة يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعوها من وراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم : هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستلنوا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الغافلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالحل الأعلى أو أئمتك أولياء الله عز وجل من خلقه وأمنائه وعماله في أرضه والدعاة إلى دينه ثم بكى وقال : واشوقاه إلى رؤيتهم فهذا الذي ذكره أخيراً هو وصف علماء الآخرة وهو العلم الذي يستفاد أكثره من العمل والمراطة على المجاهدة . ومنها أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين فإن اليقين هو رأس مال الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اليقين الإيمان كله ^(١) » فلا بد من تعلم علم اليقين أعني أوائله ثم يفتح للقلب طريقه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « تعلموا اليقين ^(٢) » ومعناه جالسوا الموقنين واستمعوا منهم علم اليقين وواظبوا على الاقتداء بهم ليقروا بيقينكم كما قووا بيقينهم وقليل من اليقين خير من كثير من العمل . وقال صلى الله عليه وسلم « لما قيل له : رجل حس اليقين كثير الذنوب ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما من آدمي إلا وله ذنوب ولكن من كان غريزته العقل وحجته اليقين لم تضره الذنوب لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة ^(٣) » ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن من أقل ما أوتيتم : اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظاً منهما لم يبال ما فانه من قيام الليل وصيام النهار ^(٤) » وفي وصية لقمان لابنه « يا بني لا يستطاع العمل إلا باليقين ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه ، وقال يحيى بن معاذ إن للتوحيد نوراً وللشرك ناراً ، وإن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين ، وأراد به اليقين ، وقد أشار الله تعالى في القرآن إلى ذكر الموقنين في مواضع دل بها على أن اليقين هو الرابطة للخيرات والسعادات « فان قلت . فما معنى اليقين وما معنى قوته وضعفه فلا بد من فهمه أولاً ثم الاشتغال بطلبه وتعلمه فان مالا تفهم صورته لا يمكن طلبه ؟ فاعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين أما النظار والمتكلمون فيعبرون به عن عدم الشك إذ ميل النفس إلى التصديق بالشئ له أربع مقامات ، الأول أن يعتدل التصديق والتكذيب ويعبر عنه بالشك ، كما إذا سئلت عن

(١) حديث « اليقين الإيمان كله » أخرجه البيهقي في الزهد والمحيط في التاريخ من حديث ابن مسعود بإسناد حسن

(٢) حديث « تعلموا اليقين » أخرجه أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد مرسل وهو معضل رواه ابن أبي الدنيا في اليقين من قول

حالد بن معدان (٣) حديث « قيل له . رجل حس اليقين كثير الذنوب » أخرجه الترمذي المحكم في الوارد من حديث أنس

بإسناد مطم (٤) حديث (من أولى ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر . الحديث) لم أفد له على أصل . وروى ابن عبد البر

من حديث مباد (سأثر الله شيئاً فله من اليقين ولا قسم شيئاً بين الناس أقل من العلم) الحديث

شخص معين ، أن الله تعالى يعاقبه أم لا ؟ وهو محمول الحال عندك فإن نفسك لا تميل إلى الحكم فيه بإثبات ولا نفي بل يستوى عندك إمكان الأمرين فيسمى هذا شكاً . الثاني . أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول ، كما إذا سئلت عن رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لو مات على هذه الحالة هل يعاقب ؟ فإن نفسك تميل إلى أنه لا يعاقب أكثر من ميلها إلى العقاب وذلك لظهور علامات الصلاح . ومع هذا فأنت تجوز اختفاء أمر مرجح للعقاب في باطنه وسريته فهذا التحوير مساوٍ لذلك الميل ولكنه غير دافع رجحانه فهذه الحالة تسمى ظناً . الثالث : أن تميل النفس إلى التصديق بشيء بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ولو خطر بالبال تأني النفس عن قبوله ولكن ليس ذلك مع معرفة حقيقة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والإصغاء إلى التشكيك والتجوير اتسعت نفسه للتجوير ، وهذا يسمى اعتقاداً مقارباً لليقين وهو اعتقاد العوام في الشرعيات كلها لإذرسخ في نفوسهم بمجرد السماع حتى إن كل فرقة تثنى بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها ، ولو ذكر لأحدهم إمكان خطأ إمامه نفر عن قبوله . الرابع المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يشك فيه ولا يتصور الشك فيه فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً عند هؤلاء ، ومثاله أنه إذا قيل للعاقل هل في الوجود شيء هو قديم ؟ فلا يمكنه التصديق به بالبديهة لأن القديم غير محسوس لا كالشمس والقمر فإنه يصدق بوجودهما بالحوس وليس العلم بوجوده شيء قديم أزلي ضرورياً مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد ومثل العلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال ، فإن هذا أيضاً ضروري لمقتضى غريزة العقل أن تتوقف عن التصديق بوجود القديم على الاحتمال والبديهة ، ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالسماع تصديقاً جزئياً ويستمر عليه وذلك هو الاعتقاد وهو حال جميع العوام . ومن الناس من يصدق به بالبرهان وهو أن يقال له . إن لم يكن في الوجود قديم فالموجودات كلها حادثة فإن كانت كلها حادثة فهي حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال ، فالمودى إلى المحال محال ، فيلزم في العقل التصديق بوجود شيء قديم بالضرورة لأن الأقسام ثلاثة . وهي أن تكون الموجودات كلها قديمة أو كلها حادثة أو بعضها قديمة وبعضها حادثة فإن كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب إذ ثبت على الجملة قديم ، وإن كانت الكل حادثة فهو محال إذ يؤدي إلى حدوث بغير سبب فيثبت القسم الثالث أو الأول . وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقيناً عند هؤلاء سواء حصل بنظر مثل ما ذكرناه أو حصل بحس أو بغريزة العقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب أو بتواتر ، كالعلم بوجود مكة أو بتجربة كالعلم بأن السقمونيا المطبوخ مسهل أو بدليل كما ذكرنا فشرط إطلاق هذا الاسم عندهم عدم الشك فكل علم لا شك فيه يسمى يقيناً عند هؤلاء وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تنافوت في نفي الشك . الاصطلاح الثاني اصطلاح الفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء وهو أن لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجوير والشك بل إلى استيلائه وغلبته على العقل : حتى يقال . فلان ضعيف اليقين بالموت مع أنه لا شك فيه ؛ ويقال : فلان قوى اليقين في إثبات الرزق مع أنه قد يجوز أنه لا يأتيه ، فهما مالت النفس إلى التصديق بشيء وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف في النفس بالتجوير والمنع سمى ذلك يقيناً ولا شك في أن الناس يشتركون في القطع بالموت والانفكاك عن الشك فيه ، ولكن فيهم من لا يلتفت إليه ولا إلى الاستعداد له وكأنه غير موقن به . ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق جميع همه بالاستعداد له ولم يغادر فيه متسعاً لغيره فيعبر عن مثل هذه الحالة بقوة اليقين ، ولذلك قال بعضهم . ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من (١٠ — إحياء علوم الدين — ١)

الموت ، وعلى هذا الاصطلاح يوصف اليقين بالضعف والقوة ونحن إنما أردنا بقولنا « إن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين ، بالمعنيين جميعاً وهو نفي الشك ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها المتصرف فيها . فاذا فهمت هذا علمت أن المراد من قولنا « إن اليقين ينقسم ثلاثة أقسام ، بالقوة والضعف والكثرة والقلة والخفاء والجلء ، فأما بالقوة والضعف فعلى الاصطلاح الثانى وذلك فى الغلبة والاستيلاء على القلب ودرجات معانى اليقين فى القوة والضعف لا تنتهى وتفاوت الخلق فى الاستعداد الموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعانى وأما التفاوت بالخفاء والجلء فى الاصطلاح الاول فلا ينكر أيضاً ، أما فيما يتطرق إليه التجويز فلا ينكر - أعنى الاصطلاح الثانى - وفيما اتنى الشك أيضاً عنه لاسيلاً إلى إنكاره فإنك تدرك تفرقة بين تصديقك بوجود مكة ووجود فلك مثلاً وبين تصديقك بوجود موسى ووجود يوشع عليهما السلام مع أنك لا تشك فى الأمرين جميعاً فستندهما جميعاً التواتر ، ولكن ترى أحدهما أجلى وأوضح فى قلبك من الثانى لأن السبب فى أحدهما أقوى وهو كثرة المحرمين ، وكذلك يدرك الناظر هذا فى النظريات المعروفة بالأدلة فانه ليس وضوح ملاح له بدليل واحد كوضوح ملاح له بالأدلة الكثيرة مع تساويهما فى نفي الشك ، وهذا قد ينكره المتكلم الذى يأخذ العلم من الكتب والسماع ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال . وأما القلة والكثرة فذلك بكثرة متعلقات اليقين ، كما يقال : فلان أكثر علماً من فلان ، أى معلوماته أكثر . ولذلك قد يكون العالم قوى اليقين فى جميع ماورد الشرع به وقد يكون قوى اليقين فى بعضه * فإن قلت : قد فهمت اليقين وقوته وضعفه وكثرته وقلة وجلءه وخفاءه بمعنى نفي الشك أو بمعنى الاستيلاء على القلب فما معنى متعلقات اليقين ومحاربه وهما إذا يطلب اليقين فإنى ما لم أعرف ما يطلب فيه اليقين لم أقدر على طلبه ؟ فاعلم أن جميع ماورد به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أوله إلى آخره هو من مجارى اليقين فإن اليقين عباره عن معرفة محصورة ومتعلقة بالمعلومات التى وردت بها الشرائع فلا مطمع فى إحصائها ولكن أشير إلى بعضها وهى أمهاتها . فمن ذلك : التوحيد . وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب ولا يلتفت إلى الوسائط بل يرى الوسائط مسخرة لأحكامها فالصدق بهذا موقن ، فإن اتنى عن قلبه مع الإيمان إمكان الشك فهو مرقن بأحد المعنيين ، فإن غلب على قلبه مع الإيمان غلبة أزالته عنه الغضب على الوسائط والرضا عنهم والتمسك لهم ونزل الوسائط فى قلبه منزلة القلم واليد فى حق المنعم بالتوقيع فانه لا يشكر القلم ولا اليد ولا يعضب عليهما بل يراها آلتين مسخرتين وواسطتين فقد صار موقناً بالمعنى الثانى وهو الإشراف ، وهو ثمره اليقين الاول وروحه وفائدته . ومهما تحقق أن الشمس والتجوم والجمادات والنبات والحيوان وكل مخلوق فهى مسخرات بأمره حسب تسخير القلم فى يد الكاتب وأن القدرة الأزلية هى المصدر للكل استولى على قلبه غلبة التوكل والرضا والتسليم وصار موقناً بريثاً من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق ، فهذا أحد أبواب اليقين . ومن ذلك : الثقة بغير الله سبحانه بالرزق فى قوله تعالى ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ واليقين بأن ذلك يأتىه وأن ما قدر له سيساق إليه ومهما غلب ذلك على قلبه كان بحملاً فى الطلب ولم يشتد حرصه وشربه وتأسفه على ما فاتته ، وأثمر هذا اليقين أيضاً جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة . ومن ذلك : أن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وهو اليقين بالثواب والعقاب حتى يرى نسبة الطاعات إلى الثواب كنسبة الخبز إلى الشبع ، ونسبة المعاصى إلى العقاب كنسبة السموم والأفاعى إلى الملاك فكما يحرص على التحصيل للخبز طلباً للشبع فيحفظ قليله وكثيره فكذلك يحرص على الطاعات كلها قليلاً

وكثيرها ، وكما يجتنب قليل السموم وكثيرها فكذلك يجتنب المعاصي قليلها وكثيرها وصغيرها وكبيرها ؛ فاليقين بالمعنى الأول قد يوحد لعموم المؤمنين أما بالمعنى الثاني فيختص به المقربون ، وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة في الحركات والسكنات الخطرات والمبالغة في التقوى والتحرز عن كل السيئات ، وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد والتشمير أبلغ . ومن ذلك ؛ اليقين بأن الله تعالى مطلع عليك في كل حال ومشاهد له واحس ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك فهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأول وهو عدم التشكك وأما بالمعنى الثاني وهو المقصود فهو عزيز يختص به الصديقون ، وثمرته أن يكون الإنسان في حلوته متأدباً في جميع أحواله كالجالس بمشهد ملك معظم ينظر إليه فإنه لا يرال مطرقة متأدباً في جميع أعماله متماسكاً محتزاً عن كل حركة تخالف هيئة الأدب ويكون في فكرته الباطنة كهو في أعماله الظاهرة إذ يتحقق أن الله تعالى مطلع على سريره كما يطلع الخلق على ظاهره فتكون مبالغته في عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه بعين الله تعالى الكاتبة أشد من مبالغته في تزيين ظاهره لسائر الناس ، وهذا المقام في اليقين يورث الحياء والخوف والانكسار والذل والاستكانة والخضوع وجملة من الأخلاق المحمودة ، وهذه الأخلاق تورث أنواعاً من الطاعات رفيعة فاليقين في كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة وهذه الأخلاق في القلب مثل الأغصان المتفرعة منها وهذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار وكالأنوار المتفرعة من الأغصان فاليقين هو الأصل والأساس وله مجار وأبواب أكثر مما عددناه ، وسيأتى ذلك في ربيع المنجيات إن شاء الله تعالى . وهذا القدر كاف في معنى اللفظ الآن . ومنها أن يكون حزينا منكسرا مطرقة صامتا يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكونه لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مدكراً لله تعالى وكانت صورته دليلاً على عمله فالجواد عينه مرآته وعلماء الآخرة يعرفون بسياهم في السكينة والدلة والتواضع ، وقد قيل ما ألبس الله عبدا لبسة أحسن من خشوع في سكينة فهي لبسة الأنبياء وسيا الصالحين والصديقين والعلماء وأما التهاوت في الكلام والتشدد والاستغراق في الضحك والحدة في الحركة والنطق فشكل ذلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى وشديد سخطه وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به ، وهذا لأن العلماء ثلاثة كما قال سهل التستري رحمه الله : عالم بأمر الله تعالى لأبأيام الله وهم المفتون في الحلال والحرام وهذا العلم لا يورث الخشية ، وعالم بالله تعالى لأبأيام الله ولا بأيام الله وهم عموم المؤمنين ، وعالم بالله تعالى وبأمر الله تعالى وبأيام الله تعالى وهم الصديقون ، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم ، وأراد بأيام الله أنواع عقوباته الغامضة ونعمه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه . وقال عمر رضي الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه وليتواضع لكم من يتعلم منكم ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم . ويقال ما أتى الله عبدا علما إلا آتاه معه حلما وتواضعوا وحسن خلق ورفقا فذلك هو العلم النافع . وفي الأثر : من آتاه الله علما وزهدا وتواضعوا وحسن خلق فهو إمام المتقين . وفي الخبر : إن من خيار أمتي قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله ويكون سرا من خوف عذابه ، أبدانهم في الأرض وقلوبهم في السماء ، أرواحهم في الدنيا وعقولهم في الآخرة ، يتمشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلة ^(١) ، وقال الحسن : الحلم وزير العلم والرفق أبوه والتواضع سرباله . وقال بشر بن الحارث من طلب

(١) حديث « إن من خيار أمتي قوماً يضحكون جهراً من سعة رحمة الله ويكون سراً من خوف عذابه .. الحديث » أخرجه

الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه من حديث عياض بن سليمان

الرياسة بالعلم فتترب إلى الله تعالى ببعضه فإنه بمقوت في السماء والأرض . ويروى في الإسرائيليات أن حكيمًا صنف ثلثمائة وستين مصنفًا في الحكمة حتى وصف بالحكيم فأوحى الله تعالى إلى نبيهم . قل لفلان قدماء الأرض نفاقًا ولم تردني من ذلك بشيء وإنني لأقبل من نفاقك شيئًا . فندم الرجل وترك ذلك وغالط العامة في الأسواق وواكل بني إسرائيل وتواضع في نفسه فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل له الآن وفقت لرضاي . وحكى الأوزاعي رحمه الله عن بلال بن سعد : أنه كان يقول ينظر أحدكم إلى الشرطي فيستعيز بالله منه وينظر إلى علماء الدنيا المتصنعين للخلق المتشوفين إلى الرياسة فلا يمتقنهم وهم أحق بالمقت من ذلك الشرطي . وروى أنه قيل : « يارسول الله أي الأعمال أفضل ؟ قال اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطبًا من ذكر الله تعالى ، قيل : فأى الأصحاب خير ؟ قال صلى الله عليه وسلم صاحب إن ذكرت الله أعانك وإن نسيته ذكرك ، قيل : فأى الأصحاب شر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : صاحب إن نسيته لم يذكرك وإن ذكرت لم ينعك ، قيل : فأى الناس أعلم ؟ قال : أشدهم خشية ، قيل : فأخبرنا بخيارنا نجاسهم ، قال صلى الله عليه وسلم : الذين إذا رزوا ذكر الله ، قيل : فأى الناس شر ؟ قال : اللهم غفرا ، قالوا : أخبرنا يارسول الله قال : العلماء إذا فسدوا ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن أكثر الناس أمانا يوم القيامة أكثرهم فكرًا في الدنيا وأكثر الناس ضحكًا في الآخرة أكثرهم بكاء في الدنيا وأشد الناس فرحًا في الآخرة أطولهم حزنًا في الدنيا ^(٢) » ، وقال علي رضي الله عنه في خطبة له : ذمت رهينة وأنا به زعيم إنه لا يهيج على التقوى زرع قوم ولا يظلم على الهدى سنخ أصل ، وإن أجهل الناس من لا يعرف قدره ، وإن أبغض الخلق إلى الله تعالى رجل قش علماء أغار به في أغباش الفتنة سماء أشباه له من الناس وأرذلهم عالمًا ولم يعش في العلم يوما سالمًا ، تكبر واستكبر فما قل منه وكفى خير مما كثر وألهم حتى إذا ارتوى من ماء آجن وأكث من غير طائل جلس للناس معًا لما لتخليص ما التبس على غيره ، فإن نزلت به إحدى المهمات هيأها من رأيه حشو الرأي فهو ومن قطع الشبهات في مثل نسج العنكبوت لا يدري أخطأ أم أصاب ؟ ركاب جهالات خباط عشوات لا يمتدروا بما لا يعلم فيسلم ولا بعض على العلم بضرس قاطع فيغنم ، تبكي منه الدماء وتستجمل بقضائه الفروج الحرام لا ملء والله بإصدار ما ورد عليه ولا هو أهل لما فؤض إليه أولئك الذين حلت عليهم المثلاث وحقت عليهم السياحة والبكاء أيام حياة الدنيا . وقال علي رضي الله عنه : إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه ولا تخططوه بهزل فتمجه القلوب . وقال بعض السلف : العالم إذا ضحك ضحك مج من العلم حجة . وقيل : إذا جمع المعلم ثلاثًا تمت النعمة بها على المتعلم : الصبر والتواضع وحسن الخلق . وإذا جمع المتعلم ثلاثًا تمت النعمة بها على المعلم : العقل والأدب وحسن الفهم . وعلى الجملة فالأخلاق التي ورد بها القرآن لا ينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للرياسة . وقال ابن عمر رضي الله عنهما : لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وأوامرها وزواجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها ، ولقد رأيت رجلاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما أمره وما زاجره وما ينبغي أن يقف عنده ينثره الدقل ^(٣) . وفي خبر آخر بمثل معناه : كنا أصحاب رسول الله صلى الله

(١) حديث « قيل يارسول الله أي الأعمال أفضل » قال . اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطبًا من ذكر الله . . الحديث « لم أجده هكذا بطوله ، وفي زيادات الزهد لاس المبارك من حديث الحسن مرسلًا « سئل النبي صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أفضل . قال : أن تموت يوم تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى » وللدارمي من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلًا « ألا لمن شر الشر شرار العلماء ولن حير الحير خيار العلماء » وقد تقدم . (٢) حديث « إن أكثر الناس أمانًا يوم القيامة أكثرهم خوفًا في الدنيا . . الحديث » لم أجده أصلاً . (٣) حديث ابن عمر « لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن الحديث » أخرجه الحاكم ومصححه على شرط المصنفين والبيهقي

عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن وستأتي بعدكم قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان يقيمون حروفه ويضيعون حدوده وحقوقه يقولون قرأنا فمن أقرأ منا وعلمنا فمن أعلم منا ؟ فذلك حطهم ^(١) . وفي لفظ أولئك شرار هذه الأمة . وقيل خمس من الأخلاق هي من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات من كتاب الله عز وجل : الخشية والخشوع والتواضع وحسن الخلق وإيثار الآخرة على الدنيا وهو الزهد ، فأما الخشية فمن قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وأما الخشوع فمن قوله تعالى ﴿ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ وأما التواضع فمن قوله تعالى ﴿ وَاخْفُضْ جُنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ ﴾ وأما الزهد فمن قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ فَن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ فقيل له ما هذا الشرح ؟ فقال « إن النور إذا قذف في القلب انشرح له الصدر وانفسح » قيل : فهل لذلك من علامة ؟ قال صلى الله عليه وسلم « نعم » التجافي عن دار الغرور والإجابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله ^(٢) ، ومنها أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسدها ويشوش القلوب ويهيج الوسواس ويشير الشر فإن أصل الدين التوقى من الشر ولذلك قيل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

ولأن الأعمال الفعلية قريبة وأقصاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان وإنما الشأن في معرفة ما يفسدها وبشوشها وهذا مما تكثر شعبه وبطول تفريعه ، وكل ذلك مما يغلب مسيس الحاجة إليه وتعم به البلوى في سلوك طريق الآخرة ، وأما علماء الدنيا فإنهم يقيمون غرائب التفرعات في الحكومات والأقضية ويتعبون في وضع صور تنقضى الدهور ولا تنفع أبدا ، وإن وقعت فإنما تقع لغيرهم لا لهم ، وإذا وقعت كان في القائمين بها كثرة ، ويتركون ما يلزمهم ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف النهار في خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم ، وما أبعد عن السعادة من باع مهم نفسه للزوم بهم غيره النادر إثارة للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله سبحانه . وشرها في أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلا محققا عالما بالدقائق وجزاؤه من الله أن لا ينتفع في الدنيا بقبول الخلق بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان ثم يرد القيامة مفلسا متحسرا على ما يشاهده من ربح العالمين وفوز المقربين وذلك هو الخسران المبين ، ولقد كان الحسن البصري رحمه الله أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأقربهم هديا من الصحابة رضى الله عنهم اتفقت الكلمة في حقه على ذلك وكان أكثر كلامه في خواطر القلوب وفساد الأعمال ووساس النفوس والصفات الخفية الغامضة من شهوات النفس ؛ وقد قيل له ؛ يا أبا سعيد إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فمن أين أخذته ؟ قال : من حذيفة بن اليمان . وقيل لحذيفة : نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فمن أين أخذته ؟ قال : خصني به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه وعلمت أن الخير لا يسبقني علمه ^(٣) وقال مرة : فعلمت أن من

(١) حديث « كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن .. الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث جندب مختصراً مع اختلاف (٢) حديث « لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (فَن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) .. الحديث » أخرجه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن مسعود

(٣) حديث حذيفة « كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر .. الحديث » أخرجه مختصراً .

لا يعرف الشر لا يعرف الخير . وفي لفظ آخر : كانوا يقولون يا رسول الله ما لمن عمل كذا وكذا ؟ يسألونه عن فضائل الأعمال وكنت أقول يا رسول الله ما يفسد كذا وكذا ؟ فلما رآني أسأله عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم . وكان حذيفة رضى الله عنه أيضا قد خص بعلم المنافقين وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن ، فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة رضى الله عنهم يسألونه عن الفتن العامة والخاصة ، وكان يسأل عن المنافقين فيخبر بعدد من بقي منهم ولا يخبر بأسمائهم ، وكان عمر رضى الله عنه يسأل عن نفسه هل يعلم فيه شيئا من النفاق ؟ فبرأه من ذلك ، وكان عمر رضى الله عنه إذا دعى إلى جنازة ليصلى عليها نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها وإلا ترك ، وكان يسمى صاحب السر . فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة لأن القلب هو الساعى إلى قرب الله تعالى وقد صار هذا الفن غريبا مندوسا وإذا تعرض العالم لشيء منه استعرب واستبعد وقيل هذا تزويق المذكرين فأين التحقيق ؟ ويرون أن التحقيق في دقائق المجادلات ولقد صدق من قال :

الطرق شتى وطرق الحق ممردة والسالكون طريق الحق أفراد
لا يعرفون ولا تدرى مقاصدهم هم على مهمل يمشون قصا
والناس في غفلة عما يراد بهم لجاهلهم عن سبيل الحق رقاد

وعلى الجملة فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطباعهم فإن الحق مر والوقوف عليه صعب وإدراكه شديد وطريقه مستوعر ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة فإن ذلك نزع للروح على الدوام ، وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه وهو يقاسى الشدائد ليكون فطره عند الموت ، ومتى تكثر الرغبة في هذا الطريق ؟ ولذلك قيل : إنه كان في البصرة مائة وعشرين متكبرا في الوعظ والتذكير ولم يكن من يتكلم في علم اليقين وأحوال القلوب وصفات الباطن إلا ثلاثة منهم - سهل التستري والصبيحي وعبد الرحيم - وكان يجلس إلى أولئك الخلق الكثير الذى لا يحصى وإلى هؤلاء عدد يسير قلما يجاوز العشرة ، لأن النفيس العزيز لا يصلح إلا لأهل الخصوص وما ينزل للعموم فأمره قريب . ومنها أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره وإنما المقلد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله وإنما يقلد الصحابة رضى الله عنهم من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم إذا قلد صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في تلقى أقواله وأفعاله بالقبول فينبغى أن يكون حريصا على فهم أسرارهم فإن المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فعله ، وفعله لا بد وأن يكون لسرف فيه فينبغى أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ولا يكون عالما . ولذلك كان يقال : فلان من أوعية العلم ؛ فلا يسمى عالما إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والأسرار . ومن كشف عن قلبه الغطاء واستنار بنور الهداية صار في نفسه متبوعا مقلدا فلا ينبغى أن يقلد غيره . ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه وقرأ على أبي بن كعب ثم خالفهما في الفقه

(١) حديث ابن عباس « ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم » أخرجه الطبرانى من حديثه برقمه بلفظة « من قوله ويدع »

والقراءة جميعا . وقال بعض السلف : ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلناه على الرأس والعين وما جاءنا عن الصحابة رضى الله عنهم فنأخذ منه ونترك وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال : وإنما فضل الصحابة لمشاهدتهم قرآن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتلاق قلوبهم أمورا أدركت بالقرآن فسددهم ذلك إلى الصواب من حيث لا يدخل في الرواية والعبارة إذ فاض عليهم من نور النبوة ما يحرسهم في الأكثر عن الخطأ . وإذا كان الاعتماد على المسموع من الغير تقليداً غير مرضى فالاعتماد على الكتب والتصانيف أبعد . بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شيء منها في زمن الصحابة وصدر التابعين وإنما حدثت بعد ستة مائة وعشرين من الهجرة وبعد وفاة جميع الصحابة وجملة التابعين رضى الله عنهم وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين ؛ بل كان الأقولون يكرهون كتب الأحاديث وتصنيف الكتب لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن القرآن وعن التدبر والتذكر وقالوا : احفظوا كما كننا نحفظ . ولذلك كره أبو بكر وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم تصحيف القرآن في مصحف وقالوا : كيف فعل شياً ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وخافوا اتكال الناس على المصاحف وقالوا : نترك القرآن يتلقاه بعضهم من بعض بالتلقين والإقراء ليكون هذا شغلهم ومهمهم ، حتى أشار عمر رضى الله عنه وبقيّة الصحابة بكتب القرآن خوفاً من تغافل الناس وتكاسلهم وحذراً من أن يقع نزاع فلا يوجد أصل يرجع إليه في كلمة أو قراءة من المتناهبات فانشرح صدر أبي بكر رضى الله عنه لذلك لجمع القرآن في مصحف واحد . وكان أحمد بن حنبل ينكر على مالك في تصنيفه الموطأ ويقول : ابتدع ما لم تفعله الصحابة رضى الله عنهم وقيل : أول كتاب صف في الإسلام كتاب ابن حريج في الآثار وحروف التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس رضى الله عنهم بمكة . ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني باليمن جمع فيه سنناً مأثورة نبوية ، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس ، ثم جامع سفيان الثوري . ثم في القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام وكثر الخوض في الجدال والغوص في إبطال المقالات ، ثم مال الناس إليه وإلى القصص والوعظ بها فأخذ علم اليقين في الاندراست من ذلك الزمان فصار بعد ذلك يستغرب علم القلوب والتفتيش عن صفات النفس ومكايد الشيطان وأعرض عن ذلك إلا الأقولون ، فصار يسمى المجادل المتكلم عالماً والقاص المزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالماً ، وهذا لأن العوام هم المستمعون إليهم فكان لا يتميز لهم حقيقة العلم من غيره ، ولم تكن سيرة الصحابة رضى الله عنهم وعلومهم ظاهرة عندهم حتى كانوا يعرفون بها مباينة هؤلاء لهم فاستمرّ عليهم اسم العلماء وتوارث اللقب خلف عن سلف وأصبح علم الآخرة مطويًا ، وغاب عنهم الفرق بين العلم والكلام إلا عن الخواص منهم كانوا إذا قيل لهم ؛ فلان أعلم أم فلان ؟ يقولون : فلان أكثر علماً وفلان أكثر كلاماً . فكان الخواص يدركون الفرق بين العلم وبين القدرة على الكلام . هكذا ضعف الدين في قرون سالفه فكيف الظن بزمانك هذا ؟ وقد انتهى الأمر إلى أن مظهر الإنكار يستهدف لنفسه إلى الجنون فالأولى أن يشتغل الإنسان بنفسه ويسكت . ومنها أن يكون شديد التوقى من محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور فلا يغرنه لإطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضى الله عنهم وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم وما كان فيه أكثر مهمهم اكان في التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية وتولى الأوقاف والوصايا واكل مال الأيتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم في العشرة ؟ ام كان في الخوف والحزن والتفكير المجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الإثم وجليله والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكايد الشيطان إلى غير ذلك

من علوم الباطن ؟ واعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف فمنهم أخذ الدين . ولذلك قال علي رضي الله عنه « خيرنا أتبعنا لهذا الدين » لما قيل له : خالفت فلانا . فلا ينبغي أن يكثر بمخالفة أهل العصر في موافقة أهل عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الناس رأوا رأياً فيما هم فيه لميل طباعهم إليه ولم تسمح نفوسهم بالاعتراف بأن ذلك سبب الحرمان من الجنة فادعوا أنه لا سبيل إلى الجنة سواه . ولذلك قال الحسن : محدثان أحدثا في الإسلام : رجل ذورأى سيئاً زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه ، ومترف يعبد الدنيا لها يغضب ولها يرضى وإياها يطلب فارفضوها إلى النار . وإن رحلاً أصبح في هذه الدنيا بين مترف يدعو إلى دنياه وصاحب هوى يدعو إلى هواه وقد عصمه الله تعالى منهما يحن إلى السلف الصالح يسأل عن أفعالهم ويقتني آثارهم متعرض لأجر عظيم فكذلك كونوا . وقد روى عن ابن مسعود موقوفاً ومسنداً أنه قال : « إنما هما اثنتان الكلام والهدى ، فأحسن الكلام كلام الله تعالى ، وأحسن الهدى هدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ألا وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن شر الأمور محدثاتها ، وإن كل محدثة بدعة ، وإن كل بدعة ضلالة ، ألا لا يطول عليكم الأمد فتقسروا قلوبكم ، ألا كل ما هو آت قريب ، ألا إن البعيد ما ليس بآت^(١) » وفي خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية وخالف أهل الفقه والحكم وخائب أهل الزلل والمعصية ، طوبى لمن ذل في نفسه وحسنت حليقته وصلحت سريره وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن عمل بعمله وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يعدها إلى بدعة^(٢) » وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول : حسن الهدى في آخر الزمان خير من كثير من العمل ، وقال : أنتم في زمان حيركم فيه المسارع في الأمور وسيأتي بعدكم زمان يكون خيراً من المتشبه المتوقف لكثرة الشبهات . وقد صدق فمن لم يتوقف في هذا الزمان ووافق الجماهير فيما هم عليه وخاض فيما خاصوا فيه هلك كما هلكوا . وقال حذيفة رضي الله عنه : أعجب من هذا أن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى وأن منكركم اليوم معروف زمان قد أتى وإسكم لا تزالون بحير ما عرفتم الحق وكان العالم فيكم غير مستخف به . ولقد صدق فإن أكثر معروفات هذه الأعصار مكرات في عصر الصحابة رضي الله عنهم إذ من غرر المعروفات في زماننا تزيين المساجد وتنجيدها وإنفاق الأموال العظيمة في دقائق عماراتها وفرش البسط الرفيعة فيها ، ولقد كان يعد فرش البوارى في المسجد بدعة ، وقيل إنه من محدثات الحجاج . فقد كان الأولون قلما يجعلون بينهم وبين التراب حاجزاً . وكذلك الاشتغال بدقائق الجدل والمناظرة من أجل علوم أهل الزمان ويزعمون أنه من أعظم القربات ، وقد كان من المنكرات . ومن ذلك التلحين في القرآن والأذان . ومن ذلك التعسف في النظافة والوسوسة في الطهارة وتقدير الأسباب البعيدة في نجاسة الثياب مع التساهل في حل الأطعمة وتحريمها إلى نظائر ذلك . ولقد صدق ابن مسعود رضي الله عنه حيث قال : أنتم اليوم في زمان الهوى فيه تابع للعلم وسيأتي عليكم زمان يكون العلم فيه تابعا للهوى . وقد كان أحمد بن حنبل يقول : تركوا العلم وأقبلوا على الفرائب ما أقل العلم فيهم والله المستعان . وقال مالك بن أنس رحمه الله : لم تكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس اليوم ولم يكن العلماء يقولون حرام ولا حلال ولكن أدركتهم يقولون مستحب ومكروه

(١) حديث ابن مسعود « إنما هما اثنتان الكلام والهدى » . الحديث « أخرجه ابن ماجة

(٢) حديث « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق مالا اكتسبه » . الحديث « أخرجه أبو نعيم من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف والبراز من حديث أس أول الحديث وآخره والطبراني والبيهقي من حديث ركب المصري وسط الحديث وكلها ضعيفة

(ومنه أنهم كانوا ينظرون في دقائق الكراهة والاستحباب فأما الحرام فكان لحشمه ظاهرا) وكان هشام بن عروة يقول : لا تسألوه اليوم عما أحدثوه بأنفسهم فإنهم قد أعدوا له جوابا ولكن سلوهم عن السنة فإنهم لا يعرفونها . وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله يقول : لا ينبغي لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمع به في الأثر فيحمد الله تعالى إذا وافق ما في نفسه ، وإنما قال هذا لأن ما قد أبدع من الآراء قد قرع الأسماع وعلق بالقلوب وربما يشوش صفاء القلب فيتخيل بسببه الباطل حقا فيحتاج فيه بالاستظهار لشهادة الآثار . ولهذا لما أحدث مروان المنبر في صلاة العيد عند المصلى قام إليه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه فقال : يا مروان ما هذه البدعة ؟ فقال : إنها ليست بدعة إنما خير مما تعلم إن الناس قد كثروا فأردت أن يبلغهم الصوت ، فقال أبو سعيد : والله لا تأتون بخير عما أعلم أبدأ والله لأصليت وراءك اليوم ! وإنما أنكر ذلك عليه « لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتوكل في خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا لا على المنبر ^(١) » ، وفي الحديث المشهور « من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد ^(٢) » ، وفي خبر آخر « من غش أمي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، قيل : يا رسول الله وما غش أمي ؟ قال : أن يتبدع بدعة يحمل الناس عليها ^(٣) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل ملكا ينادي كل يوم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تله شعاعته ^(٤) » ، ومثال الجاني على الدين يبدع ما يخالف السنة بالنسبة إلى من يذنب ذنبا مثال من عصى الملك في قلب دولته بالنسبة إلى من خالف أمره في خدمة معينة ، وذلك قد يغفر له فأما في قلب الدولة فلا . وقال بعض العلماء : ماتكم فيه السلف بالسكوت عنه جفاء وما سكت عنه السلف فالكلام فيه تكلف . وقال غيره : الحق ثقيل من جاوزه ظلم ومن قصر عنه عجز ومن وقف معه اكتفى . وقال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالنمط الأوسط الذي يرجع إليه العالي ويرتفع إليه التالئ ^(٥) » ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الضلالة لها حلاوة في قلوب أهلها قال الله تعالى ﴿ وذُرِّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ وقال تعالى ﴿ أَمِنْ زَيْنٍ لَهُ سَوْءُ عَمَلٍ هَرَّاهُ حَسَنًا ﴾ فكل ما أحدث بعد الصحابة رضي الله عنهم مما جاوز قدر الضرورة والحاجة فهو من اللعب واللهو . وحكى عن إبليس لعنه الله أنه بث جنوده في وقت الصحابة رضي الله عنهم فرجعوا إليه محسورين فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : مارأينا مثل هؤلاء ما نصيب منهم شيئا وقد آتبعونا ! فقال : إنكم لا تقدرون عليهم قد صحبوا نبيهم وشهدوا تنزيل ربهم ولكن سيأتي بعدكم قوم تنالون منهم حاجتكم . فلما جاء التابعون بث جنوده فرجعوا إليه منكسين فقالوا : مارأينا أعجب من هؤلاء نصب منهم الشيء بعد الشيء من الذنوب فإذا كان آخر النهار أخذوا في الاستغفار فيبدل الله سيئاتهم حسنات ! فقال : إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيئا لصحة توحيدهم واتباعهم لسنة نبيهم ولكن سيأتي بعد هؤلاء قوم تفرغ أعينكم بهم تلعبون بهم لعبا وتفردونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم إن استغفروا لم يعفر لهم ولا يتوبون فيبدل الله سيئاتهم

(١) حديث « كان يتوكل في خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا » أخرجه الطبراني من حديث البراء ونحوه في يوم الأصبى ليس فيه الاستسقاء وهو ضعيف ، رواه في الصحيحين من حديث سعد القرطبي « كان إذا خطب في الميدان خطب على قوس وإذا خطب في الجمعة خطب على عصا » وهو عند ابن ماجة بإسقاط « كان إذا خطب في الحرب خطب على قوس .. الحديث »

(٢) حديث « من أحدث في ديننا ما ليس فيه فهو رد » متفق عليه من حديث عائشة بإسقاط « في أمرنا . لا ليس منه » ، وعنه أبي داود « فيه » (٣) حديث « من غش أمي فعليه لعنة الله .. الحديث » أخرجه الدارقطني في الأمراء من حديث أنس بسند صحيح جدا (٤) حديث « إن الله ملكا ينادي كل يوم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تله شعاعته » لم أجد له أصلا (٥) حديث « عليكم بالنمط الأوسط .. الحديث » أخرجه أبو عبيد في عريب الحديث موقوفا على علي بن أبي طالب ولم أجده مرهقا .

حسنات ، قال : لحاء قوم بعد القرن الأول فبث فيهم الأهواء وزين لهم البدع فاستحلوها واتخذوها ديناً لا يستغفرون الله منها ولا يتوبون عنها فسلط عليهم الأعداء وقادوم أين شاءوا . فإن قلت : من أين عرف قائل هذا ما قاله إبليس ولم يشاهد إبليس ولا حدثه بذلك ؟ فاعلم أنّ أرباب القلوب يكاشفون بأسرار الملكوت تارة على سبيل الإلهام بأن يحطر لهم على سبيل الورود عليهم من حيث لا يعلمون وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة وتارة في اليقظة على سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة - كما يكون في المنام - وهذا أعلى الدرجات وهي من درجات النبوة العالية كما أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة . فإياك أن يكون حظك من هذا العلم إنكار ما حاز حد قصورك ففيه هلك المتخذلقون من العلماء الزاعمون أنهم أحاطوا بعلوم العقول ، فالجهل خير من عقل يدع إلى إنكار مثل هذه الأمور لأولياء الله تعالى ، ومن أنكر ذلك لأولياء الله لزمه إنكار الأنبياء وكان خارجاً عن الدين بالسكينة . قال بعض العارفين : لما انقطع الأبدال في أطراف الأرض واستتروا عن أعين الجمهور لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت لأنهم عندهم جهال بالله تعالى وهم عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء . قال سهل التستري رضي الله عنه : إن من أعظم المعاصي الجهل بالجهل والنظر إلى العامة واستماع كلام أهل الغفلة . وكل عالم خاض في الدنيا فلا ينبغي أن يصفى إلى قوله بل ينبغي أن يتم في كل ما يقول لأن كل إنسان يحوض فيما أحب ويدفع مالا يوافق محبوه ، ولذلك قال الله عز وجل ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ والعوام العصاة أسعد حالاً من الجهال بطريق الدين المعتقدين أنهم من العلماء ؛ لأن العاصي معترف بتقصيره ويستغفر ويتوب وهذا الجاهل الظان أنه عالم وأن ما هو مشتغل به من العلوم التي هي وسائله إلى الدنيا عن سلوك طريق الدين فلا يتوب ولا يستغفر ؛ بل لا يزال مستمراً عليه إلى الموت . وإذ غلب هذا على أكثر الناس إلا من عصمه الله تعالى وانقطع الطمع من إصلاحهم فلا سلب لذي الذين المحتاط العزلة والانفراد عنهم - كما سيأتي في كتاب العزلة بيانه إن شاء الله تعالى - ولذلك كتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرعشي : ما ظنك بمن بقى لا يجد أحداً يذكر الله تعالى معه إلا كان آثماً أو كانت مذاكرته معصية وذلك أنه لا يجد أهله ؟ ولقد صدق فإن محالطة الناس لا تفك عن غيبة أو سماع غيبة أو سكوت على منكر وأن أحسن أحواله أن يفيد علماً أو يستفيدة ولو تأمل هذا المسكين وعلم أنّ إفادته لا تخلو عن شوائب الرياء وطلب الجمع والرياسة علم أن المستفيد إنما يريد أن يجعل ذلك آلة إلى طلب الدنيا ووسيلة إلى الشر فيكون هو معيناً له على ذلك ورداء وظهيراً ومهيئاً لأسبابه كالذي يبيع السيف من قطاع الطريق . فالعلم كالسيف وصلاحه للخير كصلاح السيف للغزو ، ولذلك لا يرخص له في البيع من يعلم بقرائن أحواله أنه يريد به الاستعانة على قطع الطريق . فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة تجمع كل واحدة منها جملة من أخلاق علماء السلف ؛ فكان أحد رحلين إما متصفاً بهذه الصفات أو معترفاً بالتقصير مع الإقرار به وإياك أن تكون الثالث فتأس على نفسك بأن تبدل آلة الدنيا بالدين وتشبه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراضين وتلتحق بجهلك وإنكارك زمرة الهالكين الآيسين . نعوذ بالله من خدع الشيطان ، فيها هلك الجمهور . فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لا تغره الحياة الدنيا ولا يغره بالله الغرور .

الباب السابع

في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه — بيان شرف العقل

اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره لا سيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة ؟ أو كيف يستتراب فيه والبهيمة مع قصور تمييزها تحشم العقل حتى إن أعظم البهائم بدنا وأشدّها ضراوة وأقواها سطوة إذا رأى صورة الإنسان احتشمه وهابه لشعوره باستيلائه عليه لما خص به من إدراك الحيل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « الشيخ في قومه كالنبي في أمته »^(١) ، وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكبر شخصه ولا لزيادة قوته بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله . ولذلك ترى الأنراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع . ولذلك حين قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وقعت أعينهم عليه واكتحلوا بفترته الكريمة هابوه وتراءى لهم ما كان يتلأأ على ديباجة وجهه من نور النبوة وإن كان ذلك باطنا في نفسه بطون العقل فشرف العقل ما يدرك بالضرورة ؛ وإنما قصد أن يورد ما وردت به الأخبار والآيات في ذكر شرفه وقد سماه الله نورا في قوله تعالى ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة ﴾ وسمى العلم المستفاد منه روحا ووحيا وحياة فقال تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾ وقال سبحانه ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا لهنورا يمشي به في الناس ﴾ وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل كقوله ﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : « يأياها الناس اعتقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه واعلموا أنه ينجدكم عند ربكم واعلموا أن الصائل من أطاع الله وإن كان دميم المنظر حقير الخطر دنى المنزلة رث الهيئة ، وأن الجاهل من عصى الله تعالى وإن كان جميل المنظر عظيم الخطر شريف المنزلة حسن الهيئة فصيحاً نطوقاً فالقردة والخنزير أعقل عند الله تعالى ممن عصاه ، ولا تغتر بتعظيم أهل الدنيا لإياهم فإنهم من الخاسرين »^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : « أول ما خلق الله العقل ، فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، ثم قال الله عز وجل وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم على منك ، بك آخذ وبك أعطى وبك أئيب وبك أعاقب »^(٣) ، « فإن قلت : فهذا العقل إن كان عرضا فكيف خلق قبل الأجسام ؟ وإن كان جوهرًا فكيف يكون جوهر قائم بنفسه ولا يتحيز ؟ فأعلم أن هذا من علم المكاشفة فلا يليق ذكره بعلم المعاملة ، وغرضنا الآن ذكر علوم المعاملة . وعن أنس رضى الله عنه قال : « أثنى قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال صلى الله عليه وسلم كيف عقل الرجل ؟ فقالوا : نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور

الباب السابع في العقل

- (١) حديث « الشيخ في قومه كالنبي في أمته » أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وأبو منصور الديلمي من حديث أبي رافع بسند صحيح .
 (٢) حديث « يأياها الناس اعتقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل .. الحديث » أخرجه داود بن المجهر أحد الضعفاء في كتاب العقل .
 من حديث أبي هريرة ؛ وهو في مسند المارث بن أبي أسامة عن داود . (٣) حديث « أول ما خلق الله العقل قال له أقبل .. الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين صحيحين

الفاجر وإنما يرتفع العباد غدا في الدرجات الزلني من ربهم على قدر عقولهم ^(١) . . وعن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله » ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله فعند ذلك تم إيمانه وأطاع ربه وعصى عدوه إبليس » ^(٣) ، وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته أما سمعتم قول الفجار في النار (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » ^(٤)) وعن عمر رضى الله عنه أنه قال لقيم الدارى « ما السودد فيكم ؟ قال : العقل ، قال : صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتك فقال كما قلت ، ثم قال سألت جبريل عليه السلام ما السودد ؟ فقال : العقل » ^(٥) ، وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : كثرت المسائل يوما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أيها الناس إن لكل شيء مطية ومطية المرء العقل وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلا » ^(٦) ، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال « لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون : فلان أشجع من فلان وفلان أبلى مالم يبل فلان ونحو هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فلا علم لكم به ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنهم قاتلوا على قدر ما قسم الله لهم من العقل وكانت نصرتهم ونيتهم على قدر عقولهم فأصيب منهم من أصيب على منازل شتى فإذا كان يوم القيامة اقتسموا المنازل على قدر نياتهم وقدر عقولهم » ^(٧) ، وعن البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال « جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله سبحانه وتعالى بالعقل وجد المؤمنون من بنى آدم على قدر عقولهم فأعملهم بطاعة الله عز وجل أوفرهم عقلا » ^(٨) ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « قلت يا رسول الله بهم يتفاضل الناس في الدنيا ؟ قال : بالعقل ، قلت : وفي الآخرة ؟ قال : بالعقل ، قلت : أليس إنما يحجزون بأعمالهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل ؟ فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم وبقدر ما عملوا يحجزون » ^(٩) ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شيء آلة وعدة وإن آلة المؤمن العقل ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل ولكل شيء دعامة ودعامة الدين العقل ولكل قوم غاية وغاية العباد العقل ولكل قوم داع وداعى العابدين العقل ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل ولكل أهل بيت قيم وقيم بيوت الصديقين العقل ولكل خراب

(١) حديث أس « أثنى قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالموا في الشاء فقال كيف عقل الرجل . . الحديث » أخرجه ابن الجبير في العقل بتمامه والترمذى الحكيم في النوادر مختصراً (٢) حديث عمر « ما اكتسب رجل مثل فضل عقل . . الحديث » أخرجه ابن الجبير في العقل وعنه الحارث بن أنس أسامة (٣) حديث « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله . . الحديث » أخرجه ابن الجبير من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به والحديث عند الترمذى مختصراً دون قوله « ولا يتم » من حديث عائشة وصححه (٤) حديث أبي سعيد « لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله . . الحديث » أخرجه ابن الجبير وعنه الحارث (٥) حديث عمر أنه قال لقيم الدارى « ما السودد فيكم ، قال العقل قال صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم . . الحديث » أخرجه ابن الجبير وعنه الحارث (٦) حديث البراء « كثرت المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس إن لكل شيء مطية . . الحديث » أخرجه ابن الجبير وعنه الحارث (٧) حديث أبي هريرة « لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون كان فلان أشجع من فلان . . الحديث » أخرجه ابن الجبير (٨) حديث البراء بن عازب « جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله بالعقل . . الحديث » أخرجه ابن الجبير كذلك وعنه الحارث في مسنده ، ورواه البيهقي في معجم الصحابة من حديث ابن عازب رجل من الصحابة غير البراء وهو بالسند الذى رواه ابن الجبير (٩) حديث عائشة « قالت يا رسول الله بأى شيء يتفاضل الناس في الدنيا قال بالعقل . . الحديث » أخرجه ابن الجبير والترمذى الحكيم في النوادر نحوه

عمارة وعمارة الآخرة العقل ، ولكل امرئ عقب ينسب إليه ويذكر به وعقب الصديقين الذى يفسبون إليه وبذكرون به العقل ولكل سفر فسطاط وفسطاط المؤمنين العقل ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحب المؤمنين إلى الله عز وجل من نصب في طاعة الله عز وجل ونصح لعباده وكمل عقله ونصح نفسه فأبصر وعمل به أيام حياته فأفليح وأنجح » ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « أتمكم عقلاً أشدكم لله تعالى خوفاً وأحسنكم فيما أمركم به ونهى عنه نظراً وإن كان أقلكم تطوعاً » ^(٣) .

بيان حقيقة العقل وأقسامه

اعلم أن الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته وذهل الآكثرون عن كون هذا الاسم مطلقاً على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلاطهم . والحق الكاشف للغطاء فيه أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان - كما يطلق اسم العين مثلاً على معان عدة وما يجرى هذا المجرى فلا ينبغي أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد بل يفرد كل قسم بالكشف عنه - فالأول : الوصف الذى يفارق الإنسان به سائر البهائم وهو الذى استعذ به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذى أراده الحارث بن أسد المحاسبي حيث قال في حد العقل : إنه غريزة يتيمها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب به يستمد لإدراك الأشياء ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية فإن الغافل عن العلوم والتأني يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم . وكما أن الحياة غريزة يتيمها الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية فكذلك العقل غريزة يتيمها بعض الحيوانات للعلوم النظرية ولو جاز أن يسوى بين الإنسان والحمار في الغريزة والإدراكات الحسية . فيقال لافرق بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق في الإنسان علوماً وليس يخلقها في الحمار والبهائم لجواز أن يسوى بين الحمار والجملاد في الحياة ، ويقال لافرق إلا أن الله عز وجل يخلق في الحمار حركات مخصوصة بحكم إجراء العادة . فإنه لو قدر الحمار جماداً ميتاً لوحب القول بأن كل حركة تشاهد منه فالله سبحانه وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد . وكما وجب أن يقال لم يكن مفارقة للجهد في الحركات إلا بغريزة اختصت به عبر عنها بالحياة فكذلك مفارقة الإنسان البهيمة في إدراك العلوم النظرية بغريزة يعبر عنها بالعقل وهو كالمرآة التي تفارق غيرها من الأجسام في حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهى الصقالة . وكذلك العين تفارق الجبهة في صفات وهيئات بها استعدت للرؤية فنسب هذه الغريزة إلى العلوم كنسبة العين إلى الرؤية ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة في سيافها إلى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس إلى البصر فهكذا ينبغي أن تفهم هذه الغريزة . الثاني : هى العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بمجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد ، وهو الذى عناء بعض المتكلمين حيث قال في حد العقل : إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بمجواز الجائزات واستحالة المستحيلات وهو أيضاً صحيح في نفسه لأن هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلاً ظاهراً وإنما الفاسد أن تنسب تلك الغريزة ويقال لا موجود إلا هذه العلوم . الثالث : علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال فإن من حسنكته التجارب وهذبه المذاهب يقال إنه عاقل في العادة ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال

(١) حديث ابن عباس « لسكر شيء آله وعدة وإن آله المؤمن العقل .. الحديث » أخرجه ابن الجبير وعنه الحارث

(٢) حديث « إن أحب المؤمنين إلى الله من نصب في طاعة الله .. الحديث » أخرجه ابن المحر من حديث ابن عمر ، ورواه أبو مقصور الديلمي في مسند الردوس بإسناد آخر ضعيف (٣) حديث « أتمكم عقلاً أشدكم لله خوفاً .. الحديث » أخرجه ابن الجبير من حديث أبي قتادة

إنه غي غمر جاهل ، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا . الرابع : أن تنتهى قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلا من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة الناحلة وهذه أيضا من خواص الإنسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان ، فالأول : هو الأس والسنخ والمنبع . والثاني : هو الفرع الأقرب إليه . والثالث : فرع الأول والثاني ؛ إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب والرابع : هو الثمرة الأخيرة وهي الغاية القصوى ، فالأولان بالطبع والآخران بالاكتساب . ولذلك قال على كرم الله وجهه :

رأيت العقل عقليين فطبوع ومسموع ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وصوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : ما خلق الله عز وجل خلقا أكرم عليه من العقل ^(١) ، والآخر هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : إذا تقرب الناس بأبواب البر والأعمال الصالحة فتقرب أنت بعقلك ^(٢) ، وهو المراد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي الدرداء رضى الله عنه : ازدد عقلا تردد من ربك قريبا ، فقال : بأى أنت وأمى وكيف لي بذلك ؟ فقال : اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله سبحانه تكن عاقلا واعمل بالصالحات من الأعمال تردد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتتل في آجل العقبى بها من ربك عز وجل القرب والعز ^(٣) ، وعن سعيد بن المسيب : أن عمر وأبى بن كعب وأبا هريرة رضى الله عنهم دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله من أعلم الناس ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : العاقل ؟ قالوا : من أعبد الناس ؟ قال : العاقل . قالوا : فمن أفضل الناس ؟ قال العاقل قالوا : أليس العاقل من تمت مروءته وطهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته ؟ فقال صلى الله عليه وسلم (وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) إن العاقل هو المتقي وإن كان في الدنيا حسيسا ذليلا ^(٤) ، قال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر : إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته ^(٥) ، ويتبى أن يكون أصل الاسم في أصل اللغة لتلك الغريزة وكذلك في الاستعمال وإنما أطلق على العلوم من حيث إنها ثمرتها كما يعرف الشيء بثمرته فيقال : العلم هو الحشية والعالم من يخشى الله تعالى . فإن الحشية ثمرة العلم فتكون كالحماز لغير تلك الغريزة ولكن ليس الغرض البحث عن اللغة . والمقصود أن هذه الأقسام الأربعة موجودة والاسم يطلق على جميعها ولا خلاف في وجود جميعها إلا في القسم الأول ، والصحيح وجودها بل هي الأصل . وهذه العلوم كأنها مضممة في تلك الغريزة بالفطرة ولكن تطوّر في الوجود إذا جرى سبب يخرجهما إلى الوجود حتى كأن هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج وكأنها كانت مستكنة فيها وظهرت ، ومثاله الماء في الأرض فإنه يظهر بحجر البئر ويجمع ويتميز بالحس لا بأن يساق إليها شيء جديد ، وكذلك الدهن في اللوز ، وماء الورد في الورد ولذلك قال تعالى (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم

(١) حديث « ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل » أخرجه الترمذى الحكيم في السواد سند ضعيف من رواية الحسن عن عدة من الصحابة (٢) حديث « إذا تقرب الناس أنواع البر فتقرب أنت بعقلك » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث على « إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل فاكسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالرأفة والقرب » وإسناده ضعيف (٣) حديث « ازدد عقلا تردد من ربك قريبا .. الحديث » قاله لأبي الدرداء أخرجه ابن الجبير ومن طريقه الحارث بن أبي أسامة والترمذى الحكيم والنوادر (٤) حديث ابن المسيب « أن عمر وأبى بن كعب وأبا هريرة دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله من أعلم الناس فقال العاقل .. الحديث » أخرجه ابن الجبير (٥) حديث « إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته » أخرجه ابن الجبير من حديث سعيد بن المسيب مرسل لا يهمل

ألست بربكم قالوا بلى) فالمراد به إقرار نفوسهم لا إقرار الالسة فإنهم انقسموا في إقرار الالسة حيث وجدت الالسة والأشخاص إلى مقرولي واحد وذلك قال تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) معناه إن اجترأت أحوالهم شهدت بذلك نفوسهم وبواطنهم (فطرة الله التي فطر الناس عليها) أى كل آدمى فطر على الإيمان بالله عز وجل بل على معرفة الأشياء على ما هي عليه أعنى أنها كالمضمنة فيها لقرب استعدادها للإدراك . ثم لما كان الإيمان مركزاً في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين : إلى من أعرض ففسى وهم الكفار ، وإلى من أجال خاطره فتذكر فكان كمن حل شهادة ففسى بغفلة ثم تذكرها . ولذلك قال عز وجل (لعلمهم يتذكرون - وليتذكر أولوا الباب - واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به - ونقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وتسمية هذا النقط تذكر ليس ببعيد فكان التذكر ضربان : أحدهما . أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود في قلبه لكن غابت بعد الوجود . والآخر : أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة . وهذه حقائق ظاهرة للنظر بنور البصيرة ثقيلة على من يستروجه ^(١) السباع والتقليد دون الكشف والعيان . ولذلك تراه يتخبط في مثل هذه الآيات ويتعسف وفي تأويل التذكر بإقرار النفوس أنواعاً من التعسفات ويتخيل إليه في الأخبار والآيات ضروب من المناقضات وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر إليها بعين الاستحقار ويعتقد فيها التهاوت . ومثاله مثال الأعمى الذى يدخل داراً فيعثر فيها بالأواني المصفوفة في الدار فيقول : ما لهذه الأواني لا ترفع من الطريق وترد إلى مواضعها ؟ فيقال له : إنها في مواضعها وإنما الخلل في بصرك . فكذلك خلل البصيرة يحرى مجراه وأطم منه وأعظم إذ النفس كالفرس والبدن كالفرس وعمى الفارس أضرم من عمى الفرس ولمشابهة بصيرة الباطن لبصيرة الظاهر قال الله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى) وقال تعالى (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) الآية وسمى ضده عمى فقال تعالى (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) وهذه الأمور التى كشفت للأنبياء بعضها كان بالبصر وبعضها كان بالبصيرة وسمى الكل رؤية . وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة ثاقبة لم يعلق به من الدين إلا قشوره وأمثله دون لبابه وحقيقته . وهذه أقسام ما ينطلق اسم العقل عليها .

بيان تفاوت النفوس في العقل

قد اختلف الناس في تفاوت العقل ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قل تحصيله بل الأولى والأهم المبادرة إلى التصريح بالحق . والحق الصريح فيه أن يقال إن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثانى : وهو العلم الضرورى بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات . فإن من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضاً استحالة كون الجسم في مكانين وكون الشيء الواحد قديماً حادثاً وكذا سائر النظائر وكل ما يدركه إدراكاً محققاً من غير شك ، وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق إليها ، أما القسم الرابع وهو استيلاء القوة على قمع الشهوات فلا يخفى تفاوت الناس فيه بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه ، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة إذ قد يقدر العاقل ترك بعض الشهوات دون بعض ولكن غير مقصور عليه . فإن الشاب قد يعجز عن ترك الزنا وإذا كبر وتم عقله قدر عليه وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالكبر لضعفها ، وقد يكون سببه التفاوت في العلم المعرف لثقل تلك الشهوة ، ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة وقدم من يساويه في العقل على ذلك

(١) قوله « يستروجه » من الرواج أى يكون السباع والتقليد رانها عنده فتأمل اهـ مصححه

إذا لم يكن طيباً وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة لكن إذا كان علم الطبيب أتم كان خوفه أشد فيكون الخوف حداً للعقل وعدة له في قمع الشهوات وكسرها . وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصي من الحاحل لقوة علمه بضرر المعاصي وأغنى به العالم الحقيقي دون أرباب الطيالة وأصحاب الهذيان . فإن كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل وإن كان من جهة العلم فقد سمينا هذا الضرب من العلم عقلاً أيضاً فإنه يقوى غريزة العقل فيكون التفاوت فيما رحعت التسمية إليه وقد يكون بمجرد التفاوت في غريزة العقل فإنها إذا قويت كان قمعها للشهوة لاهالة أشد . وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب فتفاوت الناس فيها لا ينكر فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك ويكون سببه إما تفاوتاً في الغريزة وإما تفاوتاً في الممارسة ، فأما الأول وهو الأصل أغنى الغريزة فالتفاوت فيه لا سبيل إلى حمله فإنه مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبحه ومبادئ إشرافه عند سن التمييز ثم لا يزال ينمو ويزداد بما خفي بالتدرج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة ؛ ومثاله نور الصبح فإن أوائله تخفى خفاء يشق إدراكه ثم يتدرج إلى الزيادة إلى أن يكمل بطولق قرص الشمس . وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر بل سنة الله عز وجل حاربه في جميع خلقه بالتدرج في الإيجاد حتى إن غريزة الشهوة لا تظهر في الصبي عند البلوغ دفعة واحدة بل تظهر شيئاً فشيئاً على التدرج وكذلك جميع القوى والصفات ، ومن أنكر تفاوت الناس في هذه الغريزة فكأنه منحل عن رقة العقل ، ومن طعن أن عقل النبي صلى الله عليه وسلم مثل عقل آحاد السوادية وأحلاف البوادي فهو أحسن في نفسه من آحاد السوادية وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المعلم وإلى ذكي يفهم بأدنى رمز وإشارة وإلى كامل تنمعت من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم ؟ كما قال تعالى (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور) وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام إذ يتضح لهم في بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ويعبر عن ذلك بالإلهام ، وعن مثله عبر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال « إن روح القدس نفث في روعي : أحب من أحببت فإنك مفارقة وعش ماشئت فإنك ميت واعمل ماشئت فإنك مجزي به (١) » وهذا النمط من تعريف الملائكة للأنبياء يحالف الوحي الصريح الذي هو سماع الصوت بحاسة الأذن ومشاهدة الملك بحاسة البصر ولذلك أحبر عن هذا بالنفث في الروح ، ودرجات الوحي كثيرة والخصوص فيها لا يليق بعلم المعاملة بل هو من علم المكاشفة . ولا تظن أن معرفة درجات الوحي تستدعي منصب الوحي إذ لا يبعد أن يعرف الطبيب المريض درجات الصحة ويعلم العالم الفاسق درجات العدالة وإن كان خالياً عنها فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر فلا كل من عرف النور والولاية كان نبياً ولا ولياً ولا كل من عرف التقوى والورع ودقائقه كان تقياً وانقسام الناس إلى من يتنبه من نفسه ويفهم وإلى من لا يفهم إلا بتبنيه وتعليم وإلى من لا ينفعه التعليم أيضاً ولا التنبيه كانقسام الأرض إلى ما يجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجر بنفسه عيوناً وإلى ما يحتاج إلى الحفر ليخرج إلى القنوات وإلى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس وذلك لاختلاف جواهر الأرض في صفاتها فكذلك اختلاف النفوس في غريزة العقل . ويدل على تماوت العقل من جهة القل : ما روى أن عبد الله بن سلام رضى الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت « يا ربنا هل خلقت شيئاً أعظم من العرش ؟

(١) حديث « إن روح القدس نفث في روعي : أحب من أحببت فإنك مفارقة . . الحديث » أخرجه الفيروزى في الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه ، والطبراني في الأسمر والأوسط من حديث علي وكلاماً ضعيف

قال : نعم : العقل ، قالوا : وما بلغ من قدره ؟ قال : هيات لا يحاط بعله هل لكم علم بعدد الرمل ؟ قالوا : لا ، قال الله عز وجل : فإن خلقت العقل أصنافاً شتى كعدد الرمل فمن الناس من أعطى حبة ومنهم من أعطى حبتين ومنهم من أعطى الثلاث والأربع ومنهم من أعطى فرقا ومنهم من أعطى وسقا ومنهم من أعطى أكثر من ذلك ^(١) ، فإن قلت : فما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والمعقول ؟ فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل المعقول إلى المحادلة والمطارة بالمناقضات والإلزامات وهو صنعة الكلام فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم في التسمية إذ كان لا يمحى عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه في القلوب فذموا العقل والمعقول وهو المسمى به عندهم . فأما نور البصيرة التى بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله تعالى عليه وإن ذم فما الذى لعدده يحمد ؟ فإن كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع ؟ فإن علم بالعقل المدموم الذى لا يوثق به فيكون الشرع أيضا مدموما ولا يلتفت إلى من يقول : إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل ، فإننا نريد بالعقل : ما يريده بعين اليقين ونور الإيمان ، وهى الصفة الباطنة التى يتميز بها الآدمى عن الداهم حتى أدرك بها حقائق الأمور : وأكثر هذه التحييطات إنما نارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس فى الألفاظ ؛ فهذا القدر كاف فى بيان العقل والله أعلم .

تم كتاب العلم بحمد الله تعالى ومنه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء .

يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب قواعد العقائد والحمد لله وحده أولا وآخرا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

فى ترجمة عقيدة أهل السنة فى كلبى الشهادة التى هى أحد مبانى الإسلام

فنقول وبالله التوفيق : الحمد لله المبدئ المعيد الفعال لما يريد ذى العرش المجيد والبطش الشديد الهادى صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد المتجلى لهم فى ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التى لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد المعروف إياهم أنه فى ذاته واحد لا شريك له فرد لا مثيل له صمد لا صد له منفرد لا ند له وأنه واحد قديم لا أول له أزلى لا بداية له مستمر الوجود لا آخر له أبدي لا نهاية له قيوم لا انقطاع له دائم لا انصرام له لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال

(١) حديث ابن سلام « سئل النبي صلى الله عليه وسلم » فى حديث طويل فى آخره وصف عظم الدرس وأن الملائكة قات يارب هل حلفت شيئا أعظم من العرش الحديث أخرجه ابن الجببر من حديث أس بنامه والترمذى الحكيم والوادى محتصراً

(١٢ - لمجايع علوم الدين - ١)

لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآحال بل (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم)

التنزيه : وأنه ليس بجسم مصور ولا حوهر محدود مقدر وأنه لا يماثل والأجسام ولا فى التقدير ولا فى قبول الانقسام وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ولا تعرض ولا تحله الاعراض بل لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود (ليس كمثل شىء) ولا هو مثل شىء . وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الأقطار ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات . وأنه مستو على العرش على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراد استواء منزها عن الماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون فى قبضته . وهو فوق العرش والسماء وفوق كل شىء إلى تخوم الثرى ، فوقية لا تزيد قربا إلى العرش والسماء كما لا تزيد بعدا عن الأرض والثرى بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى . وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من جبل الوريد (وهو على كل شىء شهيد) إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام وأنه لا يحل فى شىء ولا يحل فيه شىء تعالى عن أن يحويه مكان كما تقدس عن أن يحده زمان بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان . وأنه بآن عن خلقه بصفاته ليس فى ذاته سواء ولا فى سواء ذاته وأنه مقدس عن التغير والانتقال لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض بل لا يرال فى نعوت جلالة منزها عن الزوال وفى صفات كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال . وأنه فى ذاته معلوم الوجود بالعقول مرئى الذات بالأبصار نعمة منه ولطفا بالاراد فى دار القرار وإتماما منه للنعم بالنظر إلى وجهه الكريم .

الحياة والقدرة : وأنه تعالى حى قادر جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يعارضه فناء ولا موت وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت له السلطان والقهر والخلق والأمر والسموات مطويات بيمينه والخلائق مقهورون فى قبضته . وأنه المفرد بالخلق والاختراع المتوحد بالإيجاد والإبداع خلق الخلق وأعمالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم لا يشد عن قبضته مقدور ولا يعزب عن قدرته تصاريफ الأمور ، لا تنحصى مقدراته ولا تنبأه معلوماته

العلم : وأنه عالم بجميع المعلومات محيط بما يجرى من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء بل يعلم ديب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ويدرك حركة الذر فى حو الهواء ويعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر يعلم قديم أزلى لم يزل موصوفا به فى أزل الآزال لا يعلم متجدد حاصل فى ذاته بالحلول والانتقال ،

الإرادة : وأنه تعالى مرید للسكائن مدبر للحداثات فلا يجرى فى الملك والملكوت قليل أو كثير صغير أو كبير خير أو شر نفع أو ضرر إيمان أو كفر عرفان أو نكر فوز أو خسران زيادة أو نقصان طاعة أو عصيان إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشيتة . فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيتة لفظة ناظر ولا فلفة خاطر بل هو المبدئ المعيد الفعال لما يريد لا اراد لأمره ولا معقب لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوقيفه ورحمته . ولا قوة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشیاطین على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيتة لعجزوا عن ذلك . وأن إرادته قائمة بذاته فى جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفا بها

مريدا في أزاله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها وجدت في أوقاتها كما أَرادَه في أزاله من غير تقدم ولا تأخر بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تنوير . دبر الأمور لا بترتيب أفكار ولا تربص زمان فلذلك لم يسغله شأن عن شأن .

السمع والبصر : وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى ولا يعرب عن سمعه مسموع وإن خفى . ولا يغيب عن رؤيته مرئى وإن دق . ولا يحجب سمعه بعد ولا يدفع رؤيته ظلام . يرى من غير حدة وأحضان ويسمع من غير أصمخة وآذان كما يعلم بعير قلب ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق .

الكلام : وأنه تعالى متكلم آمرناه واعد متوعد بكلام أزلى قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق فليس بصوت يحدث من السلال هوأه أو اصطكاك أجرام ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان . وأن القرآن والتوراة والإنجيل والربور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام . وأن القرآن مقروء بالإنسة مكتوب في المصاحف محفوظ في القلوب وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق ، وأن موسى صلى الله عليه وسلم سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف ، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى في الآخرة من غير جوهر ولا عرض . وإذا كانت له هذه الصفات كان حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما بالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات .

الأفعال : وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بمعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها وأنه حكيم في أفعاله عادل في أفضيته لا يقاس عدله بعدل العباد إذ العبد يتصور منه الظلم تصرفه في ملك غيره . ولا يتصور الظلم من الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما ، فكل ما سواه من إنس وجن وملك وشيطان وسما وأرض وحيوان ونبات وجماد وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس حادث احتزعه بقدرته بعد العدم اختراعا وأنشأه لإنشاء بعد أن لم يكن شيئا إذ كان موجودا وحده ولم يكن معه غيره فأحدث الخلق بعد ذلك لإظهارا لقدرته وتحقيقا لما سبق من إرادته ولما حق في الأزل من كلمته لا لافتقاره إليه وحاجته . وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ومتعول بالإلزام والإصلاح لا عن لزوم ، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان إذ كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ولم يكن منه قبيحا ولا ظلما . وأنه عز وجل يشهد عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم له إذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب لأحد عليه حق . وأن حقه في الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على السنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعدوه ووعيده فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به .

(معنى الكلمة الثانية) وهى الشهادة للرسول بالرسالة وأنه بعث النبي الأسمى القرشى محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس فنسخ بشريعته الشرائع إلا ما فزره منها . وفضله على سائر الأنبياء وجعله سيد البشر . ومع كمال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول « لا إله إلا الله » ، مالم تقترن بها شهادة الرسول وهو قولك « محمد رسول الله » ، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة . وأنه لا يتقبل

إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت ، وأوله : سؤال منكر ونكير وهما شخصان مهيبان هائلان يقعدان العبد في قبره سوياً ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد والرسالة ويقولان له : من ربك وما دينك ومن نبيك ^(١) ؟ وهما فتانا القبر ^(٢) وسؤالهما أول فتنة بعد الموت ^(٣) . وأن يؤمن بعذاب القبر ^(٤) وأنه حق وحكمه عدل على الجسم والروح على ما يشاء . وأن يؤمن بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته في العظم أنه مثل طبقات السموات والأرض توزن الأعمال بقدره الله تعالى ، والصنيع يومئذ مثاقيل الذر والخردل تحقيقاً لتسام العدل ، وتوضع صحائف الحسنات في صورة حسنة في كفة النور فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله وتطرح صحائف السيئات في صورة قبيحة في كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله ^(٥) . وأن يؤمن بأن الصراط حق وهو جسر ممدود على متن جهنم أخذ من السيف وأدق من الشعرة نزل عليه أقدام الكافرين بحكم الله سبحانه فتهدى بهم إلى النار وثبتت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله فيساقون إلى دار القرار ^(٦) . وأن يؤمن بالحوض المورود حوض محمد صلى الله عليه وسلم يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط ^(٧) من شرب منه شربة لم يظلم بعدها أبداً عرضه مسيرة شهر مائه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عددها بعدد نجوم السماء ^(٨) فيه ميزابان يصبان فيه من الكوثر ^(٩) . وأن يؤمن بالحساب وتفاوت الناس فيه إلى مناقش في الحساب وإلى مسامح فيه وإلى من يدخل

كتاب قواعد العقائد

(١) حديث « سؤال منكر ونكير » أخرجه الترمذى وصححه ابن حبان من حديث أبي هريرة « إذا قبر الميت - أو قال أحكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير » وفي الصحيحين من حديث أس « من العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وأنه ليسمع قرع نعالهما أتاه ملكان فيقعدانه .. الحديث » (٢) حديث « لهنها فتانا القبر » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر فتاني القبر فقال عمر : أترد عليهما عقولنا ؟ .. الحديث » (٣) حديث « لمن سؤالها أول فتنة بعد الموت » لم أجده (٤) حديث « عذاب القبر » أخرجه من حديث عائشة « لأنكم تقتنون أو تصدبون في قبوركم . الحديث » ولها من حديث أبي هريرة وعائشة « استعاذته صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر » (٥) حديث « الإيمان بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته في المظلم أنه مثل طباق السموات والأرض » أخرجه البيهقي في البعث من حديث عمر « قال : الإيمان أن تؤمن بالله و ملائكته ورسوله وتؤمن بالجنة والنار والميزان ... الحديث » وأصله عند مسلم ليس فيه ذكر الميزان ، ولأن داود من حديث عائشة « أما في ثلاثة مواطن لا يذكر أحد أحداً عند الميزان حتى يعلم أيهما أم يثقل ؟ » زاد ابن مردويه في تفسيره « قالت عائشة : أى حتى قد علمنا الموازين هي الكفتان فيوضع في هذه القىء ويوضع في هذه القىء فترجع لحداهما وتخف الأخرى » والتزمى وحسنه من حديث أس « واطلبنى عند الميزان » ومن حديث عبد الله بن عمر في ! حديث البطاقة « فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة .. الحديث » وروى ابن شاهين في كتاب السنة عن ابن عباس « كفة الميزان كأطبق الدنيا كلها » (٦) حديث « الإيمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحدهم السيف وأدق من الشعر » أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة « ويضرب الصراط بين ظهري جهنم » ولها من حديث أبي سعيد « ثم يضرب الجسر على جهنم » راد مسلم « قال أبو سعيد : لمن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف » ورفعه أحمد من حديث عائشة والبيهقي في الشعب ، والبعث من حديث أس وضعه ؛ وفي البعث من رواية عبد الله بن عمر مرسل ومن قول ابن مسعود « الصراط كعد السيف » وفي آخر الحديث ما يدل على أنه مرفوع

(٧) حديث « الإيمان بالحوض وأنه يشرب منه المؤمنون » أخرجه مسلم من حديث انس في نزول « إنا أعطيناك الكوثر » « هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آيته عدد النجوم » ولها من حديث ابن مسعود وعقبة ابن عامر وجندب رسل بن سعد « أنا فرطكم على الحوض » ومن حديث ابن عمر « أم لكم حوض كما بين جبراه وأدرج » وقال الطبراني « كما بينكم وبين جبراه وأدرج » وهو الصواب . وذكر الحوض في الصحيح من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وعبد الله بن عمر وحذيفة وأبي ذر وحابس ابن سمرة وحارثة بن وهب وثوبان وعائشة وأم سلمة وأسماء (٨) حديث « من شرب منه شربة لم يظلم بعدها أبداً عرضه مسيرة شهر أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عددها نجوم السماء » من حديث عبد الله بن عمرو ولها من حديث أس « فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء » وفي رواية لمسلم « أكثر من عدد النجوم » (٩) حديث « فيه ميزابان يصبان من الكوثر » أخرجه مسلم من حديث ثوبان « يست فيه ميزابان يعدانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق »

الجنة بغير حساب وهم المقربون فيسأل الله تعالى (١) من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين (٢) ويسأل المبتدعة عن السنة (٣) ويسأل المسلمين عن الأعمال (٤) . وأن يؤمن بأخراج الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبق في جهنم موحد بفضل الله تعالى فلا يخلد في النار موحد (٥) . وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين على حسب جاهه ومنزله عند الله تعالى ومن بقي من المؤمنين ولم يكن له شفيع أخرج بفضل الله عز وجل فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان (٦) . وأن يعتقد فضل الصحابة رضى الله عنهم وترتيبهم وأن أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضى الله عنهم (٧) . وأن يحسن الظن بجميع الصحابة ويثني عليهم كما أثني الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين (٨) فكل ذلك بما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار فمن اعتقد جميع ذلك موقفاً به كان من أهل الحق وعصابة السنة وفارق رطط الضلال وحزب البدعة . فیسأل الله كمال اليقين وحسن الثبات في الدين لنا ولكافة المسلمين برحمته إنه أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

(١) حديث « الإيمان بالحساب وتفاوت الخلق فيه إلى ما اقتضى في الحساب ومسامح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير حساب » أخرجه البيهقي في البعث من حديث عمر « فقال يا رسول الله ما الإيمان » قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالموت والبعث من بعد الموت والحساب والجنة والنار والقدر كله .. الحديث » وهو عند مسلم دون ذكر « الحساب » وللشيخين من حديث عائشة « من يؤمن بالحساب عذب قالت قلت يقول الله تعالى (منوف يحاسب حساباً يعيرا) قال ذلك الرض » ولها من حديث ابن عباس « عرست على الأمم قبيل هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » ولسلم من حديث أبي هريرة وعمران بن حصين « يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب » زاد البيهقي في البعث من حديث عمرو بن حريم « وأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً » زاد أحمد من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر بعده : هذه الزيادة فقال « فهذا استدركه قال قد استدرته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفاً قال عمر فهذا استدركه قال قد استدرته فأعطاني هكذا — وفرج عبد الرحمن بن أبي بكر بين يديه . . . الحديث » (٢) حديث « سؤال من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين » أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد « يدعى نوح يوم القيامة فيقول ليك وسعديك يا رب فيقول هل بلغت فيقول نعم فيقال لأنته فيقولون ما أتانا من نذير فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمتي . . . الحديث » وابن ماجه « يحى النبي يوم القيامة . . . الحديث » وفيه « فيقال هل بلغت قومك . . . الحديث » (٣) حديث « سؤال المبتدعة عن السنة » رواه ابن ماجه من حديث عائشة « من تكلم بشيء من القدر سئل عنه يوم القيامة » ومن حديث أبي هريرة « ما من داع يدعو إلى شيء إلا وقف يوم القيامة لارما لدعوة ما دعا إليه وإن دعا رجل رجلاً » واستادها ضيف (٤) حديث « سؤال المسلمين عن الأعمال » أخرجه أصحاب السنن ، من حديث أبي هريرة « لم أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته .. الحديث » وسأني في الصلاة . (٥) حديث « إخراج الموحدين من النار حتى لا يبق فيها موحد بفضل الله سبحانه » أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة في حديث طويل « حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يهرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه من يقول لا إله إلا الله . الحديث » (٦) حديث شفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ومن بقي من المؤمنين ولم يكن لهم شافع أخرج بفضل الله فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان » أخرجه ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » وقد تقدم في العلم . وللشيخين من حديث أبي سعيد الخدري « من وجدتم في قلبه مثقال حبسة من خردل من الإيمان فأخرجوه » وفي رواية « من خير » وفيه « فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفعت النبيون وشفعت المؤمنين ولم يسبق إلا أرحم الراحمين فيقض قصة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيراً قط .. الحديث » (٧) حديث « أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي » أخرجه البخاري من حديث ابن عمر قال « كنا نحير بين الناس في من النبي صلى الله عليه وسلم وخير أما بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان » ولأبي داود « كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي أفضل أمة النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضى الله عنهم » زاد الطبراني « ويسمع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ولا ينسكه » (٨) حديث « إحسان الظن بجميع الصحابة والثناء عليهم » أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن مسعود « والله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدى » وللشيخين من حديث أبي سعيد « لا تسبوا أصحابي » والطبراني من حديث ابن مسعود « لذا ذكر أصحابي فأمسكوا »

الفصل الثاني

في وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد . اعلم أن ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أول نشوه ليحفظه حفظاً ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً ؛ فابتدأه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به ، وذلك بما يحصل في الصبي بغير برهان . فمن هضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه في أول نشوه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان ، وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مبادئها التلقين المجرد والتقليد المحض ؟ نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو أُلقي إليه فلا بد من تقويته وإثباته في نفس الصبي والعامى حتى يترسخ ولا يتزلزل . وليس الطريق في تقويته وإثباته إن يعلم صنعة الجدل والكلام بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه . ويشتغل بوظائف العبادات فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها وبما يسرى إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسماحهم وسماعهم وهيأتهم في الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكانة له فيكون أول التلقين كاللقاء بذر في الصدر ، وتكون هذه الأسباب كالسقى والثرية له حتى ينمو ذلك البذر يقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء .^١ ويلبغى أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة فإن ما يشوشه الجدل أكثر مما يمهده وما يفسده أكثر مما يصلحه بل تقويته بالجدل تضاهي ضرب الشجرة بالمدة من الحديد رجاء تقويتها بأن تكثر أجزاؤها وربما يفتتها ذلك ويفسدها وهو الأغلب . والمجاهدة تكفيك في هذا بيانا فناهيك بالبيان برهاناً . فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجادلين فترى اعتقاد العامى في الثبات كالطود الشاخ لا تحركه الدواهي والصواعق وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كحيط مرسل في الهواء تفيه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا إلا من سمع منهم دليل الاعتقاد فتلقفه تقليداً كما تلقف نفس الاعتقاد تقليداً ؛ إذ لا فرق في التقليد بين تعليم الدليل أو تعلم المدلول فتلقين الدليل شيء والاستدلال بالنظر شيء آخر بعيد عنه . ثم الصبي إذا وقع نشوه على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم يفتح له غيرها ولكنه يسلم في الآخرة باعتقاد أهل الحق ، إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الحازم بظاهر هذه العقائد ، فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلاً . وإن أراد أن يكون من سالكي طريق الآخرة وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى واشتغل بالرياضة والمجاهدة انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهي يقذف في قلبه بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعده عز وجل إذ قال (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع الحسنيين) وهو الجوهر النفيس الذي هو غاية إيمان الصديقين والمقربين ، وإليه الإشارة بالسر الذي قر في صدر أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث فضل به الخلق . وانكشف ذلك السر بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن في النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى وفي الاستضاءة بنور اليقين وذلك كتفاوت الخلق في أسرار الطب والفقهاء وسائر العلوم إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة في الذكاء والفتنة وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه (مسألة) فإن قلت : تعلم الجدل والكلام مذموم كتعلم النجوم أو هو

مباح أو مندوب إليه ؟ فاعلم أنّ للناس في هذا غلوا وإسرافا في أطراف فمن قائل إنه بدعة أو حرام وأنّ العبد إن لقي الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام ، ومن قائل إنه واجب وفرض إما على الكفاية أو على الأعيان وأنه أفضل الأعمال وأعلى القربات فإنه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله تعالى . وإلى التهميم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف . قال ابن عبد الأعلى رحمه الله سمعت الشافعي رضي الله عنه يوم ناظر حفصا الفرد - وكان من متكلمى المعتزلة - يقول : لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يلقاه بشيء من علم الكلام ولقد سمعت من حفص كلاما لا أقدر أن أحكيه ، وقال أيضا : قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام . وحكى الكراييسي د أنّ الشافعي رضي الله عنه سئل عن شيء من الكلام فغضب وقال : سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه ، أخزاهم الله ، ولما مرض الشافعي رضي الله عنه دخل عليه حفص الفرد فقال له : من أنا ؟ فقال : حفص الفرد ، لا حفظك الله ولا رعاك حتى تتوب بما أنت فيه . وقال أيضا لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفتروا منه فرارهم من الأسد ؟ وقال أيضا إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى ؟ فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له . قال الرعفراني : قال الشافعي حكى في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام ؟ وقال أحمد بن حنبل : لا يفلح صاحب الكلام أبدا ، ولا تكاد ترى أحداً نظرا في الكلام إلا وفي قلبه دغل ، وبالغ في ذمه حتى هجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا في الرد على المبتدعة وقال له : ويحك ألسنت تحكى بدعتهم أولا ثم ترد عليهم ألسنت تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر في تلك الشبهات فيدعهم ذلك إلى الرأي والبحث ؟ وقال أحمد رحمه الله : علماء الكلام زنادقة . وقال مالك رحمه الله : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ يعنى أن أقوال المتجادلين تتفاوت . وقال مالك رحمه الله أيضا : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء ؛ فقال بعض أصحابه - في تأويله - أنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أى مذهب كانوا . وقال أبو يوسف : من طلب العلم بالكلام تزندق . وقال الحسن : لا تجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم ، وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا . ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه وقالوا ما سكت عنه الصحابة - مع أنهم أعرف بالحقائق وأصح بترتيب الالفاظ من غيرهم - إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « هلك المتطعون هلك المتطعون هلك المتطعون »^(١) ، أى المتعمقون في البحث والاستقصاء . واحتجوا أيضا بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم طريقه ويثنى عليه وعلى أربابه ، فقد علمهم الاستنباط^(٢) ، وندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم^(٣) ونهاهم عن الكلام في القدر وقال أمسكوا^(٤) عن القدر . وعلى هذا استمر الصحابة رضي الله عنهم فالزيادة على الأستاذ طغيان وطم . وهم الاستاذون والقذوة ونحن الاتباع والتلامذة . وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا : إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض وهذه الاصطلاحات الغريبة التي لم تعدها الصحابة

(١) حديث « هلك المتطعون » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود (٢) حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم علمهم الاستنباط « أخرجه مسلم من حديث سلمة الفارسي (٣) حديث « ندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة (تملوا الفرائض وعلوها الناس ... الحديث) وللتزمذي من حديث أس وأفرضهم زيد بن ثابت (٤) حديث (نهاهم عن الكلام في القدر وقال أمسكوا) تقدم في العلم

رضى الله عنهم فالأمر فيه قريب ، إذا ما من علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير والفقه ولو عرض عليهم عبارة النقص والكسر والتركيب والتعدية وفساد الوضع إلى جميع الأسئلة التي تورد على القياس لما كانوا يفقهونه . فأحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كإحداث آية على هيئة جديدة لاستعمالها في مباح ، وإن كان المحذور هو المعنى فنحن لانعني به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصفاته كما جاء في الشرع فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل ، وإن كان المحذور هو التشعب والتعصب والعداوة والبغضاء وما يفضي إليه الكلام فذلك محرم ويجب الاحتراز عنه كما أن الكبر والعجب والرياء وطلب الرياسة مما يفضي إليه علم الحديث والتفسير والفقه وهو محرم يجب الاحتراز عنه ولكن لا يمنع من العلم لأجل أدائه وإليه وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محطوراً وقد قال الله تعالى (قل هاتوا برهانكم) وقال عز وجل (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) وقال تعالى (هل عندكم من سلطان بهذا) أى حجة وبرهان وقال تعالى (قل فله الحجة البالغة) وقال تعالى (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه - إلى قوله - فبهت الذي كفر) إذ ذكر سبحانه احتجاج إبراهيم بمجادلته وإلغامه خصمه في معرض الثناء عليه وقال عز وجل (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) وقال تعالى (قالوا يانوح قد جادلنا فأكثر جدالنا) وقال تعالى في قصة فرعون (وما رب العالمين - إلى قوله - أولوا جنتك بشئ مبين) وعلى الجملة فالقرآن من أوله إلى آخره محاجة مع الكفار فعمدة أدلة المتكلمين في التوحيد قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وفي النبوة (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وفي البعث (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة) إلى غير ذلك من الآيات والأدلة . ولم تزل الرسل صلوات الله عليهم يحاجون المتكبرين ويجادلونهم قال تعالى (وجادلهم بالتي هي أحسن) فالصحابه رضى الله عنهم أيضاً كانوا يحاجون المتكبرين ويجادلون ولكن عدد الحاجة وكانت الحاجة إليه قليلة في زمانهم وأول من سن دعوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحق : علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، إذ بعث ابن عباس رضى الله عنهما إلى الخوارج فكلمهم فقال : ما تقومون على إمامكم ؟ قالوا : قاتل ولم يسب ولم يغتم ، فقال : ذلك في قتال الكفار ! أرايتم لو سببت عائشة رضى الله عنها في سهم أحدكم أكتمتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهي أمكم في نص الكتاب ؟ فقالوا : لا ، فرجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألفان . وروى أن الحسن ناظر قنوديا فرجع عن القدر وناظر على بن أبي طالب كرم الله وجهه رجلا من القدرية وناظر عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يزيد بن عبيدة في الإيمان ، قال عبد الله : لو قلت إني مؤمن لقلت إني في الجنة ؟ فقال له يزيد بن عبيدة : يا صاحب رسول الله هذه زلة منك وهل الإيمان إلا أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والمعث والميزان وتقيم الصلاة والصوم والزكاة ؟ ولنا ذنوب لو نعمم أنها تغفر لنا لعلمنا أننا من أهل الجنة ، فمن أجل ذلك نقول إنا مؤمنون ولا نقول إنا من أهل الجنة . فقال ابن مسعود صدقت والله إنها مني زلة ، فينبغي أن يقال كان خوضهم فيه قليلا لا كثيرا وقصيرا لا طويلا وعند الحاجة لا بطريق التصنيف والتدريس واتخاذ صناعة ، فيقال أما قلة خوضهم فيه فانه كان لقلة الحاجة إذ لم تكن الدعة تظهر في ذلك الزمان ، وأما القصر فقد كان الناية لإحرام الخصم واعترافه وانكشاف الحق وإزالة الشبهة ، فلو طال إشغال الخصم أو لجأه لطال لا محالة إلزامهم . وما كانوا يقدرون قدر الحاجة بميزان ولا مكيال بعد الشروع فيها ، وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه فهكذا كان دأبهم في الفقه والتفسير والحديث أيضا ، فإن جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة التي لا تتفق إلا على الدور إما إدخار اليوم وقوعها وإن كان نادرا أو تشجيذا للخواطر فنحن أيضا نرتب طرق

المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بشوران شبهة أو هيجان مبتدع أو لتشجيد الخاطر أو لادخار الحجة حتى لا يجر عنها عند الحاجة على البديهة والارتجال ، كمن يعد السلاح قبل القتال ليوم القتال فهذا ما يمكن أن يدكر للفريقين * فإن قلت : فما المختار عندك فيه ؟ فاعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بدمه في كل حال أو بحمده في كل حال خطأ بل لا بد فيه من تفصيل . فاعلم أولاً أن الشيء قد يحرم لذاته كالخمر والميتة وأعنى بقولي « لذاته » أن علة تحريمه وصف في ذاته وهو الإسكار والموت . وهذا إذا سئلنا عنه أطلقنا القول بأنه حرام ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضطراب وإباحة تحريم الخمر إذا غص الإنسان بلقمة ولم يجد ما يسيغها سوى الخمر وإلى ما يحرم لغيره كالبيع على بيع أخيك المسلم في وقت الحيار والبيع وقت النداء ، وكأكل الطين فإنه يحرم لما فيه من الإضرار وهذا ينقسم إلى ما يضر قليلة وكثيره فيطلق القول عليه بأنه حرام كالسم الذي يقتل قليلاً وكثيره ، وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق القول عليه بالإباحة كالغسل فإن كثيره يضر بالحرور ، وكأكل الطين . وكأن إطلاق التحريم على الطين والخمر والتحليل على الغسل التفات إلى أغلب الأحوال ؛ فإن تصدى شيء تقابلت فيه الأحوال فالأولى والأبعد عن الالتباس أن يوصل فنعود إلى علم الكلام ونقول : إن فيه منفعة وفيه مضرة ، فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال ، وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحلّه حرام أما مضرته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجرم والتصميم فذلك مما يحصل في الابتداء ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ، ويختلف فيه الأشخاص ، فهذا ضرره في الاعتقاد الحق . وله ضرر آخرى تأكيد اعتقاد المدعة المدعة وتثبيتته في صدورهم بحيث تنبت دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة التعب الذي يثور من الجدل ولذلك ترى المبتدع العامى يمكن أن يروى اعتقاده باللطف في أسرع زمان إلا إذا كان نشؤه في بلد يظهر فيها الجدل والتعصب فإنه لو اجتمع عليه الأولون والآخرون لم يقدرُوا على نزع الدعة من صدره بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المخادلين وفرة المخالفين يستولى على قلبه ويمنعه من إدراك الحق حتى لو قيل له : هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء ويعرفك بالعيان أن الحق مع حصمك لسكره ذلك حيلة من أن يفرح به حصمه ؟ وهذا هو الداء العضال الذي استطار في البلاد والعباد وهو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصب فهذا ضرره . وأما منفعته فقد ينظر أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه وهيئات فليس في الكلام وفاء بهذا المطالب الشريف ولعل التخفيف والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف ، وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا من خبر الكلام ثم قل له بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين وحاوز ذلك إلى التعمق في علوم أحر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود . ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح بعض الأمور ولكن على الدور في أمور جليلة تكاد تفهم قبل التعمق في صنعة الكلام بل منفعته شيء واحد وهو حراسة العقيدة التي ترجمناها على العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل فإن العامى ضعيف يستغزه جدل المبتدع وإن كان فاسداً ، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه . والناس متعبدون بهذه العقيدة التي قدمناها إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم وأجمع السلف الصالح عليها والعلماء يتعبدون بحفظها على العوام من تلبيسات المبتدعة كما تعبد السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجمات الطلبة والغصاب وإذا وقعت لإحاطة بضرره ومنفعته فينبغي أن يكون كالطبيب الحاذق في استعمال الدواء الخطر إذ لا يضعه إلا في موضعه وذلك في وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة . وتفصيله أن العوام المشتغلين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم

التي اعتقدوها مهما تلقنوا الاعتقاد الحق الذي ذكرناه فإن تعليمهم الكلام ضرر محض في حقهم إذ ربما يثير لهم شكاً ويزلزل عليهم الاعتقاد ولا يمكن القيام بعد ذلك بالإصلاح . وأما العاقل المعتد للبدعة فينبغي أن يدعى إلى الحق بالتلف لا بالتعصب وبالكلام اللطيف المقنع للنفس المؤثر في القلب القريب من سياق أدلة القرآن والحديث المزوج بفن من الوعظ والتحدير فإن ذلك أنفع من الجدل الموضوع على شرط المتكلمين ؛ إذ العاقل إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صنعة من الجدل تعللها المتكلم ليستدرج الناس إلى اعتقاده فإن عجز عن الجواب قدر أن المجادلين من أهل مذهبه أيضاً يتقدرون على دفعه . فالجدل مع هذا ومع الأول حرام وكذلك مع من وقع في شك إذ يجب إزالته باللطف والوعظ والأدلة القريبة المقبولة البعيدة عن تعمق الكلام . واستقصاء الجدل إنما ينفع في موضع واحد وهو أن يفرض عاقل اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود إلى اعتقاد الحق وذلك فيمن ظهر له من الأنس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات العامة فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه منها إلا دواء الجدل فإز أن يلقي إليه . وأما في بلاد تقل فيها البدعة ولا تختلف فيها المذاهب فيقتصر فيها على ترجمة الاعتقاد الذي ذكرناه ولا يتعرض للأدلة ويتبرص وقوع شبهة فإن وقعت ذكر قدر الحاجة فإن كانت البدعة شائعة وكان يخاف على الصبيان أن يخدعوا فلا بأس أن يعلموا القدر الذي أودعناه كتاب الرسالة القدسية ليكون ذلك سبباً لدفع تأثير مجادلات المبتدعة إن وقعت إليهم وهذا مقدار مختصر وقد أودعناه هذا الكتاب لاختصاره فإن كان فيه ذكاء وتذنه بذكائه لموضع سؤال أو ثارت في نفسه شبهة فقد بدت العلة المحدورة وظهر الداء فلا بأس أن يرقى منه إلى القدر الذي ذكرناه في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد . وهو قدر حسين ورقة - وليس فيه خروج عن النظر في قواعد العقائد إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين . فإن أقنعه ذلك كف عنه وإن لم يقنعه ذلك فقد صارت العلة مزمنة والداء غالباً والمرضى سارياً فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه وينتار قضاء الله تعالى فيه إلى أن ينكشف له الحق بتبنيه من الله سبحانه أو يستمر على الشك والشبهة إلى ما قدر له فالقدر الذي يحويه ذلك الكتاب وجنسه من المصنفات هو الذي يرجى نفعه .

فأما الخارج منه ففهمان ؛ أحدهما : بحث عن غير قواعد العقائد كالبحث عن الاعتقادات وعن الآكوان وعن الإدراكات وعن الخوص في الرؤية هل لها ضد يسمى المنع أو العمى ؟ وإن كان فذلك واحد هو منع عن جميع ما لا يرى أو ثبت لكل مرئى يمكن رؤيته منع بحسب عدده إلى غير ذلك من الترهات المضلات . والقسم الثاني : زيادة تقرير تلك الأدلة في غير تلك القواعد وزيادة أسئلة وأحوبة وذلك أيضاً استقصاء لا يريد لإضلالاً وجهلاً في حق من لم يقنعه ذلك القدر فرب كلام يزيده الإطناب والتقرير غموضاً . ولوقال قائل : البحث عن حكم الإدراكات والاعتقادات فيه فائدة تشجيد الخواطر . والخاطر آلة الدين كالسيف آلة الجهاد فلا بأس بتشجيده كان كقول له لعب الشطرنج يشجذ الخاطر فهو من الدين أيضاً وذلك هوس فإن الخاطر يتشجذ سائر علوم الشرع ولا يحاف فيها مضرة فقد عرفت بهذا القدر المذموم والقدر المحمود من الكلام والحال التي يذم فيها والحال التي يحمدها فيها والشخص الذي ينتفع به والشخص الذي لا ينتفع به * فإن قلت : مهما اعترفت بالحاجة إليه في دفع المبتدعة والآن قد ثارت البدع وعمت البلوى وأرهقت الحاجة فلا بد أن يصير القيام بهذا العلم من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالقضاء والولاية وغيرها ؟ وما لم يشتغل العلماء بنشر ذلك والتدريس فيه والبحث عنه لا يدوم ولو ترك بالكلية لاندرس وليس في مجرد الطبع كفاية لحل شبه المبتدعة مالم

يتعلم فينبغي أن يكون التدريس فيه والبحث عنه أيضاً من فروض الكفايات بخلاف زمن الصحابة رضى الله عنهم فإن الحاجة ما كانت ماسة إليه . فاعلم أن الحق أنه لا بد في كل بلد من قائم بهذا العلم مستقل يدفع شبه المبتدعة التي ثارت في تلك البلدة وذلك يدوم بالتعليم ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسير فإن هذا مثل الدواء والفقه مثل الغذاء وضرر الغذاء لا يحذر وضرر الدواء محذور لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر . فالعالم الذى ينبغى أن يخصص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال ؛ إحداها : التجرد للعلم والحرص عليه ، فإن المحترف يمنع الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت . الثانية : الذكاء والفطنة والفصاحة فإن البليد لا ينتفع بفهمه والقدم لا ينتفع بحججه فيخاف عليه من ضرر الكلام ولا يرحى فيه نفعه . الثالثة : أن يكون في طبعه الصلاح والديانة والتقوى ولا تكون الشهوات غالبة عليه فإن الفاسق بأدنى شبهة ينخلع عن الدين فإن ذلك يحل عنه الحجر ويرفع للسد الذى بينه وبين الملاذ فلا يحرص على إزالة الشبهة بل يغتمها ليتخلص من أعباء التكليف فيكون ما يفسده مثل هذا المتعلم أكثر مما يصلحه . وإذا عرفت هذه الانقسامات اتضح لك أن هذه الحجة المحمودة في الكلام إنما هي من جنس حجج القرآن من الكلمات اللطيفة المؤثرة في القلوب المقنعة للنفوس دون التغلغل في التفسيات والتدقيقات التي لا يفهمها أكثر الناس وإذا فهموها اعتقدوا أنها شعوزة وصناعة تعليلها صاحبها للتبليس ، فإذا قابله مثله في الصنعة قاومة . وعرفت أن الشافعى وكافة السلف إنما منعوا عن الخوص فيه والتجرد له لما فيه من الضرر الذى نهى عليه . وأن ما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من مناظرة الخوارج وما نقل عن علي رضى الله عنه من المناظرة في القدر وغيره كان من الكلام الجلى الظاهر وفي محل الحاجة وذلك محمود في كل حال . نعم قد تختلف الأعصار في كثرة الحاجة وقتها فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك فهذا حكم العقيدة التي تعبد الخلق بها وحكم طريق النضال عنها وحفظها فأما إزالة الشبهة وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هي عليه وإدراك الأسرار التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة فلا مفتاح له إلا المجاهدة وقمع الشهوات والإقبال بالكلية على الله تعالى وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجادلات وهي رحمة من الله عز وجل تفيض على من يتعرض لنفحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرض وبحسب قبول المحل وطهارة القلب وذلك البحر الذى لا يدرك غوره ولا يبلغ ساحله (مسألة) فإن قلت : هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار وبعضها جلى يبدو أولاً وبعضها خفى يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافي والسر الخالى عن كل شيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب وهذا يكاد يكون مخالفاً للشرع إذ ليس للشرع ظاهر وباطن وسر وعلم بل الظاهر والباطن والسر والعلم واحد فيه ؟ فاعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وحلية لا ينكرها ذو بصيرة وإنما ينكرها القاصرون الذى تلقفوا في أوائل الصبا شيئاً وحمدوا عليه فلم يكن لهم ترقى إلى شأو العللاء ومقامات العلماء والأولياء وذلك ظاهر من أدلة الشرع قال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ للقرآن ظاهراً وباطناً وحداً ومطلماً »^(١) ، وقال على رضى الله عنه - وأشار إلى صدره - « إِنَّ ههنا علوماً حمة لو وجدت لها حمة . وقال صلى الله عليه وسلم « نحن مفاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما حدث أحد قوماً بحديث لم تبلغه عقولهم إلا كان فتنة عليهم »^(٣) ، وقال الله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وقال

(١) حديث « إن القرآن ظاهراً وباطناً .. الحديث » أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بنحو (٢) حديث « نحن مفاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم .. الحديث » تقدم في العلم (٣) حديث (ما حدث أحد قوماً بحديث لم تبلغه عقولهم ... الحديث) تقدم في العلم

صلى الله عليه وسلم : إن من العلم كهيئة المسكون لا يعلمه إلا العالمون بالله تعالى (١) ، الحديث إلى آخره كما أوردناه في كتاب العلم . وقال صلى الله عليه وسلم : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (٢) ، فليست شعري إن لم يكن ذلك سرا منع من إفشائه لقصور الأفهام عن إدراكه أو لمعنى آخر فلم يذكره لهم ولا شك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم ؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن) لو ذكرت تفسيره لرجتموني . وفي لفظ آخر : لعلمت إنه كافر ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاء من أما أحدهما فبثنته وأما الآخر لو بثنته لقطع هذا الحقوم . وقال صلى الله عليه وسلم : ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن سرور في صدره (٣) ، رضي الله عنه ولا شك في أن ذلك السر كان متعلقا بقواعد الدين غير خارج منها وما كان من قواعد الدين لم يكن خافيا بظواهره على غيره ، وقال سهل التستري رضي الله عنه : للعالم ثلاثة علوم : علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر وعلم باطن لا يسمعه إظهاره إلا لأهله وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد . وقال بعض العارفين : إفشاء سر الربوبية كفر . وقال بعضهم : للربوبية سر لو أظهر لبطلت النبوة ، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم ، وللعلماء بالله سر لو أظهره أبطلت الأحكام ، وهذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوة في حق الضعفاء لقصور فهمهم فما ذكره ليس بحق بل الصحيح أنه لا تناقض فيه وأن الكامل من لا يطبق نور معرفته نور ورعه ، وملاك الورع النبوة (مسألة) فإن قلت : هذه الآيات والأخبار يتطرق إليها تأويلات فيبين لنا كيفية اختلاف الظاهر والباطن فإن الباطن إن كان مناقضاً للظاهر ففيه إبطال الشرع ، وهو قول من قال : إن الحقيقة خلاف الشريعة وهو كفر لأن الشريعة عبارة عن الظاهر والحقيقة عبارة عن الباطن وإن كان لا يناقضه ولا يحالفه فهو هو ويزول به الانقسام ولا يكون للشرع سر لا يفشى بل يكون الخفي والجلي واحد ؟ فاعلم أن هذا السؤال يحرك خطبا عظيما وينجز إلى علوم المكاشفة ويخرج عن مقصود علم المعاملة وهو غرض هذه الكتب فإن العقائد التي ذكرناها من أعمال القلوب وقد تعبدنا بتلقيها بالقبول والتصديق بعقد القلب عليها لا بأن يتوصل إلى أن ينكشف لنا حقائقها فإن ذلك لم يكلف به كافة الخلق ، ولولا أنه من الأعمال لما أوردناه في هذا الكتاب ، ولولا أنه عمل ظاهر القلب لا عمل باطنه لما أوردناه في السطر الأول من الكتاب وإنما الكشف الحقيقي هو صفة سر القلب وباطنه ولكن إذا اجتزأ الكلام إلى تحريك حيال في مناقضة الظاهر للباطن فلا بد من كلام وجيز في حله . فمن قال : إن الحقيقة تحالف الشريعة أو الباطن يناقض الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان بل الأسرار التي يختص بها المقربون بدركها ولا يشاركونها الآكثرون في علمها ويمتنعون عن إفشائها إليهم ترجع إلى خمسة أقسام : القسم الأول : أن يكون الشيء في نفسه دقيقا تكل أكثر الأفهام عن دركه فيختص بدركه الخواص وعليهم أن لا يفشوه إلى غير أهل فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك . وإخفاء سر الروح وكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيانه (٤) من هذا القسم فإن حقيقته بما تكل الأفهام عن دركه وتقصر الأوهام عن تصور كنهه . ولا تظن أن ذلك لم يكن مكشوفاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ومن لم يعرف نفسه

(١) حديث (من من العلم كهيئة المسكون .. الحديث) تقدم في العلم (٢) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (أخرجاه من حديث عائشة وأنس) (٣) حديث (ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام .. الحديث) تقدم في العلم (٤) حديث (كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان الروح) أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود حين سأله اليهود عن الروح قال (فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئا ... الحديث)

فكيف يعرف ربه سبحانه ؟ ولا يبعد أن يكون ذلك مكشوفاً لبعض الأولياء والعلماء وإن لم يكونوا أنبياء ولكنهم يتأدون بأداب الشرع فيسكتون عما سكت عنه بل في صفات الله عز وجل من الخفايا ما تقصر أفهام الجماهير عن دركه ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم منها إلا الطواهر للأفهام من العلم والقدرة وغيرهما حتى فهمها الخلق بنوع مناسبة توهموها إلى علمهم وقدرتهم إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمي علماً وقدرة فيتوهمون ذلك بنوع مقايضة . ولو ذكر من صفاته ما ليس للخلق مما يناسبه بعض المناسبة شيء لم يفهموه ، بل لذة الجماع إذا ذكرت للعبي أو العنين لم يفهموها إلا بمناسبة إلى لذة المطعوم الذي يدركه ولا يكون ذلك فهما على التحقيق . والمخالفة بين علم الله تعالى وقدرته وعلم الخلق وقدرتهم أكثر من المخالفة بين لذة الجماع والأكل . وبالحلقة فلا يدرك الإنسان إلا نفسه وصفات نفسه بما هي حاضرة له في الحال أو بما كانت له من قبل ثم بالمقايضة إليه يفهم ذلك لغيره ثم قد يصدق بأن بينهما تماوتا في الشرف والكمال فليس في قوة البشر إلا أن يثبت الله تعالى ما هو ثابت لنفسه من الفعل والعلم والقدرة وغيرها من الصفات مع التصديق بأن ذلك أكمل وأشرف فيكون معظم تحريمه على صفات نفسه لا على ما اختص الرب تعالى به من الحلال . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »^(١) ، وليس المعنى أنى أعجز عن التعبير عما أدركته بل هو اعتراف بالقصور عن إدراك كنهه جلالة . ولذلك قال بعضهم : ما عرف الله بالحقيقة سوى الله عز وجل . وقال الصديق رضي الله عنه : الحمد لله الذي لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته . ولتقبض عنان الكلام عن هذا النمط ولترجع إلى العرض وهو أن أحد الأقسام ما تكل الأفهام عن إدراكه ومن جملة الروح ومن حملته بعض صفات الله تعالى . ولعل الإشارة إلى مثله في قوله صلى الله عليه وسلم « إن لله سبحانه وتعالى سبعين حجاً من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره »^(٢) ، القسم الثاني : من الخفيات التي تمتنع الأنبياء والصديقون عن ذكرها ما هو مفهوم في نفسه لا بكل الفهم عنه لكن ذكره يضر ما كثر المستمعين ولا يضر بالأنبياء والصديقين . وسر القدر الذي منح أهل العلم من إفشائه من هذا القسم ، فلا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضراً ببعض الخلق كما يضر نور الشمس بأبصار الخفافيش وكما تضر رياح الورد بالجمل ، وكيف يبعد هذا وقولنا إن الكفر والزنا والمعاصي والشروك بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيتة حق في نفسه وقد أضر سماعه بقوله إذ أوهم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه ونقيض الحكمة والرصا بالقيح والظلم ؟ وقد ألد ابن الراوندي وطائفة من المخنولين بمثل ذلك . وكذلك سر القدر لو أفشى لأوهم عند أكثر الخلق عجزاً إذ تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل ذلك الوهم عنهم ، ولو قال قائل : إن القيامة لو ذكر ميقاتها وأنها بعد ألف سنة أو أكثر أو أقل لكان مفهوماً ولكن لم يذكر لمصلحة العباد وخوفاً من الضرر فلعل المدة إليها بعيدة فيطول الأمد ، وإذا استبطأت النفوس وقت العقاب قل أكثرائها ولعلها كانت هربية في علم الله سبحانه ولو ذكرت لعظم الخوف وأعرض الناس عن الأعمال وخربت الدنيا ، فهذا المعنى لو اتجه وصح فيكون مثالا لهذا القسم

(١) حديث (لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) أخرجه مسلم من حديث عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك في سجوده . (٢) حديث (إن لله سبعين حجاً من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه) أدركه بصره) أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة (بين الله وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجاً من نور) وإسناده ضعيف . وفيه أيضاً من حديث أنس قال (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل هل ترى ربك ؟ قال إن نبي وبني سبعين حجاً من نور) والأكبر للطبراني من حديث سهل بن سعد (دون الله تعالى ألف حجاً من نور وطلعة) ولمسلم من حديث أبي موسى (حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) ولابن ماجه (شيء أدركه بصره)

القسم الثالث : أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحاً لفهم ولم يكن فيه ضرر ولكن يكفى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعه في قلب المستمع أغلب وله مصلحة في أن يعظم وقت ذلك الأمر في قلبه ، كما لو قال قائل ؛ رأيت فلاناً يقلد الدرّ في أعناق الخنازير ؛ فكفى به عن إفتناء العلم وبث الحكمة إلى غير أهلها فالمستمع قد يسبق إلى فهمه ظاهر اللفظ ، والمحقق إذا نظر وعلم أن ذلك الإنسان لم يكن معه درّ ولا كان في موضعه حزين تفتن لدرك السر والباطن فيتفاوت الناس في ذلك ، ومن هذا قال الشاعر :

رجلان حياط وآخر حائك متقابلان على السماك الأعزل

لازال ينسج ذاك خرقة مدبر ويحيط صاحبه ثياب المقبل

فانه عبر عن سبب سماوى في الإقبال والإدبار برجلين صانعين وهذا النوع يرجع إلى التعبير عن المعنى بالصورة التي تتضمن عين المعنى أو مثله ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « إن المسجد لينزوى من النخامة كما تنزوى الجلدة على النار ^(١) » وأنت ترى أن ساحة المسجد لا تنقبض بالنخامة ، ومعناه أن روح المسجد كونه معظماً ورمى النخامة فيه تحقير له فيضاد معنى المسجدية مضادة النار لاتصال أجزاء الجلدة ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « أما يحشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول رأسه رأس حمار ^(٢) » ، وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون ؛ ولكن من حيث المعنى هو كائن إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله بل بحاصيته وهى البلادة والحق ، ومن رفع رأسه قبل الإمام فقد صار رأسه رأس حمار في معنى البلادة والحق وهو المقصود دون التكل الذى هو قالب المعنى . إذ من غاية الحق أن يجمع بين الاقتداء وبين التقدم فإنهما متناقضان وإنما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليل عقلى أو شرعى ، أما العقلى فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ^(٣) » ، إذ لو قلنا عن قلوب المؤمنين لم يجد فيها أصابع فلم أنها كناية عن القدرة التي هى سر الأصابع وروحها الحنفى ، وكى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعاً في تفهم تمام الاقتدار . ومن هذا القبيل في كنياته عن الاقتدار قوله تعالى ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ فإن ظاهره مستمع إذ قوله « كن » ، إن كان حطاً للشيء قبل وجوده فهو محال إذا المعدوم لا يفهم الخطاب حتى يمثل وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكويس . ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع في النفوس في تفهم غاية الاقتدار عدل إليها وأما المدرك بالشرع فهو أن يكون إحراؤه على الظاهر ممكناً ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر كما ورد في تفسير قوله تعالى ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ الآية وأن معنى الماء ههنا هو القرآن ومعنى الأودية هى القلوب وأن بعضها احتملت شيئاً كثيراً وبعضها قليلاً وبعضها لم يحتمل . والزبد مثل الكفر والنفاق فإنه وإن طهر وطفأ على رأس الماء فإنه لا يثبت والهداية التي تنفع الناس تمكث . وفي هذا القسم تعمق جماعة فأولوا ما ورد في الآخرة من الميران والصراط وغيرهما وهو بدعة إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية وإحراؤه على الظاهر غير محال فيجب إحراؤه على الظاهر . القسم الرابع : أن يدرك الإنسان الشيء جملة ثم يدركه تفصيلاً بالتحقيق والنزوق بأن يصير حالاً ملابساً له فيتفاوت العلماء ويكون الأول كالقشر والثاني كاللباب ، والأول كالظاهر والثاني كالباطن .

(١) حديث (إن المسجد لينزوى من النخامة .. الحديث) لم أحده أصلاً (٢) حديث (أما يحشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام .. الحديث) أخرجه من حديث أنى هريرة (٣) حديث (قلب العبد بين أصبعين من أصابع الرحمن) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو

وذلك كما يتمثل للإنسان في عينه شخص في الطامة أو على البعد فيحصل له نوع علم فإذا رآه بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما ، ولا يكون الأخير ضد الأول بل هو استكمال له . فكذلك العلم والإيمان والتصديق ، إذ قد يصدق الإنسان بوجود العشق والمرض والموت قبل وقوعه ولكن تحققه به عند الوقوع أو كمال من تحققه قبل الوقوع بل للإنسان في الشهوة والعشق وسائر الأحوال ثلاثة أحوال متفاوتة وإدراكات متباينة ، الأول : تصديقه بوجوده قبل وقوعه . والثاني . عند وقوعه . والثالث : بعد تصرعه . فإن تحققك بالجوع بعد زواله يخالف التحقيق قبل الزوال وكذلك من علوم الدين ما يصير ذوقاً فيكمل فيكون ذلك كالباطن بالإضافة إلى ما قبل ذلك ، ففرق بين علم المريض بالصحة وبين علم الصحيح بها . ففي هذه الأقسام الأربعة تتفاوت الخلق وليس في شيء منها باطن يناقض الظاهر بل يتممه ويكمله كما يتمم اللب القشر والسلام . الخامس : أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده بطقاً ، والبصير بالحقائق يدرك السر فيه وهذا كقول القائل : قال الجدار للوتدلم تشقني ؟ قال : سل من يدفني فلم يتركني ورأى الحجر الذي ورأى ؟ وهذا تعبير عن لسان الحال بلسان المقال ، ومن هذا قوله تعالى ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ فالبليد يفتقر في فهمه إلى أن يقدر لها حياة وعقلا وهما للخطاب وخطاباً هو صوت وحرف تسمعه السماء والأرض فتجيبان بحرف وصوت وتقولان ﴿ أتينا طائعين ﴾ والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال وأنه إنباء عن كونهما مسخرتين بالضرورة ومضطرتين إلى التسخير . ومن هذا قوله تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقدر للجهادات حياة وعقلا ونطقاً بصوت وحرف حتى يقول « سبحان الله » ليتحقق تسييحه . والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان بل كونه مسبحاً بوجوده ومقدساً بذاته وشاهداً بوحداية الله سبحانه كما يقال :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وكما يقال : هذه الصنعة المحسنة تشهد لصانعها بحسن التدبير وكال العلم لا بمعنى أنها تقول أشهد بالقول ولكن بالذات والحال . وكذلك ما من شيء إلا وهو محتاج في نفسه إلى موجد يوحدّه ويبقيه ويديم أوصافه ويردده في أطواره فهو محتاجه يشهد لخالقه بالتقديس يدرك شهادته ذوو البصائر دون الجامدين على الظواهر . ولذلك قال تعالى (ولكن لا تفقهون تسييحهم) وأما القاصرون فلا يفقهون أصلاً وأما المقربون والعلماء الراسخون فلا يفقهون كنهه وكأله إذ لكل شيء شهادات شتى على تقديس الله سبحانه وتسييحه ، ويدرك كل واحد بقدر عقله وبصيرته ، وتعداد تلك الشهادات لا يليق بعلم المعاملة . فهذا الفن أيضاً مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر في علمه وتظهر به مفارقة الباطن للظاهر . وفي هذا المقام لأرباب المقامات لإسراف واقتصاد فن مسرف في رفع الظواهر انتهى إلى تعيير جميع الظواهر والبراهين أو أكثرها حتى حملوا قوله تعالى (وتكلمنا أيديهم) وتشهد أرجلهم) وقوله تعالى (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء) وكذلك المخاطبات التي تجري من منكر ونكير وفي الميزان والصراط والحساب ومناظرات أهل النار وأهل الجنة في قولهم (أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) زعموا أن ذلك كله بلسان الحال . وغلا آخرون في حسم الباب منهم أحمدين حنبل رضى الله عنه حتى منع تأويل قوله (كن فيكون) وزعموا أن ذلك خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى في كل لحظة بعدد كون مكثون حتى سمعت بعض أصحابه يقول : إنه حسم باب التأويل إلا لثلاثة ألفاظ قوله

صلى الله عليه وسلم « الحجر الأسود بين الله في أرضه »^(١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمنين بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وقوله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين »^(٢) ، ومال إلى حسم الباب أرباب الظواهر . والظن بأحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه علم أن الاستواء ليس هو الاستقرار والنزول ليس هو الانتقال ولكنه منع من التأويل حميا للباب ورعاية لصلاح الخلق . فإنه إذا فتح الباب اتسع الخرق وخرج الأمر عن الضبط وجاوز حد الاقتصاد إذ حد ما جاوز الاقتصاد لا يضبط فلا بأس بهذا الزجر ويشهد له سيرة السلف فإنهم كانوا يقولون : أمروها كما حامت ، حتى قال مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة . وذهبت طائفة إلى الاقتصاد وفتحوا باب التأويل في كل ما يتعلق بصفات الله سبحانه وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها ومنعوا التأويل فيه وهم الأشعرية . وزاد المعتزلة عليهم حتى أولوا من صفاته تعالى الرؤية وأولوا كونه سميعا بصيرا وأولوا المعراج وزعموا أنه لم يكن بالجسد وأولوا عذاب القبر والميزان والصراط وجملة من أحكام الآخرة . ولكن أفرأوا يحشر الأجساد وبالجنه واشتغالها على المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملاذ المحسوسة ، وبالنار واشتغالها على حسم محسوس يحرق بحرق الجلود ويذيب التشحوم . ومن ترقبهم إلى هذا الحد زاد الفلاسفة فأولوا كل ما ورد في الآخرة وردوه إلى آلام عقلية وروحانية ولذات عقلية وأنكروا حشر الأجساد وقالوا ببقاء النفوس وأنها تكون إما معدة وإما منعمة بعذاب ونعيم لا يدرك بالحس وهؤلاء هم المبرهون . وحدد الاقتصاد بين هذا الانحلال كله وبين جهود الخبالة دقيق غامض لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي لا بالسماع ، ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ما هي عليه نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة فما وافق ما شاهدوه نور اليقين فزوره وما خالف أولوه . فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد فلا يستقر له فيها قدم ولا يتعين له موقف . والألبق بالمقتصر على السمع المجرد : مقام أحمد بن حنبل رحمه الله . والآن فكشف العطاء عن حد الاقتصاد في هذه الأمور داخل في علم المكاشفة والقول فيه يطول فلا يحوض فيه ؛ والغرض بيان موافقة الباطل الظاهر وأنه غير مخالف له فقد انكشف بهذه الأقسام الخمسة أمور كثيرة . وإذا رأينا أن تقتصر بكافة العوام على ترجمة العقيدة التي حزنناها وأنهم لا يكفون غير ذلك في الدرجة الأولى إلا إذا كان خوف تشويش لشيوع البدعة فيرقى في الدرجة الثانية إلى عقيدة فيها لوامع من الأدلة مختصرة من غير تعمق . فلنورد في هذا الكتاب تلك اللوامع ولنقتصر فيها على ما حزنناها لأهل القدس وسميناه « الرسالة القدسية في قواعد العقائد » وهي مودعة في هذا الفصل الثالث من هذا الكتاب

الفصل الثالث

من كتاب قواعد العقائد في لوامع الأدلة للعقيدة التي ترجمناها بالقدس فنقول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ميز عصابة السنة بأنوار اليقين وآثر رھط الحق بالهداية إلى دعائم الدين وجنبهم زيغ الزائغين وضلال الملحدین ووقفهم للاقتداء بسيد المرسلين وسددهم للتأسي بصحبه الأكرمين ويسر لهم اقتفاء آثار السلف

(١) حديث (الحجر بين الله في الأرض) أخرجه الحاكم وصححه من حديث عید الله بن عمر (٢) حديث (إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين) أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة في حديث قال فيه (وأجد نفس ربكم من قبل اليمين) ورجاله ثقات

الصالحين حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالجل المتين ومن سير الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين ، فجمعوا بالقول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المقبول ، وتحققوا أن النطق بما تعبدوا به من قول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، ليس له طائل ولا محصول إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة من الأقطاب والأصول ، وعرفوا أن كلمتي الشهادة على إيجازها تتضمن إثبات ذات الإله وإثبات صفاته وإثبات أفعاله وإثبات صدق الرسول ، وعلموا أن بناء الإيمان على هذه الأركان وهي أربعة ويدور كل ركن منها على عشرة أصول (الركن الأول) في معرفة ذات الله تعالى ومداره على عشرة أصول : وهي العلم بوجود الله تعالى وقدمه وبقائه وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض وأنه سبحانه ليس مختصاً بجهة ولا مستقراً على مكان وأنه يرى وأنه واحد (الركن الثاني) في صفاته ويشتمل على عشرة أصول : وهو العلم بكونه حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً منزهاً عن حلول الحوادث وأنه قديم الكلام والعلم والإرادة (الركن الثالث) في أفعاله تعالى ومداره على عشرة أصول : وهي أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأنها مكتسبة للعباد وأنها مرادة لله تعالى وأنه متفضل بالخلق والاختراع وأن له تعالى تكليف ما لا يطاق ، وأن له إيلام البرى ولا يجب عليه رعاية الأصلاح ، وأنه لا واجب إلا بالشرع وأن بعثه الأنبياء جائز وأن نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثابته مؤيدة بالمعجزة (الركن الرابع) في السمعيات ومداره على عشرة أصول : وهي إثبات الحشر والنشر وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر والميزان والصراف وحلق الجنة والبار وأحكام الإمامة وأن فضل الصحابة على حسب ترتيبهم وشروط الإمامة .

فأما الركن الأول من أركان الإيمان : في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى

وأن الله تعالى واحد ومداره على عشرة أصول

(الأصل الأول) معرفة وجوده تعالى وأول ما يستضاء به من الأنوار ويسلك من طريق الاعتبار ما أرشد إليه القرآن فليس بعد بيان الله سبحانه بيان وقد قال تعالى ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً والجال أوتاداً وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً ونينا فوقكم سبعا شداداً وجعلنا سراحاً وهاجاً وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنخرج به حبا ونباتاً وجات ألقافاً ﴾ وقال تعالى ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تحرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إحراها ﴾ وقال تعالى ﴿ أفأرأيتم ما تمنون ء أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ إلى قوله ﴿ للمقوين ﴾ فلبس يحى على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسموات وبدائع فطرة الحيوان والنبات أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغنى عن صانع يدره وفاعل يحكمه ويقدره ؛ بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخير ومصرفة بمقتضى تدبيره . ولذلك قال الله تعالى ﴿ أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا « لا إله إلا الله » وما أمروا أن يقولوا لا إله إلا الله وللإله . فإن ذلك كان مجبولا في فطرة عقولهم من مبدأ نسوهم وفى عفوان شامهم . ولذلك قال عز وجل ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ وقال تعالى ﴿ فأقم وحهك للدين خنيها فطره الله التي (١٤ - إحياء علوم الدين - ١)

فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴿ فاذا في فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما يغني عن إقامة البرهان . ولكننا على سبيل الاستظهار والافتداء بالعلماء النظار نقول : من بدائة القول أن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب يحدثه ، والعالم حادث فإذا لا يستغنى في حدوثه عن سبب . أما قولنا « إن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب » لجلى فإن كل حادث مختص بوقت يجوز في العقل تقدير تقديره وتأخير فاختصاصه بوقته دون ما قبله وما بعده يفتر بالضرورة إلى التخصيص وأما قولنا « العالم حادث » فبرهانه أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . ففي هذا البرهان ثلاث دعاوى ؛ الأولى : قولنا « إن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون » وهذه مدركة بالبدية والاضطرار فلا يحتاج فيها إلى تأمل وافتكار فإن من عقل جسمًا لا ساكنًا ولا متحركًا كان لمتن الجهل راكبًا وعن نهج العقل ناكبًا . الثانية : قولنا « إنهما حادثان » ويدل على ذلك تعاقبهما ووجود البعض منهما بعد البعض وذلك مشاهد في جميع الأجسام ما شوهد منها وما لم يشاهد فإما ساكن إلا والعقل قاض بجواز حركته وما من متحرك إلا والعقل قاض بجواز سكونه والطارئ منهما حادث لطريانه والسابق حادث لعدمه ؛ لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه - على ما سيأتى بيانه وبرهانه في إثبات بقاء الصانع تعالى وتقدس - اثباته : قولنا « ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث » وبرهانه أنه لو لم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لا أول لها ولو لم تنقص تلك الحوادث بحملتها لانتتهى التوبة إلى وجود الحادث الحاضر في الحال وانقضاء ما لانهاية له محال ، ولأنه لو كان للفلك دورات لانهاية لها لكان لا يخلو عددها عن أن تكون شفعا أو وترًا أو شفعا ووترًا جميعاً أو لا شفعا ولا وترًا ، ومحال أن يكون شفعا ووترًا جميعاً أو لا شفعا ولا وترًا . فإن ذلك جمع بين النفي والإثبات ؛ إذ في إثبات أحدهما نفي الآخر وفي نفي أحدهما إثبات الآخر . ومحال أن يكون شفعا لأن الشفع يصير وترًا بزيادة واحد . وكيف يعوز ما لانهاية له : واحد ؟ ومحال أن يكون وترًا إذ الوتر يصير شفعا بواحد فكيف يعوزها واحد مع أنه لانهاية لأعدادها . ومحال أن يكون لا شفعا ولا وترًا إذ لانهاية . فتحصل من هذا أن العالم لا يخلو عن الحوادث وما لا يخلو عن الحوادث فهو إذن حادث . وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلى المحدث من المدركات بالضرورة (الأصل الثاني) العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل ، أزلي ليس لوجوده أول بل هو أول كل شيء وقبل كل ميت وحى . وبرهانه أنه لو كان حادثا ولم يكن قديما لافتقر هو أيضاً إلى محدث وافتقر محدثه إلى محدث وتسلل ذلك إلى ما لانهاية ، وما تسلسل لم يتحصل أو ينتهى إلى محدث قديم هو الأول وذلك هو المطلوب الذى سميناه صانع العالم ومبدئه وبارئه ومحدثه ومبدعه (الأصل الثالث) العلم بأنه تعالى مع كونه أزليا أبديا ليس لوجوده آخر فهو الأول والآخر والظاهر والباطن لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه ، وبرهانه أنه لو انعدم لكان لا يخلو إما أن ينعدم بنفسه أو بمعدم يضاده ولو جاز أن يعدم شيء يتصور دوامه لجاز أن يوجد شيء يتصور عدمه بنفسه فكما يحتاج طريان الوجود إلى سبب فكذلك يحتاج طريان العدم إلى سبب . وباطل أن ينعدم بمعدم يضاده لأن ذلك المعدم لو كان قديما لما تصور الوجود معه . وقد ظهر بالأصلين السابقين وجوده وقدمه فكيف كان وجوده في القدم ومعه ضده ؟ فإن كان العدم حادثا كان محالا ؛ إذ ليس الحادث في مضادته للقديم حتى يقطع وجوده بأولى من القديم في مضادته للحادث حتى يدفع وجوده ، بل الدفع أهون من القطع والقديم أقوى وأولى من الحادث (الأصل الرابع) العلم بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز . وبرهانه أن كل جوهر متحيز فهو مختص بحيزه ولا يخلو من أن يكون ساكنا فيه أو متحركا عنه ، فلا يخلو عن الحركة أو السكون

وهما حادثان ، ومالا يخلو عن الحوادث فهو حادث. ولو تصور جوهر متحيز قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم فإن سماء مسم جوهرأ ولم يرد به المتحيز كان مخطئاً من حيث اللفظ لامن حيث المعنى ﴿الاصل الخامس﴾ العلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر. إذ الجسم عبارة عن المؤلف من الجواهر ، وإذا بطل كونه جوهرًا محصورًا بحيز بطل كونه جسمًا لأن كل جسم محتص بحيز ومركب من جوهر فالجوهر يستحيل خلوّه عن الافتراق والاجتماع والحركة والسكون والهيئة والمقدار وهذه سمات الحدوث. ولو حاز أن يعتقد أن صانع العالم جسم لجاز أن يعتقد الإلهية للشمس والقمر أو لشيء آخر من أقسام الأجسام. فإن تجاسر متجاسر على تسميته تعالى جسمًا من غير إرادة التأليف من الجواهر كان ذلك غلطاً في الاسم مع الإصابة في نفي معنى الجسم ﴿الاصل السادس﴾ العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم بجسم أو حال في محل لأن العرض ما يحل في الجسم ، فكل جسم فهو حادث لا محالة ويكون محدثه موجوداً قبله. فكيف يكون حالاً في الجسم وقد كان موجوداً في الأزل وحده وما معه غيره ، ثم أحدث الأجسام والأعراض بعده ؟ ولأنه عالم قادر مريد خالق - كما سيأتي بيانه - وهذه الأوصاف تستحيل على الأعراض بل لا تعقل إلا لموجود قائم بنفسه مستقل بذاته. وقد تحصل من هذه الأصول أنه موجود قائم بنفسه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض. وأن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام فاذا لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء بل هو الحى القيوم الذى ليس كشيء وأنى يشبه المخلوق خالقه والمقدور والمصور مصوره. والأجسام والأعراض كلها من خلقه وصنعه فاستحال القضاء عليها بمائلته ومشايبته ﴿الاصل السابع﴾ العلم بأن الله تعالى منزّه الذات عن الاختصاص بالجهات فإن الجهة إما فوق وإما أسفل وأما يمين وإما شمال أو قدام أو خلف ، وهذه الجهات هو الذى خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان إذ خلق له طرفين أحدهما يعتمد على الأرض ويسمى رجلاً ، والآخر يقابله ويسمى رأساً. فحدث اسم الفوق لما يلي جهة الرأس واسم السفلى لما يلي جهة الرجل حتى إن النملة التى تدب منكسة تحت السقف تنقلب جهة الفوق فى حضاها تحتها وإن كان فى حقا فوقا. وخلق للإنسان اليدين وإحدهما أقوى من الأخرى فى الغالب فحدث اسم اليمين للأقوى واسم الشمال لما يقابله وتسمى الجهة التى تلى اليمين يميناً والأخرى شمالاً ، وخلق له جانبين يبصر من أحدهما ويتحرك إليه فحدث اسم القدام للجهة التى يتقدم إليها بالحركة واسم الخلف لما يقابلها ، فالجهات حادثه بحدوث الإنسان ولو لم يخلق الإنسان بهذه الخلقة بل خلق مستديراً كالكرة لم يكن لهذه الجهات وجود أبته. فكيف كان فى الأزل محتصاً بجهة والجهة حادثه ؟ وكيف صار محتصاً بجهة بعد أن لم يكن له ؟ أبأن خلق العالم فوقه ويتعالى عن أن يكون له فوق إذ تعالى أن يكون له رأس والفوق عبارة عما يكون جهة الرأس أو خلق العالم تحته فتعالى عن أن يكون له تحت إذ تعالى عن أن يكون له رجل والتحت عبارة عما يلي جهة الرجل ؛ وكل ذلك بما يستحيل فى العقل ولأن المعقول من كونه محتصاً بجهة أنه محتص بحيز اختصاص الجواهر أو محتص بالجواهر اختصاص العرص وقد ظهر استحالة كونه جوهرًا أو عرضاً فاستحال كونه محتصاً بالجهة ؛ وإن أريد بالجهة غير هذين المعنيين كان غلطاً فى الاسم مع المساعدة على المعنى ولأنه لو كان فوق العالم لكان محاذياً له ، وكل محاذ لجسم فإما أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر وكل ذلك تقدير محوج بالضرورة إلى مقدر ويتعالى عنه الخالق الواحد المدبر ، فأما رفع الأيدى عند السؤال إلى جهة السماء فهو لأنها قبله الدعاء. وفيه أيضاً إشارة إلى ما هو وصف للدعوى والجلال والكبرياء تنبيهها بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء فانه تعالى فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء ﴿الاصل

(الثامن) العلم بأنه تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذى أراد الله تعالى بالاستواء وهو الذى لا ينافى وصف الكبرياء ولا يتطرق اليه سمات الحدوث والفناء وهو الذى أريد بالاستواء إلى السماء حيث قال فى القرآن (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق

واضطر أهل الحق إلى هذا التأويل كما اضطر أهل الباطن إلى تأويل قوله تعالى ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ إذ حل ذلك بالاتفاق على الإحاطة والعلم ، وحمل قوله صلى الله عليه وسلم «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» على القدرة والقهورة ، وحمل قوله صلى الله عليه وسلم «الحجر الأسود يمين الله فى أرضه» على التشريف والإكرام لأنه لو ترك على طاهره للزم منه المحال فكذا الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكن لزم منه كون المتمكن جسماً مماساً للعرش إما مثله أو أكبر منه أو أصغر وذلك محال ، وما يؤدى إلى المحال فهو محال ﴿الأصل التاسع﴾ العلم بأنه تعالى مع كونه منزهاً عن الصورة والمقدار مقدساً عن الحيات والافطار مرئى بالآعين والأبصار فى الدار الآخرة دار القرار لقوله تعالى ﴿وحوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ ولا يرى فى الدنيا تصديقاً لقوله عز وجل ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ ولقوله تعالى فى خطاب موسى عليه السلام ﴿لن ترأى﴾ وليت شعري كيف عرف المعتزل من صفات رب الأرباب ما جهله موسى عليه السلام؟ وكيف سأل موسى عليه السلام الرؤية مع كونها محالاً؟ ولعل الجهل بدوى البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم ، وأما وجه إجراء آية الرؤية على الظاهر فهو أنه غير مؤد إلى المحال ، فإن الرؤية نوع كشف وعلم لأنه أتم وأوضح من العلم فإذا جاز تعلق العلم به وليس فى جهة جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة ، وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق وليس فى مقابلتهم حاز أن يراه الخلق من غير مقابلة ، وكما جاز أن يعلم من غير كيفية وصورة جاز أن يرى كذلك ﴿الأصل العاشر﴾ العلم بأن الله عز وجل واحد لا شريك له فرد لاند له انفرد بالخلق والإبداع واستند بالإيجاد والاختراع لا مثل له يساهمه ويساويه ولا ضد له فينازعه ويناويه : وبرهانه قوله تعالى ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ وبيانه أنه لو كانا اثنين وأراد أحدهما أمراً فالثاني إن كان مضطراً إلى مساعدته كان هذا الثاني مقهوراً عاجزاً ولم يكن إلهاً قادراً ، وإن كان قادراً على مخالفته ومدافعته كان الثاني قوياً قاهراً والاول ضعيفاً قاصراً ولم يكن إلهاً قادراً

الركن الثانى العلم بصفات الله تعالى ومداره على عشرة أصول

﴿الأصل الأول﴾ العلم بأن صانع العالم قادر وأنه تعالى فى قوله ﴿وهو على كل شىء قدير﴾ صادق لأن العالم محكم فى صنعته مرتب فى خلقته ومن رأى ثوبا من ديباج حس النسج والتأليف متناسب التطريز والتطريف ثم توهم صدور سبجه عن ميت لا استطاعة له أو عن إنسان لا قدرة له كان منخلعاً عن غريزة العقل ومنخرطاً فى سلك أهل الغباوة والجهل ﴿الأصل الثانى﴾ العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات ومحيط بكل المخلوقات (لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء) صادق فى قوله ﴿وهو بكل شىء عليم﴾ ومرشد إلى صدقه بقوله تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) أرشدك إلى الاستدلال بالخلق على العلم بأنك لا تستريب فى دلالة الخلق اللطيف والصنع المزين بالترتيب ولو فى الشىء الحقير الضعيف على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف فذا ذكره الله سبحانه هو المنتهى فى الهداية والتعريف (الأصل الثالث) العلم بكونه عز وجل حياً فان من ثبت

علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ولو تصور قادر وعالم فاعل مدبر دون أن يكون حيا لحاز أن يشك في حياة الحيوانات عند تردها في الحركات والسكنات بل في حياة أرباب الحرف والصناعات وذلك انغماس في غمرة الجهالات والضلالات (الأصل الرابع) العلم بكونه تعالى مريدا لأفعاله فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته فهو المبدئ المعيد والفعال لما يريد وكيف لا يكون مريدا وكل فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه صده؟ وما لا ضد له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده . والقدرة تناسب الضدين والوقتين مناسبة واحدة فلا بد من إرادة صارفة للقدرة إلى أحد المقدورين . ولو أغنى العلم عن الإرادة في تخصيص المعلوم حتى يقال إنما وجد في الوقت الذي سبق بوجوده لحاز أن يغنى عن القدرة حتى يقال وجد بعير قدرة لأنه سق العلم بوجوده فيه (الأصل الخامس) العلم بأنه تعالى سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ولا يشذ عن سماعه صوت ديبب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء : وكيف لا يكون سميعا بصيرا والسمع والبصر كال لا محالة وليس بنقص ؟ فكيف يكون المخلوق أكل من الخالق والمصنوع أسنى وأتم من الصانع ؟ وكيف تعادل القسمة مهما وقع النقص في جهته والكمال في خلقه وصنعه أو كيف تستقيم حجة إبراهيم صلى الله عليه وسلم على أبيه إذ كان يعبد الأصنام جهلا وغيا فقال له ﴿ لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يعنى عنك شيئا ﴾ ولو انقلب ذلك عليه في معبوده لاصحت حجته داحضة ودلالته ساقطة ولم يصدق قوله تعالى ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ وكما عقل كونه فاعلا بلا جارحة وعالما بلا قلب ودماغ فليعقل كونه بصيرا بلا حدقة وسميعا بلا أذن إذ لا فرق بينهما (الأصل السادس) أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف بل لا يشبه كلامه كلام غيره كما لا يشبه وجوده وجود غيره . والكلام بالحقيقة كلام النفس وإنما الأصوات قطعت حروفا للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات والإشارات وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء ولم يلتبس على جهلة الشعراء حيث قال قائلهم :

لأن الكلام لني الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومن لم يعقله عقله ولا بهاه نهاه عن أن يقول : لسانى حادث ولكن ما يحدث فيه بقدرتى الحادثة قديم ، فاقطع عن عقله طمعك وكف عن خطاه لسانك . ومن لم يفهم أن القديم عبارة عما ليس قبله شيء . وأن الباء قبل السين في قولك بسم الله فلا يكون السين المتأخر عن الباء قديما فزه عن الالتفات إليه قلبك الله سبحانه سر في إبعاد بعض العباد ﴿ ومن يضلل الله فإله من هاد ﴾ ومن استبعد أن يسمع موسى عليه السلام في الدنيا كلاما ليس بصوت ولا حرف فليستسخر أن يرى في الآخرة موجودا ليس بحسم ولا لون : وإن عقل أن يرى ما ليس بلون ولا جسم ولا قدر ولا كمية وهو إلى الآن لم ير غيره فليعقل في حاسة السمع ماعمله في حاسة البصر . وإن عقل أن يكون له علم واحد هو علم بجميع الموجودات فليعقل صفة واحدة للذات هو كلام بجميع مادل عليه من العبارات . وإن عقل كون السموات السبع وكون الجنة والنار مكتوبة في ورقة صغيرة ومحفوظة في مقدار ذرة من القلب وأن كل ذلك مرئى في مقدار عدسة من الحدقة من غير أن تحمل ذات السموات والأرض والجنة والنار في الحدقة والقلب والورقة فليعقل كون الكلام مقروءا بالأسنة محفوظا في القلوب مكتوبا في المصاحف من غير حلول ذات الكلام فيها إذ لو حلت بكتاب الله ذات الكلام في الورق لحل ذات الله تعالى بكتابة اسمه في الورق وحلت ذات النار بكتابه اسمها في الورق ولا حرق (الأصل السابع) أن الكلام القائم بنفسه قديم وكذا جميع صفاته إذ يستحيل أن يكون محلا

للحوادث داخلا تحت التغير بل يجب للصفات من نعوت القدم مايجب للذات فلا تعتريه التغيرات ولا تحمله الحادثات بل لم يزل في قدمه موصوفا بمحامد الصفات ولا يزل في أبده كذلك منزها عن تغير الحالات لأن ما كان محل الحوادث لا يخلو عنها وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . وإنما ثبت نعت الحوادث للأجسام من حيث تعرضها للتغير وتقلب الأوصاف فكيف يكون خالقها مشاركا لها في قبول التغير ؟ وينبني على هذا أن كلامه قديم قائم بذاته وإنما الحادث هي الأصوات الدالة عليه ، وكما عقل قيام طلب التعلم وإرادته بذات الوالد للولد قبل أن يخلق ولده حتى إذا خلق ولده وعقل وخلق الله له علما متعلقا بما في قلب أبيه من الطلب صار مأمورا بذلك الطلب الذي قام بذات أبيه ودام وحوده إلى وقت معرفة ولده له فليعقل قيام الطلب الذي دل عليه قوله عز وجل (اخلع نعليك) بذات الله ومصير موسى عليه السلام محاطا به بعد وجوده إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب وسمع لذلك الكلام القديم (الأصل الثامن) أن علمه قديم فلم يزل عالما بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته . ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلي إذ لو خلق لنا علم به بقدم زيد عند طلوع الشمس ودام ذلك العلم تقديرا حتى طلعت الشمس لكان قدوم زيد عند طلوع الشمس معلوما لنا بذلك العلم من غير تجديد علم آخر . فكيف هذا ينبغي أن يفهم قدم علم الله تعالى (الأصل التاسع) أن إرادته قديمة وهي في القدم تعلقت بإحداث الحوادث في أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلي إذ لو كانت حادثة لصار محل الحوادث ، ولو حدثت في غير ذاته لم يكن هو مريدا لها كما لا تكون أنت متحركا بحركة ليست في ذاتك وكيفما قدرت فيفتقر حدوثها إلى إرادة أخرى ، وكذلك الإرادة الأخرى تفتقر إلى أخرى ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية ، ولو جاز أن يحدث إرادة بغير إرادة لجاز أن يحدث العالم بغير إرادة (الأصل العاشر) أن الله تعالى عالم بعلم ، حي بحياة ، قادر بقدره ، ومريد بإرادة ، ومتكلم بكلام ، وسميع بسمع ، وبصير ببصر ، وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة . وقول القائل : عالم بلا علم كقوله : غني بلا مال وعلم بلا عالم وعالم بلا معلوم ، فإن العلم والمعلوم والعالم متلازمة كالقتل والمقتول والقاتل ، وكما لا يتصور قاتل بلا قتل ولا قتل ولا يتصور قتيل بلا قاتل ولا قتل كذلك لا يتصور عالم بلا علم ولا علم بلا معلوم ولا معلوم بلا عالم بل هذه الثلاثة متلازمة في العقل لا ينفك بعض منها عن البعض فننجز انفكاك العالم عن العلم فليجوز انفكاك العلم عن المعلوم وانفكاك العلم عن العالم إذ لا فرق بين هذه الأوصاف .

الركن الثالث : العلم بأفعال الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول

(الأصل الأول) العلم بأن كل حادث في العالم فهو فعله وخلقه واحتراعه لا خالق له سواه ولا محدث له إلا إياه . خلق الخلق وصنعهم وأوجد قدرتهم وحركتهم لجميع أفعال عباده مخلوقة له ومتعلقة بقدرته تصديقا له في قوله تعالى (الله خالق كل شيء) وفي قوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) وفي قوله تعالى (وأسروا قلوبكم أراجهموا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) أمر العباد بالتحرز في أقوالهم وأفعالهم وإسرارهم وإخمارهم لعلهم بموارد أفعالهم . واستدل على العلم بالخلق ، وكيف لا يكون خالقا لفعل العبد وقدرته تامة لا قصور فيها وهي متعلقة بحركة أبدان العباد والحركات متباعدة وتعلق القدرة بها لذاتها ما الذي يقصر تعلقها عن بعض الحركات دون البعض مع تماثلها ؟ وكيف يكون الحيوان مستتبدا بالاختراع ويصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يتحير فيه عقول ذوى الألباب فكيف انفردت هي باختراعها دون رب الأرباب . وهي غير عالمة بتفصيل ما يصدر منها من الاكتساب ؟ هيئات هيئات ! ذلت المخلوقات وتفرد بالملك والمملوك .

جبار الأرض والسماوات (الأصل الثاني) أن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعاً وخلق الاختيار والمختار جميعاً . فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب سبحانه وليست بكسب له . وأما الحركة فخلق للرب تعالى ووصف للعبد وكسب له فأما خلقت مقدورة بقدرة هي وصفه وكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسباً ، وكيف تكون حراً محضاً وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والردة الضرورية ؟ وكيف يكون خلقاً للعبد وهو لا يحيط علماً بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها وإذا يطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد في الاعتقاد وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً وبقدرة العبد على وجه آخر من التعليق يعبر عنه بالاكتساب . وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط ؛ إذ قدرة الله تعالى في الأزل تد كانت متعلقة بالعالم ولم يكن الاختراع حاصلها وهي عند الاختراع متعلقة به نوعاً آخر من التعلق فيه يظهر أن تعلق القدرة ليس مخصوصاً بحصول المقدور بها (الأصل الثالث) أن فعل العبد وإن كان كسباً للعبد فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه . فلا يحرق في الملك والملوك طرفه عين ولا لفته خاطر ولا فلتة ناظر إلا بقضاء الله وتدرته وإرادته ومشيتته . ومنه الشر والخير والفع والضر والإسلام والكفر والعرفان والنكر والفوز والخسران والغواية والرشد والطاعة والعصيان والشرك والإيمان لأراد لقضائه ولا معقب لحكمه يضل من يشاء ويهدي من يشاء (لا يسئل عما يفعل وهم يسألون) ويدل عليه من النقل قول الأئمة قاطبة «ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن» وقول الله عز وجل (أن لو يسأ الله لهدى الناس جميعاً) وقوله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) ويدل عليه من جهة العقل أن المعاصي والجرائم إن كان الله يكرها ولا يريد لها وإنما هي جارية على وفق إرادة العدو إبليس لعنه الله مع أنه عدو لله سبحانه ، والجاري على وفق إرادة العدو أكثر من الجاري على وفق إرادته تعالى فليت شعري كيف يستجيز المسلم أن يرد ملك الحبار ذى الحلال والإكرام إلى رتبة لو ردت إليها رئاسة زعيم ضيعة لاستنكف منها ؛ إذ لو كان ما يستمر لعدو الزعيم في القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف من زعامته وتبرأ عن ولايته . والمعصية هي الغالبة على الخلق وكل ذلك جار عند المبتدعة على خلاف إرادة الحق تعالى وهذا غاية الضعف والعجز ، تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين علواً كبيراً . ثم مهما طهر أن أفعال العباد مخلوقة لله صح أنها مرادة له * فإن قيل : فكيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد ؟ قلنا : الأمر غير الإرادة . ولذلك إذا ضرب السيد عبده فعاتبه السلطان عليه فاعتذر بتمرد عبده عليه فكذب السلطان - فأراد إظهار حجته بأن يأمر العبد بفعل ويخالفه بين يديه - فقال له : أسرج هذه الدابة بمشهد من السلطان ، فهو يأمره بما لا يريد أمثاله ، ولو لم يكن أمراً لما كان عذره عند السلطان مهمل ، ولو كان مريداً لامثاله لكان مريداً لهلاك نفسه وهو محال (الأصل الرابع) أن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومتقوّل بتكليف العباد ولم يكن الخلق والتكليف واجباً عليه وقالت المعتزلة وجب عليه ذلك لما فيه من مصلحة العباد وهو محال ؛ إذ هو الموجب والأمر والناهي وكيف يتهدى لإيجاب أو تعريض للزوم وخطاب ؟ والمراد بالواجب أحد أمرين : إما الفعل الذي في تركه ضرر إما آجل ؛ كما يقال يحب على العبد أن يطيع الله حتى لا يعذبه في الآخرة بالنار ، أو ضرر عاجل ؛ كما يقال يحب على العطشان أن يشرب حتى لا يموت . وإما أن يراد به الذي يؤدي عدمه إلى محال كما يقال وجود المعلوم واجب إذ عدمه يؤدي إلى محال وهو أن يصير العلم جهلاً ، فإن أراد الخصم بأن الخلق واجب على الله بالمعنى الأول

فقد عرّضه للضرر وإن أراد به المعنى الثاني فهو مسلم ؛ إذ بعد سبق العلم لا بد من وجود المعلوم وإن أراد به معنى ثالثاً فهو غير مفهوم وقوله « يجب لمصلحة عباده » كلام فاسد فإنه إذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد لم يكن للوجوب في حقه معنى . ثم إن مصلحة العباد في أن يخلقهم في الجنة فأما أن يخلقهم في دار البلايا ويعرضهم للخطايا ثم يهدفهم لخطر العقاب وهول العرض والحساب فما في ذلك غبطة عند ذوى الآلالباب (الأصل الخامس) أنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه - خلافاً للمعتزلة - ولولم يجوز ذلك لاستحالة سؤال دونه وقد سألوا ذلك فقالوا ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ ولأن الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن أبا جهل لا يصدقه ، ثم أمره بأن يأمره بأن يصدقه في جميع أقواله وكان من جملة أقواله أنه لا يصدقه ، فكيف يصدقه في أنه لا يصدقه وهل هذا إلا محال وجوده ؟ (الأصل السادس) أن الله عز وجل لإبلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق خلافاً للمعتزلة - لأنه متصرف في ملكه ولا يتصور أن يعدو تصرفه ملكه ، والظلم هو عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه وهو محال على الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً : ويدل على جواز ذلك وجوده فإن ذبح البهائم لإبلام لها وما صلب عليها من أنواع العذاب من جهة الآدميين لم يتقدمها جريمة . فإن قيل : إن الله تعالى يحشرها ويجازيها على قدر ما قاسته من الآلام ويجب ذلك على الله سبحانه ؟ فقول : من زعم أنه يحب على الله إحياء كل نملة وطئت وكل بقعة عركت حتى يثيبها على آلامها فقد خرج عن الشرع والعقل ؛ إذ يقال وصف الثواب والحشر بكونه واجباً عليه إن كان المراد به أن يتضرر بتركه فهو محال ، وإن أريد به غيره فقد سبق أنه غير مفهوم إذ خرج عن المعاني المذكورة للواجب (الأصل السابع) أنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه سبحانه شيء بل لا يعقل في حقه الوجوب فإنه ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ وليت شعري بما يجيب المعتزلى في قوله « إن الأصلح واجب عليه » في مسألة نعرضها عليه : وهو أن يفرض مناظرة في الآخرة بين صبي وبين بالغ مائتا مسلمين فإن الله سبحانه يزيد في درجات البالغ ويفضله على الصبي لأنه تعب بالإيمان والطاعات بعد البلوغ ، ويجب عليه ذلك - عند المعتزلى - فلو قال الصبي : يارب لم رفعت منزلته على فيقول : لأنه بلغ واحتد في الطاعات ، ويقول الصبي : أنت أمتنى في الصبا فكان يجب عليك أن تديم حياتي حتى أبلغ فأجتهد ، فقد عدلت عن العدل في التفضل عليه بطول العمر له دوني فلم فضلت ؟ فيقول الله تعالى : لأنى علمت أنك لو بلغت لأشركت أو عصيت فكان الأصلح لك الموت في الصبا - هذا عذر المعتزلى عن الله عز وجل - وعند هذا يبادى الكفار من دركات لظى ويقولون : يارب أما علمت أننا إذا بلغنا أشركنا فهلا أمتنا في الصبا فإننا راضياً بما دون منزلة الصبي المسلم ؟ فبماذا يجاب عن ذلك وهل يجب عند هذا إلا القطع بأن الأمور الإلهية تتعالى بحكم الجلال عن أن توزن بميزان أهل الاعتزال ؟ فإن قيل : مهما قدر على رعاية الأصلح للعباد ثم سلط عليهم أسباب العذاب كان ذلك قبحاً لا يليق بالحكمة ؟ قلنا : القبح ما لا يوافق الغرض حتى إنه قد يكون الشيء قبيحاً عند شخص حسناً عند غيره إذا وافق غرض أحد همدادون الآخر حتى يستقبح قتل الشخص أو لياؤه ويستحسنه أعداؤه . فإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض البارئ سبحانه فهو محال إذ لا غرض له فلا يتصور منه قبح كما لا يتصور منه ظلم إذ لا يتصور منه التصرف في ملك الغير . وإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الغير فلم قلتم إن ذلك عليه محال ؟ وهل هذا إلا مجرد تشبه يشهد بخلافه ما قد فرضناه من مخاصمة أهل النار ؟ ثم الحكيم معناه العالم بحقائق الأشياء القادر على إحكام فعلها على وفق إرادته وهذا من أين يوجب رعاية

الأصلح ؟ وأما الحكيم منا يراعى الأصلح نظرا لنفسه ليستفيد به في الدنيا ثناء وفي الآخرة ثوابا أو يدفع به عن نفسه آفة . وكل ذلك محال على الله سبحانه وتعالى (الأصل الثامن) أن محرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بالإنجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل - خلافا للمعتزلة - لأن العقل وإن أوجب الطاعة ولا يخلو إما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال فإن العقل لا يوجب العبت ، وإما أن يوجبها لفائدة وغرض وذلك لا يخلو إما أن يرجع إلى المعبود وذلك محال في حقه تعالى فانه يتقدس عن الأعراض والفوائد بل الكفر ، والإيمان والطاعة والعصيان في حقه تعالى سيان ، وإما أن يرجع ذلك إلى عرض العبد وهو أيضا محال لأنه لا غرض له في الحال بل يتعبد به وينصرف عن الشهوات لسببه وليس في المال إلا الثواب والعقاب . ومن أين يعلم أن الله تعالى يثيب على المعصية والطاعة ولا يعاقب عليهما مع أن الطاعة والمعصية في حقه يتساويان ، إذ ليس له إلى أحدهما ميل ولا به لأحدهما اختصاص وإنما عرف تمييز ذلك بالشرع ، ولقد زل من أخذ هذا من المقايضة بين الحائق والحلوق حيث يفرق بين الشكر والكفران لما له من الارتياح والاهتزاز والتلذذ بأحدهما دون الآخر * فان قيل : فإذا لم يجب النظر والمعرفة إلا بالشرع والشرع لا يستقر ما لم ينظر المكلف فيه ؛ فإذا قال المكلف للنبي : إن العقل ليس يوجب على النظر والشرع لا يثبت عندي إلا بالنظر ولست أقدم على النظر ، أدى ذلك إلى إلحاح الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ قلنا : هذا يضاهي قول القائل للواقف في موضع من المواضع إن وراءك سبعا ضاريا فإن لم تبرح عن المكان قتلك وإن التفت وراءك ونظرت عرفت صدق ، فيقول الواقف لا يثبت صدقك ما لم ألتفت ورأى ولا ألتفت ورأى ، ولا أنظر ما لم يثبت صدقك ؛ فيدل هذا على حماقة هذا القائل وتهدفه للهلاك ولا ضرر فيه على الهادى المرشد ؛ فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن وراءكم الموت ودونه السباع الضارية والنيران المحرقة إن لم تأخذوا منها حذركم وتعرفوا إلى صدق بالالتفات إلى معجزتي وإلا هلكتم ، فمن التفت عرف واحترز ونجا ومن لم يلتفت وأصر هلك وتردى ولا ضرر على إن هلك الناس كلهم أجمعون ، وإنما على البلاغ المبين ، فالشرع يعرف وجود السباع الضارية بعد الموت . والعقل يفيد فهم كلامه والإحاطة بإمكان ما يقوله في المستقبل والطبع يستحث على الحذر من الضرر ، ومعنى كون الشيء واجبا أن في تركه ضررا ، ومعنى كون الشرع موجبا أنه معرف للضرر المتوقع فإن العقل لا يهتدى إلى التهديف للضرر بعد الموت عند اتباع الشهوات ، فهذا معنى الشرع والعقل وتأثيرهما في تقدير الواجب ، ولولا خوف العقاب على ترك ما أمر به لم يكن الوجوب ثابتا ، إذ لا معنى للواجب إلا ما يرتبط بتركه ضرر في الآخرة (الأصل التاسع) أنه ليس يستحيل نعتة الأنبياء عليهم السلام - خلافا للبراهمة - حيث قالوا : لافائدة في بعثهم إذ في العقل مندوحة عنهم لأن العقل لا يهتدى إلى الأفعال المنجية في الآخرة كما لا يهتدى إلى الأدوية المفيدة للصحة ، فحاجه الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء ولكن يعرف صدق الطبيب بالتجربة ويعرف صدق النبي بالمعجزة . (الأصل العاشر) أن الله سبحانه قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبين وناسخا لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصائبين ؟ وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة كانشقاق القمر ^(١) وتسييح الحمى ^(٢) وإنطاو العجاء ^(٣) وما تنفجر من بين أصابعه من الماء . ومن آياته الظاهرة التي تحدى بها - مع كافة العرب - القرآن العظيم

(١) حديث : انشقاق القمر ؛ متفق عليه من حديث أنس وابن مسعود وابن عباس (٢) حديث « تسييح الحمى » أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس بن مالك بن أبي الأخضر ليس بالمحافظ والمحفوط رواية رجل من بني سليم لم يسم عن أنس بن مالك (٣) حديث : انطاو العجاء ، أخرجه أحمد والبيهقي بإسناد صحيح من حديث يعلى بن مرة في الأمير الذي شكك إلى النبي صلى الله عليه وسلم أهله . وقد ورد في كلام الضب والذهب والجمرة أحاديث رواها البيهقي في الدلائل (١٥ - أحياء علوم الدين - ١)

فانهم مع تمييزهم بالمصاححة والبلاغة تهدفوا لسهوهم وقتله وإخراجه - كما أخبر الله عز وجل - عنهم ولم يفدروا على معارضته بمثل القرآن ، إذ لم يكن في قدرة البشر الجمع بين حزالة القرآن ونظمه ، هذا مع ما فيه من أخبار الأولين مع كونه أميا غير مارس للكتب والإنباء عن الغيب في أمور تحقق صدقه فيها في الاستقبال كقوله تعالى ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلفين رءوسكم ومقصرين ﴾ وكقوله ﴿ ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون في بضع سنين ﴾ ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسل أن كل ما عجز عنه البشر لم يسكن إلا فعلا لله تعالى . فهما كان مقروبا بتحدى النبي صلى الله عليه وسلم ينزل منزلة قوله « صدقت » وذلك مثل القائل بين يدي الملك المدعى على رعيته أنه رسول الملك إليهم فإنه مهما قال لذلك إن كنت صادقا فقم على سررك ثلاثا واقعد - على خلاف عادتك - ففعل الملك ذلك حصل للحاضرين علم ضروري بأن ذلك نازل منزلة بقوله « صدقت »

الركن الرابع في السمعيات وتصديقه صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه

ومداره على عشرة أصول

(الأصل الأول) الحشر والنشر ^(١) وقد ورد بهما الشرع وهو حق والتصديق بهما واجب لأنه في العقل ممكن ؛ ومنه إعادة بعد الإفناء وذلك مقدور لله تعالى كابتداء الإنشاء قال الله تعالى (قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة) فاستدل بالابتداء على الإعادة وقال عز وجل (ما خلقكم ولا نعشكم إلا كنفس واحدة) والإعادة ابتداء ثان فهو ممكن كالابتداء الأول (الأصل الثاني) سؤال منكر ونكير ^(٢) وقد وردت به الأحاديث فيجب التصديق به لأنه ممكن إذ ليس يستدعي إلا إعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الذي به فهم الخطاب وذلك ممكن في نفسه ولا يدفع ذلك ما يساعد من سكون الميت وعدم سماعنا للسؤال له ، فان الماتم ساكن بطاهره ويدرك باطنه من الآلام واللذات ما يحس بتأثيره عند المنبه ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ومن حوله لا يسمعون ولا يرونه ^(٣) ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء فإذا لم يخلق لهم السمع والرؤية لم يدركوه (الأصل الثالث) عذاب القبر وقد ورد الشرع به قال الله تعالى ﴿ النار يعرصون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ واشتهر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح الاستعاذ من عذاب القبر ^(٤) وهو ممكن فيجب التصديق به ولا يمنع من التصديق به تفرق أجزاء الميت في بطون الساع وحواصل الطبور ، فان المدرك لآلم العذاب من الحيوان أجزء مخصوصة بقدر الله تعالى على إعادة الإدراك إليها (الأصل الرابع) الميراث وهو حق قال الله تعالى ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ وقال تعالى (من ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه الآية ووجهها أن الله تعالى يحدث في صحائف الأعمال وزنا بحسب درجات الأعمال عند الله تعالى فتصير مقادير أعمال العباد معلومة

(١) حديث الحشر والنشر ، أخرجه الشيخان من حديث اس عاص « أنكم لمحشورون إلى الله .. الحديث » ومن حديث سهل « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء .. الحديث » ومن حديث عائشة « يحشرون يوم القيامة حفاة » ومن حديث أبي هريرة « يحشر الناس على ثلاث طرائق .. الحديث » وابن ماجة من حديث ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم « أنشأ في بيت المقدس وأرض المحشر والمشر .. الحديث » وإسامة حيد (٢٢) حديث : سؤال منكر ونكير ، تقدم

(٢) حديث « كان يسمع كلام جبريل ويشاهده ومن حوله لا يسمعون ولا يرونه » أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة قالت « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام فأتته وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترى ما لا أرى » قالت وهذا هو الألعاب ولما قد رأى جبريل جماعة من الصحابة معهم عمر وابنه عبد الله وكتب بن مالك وغيرهم .

(٣) حديث « إسماء من عذاب القبر » أخرجاه من حديث أبي هريرة وعائشة وقد تقدم

العباد حتى يظهر لهم العدل في العقاب أو الفضل في العفو وتضعيف الثواب (الأصل الخامس) الصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أرق من الشعرة وأحد من السيف قال الله تعالى ﴿ فامدوهم إلى صراط الجحيم وقصوهم إنهم مشرولون ﴾ وهذا يمكن فيجب التصديق به فإن القادر على أن يطير الطير في الهواء قادر على أن يسير الإنسان على الصراط (الأصل السادس) أن الجنة والنار مخلوقتان قال الله تعالى ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ فقله تعالى ﴿ أعدت ﴾ دليل على أنها مخلوقة فيجب إجراؤه على الظاهر إذ لا استحالة فيه ، ولا يقال لافائدة في خلقهما قبل يوم الجزاء لأن الله تعالى ﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ (الأصل السابع) أن الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم ولم يكن نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إمام أصلا ؛ إذ لو كان لكان أولى بالظهور من نصبه أحاد الولاة والأمراء على الجنود في البلاد ولم يخف ذلك فكيف حتى هذا ؟ وإن ظهر فكيف اندرس حتى لم ينقل إلينا ؟ فلم يكن أبو بكر إماما إلا بالاختيار والبيعة وأما تقدير النص على غيره فهو نسبة للصحابة كلهم إلى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرق الإجماع ، وذلك مما لا يستجري على اختراعه إلا الروافض ، واعتاد أهل السنة تركية جميع الصحابة والثناء عليهم كما أثني الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم . وما جرى بين معاوية وعلي رضي الله عنهما كان مبذيا على الاجتهاد لامنازعة من معاوية في الإمامة ؛ إذ ظن على رضي الله عنه أن تسليم قتلة عثمان مع كثرة عشائهم واحتلالهم بالعسكر يؤدي إلى اضطراب أمر الإمامة في بدايتها فرأى التأخير أصوب ، وظن معاوية أن تأخير أمرهم مع علم جنائيتهم يوجب الإغراء بالائمة ويعرض الدماء للسفك . وقد قال أفاضل العلماء : كل مجتهد مصيب . وقال قائلون : المصيب واحد ولم يذهب إلى تخطئة على ذو تحصيل أصلا (الأصل الثامن) أن فضل الصحابة رضي الله عنهم على ترتيبهم في الخلافة إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عز وجل وذلك لا يطلع عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ورد في الثناء على جميعهم آيات وأخبار كثيرة (١) وإنما يدرك دقائق الفضل والترتيب فيه المشاهدون للوحى والتزيل بقرائن الأحوال ودقائق التفصيل ، فلو لا فهمهم ذلك لما رتبوا الأمر كذلك إذ كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يصرفهم عن الحق صارف . (الأصل التاسع) أن شرائط الإمامة بعد الإسلام والتكليف خمسة : الذكورة والورع والعلم والكفاية ونسبة قریش ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قریش » (٢) ، ولذا اجتمع عدد من الموصوفين بهذه الصفات فالإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق ، والمخالف الأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق (الأصل العاشر) أنه لو تعذر وجود الورع والعلم فيمن يتصدى للإمامة وكان في صرفه إثارة فتنة لا تطاق حكما بانعقاد إمامته ، لأننا بين أن تحرك فتنة بالاستبدال ، فما يلتقي المسلمون فيه من الضرر يزيد على ما يفوتهم من نقصان هذه الشروط التي أثبتت لمزية المصلحة فلا يهدم أصل المصلحة شغفا بمزاياها كالذى يبني قصرا ويهدم مصرا وبين أن نحكم بخلق البلاد عن الإمام وبفساد الأفضية وذلك محال . ونحن نقضى بنفوذ قضاء أهل البغي في بلادهم لمسيس حاجتهم فكيف لا نقضى بصحة الإمامة عند الحاجة والضرورة ؟ فهذه الأركان الأربعة الحاوية للأصول الأربعين هي قواعد العقائد فن اعتقدها كان موافقا لأهل السنة ومباينا لرهط البدعة . فآله تعالى يستدنا بتوفيقه ويهديننا إلى الحق وتحقيقه بمنه وسعة جوده وفضله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وكل عبد مصطفى .

(١) حديث « الثناء على الصحابة » تقدم (٢) حديث « الأئمة من قریش » أخرجه النسائي من حديث أنس والحاكم من حديث ابن عمر

الفصل الرابع من قواعد العقائد

في الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان

ووجه استثناء السلف فيه وفيه ثلاث مسائل

(مسألة) اختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره وإن كان غيره فهل هو منفصل عنه يوحد دونه أو مرتبط به يلزمه ؟ فقيل لإنهما شيء واحد وقيل لإنهما شيان لا يتواصلان وقيل لإنهما شيان ولكن يرتبط أحدهما بالآخر . وقد أورد أبو طالب المكي في هذا كلاما شديدا الاضطراب كثير التطويل فلنجهز الآن على التصريح بالحق من غير تعريض على نقل ما لا تحصيل له ، فنقول في هذا ثلاثة مباحث : بحث عن موجب اللفظين في اللغة ، وبحث عن المراد بهما في إطلاق الشرع ، وبحث عن حكمهما في الدنيا والآخرة ، والبحث الأول لغوي ، والثاني تفسيري ، والثالث فقهي شرعي . المبحث الأول : في موجب اللغة ؛ والحق فيه أن الإيمان عبارة عن التصديق ؛ قال الله تعالى ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ أي ؛ بمصدق ، والإسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد وترك التمرد والإباء والعناد ، وللتصديق محل خاص وهو القلب ، واللسان ترحام . وأما التسليم فإنه عام في القلب واللسان والحوارج فإن كل تصديق بالقلب فهو تسليم وترك الإباء والجحود وكذلك الاعتراف باللسان وكذلك الطاعة والانقياد بالحوارج . فوجب اللغة أن الإسلام أعم والإيمان أخص فكان الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الإسلام ؛ فإذا كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقا : البحث الثاني : عن إطلاق الشرع ؛ والحق فيه أن الشرع قد ورد باستعمالها على سبيل الترادف والتوارد وورد على سبيل الاختلاف وورد على سبيل التداخل ، أما الترادف ففي قوله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد وقال تعالى (يافوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) وقال صلى الله عليه وسلم « بي الإسلام على خمس ^(١) » وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس ^(٢) وأما الاختلاف فقوله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) ومعناه استسلمنا في الطاهر ، فأراد بالإيمان ههنا التصديق بالقلب وبالإسلام الاستسلام طاهراً باللسان والحوارج ، وفي حديث حبرائيل عليه السلام لما سأله عن الإيمان فقال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره ، فقال : فما الإسلام ؟ فأجاب بذلك الخصال الخمس ^(٣) » فعبر بالإسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل . وفي الحديث عن سعد أنه صلى الله عليه وسلم « أعطى رجلا عطاء ولم يوطئ الآخر ؛ فقال له سعد : يا رسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم أو مسلم فأعاد عليه فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) » ، وأما التداخل فما روى أيضا أنه

(١) حديث « بي الإسلام على خمس » أخرجه من حديث ابن عمر (٢) حديث « سئل عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس أخرجه البيهقي في الاعتقاد من حديث ابن عباس في قصة وفد عبد الميسر « يدرون ما الإيمان : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتصوموا رمضا وتحجوا البيت الحرام » والحديث في الصحيحين لكن ليس فيه ذكر الحج وزاد « وأن تؤتوا حقا من المنى » (٣) حديث حبرائيل لما سأله عن الإيمان « فقال أن تؤمن بالله وملائكته .. الحديث » أخرجه من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث عمر دون ذكر « الحساب » ورواه البيهقي في البعث وقد تقدم (٤) حديث سعد « أعطى رجلا عطاء ولم يوطئ الآخر فقال له سعد يا رسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن فقال أو مسلم . الحديث » أخرجه بجمعه

سئل « فقيل أى الأعمال أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الإسلام ، فقال : أى الإسلام أفضل ، فقال صلى الله عليه وسلم : الإيمان ^(١) ، وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل وهو أوفق الاستعمالات فى اللغة لأن الإيمان عمل من الأعمال وهو أفضلها ، والإسلام هو تسليم إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح وأفضلها الذى بالقلب وهو التصديق الذى يسمى إيماناً والاستعمال لها على سبيل الاختلاف وعلى سبيل التداخل وعلى سبيل الترادف كله غير خارج عن طريق التجوز فى اللغة . أما الاختلاف فهو أن يجعل الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط وهو موافق للغة ، والإسلام عبارة عن التسليم ظاهراً وهو أيضاً موافق للغة فإن التسليم ببعض محال التسليم ينطلق عليه اسم التسليم ، فليس من شرط حصول الاسم عموم المعنى لكل محل يمكن أن يوجد المعنى فيه فإن من لم يسلم ببعض بدنه يسمى لامساً وإن لم يستغرق جميع بدنه ، فإطلاق اسم الإسلام على التسليم الظاهر عند عدم تسليم الباطن مطابق للسان وعلى هذا الوجه جرى قوله تعالى ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث سعد « أو مسلم » لأنه فضل أحدهما على الآخر ، ويريد بالاختلاف تفاضل المسميين . وأما التداخل موافق أيضاً للغة فى حصوص الإيمان وهو أن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعاً ، والإيمان عبارة عن بعض مداخل فى الإسلام وهو التصديق بالقلب وهو الذى غنيناه بالتداخل وهو موافق للغة فى حصوص الإيمان وعموم الإسلام للكل ، وعلى هذا خرج قوله « الإيمان » فى جواب قول السائل « أى الإسلام أفضل » لأنه جعل الإيمان خصوصاً من الإسلام فأدخله فيه ، وأما استعماله فيه على سبيل الترادف بأن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعاً فإن كل ذلك تسليم وكذا الإيمان ويكون التصرف فى الإيمان على الخصوص بتعميمه وإدخال الظاهر فى معناه وهو جائز لأن تسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة تصديق الباطن ونتيجته ، وقد يطلق اسم الشجر ويراد به الشجر مع ثمره على سبيل التسامح فيصير بهذا القدر من التعميم مرادفاً لاسم الإسلام ومطابقاً له فلا يزيد عليه ولا ينقص ؛ وعلمه حرج قوله ﴿ فما وحدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ البحث الثالث : عن الحكم الشرعى . والإسلام والإيمان حكمان أحروى وديوى . أما الآخرى فهو الإخراج من النار ومنع التخليد إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ^(٢) » وقد اختلفوا فى أن هذا الحكم على ماذا يترتب ؟ وعبروا عنه بأن الإيمان ماذا هو ؟ فمن قائل إنه مجرد العقد ومن قائل يقول إنه عقد بالقلب وشهادة باللسان ومن قائل يزيد ثالثاً وهو العمل بالأركان ، ونحن نكشف الغطاء عنه ونقول من جمع بين هذه الثلاثة فلا خلاف فى أن مستقره الجنة وهذه درجة . الدرجة الثانية : أن يوجد ائمان وبعض الثالث - وهو القول والعقد وبعض الأعمال - ولكن ارتكب صاحبه كبيرة أو بعض الكبائر ؛ فعمد هذا قالت المعتزلة : خرج بهذا عن الإيمان ولم يدخل فى الكفر بل اسمه فاسق وهو على منزلة بين المنزلتين وهو مغلد فى النار ؛ وهذا باطل كما سند كره الدرجة الثالثة : أن يوجد التصديق بالقلب والشهادة باللسان دون الأعمال بالجوارح ، وقد

(١) حديث « سئل أى الأعمال أفضل فقال الإسلام فقال أى الإسلام أفضل فقال الإيمان » أخرجه أحمد والطبراني من حديث عمرو بن عبسة بالنظر الأخير « فقال يا رسول الله أى الإسلام أفضل قال الإيمان » ولمساده صحيح

(٢) حديث « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان » أخرجه من حديث أبى سعيد الخدرى فى الجماعة « وفيه » اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه . الحديث « ولهما من حديث أسس » فيقال اطلاق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة - أو حردلة - من إيمان « لفظ البخارى » منهما « وله تعليقاً من حديث أسس » يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من إيمان « وهو عندهما متصل بلفظ « خير » مكان « إيمان »

اختلفوا في حكمه ، فقال أبو طالب المكي : العمل بالجوارح من الإيمان ولا يتم دونه وادعى الإجماع فيه واستدل بأدلة تشعر بنقيض غرضه كقوله تعالى ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ إذ هذا يدل على أن العمل وراء الإيمان لا من نفس الإيمان وإلا فيكون العمل في حكم المعاد ؟ والعجب أنه ادعى الإجماع في هذا وهو مع ذلك ينقل قوله صلى الله عليه وسلم « لا يكفر أحد إلا بعد جوده لما أقر به »^(١) ، وينسك على المعتزلة فويلهم بالتخليد في النار بسبب الكبائر ؛ والقائل بهذا قائل بنفس مذهب المعتزلة ؛ إذ يقال له من صدق بقلبه وشهد بلسانه ومات في الحال فهل هو في الجنة ؟ فلا بد أن يقول نعم ، وفيه حكم بوجود الإيمان دون العمل ، فنزيد ونقول لو بقي حيا حتى دخل عليه وقت صلاة واحدة فتركها ثم مات أوزنى ثم مات ، فهل يخلد في النار ؟ فإن قال نعم فهو مراد المعتزلة ، وإن قال لا فهو تصريح بأن العمل ليس ركنا من نفس الإيمان ولا شرطا في وجوده ولا في استحقات الجنة به ، وإن قال أردت به أن يعيش مدة طويلة ولا يصلي ولا يقدم على شيء من الأعمال الشرعية ، فنقول فما ضبط تلك المدة وما عدد تلك الطاعات التي بتركها يبطل الإيمان وما عدد الكبائر التي بارتكابها يبطل الإيمان ؟ وهذا لا يمكن التحكم بتقديره ولم يصر إليه صائر أصلا . الدرجة الرابعة : أن يوجد التصديق بالقلب قبل أن ينطق باللسان أو يشتغل بالأعمال ومات فهل نقول مات مؤمنا بينه وبين الله تعالى : وهذا مما اختلف فيه ومن شرط القول لتمام الإيمان يقول هذا مات قبل الإيمان وهو فاسد إذ قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان » ، وهذا قلبه طافح بالإيمان فكيف يخلد في النار ؟ ولم يشترط في حديث جبريل عليه السلام للإيمان إلا التصديق بالله تعالى رملائته وكتبه واليوم الآخر كما سبق . الدرجة الخامسة : أن يصدق بالقلب ويساعده من العمر مهلة الطق بكلمة الشهادة وعلم وحوها ولكنه لم ينطق بها فيحتمل أن يجعل امتناعه عن الطق كامتناعه عن الصلاة ، ويقول هو مؤمن غير يخلد في النار ، والإيمان هو التصديق المحض واللسان ترجمان الإيمان فلا بد أن يكون الإيمان موجودا بتمامه قبل اللسان حتى يترجمه اللسان وهذا هو الأظهر ؛ إذ لا مستند إلا اتباع موجب الالفاظ ووضع اللسان أن الإيمان هو عبارة عن التصديق بالقلب . وقد قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من كان في قلبه مثقال ذرة » ولا ينعدم الإيمان من القلب بالسكوت عن النطق الواجب كما لا ينعدم بالسكوت عن العمل الواجب ، وقال قائلون : القول ركن إذ ليس كلمتا الشهادة إخبارا عن القلب بل هو إنشاء عقد آخر وابتداء شهادة والتزام والأول أظهر ، وقد غلاني هذا طائفة المرجئة فقالوا هذا لا يدخل النار أصلا وقالوا إن المؤمن وإن عصي فلا يدخل النار وسنبطل ذلك عليهم . الدرجة السادسة أن يقول بلسانه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، ولكن لم يصدق بقلبه فلا نشك في أن هذا في حكم الآخرة من الكفار وأنه يخلد في النار ، ولا نشك في أنه في حكم الدنيا الذي يتعلق بالأئمة والولادة من المسلمين لأن قلبه لا يطلع عليه ، وعلمنا أن نؤمن به أنه ما قاله بلسانه إلا وهو منطوق عليه في قلبه وإنما نشك في أمر ثالث وهو الحكم الديني فيما بينه وبين الله تعالى ، وذلك أن يموت له في الحال قريب مسلم ثم يصدق بعد ذلك بقلبه ثم يستفتي ويقول كنت غير مصدق بالقلب حالة الموت والميراث الآن في يدي فهل يحل لي بيني وبين الله تعالى ؟ أو نكح مسلمة ثم صدق بقلبه هل تلتزمه إعادة النكاح ؟ هذا محل نظر فيحتمل أن يقال أحكام الدنيا منوطة بالقول الظاهر ظاهرا وباطنا ويحتمل أن يقال تناط بالظاهر في حق غيره لأن باطنه غير ظاهر لغيره وباطنه ظاهر له في نفسه بينه وبين الله تعالى ، والأظهر والعلم عند الله

(١) حديث « لا تكفروا أحدا إلا بمجود بما أقر به » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد « لن يخرج أحد من الإيمان إلا بمجود ما دخل فيه » وإسناده صحيح

تعالى أنه لا يحل له ذلك الميراث ويلزمه إعادة النكاح ولذلك كان حذيفة رضى الله عنه لا يحضر جنازة من يموت من المنافقين وعمر رضى الله عنه كان يراعى ذلك منه فلا يحضر إذا لم يحضر حذيفة رضى الله عنه ، والصلاة فعل ظاهر في الدنيا وإن كانت من العبادات . والتوقى عن الحرام أيضا من جملة ما يحب لله كالصلاة لقوله صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة بعد فريضة ، وليس هداما نقضاً لقولنا إن الإرث حكم الإسلام وهو الاستسلام بل الاستسلام التام هو ما يشمل الظاهر والباطن ، وهذه مباحث فقهية ظنية تنفى على طواهر الألفاظ والعمومات والأقيسة فلا ينبغي أن يطن القاصر في العلوم أن المطلوب فيه القطع من حيث حرث العادة بإيراده في فن الكلام الذى يطلب فيه القطع فما أطلع من نظر إلى العادات والمراسم في العلوم ؟ فإن قلت : فما شبهة المعتزلة والمرجئة وما حجة بطلان قولهم ؟ فأقول شبهتهم عمومات القرآن ؛ أما المرجئة فقالوا لا يدخل المؤمن النار وإن أتى بكل المعاصى لقوله عز وحل (فمن يؤمن بربه فلا يخاف بفسا ولا رهقا) ولقوله سبحانه وتعالى (والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون) الآية ولقوله تعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها - إلى قوله - فكذبنا وقلنا مانزل الله من شيء) فقوله (كلما ألقى فيها فوج) عام فينبغى أن يكون من ألقى في النار مكذبا ولقوله تعالى (لا يصلها إلا الأشتى الذى كذب وتولى) وهذا حصر وإثبات وبقي ولقوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون) فالإيمان رأس الحسنة ولقوله تعالى (والله يحب المحسنين) وقال تعالى (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) ولا حجة لهم في ذلك فإنه حبت ذكر الإيمان في هذه الآيات أريد به الإيمان مع العمل إذ يبيى أن الإيمان قد يطلق ويراد به الإسلام وهو الموافقة بالقلب والقول والعمل ، ودليل هذا التأويل أحبار كثيره في معاقبة العاصين ومقادير العقاب وقوله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » فكيف يخرج إذا لم بدخل ؟ ومن القرآن قوله تعالى (إن الله لا يعفر أن يشرك به ويفر ما دون ذلك لمن يشاء) والاستثناء بالمشيئة يدل على الانقسام وقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها) وتخصيصه بالكفر تحكم وقوله تعالى (ألا إن الظالمين في عذاب مقيم) وقال تعالى (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار) وهذه العمومات في معارضة عموماتهم ولا بد من تسليط التخصص والتأويل على الحائنين لأن الأخبار مصرحة بأن العصاة يعدبون ^(١) بل قوله تعالى (وإن منكم إلا واردها) كالصريح في أن ذلك لا بد منه للكل إذ لا يخلو مؤمن عن ذنب يرتكبه وقوله تعالى (لا يصلها إلا الأشتى الذى كذب وتولى) أراد به من جماعة مخصوصين أو أراد بالأشتى شخصا معينا أيضا وقوله تعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها) أى فوج من الكفار ، وتخصيص العمومات قريب ومن هذه الآية وقع للأشعرى وطائفة من المتكلمين إنكار صيغ العموم وأن هذه الألفاظ يتوقف فيها إلى ظهور فريضة تدل على معناها . وأما المعتزلة فسببهم قوله تعالى (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وقوله تعالى (والعصر إن الإنسان لئى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقوله تعالى (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) ثم قال (ثم تنجى الذين اتقوا) وقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم) وكل آية ذكر الله عز وجل العمل الصالح فيها مقرونا بالإيمان وقوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا جزاءه جهنم خالد فيها) وهذه العمومات أيضا مخصوصة بدليل قوله تعالى

(١) حديث : تعذيب العصاة . أخرجه البخارى من حديث أس « يصبى أقواما سبع من النار بدون أسابوها الحديث » ويأتى في ذكر الموت عدة أحاديث

(ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فينبغي فينبغي أن تبقى له مشيئة في مغفرة ماسوى الشرك . وكذلك قوله عليه السلام « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وقوله تعالى (إنا لانضيع أجر من أحسن عملا) وقوله تعالى (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) فكيف يضيع أجر أصل الإيمان وجميع الطاعات بمعصية واحدة ؟ وقوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) أى لإيمانه وقد ورد على مثل هذا السبب * فإن قلت : فقد مال الاختيار إلى أن الإيمان حاصل دون العمل . وقد اشتهر عن السلف قولهم : الإيمان عقد وقول وعمل ؛ فما معناه ؟ قلنا . لا يبعد أن يعد العمل من الإيمان لأنه مكمل له ومتمم كما يقال الرأس واليدان من الإنسان ومعلوم أنه يخرج عن كونه إنسانا بعدم الرأس ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد وكذلك يقال التسيحات والتكبيرات من الصلاة وإن كانت لا تبطل بفقدها فالتصديق بالقلب من الإيمان كالرأس من وجود الإنسان إذ ينعدم بعده وبقيّة الطاعات كالأطراف بعضها أعلى من بعض وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يرني الزاني حين يزني وهو مؤمن »^(١) ، والصحابة رضى الله عنهم ما اعتقدوا مذهب المعتزلة في الخروج عن الإيمان بالزنا ولكن معناه غير مؤمن حقا لإيماننا تاما كاملا كما يقال للعاجز المقطوع الأطراف هذا ليس بإنسان أى ليس له الكمال الذى هو وراء حقيقة الإنسانية

(مسألة) فإن قلت : فقد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص - يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية - فإذا كان التصديق هو الإيمان فلا يتصور فيه زيادة ولا نقصان ؟ فأقول : السلف هم الشهود العدول وما لأحد عن قولهم عدول فما ذكره حق وإنما الشأن في فهمه ، وفيه داليل على أن العمل ليس من أجزاء الإيمان وأركان وجوده بل هو مزيد عليه يزيد به والزائد موحود والناقص موجود والشئ لا يزيد بذاته ، فلا يجوز أن يقال الإنسان يزيد برأسه بل يقال يزيد بلحيته وسمته ، ولا يجوز أن يقال الصلاة تزيد بالركوع والسجود بل تزيد بالآداب والسنن فهذا تصريح بأن الإيمان له وجود ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان * فإن قلت : فالإشكال قائم في أن التصديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة ؟ فأقول : إذا تركنا المداينة ولم نكثر بثغيب من تشعب وكشفنا الغطاء ارتفع الإشكال فنقول : الإيمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه الأول : أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وإشراح صدر وهو إيمان العوام بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص ، وهذا الاعتقاد عقدة عن القلب تارة تشد وتقوى وتارة تضعف وتسترخى كالعقدة على الحائط مثلا . ولا تستبعد هذا واعتبره باليهودى وصلابته في عقيدته التى لا يمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ولا بتخييل ووعظ ولتحقيق وبرهان وكذلك النصرانى والمبتدعة وفيهم من يمكن تشكيكه بأذى كلام ويمكن استنزاه عن اعتقاده بأذى استمالة أو تخويف مع أنه غير شاك في عقده كالأول ولكنهما متفاوتان في شدة التصميم . وهذا موجود في الاعتقاد الحق أيضا والعمل يؤثر في نماء هذا التصميم وزيادته كما يؤثر سقى الماء في نماء الأشجار ولذلك قال الله تعالى (فزادهم إيمانا) وقال تعالى (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) وقال صلى الله عليه وسلم فيما يروى في بعض الأخبار « الإيمان يزيد وينقص »^(٢) ، وذلك بتأثير الطاعات في القلب وهذا لا يدركه إلا من راقب أحوال نفسه في أوقات المواظبة على العبادة والتحرّد لها بحضور القلب مع أوقات الفتور وإدراك التفاوت في السكون إلى عقائد الإيمان في هذه الأحوال حتى يزيد عقده استعصاء على من يريد حله بالتشكيك بل من يعتقد في اليتيم معنى الرحمة إذا عمل بموجب اعتقاده فمسح رأسه وتلف به أدرك

(١) حديث « لا يرني الزاني حين يزني وهو مؤمن » متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث « الإيمان يزيد وينقص » أخرجه ابن عدى في السكامل وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أبي هريرة وقال ابن عدى باطل فيه محمد بن أحمد بن حرب الملحى يمتد الكذب وهو عند ابن مناجه موقوف على أبي هريرة وابن عباس وأبي الدرداء

من باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل : وكذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجبه عملاً مقبلاً أو ساجداً لغيره أحسن من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة . وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ثم يعود أثر الأعمال عليها فيؤكدها ويزيدها ، وسيأتى هذا في ربيع المنجيات والمهلكات عند بيان وجه تعلق الباطن بالظاهر والأعمال بالعقائد والقلوب فإن ذلك من جنس تعلق الملك بالملكوت وأعنى بالملك عالم الشهادة المدرك بالحواس وبالملكوت عالم الغيب المدرك بنور البصيرة والقلب من عالم الملكوت والأعضاء وأعمالها من عالم الملك . ولطف الارتباط ودقته بين العالمين انتهى إلى حد ظن بعض الناس اتحاد أحدهما بالآخر وظن آخرون أنه لا عالم إلا عالم الشهادة وهو هذه الأجسام المحسوسة . ومن أدرك الأمرين وأدرك تعددهما ثم ارتباطهما عبر عنه فقال :

رق الزجاج و رقت الخمر وتشابهها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

ولنرجع إلى المقصود فإن هذا العلم خارج عن علم المعاملة ولكن بين العبد أيضاً اتصال وارتباط فذلك ترى علوم المكاشفة تتسلق كل ساعة على علوم المعاملة إلى أن تتكشف عنها بالتكليف فهذا وجه زيادة الإيمان بالطاعة بموجب هذا الإطلاق ، ولهذا قال على كرم الله وجهه : إن الإيمان ليبدو لمعة بيضاء فإذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت حتى يبيض القلب كله وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء فإذا انتهك الحرامات نمت وزادت حتى يسود القلب كله فيطبع عليه فذلك هو الختم وتلا قوله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم) الآية . الإطلاق الثانى : أن يراد به التصديق والعمل جميعاً كما قال صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون باباً »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » ، وإذا دخل العمل في مقتضى لفظ الإيمان لم تخف زيادته ونقصانه وهل يؤثر ذلك في زيادة الإيمان الذى هو مجرد التصديق ؟ هذا فيه نظر وقد أشرنا إلى أنه يؤثر فيه . الإطلاق الثالث : أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف والنشراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة ولكنى أقول الأمر اليقيني الذى لا شك فيه يختلف طمأنينة النفس إليه فليس طمأنينة النفس إلى أن الاثنين أكثر من الواحد كطمأنينتها إلى أن العالم مصنوع حادث وإن كان لا شك في واحد منهما فإن اليقينيات تختلف في درجات الإيضاح ودرجات طمأنينة النفس إليها ، وقد تعرضنا لهذا في فصل اليقين من كتاب العلم في باب علامات علماء الآخرة فلا حاجة إلى الإعادة . وقد ظهر في جميع الإطلاقات أن ما قالوه من زيادة الإيمان ونقصانه حق وكيف وفى الأخبار « أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » ، وفى بعض المواضع فى خبر آخر « مثقال دينار »^(٢) ، فأى معنى لاختلاف مقاديره إن كان ما فى القلب لا يتفاوت ؟

(مسألة) فإن قلت : ما وجه قول السلف « أنا مؤمن إن شاء الله » والاستثناء شك والشك فى الإيمان كفر وقد كانوا كلهم يمتنعون عن جزم الجواب بالإيمان ويحتزون عنه . فقال سفيان الثوري رحمه الله ، من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين ومن قال أنا مؤمن حقاً فهو بدعة ، فكيف يكون كاذباً وهو يعلم أنه مؤمن فى نفسه ومن كان مؤمناً فى نفسه كان مؤمناً عند الله ؟ كما أن من كان طويلاً وسخياً فى نفسه وعلم ذلك كان كذلك عند الله وكذا من

(١) حديث « الإيمان بضع وسبعون باباً » وذكر بعد هذا فزاد فيه « أدناها لماعة الأذى عن الطريق » أخرجه البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة « الإيمان بضع وسبعون » زاد مسلم فى رواية « وأصلها قول لا اله الا الله وأدناها « صدركه ورواه بلفظ المصنف الترمذى وصححه . (٢) حديث « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال دينار » متفق عليه من حديث أبى سعيد ، وسيأتى ذكر الموت وما بعده

كان مسرورا أو حزينا أو سميما أو بصيرا ، ولو قيل للإنسان هل أنت حيوان : لم يحسن أن يقول أنا حيوان إن شاء الله . ولما قال سفيان ذلك قيل له فاذا تقول ؟ قال : قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وأى فرق بين أن يقول آمنا بالله وما أنزل إلينا وبين أن يقول آمنا مؤمن ؟ وقيل للحسن : أمؤمن أنت ؟ فقال إن شاء الله ، فقيل له : لم تستثنى يا أبا سعيد في الإيمان ؟ فقال أخاف أن أقول نعم فيقول الله سبحانه كذبت يا حسن فتحق على الكلمة . وكان يقول : ما يؤمننى أن يكون الله سبحانه قد اطلع على بعض ما يكره ففتنى وقال اذهب لا قبلت لك عملا ؛ فأنا أعمل في غير معمول . وقال إبراهيم بن آدم : إذا قيل لك أمؤمن أنت ؟ فقل لا إله إلا الله وقال مرة : قل أنا لا أشك في الإيمان وسؤالك إياي بدعة . وقيل لعقمة : أمؤمن أنت ؟ قال : أرجو إن شاء الله . وقال الثوري : نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وما ندرى ما نحن عند الله تعالى ؟ فاعنى هذه الاستثناءات ؟ فالجواب : أن هذا الاستثناء صحيح وله أربعة أوجه ؛ وجهان مستندان إلى الشك لا في أصل الإيمان ولكن في غايته أو كاله ، وجهان لا يستندان إلى الشك . الوجه الأول - الذى لا يستند إلى معارضة الشك : الاحتراز من الحزم خيفة ما فيه من تزكية النفس قال الله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) وقال (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) وقال تعالى (انظر كيف يفترون على الله الكذب) وقيل للحكيم : ما الصدق القبيح : فقال : ثناء المرء على نفسه . والإيمان من أعلى صفات المجد والجزم تزكية مطلقة وصيغة الاستثناء كأنها ثقل من عرف التزكية ، كما يقال للإنسان أنت طيب أو فقيه أو مفسر ؟ فيقول : نعم إن شاء الله ، لا في معرض التشكيك ولكن لإخراج نفسه عن تزكية نفسه فالصيغة صيغة التردد والتضعيف لنفس الخبر ومعناه التضعيف للزم من لوازم الخبر وهو التزكية . وبهذا التأويل لو سئل عن وصف ذم لم يحسن الاستثناء . الوجه الثاني : التأدب بذكر الله تعالى في كل حال وإحالة الأمور كلها إلى مشيئة الله سبحانه فقد أدب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى (ولا تقوان لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) ثم لم يقتصر على ذلك فيما لا يشك فيه بل قال تعالى (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين وموسم ومقصرين) وكان الله سبحانه عالما بأنهم يدخلون لا محالة وأنه شاهده ولكن المقصود تعليمه ذلك فتأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم في ما كان يخبر عنه معلوما كان أو مشكوكا حتى قال صلى الله عليه وسلم لما دخل المقابر : السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإننا إن شاء الله بكم لاحقون ^(١) ، والحق بهم غير مشكوك فيه ولكن مقتضى الأدب ذكر الله تعالى وربط الأمور به . وهذه الصيغة دالة عليه حتى صار يعرف الاستعمال عبارة عن إظهار الرغبة والتنى ، فإذا قيل لك إن فلانا يموت سريعا فتقول إن شاء الله فيفهم منه رغبتك لا تشككك ، وإذا قيل لك فلان سيزول مرضه ويصح فتقول إن شاء الله بمعنى الرغبة فقد صارت الكلمة معدولة عن معنى التشكيك إلى معنى الرغبة وكذلك العدول إلى معنى التأدب لذكر الله تعالى كيف كان الأمر : الوجه الثالث : مستنده الشك ومعناه أنا مؤمن حقا إن شاء الله ، إذ قال الله تعالى لقوم مخصوصين بأعيانهم (أولئك هم المؤمنون حقا) فانقسموا إلى قسمين ويرجع هذا إلى الشك في كمال الإيمان لا في أصله ، وكل إنسان شاك في كمال إيمانه وذلك ليس بكفر . والشك في كمال الإيمان حق من وجهين ؛ أحدهما : من حيث إن النفاق يزيل كمال الإيمان وهو خفى لا يتحقق البراءة منه . والثاني : أنه يكمل بأعمال الطاعات ولا يدرى وجودها على الكمال : أما العمل فقد قال الله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) فيكون

(١) حديث « لما دخل المقابر قال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة

الشك في هذا الصدق وكذلك قال الله تعالى ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والنبين﴾ فشرط عشرين وصفا كالوفاء بالعهد والصبر على الشدائد . ثم قال تعالى ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ وقد قال تعالى ﴿يرفع الله الدين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ وقال تعالى ﴿لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ الآية وقد قال تعالى ﴿هم درجات عند الله﴾ وقال صلى الله عليه وسلم «الإيمان عريان وبإسائه التقوى»^(١) ، الحديث وقال صلى الله عليه وسلم «الإيمان يضع وسبعون بابا أدناها إماطة الأذى عن الطريق» ، فهذا ما يدل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الحق فقوله صلى الله عليه وسلم «أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن : من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وإذا خاصم فجر»^(٢) ، وفي بعض الروايات «وإذا عاهد غدر» ، وفي حديث أبي سعيد الخدري «القلوب أربعة : قلب أجرد وفيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فقل الإيمان فيه كمثل البقلة يدها الماء العذب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يدها القيح والصديد فأى المسادين غلب عليه حكم له بها»^(٣) ، وفي لفظ آخر «غلبت عليه ذهبت به» وقال عليه السلام «أكثر منافق هذه الأمة قراؤها»^(٤) ، وفي حديث «الشرك أخفى في أمتي من ديب البهل على الصفا»^(٥) ، وقال حذيفة رضى الله عنه «كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا إلى أن يموت وإنى لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات»^(٦) ، وقال بعض العلماء : أقرب الناس من النفاق من يرى أنه برىء من النفاق . وقال حذيفة : المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فكانوا إذ ذاك يحمونه وهم اليوم يظهرونه وهذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكأله وهو خفي وأبعد الناس منه من يتخوفه وأقربهم منه من يرى أنه برىء منه . فقد قيل للحسن البصرى : يقولون أن لا نفاق اليوم فقال يا أخى لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطريق . وقال هو أو غيره : لو نبئت للمنافقين أذنان ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا . وسمع ابن عمر رضى الله عنه رجلا يتعرض للحجاج فقال : أرايت لو كان حاضرا يسمع أكنت تتكلم فيه ؟ فقال : لا ، فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال صلى الله عليه وسلم «من كان ذا لسانين في الدنيا جعله الله ذا لسانين في الآخرة» ، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم «شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه ويأتى هؤلاء بوجه» ، وقيل للحسن : لمن قوما يقولون إنا لا نخاف النفاق ، فقال : والله لأن أكون أعلم أى برىء من النفاق أحب إلى من تلأع الأرض ذهباً . وقال الحسن : إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب ، والسر والعلائية ، والمدخل والمخرج . وقال رجل لحذيفة رضى الله عنه : إنى أخاف أن أكون منافقا ، فقال : لو كنت منافقا ما خفت النفاق إن المنافق قد أمن النفاق . وقال ابن أبي مليكة : أدركت

(١) حديث «الإيمان عريان» تقدم في العلم (٢) حديث «أربع من كن فيه فهو منافق» .. الحديث «متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو» (٣) حديث «القلوب أربعة : قلب أجرد .. الحديث» أخرجه أحمد من حديث أبي سعيد وفيه لث ابن أبي سليم مختلف فيه (٤) حديث «أكثر منافق هذه الأمة قراؤها» أخرجه أحمد والطبراني من حديث عتبة بن عامر (٥) حديث «الشرك أخفى في أمتي من ديب البهل على الصفا» أخرجه أبو يعل وابن عدى وابن حبان في الصفاء من حديث أبي بكر وأحمد والطبراني نحوه من حديث أبي موسى ، وسيأتى في ذم الجاه والرياء (٦) حديث حذيفة «كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا» الحديث أخرجه أحمد بإسناد فيه جهالة ، وحديث حذيفة «المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الحديث» أخرجه البخاري إلا أنه قال (شر) بدل أكثر (٧) حديث «سمع ابن عمر رجلا يتعرض للحجاج فقال أرايت لو كان حاضرا أكنت تتكلم فيه قال لا قال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم» رواه أحمد والطبراني نحوه وليس فيه ذكر الحجاج .

ثلاثين ومائة - وفي رواية خمسين ومائة - من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخافون النفاق . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً في جماعة من أصحابه فذكروا رجلاً وأكثروا الثناء عليه فينبأهم كذلك إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء وقد علق نعله بيده وبين عينيه أثر السجود فقالوا : يا رسول الله هو هذا الرجل الذي وصفناه ، فقال صلى الله عليه وسلم : أرى على وجهه سقعة من الشيطان ، جاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : نشدتك الله هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك ؟ فقال : اللهم نعم ^(١) ، فقال صلى الله عليه وسلم في دعائه : اللهم إني أستغفرك لما علمت ولم أعلّم ، فقيل له : أتخاف يا رسول الله ؟ فقال : وما يؤمنني والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ! وقد قال سبحانه (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) ^(٢) ، قيل في التفسير : عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنة فكانت في كفة السيئات . وقال سري السقطي : لو أن إنساناً دخل بستاناً فيه من جميع الأشجار عليها من جميع الطيور فخطبه كل طير منها بلغة ؛ فقال : السلام عليك يا ولي الله ، فسكنت نفسه إلى ذلك كان أسيراً في يديها هذه الأخبار والآثار تعرفك خطر الأمر بسبب دفاق النفاق والشرك الخفي وأنه لا يؤمن منه حتى كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذكر في المنافقين ؟ وقال أبو سليمان الداراني : سمعت من بعض الأمراء شيئاً فأردت أن أنكره فخفت أن يأمر بقتلي ولم أخف من الموت ولكن خشيت أن يعرض لقلبي التزين للخلق عند خروج روحى فكففت . وهذا من النفاق الذي يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكأله وصفاه لأصله . فالنفاق نفاقان ، أحدهما : يخرج من الدين ويلحق بالكافرين ويسلك في زمرة المخلدين في النار . والثاني : ينفى بصاحبه إلى النار مدة أو ينقص من درجات عليين ويحط من رتبة الصديقين وذلك مشكوك فيه ولذلك حسن الاستثناء فيه . وأصل هذا النفاق تفاوت بين السر والعلانية ، والأمن من مكر الله ، والعجب ، وأمور آخر لا يخلو عنها إلا الصديقون . الوجه الرابع : وهو أيضاً مستند إلى الشك وذلك من خوف الخاتمة فإنه لا يدري أي سلم له الإيمان عند الموت أم لا ؟ فإن حتم له بالكفر حبط عمله السابق لأنه موقوف على سلامة الآخر ، ولو سئل الصائم ضحوة النهار عن صحة صومه فقال : أنا صائم قطعاً ، فلو أفطر في أثناء نهاره بعد ذلك لتبين كذبه إذ كانت الصحة موقوفة على انقضاء إلى غروب الشمس من آخر النهار . وكما أن النهار ميقات تمام الصوم فالعمر ميقات تمام صحة الإيمان ووصفه بالصحة قبل آخره بناء على الاستصحاب وهو مشكوك فيه ، والعاقبة مخوفة ولاجلها كان بكاء أكثر الخائمين لأجل أنها ثمرة القضية السابقة والمشيئة الأزلية التي لا تظهر إلا بظهور المقضي به ولا مطلع عليه لأحد من البشر ، فحرف الخاتمة كخوف السابقة وربما يظهر في الحال ماسبق الكلمة بنقيضه ، فمن الذي يدري أنه من الذين سبقت لهم من الله الحسنى ؟ وقيل في معنى قوله تعالى (وجاءت سكرة الموت بالحق) أي بالسابقة يعني أظهرتها . وقال بعض السلف : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها . وكان أبو الدرداء رضى الله عنه يحلف بالله ما من أحد يأمن أن يسلب إيمانه إلا سلبه . وقيل من الذنوب ذنوب عقوبتها سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك . وقيل هي عقوبات دعوى الولاية والكرامة بالافتراء . وقال بعض العارفين : لو عرضت على الشهادة عند باب الدار والموت على التوحيد

(١) حديث « كان جالساً في جماعة من أصحابه فذكروا رجلاً أكثروا الثناء عليه » وإنما هم كذلك إذ طلع رجل عليهم ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء .. الحديث « أخرجه أحمد والبخاري والدارقطني من حديث أسد (٢) حديث « اللهم إني أستغفرك لما علمت وما لم أعلم .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة « اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل » ولأبي بكر بن الضحاك في الصائغ في حديث مرسل « وشر ما أعلم وشر ما لا أعلم »

عند باب الحجرة لاحترت الموت على التوحيد عند باب الحجرة لأنى لأدرى ما يعرض لقلبي من التغيير عن التوحيد إلى باب النار ؟ وقال بعضهم : لو عرفت واحدا بالتوحيد خمسين سنة ثم حال بيني وبينه سارية ومات لم أحكم أنه مات على التوحيد . وفى الحديث « من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل ^(١) » ، وقيل فى قوله تعالى (وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا) صدقا لم مات على الإيمان وعدلا لم مات على الشرك وقد قال تعالى (والله عاقبة الأمور) فهما كان الشك بهذه المثابة كان الاستثناء واجبا لأن الإيمان عبارة عما يفيد الجنة كما أن الصوم عبارة عما يبرئ الذمة وما فسد قبل الغروب لا يبرئ الذمة فيخرج عن كونه صوما فكذلك الإيمان بل لا يبعد أن يسأل عن الصوم الماضى الذى لا يشك فيه بعد الفراغ منه فيقال أصمت بالأمس ؟ فيقول نعم إن شاء الله تعالى إذ الصوم الحقيقى هو المقبول والمقبول غائب عنه لا يطلع عليه إلا الله تعالى فمن هذا حسن الاستثناء فى جميع أعمال البر ويكون ذلك شكافى القبول ، إذ يمنع من القبول بعد جريان ظاهر شروط الصحة أسباب خفيفة لا يطلع عليها إلا الرب الأرباب جل جلاله فيحس الشك فيه . فهذه وجوه حسن الاستثناء فى الجواب عن الإيمان وهى آخر ما نتختم به « كتاب قواعد العقائد » تم الكتاب بحمد الله تعالى وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى

كتاب أسرار الطهارة

وهو الكتاب الثالث من ربح العبادات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تطف بعباده فتعبد بهم بالنظافة ، وأفاض على قلوبهم تركية لسرايرهم وأواردهم وأعطاهم وأعطاهم تطهيرا لها الماء المخصوص بالركة واللطف ، وصلى الله على النبي محمد المستغرق بنور الهدى أطراف العالم وأكتافه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين صلاة تنجينا بركاتها يوم المخافة ، وتلتصب جنة بيننا وبين كل آفة . أما بعد . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « بنى الدين على النظافة ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « مفتاح الصلاة الطهور ^(٣) » ، وقال الله تعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « الطهور نصف الإيمان ^(٤) » ، وقال الله تعالى (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم) فتفتطن ذوو البصائر بهذه الطواهر أن أهم الأمور تطهير السرائر إذ يبعد أن يكون المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « الطهور نصف الإيمان » عبارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء وإلقائه وتحريب الباطن وإبقائه مشحونا بالأخبار والآثار هيات

(١) حديث « من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل » أخرجه الطبراني فى الأوسط بالشرط الأخير منه من حديث ابن عمر وفيه ليث بن أبي سليم تقدم ، والشرط الأول روى من قول يحيى بن أنس كثير رواه الطبراني فى الأسر بلطف « من قال أنا فى الجنة فهو فى النار » وسنده صحيح

كتاب الطهارة

(٢) حديث (بنى الدين على النظافة) لم أجده هكذا ، وفى الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة (تنظفوا فان الاسلام نظيف) والطبراني فى الأوسط بسند ضعيف جدا من حديث ابن مسعود (النظافة تدعوا إلى الايمان) (٣) حديث (مفتاح الصلاة الطهور) أخرجه د ت ه من حديث على ، قال الترمذى : هذا أصح شيء فى هذا الباب وأحد (٤) حديث (الطهور نصف الإيمان) أخرجه ت من حديث رجل من بني سليم وقال ، حسن ، رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعرى بلطف (شطر) كما فى الإحياء

ميهات ١ والطهارة لها أربع مراتب (المرتبة الأولى) تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات (المرتبة الثانية) تطهير الجوارح عن الحرائم والآثام (المرتبة الثالثة) تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والذائل الممقوتة (المرتبة الرابعة) تطهير السر عما سوى الله تعالى وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصدّيقين ، والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها فإن الغاية القصوى في عمل السر أن يتكشف له جلال الله تعالى وعظمته وإن تحول معرفة الله تعالى بالحقيقة في السر مالم يرتحل ماسوى الله تعالى عنه . ولذلك قال الله عز وجل (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) لأنهما لا يجتمعان في قلب (وما جعل الله لرجل في دلبين في جوفه) وأما عمل القلب فالغاية القصوى عمارته بالأخلاق المحمودة والعقائد المشروعة وإن ينصف بها مالم يطف عن نقائصها من العقائد الفاسدة والذائل الممقوتة ، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذي هو شرط في الثاني فكان الطهور شرط الإيمان بهذا المعنى ، وكذلك تطهير الجوارح عن المناهي أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذي هو شرط في الثاني ، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول وعمارته بالطاعات الشطر الثاني وهذه مقامات الإيمان ولكل مقام طبقة ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يجاوز الطبقة السافلة ، فلا يصل إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودة مالم يفرغ عن طهارة القلب عن الخلق المدموم وعمارته بالخلق المحمود ، وإن يصل إلى ذلك من لم يفرغ عن طهارة الجوارح عن المناهي وعمارته بالطاعات ، وكلما عن المطلوب وشرف صعب مسلكه وطال طريقه وكثرت عقباته فلا تطل أن هذا الأمر يدرك وينال بالهويني ، نعم من عميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات لم يفهم من مراتب الطهارة إلا الدرحة الأخيرة التي هي كالقشرة الأخيرة الظاهرة بالإضافة إلى اللب المطلوب ، فصار يعمى فيها ويستقصي في مجاريها ويستوعب جميع أوقاته في الاستنجاء وغسل الثياب وتنظيف الظاهر وطلب المياه الجارية الكثيرة ظناً منه بحكم الوسوسة وتخيل العقل أن الطهارة المطلوبة الشريفة هي هذه فقط وجهالة بسيرة الأقولين واستغراقهم جميع الهم والفكر في تطهير القلب وتساهلهم في أمر الظاهر ، حتى إن عمر رضي الله عنه مع علو منصبه تواضعاً من ماء في جرّة نصرانية ، وحتى إنهم ما كانوا يغسلون اليدين الدسومات والأطعمة بل كانوا يمسحون أصابعهم بأحصى أقدامهم وعدوا الأشتان من البدع المحدثّة ، ولقد كانوا يصلون على الأرض في المساجد ويمشون حفاة في الطرقات ، ومن كان لا يجعل بينه وبين الأرض حاجزاً في مضجعه كان من أكابرهم ، وكانوا يقتصرون على الحجارة في الاستنجاء . وقال أبو هريرة وغيره من أهل الصفة : « كما نأكل الشواء فتقام الصلاة فندخل أصابعنا في الحصى ثم نفرّكها بالتراب وبكبر »^(١) ، وقال عمر رضي الله عنه : « ما كنا نعرف الأشتان في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كانت ماديلاً بطون أرجلنا »^(٢) « كنا إذا أكلنا الغمر مسحنا بها ، ويقال أول ما ظهر من الدع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع : المناخل والأشتان والموائد والشبع . فكانت عنايتهم كلها بنظافة الباطن حتى قال بعضهم : الصلاة في النعلين أفضل » لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزع نعليه في صلاته بإحبار جبريل عليه السلام له أن بهما نجاسة وخلع الناس نعالهم قال صلى الله عليه وسلم لم خلعتن نعالكم^(٣) ، وقال النخعي في الذين يحلعون نعالهم : « وددت لو أن محتاجاً جاء إليها فأخذها » منكراً لخلع النعال . فهكذا كان تساهلهم في هذه الأمور بل كانوا يمشون في طين الشوارع حفاة ويجلسون عليها ويصلون

(١) حديث « كنا نأكل الشواء فتقام الصلاة فندخل أصابعنا في الحصى » .. الحديث) أخرجه . من حديث عبد الله بن الحارث ابن جزء ولم أره من حديث أبي هريرة (٢) حديث عمر (ما كنا نعرف الأشتان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما كانت ماديلاً باطن أرجلنا .. الحديث) لم أجده من حديث عمر ولا بن ماجه نحوه مختصراً من حديث جابر (٣) حديث (خلع نعليه في الصلاة إذ أخبره جبريل عليه الصلاة والسلام أن عليه نجاسة) أخرجه ذلك وصححه من حديث أبي سعيد الخدري

في المساجد على الأرض، وبأكلون من دقيق البر والشعير وهو يداس بالدواب وتبول عليه، ولا يحتزون من عرو الإبل والحيل مع كثرة تمرغها في التجاسات، ولم ينقل قط عن أحد منهم سؤال في دقائق التجاسات فكذا كان تساهلهم فيها. وقد انتهت التوبة الآن إلى طائفة يسمون الرعونة نظافة فيقولون هي مبنى الدين فأكثر أوقاتهم في ترينهم الطواهر، كفعل الماشطة بعروسها والباطن خراب متحون بخبائث الكبر والعجب والجهل والرياء والنفاق ولا يستكرون ذلك ولا يتعجبون منه! ولو اقتصر مقتصر على الاستنجاء بالحجر أو مشى على الأرض حافياً أو صلى على الأرض أو على بوارى المسجد من غير سجادة مفروشة أو مشى على الفرش من غير غلاف للقدم من آدم أو ترضاً من آنية عجوز أو رحل غير متكشف أقاموا عليه القيامة وشدوا عليه الكبر ولقيوه بالقدر وأخرجوه من زميرتهم واستكفوا عن مؤاكلته ومخالطته. فسموا البذاذة التي هي من الإيمان قذارة والرعونة نظافة فانظر كيف صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً! وكيف اندرس من الدين رسمه كما اندرس حقيقته وعلمه * فإن قلت: أقول إن هذه العادات التي أحدثها الصوفية في هيئاتهم ونظافتهم من المحظورات أو المنكرات؟ فأقول حاش لله أن أطلق القول فيه من غير تفصيل ولكي أقول إن هذا التطيف والتكلف وإعداد الآواني والآلات واستعمال غلاف القدم والإزار المنقوع به لدفع العبار وغير ذلك من هذه الأسباب إن وقع النظر إلى ذاتها على سبيل التجرد فهي من المباحات وقد يقرن بها أحوال ونيات تلحقها تارة بالمعروفات وتارة بالمنكرات، فأما كونها مباحة في نفسها فلا ينبغي أن صاحبها متصرف بها في ماله وبدنه وثيابه فيفعل بها ما يريد إذا لم يكن فيه إصاعة وإسراف، وأما مصيرها منكراً فبأن يحمل ذلك أصل الدين ويفسر به قوله صلى الله عليه وسلم « بنى الدين على الطائفة » حتى ينكر به على من يتساهل فيه الأولين أو يكون القصد به ترين الظاهر للخلق وتحسين موقع نظرهم، فإن ذلك هو الرياء المحطور فيصير منكراً بهذين الاعتبارين، أما كونه معروفاً فبأن يكون القصد منه الخير دون التزين وأن لا ينكر على من ترك ذلك ولا يؤخر بسببه الصلاة عن أوائل الأوقات ولا يستغل به عن عمل هو أفضل منه أو عن علم أو غيره، فإذا لم يقرن به شيء من ذلك فهو مباح يمكن أن يحمل قرينة بالنية ولكن لا يتيسر ذلك إلا للباطلين الذين لو لم يشتغلوا بصرف الأوقات فيه لاشتغلوا بنوم أو حديث فيما لا يعنى فيصير شغلهم به أولى لأن الاشتغال بالطهارات يحدد ذكر الله تعالى وذكر العبادات فلا يأس به إذا لم يخرج إلى منكر أو إسراف. وأما أهل العلم والعمل فلا ينبغي أن يصرفوا من أوقاتهم إليه إلا قدر الحاجة فالزيادة عليه منكر في حقهم وتضييع العمر الذي هو أنفس الحواهر وأعزها في حق من قدر على الإنتفاع به. ولا يتعجب من ذلك فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين. ولا ينبغي للبطل أن يترك النظافة وينكر على المصنوفة ويزعم أنه يتشبه بالصحابة إذ التشبه بهم في أن لا يتفرد إلا لما هو أهم منه، كما قيل لداود الطائي لم لا تسرح لحيتك؟ قال: إني إذ ذل لفارغ. فلهذا لا أرى للعالم ولا للتعلم ولا للعامل أن يضع وقته في غسل الثياب إحترافاً من أن يلبس الثياب المقصورة وتوهمها بالقصر تقصيراً في الغسل! فقد كانوا في العصر الأول يصلون في الفراء المدبوغة ولم يعلم منهم من فرق بين المقصورة والمدبوغة في الطهارة والتجاسة، بل كانوا يجتنبون النجاسة إذا شاهدوها ولا يدققون نظرم في استنباط الاحتمالات الدقيقة، بل كانوا يتأملون في دقائق الرياء والظلم حتى قال سفيان الثوري لرفيق له كان يمشی معه فنظر إلى باب دار مرفوع معمر: لا تفعل ذلك فإن الناس لو لم ينظروا إليه لكان صاحبه لا يتعاطى هذا الإسراف. فالناظر إليه معين له على الإسراف. فكانوا يعدون جوامع الذهن لاستنباط مثل هذه الدقائق لا في احتمالات التجاسة. فلو وجد العالم عامياً

يتعاطى له غسل الثياب محتاطاً فهو أفضل فإنه بالإضافة إلى التساهل خير . وذلك العامى ينتفع بتعاطيه إذ يشغل نفسه الأمانة بالسوء بعمل المباح في نفسه فيمتنع عليه المعاصى في تلك الحال . والنفس إن لم تشغل بشيء شغلت صاحبها وإذا قصد به التقرب إلى العالم صار ذلك عنده من أفضل القربات . فوقت العالم أشرف من أن يصرفه إلى مثله فيبقى محفوظاً عليه ، وأشرف وقت العامى أن يشتغل بمثله فيتوفر الخير عليه من الجوانب كلها . وليتفطن بهذا المثل لنظائره من الأعمال وترتيب فضائلها ووجه تقديم البعض منها على بعض ، فتدقيق الحساب في حفظ لحظات العمر بصرفها إلى الأفضل أهم من التدقيق في أمور الدنيا بخلافها . وإذا عرفت هذه المقدمة واستبنت أن الطهارة لها أربع مراتب . فاعلم أنا في هذا الكتاب لسنا نتكلم إلا في المرتبة الرابعة وهى نظافة الظاهر لأننا في الشطر الأول من الكتاب لا نتعرض قصداً إلا للظواهر . فنقول طهارة الظاهر ثلاثة أقسام : طهارة عن الخبث وطهارة عن الحدث وطهارة عن فضلات البدن ، وهى التى تحصل بالقلم والاستحداد واستعمال التورة والختان وغيره .

القسم الأول : في طهارة الخبث ، والنظر فيه يتعلق بالمزال والمزال به والإزالة الطرف الأول في المزال

وهى النجاسة . والأعيان ثلاثة : جمادات وحيوانات وأجزاء حيوانات أما الجمادات فطاهرة كلها إلا الخروكل منتبذ مسكر ، والحيوانات طاهرة كلها إلا الكلب والخنزير وما تولد منهما أو من أحدهما . فإذا ماتت فكلها نجسة إلا خمسة : الآدمى والسملك والجراد ودود التفاح - وفى معناه كل ما يستحيل من الأطعمة - وكل ما ليس له نفس سائلة كالذباب والخنافس وغيرهما فلا ينجس الماء بوقوع شيء منها فيه . وأما أجزاء الحيوانات فمقسم ، أحدهما : ما يقطع منه وحكه حكم الميت . والشعر لا ينجس بالجزء ، والموت والعظم ينجس . الثانى : الرطوبات الخارجة من باطنه فكل ما ليس مستحيلاً ولا له مقر فهو طاهر كالدمع والعرق واللحاب والخط ، وما له مقر وهو مستحيل فنجس ، إلا ما هو مادة الحيوان كالمني والبيض ، والقبح والدم والروث والبول نجس من الحيوانات كلها . ولا يعنى عن شيء من هذه النجاسات قليلها وكثيرها إلا عن خمسة ، الأول : أثر التجو بعد الاستحمام بالأحجار يعنى عنه ما لم يعد المخرج والثانى : طين الشوارع وغار الروث فى الطريق يعنى عنه مع تيقن النجاسة بقدر ما يتعدى الاحتراز عنه ، وهو الذى لا ينسب المتلطح به إلى تفريط أو سقطة . الثالث : ما على أسفل الحف من نجاسة لا يخلو الطريق عنها فيعنى عنه بعد الدلك للحاجة : الرابع : دم البراغيث ما قل منه أو كثر إلا إذا جاوز حد العادة سواء كان فى ثوبك أو فى ثوب غيرك فلبسته . الخامس : دم البثرات وما ينفصل منها من قيح وصيد . وذلك ابن عمر رضى الله عنه بثره على وجهه فخرج منها الدم وصلى ولم يغتسل . وفى معناه ما يترشح من لطخات الدماميل التى تدوم غالباً وكذلك أثر الفصد إلا ما يقع نادراً من خراج أو غيره فيلحق بدم الاستحاضة ، ولا يكون فى معنى البثرات التى لا يخلو الإنسان عنها فى أحواله . ومساحة الشرع فى هذه النجاسات الخمس تعرفك أن أمر الطهارة على التساهل وما ابتدع فيها وسوسة لا أصل لها .

الطرف الثانى : فى المزال به

وهو إما جامد وإما مائع ؛ أما الجامد فحجر الاستحذاء وهو مطهر تطهير تخفيف بشرط أن يكون صلباً طاهراً منشفاً غير محترم ، وأما المائعات فلا تزال النجاسات بشيء منها إلا الماء ؛ ولا كل ماء بل الطاهر الذى لم يتغاشح

تغيره بمخالطة ما يستغنى عنه . ويخرج الماء عن الطهارة بأن يتغير بملاقاة النجاسة طعمه أو لونه أو ريحه . فإن لم يتغير وكان قريبا من مائتين وخمسين منا - وهو حسامة رطل - رطل العراق - لم ينجس لقوله صلى الله عليه وسلم « إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا »^(١) ، وإن كان دونه صار نجسا عند الشافعي رضي الله عنه . هذا في الماء الراكد . وأما الماء الجاري إذا تغير بالنجاسة فالجارية المتغيرة نجسة دون ما فوقها وما تحتها لأن جريات الماء متفصلات . وكذا النجاسة الجارية إذا جرت بمجرى الماء فالنجس موقعها من الماء وما عن يمينها وشمالها إذا تقاصر عن قلتين . وإن كان جرى الماء أقوى من جرى النجاسة فما فوق النجاسة طاهر وما سفل عنها فنجس وإن تباعد وكثر إلا إذا اجتمع في حوص قدر قلتين . وإذا اجتمع قلتان من ماء نجس طهر ولا يعود نجسا بالتفريق . هذا هو مذهب الشافعي رضي الله عنه . وكنت أود أن يكون مذهبه كذهب مالك رضي الله عنه في أن الماء وإن قل لا ينجس إلا بالتغير إذا الحاجة ماسة إليه ومثار الوسواس اشترط القلتين ، ولأجله شق على الناس ذلك : وهو لعمرى سبب المشقة ويعرفه من يجربه ويتأمله . ومما لا أشك فيه أن ذلك لو كان مشروطا لسكان أولى المواضع بتعمير الطهارة : مكة والمدينة ؛ إذ لا يكثر فيهما المياه الجارية ولا الرأكة الكثيرة . ومن أول عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر عصر أصحابه لم تنقل واقعة في الطهارة ولا سؤال عن كيفية حفظ الماء عن النجاسات . وكانت أواني مياههم يتعاطاها الصبيان والإماء الذين لا يجترزون عن النجاسات . وقد توصأ عمر رضي الله عنه بماء في جرة نصرانية ، وهذا كالصريح في أنه لم يعقل إلا على عدم تغير الماء وإلا فنجاسة النصرانية وإنائها غالبية تعلم بظن قريب ، فإذا عسر القيام بهذا المذهب . وعدم وقوع السؤال في تلك الأعصار ؛ دليل أول . وفعل عمر رضي الله عنه : دليل ثان . والدليل الثالث : إصغاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الإناء للهرة^(٢) وعدم تغطية الأواني منها : بعد أن يرى أنها تأكل الفأرة ولم يكن في بلادهم حياض تلغ السنابير فيها وكانت لا تنزل الآبار . والرابع : أن الشافعي رضي الله عنه نص على أن غسالة النجاسة طاهرة إذا لم تتغير ونجسة إن تغيرت ، وأى فرق بين أن يلقى الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه ؟ وأى معنى لقول القائل إن قوة الورود تدفع النجاسة مع أن الورود لم يمنع مخالطة النجاسة ؟ وإن أحيل ذلك على الحاجة فالحاجة أيضا ماسة إلى هذا فلا فرق بين طرح الماء في إحانة فيها ثوب نجس أو طرح الثوب النجس في الإحانة وفيها ماء ؟ وكل ذلك معتاد في غسل الثياب والأواني ، والخامس : أنهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الحارية القليلة ، ولا خلاف في مذهب الشافعي رضي الله عنه أنه إذا وقع بول في ماء حار ولم يتغير أنه يحوز التوضؤ به وإن كان قليلا . وأى فرق بين الجاري والراكد ؟ وليت شعري هل الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوة الماء بسبب الجريان ؟ ثم ما حد تلك القوة أتحرى في المياه الجارية في أنابيب الحمامات أم لا ؟ فإن لم تحرفا الفرق وإن حرت فما الفرق بين ما يقع فيها وبين ما يقع في مجرى الماء من الأواني على الأبدان وهي أيضا جارية ؟ ثم البول أشد اختلاطا بالماء الجاري من نجاسة جامدة ثابتة إذا قضى بأن ما يجري عليه وإن لم يتغير نجس أن يجتمع في مستنقع قلتان ، فأى فرق بين الجامد والمائع والماء واحد والاختلاط أشد من المجاورة ؟ والسادس : أنه إذا وقع رطل من البول في قلتين ثم فرقنا فكل كوز يغترف منه طاهر ، ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل وليت شعري هل تعليل طهارته بعدم التغير أولى أو بقوة الماء بعد انقطاع الكثرة وزوالها مع

(١) حديث (إذا بلغ الماء قاتن لم يحمل خبثا) أخرجه أصحاب السنن وابن حبان وأحمد وصححه من حديث ابن عمر

(٢) حديث (إصغاء الإباء للهرة) أخرجه الطبراني في الأوسط والدارقطني من حديث عائشة ؛ وروى أصحاب السنن ذلك من

فعل أبي قتادة

تحقق بقاء أجزاء النجاسة فيها ؟ والسابع : أن الحمامات لم تزل في الأعصار الحالية يتوضأ فيها المتقشفون ويغسلون الأيدي والأواني في تلك الحياض مع قلة الماء ومع العلم بأن الأيدي النجسة والطاهرة كانت تتوارد عليها . فهذه الأمور مع الحاجة الشديدة تقوى في النفس أنهم كانوا ينظرون إلى عدم التغير معولين على قوله صلى الله عليه وسلم خلق الماء طهورا لا ينجسه شيء إلا ما غير طعمه أو لونه أوريجه ^(١) وهذا فيه تحقيق ، وهو أن طبع كل مائع أن يقلب إلى صفة نفسه كل ما يقع فيه وكان مغلوبا من جهته ؛ فكما ترى الكلب يقع في المملحة فيستحيل ملحا ويحكم بطهارته بصيرورته ملحا وزوال صفة السكبية عنه ، فكذلك الخل يقع في الماء وكذا اللبن يقع فيه وهو قليل فتبطل صفته ويتصور بصفة الماء وينطبع بطبعه إلا إذا كثر وغلب وتعرف غلته نغله طعمه أو لونه أوريجه فهذا المعيار . وقد أشار الشرع إليه في الماء القوي على إزالة النجاسة وهو جدير بأن يعول عليه فيندفع به الحرج ويظهر به معنى كونه طهورا إذ يغلب عليه فيطهره ، كما صار كذلك فيما بعد القلتين وفي الغسالة وفي الماء الحار وفي إصغاء الإباء للهرة ولا تظن ذلك صفوا إذ لو كان كذلك لكان كأثر الاستنجاء ودم البراغيث حتى يصير الماء الملاقى له نجسا ولا ينجس بالغسالة ولا بولوج السنور في الماء القليل . وأما قوله صلى الله عليه وسلم « لا يحمل خبثا » وهو في نفسه مهم فإيه يحمل إذا تغير ؟ فإن قيل . أراد به إذا لم يتغير فيمكن أن يقال إنه أراد به أنه في الغالب لا يتغير بالنجاسات المعتادة ؟ ثم هو تمسك بالمفهوم فيما إذا لم يبلغ قلتين ، وترك المفهوم بأقل من الأدلة التي ذكرناها يمكن وقوله « لا يحمل خبثا » ظاهره نفي الحمل أي يقله إلى صفة نفسه ، كما يقال للملحة لا تحمل كلبا ولا غيره أي يقلب ، وذلك لأن الناس قد يستنجون في المياه القليلة وفي الغدران ويغسلون الأواني النجسة فيها ثم يترددون في أنها تغيرت تغيرا مؤثرا أم لا ؟ فتبين أنه إذا كان قلتين لا يتغير هذه النجاسة المعتادة ؟ فإن قلت : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يحمل خبثا » ومهما كثرت حملها فهذا ينقلب عليك فإياها مهما كثرت حملها حكما كما حملها حسا . فلا بد من التخصيص بالنجاسات المعتادة على المدهين جميعا . وعلى الجملة فيل في أمور النجاسات المعتادة إلى التساهل فهما من سيرة الأولين وحسب المساهة الوسواس وبذلك أفتيت بالطهارة فيما وقع الخلاف فيه في مثل هذه المسائل .

الطرف الثالث : في كيفية الإزالة

والنجاسة إن كانت حكيمة وهي التي ليس لها جرم محسوس فيسكنى لإجراء الماء على جميع مواردنا ، وإن كانت عينية فلا بد من إزالة العين ، وبقاء الطعم يدل على بقاء العين وكذا بقاء اللون إلا فيما يلتصق به فهو معفو عنه بعد الحت والقرص . أما الرائحة فبقاؤها يدل على بقاء العين ولا يعني عنها إلا إذا كان الشيء له رائحة فائحة يعسر إزالتها فالدلك والعصر مرات متواليات يقوم مقام الحت والقرص في اللون ، والمزيل للوسواس أن يعلم أن الأشياء خلقت طاهرة يبين فما لا يشاهد عليه نجاسة ولا يعلمها يقينا يصل مع ، ولا ينبغي أن يتوصل بالاستنباط إلى تقدير النجاسات القسم الثاني : طهارة الأحداث ، ومنها الوضوء والعسل والتيمم ويتقدمها الاستنجاء ، فلنورد كيفيتها على الترتيب مع آدابها وسنفتي مبتدئين بسبب الوضوء وآداب قضاء الحاجة إن شاء الله تعالى .

باب آداب قضاء الحاجة

ينبغي أن يبعد عن أعين الناظرين في الصحراء وأن يستتر بشيء إن وجده وأن لا يكشف عورته قبل الانتهاء

(١) حديث (خلق الله الماء طهورا لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه) أخرجه ابن ماجه من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف ، وقد رواه بدون الاستثناء أبو دارود والنسائي والترمذي من حديث أبي سعيد وصححه أبو داود وغيره .

إلى موضع الجلوس وأن لا يستقبل الشمس والقمر وأن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها إلى إذا كان في بناء ، والعدول أيضا عنها في المنام أحب وإن استتر في الصحراء براحلته جاز وكذلك بذيله ، وأن يتقى الجلوس في متحدث الناس وأن لا يبول في الماء الراكد ولا تحت الشجرة المثمرة ولا في الجحر ، وأن يتقى الموضع الصلب ومهباب الرياح في البول استنزاها من رشاشه وأن يتكى في جلوسه على الرجل اليسرى وإن كان في بنيان يقدم الرجل اليسرى في الدخول واليمنى في الخروج ولا يبول قائما . قالت عائشة رضي الله عنها : من حدثكم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبول قائما فلا تصدقوه ^(١) ، وقال عمر رضي الله عنه ، رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبول قائما فقال : يا عمر لا تبطل قائما ^(٢) ، قال عمر : فابلت قائما بعد ، وفيه رخصة إذ روى حذيفة رضي الله عنه ، أنه عليه الصلاة والسلام بال قائما فأتيته بوضوء فتوضأ ومسح على خفيه ^(٣) ، ولا يبول في المغتسل قال صلى الله عليه وسلم : عامة الوسواس منه ^(٤) ، وقال ابن المبارك : قد وسع في البول في المغتسل إذا جرى الماء عليه ذكره الترمذي وقال عليه الصلاة والسلام : لا يبولن أحدكم في مستحبه ثم يتوضأ فيه فإن عامة الوسواس منه ، وقال ابن المبارك : إن كان الماء حاريا فلا بأس به ولا يستصحب شيئا عليه اسم الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل ببت الماء حاصر الرأس . وأن يقول عند الدخول ، بسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم ، وعند الخروج ، الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقى علي ما ينفعني ، ويكون ذلك خارجا عن بيت الماء وأن يعد الثبل قبل الجلوس وأن لا يستنجي بالماء في موضع الحاجة وأن يستبرئ من البول بالتنضح والثر - ثلاثا - وإمرار اليد على أسفل القضيب ولا يكتر التفسر في الاستبراء فيتوسوس ويشق عليه الأمر وما يحس به من بلل فليقدر أنه بقية الماء . فإن كان يؤذيه ذلك فليرش عليه الماء حتى يقوى في نفسه ذلك ولا يتسلط عليه الشيطان بالوسواس . وفي الخبر أنه صلى الله عليه وسلم فعله أعنى رش الماء ^(٥) وقد كان أخفهم استبراء أفقههم فتدل الوسوسة فيه على قلة الفقه . وفي حديث سلمان رضي الله عنه : علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الحرام فأمرونا أن لا تستنجي بعظم ولا روث ونهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول ^(٦) ، وقال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه : لأحسبك تحسن الخراء قال : بلى وأبيك إني لأحسنها إني بها لحاذق أبعاد الأثر وأعد المدر وأستقبل الشيخ وأستدبر الريح وأقمى إلقاء الطي وأجفل لإجفال الثعام - الشيخ نبت طيب الرائحة بالبادية ، والإلقاء ههنا أن يستوهز على صدور قدميه ، والإجفال أن يرفع عجزه . ومن الرخصة أن يبول الإنسان قريبا من صاحبه مستترا عنه ^(٧) فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع شدة حياته ليبين للناس ذلك .

(١) - بث عائشة (من حدثكم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبول قائما فلا تصدقوه) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه قال الترمذي هو أحسن شيء في هذا الباب وأصح (٢) - حديث عمر (رأي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أبول قائما فقال يا عمر لا تبطل قائما) أخرجه ابن ماجه بإسناد ضعيف ، رواه ابن حبان من حديث ابن عمر ليس فيه ذكر لعمر (٣) - حديث (٤١) عليه الصلاة والسلام بال قائما .. الحديث (متفق عليه) (٤) - حديث (قال في البول في المغتسل : عامة الوسواس منه) أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن مهمل قال الترمذي عريب قلت وإسناده صحيح (٥) - حديث « رش الماء بعد الوضوء » وهو الانتضاح أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث سفيان بن الحسك الثقفى أو الحسك بن سفيان وهو مصطرب كما قاله الترمذي وابن عبد البر (٦) - حديث سلمان « علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الحرام ... الحديث » أخرجه مسلم رحمه تقدم في قواعد المفاتيح (٧) - حديث « البول قريبا من صاحبه » متفق عليه من حديث حذيفة

كيفية الاستنجاء

ثم يستنجى لمقعدته بثلاثة أحجار ، فإن أتقى وإلا استعمل رابعاً ، فإن أتقى وإلا استعمل خامساً لأن الإنقاء واجب والابتار مستحب . قال عليه السلام « من استحجر فليوتر ^(١) » ، يأخذ الحجر بيساره ويضعه على مقدم المقعدة قبل موضع النجاسة ويمره بالمسح والإدارة إلى المؤخر ، يأخذ الثاني ويضعه على المؤخر كذلك ويمره إلى المقدمة ، يأخذ الثالث فيديره حول المسربة لإدارة فإن عسرت الإدارة ومسح من المقدمة إلى المؤخر أجزاءه ، ثم يأخذ حجراً كبيراً يمينه والقضيب بيساره ويمسح الحجر بقضيبه ويحرك اليسار فيمسح ثلاثاً في ثلاثة مواضع أوفى ثلاثة أحجار أو في ثلاثة مواضع من جدار إلى أن لا يرى الرطوبة في محل المسح ، فإن حصل ذلك بمرتين أتى بالثالثة ، ووجب ذلك إن أراد الاقتصار على الحجر ، وإن حصل بالرابعة استحب الخامسة للإيتار . ثم ينتقل من ذلك الموضع إلى موضع آخر ويستنجى بالماء بأن يفيضه باليمنى على محل النجس ويدلك باليسرى حتى لا يبقى أثر يدركه الكف بحس البس ، ويدرك الاستقصاء فيه بالتعرض للباطن فإن ذلك منبع الوسواس ، وليعلم أن كل ما لا يصل إليه الماء فهو باطن ولا يثبت حكم النجاسة للفضلات الباطنة ما لم تطهر ، وكل ما هو ظاهر وثبت له حكم النجاسة فخذ ظهوره أن يصل الماء إليه فيزيله ولا معنى للوسواس . ويقول عند الفراغ من الاستنجاء « اللهم طهر قلبي من النفاق وحصن فرجي من الفواحش » ، ويدلك يده بجائظ أو بالأرض لإزالة للرائحة إن بقيت . واجمع بين الماء والحجر مستحب فقد روى « أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء : ما هذه الطهارة التي أثنى الله بها عليكم ، قالوا . كنا نجمع بين الماء والحجر ^(٢) » ،

كيفية الوضوء

إذا فرغ من الاستنجاء اشتغل بالوضوء فلم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم قط خارجاً من الغائط إلا توضأ ويبتدئ بالسواك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أفواهم طرق القرآن فطيبوها بالسواك ^(٣) » ، فينبغي أن ينوي عند السواك تطهيره لقراءة القرآن وذكر الله تعالى في الصلاة وقال صلى الله عليه وسلم « صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « مالي أراكم تدخلون على قلحاستا كوا ^(٦) » أي صفر الأسنان « وكان عليه الصلاة والسلام يستاك في الليلة مراراً ^(٧) » ، وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : « لم يزل صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء ^(٨) » ، وقال عليه السلام « عليكم بالسواك فإنه

(١) حديث « من استحجر فليوتر » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث « لما نزل قوله تعالى ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ الحديث في أهل قباء وهم بين الحجر والماء . » أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند ضعيف ورواه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي أنس وجابر وأنس في الاستنجاء بالسواك ، ليس فيه ذكر « الحجر » وقول النووي تبعاً لابن الصلاح « لأن الجمع بين الماء والحجر في أهل قباء لا يعرف » مردودنا تقدم (٣) حديث « إن أفواهم طرق القرآن » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث علي ورواه ابن ماجه موقوفاً على علي وكلاهما صيف (٤) حديث « صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك » رواه أبو نعيم في كتاب السواك من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف ورواه أبو داود والحاكم وصححه والبيهقي وضعفه من حديث عائشة وضعفه بإلفظ من سبعين صلاة (٥) حديث « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٦) حديث « مالي أراكم تدخلون على قلحاستا كوا » أخرجه البزار والبيهقي من حديث العباس بن عبدالمطلب وأبو داود والبخاري من حديث تمام ابن الهيثم والبيهقي من حديث عبد الله بن عباس وهو منقطع (٧) حديث « كان يستاك في الليل مراراً » أخرجه مسلم من حديث ابن عباس (٨) حديث ابن عباس « لم يزل يأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء » رواه أحمد

مطهرة للثم ومرضاة للرب^(١) ، وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه : السواك يزيد في الحفظ ويذهب البلغم^(٢) وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يروحون والسواك على آذانهم . وكيفيته : أن يستاك بخشب الأراك أو غيره من قضبان الأشجار مما يخشن ويزيل القلق ويستاك عرضا وطولا وإن اقتصر فعرضا . ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء وإن لم يصل عقيبهِ وعند تغير النكته بالنوم أو طول الأزم أو كل ما تكره وانحته ، ثم عند الفراغ من السواك يجلس للوضوء مستقبِل القبلة ويقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا وضوء لمن لم يسم الله تعالى^(٣) » ، أى لا وضوء كامل . ويقول عند ذلك : أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ، ثم يوصل يديه ثلاثا قبل أن يدخلهما الإناء ، ويقول : اللهم إني أسألك العين والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة ، ثم ينوى رفع الحدث أو استباحة الصلاة ويستديم النية إلى غسل الوجه فإن نسيها عند الوجه لم يجزه ، ثم يأخذ غرفة لفيه يمينه فيتمضمض بها ثلاثا ويغرغر بأن يرد الماء إلى الفمصة إلا أن يكون صائما فيرفق ويقول : اللهم أعني على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك ، ثم يأخذ غرفة لأنفه ويستنشق ثلاثا ويصعد الماء بالنفس إلى خياشيمه ويستنثر ما فيها ويقول في الاستنشاق : اللهم أوجد لي رائحة الجنة وأنت عني راض ، وفي الاستنشاق : اللهم إني أعوذ بك من روائح النار ومن سوء الدار ، لأن الاستنشاق إيصال والاستنشاق لإزالة ، ثم يغرف غرفة لوجهه فيغسله من مبدأ سطح الجبهة إلى منتهى ما يقبل من الذقن في الطول ، ومن الأذن إلى الأذن في العرض ، ولا يدخل في حد الوجه الزنعتان اللتان على طرفي الجبين فهما من الرأس ، ويوصل الماء إلى موضع التحذيف وهو ما يعتاد النساء تنحية الشعر عنه وهو القدر الذي يقع في جانب الوجه ، مهما وضع طرف الخيط على رأس الأذن والطرف الثاني على زاوية الجبين ، ويوصل الماء إلى منابت الشعور الأربعة : الحاجبان والشاربان والعذاران والأهداب : لأنها خفيفة في الغالب . والعذاران هما ما يوازيان الأذنين من مبدأ اللحية . ويجب إيصال الماء إلى منابت اللحية الخفيفة أعني ما يقبل من الوجه وأما الكثيفة فلا ، وحكم العنفقة حكم اللحية في الكثافة والخفة ، ثم يفعل ذلك ثلاثا ويفيض الماء على ظاهر ما استرسل من اللحية ويدخل الأصابع في محاجر العينين وموضع الرمض ومجتمع الكحل وينقيهما . فقد روى أنه عليه السلام فعل ذلك^(٤) . ويأمل عند ذلك خروج الخطايا من عينيه وكذلك عند كل عضو ويقول عنده : اللهم بيض وجهي بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسود وجهي بظلماتك يوم تسود وجوه أعدائك ، ويحلل اللحية الكثيفة عند غسل الوجه فإنه مستحب ، ثم يعسل يديه إلى مرفقيه ثلاثا ويحرك الخاتم يطيل الغرة ويرفع الماء إلى أعلى المصعد فإنهم يحشرون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء ، كذلك ورد الخبر . قال عليه السلام : من استطاع أن

(١) حديث « عليكم بالسواك فإنه مطهرة للثم ومرضاة للرب » أخرجه البخاري تعليقا مجزوما من حديث عائشة والنسائي وابن خزيمة وموسلا ، قلت وصل المصنف هذا الحديث بمحدث ابن عباس القتيبي وقد رواه من حديث ابن عباس الطبراني في الأوسط والبيهقي في دمع الإيمان (٢) حديث « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يروحون والسواك على آذانهم » أخرجه الخطيب في كتاب أسماء من روى عن مالك وعند أبي داود والترمذي وصححه « أرزیدن خالد كان يشهد الصلوات وسواكه على أذنه موضع القلم من أذن السكائب (٣) حديث « لا وضوء لمن لم يسم الله » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث سعيد بن زيد أحد الصحابة ونقل الترمذي عن البخاري أنه أحسن شيء في هذا الباب (٤) حديث « لا خاله الأصبع في محاجر العينين وموضع الرمض ومجتمع الكحل » أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة كان يتماهد بالمناقضين ورواه الدارقطني من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف « اشربوا الماء أعينكم »

يطيل غرته فليفعل^(١) ، وروى أن الحلية تبلغ مواضع الوضوء^(٢) ويبدأ باليمنى ويقول « اللهم أعطني كتابي بيمينى وحاسنى حسابا سيرا » ويقول عند غسل الشمال « اللهم إني أعوذ بك أن تعطيني كتابي بشمالى أو من وراء ظهري » ثم يستوعب رأسه بالمسح بأن يبل يديه ويلصق رءوس أصابع يديه اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدمة الرأس ويمدهما إلى القفا ثم يردهما إلى المقدمة ، وهذه مسحة واحدة ، يفعل ذلك ثلاثا ويقول « اللهم غشنى برحمتك وأنزل على من بركاتك وأظننى تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك » ثم يمسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما بماء جديد بأن يدخل مسبحتيه في صماخى أذنيه ويدير إبهاميه على ظاهر أذنيه ثم يضع الكف على الأذنين استظهارا ، ويكرره ثلاثا ويقول « اللهم اجعلنى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اللهم اسمعنى منادى الجنة مع الأبرار » ثم يمسح رقبتيه بماء جديد لقوله صلى الله عليه وسلم « مسح الرقبة أمان من الغل يوم القيامة^(٣) » ، ويقول « اللهم فك رقبتى من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال » ثم يغسل رجله اليمنى ثلاثا ويخلل باليد اليسرى من أسفل أصابع الرجل اليمنى ويبدأ بالخنصر من الرجل اليمنى ويختم بالخنصر من الرجل اليسرى ويقول « اللهم ثبت قدمى على الصراط المستقيم يوم تزل الأقدام فى النار » ويقول عند غسل اليسرى « أعوذ بك أن تزل قدمى عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين » ويرفع الماء إلى أنصاف الساقين . فإذا فرغ رفع رأسه إلى السماء وقال « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله سبحانه اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى أستغفرك اللهم وأتوب إليك فأغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين واجعلنى من عبادك الصالحين واجعلنى عبدا صبوراً شكوراً واجعلنى أذكرك كثيراً وأسبحك بكرة وأصيلاً . يقال : إن من قال هذا بعد الوضوء ختم على وضوئه بخاتم ورفع له تحت العرش فلم يزل يسبح الله تعالى ويقدره ويكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة . ويكره فى الوضوء أمور : منها أن يزيد على الثلاث فن زاد فقد ظلم ، وأن يسرف فى الماء « توشأ عليه السلام ثلاثا وقال من زاد فقد ظلم وأسأ^(٤) » ، وقال « سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون فى الدعاء والطهور^(٥) » ، ويقال : من وهى علم الرجل ولوعه بالماء والطهور^(٦) وقال إبراهيم بن أدهم : يقال إن أول ما يبتدئ الوسواس من قبل الطهور ، وقال الحسن : إن شيطاناً يضحك بالناس فى الوضوء يقال له الوهان . ويكره أن ينفض اليد فيرش الماء وأن يتكلم فى أثناء الوضوء وأن يلطم وجهه بالماء لطماً . وكره قوم التنشيف وقالوا : الوضوء يوزن ، قاله سعيد بن المسيب والزهرى ، لكن روى معاذ رضى الله عنه « أنه عليه السلام مسح وجهه بطرف ثوبه^(٧) » ، وروى عائشة رضى الله عنها « أنه صلى الله عليه وسلم كانت له منشفة^(٨) » ، ولكن طعن فى هذه الرواية عن عائشة . ويكره أن يتوشأ من إناء صفرو أن يتوشأ بالماء الشمس وذلك من جهة الطب . وقد روى عن ابن عمرو أبى هريرة رضى الله عنهما كراهية إناء الصفرة : وقال بعضهم : أخرجت لشعبة ماء فى إناء صفراً فبأن يتوشأ منه . ونقل كراهية

(١) حديث « من استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل » أخرجه من حديث أبى هريرة (٢) حديث « تبلغ الحلية من المؤمن ما يبلغ ماء الوضوء » أخرجه من حديثه (٤) حديث « مسح الرقبة أمان من الغل » أخرجه أبو داود والبيهقى فى مسند الزردوس من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٥) حديث « سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون فى الدعاء والطهور » أخرجه أبو داود وأبو ماجه وأبو حبان والحاكم من حديث عبد الله بن مفلح (٦) حديث « من وهى علم الرجل ولوعه بالماء فى التطهير » لم أحده أصلاً (٧) حديث ماذ « أن النبى صلى الله عليه وسلم مسح وجهه بطرف ثوبه » أخرجه الترمذى وقال غريب وإسناده ضعيف (٨) حديث عائشة « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان له منشفة » أخرجه الترمذى وقال ليس بانفاثم ، قال ولا يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب شيء .

ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما . ومهما فرغ من وضوئه وأقبل على الصلاة فينبغي أن يخطريبالله أنه طهر ظاهره وهو موضع نظر الخلق أن يستحي من مناجاة الله تعالى من غير تطهير قلبه وهو موضع نظر الرب سبحانه . وليحقق طهارة القلب بالتوبة . والخلو عن الأخلاق المذمومة والتخلق بالأخلاق الحميدة أولى . وأن من يقتصر على طهارة الظاهر كمن يدعو ملكا إلى بيته فتركه مشحونا بالقاذورات واشتغل بتجصيص ظاهر الباب البراني من الدار . وما أحدر مثل هذا الرجل بالتعرض للوقت والبوار ! والله سبحانه وتعالى أعلم .

فضيلة الوضوء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدنيا يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ^(١) » وفي لفظ آخر ، ولم يسه فيهما غفر له ما تقدم من ذنبه ، وقال صلى الله عليه وسلم أيضا « ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ونفل الأقدام إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط - ثلاث مرات - ^(٢) » ، « وتوضأ صلى الله عليه وسلم مرة مرة وقال : هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به ، وتوضأ مرتين مرتين وقال : من توضأ مرتين مرتين أتاه الله أجره مرتين ، وتوضأ ثلاثا ثلاثا وقال : هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي ووضوء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله ومن لم يذكر الله لم يطهر منه إلا ما أصاب الماء ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من توضأ على طهر كذب الله له به عشر حسنات ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « الوضوء على الوضوء نور على نور ^(٦) » ، وهذا كله حث على تجديد الوضوء وقال عليه السلام « إذا توضأ العبد المسلم فتمضمض خرجت الخطايا من فيه فاذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه فاذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه فاذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفاره فاذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من تحت أذنيه وإذا غسل رجله خرجت الخطايا من رجله حتى تخرج من تحت أظفار رجله ثم كان منسب إلى المسجد وصلاته نافلة له ^(٧) » ، ويروى « إن الطاهر كالصائم ^(٨) » ، قال عليه الصلاة والسلام « من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء ^(٩) » ، وقال عمر رضي الله عنه :

(١) حديث « من توضأ وأسنغ الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه شيء من الدنيا يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » وفي لفظ آخر « لم يسه فيهما غفر له ما تقدم من ذنبه » أخرجه ابن المبارك في كتاب الرهد والرقائق باللفظين مما وهو متفق عليه من حديث عثمان بن عفان دون قوله « شيء من الدنيا » ودون قوله « لم يسه فيهما » وأخرجه أبو داود من حديث يزيد بن خالد « ثم صلى ركعتين لا يسهو فيهما الحديث » (٢) حديث « ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات .. الحديث » أخرجه مسلم عن أبي هريرة (٣) حديث « توضأ مرة مرة وقال هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به .. الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد صحيح (٤) حديث « من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله . الحديث » رواه الدارقطني من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف (٥) حديث « من توضأ على طهر كذب الله له به عشر حسنات » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف (٦) حديث « الوضوء على الوضوء نور على نور » لم أجده أصلا (٧) حديث « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من فيه الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث الصابغى بإسناده صحيح ، ولكن اختلف في صحته وعند مسلم من حديث أبي هريرة وعمرو بن عبسة نحوه مختصرا (٨) حديث « الطاهر النائم كالصائم » أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث عمرو بن حريث « الطاهر النائم كالصائم القائم » وسنده ضعيف (٩) حديث « من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عتبة بن عامر وهو عند مسلم دون قوله « ثم رفع هكذا » عزاء المزني في الأطراف وقد رواه الدارقطني في اليوم واليلة من رواية عتبة بن عامر وكذا رواه الدارقطني في مسنده

إنّ الرضوء الصالح يطرد عنك الشيطان . وقال مجاهد : من استطاع أن لا يبيت إلا طاهراً ذا كراً مستغفراً فليفعل فإنّ الأرواح تبعث على ما قبضت عليه .

كيفية الغسل

وهو أن يضع الإنسان عن يمينه ثم يسمى الله تعالى ويغسل يديه ثلاثاً ، ثم يستنجي كما وصفت لك ويزيل ما على بدنه من نجاسة إن كانت ، ثم يتوضأ وضوء للصلاة كما وصفنا إلا غسل القدمين فإنه يؤخرهما فإن غسلهما ثم وضعهما على الأرض كان إضاعة للماء ، ثم يصب الماء على رأسه ثلاثاً ، ثم على شقه الأيمن ثلاثاً ، ثم على شقه الأيسر ثلاثاً ، ثم يدلك ما أقبل من بدنه ويخلل شعر الرأس واللحية ويوصل الماء إلى منابت ما كتف منه أو خف ، وليس على المرأة نقض الضفائر إلا إذا علت أن الماء لا يصل إلى خلال الشعر ، ويتعهد معاطف البدن وليتق أن يمس ذكره في أثناء ذلك فإن فعل ذلك فليعد وضوء ، وإن توضأ قبل الغسل فلا يعيده بعد الغسل . فهذه سنن الرضوء والغسل ذكرنا منها ما لا بد لسالك طريق الآخرة من عمله وعمله ، وما عداه من المسائل التي يحتاج إليها في صوارض الأحوال فليرجع فيها إلى كتب الفقه . والواجب من جملة ما ذكرناه في الغسل أمران . النية واستيعاب البدن بالغسل . وفروض الرضوء . النية وغسل الوجه وغسل اليدين إلى المرفقين ومسح ما ينطلق عليه الاسم من الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين والترتيب . وأما الموالاة فليست بواجبة والغسل الواجب بأربعة : بخروج المني والتقاء الحتاتين والحيض والنفاس ، وما عداه من الاغسال سنة كغسل العيدين والجمعة والأعياد والإحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة ولدخول مكة وثلاثة أغسال أيام التشريق ولطواف الوداع - على قول - والكافر إذا أسلم غير جنب والمجنون إذا أفاق ولمن غسل ميتاً ، فكل ذلك مستحب

كيفية التيمم

من تعذر عليه استعمال الماء - لفقده بعد الطلب أو بمانع له عن الوصول إليه من سبب أو حابس أو كان الماء الحاضر يحتاج إليه لعطشه أو لعطش رفيقه أو كان ملكاً لغيره ولم يبعه إلا بأكثر من ثمن المثل أو كان به جراحة أو مرض وخاف من استعماله فساد العضو أو شدة الضنا - فينبغي أن يصبر حتى يدخل عليه وقت الفريضة ، ثم يقصد صعيداً طيباً عليه تراب طاهر خالص لين بحيث يثور منه غبار ، ويضرب عليه كففيه ضاماً بين أصابعه ويمسح بهما جميع وجهه مرة واحدة ، وينوي عند ذلك استباحة الصلاة ، ولا يكلف إيصال الغبار إلى ما تحت الشعور خفت أو كثفت ، ويحتد أن يستوعب بشرة وجهه بالغبار - ويحصل ذلك بالضربة الواحدة فإن عرض الوجه لا يزيد على عرض الكفين - ويكفي في الاستيعاب غالب الطن ، ثم ينزع خاتمه ويضرب ضربة ثانية يفرج فيها بين أصابعه ثم يبلق ظهور يده اليمنى ببطون أصابع يده اليسرى - بحيث لا يجاوز أطراف الأنامل من إحدى الجهتين عرض المسبحة من الأخرى - ثم يمر يده اليسرى من حيث وضعها على ظاهر ساعده الأيمن إلى المرفق ، ثم يقلب بطن كفه اليسرى على باطن ساعده الأيمن ويمررها إلى الكوع ، ويمر بطن إبهامه اليسرى على ظاهر إبهامه اليمنى ، ثم يفعل باليسرى كذلك . ثم يمسح كففيه ويخلل بين أصابعه ، وغرض هذا التكليف تحصيل الاستيعاب إلى المرفقين بضربة واحدة فإن عسر عليه ذلك فلا بأس بأن يستوعب بضربتين وزيادة . وإذا صلى به الفرض فله أن يتنفل كيف شاء ، فإن جمع بين فريضتين فينبغي أن يعيد التيمم الثانية . وهكذا يفرد كل فريضة بتيمم والله أعلم .

القسم الثالث من النظافة : التنظيف عن الفضلات الظاهرة وهي نوعان أوساخ وأجزاء
النوع الأول : الأوساخ والرطوبات المترسبة وهي ثمانية :

(الأول) ما يجتمع في شعر الرأس من الدرن والقمل فالتنظيف عنه مستحب بالغسل والترجيل والتدهين
إزالة للشعث عنه ، وكان صلى الله عليه وسلم يدهن الشعر ويرجله غبا ويأمر به ^(١) ويقول عليه الصلاة والسلام :
ادهنوا غبا ^(٢) وقال عليه الصلاة والسلام من كان له شعرة فليكرمها ^(٣) أى ليصنها عن الأوساخ ودخل
عليه رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال : أما كان لهذا دهن يسكن به شعره ثم قال : يدخل أحدكم كأنه شيطان ^(٤) ،
(الثاني) ما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذن ، والمسح يريل ما يظهر منه وما يجتمع في قعر الصماخ فينبغي أن
ينظف برفق عند الخروج من الحمام فإن كثرة ذلك ربما تضر بالسمع . (الثالث) ما يجتمع في داخل الأنف من
الرطوبات المنعقدة المتصقة بجوانبه ويريلها بالاستنشاق والاستنثار . (الرابع) ما يجتمع على الأسنان وطرف
اللسان من القلح فيزيله السواك والمضمضة وقد ذكرناهما . (الخامس) ما يجتمع في اللحية من الوسخ والقمل
لذا لم يتعهد ويستحب إزالة ذلك بالغسل والتسريح بالمشط . وفي الخبر المشهور أنه صلى الله عليه وسلم « كان لا يفارقه
المشط والمدرى والمرآة في سفر ولا حضر ^(٥) » ، وهي سنة العرب وفي خبر غريب « أنه صلى الله عليه وسلم كان
يسرح لحيته في اليوم مرتين ^(٦) » ، وكان صلى الله عليه وسلم كت اللحية ^(٧) ، وكذلك كان أبو بكر ، وكان عثمان
طويل اللحية رقيقة وكان على عريض اللحية قد ملأت ما بين منكبيه . وفي حديث أغرب منه قالت عائشة رضي الله
عنها « اجتمع قوم بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فرأيتهم يطلع في الحب يسقون من رأسه ولحيته ^(٨)
فقلت أو تفعل ذلك يا رسول الله ؟ فقال : نعم إن الله يحب من عبده أن يتجمل لإخوانه إذا خرج إليهم ، والجاهل
ربما يظن أن ذلك من حب التزين للناس قياسا على أحلاق غيره وتشبيها باللائكة بالحدادين وهيئات ! فقد كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم مأمورا بالدعوة وكان من وظائفه أن يسعى في تعظيم أمر نفسه في قلوبهم كيلا تردديه
نفوسهم ويحسن صورته في أعينهم كيلا تستصغره أعينهم فينفرهم ذلك ويتعلق المنافقون بذلك في تنفيرهم . وهذا
القصص واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق إلى الله عز وجل ، وهو أن يراعى من ظاهره ما لا يوجب نفرة
الناس عنه . والاعتماد في مثل هذه الأمور على النية فإنها أعمال في أنفسها تكتسب الأوصاف من المقصود ، فالتزين

(١) حديث « كان يدهن الشعر ويرجله » أخرجه الترمذى في الشمائل بإسناد ضعيف من حديث أنس « كان يكثر دهن رأسه
وتسريح لحيته » وفي الشمائل أيضاً بإسناد حسن من حديث سحابة لم يسم « أنه عليه الصلاة والسلام كان يترجل غبا » (٢) حديث
« ادهنوا غبا » قال ابن الصلاح لم أجده أصلاً وقال النووي غير معروف وعند أبي داود والترمذى والبيهقي من حديث عبد الله بن
منفل « النهى عن التزجل إلا غبا » بإسناد صحيح (٣) حديث « من كانت له شعرة فليكرمها » من حديث أبي هريرة وقال « به شعر
فليكرمه » وإسناد صحيح (٤) حديث « دخل عليه رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال أما كان لهذا دهن يسكن به شعره ..
الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وإسناد جيد (٥) حديث « كان لا يفارقه المسح والمدرى
في سفر ولا حضر » أخرجه ابن طاهر في كتاب صفة الصوف من حديث أبي سعيد « كان لا يفارقه مسواكه ومشطه »
ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة وإسنادها ضعيف . وسيأتى في آداب الذكر مطولا (٦) حديث « كان يسرح
لحيته كل يوم مرتين » تقدم حديث أنس « كان يكثر تسريح لحيته » و« حطبت في الجامع من حديث الحكم مرسلا » كان يسرح
لحيته بالمشط (٧) حديث « كان كت اللحية » أخرجه الترمذى في الشمائل من حديث هند ابن أبي هالة وإبراهيم في دلائل النبوة
من حديث علي وأمه عند الترمذى (٨) حديث عائشة « اجتمع قوم بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فرأيتهم
يطلع في الحب يسقون من رأسه ولحيته » أخرجه ابن عدى وقال حديث منكر

على هذا القصد محبوب وترك التسعث في اللحية إظهاراً للزهد وقلة المبالاة بالنفس محدود وتركه شغلاً بما هو أهم منه محبوب . وهذه أحوال باطنة بين العبد وبين الله عز وجل . والناقد بصير والتليس غير رائج عليه بحال ، وكمن جاهل يتعاطى هذه الأمور التفاتاً إلى الخلق وهو يلبس على نفسه وعلى غيره ويزعم أن قصده الخير ، فترى جماعة من العلماء يلبسون الثياب الفاخرة ويزعمون أن قصدهم إرغام المبتدعة والمحاذين والتقرب إلى الله تعالى به وهذا أمر ينكشف يوم تبلى السرائر ، ويوم يعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور ؛ فعند ذلك تتميز السبيكة الخالصة من البرجة فنعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر (السادس) وسخ البراجم وهي معاطف ظهور الأنامل ، كانت العرب لا تكثر غسل ذلك لتركها غسل اليد عقيب الطعام فيجتمع في تلك الغضون وسخ فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل البراجم ^(١) (الساع) تنظيف الرواجب ^(٢) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب بتنظيفها وهي رموس الأنامل وما تحت الأظفار من الوسخ لأنها كانت لا يحضرها المقراض في كل وقت فتجتمع فيها أوساخ ؛ فوقت لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قلم الأظفار وتنف الإبط وحلق العانة أربعين يوماً ^(٣) لكنه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنظيف ما تحت الأظفار ^(٤) وجاء في الآثار « أن النبي صلى الله عليه وسلم استنظأ الوحي فلما هبط عليه جبريل عليه السلام قال له : كيف نزل عليكم وأنتم لا تغسلون رءوسكم ولا تطفون رءوسكم ^(٥) وقلها لا تستاكون . مرأمتك بذلك ، والاف وسخ الظفر ، والتف وسخ الأذن وقوله عز وجل ﴿ فلا تقل لها أف ﴾ تعبها أي بما تحت الظفر من الوسخ ، وقيل لا تتأذي بهما كما تتأذي بما تحت الظفر (الثامن) الدرن الذي يجتمع على جميع بدن برشح العرق وغبار الطريق ، وذلك يزيله الحمام ولا بأس بدخول الحمام ، دخل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمامات الشام وقال بعضهم : نعم البيت بيت الحمام بطهر البدن ويذكر النار : روى ذلك عن أبي الدرداء وأبي أيوب الأنصاري رضى الله عنهما . وقال بعضهم . بئس البيت بيت الحمام يبدى العورة ويذهب الحياء . فهذا تعرض لآفته وذلك تعرض لفائدته ولا بأس بطلب فائدته عند الاحتراز من آفته . ولكن على داخل الحمام وطاقت من السن والواجبات ، فعليه واجبان في عورته وواجبان في عورة غيره . أما الواجبان في عورته فهو أن يصونها عن نظر الغير ويصونها عن مس الغير فلا يتعاطى أمرها وإزالة وسخها لإلا يبدى ، وينع الدلاك من مس الفخذ وما بين السرة إلى العانة ، وفي إباحة مس مالمس بسوء لإزالة الوسخ احتمال ، ولكن الأقيس التحريم إذ ألحق مس السواتين في التحريم بالنظر فكذلك ينبغي أن تكون بقية العورة أغنى الفخذين . والواجبان في عورة الغير أن يفض بصر نفسه عنها وأن ينهى عن كشفها لأن النبي عن المنكر واجب ، وعليه ذكر ذلك وليس عليه القبول ولا يسقط عنه وجوب الذكر إلا لخوف ضرب أو شتم أو ما يجري عليه مما هو حرام في نفسه ، فليس عليه أن ينكر حراماً يرهق المنكر عليه إلى مباشرة حرام آخر . فأما قوله أعلم أن ذلك لا يفيد ولا يعمل به فهذا

(١) حديث « الأمر غسل البراجم » أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من حيث عد الله بن بسر « هموا برءوسكم » ولا بن عدى في حديث لأنس « وأن يماهد البراجم إذا توسأ . ولمسلم من حديث عائشة « عسر من العطرة - وفيه - وعسل البراجم » (٢) الأمر بتنظيف الرواجب « أخرجه أحمد من حديث ابن عباس « أنه قيل له يا رسول الله لقد أظفأعتك جبريل فقبل ولم لا يطأ ؟ » وأنتم لا تستنوث ولا تغفون أطافركم ولا تقصون شواربكم ولا تقون رءوسكم » وفيه إسماعيل بن عياش (٣) حديث « الترفيت في ألم الأظفار وسف الأظفار وحلق العانة أربعين يوماً » أخرجه مسلم من حديث أس (٤) حديث « إلا من تنظيف ما تحت الأظفار » أخرجه الطبراني من حديث واهبة بن سعيد « سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن كل شيء حتى سألت عن الوسخ الذي يكون بين الأظفار فقال دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » (٥) حديث « استنظأ الوحي : فلما هبط عليه جبريل قال له : كيف نزل عليكم وأنتم لا تغسلون رءوسكم ولا تطفون رءوسكم » تقدم قبل هذا بحديثين

لا يكون عذرا بل لابد من الذكر ، فلا يخلو قلب عن التأثر من سماع الإنكار واستشعار الاحتراز عند التعبير بالمعاصي وذلك يؤثر في تقييد الأمر في عينه وتغيير نفسه فلا يجوز تركه ، ولمثل هذا صار الحزم ترك دخول الحمام في هذه الأوقات إذ لا تخلو عن عورات مكشوفة لا سيما ماتحت السرة إلى مافوق العانة ؛ إذ الناس لا يعدونها عورة وقد ألحقها الشرع بالعمرة وجعلها كالحریم لها ولهذا يستحب تخلية الحمام . وقال بشر بن الحرث : ما أعنف رجلا لا يملك إلا درهما دفعه لينخل له الحمام . ورؤى ابن عمر رضى الله عنهما في الحمام ووجهه إلى الحائط وقد عصبت عينيه بعصابة وقال بعضهم : لا بأس بدخول الحمام ولكن يذا رين : إزار للعمرة وإزار للرأس يتقنع به ويحفظ عينيه ، وأما السنن فعمرة ، فالأول : النية وهو أن لا يدخل لعاجل دنيا ولا عابثا لأجل هوى بل يقصد به التنظيف المحبوب تزيينا للصلاة ، ثم يعطى الحامى الأجرة قبل الدخول فإن ما يستوفيه مجهول وكذا ما ينتطره الحامى ، فتسليم الأجرة قبل الدخول دفع للجهاالة من أحد العوضين وتطيبب لنفسه ، ثم يقدم رجله اليسرى عند الدخول ويقول بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث الخبيث الشيطان الرجيم ، ثم يدخل وقت الخلوة أو يتكلم تخلية الحمام فإنه إن لم يكن في الحمام إلا أهل الدين والمحتاطين للعمرة فالنظر إلى الأبدان مكشوفة فيه شائبة من قلة الحياء وهو مذكر للنظر في العورات ، ثم لا يخلو الإنسان في الحركات عن انكشاف العورات بانعطاف في أطراف الإزار فيقع البصر على العمرة من حيث لا يدري ، ولأجله عصب ابن عمر رضى الله عنهما عينيه ، وينسل الجناحين عند الدخول ولا يعجل بدخول البيت الخارج حتى يعرق في الأول ، وأن لا يكثر صب الماء بل يقتصر على قدر الحاجة فإنه المسأذون فيه بقرينة الحال والزيادة عليه لو علمه الحامى لكرهه ، لاسيما الماء الحار فله مثونة وفيه تعب وأن يتذكر حر النار بحرارة الحمام ويقدر نفسه محبوسا في البيت الحار ساعة ويقيسه إلى جهنم ، فإنه أشبه بيت جهنم : النار من تحت والظلام من فوق فعوذ بالله من ذلك ، بل العاقل لا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظة فإنها مصيره ومستقره فيكون له في كل ما يراه من ماء أو نار أو غيرها عبرة وموعظة ، فإن المرء ينظر بحسب همته . فإذا دخل براز ونجار وبناء وحائك دارا معمورة مفروشة فإذا تفقدتهم رأيت البراز ينظر إلى الفرش يتأمل قيمتها والحائك ينظر إلى الثياب يتأمل نسجها والنجار ينظر إلى السقف يتأمل كيفية تركيبها والبناء ينظر إلى الحيطان يتأمل كيفية إحكامها واستقامتها . فكذلك سالك طريق الآخرة لا يرى من الأشياء شيئا إلا ويكون له موعظة وذكري للآخرة ، بل لا ينظر إلى شيء إلا ويفتح الله عز وجل له طريق عبرة فإن نظر إلى سواد تذكر ظلمة اللحد وإن نظر إلى حية تذكر أفاعى جهنم وإن نظر إلى صورة قبيحة شليعة تذكر منكرا ونكيرا والزبانية ، وإن سمع صوتا هائلا تذكر نفخة الصور وإن رأى شيئا حسنا تذكر نعيم الجنة وإن سمع كلمة رد أو قبول في سوق أو دار تذكر ما ينكشف من آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول وما أجدر أن يكون هذا هو الغالب على قلب العاقل إذ لا يصرفه عنه إلا مهمات الدنيا ! فإذا نسب مدة المقام في الدنيا إلى مدة المقام في الآخرة استحقها إن لم يكن عن أغفل قلبه وأعميت بصيرته . ومن السنن : أن لا يسلم عند الدخول وإن سلم عليه لم يجب بلفظ السلام بل يسكت إن أجاب غيره وإن أحب قال « عافاك الله » ولا بأس بأن يصافح الداخل ويقول « عافاك الله » ، لا ابتداء الكلام . ثم لا يكثرك الكلام في الحمام ولا يقرأ القرآن إلا سرا ولا بأس بإظهار الاستعاذة من الشيطان ويكره دخول الحمام بين العشامين وقريبا من الغروب فإن ذلك وقت انتشار الشياطين ، ولا بأس أن يدلكه غيره فقد نقل ذلك عن يوسف بن أسباط أوصى بأن يغسله إنسان لم يكن من أصحابه وقال : إنه دلكني في الحمام مرة فأردت أن أكافئه بما يفرح به وإنه

يفرح بذلك . ويدل على جوازه ما روى بعض الصحابة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل منزلاً في بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود يغمر ظهره فقالت : ما هذا يا رسول الله ؟ فقال : إن الناقة تقحمت بي ^(١) ، ثم هما فرغ من الحمام شكر الله عز وجل على هذه النعمة . فقد قيل الماء الحار في الشتاء من النعيم الذي يسأل عنه . وقال ابن عمر رضي الله عنهما : الحمام من النعيم الذي أحدثوه . هذا من جهة الشرع . أما من جهة الطب فقد قيل : الحمام بعد النورة أمان من الجدام . وقيل : النورة في كل شهر مرة تطفئ المرة الصفراء وتنقي اللون وتزيد في الجماع . وقيل : بولة في الحمام قائما في الشتاء أنفع من شربة دواء . وقيل : نومة في الصيف بعد الحمام تعدل شربة دواء . وغسل القدمين بماء بارد بعد الخروج من الحمام أمان من النقرس ويكره صب الماء البارد على الرأس عند الخروج وكذا شربه ، هذا حكم الرجال : وأما النساء فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يحل للرجل أن يدخل حليته الحمام ^(٢) » وفي البيت مستحرم ، والمشهور أنه حرام على الرجال دخول الحمام إلا بمئزر ^(٣) ، وحرام على المرأة دخول الحمام إلا بنفساء أو مريضة . ودخلت عائشة رضي الله عنها حماما من سقم بها . فإن دخلت لضرورة فلا تدخل إلا بمئزر سابغ ، ويكره للرجل أن يعطيها أجرة الحمام فيكون معينها على المكروه .

النوع الثاني : فيما يحدث في البدن من الأجزاء وهي ثمانية

(الاول) شعر الرأس ولا بأس بحلقه لمن أراد التنظيف ولا بأس بتركه لمن يدهنه ويرحله إلا إذا تركه قرعا ، أى قطعاً وهو دأب أهل الشطارة ، أو أرسل الذوائب على هيئة أهل الشرف حيث صار ذلك شعاراً لهم فإنه إذا لم يكن شريفاً كان ذلك تلبساً (الثاني) شعر الشارب وقد قال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « قصوا الشارب ، وفي لفظ آخر « جروا الشوارب » وفي لفظ آخر « حفوا الشوارب وأعفوا اللحى ^(٤) » ، أى اجعلوها حفافاً الشفة أى حولها ، وحفاف الشيء : حوله . ومنه « وترى الملائكة حافين من حول العرش » وفي لفظ آخر « احفوا » وهذا يشعر بالاستئصال وقوله « حفوا » يدل على مادون ذلك . وقال الله عز وجل « (إن يستكبروكوا فيحلفكم تبخلوا) أى يستعصى عليكم ، وأما الحلق فلم يرد . والإحفاء القريب من الحلق نقل عن الصحابة : نظر بعض التابعين إلى رجل أحفى شاربه فقال : ذكرتني أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال المعيرة بن شعبة « نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طال شاربه فقال : تعال قصه لى على سواك ^(٥) » ، ولا بأس بترك سباليه وهما طرفا الشارب ، فعل ذلك عمر وغيره لأن ذلك لا يستر الفم ولا يبق فيه غمر الطعام إذ لا يصل إليه : وقوله صلى الله عليه وسلم « اعفوا اللحى » أى كثروها وفي الخبر « إن اليهود يعفون شواربهم

(١) حديث « نزل منزلاً في بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود يغمر ظهره ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عمر بن الخطاب . (٢) حديث « لا يحل للرجل أن يدخل حليته الحمام .. الحديث » يأتي في الذي يليه مع اختلاف (٣) حديث « حرام على الرجال دخول الحمام إلا بمئزر .. الحديث » أخرجه النسائي والحاكم وصححه من حديث جابر « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليته الحمام » ولقد اختلف من حديث عائشة « الحمام حرام على نساء أمي » قال صحيح الإسناد ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر « فلا يدخلها الرجال إلا بإزار وامعوا النساء إلا من مريضة أو نساء » (٤) حديث « قصوا » وفي لفظ « حزوا » وفي لفظ « احفوا الشوارب وأعفوا اللحى » متفق عليه من حديث ابن عمر باللفظ « احفوا » وأسلم من حديث أبي هريرة « حزوا » ولأحمد من حديثه « قصوا » (٥) حديث المعيرة بن شعبة « نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طال شاربه فقال : تعال قصه لى على سواك » أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي في المعامل

ويقصون لحام^(١) مغالغوم ، وكره بعض العلماء الحلق ورآه بدعة (الثالث) شعر الإبط ويستحب تنفه في كل أربعين يوماً مرة وذلك سهل على من تعود تنفه في الابتداء ، فأما من تعود الحلق فيكفيه الحلق إذ في التنف تعذيب وإيلام ، والمقصود النظافة وأن لا يجتمع الوسخ في خللها ويحصل ذلك بالحلق (الرابع) شعر العانة ويستحب إزالة ذلك إما بالحلق أو بالنورة ولا ينبغي أن تتأخر عن أربعين يوماً (الخامس) الأظفار وتقليمها مستحب لشناعة صورتها إذا طالت ولما يجتمع فيها من الوسخ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة أقلم أظفارك فإن الشيطان يقعد على ما طال منها^(٢) ، ولو كان تحت الظفر وسخ فلا يمنع ذلك صحة الوضوء لأنه لا يمنع وصول الماء ولأنه يتساهل فيه للحاجة لاسيما في أظفار الرجل وفي الأوساخ التي تجتمع على البراجم وظهور الأرجل والأيدي من العرب وأهل السواد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم بالقلم وينكر عليهم ما يرى تحت أظفارهم من الأوساخ ولم يأمرهم بإعادة الصلاة ، ولو أمر به لكان فيه فائدة أخرى وهو التغليظ والرجز عن ذلك . ولم أر في الكتب خبراً مروياً في ترتيب قلم الأظفار ولكن سمعت أنه صلى الله عليه وسلم بدأ بمسبحة النبي وختم بإبهامه النبي وابتدأ في اليسرى بالخنصر إلى الإبهام^(٣) ، ولما تأملت في هذا خطر لي من المعنى ما يدل على أن الرواية فيه صحيحة إذ مثل هذا المعنى لا ينكشف ابتداءً إلا بنور النبوة ، وأما العالم ذو البصيرة فغايتة أن يستنبطه من العقل بعد نقل العمل إليه . فالذي لاح لي فيه والعلم عند الله سبحانه أنه لا بد من قلم أظفار اليد والرجل ، واليد أشرف من الرجل فيبدأ بها ، ثم اليمنى أشرف من اليسرى فيبدأ بها ، ثم على اليمنى خمسة أصابع والمسبحة أشرفها إذ هي المشيرة في كلتي الشهادة من جملة الأصابع ، ثم بعدها ينبغي أن يبتدئ بها على يمينها إذ الشرع يستحب إدارة الطهور وغيره على اليمين ، وإن وضعت ظهر الكف على الأرض فالإبهام هو اليمين ، وإن وضعت بطن الكف فالوسطى هي اليمنى ، واليد إذا تركت بطبعمها كان الكف مائلاً إلى جهة الأرض إذ جهة حركة اليمين إلى اليسار واستتمام الحركة إلى اليسار يجعل ظهر الكف عالياً فيقتضيه الطبع أولى ، ثم إذا وضعت الكف على الكف صارت الأصابع في حكم حلقة دائرة ، فيقتضى ترتيب الدور الذهاب عن يمين المسبحة إلى أن يعود إلى المسبحة ، فتقع البداءة بخنصر اليسرى والختم بإبهامها ويبقى إبهام اليمنى فيختم به التقليم . وإنما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الأصابع كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها . وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف أو وضع ظهر الكف على ظهر الكف فإن ذلك لا يقتضيه الطبع . وأما أصابع الرجل فالأولى عندي - إن لم يثبت فيها نقل - أن يبدأ بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى كما في التخليل ، فإن المعاني التي ذكرها في اليد لا تتجه ههنا إذ لا مسبحة في الرجل . وهذه الأصابع في حكم صف واحد ثابت على الأرض فيبدأ من جانب اليمنى فإن تقديرها حلقة بوضع الأخص على الأخص يأباه الطبع بخلاف اليمين . وهذه الدقائق في الترتيب تنكشف بنور النبوة في لحظة واحدة وإنما يطول التعب علينا . ثم لو سئلتنا ابتداء عن الترتيب في ذلك ربما لم يخطر لنا . وإذا ذكرنا فعله صلى الله عليه

(١) حديث « إن اليهود يعمون شواربهم ويقصون لحام مغالغوم » أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة « قلنا يا رسول الله إن أهل الكتاب يقصون عتائينهم ويوفرون سبالم فقال قصوا سبالمكم ووفروا عتائينكم وحملوا أهل الكتاب » قلت والمشهور أن هذا فعل الجوس في صحيح ابن عمر في الجوس « أنهم يوفرون سبالمهم ويحلقون لحام مغالغوم »

(٢) حديث « يا أبا هريرة قلم ظفرك فان الشيطان يقعد على ما طال منها » أخرجه الخطيب في الجامع ، إسناده ضعيف من حديث جابر « قصوا أظفاركم » فان الشيطان يجري ما بين اللحم والظفر (٣) حديث « البداءة في قلم الأظفار : جهة اليمنى والختم بإبهامها وفي اليسرى بالخنصر إلى الإبهام » لم أجده أصلاً وقد أنكره أبو عبد الله المازري في الرد على الفرائي وشمع عليه به

وسلم وترتيبه ربما تيسر لنا مما عاينه صلى الله عليه وسلم بشهادة الحكم وتنبيهه على المعنى استنباط المعنى ، ولا تظن أن أفعاله صلى الله عليه وسلم في جميع حركاته كانت خارجة عن وزن وقانون وترتيب بل جميع الأمور الاختيارية التي ذكرناها يتردد فيها الفاعل بين قسمين أو أقسام كان لا يقدم على واحد معين بالاتفاق بل بمعنى يقتضى الإقدام والتقديم ، فإن الاسترسال مهملاً - كما يتفق - بحجة البهائم ، وصبط الحركات بموازين المعاني بحجة أولياء الله تعالى . وكلما كانت حركات الإنسان وخطراته إلى الضبط أقرب وعن الإهمال وتركه سدى أبعد : كانت مرتبته إلى رتبة الأنبياء والأولياء أكثر وكان قربه من الله عز وجل أظهر ؛ إذ القريب من النبي صلى الله عليه وسلم هو القريب من الله عز وجل والقريب من الله لا بد أن يكون قريباً فالتقريب من القريب قريب بالإضافة إلى غيره فنعود بالله أن يكون زمام حركاتنا وسكنا في يد الشيطان بواسطة الهوى . واعتبر في ضبط الحركات باكتحاله صلى الله عليه وسلم « فإنه كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثاً وفي اليسرى اثنتين ^(١) » ، فيبدأ باليمنى لشرفها . وتفاوته بين العينين لتكون الحلة وتراً ، فإن للوتر فضلاً عن الزوج فإن الله سبحانه وتر يحب الوتر فلا ينبغي أن يخلو فعل العبد من مناسبة لوصف من أوصاف الله تعالى . ولذلك استحب الإيتار في الاستحجار . وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر لأن اليسرى لا ينحصر إلا واحدة والغالب أن الواحدة لا تستوعب أصول الأجفان بالكحل ، وإنما خصص اليمنى بالثلاث لأن التفضيل لا بد منه للإيتار واليمن أفضل فهي بالزيادة أحق * فإن قلت : فلم اقتصر على اثنتين اليسرى وهي زوج ؟ فالجواب أن ذلك ضرورة إذ لو جعل لكل واحدة وتركها للمجموع زوجاً إذ الوتر مع الوتر زوج ، ورعايته الإيتار في مجموع العمل وهو في حكم الحصلة الواحدة أحب من رعايته في الأحاد . ولذلك أيضاً وجه وهو أن يكتحل في كل واحدة ثلاثاً على قياس الوضع ^(٢) . وقد نقل ذلك في الصحيح وهو الأولى . ولو ذهبت استقصى دقائق ما راعاه صلى الله عليه وسلم في حركاته لطال الأمر فقس بما سمعته ما لم تسمعه . واعلم أن العالم لا يكون وارثاً للنبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا اطلع على جميع معاني الشريعة حتى لا يكون بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم إلا درجة واحدة وهي درجة النبوة ، وهي الدرجة الفارقة بين الوارث والموروث ، إذ الموروث هو الذي حصل المال له واشتغل بتحصيله واقتدر عليه والوارث هو الذي لم يحصل ولم يقدر عليه ولكن انتقل إليه وتلقاه منه بعد حصوله له ، فأمثال هذه المعاني مع سهولة أمرها بالإضافة إلى الأغوار والأسرار لا يستقل بدركها ابتداءً إلا الأنبياء ولا يستقل باستنباطها تلقياً بعد تنبيه الأنبياء عليها إلا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء عليهم السلام (السادس والسابع) زيادة السرة وقلمة الخشفة ؛ أما السرة فتقطع في أول الولادة وأما التطهير بالختان فعادة اليهود في اليوم السابع من الولادة ومخالفتهم بالتأخير إلى أن يشعر الولد أحب وأبعد عن الخطر قال صلى الله عليه وسلم « الختان سنة للرجال ومكرمة للنساء ^(٣) » ، وينبغي أن لا يبالغ في خفض المرأة قال صلى الله عليه وسلم لأم عطية وكانت تخفض « يا أم عطية أسمى ولا تهكي فإنه أسرى للوجه وأعطى عند الزوج ^(٤) » ، أي أكثر لماء الوجه ودمه وأحسن في جماعها فأذطر إلى حزالة لفظه صلى الله عليه وسلم في الكناية وإلى إشراق نور النبوة من مصالح الآخرة التي هي أهم مقاصد النبوة إلى

(١) حديث « كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثاً وفي اليسرى اثنتين » أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف
(٢) حديث « الاكتحال في كل عين ثلاثاً » قال المزالي ونقل ذلك في الصحيح ، قلت هو عند الترمذي وابن منجه من حديث ابن عباس قال الترمذي حديث حسن .

(٣) حديث « الختان سنة الرجال مكرمة النساء » أخرجه أحمد والبيهقي من رواية أبي المليح بن أسامة عن أبيه بإسناد ضعيف
(٤) حديث « أم عطية أسمى ولا تهكي .. الحديث » أخرجه الحاكم والبيهقي من حديث العاصم بن قيس ولأبي داود نحوه من حديث أم عطية وكلاهما ضعيف

مصالح الدنيا حتى انكشف له وهو أُمى من هذا الأمر النازل قدره مالو وقعت الغفلة عنه خيف ضرره فسبحان من أرسله رحمة العالمين ليجمع لهم بيمين بعثته مصالح الدنيا والدين صلى الله عليه وسلم (الثامنة) ما طال من اللحية وإنما أخرناها لتلحق بها مافى اللحية من السنن والدع إذ هذا أقرب موضع يليق به ذكرها وقد اختلفوا فيما طال منها فقل إن قبض الرجل على لحيته وأخذ ما فضل عن القبضة فلا بأس فقد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين واستحسنه الشعبي وابن سيرين وكرهه الحسن وقتادة وقالوا تركها عافية أحب لقوله صلى الله عليه وسلم «اعفوا اللحى» والأمر في هذا قريب إن لم ينته إلى تقصيص اللحية وتدويرها من الحوائث فإن الطول الممرط قد يشوه الحلقة ويطلق السنة المغتابين بالنبذ إليه فلا بأس بالاحراز عنه على هذه النية . وقال النخعي عجب لرجل عاقل طويل اللحية كيف لا يأخذ من لحيته ويجعلها بين لحيتين فإن التوسط في كل شيء حسن ، ولذلك قيل كلما طالت اللحية تضر العقل .

فصل

وفي اللحية عشر خصال مكروهة وبعضها أشد كراهة من بعض ؛ خضابها بالسواد وتبييضها بالكبريت وتنفها وتنشف الشيب منها والنقصان منها والزيادة وتسريحها تصنعاً لأجل الرياء وتركها شعثاً إظهاراً للزهد والنظر إلى سوادها عجباً بالشباب وإلى بياضها تكبراً لعلو السن وخضابها بالحمرة والصفرة من غير نية تشبهها بالصالحين . أما الأول وهو الخضاب بالسواد فهو منهي عنه لقوله صلى الله عليه وسلم «خير شبابكم من تشبه بشيوخكم وشر شيوخكم من تشبه بشبابكم»^(١) ، والمراد بالتشبه بالشيخوخة في الوقار لا في تبييض الشعر و «نهى عن الخضاب بالسواد»^(٢) وقال هو خضاب أهل النار^(٣) ، وفي لفظ آخر «الخضاب بالسواد خضاب الكفار» وتزوج رجل على عهد عمر رضي الله عنه وكان يخضب بالسواد فصل خضابه وظهرت شيبته فرفعه أهل المرأة إلى عمر رضي الله عنه فرد نكاحه وأوجعه ضرباً وقال : غررت القوم بالساب ولبست عليهم شيبتك ويقال أول من خضب بالسواد فرعون لعنه الله وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد كخواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة»^(٤) ، الثاني : الخضاب بالصفرة والحمرة وهو جائز تليسا للشيب على الكفار في الغزو والجهاد فإن لم يكن على هذه النية بل للتشبه بأهل الدين فهو مذموم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصفرة خضاب المسلمين والحمرة خضاب المؤمنين»^(٥) ، وكانوا يخضبون بالحناء للحمرة وبالخلوق والكتم للصفرة ، وخضب بعض العلماء بالسواد لأجل الغزو وذلك لأبأس به إذا صحت النية ولم يكن فيه هوى وشهوة . الثالث : تبييضها بالكبريت استعجالاً لإظهار علو السن توصل إلى التوقير وقبول الشهادة والتصديق بالرواية عن الشيخوخة وترفعاً عن الشباب وإظهاراً لكثرة العلم ظناً بأن كثرة الأيام تعطيه فضلاً وهيئات فلا يزيد كبر السن للجاهل إلا جهلاً فالعلم ثمرة العقل وهي غريزة ولا يؤثر الشيب فيها ومن كانت غريزته الحق فطول المدة يؤكد حماقته وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب

(١) حديث «خير شبابكم من تشبه بشيوخكم» الحديث «أخرجه الطبراني من حديث وثقة بإسناد ضعيف

(٢) حديث «نهى عن الخضاب بالسواد» أخرجه ابن سعد في الطبقات من حديث عمرو بن العاص بإسناد منقطع ، ولمسلم من حديث حابر «وعيروا هذا بئسء واجتنبوا السواد» قاله حين رأى يابس شمر أفي قعافه

(٣) حديث «الخضاب بالسواد خضاب أهل النار» وفي لفظ «خضاب الكفار» أخرجه الطبراني والحاكم من حديث ابن عمر بلفظ «الكفار» قال ابن أبي حاتم منكر .

(٤) حديث «يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد... الحديث» أخرجه أبو داود والبيهقي من حديث ابن عباس بإسناد جيد . (٥) حديث «الصفرة خضاب المسلمين والحمرة خضاب المؤمنين» أخرجه الطبراني والحاكم بلفظ الأفراد من حديث ابن عمر قال ابن أبي حاتم منكر .

بالعلم . كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدم ابن عباس وهو حديث السن على أكابر الصحابة ويسأله دونهم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما أتى الله عز وجل عبدا علما إلا شابا والخير كله في الشباب ثم تلا قوله عز وجل ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَدْكُرُهُمْ يَقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ وقوله تعالى ﴿ لَنُفْتِنَهُمْ فِتْنَةً يَأْمُرُونَ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحَكْمَ صَبِيًّا ﴾ وكان أنس رضي الله عنه يقول : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء فقيل له يا أبا حمزة فقد أسن فقال لم يشنه الله بالشيب فقيل أهو شين فقال كلكم يكرهه ^(١) ، ويقال إن يحيى بن أكرم ولي القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة فقال له رجل في مجلسه يريد أن يحمله بصغر سنه كم سن القاضي أيده الله فقال مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لإمارة مكة وقضاءها فأخذه ^(٢) وروى عن مالك رحمه الله أنه قال قرأت في بعض الكتب لا تعرنكم اللحى فإن التيس له لحية وقال أبو عمرو بن العلاء إذا رأيت الرجل طويل القامة صغير الهامة عريض اللحية فاقض عليه بالحق ولو كان أمية ابن عبد شمس وقال أيوب السخيتي أني أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلم منه . وقال علي بن الحسين من سبق فيه العلم قبلك فهو إمامك فيه وإن كان أصغر سنا منك ، وقيل لأبي عمرو بن العلاء أحسن من الشيخ أن يتعلم من الصغير فقال إن كان الجاهل يقبض به فالتعلم يحسن به وقال يحيى بن معين لأحمد بن حنبل وقد رآه يمشى خلف بغلة الشافعي يا أبا عبد الله تركت حديث سفيان بعلوه وتمشى خلف بغلة هذا الفتى وتسمع منه فقال له أحمد لو عرفت لكنت تمشى من الجانب الآخر إن علم سفيان إن فاتني بعلو أدركته بنزول وإن عقل هذا الشاب إن فاتني لم أدركه بعلو ولا نزول (الرابع) تنفياضها استنكافا من الشيب « وقد نهى عليه السلام عن تنف الشيب وقال هو نور المؤمن ^(٣) » وهو في معنى الخضاب بالسواد وعله الكراهية ماسبق والشيب نور الله تعالى والرغبة عنه رغبة عن النور (الخامس) تنفها أو تنف بعضها بحكم العبث والهوس وذلك مكروه ومشوه للخلة وتنف الفنيكين بدعة وهما حائبا العنفقة . شهد عند عمر بن عبد العزيز رجل كان يلتف فنيكه فرد شهادته ورد عمر بن الخطاب رضي الله عنه نوابن أبي ليلى قاضي المدينة شهادة من كان يلتف لحيته وأما تنفها في أول النيات تشبها بالمرد من المنكرات الكبار فإن اللحية زينة الرجال فإن الله سبحانه ملائكة يقسمون والذي زين بنى آدم بالحى وهو من تمام الخلق وبها يتميز الرجال عن النساء وقيل في غريب التأويل اللحية هي المراد بقوله تعالى ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ قال أصحاب الأحنف بن قيس وددنا أن نشترى للأحنف لحية ولو بعشرين ألفا وقال شريح القاضي وددت أن لى لحية ولو بعشرة آلاف وكيف تكره اللحية وفيها تعظيم الرجل والنظر إليه بعين العلم والوقار والرفع في المحال وإقبال الوجوه إليه والتقديم على الجماعة ووقاية العرض ؟ فإن من يشتم يعرض باللحية إن كان للشتم لحية وقد قيل إن أهل الجنة مرد إلا هرون أحمأ موسى صلى الله عليهما وسلم فإن له لحية إلى سرته تخصيصاً له وتفضيلاً (السادس) تنفيسها كالتعبية طاقة على طاقة

(١) حديث « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء فقيل له يا أبا حمزة وقد أسن فقال لم يشبه الله بالشيب » متفق عليه من حديث أنس دون قوله « فقيل... الخ » ولمسلم من حديثه « وسئل عن شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ماشاه الله بيضاء » (٢) حديث يحيى بن أكرم « ولي القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة فقيل له كم سن القاضي فقال مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لإمارة مكة وقضاءها يوم الفتح وأنا أكبر من معاذ ابن جبل حين وجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصيا على أهل اليمن » أخرجه الخطيب في التاريخ بإسناد فيه نظر وما ذكره ابن أكرم صحيح باللسان إلى عتاب بن أسيد فإنه كان حين الولاية ابن عشرين ، ولما بالنسبة إلى معاذ فاما يتم له ذلك على قول يحيى ابن سعيد الأنصاري ومالك وابن أبي حاتم فإنه كان حين مات ابن ثمان وعشرين سنة والمرجح أنه مات ابن ثلاث وثلاثين سنة في الطاعون سنة ثمانية عشر والله أعلم (٣) حديث « نهى عن تنف الشيب وقال هو نور المؤمن » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه النسائي وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده

للتزين للنساء والتضع قال كعب : يكون في آخر الزمان أقوام يقصون لحاهم كذنب الحمامة ويعرقون نعالهم كالنساء
أوثانك لا خلاق لهم (السابع) الزيادة فيها وهو أن يزيد في شعر العارضين من الصدغين وهو من شعر الرأس حتى
يحاوز عظم اللحي ويتهى إلى نصف الخذ وذلك بياين هيئة أهل الصلاح . (الثامن) تسريحها لأجل الناس قال بشر :
في اللحية شر كان : تسريحها لأجل الناس وتركها متفتلة لإظهار الزهد . (التاسع والعاشر) النظير في موادها أو في
بياضها بعين العجب وذلك مدموم في جميع أجزاء البدن بل في جميع الأخلاق والأفعال على ماسياتي بيانه فهذا
ما أردنا أن نذكره من أنواع التزين والنظافة وقد حصل من ثلاثة أحاديث من سنن الجسد اثنتا عشرة خصلة خمس
منها في الرأس وهي فرق شعر الرأس^(١) والمضمضة والاستنشاق^(٢) وقص الشارب والسواك وثلاثة في اليد والرجل
وهي القلم وغسل البراحم وتنظيف الرواجب^(٣) وأربعة في الجسد وهي تنف الإبط والاستحداد والختان والاستنجاء
بالماء فقد وردت الأخبار بمجموع ذلك وإذا كان غرض هذا الكتاب التعرض للطهارة الظاهرة دون الباطنة
فلنتصر على هذا وليتحقق أن فضلات الباطن وأوساخه التي يجب التنظيف منها أكثر من أن تحصى وسيأتي تفصيلها
في ربيع المهلكات مع تعريف الطرق في إزالتها وتطهير القلب منها إن شاء الله عز وجل .
تم كتاب أسرار الطهارة بحمد الله تعالى وعونه . ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصلاة والحمد لله وحده
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

كتاب أسرار الصلاة ومهماتها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي غمر العباد بطائفه ، وعمر قلوبهم بأنوار الدين ووظائفه التي تنزل عن عرش الجلال إلى السماء
الدنيا من درجات الرحمة لإحدى عواطفه فارق الملوك مع التفرد بالجلال والكبرياء بترغيب الخلق في السؤال
والدعاء فقال : هل من داع فاستجيب له وهل من مستغفر فأغفر له ؟ وبأين السلاطين بفتح الباب ، ورفع الحجاب
فرخص للعباد في المناجاة بالصلوات كيفما نعلت بهم الحالات في الجماعات والخلوات ولم يقتصر على الرخصة بل
تلطف بالترغيب والدعوة وغيره من ضعفاء الملوك لا يسمح بالخلوة إلا بعد تقديم الهدية والرشوة فسبحانه ما أعظم
شأنه وأقوى سلطانه ، وأتم لطفه ، وأعم إحسانه ؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى ووليّه المجتبى وعلى آله وأصحابه
مفاتيح الهدى ومصابيح الدجى وسلم تسليماً أما بعد : فإن الصلاة عماد الدين ، وعصام اليقين ، ورأس القربات ،
وغرة الطاعات ؛ وقد استقصينا في فن الفقه - في بسيط المذهب ووسيطه ووجيزه - أصولها وفروعها ، صارفين جمام العناية
إلى تفاريحها النادرة . ووقائعها الشاذة لتكون خزانة للمفتي منها يستمد ومعولاً له إليها يفزع ويرجع . ونحن الآن

(١) حديث « فرق شعر الرأس .. الخ » من حديث ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبدل شعره إلى أن
قال ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه » (٢) حديث « عصر من الفطرة .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث
عائشة ولفظه « قص الشارب وأعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وعسل الأبراجم وتنف الإبط وحلق العانة وانتقاص
الماء - قال وكعب يعني الاستنجاء - قال مصعب ونسيت الإشارة إلا أن تكون المضمضة ضعفة النساء ولأبي داود واس ماجه من
حديث عمار بن ياسر نحوه فذكر فيه المضمضة والاختتان والانتقاص ولم يذكر إعفاء اللحية وانتقاص الماء قال أبو داود روى نحوه
عن ابن عباس . قال « حسن كلها في الرأس » وذكر منها « الفرق » ولم يذكر « لعناء اللحية » وفي الصحيحين من حديث أبي
هريرة « الفطرة خمس : الختان .. الحديث » (٣) حديث « تنظيف الرواجب » تقدم

في هذا الكتاب تقتصر على ما لا بد للمريد منه من أعمالها الظاهرة وأسرارها الباطنة ، وكاشفون من دقائق معانيها الخفية في معاني الخشوع والإخلاص والنية ما لم تجر العادة بذكره في فن الفقه ؛ ومرتبون الكتاب على سبعة أبواب . الباب الأول : في فضائل الصلاة . الباب الثاني : في تفضيل الأعمال الظاهرة من الصلاة . الباب الثالث : في تفضيل الأعمال الباطنة منها . الباب الرابع : في الإمامة والقُدوة . الباب الخامس : في صلاة الجمعة وأدائها . الباب السادس : في مسائل متفرقة تعم بها البلوى يحتاج المريد إلى معرفتها . الباب السابع : في التطوعات وغيرها .

الباب الأول : في فضائل الصلاة السجود والجماعة والأذان وغيرها

فضيلة الأذان

قال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك أسود لا يهولهم حساب ولا ينالهم فزع حتى يفرغ مما بين الناس : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل وأم يقوم وهم به راضون ؛ ورجل أذن في مسجد ودعا إلى الله عز وجل ابتغاء وجه الله ؛ ورجل ابتلى بالرزق في الدنيا فلم يشغله ذلك عن عمل الآخرة ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا يسمع نداء المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه ^(٣) » ، وقيل في تفسير قوله عز وجل ﴿ ومن أحسن قولاً من دعا إلى الله وعمل صالحاً ﴾ نزات في المؤذنين ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن ^(٤) » ، وذلك مستحب إلا في الحيلتين فإنه يقول فيهما : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ وفي قوله قد قامت الصلاة أقامها الله وأدامها ما دامت السموات والأرض وفي التشويب صدوت وبررت ونصحت ؛ وعند الفراغ يقول : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد وقال سعيد بن المسيب من صلى بأرض فلاة صلى عن يمينه ملك وعن شماله ملك فإن أذن وأقام صلى وراه أمثال الجبال من الملائكة .

فضيلة المكتوبة

قال الله تعالى ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « مثلي الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بياض أحدهم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقى من درنه قالوا لا شيء قال صلى الله عليه

باب أسرار الصلاة

(١) حديث « ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك . . الحديث » أخرجه الترمذي وحسنه من حديث ابن عمر مختصراً وهو في الصغير للطبراني نحوه مما ذكره المؤلف (٢) حديث « لا يسمع صوت المؤذن » جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة أخرجه الباري من حديث أبي سعيد

(٢) حديث « يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه » أخرجه الطبراني في الأوسط والحسن بن سعيد في مسنده من حديث أنس بإسناد صحيح (٤) حديث « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن » متفق عليه من حديث أبي سعيد

(٥) حديث « خمس صلوات كتبهن الله على العباد . . الحديث » أخرجه أبو داود والسنائي وابن ماجه وابن حبان من حديث عباد بن الصامت وصححه ابن عبد البر

وسلم فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من لقي الله وهو مضيق للصلوة لم يعبأ الله بشيء من حسناته^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الصلاة عماد الدين فمن تركها فقد هدم الدين^(٥) » ، وسئل صلى الله عليه وسلم : « أى الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً وبرهاناً يوم القيامة ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان^(٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « مفتاح الجنة الصلاة^(٨) » ، وقال : « ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة ولو كان شيء أحب إليه منها لتعبد به ملائكته فمنهم راجع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد^(٩) » ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من ترك صلاة متعمداً فقد كفر^(١٠) » ، أى قارب أن ينخلع عن الإيمان بالخلل عروته وسقوط عماده كما يقال لمن قارب البلدة إنه بلغها ودخلها . وقال صلى الله عليه وسلم : « من ترك صلاة متعمداً فقد برئ من ذمة محمد عليه السلام^(١١) » ، وقال أبو هريرة رضى الله عنه : « من توضأ فأحسن وضوءه ثم خرج عامداً إلى الصلاة فإنه في صلاة ما كان يعتمد إلى الصلاة وأنه يكتب له بإحدى خطوتيهِ حسنة وتمحى عند الأخرى سيئة فإذا سمع أحدكم الإقامة فلا ينبغي له أن يتأخر فإن أعظمكم أجراً أبعدكم داراً ، قالوا يا أبا هريرة؟ قال : من أجل كثرة الخطأ . ويروى : « إن أول ما ينظر فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة^(١٢) » فإن وجدت تامة قبلت منه وسائر عمله وإن وجدت ناقصة ردت عليه وسائر عمله وقال صلى الله عليه وسلم : « يا أبا هريرة مرأهك بالصلاة فإن الله يأتيك بالرزق من حيث لا تحسب^(١٣) » ، وقال بعض العلماء : مثل المصلى مثل التاجر الذى لا يحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال ، وكذلك المصلى لا تقبل له نافلة حتى يؤدي الفريضة . وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول : إذا حضرت الصلاة قوموا إلى ناركم التى أوقدتموها فأطفئوها .

فضيلة إتمام الأركان

قال صلى الله عليه وسلم : « مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى^(١٤) » ، وقال يزيد الرقاشى : كانت

(١) حديث « مثل خمس صلوات كمثل نهر .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث جابر ولما نحوه من حديث أبي هريرة
(٢) حديث « الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث « بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما » أخرجه مالك من رواية سعيد بن المسيب مرسل (٤) حديث « من لقي الله مضيقاً للصلوة لم يعبأ الله بشيء من حسناته » وفيه « فإن فسدت فسد سائر عمله » رواه الطبراني في الأوسط من حديث أسد (٥) حديث « الصلاة عماد الدين » رواه البيهقي في الشعب بسند ضعفه من حديث عمر قال الحاكم : « كرامة لم يسمع من عمر قال ورواه ابن عمر لم يقف عليه إلا في الإصلاح فقال في مشكل الوسيط لأنه غير معروف (٦) حديث « مثل أى الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها » متفق عليه من حديث ابن مسعود (٧) حديث « من حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً وبرهاناً .. الحديث » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو (٨) حديث « مفتاح الجنة الصلاة » رواه أبو داود الطيالسي من حديث جابر وهو عند الترمذي وابن ماجه ليس داخلاً في الرواية (٩) حديث « ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد شيئاً أحب إليه من الصلاة .. الحديث » لم أجده هكذا وآخر الحديث عند الطبراني من حديث جابر وعند الحاكم من حديث ابن عمر (١٠) حديث « من ترك صلاة متعمداً فقد كفر » أخرجه البراء من حديث أبي الدرداء بإسناد فيه مقال (١١) حديث « من ترك صلاة متعمداً فدفتر من ذمة محمد صلى الله عليه وسلم » أخرجه أحمد والبيهقي من حديث أم أيمن بنحوه ورجاله ثقات (١٢) حديث « أول ما ينظر الله فيه يوم القيامة من عمل العبد الصلاة .. الحديث » رويها في الطيوريات من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف ولأصحاب السنن المأثور وصححه فساداً نحوه من حديث أبي هريرة وسأني (١٣) حديث « يا أبا هريرة مرأهك بالصلاة فإن الله يأتيك بالرزق من حيث لا تحسب » لم ألق له على أصل (١٤) حديث « مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى » أخرجه ابن المبارك في الرهد من حديث الحسن مرسل وأسنده البيهقي في المعجب من حديث ابن عباس بإسناد فيه جهالة

صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستوية كأنها موزونة^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم «إن الرجلين من أمتي ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد وإن ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض»^(٢) ، وأشار إلى الخشوع وقال صلى الله عليه وسلم «لا ينظر الله يوم القيامة إلى العبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده»^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم «أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار»^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم «من صلى صلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتني ومن صلى لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها عرجت وهي سوداء مظلمة تقول ضيعك الله كما صيعتني حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه»^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته»^(٦) ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه وسلمان رضي الله عنه : الصلاة مكيال فمن أوى استوفى ، ومن طلف فقد علم ما قال الله في المطففين .

فضيلة الجماعة

قال صلى الله عليه وسلم «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»^(٧) ، وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم فقد ناسا في بعض الصلوات فقال «لقد هممت أن آمر رجلا يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم»^(٨) ، وفي رواية أخرى «ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأمر بهم فتحرق عليهم بيوتهم بحزم الخطب ولو علم أحدهم أنه يجد عظما سمينا أو ممراتين لشهدها ، يعني صلاة العشاء . وقال عثمان رضي الله عنه مرفوعا «من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة»^(٩) ، وقال صلى الله عليه وسلم «من صلى صلاة في جماعة فقد ملأ نحره عبادة»^(١٠) ، وقال سعيد بن المسيب : ما أذن مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا في المسجد . وقال محمد بن واسع : ما أشتى من الدنيا إلا ثلاثة : أخا إنه إن تعوجت قومي وقوتا من الرزق عفوا من غير تبعة وصلاة في جماعة يرفع عن سهوها ويكتب لي فضلها . وروى أن أبا عبيدة بن الجراح أم قوما مرة فلما انصرف قال : ما زال الشيطان في أنفا حتى أريت أن لي فضلا عن غيري لا أؤم أبدا . وقال الحسن : لاتصلوا خلف رجل لا يختلف إلى العلماء . وقال النخعي : مثل الذي يؤم الناس بعير علم مثل الذي يكيل الماء في البحر لا يدري

- (١) حديث يزيد الرقاشي «كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستوية كأنها موزونة» رواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه أبو الوليد الصغار في كتاب الصلاة وهو مرسل ضعيف (٢) حديث «إن الرجلين من أمتي ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد . الحديث» أخرجه ابن المحبر في المقل من حديث أبي أيوب الأنصاري بنحوه وهو موضوع ورواه الحارث ابن أبي أسامة في نهضة عن ابن المحبر (٣) حديث «لا ينظر الله إلى العبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده» أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح (٤) حديث «أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار» أخرجه ابن عدي في عوالي مشايخ مصر من حديث جابر «ما يؤمنه إذا لفت في صلاته أن يحول الله عز وجل وجهه وجه كلب أو وجه خنزير» قال منسكرا بهذا الإسناد . وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «أما يحشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحمل الله وجهه وجه حمار» (٥) حديث «من صلى الصلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتني . الحديث» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أسد ضعيف والطحاوي والبيهقي في الشعب من حديث عبادة ابن الصامت بإسناد ضعيف نحوه (٦) حديث «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته» أخرجه أحمد والحاكم وصححه إسناده من حديث أبي قتادة (٧) حديث «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة» متفق عليه من حديث ابن عمر (٨) حديث أبي هريرة «لقد هممت أن آمر رجلا يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون . الحديث» متفق عليه (٩) حديث عثمان «من شهد صلاة العشاء فكأنما قام نصف ليلة . الحديث» أخرجه مسلم من حديثه مرفوعا قال الترمذي وروى عن عثمان موقوفا (١٠) حديث «من صلى صلاة في جماعة فقد ملأ نحره عبادة» لم أحده مرفوعا وإنما هو من قول سعيد بن المسيب رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة

زيادته من نقصانه ؟ وقال حاتم الأصم : فالتفتي الصلاة في الجماعة فعزاني أبو إسحق البخاري وحده ، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشر آلاف لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا . وقال ابن عباس رضي الله عنهما من سمع المنادي فلم يجب لم يرد خيرا لم يرد به خيرا . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : لأن تملأ أذن ابن آدم رصاصا مذابا خيرا له من أن يسمع النداء ثم لا يجيب . وروى أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقيل له : إن الناس قد انصرفوا فقال ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ لفصل هذه الصلاة أحب إلى من ولاية العراق . وقال صلى الله عليه وسلم : من صلى أربعين يوما الصلوات في جماعة لا تفوته فيها تكبيرة الإحرام كتب الله له براءتين : براءة من النفاق وبراءة من النار ^(١) ، ويقال إنه إذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالسكوك الدرر فتقول لهم الملائكة : ما كانت أعمالكم ؟ فيقولون : كنا إذا سمعنا الأذان قننا إلى الطهارة لا يشغلنا غيرها ثم تحشر طائفة وجوههم كالآقار فيقولون بعد السؤال : كنا نتوضأ قبل الوقت ثم تحشر طائفة وجوههم كالشمس فيقولون : كنا نسمع الأذان في المسجد . وروى أن السلف كانوا يعززون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى ويعززون سبعا إذا فاتتهم الجماعة .

فضيلة السجود

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي ^(٢) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة ^(٣) ، وروى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مرافقتك في الجنة فقال صلى الله عليه وسلم : أعني بكثرة السجود ^(٤) ، وقيل : إن أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجدا ^(٥) ، وهو معنى قوله عز وجل ﴿ واسجد واقترب ﴾ وقال عز وجل ﴿ سيأمنون من أثر السجود ﴾ فقيل هو ما يلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود وقيل هو نور الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر ، وهو الأصح وقيل هي الفرر التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء وقال صلى الله عليه وسلم : إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول يا ويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت أنا بالسجود فعصيت فلي النار ^(٦) ، ويروى عن علي بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد في كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجاد . ويروى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لا يسجد إلا على التراب . وكان يوسف بن أسباط يقول : يامعشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فما بقي أحد أحسده إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بيني وبين ذلك . وقال سعيد بن جبير : ما آسى على شيء من الدنيا إلا على السجود . وقال عتبة بن مسلم : ما من خصلة في العبد أحب إلى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عز وجل

(١) حديث من صلى أربعين يوما الصلوات في جماعة لا تفوته تكبيرة الإحرام ... الحديث أخرجه الترمذي من حديث أنس ماسناد رجاله ثقات (٢) حديث : « تقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي » رواه ابن المبارك في الزهد من حديث ضمرة بن حبيب مرسل (٣) حديث : « ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه خطيئة » أخرجه ابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت بإسناد صحيح ولم يخرجه من حديث ثوبان وأبي الدرداء (٤) حديث : « لمن رجع إلى رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم أدع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك ويرزقني مرافقتك في الجنة » . الحديث أخرجه مسلم من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي نحوه وهو الذي سأله ذلك (٥) حديث : « إن أقرب ما يكون العبد إلى الله أن يكون ساجدا » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٦) حديث : « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي » الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة

منه حيث يمتز ساجدا . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : أقرب ما يكون للعبد إلى الله عز وجل إذا سجد فأكثره
الدعاء عند ذلك .

فضيلة الخشوع

قال الله تعالى ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ وقال عز وجل ﴿ لا تقربوا
الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ قيل سكارى من كثرة الهم وقيل من حب الدنيا . وقال وهب : المراد
به ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا إذ بين فيه العلة فقال ﴿ حتى تلبسوا ما تقولون ﴾ وكمن من مصل لم يشرب حمرا
وهو لا يعلم ما يقول في صلاته . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من صلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدنيا
غفر له ما تقدم من ذنبه ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنما الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتأوه وتنادم وتضع
يديك فتقول اللهم اللهم فمن لم يفعل فهي خداج ^(٢) » وروى عن الله سبحانه في الكتب السالفة أنه قال « ليس كل مصل
أقبل صلاته إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتكبر على عبادي وأطعم الفقير الجائع لوجهي » وقال صلى الله
عليه وسلم « إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت الناسك لإقامة ذكر الله تعالى فإذا لم يكن في
قلبك للذكر الذي هو المقصود والمبتغى عظيمة ولا هيبة فاقبلة ذكرك ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم للذي أوصاه
« وإذا صليت فصل صلاة مودع ^(٤) » أي مودع لنفسه مودع لهواه مودع لعمره سائر إلى مولاه كما قال عز وجل
﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ﴾ وقال تعالى ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ وقال تعالى
﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم ملائقوه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « من لم تنته صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد
من الله إلا بعدا ^(٥) » والصلاة مناجاة فكيف تكون مع الغفلة ؟ وقال بكر بن عبد الله : يا ابن آدم إذا شئت أن
تدخل على مولاك بغير إذن وتكلمه بلا ترجمان دخلت ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : تسبغ وضوءك وتدخل محرابك
فإذا أنت قد دخلت على مولاك بغير إذن فتكلمه بغير ترجمان . وعن عائشة رضى الله عنها قالت « كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه ^(٦) » اشتغالا بعظمة الله عز وجل
وقال صلى الله عليه وسلم « لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه ^(٧) » وكان إبراهيم الخليل إذا قام
إلى الصلاة يسمع وجيب قلبه على ميلين . وكان سعيد التنوخى إذا صلى لم تنقطع الدموع من خديه على لحيته

(١) حديث « من صلى ركعتين لم يحدث فيهما شيء من الدنيا عمر له ما تقدم من ذنبه » أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف من
حديث صلة بن أشيم مرسل وهو في الصحيحين من حديث عثمان بن زياد في أوله دون قوله « بقى » من الدنيا « وزاد الطيالسي لا يبحر
(٢) حديث « إنما الصلاة تمسكن ودعاء وتضرع .. الحديث » أخرجه الترمذي والدماي بسنده من حديث العسل بن عباس
باسناد مضطرب (٣) حديث « إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت الناسك لإقامة ذكر الله » أخرجه أبو داود
والترمذي من حديث عائشة نحوه دون ذكر « الصلاة » قال الترمذي حسن صحيح (٤) حديث « إذا صليت فصل صلاة مودع »
أخرجه ابن ماجه من حديث أبي أيوب والحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص « وقال صحيح الإسناد والبيهقي في الزهد من حديث
ابن عمر ومن حديث شعوبه (٥) حديث « من لم تنته صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا » أخرجه علي بن محمد
في كتاب الطاعة والمصيبة من حديث الحسن مرسل بإسناد صحيح ورواه الطبراني وأسنده ابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس
باسناد لين والطبراني من قول ابن مسعود « من لم تأمره صلاته بالمعروف ونهيه عن المنكر . الحديث » وإسناده صحيح
(٦) حديث عائشة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه » أخرجه
الأزدي في الضعفاء من حديث سويد بن غفلة مرسل « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع الأذان كأنه لا يعرف أحدا من الناس »
(٧) حديث « لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه لم أجده بهذا اللفظ وروى محمد بن نصر في كتاب الصلاة من
رواية عثمان بن دهرش مرسل « لا يقبل الله من عبد عملا حتى يهد قلبه مع بدنه » ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس
من حديث أبي بن كعب وإسناده ضعيف

« ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه »^(١) ويروى أن الحسن نظر إلى رجل يعبث بالحصى ويقول « اللهم زوجني الحور العين » فقال : بئس الخاطب أنت تخطب الحور العين وأنت تعبث بالحصى . وقيل لخلف بن أيوب : ألا يؤذيك الذباب في صلاتك فتطردها قال : لأعود نفسي شيئاً يفسد على صلاتي ، قبل له : وكيف يصبر على ذلك ؟ قال . بلغني أن الفساق يصبرون تحت أسواط السلطان ليقال فلان صبور ويفتخرون بذلك فأنا قائم بين يدي ربي أفأتحرك لذبابه ؟ ويروى عن مسلم بن يسار أنه كان إذا أراد الصلاة قال لأهله : تحدثوا أتم فإني لست أسمعكم . ويروى عنه أنه كان يصلي يوماً في جامع البصرة فسقطت ناحية من المسجد فاجتمع الناس لذلك فلم يشعر به حتى انصرف من الصلاة . وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرمه وجهه إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون وجهه فقيل له : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها . ويروى عن علي بن الحسين أنه كان إذا توضأ اصفر لونه فيقول له أهله : ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم ؟ ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال « قال داود صلى الله عليه وسلم في مناجاته : إلهي من يسكن بيتك ومن يتقبل الصلاة ؟ فأوحى الله إليه : يا داود إنما يسكن بيتي وأقبل الصلاة منه من تواضع لعظمي وقطع نهاره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات ، من أجل يطعم الجائع ويؤوى الغريب ويرحم المصاب فذلك الذي يضيء نوره في السموات كالشمس » إن دعائي لبيته وإن سألتني أعطيتني ، أحمل له في الجهل حلماً وفي الغفلة ذكراً وفي الظلمة نوراً ، وإنما مثله في الناس كالفرديوس في أعلى الجنان لا ييس أهارها ولا تتغير ثمارها ، ويروى عن حاتم الأصم رضي الله عنه أنه سئل عن صلاته فقال : إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه فأقمذ فيه حتى تجتمع جوارحي ، ثم أقوم إلى صلاتي وأجعل الكعبة بين حاجبي والصراط تحت قدمي والجنة عن يميني والمار عن شمالي وملك الموت ورائي أطها آخر صلاتي « ثم أقوم بين الرجاء والخوف وأكبر تكبيراً بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل وأركع ركوعاً بتواضع وأسجد سجوداً تتخضع وأقعد على الورك الأيسر وأفرش ظهر قدمي وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأتبعها بالإخلاص ، ثم لأدري أفبليت مني أم لا ؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه .

فضيلة المسجد وموضع الصلاة

قال الله عز وجل ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « من بنى لله مسجداً ولو كفح حصاة فبني الله له قصراً في الجنة »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من ألف المسجد ألفه الله تعالى »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « الملائكة تصلي على أحدكم ما دام

(١) حديث « رأى رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث أبي هريرة بسند ضعيف أنه من قول سعيد بن السيب رواه ابن أبي شيبة في المصنف وفيه رجل لم يسم
(٢) حديث « من بنى لله مسجداً ولو مثل مفتاح قنطرة ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بسند صحيح وابن حبان . من حديث أبي ذر وهو متفق عليه من حديث عثمان دون قوله « ولو مثل مفتاح قنطرة »
(٣) حديث « من ألف المسجد ألفه الله تعالى » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد بسند ضعيف (٤) حديث « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس » متفق عليه من حديث أبي قتادة (٥) حديث « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد » أخرجه الدارقطني من حديث جابر وأبي هريرة بأسنادين ضعيفين والحاكم من حديث أبي هريرة

في مصلاه الذي يصلي فيه تقول : اللهم صل عليه اللهم ارحمه اللهم اغفر له ما لم يحدث أو يخرج من المسجد ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقة حلقة ذكروا الدنيا وحب الدنيا لا يتجالسوهم فليس لله بهم حاجة ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل في بعض الكتب إن يوتى في أرضي المساجد وإن زواري فيها عمارها فطوى لعد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي فحق على المزور أن يكرم زائره ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان ^(٤) ، وقال سعيد بن المسيب من جلس في المسجد فإيماء يجالس ربه فإحقه أن يقول إلا خيرا . ويرى في الآثار أو الخبر الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهائم الحشيش ^(٥) ، وقال النخعي : كانوا يرون أن المشي في الليلة المظلمة إلى المسجد موجب للجنة : وقال أنس بن مالك : من أسرج في المسجد سراجا لم تزل الملائكة وحلة العرش يستغفرون له ما دام في ذلك المسجد ضوءه . وقال علي كرم الله وجهه : إذا مات العبد يبكي عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ، ثم قرأ ﴿ فابكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ وقال ابن عباس : تبكى عليه الأرض أربعين صباحا . وقال عطاء الخراساني : ما من عبد بسجد لله سجدة في بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت . وقال أنس بن مالك : ما من بقعة يذكر الله تعالى عليها بصلاة أو ذكر إلا افتخرت على ما حولها من البقاع واستبشرت بذكر الله عز وجل إلى منتهاها من سبع أرضين وما من عبد يقوم يصلي إلا تزخرت له الأرض . ويقال : ما من منزل ينزل فيه قوم إلا أصبح ذلك المنزل يصلي عليهم أو يلعنهم .

الباب الثاني : في كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة والبداءة بالتكبير وما قبله

ينبغي للمصلي إذا فرغ من الوضوء والطهارة من الخبث في البدن والمكان والثياب وستر العورة من السرة إلى الركبة أن ينتصب قائما متوجها إلى القبلة ويأرجح بين قدميه ولا يضمهما فإن ذلك مما كان يستدل به على فقه الرجل وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن الصفن والصفد في الصلاة ^(٦) ، والصفد هو اقتران القدمين معا ومنه قوله تعالى ﴿ مقرنين في الأصعاد ﴾ والصفن هو رفع إحدى الرجلين ومنه قوله عز وجل ﴿ الصافات الجياد ﴾ هذا ما يراعيه في رجله عند القيام ويراعى في ركبتيه ومعقد نطاقي الانتصاب ، وأما رأسه إن شاء تركه على استواء القيام وإن شاء أطرق والإطراق أقرب للخشوع وأغض للبصر وليكن بصره محصورا على مصلاه الذي يصلي عليه ، فإن لم يكن له

(١) حديث « الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة
(٢) حديث « يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقة حلقة ذكروا الدنيا .. الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث ابن مود والحاكم من حديث أنس وقال صحيح الإسناد (٣) حديث « قال الله تعالى : لمن يوتى في أرضي المساجد وإن زواري فيها عمارها . الحديث » أخرجه أبو نعيم من حديث أبي سعيد بسند ضعيف « يقول الله عز وجل يوم القيامة ابن جبراني فتقول الملائكة من هذا الذي يدعى له أن يحاورك فيقول أليس قرأ القرآن وعمار المساجد » وهو في الشنب نخوة موقفا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح ، واسند ابن حبان في الصعاء آخر الحديث من حديث سلمان وصحة (٤) حديث « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد (٥) حديث « الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهائم الحشيش » لم أقف له على أصل

الباب الثاني

(٦) حديث « النهي عن الصفن والصفد في الصلاة » عزاء وزين إلى الترمذي ولم أجده عنده ولا عند غيره وإنما ذكره أصحاب الريب كابن الأثير في النهاية . وروى سعيد بن منصور أن ابن مسعود رأى رجلا صافا أو صافنا قدميه فقال : أخطأ هذا السنة

مصلى ويلفرب من جدار الحائط أو ليخط خطأ ، فإن ذلك يقصر مسافة البصر ويمنع تفوق الفكر وليحجر على بصره أن يتجاوز أطراف المصلى وحدود الخط ؟ وليدم على هذا القيام كذلك إلى الركوع من غير التفات . هذا أدب القيام فإذا استوى قيامه واستتقاله وإطرافه كذلك فليقرأ ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ تحصن به من الشيطان ، ثم ليأت بالإقامة وإن كان يرجو حضور من يقتدى به فليؤذن أولاً ثم ليحضر البية وهو أن ينوي في الطهر مثلاً ويقول بقلبه : أودى فريضة الظهر لله ، لينبها بقوله أودى . عن القضاء والفريضة عن النقل ، وبالظهر عن العصر وغيره ، ولتكن معاني هذه الألفاظ حاصرة في قلبه فإنه هو الذي ، والألفاظ مذكرات وأسباب لحضورها ، ويحتدأن يستديم ذلك إلى آخر التكبير حتى لا يعزب فإذا حضر في قلبه ذلك فليرفع يديه إلى حدو مكبيه بعد إرسالها بحيث يحاذي بكفيه مكبيه وإبهامية شحمتي أذنيه وبروس أصابعه رءوس أذنيه ^(١) ليكون جامعاً بين الأخبار الواردة فيه ، ويكون مقبلاً بكفيه وإبهاميه إلى القبلة ويبسط الأصابع ولا يقبضها ، ولا يتكلف فيها تفريجاً ولا ضمّاً بل يتركها على مقتضى طبعها ، إذ نقل في الأثر للنشر والضم ^(٢) وهذا بينهما فهو أولى . وإذا استقرت اليدين في مقرهما ابتداء التكبير مع إرسالها وإحضار اليدين ، ثم يضع اليدين على مافوق السرة وتحت الصدر ويضع اليمنى على اليسرى إكراماً لليمنى بأن تكون محمولة ، وينشر المسبحة والوسطى من اليمنى على طول الساعد ويقبض بالإبهام والخنصر والبنصر على كوع اليسرى ، وقد روى أن التكبير مع رفع اليدين ^(٣) ومع استقرارهما ^(٤) ومع الإرسال ^(٥) فكل ذلك لا حرج فيه وأراه بالإرسال أليق فإنه كلمة العقد ، ووضع إحدى اليدين على الأخرى في صورة العقد ومبدؤه الإرسال وآخره الوضع . ومبدأ التكبير الألف وآخره الرأ فيلحق مراعاة التطابق بين الفعل والعقد ، وأما رفع اليد فكالقدمة لهذه البداية . ثم لا ينبغي أن يرفع يديه إلى قدام رفاً عند التكبير ولا يردهما إلى خلف منكبيه ولا ينفضهما عن يمين وشمال نفضا إذا فرغ من التكبير ويرسلهما إرسالاً خفيفاً رفيقاً ويستأنف وضع اليمنى على الشمال بعد الإرسال ، وفي بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم « كان إذا كبر أرسل يديه وإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى ^(٦) » فإن صح هذا فهو أولى مما ذكرناه . وأما التكبير فينبغي أن يضم الهاء من قوله « الله » صمته خفيفة من غير مبالغة ولا يدخل بين الهاء والألف شبه الواو ، وذلك ينساق إليه بالمبالغة : ولا يدخل بين باء أكبر ورائه ألما ، كأنه يقول « أكبر » ويجزم راء التكبير ولا يضمها وهذه هيئة التكبير وما معه

القراءة

ثم يبتدى بدعاء الاستفتاح وحسن أن يقول عقب قوله الله أكبر « الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان

(١) حديث « رفع اليدين إلى حدو المكبين » وورد « إلى شحمة أذنيه » وورد « إلى رءوس أذنيه » متفق عليه من حديث ابن عمر باللفظ الأول وأبو داود من حديث وائل بن حجر بإسناد ضعيف « إلى شحمة أذنيه » ولمسلم من حديث مالك بن الحويرث « فروع أذنيه » (٢) حديث « نشر الأصابع عند الافتتاح » وقيل « ضمها » وقال عطاء وابن خزيمة من حديث أبي هرير والبيهقي « ولم يفرج بين أصابعه ولم يضمها » ولم أجده التصريح بضم الأصابع (٣) حديث الكبير مع رفع اليدين أخرجه البخاري من حديث ابن عمر « كان يرفع يديه حين يكبر » ولأبي داود من حديث وائل « يرفع يديه مع التكبير » (٤) حديث التكبير مع استقرار اليدين أي صرفوه عن أخرجه مسلم من حديث ابن عمر « كان إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى يكونا حذو منكبيه ثم كبر » زاد أبو داود « وما كذلك » (٥) حديث « التكبير مع إرسال اليدين » أخرجه أبو داود من حديث أبي حميد « كان إذا قام إلى الصلاة يرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه ثم كبر حتى يقر كل عظم في موضعه معتدلاً » قال ابن الصلاح في المشكل فكله « حتى » التي هي للناية تدل بالمعنى هل ماذكره أي من ابتداء التكبير مع الإرسال (٦) « كان إذا كبر أرسل يديه وإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى » أخرجه الطبراني من حديث معاذ بإسناد ضعيف

الله بكرة وأصيلاً^(١) وجهت وجهي - إلى قوله - وأنا من المسلمين^(٢) ، ثم يقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وجل ثناؤك ولا إله غيرك^(٣) ، ليكون جامعاً بين متفرقات ما ورد في الأخبار . وإن كان خلف الإمام اختصر إن لم يكن للإمام سكتة طويلة يقرأ فيها ثم يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم يقرأ الفاتحة مبتدئ فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، بنام تشديداتها وحروفها ويجهت في الفرق بين الضاد والظاء ويقول : آمين ، في آخر الفاتحة ويمتد مدتها ، ولا يصل : آمين ، بقوله : ولا الضالين ، وصلاً . ويجهر بالقراءة في الصباح والمغرب والعشاء إلا أن يكون مأموماً ، ويجهر بالتأمين . ثم يقرأ السورة أو قدر ثلاث آيات من القرآن فما فوقها ، ولا يصل آخر السورة بتكبير الهوى بأن يفصل بينهما بقدر قوله : سبحان الله ، ويقرأ في الصباح من السور الطوال من المفصل وفي المغرب من قصاره ، وفي الظهر والعصر والعشاء نحو ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ وما قاربها . وفي الصباح في السفر ﴿ قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ﴾ وكذلك في ركعتي الفجر والطواف والتحية وهو في جميع ذلك مستديم للقيام ووضع اليدين كما وصفنا في أول الصلاة .

الركوع ولواحقه

ثم يركع ويراعى فيه أموراً وهو أن يكبر للركوع وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع وأن يمد التكبير مدّاً إلى الانتهاء إلى الركوع وأن يضع راحتيه على ركبتيه في الركوع وأصابعه مدشورة موحهة نحو القبلة على طول الساق وأن ينصب ركبتيه ولا يثنيهما وأن يمدّ ظهره مستوياً وأن يكون عنقه ورأسه مستويين مع ظهره كالصفحة الواحدة لا يكون رأسه أخفض ولا أرفع وأن يحافى مرفقيه عن حنبيه وتضم المرأة مرفقيها إلى حنبيها . وأن يقول : سبحان ربّي العظيم ، ثلاثاً والزيادة إلى السبعة وإلى العشرة حسن ، إن لم يكن إماماً ، ثم يرتفع من الركوع إلى القيام ويرفع يديه ويقول : سمع الله لمن حمده ، ويطمئن في الاعتدال ويقول : ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد ، ولا يطول هذا القيام إلا في صلاة التيسيع والكسوف والصبح . ويقت في الصبح في الركعة الثانية بالكلمات المأثورة قبل السجود^(٤) .

السجود

ثم يهوى إلى السجود مكبراً فيضع ركبتيه على الأرض ويضع جبهته وأنفه وكفيه مكشوفة ويكبر عند الهوى ولا يرفع يديه في غير الركوع ، وينبغي أن يكون أول ما يقع منه على الأرض ركبته وأن يضع بعدهما يديه ثم يضع بعدهما وجهه وأن يضع جبهته وأنفه على الأرض وأن يحافى مرفقيه عن حنبيه : ولا تفعل المرأة ذلك . وأن يفترج بين رجليه . ولا تفعل المرأة ذلك . وأن يكون في سجوده مخوياً على الأرض . ولا تكون المرأة مخوية .

(١) حديث « أنه يقول بعد قوله الله أكبر : الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر قال « بينما نحن نصلّي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال رجل من القوم الله أكبر كبيراً .. الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم « أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّي صلاة قال : الله أكبر كبيراً .. الحديث » (٢) حديث « دعاء الاستفتاح وجهت وجهي ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث علي (٣) حديث « سبحانك اللهم وبحمدك .. الحديث » في الاستفتاح أيضاً أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث عائشة وضمه الترمذي والدارقطني ورواه مسلم موقوفاً على عمر وعند البيهقي من حديث جابر الجعفي « وجهت » وبين « سبحانك اللهم » (٤) حديث « القوت في الصبح بالكلمات المأثورة » أخرجه البيهقي من حديث ابن عباس « كان النبي صلى الله عليه وسلم يفتي في صلاة الصبح وفي وتر الليل بهؤلاء الكلمات : اللهم اهدني فيس هديت .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وسأني من حديث الحسن « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلهي هؤلاء الكلمات يقولهن في الوتر » وإسناده صحيح

والتخوية : رفع البطن عن الفخذين والتفريق بين الركبتين . وأن يضع يديه على الأرض حذاء منكبيه ولا يفترج بين أصابعهما بل يضمهما يضم الإبهام إليهما ، وإن لم يضم الإبهام فلا بأس ، ولا يفترش ذراعيه على الأرض كما يفترش الكلب ^(١) فإنه منهى عنه . وأن يقول : سبحان ربى الأعلى ، ثلاثاً فإن زاد لحسن إلا أن يكون إماماً . ثم يرفع من السجود فيطمئن جالساً معتدلاً فيرفع رأسه مكبراً ويجلس على رجله اليسرى وينصب قدمه اليمنى ويضع يديه على نغديه والأصابع مضمومة ولا يتكلف صمها ولا تفريجها . ويقول : رب اغفر لى وارحمى وارزقنى وأهدنى واجبرنى وعافنى واعم عني ، ولا يطول هذه الجلسة إلا في سجود التسبيح . ويأتى بالسجدة الثانية كذلك ويستوى منها جالساً جلسة خفيفة للاستراحة في كل ركعة لا تشهد عقيبها . ثم يقوم فيضع اليد على الأرض ولا يقدم إحدى رجله في حال الارتفاع ويمد التكبير حتى يستغرق ما بين وسط ارتفاعه من القعود إلى وسط ارتفاعه إلى القيام . بحيث تكون الهاء من قوله « الله » عند استوائه جالساً ؛ وكاف « أكبر » عند اعتدائه على اليد للقيام ، وراء « أكبر » في وسط ارتفاعه إلى القيام ويبتدئ في وسط ارتفاعه إلى القيام حتى يقع التكبير في وسط انتقاله ولا يخلو عنه إلا طرفاه وهو أقرب إلى التعميم . ويصلى الركعة الثانية كالأولى ويعيد التعوذ كالأول ابتداءً .

التشهد

ثم يتشهد في الركعة الثانية التشهد الأول . ثم يصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ويضع يده اليمنى على نغده اليمنى ويقبض أصابعه اليمنى إلا السبحة ، ولا بأس بارسال الإبهام أيضاً ، ويشير بمسبحة يمينه وحدها عند قوله « لا إله إلا الله » لا عند قوله « لا إله » ، ويجلس في هذا التشهد على رجله اليسرى كما بين السجدين . وفي التشهد الأخير يستكمل الدعاء المأثور ^(٢) بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وسننه كسنة التشهد الأول لكن يجلس في الأخير على وركة الأيسر ، لأنه ليس مستوفوا للقيام بل هو مستقر ، ويضع رجله اليسرى خارجة من تحته وينصب اليمنى ويضع رأس الإبهام إلى جهة القبلة إن لم يشق عليه . ثم يقول « السلام عليكم ورحمة الله » ويلتفت يمينا بحيث يرى خده الأيمن من وراءه من الجانب اليمين ويلتفت شمالاً كذلك . ويسلم تسليمه ثانية وينوى الخروج من الصلاة بالسلام وينوى بالسلام من على يمينه الملائكة والمسلمين في الأولى ، وينوى مثل ذلك في الثانية . ويجزم التسليم ^(٣) ولا يمدّه مداً فهو السنة . وهذه هيئة صلاة المنفرد ، ويرفع صوته بالتكبيرات ولا يرفع صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه . ويدوى الإمام الإمامة لينال الفضل فإن لم ينو صحت صلاة القوم إذا نواوا الاقتداء ونالوا فضل الجماعة ، ويسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد ، ويجهر بالفاتحة والسورة في جميع الصبح وأولي العشاء والمغرب . وكذلك المنفرد . ويجهر بقوله « آمين » في الصلاة الجهرية وكذلك المأموم . وقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام مع الاتهامية . ويسكت الإمام سكته عقيب الفاتحة ليشوب إليه نفسه ويقرأ المأموم الفاتحة في الجهرية في هذه السكته ليتمكن من الاستماع عند قراءة الإمام . ولا يقرأ المأموم السور في الجهرية إلا إذا لم يسمع صوت الإمام . ويقول الإمام « سمع الله لمن حمده » عند رفع رأسه من الركوع وكذا المأموم . ولا يزيد الإمام على الثلاث في تسبيحات الركوع والسجود ، ولا يزيد

(١) حديث « انتهى من أن يمرش ذراعيه على الأرض كما يفترش الكلب » متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث « الدعاء المأثور بعد التشهد » أخرجه مسلم من حديث علي في دعاء الاستعتاق قال « ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والنسب : اللهم اغفر لى ما قدمت . . الحديث » وفي الصحيحين من حديث عائشة « لما تشهد أحكم فليستعذ بالله من أربع : من عذاب جهنم . . الحديث » وفي الباب غير ذلك جميعها في الأصل (٣) حديث « حرم السلام سنة » أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح وضمه ابن القطان .

في التشهد الأول بعد قوله « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » ، ويقتصر في الركعتين الأخيرتين على الفاتحة ولا يطول على القوم ولا يزيد على دعائه في التشهد الأخير على قدر التشهد والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وينوى عند السلام : السلام على القوم والملائكة . وينوى القوم بتسليمهم جوابه ويثبت الإمام ساعة حتى يفرغ الناس من السلام ويقبل على الناس بوجهه . والأولى أن يثبت إن كان خلف الرجال نساء لينصرفن قبله ، ولا يقوم واحد من القوم حتى يقوم . وينصرف الإمام حيث يشاء عن يمينه وشماله واليمين أحب إلى . ولا يخص الإمام نفسه بالدعاء في قنوت الصبح بل يقول « اللهم اهدنا » ، ويجهر به ويؤمن القوم ويرفعون أيديهم حذاء الصدور ، ويمسح لوجهه عند ختم الدعاء . لحديث نقل فيه ، وإلا فالقياس أن لا يرفع اليد كما في آخر التشهد .

المنهيات

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصفن في الصلاة والصفد وقد ذكرناهما وعن الإقعاء^(١) وعن السدل^(٢) والكفت^(٣) وعن الاختصار^(٤) وعن الصلب^(٥) وعن المواصلة^(٦) وعن صلاة الحاقص^(٧) والحاقب^(٨) والحازق^(٩) وعن صلاة الجائع والفضبان والمتلثم^(١٠) وهو ستر الوجه . أما الإقعاء : فهو عند أهل اللغة أن يجلس على وركيه وينصب ركبتيه ويحمل يديه على الأرض كالكلب . وعند أهل الحديث أن يجلس على ساقيه جائيا وليس على الأرض منه إلا رءوس أصابع الرجلين والركبتين . وأما السدل : فذهب أهل الحديث فيه أن يلتحف بثوبه ويدخل يديه من داخل فيركع ويسجد كذلك . وكان هذا فعل اليهود في صلاتهم فنهوا عن التشبه بهم . والقميص في معناه فلا ينبغي أن يركع ويسجد ويده في بدن القميص . وقيل معناه أن يضع وسط الإزار على رأسه ويرسل طرفيه عن يمينه وشماله من غير أن يجعلهما على كتفيه . والأول أقرب . وأما الكف فهو أن يرفع ثيابه من بين يديه أو من خلفه إذا أراد السجود . وقد يكون الكف في شعر الرأس فلا يصلين وهو عاقص شعره والنهي للرجال . وفي الحديث « أمرت

(١) حديث « النهي عن الإقعاء » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث علي بن سعيد ضعيف « لا يقع بين السجدين » ومسلم من حديث عائشة « كان ينهى عن عقبة الشيطان » والحاكم من حديث سمرة « نهى عن الإقعاء » (٢) حديث « نهى عن السدل في الصلاة » أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة (٣) حديث « النهي عن الكفت في الصلاة » من حديث ابن عباس « أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نسجد على سبعة أعظم ولا نكسب شرا ولا نوبا » (٤) حديث « النهي عن الاختصار » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بلفظ « نهى أن يصلي الرجل مختصرا » (٥) حديث « النهي عن الصلب في الصلاة » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد صحيح (٦) حديث « النهي عن المواصلة » عزاه رزين إلى الترمذي ولم أجده عنده ، وقد مره الفرالي بوصول القراءة بالتسكير ووصول القراءة بالركوع وغير ذلك . وقد روى أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث سمرة « سكتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل في صلاته : إذا فرغ من قراءته وإذا فرغ من قراءة القرآن » وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « كان يسكت بين التسكير والقراءة لسكاته » الحديث (٧) حديث « النهي عن صلاة الحاقص » أخرجه ابن ماجه والدارقطني من حديث أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلي الرجل وهو حاقص « وأبو داود من حديث أبي هريرة « لا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصلي وهو حاقص » وله وللترمذي وحسنه نحوه من حديث ثوبان ومسلم من حديث عائشة « لا صلاة بخضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان » (٨) حديث « النهي عن صلاة الحاقب » لم أجده بهذا اللفظ وفسره المصنف بما للأزهري بدافعة الفالط وفيه حديث عائشة الذي قبل هذا (٩) حديث « النهي عن صلاة الحازق » عزاه رزين إلى الترمذي ولم أجده عنده والذي ذكره أصحاب الريب حديث « لا رأى لحازق » وهو صاحب الخف الصيق (١٠) حديث « النهي عن التلثم في الصلاة » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي هريرة بسند حسن « نهى أن يصلي الرجل فاه في الصلاة » رواه الحاكم وصححه قال الخطابي هو التلثم على الأنفواء

أن يسجد على سبعة أعضاء ولا أكفت شعرا ولا ثوبا ^(١) ، وكره أحمد بن حنبل رضى الله عنه أن يأتزر فوق القميص في الصلاة ورآه من الكفت ، وأما الاختصار : فإن يضع يديه على خاصرتيه . وأما الصلب فإن يضع يديه على خاصرتيه في القيام ويجافى بين عضديه في القيام . وأما المواصله : فهي خمسة ؛ اثنان على الإمام أن لا يصل قراءته بتكبيرة الإحرام ولا ركوعه بقراءته . واثنان على المأموم أن لا يصل تكبيرة الإحرام بتكبيرة الإمام ولا تسليمه بتسليمه ، وواحدة بينهما أن لا يصل تسليمه الفرض بالتسليم الثانية وليفصل بينهما وأما الحاقن : فن البول ، والحاقب : من الغائط . والحازق : صاحب الخلف الضيق . فإن كل ذلك يمنع من الخشوع . وفي معناه الجائع والمهتم . وفهم من الجائع من قوله صلى الله عليه وسلم « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدهوا بالعشاء إلا أن يضيق الوقت أو يكون ساكن القلب » ^(٢) ، وفي الخبر « لا يدخل أحكم الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحكم وهو غضبان » ^(٣) ، وقال الحسن : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع . وفي الحديث « سبعة أشياء في الصلاة من الشيطان : الرعاف والنعاس والوسوسة والتثاؤب والحكاك والالتفات والعيب بالشئ » ^(٤) ، وزاد بعضهم « السهو والشك » ، وقال بعض السلف : أربعة في الصلاة من الجفاء - الالتفات ومسح الوجه وتسوية الحصى وأن تصلى بطريق من مزين يديك « ونهى أيضا عن أن يشبك أصابعه » ^(٥) أو يفرقع أصابعه ^(٦) أو يستر وجهه ^(٧) أو يضع إحدى كفيه على الأخرى يدخلهما بين نخذه في الركوع ^(٨) ، وقال بعض الصحابة رضى الله عنهم : كنّا نفعل ذلك فنهينا عنه . ويكره أيضا أن ينفخ في الأرض عند السجود للتطيف وأن يسوى الحصى بيده فإنها أفعال مستغنى عنها ولا يرفع إحدى قدميه فيصها على نخذه ولا يستند في قيامه إلى حائط فإن استند بحيث لو سل ذلك الحائط لسقط فالأظهر بطلان صلاته والله أعلم .

تمييز الفرائض والسنن

جملة ما ذكر يشتمل على فرائض وسنن وآداب وهيئات مما ينبغي لمريد طريق الآخرة أن يراعى جميعها . فالفرض من جملتها اثنتا عشرة حصة : النية والتكبير والقيام والفاضة ، والانحناء في الركوع إلى أن تتال راحتاه ركبتيه مع الطمأنينة والاعتدال عنه قائما ، والسجود مع الطمأنينة ولا يجب وضع اليدين والاعتدال عنه قاعدا ، والجلوس للتشهد الأخير والتشهد الأخير والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والسلام الأول . فأمانية الخروج فلا تجب وماعدا هذا فليس بواجب بل هي سنن وهيئات فيها وفي الفرائض : أما السنن فن الأفعال أربعة : رفع اليدين في تكبيرة الإحرام وعند الهوى إلى الركوع وعند الارتفاع إلى القيام ، والجلسة للتشهد الأول . فأما ما ذكرناه من كيفية

(١) حديث « أمر أن يسجد على سبعة أعضاء ولا أكفت شعرا ولا ثوبا » متفق عليه من حديث ابن عباس

(٢) حديث « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدهوا بالعشاء » متفق عليه من حديث ابن عمر وعائشة (٣) حديث « لا يدخل أحكم الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحكم وهو غضبان » لم أجده (٤) حديث « سبعة أشياء من الشيطان في الصلاة : الرعاف والنعاس والوسوسة والتثاؤب والالتفات » وزاد بعضهم « السهو والشك » أخرجه الترمذي من رواية عدى بن ثابت عن أبيه عن جده فذكر منها الرعاف والنعاس والتثاؤب وزاد ثلاثة أخرى وقال حديث عريب ومسلم من حديث عثمان بن أبي العاص « يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي الحديث » وللبخاري من حديث عائشة في الالتفات في « صلاة هواختلاص نخذه الشيطان من صلاة أحكم وللشيخ من حديث أبي هريرة التثاؤب من الشيطان ولهما من حديث أبي هريرة إن أحكم إذا قام يصلي حاء الشيطان فليس عليه صلاته حتى لا يدركه صلى (٥) حديث « النهي عن تشدك الأمانع » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وداود والترمذي وابن ماجه وابن حبان نحوه من حديث كعب بن عجرة (٦) حديث « النهي عن تقطيع الأمانع في الصلاة » أخرجه ابن ماجه من حديث علي بإسناد ضعيف لا يقع في أصابعك الصلاة (٧) حديث « النهي عن ستر الوجه » أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة (٨) حديث « النهي عن التطويق في الركوع » متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص : كنّا نعله فنهينا عنه وأمرنا أن نضع الأيدي على الركب

نشر الأصابع وحدّ رفقها فهي هيئات تابعة لهذه السنة ، والتورك والافتراش هيئات تابعة للجلسة والإطراق وترك الالتفات هيئات للقيام وتحسين صورته ، وجلسة الاستراحة لم نعدّها من أصول السنة في الأفعال لأنها كالتحسين لهيئة الارتفاع من السجود إلى القيام لأنها ليست مقصودة في نفسها ولذلك لم تفرد بذكر . وأما السنن من الأذكار فدعاء الاستفتاح ثم التعوذ ثم قوله « آمين » فإنه سنة مؤكدة ثم قراءة السورة ثم تكبيرات الانتقالات ، ثم الذكر في الركوع والسجود والاعتدال عنهما ، ثم التشهد الأول والصلاة فيه على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم الدعاء في آخر التشهد الأخير ، ثم التسليم الثانية وإن جمعناها في اسم السنة فلها درجات متفاوتة إذ تجبر أربعة منها بسجود السهو . وأما من الأفعال فواحدة : وهي الجلسة الأولى للتشهد الأول فإنها مؤثرة في ترتيب نظم الصلاة في أعين الناظرين حتى يعرف بها أنها رباعية أم لا ؟ بخلاف رفع اليدين فإنه لا يؤثر في تغيير النظم فمبر عن ذلك البعض . وقيل الأبعاض تجبر بالسجود : وأما الأذكار فكلها لا تقتضي سجود السهو إلا ثلاثة : القنوت والتشهد الأول والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، بخلاف تكبيرات الانتقالات وأذكار الركوع والسجود والاعتدال عنهما ، لأن الركوع والسجود في صورتها مخالفان للعادة ويحصل بهما معنى العبادة مع السكوت عن الأذكار وعن تكبيرات الانتقالات فعدم تلك الأذكار لا تغير صورة العبادة . وأما الجلسة للتشهد الأول ففعل معتاد وما زيدت إلا للتشهد فتركها ظاهر التأثير . وأما دعاء الاستفتاح والسورة فتركها لا يؤثر مع أن القيام صار معمورا بالفاتحة ويميزا عن العادة بها ، وكذلك الدعاء في التشهد الأخير والقنوت ألبعد ما يجبر بالسجود ولكن شرع مدّ الاعتدال في الصبح لأجله فكان كدجاسة الاستراحة إذ صارت بالمد مع التشهد جلسه للتشهد الأول . فبقى هذا قياما ممدودا معتادا ليس فيه ذكر واجب وفي الممدود احتراز عن غير الصبح وفي خلّقه عن ذكر واجب احتراز عن أصل القيام في الصلاة * فإن قلت : تميز السنن عن الفرائض معقول إذ تفوت الصحة بفوت الفرض دون السنة ويتوجه العقاب به دونها فأما تمييز سنة عن سنة والكل مأمور به على سبيل الاستحباب ولا عقاب في ترك الكل والثواب موجود على الكل فما معناه ؟ فاعلم أن اشتراكهما في الثواب والعقاب والاستحباب لا يرفع تفاوتهما ، ولنكشف ذلك لك بمثال : وهو أن الإنسان لا يكون إنسانا موجودا كاملا إلا بمعنى باطن وأعضاء ظاهرة ، فالمعنى الباطن هو الحياة والروح ، والظاهر أجسام أعضائه . ثم بعض تلك الأعضاء ينعدم الإنسان بعدمها كالقلب والكبد والدماغ ، وكل عضو تفوت الحياة بفواته ، وبعضها لا تفوت بها الحياة ولكن يفوت بها مقاصد الحياة كالعين واليد والرجل واللسان ، وبعضها لا يفوت بها الحياة ولا مقاصدها ولكن يفوت بها الحسن كالحاجبين واللحية والأهداب وحسن اللون ، وبعضها لا يفوت بها أصل الجمال ولكن كاله كاستقواس الحاجبين وسواد شعر اللحية والأهداب وتناسب خلقة الأعضاء وامتزاج الحمرة بالياض في اللون فهذه درجات متفاوتة ؛ فكذلك العبادة صورة صورها الشرع وتعبنا باكتسابها فروحها وحياتها الباطنة الخشوع والنية وحضور القلب والإخلاص - كما سيأتي - ونحن الآن في أجزائها الظاهرة فالركوع والسجود والقيام وسائر الأركان تجري منها مجرى القلب والرأس والكبد إذ يفوت وجود الصلاة بفواتها . والسنن التي ذكرناها من رفع اليدين ودعاء الاستفتاح والتشهد الأول تجري منها مجرى اليدين والعينين والرجلين ولا تفوت الصحة بفواتها كما لا تفوت الحياة بفوات هذه الأعضاء ولكن يصير الشخص بسبب فواتها مشوّه الخلقة مذموما غير مرغوب فيه ، فكذلك من اقتصر على أقل ما يجري من الصلاة كان كمن أهدي إلى ملك من الملوك عبدا حيا مقطوع الأطراف . وأما الهيئات وهي ما وراء السنن فتجري مجرى أسباب الحسن من الحاجبين واللحية والأهداب

وحسن اللون ، وأما وظائف الأذكار في تلك السنن فهي مكملات للحسن كاستقواس الحاجبين واستدارة اللحية وغيرهما . فالصلاة عندك قرينة وتحفة تتقرب بها إلى حضرة ملك الملوك كوصيفة يهديها طالب القربة من السلاطين إليهم وهذه التحفة تعرض على الله عز وجل . ثم ترد عليك يوم العرض الأكبر فالإليك الخيرة في تحسين صورتها وتقييحها . فإن أحسنت فلنفسك وإن أسأت فعليها . ولا ينبغي أن يكون حظك من ممارسة الفقه أن يتميز لك السنة عن الفرض فلا يعلق بفهمك من أوصاف السنة إلا أنه يجوز تركها فتركها فإن ذلك يضاهي قول الطيب : إن فقه العين لا يبطل وجود الإنسان ولكن يخرجه عن أن يصدق رجاء المتقرب في قبول السلطان إذا أخرجه في معرض الهدية - فهكذا ينبغي أن تفهم مراتب السنن والهيات والآداب ، فكل صلاة لم يتم الإنسان ركوعها وبجودها فهي الخضم الأول على صاحبها تقول : ضيعك الله كما ضيعتني . فطالع الأخبار التي أوردناها في كمال أركان الصلاة ليظهر لك وقعها .

الباب الثالث : في الشروط الباطنة من أعمال القلب

وانذكر في هذا الباب ارتباط الصلاة بالخشوع وحضور القلب . ثم نذكر المعاني الباطنة وحدودها وأسبابها وعلاجها . ثم لمدكر تفصيل ما ينبغي أن يحضر في كل ركن من أركان الصلاة لتكون صالحة لراد الآخرة .

بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب

اعلم أن أدلة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله تعالى ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾ وظاهر الأمر الوحوب ، والغفلة تضاد الذكر فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون متيقنا للصلاة لذكره ؟ وقوله تعالى ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ نهى وظاهره التحريم وقوله عز وجل ﴿ حتى تعلموا ما تقولون ﴾ تعليل لنهى السكران وهو مطرد في الغافل المستغرق الحم بالوسواس وأفكار الدنيا وقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الصلاة تمسك وتواضع ، حصر بالآلف واللام وكلمة «إنما» للتحقيق والتوكيد ، وقد فهم الفقهاء من قوله عليه السلام «إنما الشفعة فيما لم يقصر» الحصر والاثبات والنفي ، وقوله صلى الله عليه وسلم « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا » وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء والمنكر ، وقال صلى الله عليه وسلم « كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب ^(١) ، وما أراد به إلا الغافل وقال صلى الله عليه وسلم (ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها ^(٢)) » والتحقيق فيه أن المصلئ مناج ربه عز وجل ^(٣) ، كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمنجاة ألبتة ، ويباه أن الزكاة إن غفل الإنسان عنها مثلا فهي في نفسها مخالفة للشهوة شديدة على النفس ، وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى الذي هو آلة للشيطان عدو الله ، فلا يبعد أن يحصل منها مقصود مع الغفلة ، وكذلك الحج أفعاله شاقة شديدة وفيه من المجاهدة ما يحصل به

الباب الثالث

(١) حديث « كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب » أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة « رب قائم ليس له من قيامه إلا السهر » ولاحد « رب قائم حظه من صلاته السهر » وإسناده حسن .

(٢) حديث « ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل » لم أجده مرفوعا روى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أي دهرش مرسلا « لا يقل الله من عبد عملا حتى يشهد قلبه مع بدنه » ورواه أبو مصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي ابن كعب وابن المبارك في الرهد موقوفا على عمار لا يكتب للرحل من صلاته ما سها عنه

(٣) حديث « المصلئ مناجى ربه » متفق عليه من حديث أس

الإيلام كان القلب حاضراً مع أفعاله أو لم يكن ؟ أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود ، فأما الذكر فإنه مجاورة ومناجاة مع الله عز وجل فأما أن يكون المقصود منه كونه خطاباً ومحاورة أو المقصود منه الحروف والأصوات امتحاناً للسان بالعمل كما تمتحن المعدة والفرج بالإمساك في الصوم ، وكما يمتحن البدن بمشاق الحرج ، ويمتحن بمشقة إخراج الزكاة واقتطاع المال المشوق . ولا شك أن هذا القسم باطل فإن تحريك اللسان بالهذيان ما أخفه على الغافل فليس فيه امتحان من حيث أنه عمل بل المقصود الحروف من حيث أنه نطق ، ولا يكون نطقاً إلا إذا أعرب عما في الضمير ولا يكون معرباً إلا بحضور القلب ، فأى سؤال في قوله (إلهنا الصراط المستقيم) إذا كان القلب غافلاً ؟ وإذا لم يقصد كونه تضرعاً ودعاءً فأى مشقة في تحريك اللسان به مع الغفلة لاسيما بعد الاعتياد ؟ هذا حكم الأذكار بل أقول لو حلف الإنسان وقال : لأشكرن فلاناً وأثنى عليه وأسأله حاجة ؛ ثم جرت الألفاظ الدالة على هذه المعاني على لسانه في النوم لم يبر في يمينه ، ولو جرت على لسانه في ظلمة وذلك الإنسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير باراً في يمينه إذ لا يكون كلامه خطاباً ونطقاً معه مالم يكن هو حاضراً في قلبه ، فلو كانت تجرى هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر إلا أنه في بياض النهار غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الخطاب إليه عند نطقه لم يصير باراً في يمينه . ولا شك أن المقصود من القراءة والأذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء ، والمحاطب هو الله عز وجل وقلبه بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده بل هو غافل عن المحاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتسقيط القلب وتجديد ذكر الله عز وجل ورسوخ عقد الإيمان به ١ هذا حكم القراءة والذكر . والحكمة فهذه الخاصية لاسيما إلى إنكارها في النطق وتمييزها عن الفعل . وأما الركوع والسجود فالمقصود بهما التعميم قطعاً ولو جاز أن يكون معظماً لله عز وجل بفعله وهو غافل عنه لجاز أن يكون معظماً لصنم موضوع بين يديه وهو غافل عنه ، أو يكون معظماً للحائط الذي بين يديه وهو غافل عنه ، وإذا خرج عن كونه تعظيماً لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به ، ثم يجعله عماد الدين والفاصل بين الكفر والإسلام ويقدم على الحج وسائر العبادات ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص ، وما أرى أن هذه العظمة كلها للصلاة من حيث أعمالها الظاهرة إلا أن يضاف إليها مقصود المناجاة فإن ذلك يتقدم على الصوم والزكاة والحج وغيره بل الضحايا والقرايين التي هي مجاهدة للنفس بتقيص المسال قال الله تعالى (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) أى الصفة التي استولت على القلب حتى حملته على امتثال الأوامر هي المطلوبة فكيف الأمر في الصلاة ولا أرب في أفعالها ؟ فهذا ما يدل من حيث المعنى على اشتراط حضور القلب * فإن قلت : إن حكمت بطلان الصلاة وجعلت حضور القلب شرطاً في صحتها خالفت إجماع الفقهاء فإنهم لم يشترطوا إلا حضور القلب عند التكبير ؟ فاعلم أنه قد تقدم في كتاب العلم : أن الفقهاء لا يتصرفون في الباطن ولا يشقون عن القلوب ولا في طريق الآخرة بل يبنون أحكام الدين على ظاهر أعمال الجوارح ؛ وظاهر الأعمال كاف لسقوط القتل وتعزير السلطان ؛ فأما أنه ينفع في الآخرة فليس هذا من حدود الفقه على أنه لا يمكن أن يدعى الإجماع . فقد نقل عن بشر بن الحارث فيما رواه عنه أبو طالب المسكي عن سفيان الثوري أنه قال : من لم يخشع فسدت صلاته وروى عن الحسن أنه قال : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع . وعن معاذ بن جبل : من عرف من على يمينه وشماله متعمداً وهو في الصلاة فلا صلاة له . وروى أيضاً مسنداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« إن العبد ليصل الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل ^(١) منها » وهذا لو نقل عن غيره لجعل مذهبا فكيف لا يتمسك به ؟ وقال عبد الواحد بن زيد : أجمعت العلماء على أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها ، فجعله إجماعا ، وما نقل من هذا الجلس عن الفقهاء المتوزعين وعن علماء الآخرة أكثر من أن يحصى . والحق الرجوع إلى أدلة الشرع والأخبار ، والآثار ظاهرة في هذا الشرط إلا أن مقام الفتوى في التكليف الظاهر يتقدر بقدر قصور الخلق . فلا يمكن أن يشترط على الناس إحضار القلب في جميع الصلاة فان ذلك يعجز عنه كل البشر إلا الأفلين وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مرد له إلا أن يشترط منه ما يطلق عليه الاسم ولو في اللحظة الواحدة ، وأولى اللحظات به لحظة التكبير فاقصرنا على التكليف بذلك . ونحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية . فانه على الجملة أقدم على العمل ظاهرا وأحضر القلب لحظة . وكيف لا والذي صلى مع الحدث ناسيا صلاته باطلة عند الله تعالى ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعدره ، ومع هذا الرخاء فيخشى أن يكون حاله أشد من حال التارك وكيف لا والذي يحضر الخدمة ويتهاون بالحضرة ويتكلم بكلام الغافل المستحقر أشد حالا من الذي يعرض عن الخدمة ؟ وإذا تعارض أسباب الخوف والرجاء وصار الأمر غطرا في نفسه فاليك الخيرة بعده في الاحتياط والتساهل . ومع هذا فلا مطمع في مخالفة الفقهاء فيما أفتوا به من الصحة مع الغفلة فان ذلك من ضرورة الفتوى - كما سبق التنبيه عليه - ومن عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها . ولكن قد ذكرنا في باب الفرق بين العلم الباطن والظاهر في كتاب قواعد العقائد أن قصور الخلق أحد الأسباب المانعة عن التصريح بكل ما يتكشف من أسرار الشرع . فلنقتصر على هذا القدر من البحث فان فيه مقننا للريد الطالب لطريق الآخرة . وأما المجادل المشغب فلسنا نقصد مخاطبته الآن وحاصل الكلام أن حضور القلب هو روح الصلاة وأن أقل ما يبقى به رفق الروح الحضور عند التكبير . فالتقصان منه هلاك وبقدرة الزيادة عليه تنبسط الروح في أجزاء الصلاة . وكمن حتى لا حراك به قريب من ميت ؟ فصلاة الغافل في جميعها إلا عند التكبير كمثل حتى لا حراك به نسأل الله حسن العون

بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة

لعل أن هذه المعاني تكثر العبارات عنها ولكن يجمعها ست جمل وهي : حضور القلب والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء . فلنذكر تفاصيلها ثم أسبابها ثم العلاج في اكتسابها . أما التفاصيل : فالأول ، حضور القلب ونعني به أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به ، فيكون العلم بالفعل والقول مقرونا بهما ، ولا يكون الفكر جائلا في غيرهما ، ومهما انصرف في الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عن كل شيء فقد حصل حضور القلب ولكن التفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب ، فربما يكون القلب حاضرا مع اللفظ ولا يكون حاضرا مع معنى اللفظ ؛ فاشتغال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردناه بالتفهم . وهذا مقام يتفاوت الناس فيه إذ ليس يشترك الناس في تفهم المعاني للقرآن والتسبيحات . وكمن من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله ؟ ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، فإنها تفهم أمورا ؛ تلك الأمور تمنع عن الفحشاء لا محالة . وأما التعظيم فهو أمر وراء حضور القلب والفهم إذا الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب

(١) حديث « إن العبد ليصل الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان من

حديث عمار بن ياسر بنحوه

فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظما له فالتعظيم زائد عليهما . وأما الهيبة فزائدة على التعظيم بل هي عبارة عن خوف مدتهو التعظيم لأن من لا يخاف لا يسمى هائبا ، والخافة من العقرب وسوء خلق العبد وما يجري مجراه من الأسباب الخسيسة لا تسمى مهابة ، بل الخوف من السلطان المعظم يسمى مهابة ، والهيبة خوف مصدرها الإحلال . وأما الرجا فلا شك أنه زائد فكم من معظم ملكا من الملوك يهابه أو يخاف سطوته ولكن لا يرجو ثوبته . والعبد ينبغي أن يكون راجيا بصلاته ثواب الله عز وجل كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عز وجل ، وأما الحياء فهو زائد على الجملة لأن مستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب ويتصور التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب . وأما أسباب هذه المعاني الستة فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فإن قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيما يهتك ومهما أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى فهو مجبور على ذلك ومسخر فيه . والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعظلا بل جائلا فيما الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا ، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة ، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وأن الصلاة وسيلة إليها ، فإذا أصيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهماتنا حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة ، وبمثل هذه العلة يحضر قلبك إذا حضرت بين يدي بعض الأكابر ممن لا يقدر على مضرتك ومنفعتك ، فإذا كان لا يحضر عند المناجاة مع ملك الملوك الذي يبدى الملك والملكوت والنفع والضر فلا تظن أن له سببا سوى ضعف الإيمان فاجتهد الآن في تقوية الإيمان - وطريقه يستقصى في غير هذا الموضع - وأما التفهم فسيبه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى وعلاجه ما هو علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر . وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها أعنى النزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها ، ومالم تقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر فمن أحب شيئا أكثر ذكره فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة ، لذلك ترى أن من أحب غير الله لا تصفوله صلاة عن الخواطر . وأما التعظيم فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين ، إحداهما : معرفة جلال الله عز وجل وعظمته وهو من أصول الإيمان فإن من لا يمتد عظمته لا تدفع النفس لتعظيمه . الثانية ، معرفة حقارة النفس وخساستها وكونها عبدا مسخرا مربوبا حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم ، ومالم تبرز معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع فإن المستغنى عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله لأن القرينة الأخرى وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه ، وأما الهيبة والخوف لحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرته الله وسطوته وتفوق مشيئته فيه مع قلة المبالاة به ، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة هذا مع مطالعة ما يجري على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف ما يشاهد من ملوك الأرض . وبالجمله كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة - وسيأتى أسباب ذلك في كتاب الخوف من ربح المنجيات - وأما الرجاء فسيبه معرفة لطف الله عز وجل وكرمه وعيم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة ، فإذا حصل اليقين بوعدده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعهما الرجاء لا محالة : وأما الحياء فباستشعاره التقصير في العبادة وعمله بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عز وجل ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتا وقلة إخلاصها وخبت دخلتها وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله عز وجل والعلم

بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت ، وهذه المعارف إذا حصلت يقينا انبثت منها بالضرورة حالة تسمى الجلاء فهذه أسباب هذه الصفات وكل ما طلب تحصيله فعلاجه إحضار سنده في معرفة السبب معرفة العلاج . ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان . واليقين أعني به هذه المعارف التي ذكرناها ومعنى كونها يقينا انتفاء الشك واستيلائها على القلب ، كما سبق في بيان اليقين من كتاب العلم - وبقدر اليقين يحس القلب ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة كأنه لم يعرفنا ولم نعرفه ، وقدرى أن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام : يا موسى إذا ذكرتني فأذكرني وأنت تلتفتض أعضائك وكن عند ذكرى خاشعا مطمئنا وإذا ذكرتني فأجعل لسانك من وراء قلبك وإذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل وناجني بقلب وجل ولسان صادق ، وروى أن الله تعالى أوحى إليه : قل لعصاة أمتك لا يدركوني فإني آليت على نفسي أن من ذكرني ذكرته فإذا ذكروني ذكرتهم باللعة ، هذا عاص غير غافل في ذكره فكيف إذا اجتمعت الغفلة والعصيان ؟ وباختلاف المعاني التي ذكرناها في القلوب انقسم الناس إلى غافل يتسم صلاته ولم يحضر قلبه في لحظة منها . وإلى من يتمم ولم يغيب قلبه في لحظة بل ربما كان مستوعب بهم بها بحيث لا يحس بها يجري بين يديه . ولذلك لم يحس مسلم بن يسار بسقوط الاسطوانة في المسجد اجتمع الناس عليها . وبعضهم كان يحضر الجماعة مدة ولم يعرف قط من على يمينه ويساره . ووجب قلب إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه كان يسمع على ميلين . وجماعة كانت تصفر وجوههم وترتعد فرائصهم وكل ذلك غير مستبعد فإن أضعافه مشاهد في هم أهل الدنيا وخوف ملوك الدنيا مع عجزهم وضعفهم وخساسة الخطوط الحاصلة منهم حتى يدخل الواحد على ملك أو وزير ويحدثه بمهمته ثم يخرج ، ولو سئل عن حوالبه أو عن ثوب الملك لكان لا يقدر على الإخبار عنه لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حوالبه (ولكل درجات مما عملوا) لحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه فإن موقع نظر الله سبحانه القلوب دون ظاهر الحركات . ولذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم : يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيبتهم في الصلاة من الطمأنينة والهدوء ومن وجود النعيم بها واللذة ، ولقد صدق فإنه يحشر كل على مامات عليه ويموت على ما عاش عليه : ويراعى في ذلك حال قلبه لاحال شخصه فن صفات القلوب تصاغ الصور في الدار الآخرة ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

بيان الدواء النافع في حضور القلب

اعلم أن المؤمن لابد أن يكون معظما لله عز وجل وغائفا منه وراجيا له ومستحييا من تقصيره فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه ، وإن كانت قوتها بقدر قوة يقينه فانفكاكه عنها في الصلاة لا سبب له إلا تفرق الفكر وتقسيم الخاطر وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة . ولا يلهي عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة ، فالدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه فلتعلم سببه . وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمرا خارجا أو أمرا في ذاته باطنا . أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر فإن ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل ، ويكون الإبصار سببا للافتكار ، ثم تصير بعض تلك الأفكار سببا للبعض . ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ما جرى على حواسه ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق به فكره . وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره أو يصلي في بيت مظلم أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره ، ويحترز من الصلاة على الشوارع

وفي المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة . ولذلك كان المتعبدون يتعبدون في بيت صغير مظلم سعته قدر السجود ليكون ذلك أجمع لهم . والأقوياء منهم كانوا يحضرون المساجد ويغضون البصر ولا يجاوزون به موضع السجود ويرون كال الصلاة في أن لا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم . وكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يدع في موضع الصلاة مصحفًا ولا سيفًا إلا نزعها ولا كتابًا إلا يحاه . وأما الأسباب الباطنة فهي أشد فإِنَّ من تشعبت به الهوموم في أودية الدنيا لا ينحصر فكره في فن واحد بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب وغض البصر لا يغنيه ، فإن ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل فهذا طريقه أن يرد النفس قهرا إلى فهم ما يقرؤه في الصلاة ويشغلها به عن غيره ، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم بأن يحدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدي الله سبحانه وهو المطلع ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهيمه فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بن أبي شيبة : « إني نسيت أن أقول لك أن تخمر القدر الذي في البيت ^(١) » فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل الناس عن صلاتهم ؛ فهذا طريق تسكين الأفكار . فإن كان لا يسكن هوائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيح إلا المسهل الذي يجمع مادة الداء من أعماق العروق وهو أن ينظر في الأمور الصارفة الشاغلة عن إحضار القلب ، ولا شك أنها تعود إلى مهماته وأنها إنما صارت مهمات لشهواته فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق ، فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه وجند إبليس غدوه فإمسكه أضرم عليه من إخراجة فيتخلص منه بإخراجة كما روى أنه صلى الله عليه وسلم : « لما لبس الخيصة التي أتاه بها أبو جهم وعليها علم وصلى بها نزعها بعد صلاته ، وقال صلى الله عليه وسلم : اذهبوا بها إلى أبي جهم فإنها أهدتني آفا عن صلاتي واثبتوني بأبجانية أبي جهم ^(٢) » . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجديد شركه نعله ثم نظر إليه في صلاته إذ كان جديدا فأمر أن ينزع منها ويرد الشرك الخلق ^(٣) . « وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى نعلا فأعجبه حسنهما فسجد وقال : تواضعت لربي عز وجل كي لا يمقتني ، ثم خرج بها فدفنها إلى أول سائل لقيه ، ثم أمر عليا رضي الله عنه أن يشتري له نعلين سبئيتين جرداوين فلبسهما ^(٤) » . وكان صلى الله عليه وسلم في يده خاتم من ذهب قبل التحريم وكان على المنبر فرماه وقال شغلني هذا : نظرة إليه ونظرة إليكم ^(٥) وروى « أن أبا طلحة صلى في حائط وفيه شجر فأعجبه دبسى طار في الشجر يلتمس مخرجا فأتبعه بصره ساعة ثم لم يدركم صلى ؟ فذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصابه من الفتنة ثم قال : يا رسول الله هو صدقة فضعه حيث شئت ^(٦) » . وعز رجل آخر أنه صلى في حائط له والنخل مطوقة بثمرها فنظر إليها وأعجبته ولم يدركم صلى ؟ فذكر ذلك لعثمان رضي الله عنه وقال : هو صدقة فأجعله في سبيل الله عز وجل

(١) حديث « إني نسيت أن أقول لك محرم القربتين القتين في البيت .. الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عثمان الجعفي وهو عثمان بن طلحة كما في مسند أحمد ووقع المصنف أنه قال ذلك لعثمان بن أبي شيبة وهو وهم .

(٢) حديث « نزع الخيصة وقال اثبتوني بأبجانية أبي جهم » متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم في العلم

(٣) حديث « أمره بجمع الشرك الجديد ورد الشرك الخلق لئلا ينظر إليه في صلاته » أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث أبي النضر مرسلًا بإسناد صحيح (٤) حديث « احتدى ملا فأعجبه حسنهما فسجد وقال تواضعت لربي .. الحديث » أخرجه أبو عبد الله

ابن حبيب في شرف الفقهاء من حديث عائشة بإسناد ضعيف (٥) حديث « رماه بالخاتم الذهب من يده وقال شغلني هذا نظرة إليه ونظرة إليكم » أخرجه النسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح وإيس فيه بيان أن الخاتم كان ذهبًا ولا فضة إنما هو

مطلق (٦) حديث « إن أبا طلحة صلى في حائط له فيه شجر فأعجبه ريش طائر في الشجر .. الحديث » أخرجه في سهوه في

الصلاة ولعده بالخاتم مالك عن عبد الله بن أبي بكر أن أبا طلحة الأنصاري فذكره بحقه

قباة عثمان بخمسين ألفاً . فكانوا يفعلون ذلك قطعاً لمادة الفكر وكفارة لما جرى من نقصان الصلاة وهذا هو الدواء القاطع لمادة العلة ولا يغني غيره . فأما ما ذكرناه من التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر فذلك ينفع في الشهوات الضعيفة والههم التي لا تشغل إلا حواسي القلب . فأما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين بل لا تزال تجاذبها وتجاذبك ثم تغلبك وتنقض جميع صلاتك في شغل المجاذبة . ومثاله : رجل تحت شجرة أراد أن يصفوله فكره وكانت أصوات العصافير تشوش عليه ، فلم يزل يطيرها بخشبة في يده ويعود إلى فكره فتعود العصافير فيعود إلى التنفير بالخشبة ، فقيل له : إن هذا أسير السواني ولا يقطع فإن أردت الخلاص فانقطع الشجرة . فكذلك شجرة الشهوات إذا تشعبت وتفرعت أغصانها انجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار وانجذاب النباب إلى الأفذار والشغل يطول في دفعها فإن الباب كلما ذب آب ولا حله سوى ذبابا . فكذلك الخواطر ، وهذه الشهوات كثيرة وقلما يخلو العبد عنها ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا ، وذلك رأس كل خطيئة وأساس كل نقصان ومنبع كل فساد . ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شيء منها لا ليتزود منها ولا ليستعين بها على الآخرة فلا يطعمن في أن تصفوله لذة المنجاة في الصلاة . فإن من فرح بالدنيا لا يفرح بالله سبحانه وبمناجاته . وهمة الرجل مع قوة عينه فإن كانت قوة عينه في الدنيا انصرف لا محالة إليها همه وانكسر مع هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة ، فهذا هو الدواء المزول لمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة مزمنة وصار الداء عضالاً ، حتى إن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يتحدثوا أنفسهم فيها بأمور الدنيا فمجزوا عن ذلك فإذا لم يطعم فيه لأمثالنا ، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس لنكون بمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً . وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح مملوء بخل فيقدر ما يدخل فيه من الماء يخرج منه من الخلل لا محالة ولا يجتمعان

بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب - عند كل ركن وشرط - من أعمال الصلاة

فقول : حَقَّكَ إِن كُنتَ مِنَ الْمُرِيدِينَ لِلآخِرَةِ أَنْ لَا تَغْفَلَ أَوَّلًا عَنِ التَّنْذِيرَاتِ الَّتِي فِي شُرُوطِ الصَّلَاةِ وَأَرْكَانِهَا . أما الشروط السوابق فهي الأذان والطهارة وستر العورة واستقبال القبلة والانتصاب قائماً والنية . فإذا سمعت النداء المؤذن فأحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة وتشمر بظاهرك وباطنك الإجابة والمساواة ؛ فإن المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر فأعرض قلبك على هذا النداء فإن وجدته مملوءاً بالعرح والاستبشار مشحوناً بالرغبة إلى الابتدار فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : أرحنا يا بلال^(١) ، أى أرحنا بها وبانداء إليها إذ كان قوة عينه فيها صلى الله عليه وسلم . وأما الطهارة فإذا أتيت بها في مكانك وهو طرفك الأبعد ثم في ثيابك وهي غلافك الأقرب ، ثم في بشرتك وهي قشرك الأدنى فلا تغفل عن لبك الذي هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له تطهيراً بالتوبة والندم على ما فترطت وتصميم العزم على الترك في المستقبل فطهر بها باطنك فإنه موضع نظر معبودك . وأما ستر العورة فاعلم أن معناه تغطية متابع بدنك عن أبصار الخلق فإن ظاهر بدنك موقع لنظر الخلق فما بالك في عورات باطنك وفضائح سرائرك التي لا يطلع عليها إلا ربك عز وجل ؟ فأحضر تلك الفضائح بياك وطالب نفسك بسترها وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحانه

(١) حديث « بها أرحنا يا بلال » أخرجه الدارقطني في العلل من حديث بلال ولأبي داود نحوه من حديث رجل من الصحابة لم يسم بأحد صحيح .

سائر . وإنما يغفرها الندم والحياء والخوف فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعاث حنود الخوف والحياء من مكانها فتدل بها بنفسك وتستكين تحت الخجلة قلبك وتقوم بين يدي الله عز وجل قيام العبد المجرم المسمى الآبق الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكسا رأسه من الحياء والخوف . وأما الاستقبال فهو صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى ، أفترى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى الله عز وجل ليس مطلوباً منك هيئات فلا مطلوب سواء . وإنما هذه الظواهر تحريكات للبواطن وضبط للجوارح وتسكين لها بالإثبات في جهة واحدة حتى لا ينبغي على القلب فإنها إذا لغت وظلمت في حركاتها والتفتاتها إلى جهاتها استتبع القلب وانقلبت به عن وجه الله عز وجل فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك . فاعلم أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها فلا يصرف القلب إلى الله عز وجل إلا بالتفرغ عما سواه وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إذا قام العبد إلى صلاته فكان هوأه ووجهه وقلبه إلى الله عز وجل انصرف كيوم ولدته أمه »^(١) ، وأما الاعتدال قائماً فإنما هو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله عز وجل ، وليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقاً مطاطاً متمكساً ، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيهاً على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبري عن التبرؤ والتكبر ، وليكن على ذكرك ههنا خطر القيام بين يدي الله عز وجل في هول المطلع عند العرض للسؤال . واعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله عز وجل وهو مطلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله بل قدر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ ومراقوب بعين كالته من رجل صالح من أهلك أو بمن ترغب في أن يعرفك بالصلاح ، فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخضع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع . وإذا أحسست من نفسك بالتماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها : إنك تدعين معرفة الله وجهه أفلا تستحين من استجرائك عليه مع توقيرك عبداً من عباده أو تخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى ؟ ولذلك لما قال أبو هريرة : كيف الحياء من الله فقال صلى الله عليه وسلم تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من قومك^(٢) ، وروى من أهلك ، وأما النية فاعزم على إجابة الله عز وجل في أمثال أمره بالصلاة وإتمامها والكف عن نوافضها ومسداتها وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه رجاء لثوابه وخوفاً من عقابه وطلباً للقرية منه متقلداً للجنة منه بإذنه إياك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة عصيانك ، وعظم في نفسك قدر مناجاته وانظر من تتاجى وكيف تتاجى وبماذا تتاجى ؟ وعند هذا ينبغي أن يعرف جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الهيبة ويصفز وجهك من الخوف . وأما التكبير فإذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذب قلبك فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله سبحانه فالله يشهد إنك لكاذب وإن كان الكلام صدقاً كما شهد على المنافقين في قولهم : إنه صلى الله عليه وسلم رسول الله . فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله عز وجل فأنت أطوع له منك لله تعالى فقد اتخذته إلهك وكبرته فيوشك أن يكون قولك : الله أكبر ، كلاماً باللسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته ؛ وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرم الله تعالى وعفوه . وأما دعاء الاستفتاح فأول كلماته قولك : وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ، وليس المراد بالوجه الوجه الظاهر فإنك إنما وجهته إلى جهة القبلة والله سبحانه يتقدس

(١) حديث « إذا قام العبد إلى صلاته وكان وجهه وهوأه إلى الله انصرف كيوم ولدته أمه » لم أجده

(٢) حديث « قال أبو هريرة كيف الحياء من الله قال تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من قومك » أخرجه المزايا في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب من حديث سعيد بن زيد مرسل نحوه وأرسله البيهقي بإضافة ابن عمر في السد وفي العلل الدارقطني عن ابن عمر له وقال أنه أشبه شيء بالصواب لوروده من حديث سعيد بن زيد أحد الدهرة

عن أن تتحدّ الجهاب حتى تقبل بوجهه بذلك عليه . وإنما وجه القلب هو الذي تتوجه به إلى فاطر السموات والأرض فانظر إليه أمتوجه هو إلى أمانيه وهمه في البيت والسوق متبع للشهوات أو مقبل على فاطر السموات ؟ وإياك أن تكون أول مفتاحتك للنجاح بالكذب والاحتلاق ولن ينصرف الوحه إلى الله تعالى إلا بانصرافه عما سواه فاجتهد في الحال في صرفة إليه وإن عجزت عنه على الدوام فليكن قولك في الحال صادقا . وإذا قلت وحيفا مسلما ، فينبغي أن يخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده فإن لم تكن كذلك كنت كاذبا فاجتهد في أن تعزم عليه في الاستقبال وتقدم على ما سبق من الأحوال . وإذا قلت « وما أنا من المشركين ، فأخطر ببالك الشرك الخفي فإن قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه وليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) نزل فيمن يقصد لعبادته وجه الله وحده الناس وكن حذرا مشفقا من هذا الشرك ، واستشعر الخجلة في قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير رامة عن هذا الشرك فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه . وإذا قلت وحياي ومآتي لله ، فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده وأنه إن صدر ممن رضاه وغضه وقيامه وقعوده ورغبته في الحياة ورهبته من الموت لأمر الدنيا لم يكن ملائما للحال . وإذا قلت « أعود بالله من الشيطان الرجيم ، فاعلم أنه عدوك ومترصد لصرف قلبك عن الله عز وجل حسدا لك على مناجاتك مع الله عز وجل وسجودك له مع أنه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها ، وأن استعاذتك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه وتديله بما يحب الله عز وجل لا بمجرد قولك ، فإن من قصده سميع أو عدو ليفترسه أو يقتله فقال : أعود منك بذلك الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه ، فإن ذلك لا يفعه ، بل لا يعبده إلا بتدليل المكان ؛ فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن فلا يغنيه مجرد القول فليقرن قوله بالعزم على التعود بحسن الله عز وجل عن شر الشيطان وحسنه « لا إله إلا الله ، إذ قال عز وجل فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم « لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي »^(١) ، والمتحصن به لا معبود له سوى الله سبحانه وأما من اتخذه له هوا وهو في ميدان الشيطان لاقى حصن الله عز وجل . واعلم أن من مكايده أن يشغلك في صلاتك بذكر الآخرة وتدبير ومل الخيرات لينتفعك عن فهم ماتقرأ . فاعلم أن كل ما يشغلك عن فهم معاني قراءتك فهو وسواس فإن حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود معانيها : فأما القراءة فالتناس فيها ثلاثة ، رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره وهي درجات أصحاب اليمين ، ورجل يسبق قلبه إلى المعاني أولا ثم يخدم اللسان القلب فيترجمه . فمفرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب والمقرّون لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه القلب . وتفصيل ترجمة المعاني أنك إذا قلت « بسم الله الرحمن الرحيم ، فانو به الترتيب لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه ، وافهم أن الأمور كلها بالله سبحانه . وأن المراد بالاسم ههنا هو المسمى . وإذا كانت الأمور بالله سبحانه فلا جرم كان « الحمد لله » ومعناه أن الشكر لله إذ النعم من الله . ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله عز وجل في تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله تعالى . فإذا قلت « الرحمن الرحيم » فأحضر في قلبك جميع أنواع لطفه لتتضح لك رحمته فينبعث بها رجائك . ثم استبر من قلبك التعظيم والخوف بقولك « مالك يوم الدين » أما العظمة ولأنه لا ملك إلا له

(١) حديث « قال الله تعالى لا إله إلا الله حصني » أخرجه الحاكم في التاريخ وأبو نعيم في الحلية من طريق أهل البيت من حديث علي بإسناد صحيح جداً ، وقول أبي مسرور الديلمي أنه حديث ثابت مرود عليه .

وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو ماله . ثم جدد الإخلاص بقولك : إياك نعبد ، وجدد العجز والاحتياج والتبرى من الحول والقوة بقولك : إياك نستعين ، وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بإعانتة وأن له المنة إذ وفقت لطاعته واستخدمك لعبادته وجعلك أهلاً لمناجاته . ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين . ثم إذا فرغت من التعتوذ ومن قولك : بسم الله الرحمن الرحيم ، ومن التحميد ومن إظهار الحاجة إلى الإعانة مطلقاً فعين سؤالك ولا تطلب إلا أهم حاجاتك وقل : إهدنا الصراط المستقيم ، الذي يسوقنا إلى جوارك ويفضي بنا إلى مرضاتك . وزده شرحاً وتفصيلاً وتأكيذاً واستشهاداً بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين من اليهود والنصارى والصابئين ثم التمس الإجابة وقل : آمين ، فإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون من الذين قال الله تعالى فيهم فيما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل^(١) ، يقول العبد : الحمد لله رب العالمين ، فيقول الله عز وجل : حمدني عبدي وأثنى علي . وهو معنى قوله : سمع الله لمن حمده ... الحديث الخ ، فلو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله لك في حلاله وعظمت فناهيك بذلك غنيمة فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله ؟ وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرأه من السور - كما سيأتي في كتاب تلاوة القرآن - فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعدته ووعدته ومواعظه وأخبار أُنسائه وذكر منته وإحسانه . ولكل واحد حق فالرجاء حق الوعد ؛ والخوف حق الوعيد ؛ والعزم حق الأمر والنهي ؛ والالتعاط حق الموعظة ، والشكر حق ذكر المنة ، والاعتبار حق لإخبار الأنبياء . وروى أن زرارة بن أرقى لما انتهى إلى قوله تعالى (فاذا قرأ في القرآن) ختم ميتاً وكان إبراهيم النخعي إذا سمع قوله تعالى (إذا السماء انشقت) اضطرب حتى تضطرب أوصاله . وقال عبد الله بن واقد : رأيت ابن عمر يصلي مغلوباً عليه ؛ وحق له أن يحترق قلبه بوعده سيده ووعدته فانه عبد مذنب ذليل بين يدي جبار قاهر ، وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب . ودرجات ذلك لا تنحصر . والصلاة مفتاح القلوب فيها تنكشف أسرار الكلمات فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضاً . ثم يراعى الهيئة في القراءة فيرتل ولا يسرد فإن ذلك أيسر للتأمل . ويفرق بين نغاته في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد والتحميد والتعظيم والتمجيد . كان النخعي إذا مر بمثل قوله عز وجل (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله) يخفض صوته كالمستحي عن أن يذكره بكل شيء لا يليق به . وروى أنه يقال لقارئ القرآن : اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا^(٢) ، وأما دوام القيام فانه تنبيه على إقامة القلب مع الله عز وجل على نعمت واحد من الحضور قال صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل مقبل على المصلى ما لم يلتفت^(٣) ، وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات فكذلك تجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة . فإذا التفت إلى غيره فذكره باطلاع الله عليه وبقيع التهاون بالمناجي عند غفلة المناجي ليعود اليه . وألزم الخشوع للقلب فإن الخلاص عن الالتفات باطناً وظاهراً ثمرة الخشوع . ومهما خشع الباطن خشع الظاهر قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى رجلاً مصلياً يعبك بلحيته : أما هذا

(١) حديث « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ... الحديث » أخرجه مسلم عن أبي هريرة (٢) حديث « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن عمر وقال الترمذي حسن صحيح

(٢) « إن الله يقبل على المصلى ما لم يلتفت » أخرجه أبو داود والنسائي والمالك وصححه استاده أبي ذر

لوحش قلبه لخشعت جوارحه ، فإن الرعية بحكم الراعى . ولهذا ورد في الدعاء « اللهم أصلح الراعى والرعية » (١) ، وهو القلب والجوارح . وكان الصديق رضى الله عنه في صلاته كأنه وتد . وابن الزبير رضى الله عنه كأنه عود . وبعضهم كان يسكن في ركوعه بحيث تقع العصافير عليه كأنه جماد ، وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدى من يعظم من أبناء الدنيا فكيف لا يتفاضل بين يدى ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك ؟ وكل من يطمئن بين يدى غير الله عز وجل خاشعا وتضطرب أطرافه بين يدى الله عابثا فذلك لقصور معرفته عن جلال الله عز وجل وعن اطلاعه على سره وضميره . وقال عكرمة في قوله عز وجل ﴿ الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين ﴾ قال : قيامه وركوعه وسجوده وحلوسه . وأما الركوع والسجود فينبغى أن تجدد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه وترفع يديك مستجيرا بعفو الله عز وجل من عقابه بتجديد نية ومتبعا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم تستأنف له ذلا وتواضعا بركوعك وتجهد في ترقيق قلبك وتحديد خشوعك وتستشعر ذلك وعز مولاك واتضاعك وعلو ربك . وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة وأنه أعظم من كل عظيم وتكرر ذلك على قلبك لتؤكد بالتكرار . ثم ترتفع من ركوعك راجيا أنه راحم لك ومؤكدا للرجاء في نفسك بقولك « سمع الله لمن حمده » أى أحاب لمن شكره . ثم ردو ذلك الشكر المتقاضى للزيد فتقول « ربنا لك الحمد » وتكرر الحمد بقولك « ملء السموات وملء الأرض » ثم تهوى إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة فتتمكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب . وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلا فتسجد على الأرض فاعمل فيه أحل للخشوع وأدل على الذل . وإذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها موضعا ورددت العرع إلى أصله فأبك من التراب خلقت وإليه تعود فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله وقل « سبحانه ربى الأعلى » وأكد بالتكرار فإن الكثرة الواحدة صميغة الأثر فإذا رق قلبك وطهر ذلك فلتصدق رجاءك في رحمة الله فإن رحمته تنسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبطر فارفع رأسك مكبرا وسائلا حاجتك وقائلا رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم ، أو ما أردت من الدعاء . ثم أكد التواضع بالتكرار فعد إلى السجود ثانيا كذلك . وأما التشهد فإذا جلست له فاحلس متأدبا وصرح بأن جميع ما تدلى به من الصلوات والطيبات أى من الأخلاق الطاهرة لله . وكذلك الملك لله وهو معنى التحيات ، وأحضر في قلبك النبي صلى الله عليه وسلم وشخصه الكريم وقل « سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » وليصدق أملك في أنه يبلغه ويرد عليك ما هو أوق منه . ثم تسلم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين . ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلاما وإفيا بعدد عباد الصالحين ثم تشهد له تعالى بالوحدانية ولحمد نبيه صلى الله عليه وسلم بالرسالة مجتدا عهد الله سبحانه بإعادة كلمتي الشهادة ومستأنفا للتحصن بها . ثم ادع في آخر صلاتك بالدعاء المأثور مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال وصدق الرجاء بالإجابة . وأشرك في دعائك أبويك وسائر المؤمنين . واقصد عند التسليم السلام على الملائكة والحاضرين وانوختم الصلاة به . واستشعر شكر الله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة . وتوهم أنك مودع لصلاتك هذه وأنتك ربما لاتعيش لمثلها . وقال صلى الله عليه وسلم للذى أوصاه « صل صلاة مودع » ثم أشعر قلبك الوجل والحياء من التقصير في الصلاة ، وخف أن لا تقبل صلاتك وأن تكون عمقوتا بذنب ظاهر أو باطل فترد صلاتك في وجهك ، وترجو مع ذلك أن يقبلها بكرمه وفضله . كان يحيى بن وثاب إذا صلى مكث ما شاء الله تعرف عليه كآبة الصلاة .

(١) حديث « اللهم أصلح الراعى والرعية » لم أف له على أصل دمره المصنف بالقلب والجوارح

وكان إبراهيم يمتك بعد الصلاة ساعة كأنه مريض . فهذا تفصيل صلاة الخاشعين ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ... والذين هم على صلواتهم يحافظون ... والذين هم على صلاتهم دائمون . والذين هم يناجون الله على قدر استطاعتهم في العبودية فليعرض الإنسان نفسه على هذه الصلاة ، فبالقدر الذي يسر له منه ينبغي أن يفرح وعلى ما يفوته ينبغي أن يتحسر وفي مداراة ذلك ينبغي أن يجتهد . وأما صلاة الغافلين فهي خطيرة إلا أن يتغمده الله برحمته والرحمة واسعة والكرم فائض فنسأل الله أن يتغمدنا برحمته ويغفرنا بمغفرته إذ لا وسيلة لنا إلا الاعتراف بالعجز عن القيام بطاعته . واعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات وإخلاصها لوجه الله عز وجل وأدائها بالشروط الباطنة التي ذكرناها من الخشوع والتعظيم والحياء سبب لحصول أنوار في القلب تكون تلك الأنوار مفاتيح علوم المكاشفة . فأولياء الله المكاشفون بملكوت السموات والأرض وأسرار الربوبية إنما يكاشفون في الصلاة لاسيما في السجود إذ يتقرب العبد من ربه عز وجل بالسجود . ولذلك قال تعالى ﴿ واسجد واقترب ﴾ وإنما تكون مكاشفة كل مصل على قدر صفاته عن كدورات الدنيا ، ويختلف ذلك بالقوة والضعف والقلة والكثرة وبالجلالة والخفاء حتى ينكشف لبعضهم الشيء بعينه وينكشف لبعضهم الشيء بمثاله ، كما كشف لبعضهم الدنيا في صورة جيفة والتبطلان في صورة كلب حائم عليها يدعو إليها . ويختلف أيضا بما فيه المكاشفة فبعضهم ينكشف له من صفات الله تعالى وحلاله وبعضهم من أفعاله وبعضهم من دقائق علوم المعاملة . ويكون اتعين تلك المعاني في كل وقت أسباب خفية لا تحصى وأشدها مناسبة الهمة فإنها إذا كانت مصروفة إلى شيء معين كان ذلك أولى بالكشف ولما كانت هذه الأمور لا تترامى إلا في المراتى الصقيلة وكانت المرآة كلها صدئة فاحتجبت عنها الهداية لا لاجل من جهة المنعم بالهداية بل لخبث متراكم الصل على مصب الهداية تسارعت الألسنة إلى إنكار مثل ذلك ، إذ الطبع مجبول على إنكار غير الحاضر ، ولو كان للجهين عقل لأنكر إمكان وجود الإنسان في متسع الهواء ، ولو كان للطفل تمييز ما ربما أنكر ما يزعم العقلاء إدراكه من ملكوت السموات والأرض ، وهكذا الإنسان في كل طور يكاد ينكر ما عبده ومن أنكر طور الولاية لزمه أن ينكر طور النبوة ، وقد خلق الخلق أطوارا فلا ينبغي أن ينكر كل واحد ما وراء درجته ، نعم لما طلبوا هذا من المحادله والمباحثة المشوشة ولم يطلبوها من تصفية القلوب عما سوى الله عز وجل فقدوه فأنكروه . ومن لم يكن من أهل المكاشفة فلا أقل من أن يؤمن بالعيب ويصدق به إلى أن يشاهد بالتجربة وفي الخبر « إن العبد إذا قام في الصلاة رفع الله سبحانه الحجاب بينه وبين عبده وواجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدن منكبیه إلى الهواء بصلاته ويؤمنون على دعائه - وإن المصلي لينثر عليه الر من عنان السماء إلى مفرق رأسه وينادى مناد : لو علم هذا الماحى ما التفت . وإن أبواب السماء تفتح للمصلين . وإن الله عز وجل يباهى ملائكته بعبده المصلي ^(١) ، ففتح أبواب السماء ومواجهة الله تعالى إياه بوجهه كناية عن الكشف الذي ذكرناه . وفي التوراة مكتوب : يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدي مصليا باكيا فأنا الله الذي اقتريت من قلبك وبالنسب رأيت نوري ، قال : فكنا نرى أن تلك الرقة والبكاء والفتوح الذي يجده المصلي في قلبه من دنو الرب سبحانه من القلب . وإذا لم يكن هذا الدنو هو القرب بالمكان فلا معنى له إلا الدنو بالهداية والرحمة وكشف الحجاب . ويقال إن العبد إذا صلى ركعتين عجب منه عشرة صفوف من الملائكة كل صف منهم عشرة آلاف وباهى الله به مائة ألف ملك . وذلك أن العبد قد جمع في الصلاة بين القيام والقعود والركوع والسجود وقد فرق الله ذلك على أربعين ألف ملك ، فالقائمون

(١) حديث « إن العبد إذا قام في الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبين عبده . الحديث » لم أحده

لا يركعون إلى يوم القيامة والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة ، وهكذا الراكعون والقاعدون ، فإن ما رزق تعالى الملائكة من القرب والرتبة لازم مستمر على حال واحد لا يريد ولا ينقص لذلك أخبر الله عنهم أنهم قالوا ﴿ وما لنا إلا له مقام معلوم ﴾ وفارق الإنسان الملائكة في الترقى من درجة إلى درجة فإنه لا يزال يتقرب إلى الله تعالى فبستفيد مزيد قربه وباب المزيد مسدود على الملائكة عليهم السلام وليس لكل واحد إلا رتبته التي هي وقف عليه . وعبادته التي هو منسغول بها لا يفتقر إليها ولا يفتقر عنها ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ ومفتاح مزيد الدرجات هي الصلوات . قال الله عز وجل ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ فمدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة وهي المقرونة بالخشوع . ثم ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضا فقال تعالى ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ ثم قال تعالى في ثمرة تلك الصفات ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ ووصفهم بالفلاح أولا وبورثة الفردوس آخرا ، وما عندي أن هدرمة اللسان مع غفلة القلب تنتهى إلى هذا الحد ولذلك قال الله عز وجل في أضدادهم (ماسلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين) فالمصلون هم ورثة الفردوس وهم المشاهدون لنور الله تعالى والمتمتعون بقربه ودنوه من قلوبهم . نسأل الله أن يمجدا لنا منهم وأن يعيدنا من عقوبة من تزينت أقواله وقبحت أفعاله إنه الكريم المنان القديم الإحسان وصلى الله على كل عبد مصطفي .

حكايات وأخبار في صلاة الخاشعين رضى الله عنهم

اعلم أن الخشوع ثمرة الإيمان ونتيجة اليقين الحاصل بحلال الله عز وجل ومن رزق ذلك فإنه يكون خاشعا في الصلاة وفي غير الصلاة بل في خلوته وفي بيت المال عند الحاجة ، فإن موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد . فمن هذه المعارف يتولد الخشوع وليست محتصة بالصلوة ولذلك روى عن بعضهم أنه لم يرفع رأسه إلى السماء أربعين سنة حياء من الله سبحانه وحشوعا له ، وكان الربيع بن خيم من شدة غضبه لبصره وإطراقه يظن بعض الناس أنه أعمى ، وكان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة فإذا رآته جاريته قالت لابن مسعود : صدقك الأعمى قد جاء ، فكان يضحك ابن مسعود من قولها ، وكان إذا دق الباب تخرج الجارية إليه فتراه مطرقا غاضا بصره ، وكان ابن مسعود إذا نظر إليه يقول (وبشر المختبين) أما والله لورأك محمد صلى الله عليه وسلم لفرح بك - وفي لفظ آخر : لأحبك وفي لفظ آخر : لضحك - ومشى ذات يوم مع ابن مسعود في الحدادين فلما نظر إلى الأكوار تنفخ وإلى النار تذهب صعق وسقط مغشيا عليه وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة فلم يبق حمله على ظهره إلى منزله ، فلم يزل مغشيا عليه إلى مثل الساعة التي صعق فيها ففاته خمس صلوات وابن مسعود عند رأسه يقول : هذا والله هو الخوف . وكان الربيع يقول ، ما دخلت في صلاة قط فأهمني فيها إلا ما أقول وما يقال لي ، وكان عامر بن عبد الله من خاشعي المصلين وكان إذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف وتحدث النساء بما يردن في البيت ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله ، وقيل له ذات يوم هل تحدثك نفسك في الصلاة شيء ؟ قال : نعم بقوة بين يدي الله عز وجل ومنصرفي لإحدى الدارين ، قيل : فهل تجدد شيئا مما نجد من أمور الدنيا ؟ فقال : لأن تختلف الأسنه في أحب إلى من أن أجد في صلاتي ما تجدون وكان يقول : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا . وقد كان مسلم بن يسار منهم ، وقد نقلنا أنه لم يشعر بسقوط أسطوانة في المسجد وهو في الصلاة . وتأكل طرف من أطراف بعضهم واحتيج فيه إلى القطع فلم يمكن منه فقليل : إنه في الصلاة لا يحس بما يجري عليه ؛ فقطع وهو في الصلاة . وقال بعضهم : الصلاة من الآخرة فإذا دخلت فيها

خرجت من الدنيا وقيل لآخر : هل تحدث نفسك بشيء من الدنيا في الصلاة ؟ فقال : لاني الصلاة ولاني غيرها .
 وسئل بعضهم هل تذكر في الصلاة شيئاً ؟ فقال : وهل شيء أحب إلى من الصلاة فأذكره فيها ؟ وكان أبو الدرداء
 رضى الله عنه يقول : من فقه الرجل أن يبدأ بمحاحته قبل دخوله في الصلاة ليدخل في الصلاة وقلبه فارغ . وكان بعضهم
 يخفف الصلاة خيفة الوسواس ، وروى أن عمار بن ياسر صلى صلاة فأخفها فقليل له : خففت يا أبا اليقظان فقال :
 هل رأيتموني نقصت من حدودها شيئاً ؟ قالوا : لا : قال : إني بادرت سهو الشيطان ، إن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم قال : « إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له نصفها . ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها ، وكان
 يقول : « إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها ^(١) » ، ويقال إن طلحة والزبير وطائفة من الصحابة رضى الله عنهم كانوا
 أخف الناس صلاة ، وقالوا نبادر بها وسوسة الشيطان . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال على المنبر : إن
 الرجل ليشتب عارضه في الإسلام وما أكل الله تعالى صلاة ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لا يتم خشوعها وتواضعها
 وإقباله على الله عز وجل فيها . وسئل أبو العالية عن قوله تعالى (الذين هم عن صلاتهم ساهون) قال هو الذى يسهو في
 صلاته فلا يدرى على كم ينصرف أعلى شفع أم على وتر ؟ وقال الحسن : هو الذى يسهو عن وقت الصلاة حتى تخرج
 وقال بعضهم : هو الذى إن صلاها في أول الوقت لم يفرح وإن أخرها عن الوقت لم يحزن فلا يرى تعجيلها خيراً
 ولا تأخيرها إثمًا ، واعلم أن الصلاة قد يحسب بعضها ويكتب بعضها دون بعض كما دلت الأخبار عليه وإن كان
 الفقيه يقول : إن الصلاة في الصحة لا تتجزأ ، ولكن ذلك له معنى آخر ذكرناه وهذا المعنى دلت عليه الأحاديث
 إذ ورد جبر نقصان الفرائض بالنوافل ^(٢) وفي الخبر : « قال عيسى عليه السلام : يقول الله تعالى بالفرائض بحاجتى
 عبدى وبالنوافل تقرب إلى عبدى » ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قال الله تعالى لا ينجو منى عبدى إلا بأداء
 ما افترضته عليه ^(٣) » ، وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم ، صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما انفتل قال ماذا قرأت
 فسكت القوم ؛ فسأل أبى بن كعب رضى الله عنه فقال : قرأت سورة كذا وتركت آية كذا فما ندرى أنسخت أم
 رفعت ؟ فقال : أنت لها يا أبى ، ثم أقبل على الآخرين فقال : ما بال أقوام يحضرون صلاتهم ويتمون صفوفهم
 ونبيهم بين أيديهم لا يدرون ما يتلو عليهم من كتاب ربهم ؟ ألا إن بنى إسرائيل كذا فعلوا فأوحى الله عز وجل
 إلى نبيهم أن قل لقومك تحضرونى أبدانكم وتعطونى ألسنتكم وتغيبون عى بقلوبكم باطل ما تذهبون إليه ^(٤) ، وهذا
 يدل على أن استماع ما يقرأ الإمام وهمه بدل عن قراءة السورة بنفسه : وقال بعضهم إن الرجل يسجد
 السجدة عنده أنه تقرب بها إلى الله عز وجل ولو قسمت ذنوبه في سجده على أهل مدينته لهلكوا : قيل
 وكيف يكون ذلك ؟ قال . يكون ساجدا عند الله وقلبه مصغ إلى هوى ومشاهد لباطل قد استولى عليه .
 فهذه صفة الخاشعين . فدللت هذه الحكايات والأخبار مع ما سبق على أن الأصل في الصلاة الخشوع وحضور القلب
 وأن مجرد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى في المعاد والله أعلم . نسأل الله حسن التوفيق

(١) حديث « إن عمار بن ياسر صلى فأخفها فقليل له خففت يا أبا اليقظان .. الحديث » وفيه « إن العبد ليصلي صلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها ، . إلى آخره » أخرجه أحمد بإسناد صحيح وتقدم المرفوع عنه وهو عند أبى داود والنسائي

(٢) حديث « جبر نقصان الفرائض بالنوافل » رواه أصحاب الدين والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة « إن أول ما يحاسب به المد يوم القيامة من عمله صلاته » وفيه ما انتقص من فرضه شيئاً قال الرب عز وجل انظروا هل لعبدى من تطوع و بكل بها ما تقص من الفريضة » (٣) حديث « قال الله تعالى لا ينجو منى عبدى إلا بأداء ما افترضت عليه » لم أحده

(٤) حديث « صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما انفتل قال ماذا قرأت فسكت القوم فسأل أبى بن كعب . الحديث » رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة مرسلًا أبو بصير الدبلى من حديث أبى بن كعب ورواه النسائي بمصرأ من حديث عبد الرحمن بن أبى بصير بإسناد صحيح

الباب الرابع في الإمامة والقعدة

وعلى الإمام وظائف قبل الصلاة وفي القراءة وفي أركان الصلاة وبعد السلام :

أما الوظائف التي هي قبل الصلاة فسته (أولها) أن لا يتقدم للإمامة على قوم يكرهونه فإن اختلفوا كان النظر إلى الأكثرين ، فإن كان الأقلون هم أهل الخير والدين فانظر إليهم أولى وفي الحديث « ثلاثة لا تجاوز صلاتهم رءوسهم : العبد الآبق وامرأة زوجها ساخط عليها وإمام أم قوما وهم له كارهون »^(١) ، وكما ينهى عن تقدمه مع كراهيتهم فكذلك ينهى عن التقدمة إن كان وراءه من هو أفقه منه إلا إذا امتنع من هو أولى منه فله التقدم ، فإن لم يكن شيء من ذلك فليتقدم مهما قدم وعرف من نفسه القيام بشروط الإمامة . ويكره عند ذلك المدافعة فقد قيل إن قوما تدافعوا للإمامة بعد إقامة الصلاة تخسف بهم . وما روى من مدافعة الإمامة بين الصحابة رضى الله عنهم فسيبه لإيثارهم من رأوه أنه أولى بذلك أو خوفهم على أنفسهم السهر وخطر ضمان صلاتهم ، فإن الأئمة ضئفاء وكان من لم يتعقد ذلك ربما يشتغل قلبه ويتشوش عليه الإخلاص في صلاته حياء من المقتدين لاسيما في جمهره بالقراءة ، فكان لا حتراز من احتراز أسباب من هذا الجنس . (الثانية) إذا خير المربين الأذان والإمامة فينبغي أن يختار الإمامة فإن لكل واحد منهما فضلا ولكن اجمع مكروه بل يذنبى أن يكون الإمام غير المؤذن ، وإذا تعذر الجمع فالإمامة أولى . وقال قائلون : الأذان أولى لما نقلناه من فضيلة الأذان لقوله صلى الله عليه وسلم « الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن »^(٢) ، فقالوا ، فيها خطر الضمان . وقال صلى الله عليه وسلم « الإمام أمين فإذا ركع فاركعوا وإذا سجد فاسجدوا »^(٣) ، وفي الحديث « فإن أتم فله ولهم وإن نقص فعليه لأعليهم »^(٤) ، ولأنه صلى الله عليه وسلم قال « اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين »^(٥) ، والمعصرة أولى بالطلب فإن الرشديراد للفقرة وفي الخبر « من أم في مسجد سبع سنين وجبت له الجنة بلا حساب ومن أذن أربعين عاما دخل الجنة بغير حساب »^(٦) ، ولذلك نقل عن الصحابة رضى الله عنهم أنهم كانوا يتدافعون للإمامة : والصحيح أن الإمامة أفضل إذ واظب عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهم والأئمة بعدهم . نعم فيها خطر الضمان والفضيلة مع الخطر كما أن رتبة الإمارة أفضل لقوله صلى الله عليه وسلم « ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة »^(٧) ، ولكن فيها خطر ولذلك وجب تقديم الأفضل

الباب الرابع

- (١) حديث « ثلاثة لا تجاوز صلاتهم رءوسهم : العبد الآبق ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي أمامة وقال حسن مرئب وضعه البيهقي (٢) حديث « الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث أبي هريرة ، وحكى عن ابن المدينى أنه لم يثبت به ورواه أحمد من حديث أبي أمامة بإسناد حسن (٣) حديث « الامام أمين فإذا ركع فاركعوا » الحديث « أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة دون قوله « الإمام أمين » وهو بهذه الريادة في مسند الجيرى وهو متفق عليه من حديث أسى دون هذه الريادة (٤) حديث « فان أتم فله ولهم وإن نقص فعليه ولا عليهم » أخرجه ابوداود وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عقة بن عامر والطارى من حديث أبي هريرة « يصلون بكم فان أماوا فلكم وإن أخطوا فلكم وعليهم » (٥) حديث « اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين » هو شقة حديث « الإمام ضامن » وتقدم قبل عمدين (٦) حديث « من أذن في مسجد سبع سنين وجبت له الجنة ومن أذن أربعين عاما دخل الجنة بغير حساب » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس بالشطر الأول نحوه قال الترمذى حديث غريب (٧) حديث « ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بسند حسن بلفظ متين

والألفقه فقد قال صلى الله عليه وسلم « أتمتكم شعاعواكم - أو قال وفدكم إلى الله - فإن أردتم أن تزكوا صلاتكم فقدموا خياركم ^(١) » ، وقال بعض السلف . ليس بعد الأنبياء أفضل من العلماء ولا بعد العلماء أفضل من الأئمة المصلين لأن هؤلاء قاموا بين يدي الله عز وجل وبين خلقه هذا بالنبوة وهذا بالعلم وهذا بعاد الدين وهو الصلاة . وبهذه الحجة احتج الصحابة في تقديم أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعنهم للخلافة ، إذ قالوا انظرنا فإذا الصلاة عماد الدين فاخترنا لديننا من رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا ^(٢) وما قدموا بلالا احتجاجا بأنه رضى للأذان ^(٣) وما روى أنه قال له رجل : يا رسول الله دلني على عمل أدخل به الجنة قال : كن مؤذنا ، قال لا أستطيع ، قال : كن إماما ، قال : لا أستطيع ، فقال : صل بإزاء الإمام ^(٤) ، فلعلة ظن أنه لا يرضى بإمامته إذ الأذان إليه والإمامة إلى الجماعة وتقديمهم له . ثم بعد ذلك توهم أنه ربما يقدر عليها (الثالثة) أن يراعى الإمام أوقات الصلوات فيصل في أوقاتها ليدرك رضوان الله سبحانه بفضل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا ^(٥) هكذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الحديث « إن العبد ليصلي الصلاة في آخر وقتها ولم تفته ، ولما فاتته من أول وقتها خير له من الدنيا وما فيها ^(٦) » ، ولا ينبغي أن يؤخر الصلاة لانتظار كثرة الجماعة بل عليهم المبادرة لحيازة فضيلة أول الوقت فهي أفضل من كثرة الجماعة ومن تطويل السورة . وقد قيل كانوا إذا حضروا ثلث في الجماعة لم ينتظروا الثالث ، وإذا حضر أربعة في الجماعة لم ينتظروا الخامس . وقد تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفجر وكانوا في سفر وإنما تأخر للطهارة فلم ينتظر وقدم عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم حتى فاتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعة فقام يقضيها ، قال : فأشفقنا من ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قد أحسنتم هكذا فافعلوا ^(٧) » ، وقد تأخر في صلاة الظهر فقدموا أبا بكر رضي الله عنه حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة فقام إلى جانبه ^(٨) ، وليس على الإمام انتظار المؤذن وإنما على المؤذن انتظار الإمام للإقامة فإذا حضر فلا ينتظر غيره (الرابعة) أن يؤم مخلصا لله عز وجل ومؤديا أمانة الله تعالى في طهارته وجميع شروط صلاته . أما الإخلاص

(١) حديث « أتمتكم شعاعواكم إلى الله تعالى فان اردتم ان تزكوا صلاتكم فقدموا خياركم » أخرجه الدارقطني والبيهقي وصنف إسناده من حديث ابن عمر والبيهقي وابن قانع والطبراني في معاجهم وإمامهم من حديث حماد بن أبي مرثد نخوع وهو منقطع وبه يحيى بن يحيى الأسلمي وهو ضعيف (٢) حديث « تقديم الصحابة أبا بكر وقولهم اخترنا لينايا من اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا » أخرجه ابن شاهين في شرح مذهب أهل السنة من حديث علي قال « لقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصلي بالناس ولما شاعده - ما أبا بمات ولا في مرض - فرضينا لينايا ماضى به النبي صلى الله عليه وسلم لدينا » والرفوع منه متفق عليه من حديث عائشة وأبي موسى في حديث « قال مروا أبا بكر فليصل بالناس » (٣) حديث « تقديم الصحابة بلالا » احتجاجا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى للأذان أما المرفوع منه فرواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان من حديث عبد الله بن زيد في بدء الأذان وفيه « قم مع بلال فألقى عليه ما رأيت فيؤذن به .. الحديث » وأما تقديمهم له بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فروى الطبراني « أن بلالا جاء إلى أبي بكر فقال يا خليفة رسول الله أردت أن أربط بعسي في سبيل الله حتى أموت فقال أبو بكر أشدك بالله يا بلال وحرمتي وحق لقد كبرت مني وصعقت قوتي واقترت احلى وأقام بلال معه ، فلما توفي ، وبكر جاء عمر فقال له مثل ما قال لأبي بكر فأبى عليه فقال عمر فن يا بلال ، فقال لي سعد فانه قد ادن بقاء علي بهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لحمل عمر الأذان إلى سعد وعقبه » وفي إسناده جهالة (٤) حديث « قال له رجل يا رسول الله دلني على عمل أدخل به الجنة فقال كمن مؤذنا .. الحديث » أخرجه البخاري في التاريخ والعلقب في الصعاء والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (٥) حديث « فصل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف (٦) حديث « إن العبد ليصلي الصلاة في آخر وقتها ولم تفته .. الحديث » أخرجه الدارقطني من حديث أبي هريرة نخوع بإسناد ضعيف (٧) حديث « تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما عن صلاة الفجر وكان في سفر وإنما تأخر للطهارة فقدموا عبد الرحمن بن عوف .. الحديث » متفق عليه من حديث المديرة (٨) حديث « تأخر في صلاة الظهر فقدموا أبا بكر .. الحديث » متفق عليه من حديث سهل بن سعد

فبأن لا يأخذ عليها أجره فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن أبي العاص الثقفي وقال « اتخذ مؤذنا لا يأخذ على الأذان أجرا »^(١) ، فالأذان طريق إلى الصلاة فهي أولى بأن لا يؤخذ عليها أجر ، فإن أخذ رزقا من مسجد قد وقف على من يقوم بإمامته أو من السلطان أو آحاد الناس فلا يحكم بتحريمه ولكنه مكروه . والكراهية في الفرائض أشد منها في التراخي ، وتكون أجره له على مداومته على حضور الموضع ومراقبة مصالح المسجد في إقامة الجماعة لا على نفس الصلاة . وأما الأمانة فهي الطهارة باطناً عن السق والكبائر والإصرار على الصغائر فالترشح للإمامة ينبغي أن يحتز عن ذلك بجهده فإنه كالوفد والتفويض للقوم فينبغي أن يكون خير القوم وكذا الطهارة ظاهراً عن الحدث والخبث فإنه لا يطلع عليه سواه ، فإن تذكر في أثناء صلاته حدثاً أو خرج منه ريح فلا ينبغي أن يستحي بل يأخذ بيد من يقرب منه ويستحلفه « فقد تذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنابة في أثناء الصلاة فاستخلف واغتسل ثم رجع ودخل في الصلاة »^(٢) ، وقال سفيان : صل خلف كل بر وفاجر إلا مدمن حمر أو معلن بالفسوق أو عاق لوالديه أو صاحب بدعة أو عبد آبق (الخامسة) أن لا يكبر حتى تستوى الصفوف وليتلفت يميناً وشمالاً فإن رأى خلافاً بالتسوية . قيل كانوا يتحاذون بالمناك ويتضامون بالكعاب . ولا يكبر حتى يصرخ المؤذن من الإقامة . والمؤذن يؤخر الإقامة عن الأذان بقدر استعداد الناس في الصلاة . وفي الخبر « لیتهمل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يفرغ الآكل من طعامه والمعتصر من اعتصاره »^(٣) ، وذلك لأنه نهى عن مدافعة الأخبثين^(٤) ، وأمر بتقديم العشاء على العشاء^(٥) طلباً لفراغ القلب (السادسة) أن يرفع صوته بسكينة الإحرام وسائر التكبيرات ولا يرفع المأموم صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه . وينهى الإمامة لينال الفضل فإن لم ينو صحت صلاته وصلاة القوم إذا نوا الاقتداء . وبأول فضل القدوة وهو لا ينال فضل الإمامة ، ولئلا يفرح المأموم تكبيره عن تكبيرة الإمام فيبتدئ بعد فراغه والله أعلم . وأما وظائف القراءة ثلاث (أولها) أن يسر بدعاء الاستفتاح والتوذي كالمفرد ويحجر بالفاتحة والسورة بعدها في جميع الصبح وأولي العشاء والمغرب وكذلك المفرد . ويحجر بقوله « آمين » في الصلاة الجهرية وكذا المأموم ويقرن المأموم تأمينه بأمين الإمام معاً لاتعقبا^(٦) ويحجر بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » ، والأخبار فيه متعارضة^(٧) واختار السافعي رضي الله عنه الجهر (الثانية) أن يكون للإمام في القيام ثلاث سككات^(٨) هكذا رواه سمرة بن حنبل وعمران بن الحصين عن

(١) حديث « المحدثون لا يأخذوا على أدائه أجره » أخرجه أصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي
(٢) حديث « تذكر النبي صلى الله عليه وسلم الجنابة في صلاته فاستخلف واغتسل ثم رجع » أخرجه أبو داود من حديث أبي بكره بإسناد صحيح وليس فيه ذكر الاستحلاف وإنما قال « ثم أوما إليهم أن مكالمكم . الحديث » وورد الاستحلاف من فعل عمر وعلى وعبد البخاري استخلاف عمر في قصة طعنه (٣) حديث « يعمل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يصرع الآكل من طعامه والمعتصر من اعتصاره » أخرجه الترمذي والحاكم من حديث جابر « يا بلال اجعل بين أذانك وإقامتك قدر ما يصرع الآكل من أكله والشارب من شربه والمعتصر إذا دخل لقضاء حاجته » قال الترمذي : إسناده مجهول وقال الحاكم ليس في إسناده مطعون فيه غير عمرو بن قايده . قلت : بل فيه عبد الميم الدياحي منكر الحديث قاله البخاري وغيره (٤) حديث النهي عن مدافعة الأخبثين أخرجه مسلم من حديث عائشة بعظ « صلاة » وللبهقي « لا يصير أحدكم .. الحديث » (٥) « الأمر بتقديم العشاء على الدشاء » تقدم من حديث ابن عمر وعائشة « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فادعوا بالعشاء » متفق عليه . (٦) حديث الجهر : « بسم الله الرحمن الرحيم » أخرجه الدارقطني والحاكم وصححه من حديث ابن عباس (٧) حديث « ترك الجهر بها » أخرجه مسلم من حديث أنس « صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر فلم أسمع أحدا منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم » وللسائبي يجهله « بسم الله الرحمن الرحيم » (٨) حديث سمرة بن جندب وعمران بن حصين في سككات الإمام رواه الإمام أحمد من حديث سمرة قال « كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سككات في صلاته . وقال عمران : أنا أحفظها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكاتبوا في ذلك إلى أبي ابن كعب ؟ فكاتب ابن سمرة قد حفظ » هكذا وجدته في غير نسخة صحيحة من المسند والمعروف أن عمران أنكر ذلك على سمرة هكذا في غير موضع من المسند رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان ، وروى الترمذي « فأسكر ذلك عمران وقال حفظنا سكتة وقال حديث =

رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أولاًهن : إذا كبر وهى الطولى منهن مقدار ما يقرأ من خلفه فاتحة الكتاب وذلك وقت قراءته لدعاء الاستفتاح فإنه إن لم يسكت يفوتهم الاستماع فيكون عليه ما نقص من صلاتهم ، فإن لم يقرأ فاتحة فاتحة فى سكوته واشتغلوا بغيرها فذلك عليه لاعليم . السكنة الثانية : إذا فرغ من الفاتحة لیتيم من يقرأ الفاتحة فى السكنة الأولى فاتحته وهى كنصف السكنة الأولى . السكنة الثالثة : إذا فرغ من السورة قبل أن يركع وهى أخفها وذلك بقدر ما تنفصل القراءة عن التكبير فقد نهى عن الوصل فيه . ولا يقرأ المأموم وراء الإمام إلا الفاتحة فإن لم يسكت الإمام قرأ فاتحة الكتاب معه والمقصود هو الإمام . وإن لم يسمع المأموم فى الجهرية لبعده أو كان فى السرية فلا بأس بقراءة السورة (الوظيفة الثالثة) أن يقرأ فى الصبح سورتين من المثاني مادون المائة فإن الإطالة فى قراءة الفجر والتفليس بها سنة ، ولا يضره الخروج منها مع الإسفار ، ولا بأس بأن يقرأ فى الثانية بأواخر السور نحو الثلاثين أو العشرين إلى أن يختتمها لأن ذلك لا يتكرر على الاستماع كثيراً فيكون أبلغ فى الوعظ وأدعى إلى التفكير ، وإتمامه بعض العلماء قراءة بعض أول السور وقطعها . وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ بعض سورة يونس فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع فركع ^(١) وروى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ فى الفجر آية من البقرة ^(٢) وهى قوله ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ﴾ وفى الثانية ﴿ ربنا آمنا بما أنزل ﴾ وسمع بلالا يقرأ من ههنا وههنا ؛ فسأله عن ذلك فقال : أخطأ الطيب بالطيب ، فقال : أحسنت ^(٣) ويقرأ فى الظهر بطوال المفصل إلى ثلاثين آية وفى العصر بنصف ذلك وفى المغرب بأواخر المفصل . وآخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم : المغرب ؛ قرأ فيها سورة المرسلات ماصلى بعدها حتى قبض ^(٤) . وبالجملة التخفيف أولى لاسيما إذا كثرت الجمع قال صلى الله عليه وسلم فى هذه الرخصة « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والكبير وإذا الحاجة وإذا صلى لنفسه فليطول ما شاء ^(٥) » ، وقد كان معاذ بن جبل يصلى يقوم العشاء فقرأ البقرة لخرج رجل من الصلاة وأتم لنفسه ، فقالوا : نافق الرجل ، فتشاكيا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحى رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً فقال : أفتان أنت يا معاذ أقرأ سورة سمح والسماء والطارق والشمس وضحاها ^(٦) ، وأما وظائف الأركان الثلاثة ؛ أولها : أن يخفف الركوع والسجود فلا يزيد فى التسيحات على ثلاث فقد روى عن أنس أنه قال « ما رأيت أخف صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تمام ^(١) » نعم روى أيضاً أن أنس بن مالك لما صلى خلف عمر بن عبد العزيز وكان أميراً بالمدينة قال « ماصليت وراء أحد أشبه صلاة بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم »

== حس انتهى وليس فى حديث سمرة ولا سكتان : ولكن اختلف على محل الثانية . وروى عنه بعد الفاتحة وروى عنه بعد السورة ولقد اختلف على من حديث أبى هريرة وصفه « من صلى صلاة مكتوبة مع الإمام فليقرأ بفاتحة الكتاب فى سكتاه »

(١) حديث « قرأ بعض سورة يونس ، فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع فركع » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن السائب وقال : سورة المؤمنين وقال موسى وهارون وعلقه البخارى (٢) حديث قرأ فى الفجر ﴿ قولوا آمنا بالله ﴾ الآية ، وفى الثانية ﴿ ربنا آمنا بما أنزل ﴾ أخرجه مسلم من حديث ابن عباس كان يقرأ فى ركعتي الفجر فى الأولى منها ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ﴾ الآية التى فى البقرة وفى الآخرة منها ﴿ آمنا بالله واشهد أنا مسلمون ﴾ رواه أبو داود من حديث أبى هريرة ﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا ﴾ الآية وفى الركعة الآخرة ﴿ ربنا آمنا بما أنزل ﴾ أو ﴿ لما أرسلناك بالحق ﴾ (٣) حديث « سمع بلالا يقرأ من ههنا ومن ههنا » فسأله عن ذلك فقال أخطأ الطيب بالطيب فقال أحسنت « أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة بإسناد صحيح نحوه (٤) حديث « قراءته فى المغرب بالمرسلات وهى آخر صلاة صلاها » متفق عليه من حديث أم الفضل

(٥) حديث « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف .. الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٦) حديث « صلى معاذ يقوم » الصلاه فقرأ البقرة لخرج رجل من الصلاة .. الحديث » متفق عليه من حديث جابر وليس فيه ذكر (والسماء والطارق) وهى عند البيهقي

(٧) حديث أنس « ما رأيت أخف صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تمام » متفق عليه

وسلم من هذا الشاب قال : وكنا نسبح وراءه عشرا عشرا ^(١) ، وروى بحملا أنهم قالوا وكنا نسبح وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركوع والسجود عشرا عشرا ^(٢) ، وذلك حسن ولكن الثلاث إذا كثر الجمع أحسن . فإذا لم يحضر إلا المتجردون للدين فلا بأس بالعشر ، هذا وجه الجمع بين الروايات . وينبغي أن يقول الإمام عند رفع رأسه من الركوع « سمع الله لمن حمده » الثانية : في المأموم ؛ ينبغي أن لا يساوى الإمام في الركوع والسجود بل يتأخر فلا يهوى للسجود إلى إذا وصلت جبهة الإمام إلى المسجد ، هكذا كان اقتداء الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) ولا يهوى للركوع حتى يستوى الإمام راكعاً . وقد قيل إن الناس يخرجون من الصلاة على ثلاثة أقسام : طائفة بخمس وعشرين صلاة وهم الذين يكبرون ويركعون بعد الإمام : وطائفة بصلاة واحدة وهم الذين يساؤونه ، وطائفة بلا صلاة وهم الذين يسبقون الإمام . وقد اختلف في أن الإمام في الركوع هل ينتظر لحوق من يدخل لينال فضل الجماعة وإدراكهم لتلك الركعة ؟ ولعل الأولى أن ذلك مع الإخلاص لا بأس به إذا لم يظهر تفاوت ظاهر للحاضرين فإن حقهم مرعى في ترك التطويل عليهم . الثالثة : لا يزيد في دعاء التشهد على مقدار التشهد حذرا من التطويل ولا يخص نفسه في الدعاء بل يأتي بصيغة الجمع فيقول « اللهم اغفر لنا » ولا يقول « اغفر لي » فقد كره للإمام أن يخص نفسه ولا بأس أن يستعين في التشهد بالكلمات الخمس المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول « ونعوذ بك من عذاب جهنم وعذاب القبر ونعوذ بك من فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين ^(٤) » وقيل سمي مسيحاً لأنه يمسح الأرض بطولها وقيل لأنه يمسح العين أي مطموسها ، وأما وظائف التحلل فثلاثة ، أولها : أن ينوي بالتسليمتين السلام على القوم والملائكة . الثانية : أن يثبث عقيب السلام كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما فيصلي النافلة في موضع آخر . فإن كان خلفه نسوة لم يقم حتى ينصرفن ^(٥) وفي الخبر المشهور « أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يقعد إلا بقدر قوله : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام ^(٦) » الثالثة : إذا وثب فينبغي أن يقبل بوجهه على الناس ويكره للمأموم القيام قبل انتقال الإمام . فقد روى عن طلحة والزبير رضي الله عنهما أنهما صليا خلف إمام فلما سلما قال للإمام ما أحسن صلاتك وأتمها إلا شيئا واحداً أنك لما سلمت لم تتفقل بوجهك . ثم قال للناس : ما أحسن صلاتكم إلا أنكم انصرفتم قبل أن ينفتل إمامكم . ثم ينصرف الإمام حيث شاء من يمينه وشماله واليمين أحب . هذه وظيفة الصلوات ، وأما الصبح فزيد فيها الفتوت فيقول الإمام « اللهم اهدنا » ولا يقول اللهم اهدني ، ويؤمن المأموم فإذا انتهى إلى قوله « لك تقضى ولا يقضى عليك » فلا يليق به التأمين وهو ثناء ، فيقرأ معه فيقول مثل قوله أو يقول « بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » أو « صدقت وبررت » وما أشبه ذلك . وقد روى حديث في رفع اليدين في الفتوت ^(٧) فإذا صح

(١) حديث أنس « أنه صلى خلف عمر بن عبد العزيز فقال ما صليت وراء أحد أشبه صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا القاب . الحديث أخرجه أبو داود والنسائي بإسناد جيد وضعفه ابن القطان (٢) حديث « كنا نسبح وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركوع والسجود عشرا لم أجده أصل في الحديث الذي قبله وفيه « حررنا في ركوعه عشر تسبيحات وفي سجوده عشر تسبيحات » (٣) حديث « كان الصحابة لا يهويون للسجود إلا إذا وصلت جبهة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأرض » متفق عليه من حديث البراء بن عازب (٤) حديث « التعموذ في التشهد من عذاب جهنم وعذاب القبر . . الحديث » تقدم وزاد فيه الغزالي ما « وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين » ولم أجده مقيدا بآخر الصلاة وللترمذي من حديث ابن عباس « وإذا أردت ببسائك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون » روى الحاكم نحوه من حديث ثوبان وعبد الرحمن بن عايش وصححهما وسبأ في الدعاء

(٥) حديث « المسكت بعد السلام » أخرجه البخاري من حديث أم سلمة (٦) حديث « لمه لم يكن يقعد إلا بقدر قوله : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام » أخرجه مسلم من حديث عائشة (٧) حديث « رفع اليدين في الفتوت » أخرجه البيهقي من حديث أسد بن سعيد في قصة قتل الفراء « وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما صلى المداة رفع يديه » يدعو عليهم (٢٣ — لمحياء علوم الدين — ١)

الحديث استحب ذلك وإن كان على خلاف الدعوات في آخر التشهد إذ لا يرفع بسببها اليد بل التعويل على التوقيف وبينهما أيضا فرق أن الأيدي وظيفة في التشهد وهو الوضع على الفخذين على هيئة مخصوصة ولا وظيفة لهما ههنا ، فلا يبعد أن يكون رفع اليدين هو الوظيفة في القنوت ، فإنه لا يتق بالثناء والله أعلم . فهذه جمل آداب القدوة والإمامة والله الموفق .

الباب الخامس : فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها

فضيلة الجمعة

لأعلم أن هذا يوم عظيم عظم الله به الإسلام وخصص به المسلمين . قال الله تعالى (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) فحرم الاشتغال بأموال الدنيا وبكل صارف عن السعي إلى الجمعة . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل فرس عليكم الجمعة في يومى هذا في مقامى هذا ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر طبع الله على قلبه ^(٢) » ، وفي لفظ آخر « فقد نبذ الإسلام وراء ظهره ^(٣) » ، واحتلف رجل إلى ابن عباس يسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة ، فقال : في النار ، فلم يرل يتردد إليه شهرا يسأله عن ذلك وهو يقول في النار وفي الخبر : إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فصرفوا عنه وهذان الله تعالى له وأخره لهذه الأمة وجعله عيداً لهم فهم أولى الناس به سبقا وأهل الكتابين لهم تبع ^(٤) . وفي حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أتاني جبريل عليه السلام في كفه امرأة بيضاء وقال : هذه الجمعة يفرضها عليك ربك لتكون لك عيدا ولأمتك من بعدك . قلت : فماذا فيها ؟ قال : لكم فيها خير ساعة من دعا فيها بخير قسم له أعطاه الله سبحانه إياه أو ليس له قسم ذخره له ما هو أعظم منه ؛ أو تعوذ من شر مكتوب عليه إلا أعاده الله عز وجل من أعظم منه وهو سيد الأيام عندنا ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد ، قلت ولم قال : إن ربك عز وجل اتخذ في الجنة وادياً أمهص من المسك أبيض فاذا كان يوم الجمعة نزل تعالى من علمين على كرسيه فيتجلى لهم حتى ينظروا إلى وجهه الكريم ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم عليه السلام وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط إلى الأرض وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة ، وهو عند الله يوم المزيد كذلك تسميه الملائكة في السماء وهو يوم النظر إلى الله تعالى في الجنة ^(٦) » ، وفي الخبر « إن لله عز وجل في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار ^(٧) » ، وفي حديث أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم

الباب الخامس

- (١) حديث « إن الله فرس عليكم الجمعة في يومى هذا .. الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد ضعيف
- (٢) حديث « من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر طبع الله على قلبه » أخرجه أحمد واللعط له وأصحاب السنن ورواه الحاكم وصححه من حديث أبي الجعد الصمري (٣) حديث « من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر فقد نبذ الإسلام وراء ظهره » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس (٤) حديث « إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاخذوه واديه . الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه (٥) حديث أنس « أتاني جبريل في كفه امرأة بيضاء فقال هذه الجمعة .. الحديث » أخرجه القاهسي في المسند والطبراني في الأوسط وابن مردويه في التفسير بأسانيد صحيحة مع اختلاف (٦) حديث « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٧) حديث « إن لله في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار » أخرجه ابن عدى وابن حبان في الضعفاء وفي الشعب من حديث أنس قال الدارقطني في العلل والحديث غير ثابت

قال « إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إنَّ الجحيم تسعر في كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس في كبد السماء فلا تصلوا في هذه الساعة إلا يوم الجمعة فإنه صلاة كله وإن جهنم لا تسعر فيه ^(٢) » ، وقال كعب : إن الله عز وجل فضل من البلدان مكة ومن الشهور رمضان ومن الأيام الجمعة ومن الليالي ليلة القدر ويقال إن الطير والحوام يلتقي بعضها بعضاً في يوم الجمعة فتقول : سلام سلام يوم صالح وقال صلى الله عليه وسلم « من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر ^(٣) » ،

بيان شروط الجمعة

اعلم أنها تتشارك جميع الصلوات في الشروط وتتميز عنها بستة شروط (الأول) الوقت : فإن وقعت تسليمة الإمام في وقت العصر فانت الجمعة وعليه أن يتمها طهراً أربعاً ، والمسبوق إذا وقعت ركعته الأخيرة خارجاً من الوقت وفيه خلاف (الثاني) المكان : فلا تصح في الصحارى والبرارى وبين الخيام بل لا بد من بقعة حامة لأبنية لا تتقل بجمع أربعين من تلاميذهم الجمعة والقرية فيه كالبلد ، ولا يشترط فيه حضور السلطان ولا إذنه ولكن الأحب استئذانه (الثالث) العدد : فلا تعقد بأقل من أربعين ذكوراً مكلفين أحراراً مقيمين لا يظعنون عنها شتاء ولا صيفاً ، فإن انقضوا حتى نقص العدد إما في الخطبة أو في الصلاة لم تصح الجمعة بل لا بد منهم من الأول إلى الآخر (الرابع) الجماعة : فلو صلى أربعون في قرية أو في بلد متفرقين لم تصح جمعهم . ولكن المسبوق إذا أدرك الركعة الثانية حازله الانفراد بالركعة الثانية . وإن لم يدرك ركوع الركعة الثانية اقتدى ونوى الظهر وإذا سلم الإمام تممها ظهراً (الخامس) أن لا تكون الجمعة مسبوقة بأخرى في ذلك البلد . فإن تعذر اجتماعهم في جامع واحد جاز في جامعين وثلاثة وأربعة بقدر الحاجة . وإن لم تكن حاجة فالصحيح الجمعة التي يقع بها التحريم أولاً . وإذا تحققت الحاجة فالأفضل الصلاة خلف الأفضل من الإمامين ، فإن تساوى فالمسجد الأقدم ، فإن تساوى ففي الأقرب ، ولكثرة الناس أيضاً فضل يراعى (السادس) الخطبتان : فهما فريضتان والقيام فيهما فريضة والجلوس بينهما فريضة . وفي الأولى أربع فرائض : التمجيد وأقله الحمد لله . والثانية : الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . والثالثة : الوصية بتقوى الله سبحانه وتعالى والرابعة : قراءة آية من القرآن . وكذا فرائض الثانية أربعة إلا أنه يحجب فيها الدعاء بدل القراءة . واستماع الخطبتين واجب من الأربعين . وأما السنن : فإذا زالت الشمس وأذن المؤذن وجلس الإمام على المنبر انقطعت الصلاة سوى التحية ، والكلام لا ينقطع إلا بافتتاح الخطبة . ويسلم الخطيب على الناس إذا أقبل عليهم بوجهه ويردون عليه السلام فإذا فرغ المؤذن قام مقبلاً على الناس بوجهه لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ويشغل يديه بقائم السيف أو العزّة والمنبر كي لا يعبت بهما أو يضع إحداها على الأخرى . ويخطب خطبتين بينهما جلسة خفيفة . ولا يستعمل غريب اللغة ولا يملط ولا يتغنى . وتكون الخطبة قصيرة بليغة جامعة . ويستحب أن يقرأ آية في الثانية أيضاً . ولا يسلم من دخل والخطيب يخطب فإن سلم لم يستحق جواباً ، والإشارة بالجواب حسن ، ولا يشمت العاطسين أيضاً . هذه شروط الصحة . فأما شروط الوجوب : فلا تجب الجمعة إلا على ذكر بالغ عاقل مسلم حرّ مقيم في قرية تشتمل على أربعين جامعين

(١) حديث أس « إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام » أخرجه ابن حبان في الضعفاء وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث عائشة ولم أجده من حديث أس (٢) حديث « لب الجحيم تسعر كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس - إلى أن قال - إلا يوم الجمعة .. الحديث » أخرجه أبو داود من حديث أبي قتادة وأعله بالانقطاع (٣) حديث « من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث جابر روى الزندي نحوه مختصراً من حديث عبد الله بن عمر وقال غريب ليس لسنده متصل . قلت . وصلة الترمذي الحسني في الواهر

لهذه الصفات ، أو في قرية من سواد البلد يبلغها نداء البلد من طرف بابها والأصوات ساكنة والمؤذن رفيع الصوت لقوله تعالى (إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) ويرخص لهؤلاء في ترك الجمعة لعذر المطر والوحل والفرع والمرض والتريض إذا لم يكن للتريض قيم غيره . ثم يستحب لهم - أعني أصحاب الأعذار - تأخير الظهر إلى أن يفرغ الناس من الجمعة ، فإن حضر الجمعة مريض أو مسافر أو عبد أو امرأة صحت جمعهم وأجزأت عن الظهر والله أعلم

بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة وهي عشر جل

(الاول) أن يستعد لها يوم الخميس عزماً عليها واستقبالا لفضلها فيشتغل بالدعاء والاستغفار والتسبيح بعد العصر يوم الخميس لأنها ساعة قوبلت بالساعة المهمة في يوم الجمعة . قال بعض السلف : إن لله عز وجل فضلا سوى أرزاق العباد لا يعطى من ذلك الفضل إلا من سألته عتية الخميس ويوم الجمعة ، ويغسل في هذا اليوم ثيابه ويبيضها ويعد الطيب إن لم يكن عنده ، ويفرغ قلبه من الأشغال التي تمنعه من البكور إلى الجمعة ، وينوى في هذه الليلة صوم يوم الجمعة فإن له فضلا وليكن مضموماً إلى يوم الخميس أو السبت - لا مفرداً فإنه مكروه - ويشتغل بإحياء هذه الليلة بالصلاة وختم القرآن فلها فضل كثير وينسحب عليها فضل يوم الجمعة . ويجمع أهله في هذه الليلة أو في يوم الجمعة فقد استحسب ذلك قوم حملوا عليه قوله صلى الله عليه وسلم « رحم الله من بكر وابتكر وغسل واغتسل »^(١) ، وهو حمل الأهل على الغسل . وقيل معناه غسل ثيابه - فروي بالتخفيف - واغتسل لجسده . وبهذا تتم آداب الاستقبال ويخرج من زمرة الغافلين الذين إذا أصبحوا قالوا ما هذا اليوم؟ قال بعض السلف : أوفى الناس نصيباً من الجمعة من انتظرها ورعاها من الأمس ، وأخفهم نصيباً من إذا أصبح يقول : أيش اليوم؟ وكان بعضهم يبيت ليلة الجمعة في الجامع لاجلها (الثاني) إذا أصبح ابتدأ بالغسل بعد طلوع الفجر ، وإن كان لا يسكر فأقر به إلى الرواح أحب ليكون أقرب عهداً بالنظافة ، فالغسل مستحب استحباباً مؤكداً ، وذهب بعض العلماء إلى وجوبه قال صلى الله عليه وسلم « غسل الجمعة واجب على كل محتلم »^(٢) ، والمشهور من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما « من أتى الجمعة فليغتسل »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل »^(٤) ، وكان أهل المدينة إذا تساب المنسبان يقول أحدهما للآخر : لانت أشرمين لا يغتسل يوم الجمعة . وقال عمر لعثمان رضي الله عنهما لما دخل وهو يخطب « أهذه الساعة؟ - منكرأ عليه ترك البكور - فقال : ما زدت بعد أن سمعت الأذان على أن توضأت وخرجت فقال : والوضوء أيضاً : وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالغسل »^(٥) ، وقد عرف جواز ترك الغسل بوضوء عثمان رضي الله تعالى عنه وبما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « من توضأ يوم الجمعة فيها ونعمت ومن اغتسل فالغسل أفضل »^(٦) ، ومن اغتسل للجنابة فليفيض الماء على بدنه مرة أخرى

(١) حديث « رحم الله من بكر وابتكر وغسل واغتسل » . الحديث « رواه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أوس بن أوس » من غسل يوم الجمعة واغتسل وكر وابتكر .. الحديث « وحسنه الترمذي

(٢) حديث « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم » متفق عليه من حديث أبي سعيد (٣) حديث نافع عن ابن عمر « من أتى الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل » وهذا لفظ ابن حبان (٤) حديث « من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسلوا » أخرجه ابن حبان والبيهقي من حديث ابن عمر (٥) حديث « قال عمر لعثمان لما دخل وهو يخطب : أهذه الساعة .. الحديث - إلى أن قال - والوضوء أيضاً وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل » متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يسم البخاري عثمان (٦) حديث « من توضأ يوم الجمعة بها ونعمت » . الحديث « أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه ورواه النسائي من حديث سمرة

على نية غسل الجمعة ، فإن اكتفى بغسل واحد أجزأه وحصل له الفضل إذا نوى كليهما ودخل غسل الجمعة في غسل الجنابة . وقد دخل بعض الصحابة على ولده وقد اغتسل فقال له : أألجمعة ؟ فقال : بل عن الجنابة ، فقال : أعد غسلًا ثانيًا ، وروى الحديث في غسل الجمعة على كل محتلم . وإنما أمره به لأنه لم يكن نواه . وكان لا يبعد أن يقال المقصود النظافة وقد حصلت دون النية ، ولكن هذا يتقدح في الوضوء أيضا وقد جعل في الشرع قرينة فلا بد من طلب فضلها . ومن اغتسل ثم أحدث توضأ ولم يبطل غسله والأحباب أن يحتز عن ذلك (الثالثة) الزينة ، وهي مستحبة في هذا اليوم وهي ثلاثة : الكسوة والنظافة وتطيب الرائحة . أما النظافة فبالسواك وحلق الشعر وقلم الظفر وقص الشارب وسائر ما سبق في كتاب الطهارة . قال ابن مسعود : من قلم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله عز وجل منه داء وأدخل فيه شفاء ، فإن كان قد دخل الحمام في الخيس أو الأربعاء فقد حصل المقصود . فليستطيب في هذا اليوم بأطيب طيب عنده ليغلب بها الروائح الكريهة ويوصل بها الروح والرائحة إلى مشام الحاضرين في جواره ، وأحب طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه ^(١) ، وروى ذلك في الآثار وقال الشافعي رضي الله عنه : من نظف ثوبه قل همه ومن طاب ريحه زاد عقله . وأما الكسوة فأحبها البياض من الثياب - إذ أحب الثياب إلى الله تعالى البياض - ولا يلبس ما فيه شهرة . ولبس السواد ليس من السنة ولا فيه فضل بل كره جماعة النظر إليه لأنه بدعة محدثة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم والعبادة مستحبة في هذا اليوم . وروى واثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله وملائكته يصلون على أصحاب العمام يوم الجمعة ^(٢) ، فإن أكرهه الحر فلا بأس بنزعها قبل الصلاة ولعلها لا ينزع في وقت السعي من المنزل إلى الجمعة ولا في وقت الصلاة ولا عند صعود الإمام المنبر وفي خطبته (الرابع) البكور إلى الجامع : ويستحب أن يقصد الجامع من فرسخين وثلاث وليبكر . ويدخل وقت البكور بطلوع المجر وفضل البكور عظيم . وينبغي أن يكون في سعيه إلى الجمعة خاشعاً متواضعاً ناوياً للاعتكاف في المسجد إلى وقت الصلاة قاصداً للبادرة إلى جواب نداء الله عز وجل إلى الجمعة إياه . والمسارعة إلى مغفرته ورسوائه وقد قال صلى الله عليه وسلم : من راح إلى الجمعة في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بئذى فإذا خرج الإمام طويت الصحف ورفعت الأعلام واجتمعت الملائكة عند المنبر يستمعون الذكر فمن جاء بعد ذلك فأئماً جاء لحق الصلاة ليس له من الفضل شيء ^(٣) ، والساعة الأولى إلى طلوع الشمس ؛ والثانية إلى ارتفاعها ، والثالثة إلى انبساطها حين ترمض الأقدام ، والرابعة والخامسة بعد الضحى الأعلى إلى الزوال وفضاءها قليل ؛ ووقت الزوال حق الصلاة ولا فضل فيه . وقال صلى الله عليه وسلم : ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركضوا ركض الإبل في طلبهن ؛ الأذان والصف الأول والغدو إلى الجمعة ^(٤) ، وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه : أفضلهن الغدو إلى الجمعة . وفي الخبر

(١) حديث « طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والسنائي من حديث أبي هريرة (٢) حديث واثلة بن الأسقع « إن الله وملائكته يصلون على أصحاب العمام يوم الجمعة » أخرجه الطبراني وعدي ، وقال منكر من حديث أبي الدرداء ولم أره من حديث واثلة (٣) حديث « من راح إلى الجمعة في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وأُس وفيه « ورفعت الأعلام » وهذه العبارة عند البيهقي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٤) حديث « ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركضوا ركض الإبل في طلبهن » الأذان والصف الأول والغدو إلى الجمعة » أخرجه أبو الشيخ في ثواب الأعمال من حديث أبي هريرة « ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن ما أخذنهن إلا بالاستهانة عليهن حرصاً على ما فيهن من الخير والبركة .. الحديث » قال « واليهجير إلى الجمعة » وفي الصحيحين من حديث « لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهوا لاستهوا ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه

« إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المساجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب يكتبون الأول فالأول على مراتبهم^(١) ، وجاء في الخبر إن الملائكة يتفقدون الرجل إذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضا عنه : ما فعل فلان وما الذي أخره عن وقته ؟ فيقولون : اللهم إن كان أخره فقر فأغنه وإن كان أخره مرض فاشفه وإن كان أخره شغل ففقره لعبادتك وإن كان أخره هو فأقبل بقلبه إلى طاعتك^(٢) ، وكان يرى في القرن الأول سحراً وبعد الفجر الطرقات مملوءة من الناس يمشون في السرج ويزدحجون بها إلى الجامع كأيام العيد حتى اندرس ذلك فقيل : أول بدعة حدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجامع . وكيف لا يستحى المسلمون من اليهود والنصارى وهم يبكرون إلى البيع والكنائس يوم السبت والأحد ؟ وطلاب الدنيا كيف يبكرون إلى رحاب الأسواق للبيع والشراء والريح فلم لا يسابقهم طلاب الآخرة ؟ ويقال : إن الناس يكونون في قرهم عند النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى على قدر بكورهم إلى الجمعة . ودحل ابن مسعود رضى الله عنه بكرة الجامع فرأى ثلاثة نفر قد سبقوه بالبكور فاغتم لذلك وجعل يقول في نفسه معاتباً لها : رابع أربعة : وما رابع أربعة من البكور يبعيد (الخامس) في هيئة الدخول : ينبغي أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يمر بين أيديهم والكور يسهل ذلك عليه فقد ورد وعيد شديد في تخطى الرقاب وهو أنه يجعل جسراً يوم القيامة يتخطاه الناس^(٣) ، وروى ابن حريج مرسلاً « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو يحطب يوم الجمعة إذ رأى رجلاً يتخطى رقاب الناس حتى تقدم فجلس فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته عارض الرجل حتى لقيه فقال : يا فلان ما منعك أن تجمع اليوم معنا ؟ قال : يانبي الله قد جمعت معكم : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألم ترك تتخطى رقاب الناس^(٤) ؟ أشار به إلى أنه أحبب عمله . وفي حديث مسند أنه قال « ما منعك أن تصلي معنا ؟ قال : أو لم ترى يارسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : رأيته تأبى وأذيت^(٥) ، أى تأخرت عن البكور وأذيت الحضور . ومهما كان الصف الأول متروكاً خالياً له أن يتخطى رقاب الناس لأهم صيعوا حقهم وتركوا موضع الفضيلة . قال الحسن : تخطوا رقاب الناس الذين يقعدون على أبواب الجوامع يوم الجمعة فإنه لا حرمة لهم . وإذا لم يكن في المسجد إلا من يصلى فينبغي أن لا يسلم لأنه تكليف جواب في غير محله (السادس) أن لا يمر بين يدي الناس ويجلس حيث هو إلى قرب أسطوانة أو حائط حتى لا يمر بين يديه أعني بين يدي المصلي فإن ذلك لا يقطع الصلاة ولكنه منهى عنه قال صلى الله عليه وسلم « لأن يقف أربعين عاماً خير له من أن يمر بين يدي المصلي^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « لأن يكون الرجل رمداً أو رمياً

(١) حديث « إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المساجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب .. الحديث » أخرجه ابن مردويه في التفسير من حديث علي بن إسماعيل ضعيف « إذا كان يوم الجمعة رل جبريل فركر لواء بالمسجد الحرام وغدا سائر الملائكة إلى المساجد التي يجمع فيها يوم الجمعة فركروا ألويتهم وراياتهم باب المساجد ثم نضروا قرطيس من فضة وأقلاماً من ذهب

(٢) حديث « إن الملائكة يتفقدون العبد إذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضاً ما فعل فلان ، أخرجه الهيثمي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مع زيادة ونقص بإسناد حسن . واعلم أن المصنف ذكر هذا فان لم يرد به حديثاً مرهوعاً فليس من شرطنا وأما ذكرناه احتياطاً (٣) حديث « من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتحد جسراً إلى جهنم » أخرجه الترمذي وصحفه وابن ماجة من حديث معاذ بن أنس (٤) حديث ابن جريج مرسلاً أن النبي صلى الله عليه وسلم بينما هو يحطب لدرأى رجلاً يتخطى رقاب الناس . الحديث وفيه ما منعك أن تجمع معنا اليوم » أخرجه ابن المبارك في الرقائق (٥) حديث « ما منعك أن تصلي معنا فقال أو لم ترى قال رأيته تأبى وأذيت » أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن بسر مختصراً

(٦) حديث « لأن يقف أربعين سنة خير له من أن يمر بين يدي المصلي » أخرجه البزار من حديث زيد بن خالد وفي الصحيحين من حديث أبي جهنم « أن يقف أربعين » قال أبو النصر : لا أدري « أربعين يوماً أو شهراً أو سنة » رواه أبو داود وابن حبان من حديث أبي هريرة « مائة عام »

تدروه الرياح خير من أن يمر بين يدي المصلي^(١) ، وقد روى في حديث آخر في المار والمصلي حيث صلى على الطريق أو قصر في الدفع فقال « لو يعلم المار بين يدي المصلي والمصلي ما عليهما في ذلك لكان أن يقف أربعين سنة خيراً له من أن يمر بين يديه^(٢) » والأسطوانة والحائط والمصلي المفروش حد للمصلي فمن اجتار به فينبغي أن يدفعه قال صلى الله عليه وسلم « ليدفعه فإن أبي فليدفعه فإن أبي فليقاتله فإنه شيطان^(٣) » ، وكان أبو سعيد الخدري رضى الله عنه يدفع من يمر بين يديه حتى يصصره ، فرمى تعلق به الرجل فاستعدى عليه عند مروان فيخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بذلك . فإن لم يجد أسطوانة فلينصب بين يديه شيئاً طوله قدر ذراع ليكون ذلك علامة لخطئه (السابع) أن يطلب الصف الأول فإن فضله كثير كما روينا وفي الحديث « من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الإمام واستمع كان ذلك له كفاة لما بين الجمعتين وزيادة ثلاثة أيام^(٤) » ، وفي لفظ آخر « غفر الله له إلى الجمعة الأخرى » وقد اشترط في بعضها - ولم يتخط رقاب الناس^(٥) ، ولا يغفل في طلب الصف الأول عن ثلاثة أمور ، أولها : أنه إذا كان يرى قرب الخطيب منكراً يعجز عن تغييره - من لبس حرير من الإمام أو غيره أو صلى في سلاح كثير ثقيل شاغل أو سلاح مذهب أو غير ذلك - مما يجب فيه الإنكار فالتأخر له أسلم وأجمع لهم ، فعل ذلك جماعة من العلماء طلباً للسلامة . قيل لبشر بن الحرث : نراك تبكر وتصل في آخر الصفوف ، فقال : إنما يراد قرب القلوب لأقرب الأجساد . وأشار به إلى أن ذلك أقرب لسلامة قلبه . ونظر سفيان الثوري إلى شعيب بن حرب عند المنبر يسمع إلى الخطبة من أبي جعفر المنصور فلما فرغ من الصلاة قال : شغل قلبي قربك من هذا هل أمنت أن تسمع كلاماً يجب عليك إنكاره فلا تقوم به ؟ ثم ذكر ما أحدثوا من لبس السواد فقال : يا أبا عبد الله أليس في الخبر « أدن واستمع^(٦) » فقال : ويحك ذاك للخلفاء الراشدين المهديين ، وأما هؤلاء فكلما بعدت عنهم ولم تنظر إليهم كان أقرب إلى الله عز وجل . وقال سعيد بن عامر « صليت إلى جنب أبي الدرداء فجعل يتأخر في الصفوف حتى كنا في آخر صف ؛ فلما صلينا قلت له : أليس يقال حير الصفوف أولها ؟ قال : يعلم إلا أن هذه الأمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم^(٧) فإن الله تعالى إذا نظر إلى عبد في الصلاة غفر له ولمس وراءه من الناس وإنما تأخرت رجاء أن يغفر لي بواحد منهم ينظر الله إليه . وروى بعض الرواة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك ، فمن تأخر على هذه النية إثارة وإطهاراً لحسن الخلق فلا بأس ، وعند هذا يقال « الأعمال بالنيات » ثانيها : إن لم تكن مقصورة عند الخطيب مقطوعة عن المسجد للسلطين والصف الأول محبوب وإلا فقد كره بعض العلماء دخول المقصورة . كان الحسن وبكر المزني لا يصلبان في المقصورة ورأيا أنها قصرت على السلطين وهي بدعة أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المساجد . والمسجد مطلق لجميع الناس وقد اقتطع ذلك على خلافة وصلى أس بن مالك

(١) حديث « لأن يكون الرجل رماداً تدروه الرياح خيراً له من أن يمر بين يدي المصلي » أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان وابن عبد البر في التمهيد موقوفاً على عبد الله بن عمر ورواه « متعمداً » (٢) حديث « لو يعلم المار بين يدي المصلي والمصلي ما عليهما في ذلك » الحديث . رواه هكذا أبو العباس محمد بن يحيى المراج في مسنده من حديث زيد بن خالد بن أسيد صحيح (٣) حديث أبي سعيد « فليدفعه فإن أبي فليقاتله فإنه شيطان » متفق عليه (٤) حديث « من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الإمام واستمع .. الحديث » أخرجه الحاكم من حديث أوس بن أوس وأصله عند أصحاب السنن (٥) حديث « أنه اشترط في بعضها ولم يتخط رقاب الناس » أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم (٦) حديث « أدن واستمع » أخرجه أبو داود من حديث سمرة « احصروا الذكر وادنوا من الإمام » وتقدم بلفظ « من هجر ودنا واستمع » وهو عند أصحاب السنن من حديث شداد (٧) حديث أبي الدرداء « إن هذه الأمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم وإن الله إذا نظر إلى عبد في الصلاة غفر له ولمس وراءه من الناس » لم أجده

وعمران بن حصين في المقصورة ولم يكرها ذلك لطلب القرب . ولعل الكراهية تختص بحالة التخصيص والمنع فأما مجرد المقصورة إذ لم يكن منع فلا يوجد كراهة وثالثها : أن المنبر يقطع بعض الصفوف وإنما الصف الأول الواحد المتصل الذي في فناء المنبر وما على طرفيه مقطوع . وكان الثوري يقول : الصف الأول هو الخارج بين يدي المنبر وهو متجه لانه متصل ولأن الجالس فيه يقابل الخطيب ويسمع منه . ولا يبعد أن يقال الأقرب إلى القبلة هو الصف الأول ولا براعى هذا المعنى . وتكره الصلاة في الأسواق والرحاب الخارجة عن المسجد وكان بعض الصحابة يضرب الناس ويقيمهم من الرحاب (الثامن) أن يقطع الصلاة عند خروج الإمام ويقطع الكلام أيضا بل يشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة . وقد حرت عادة بعض العوام بالسجود عند قيام المؤذنين ولم يثبت له أصل في أثر ولا خبر ، ولكنه إن وافق سجود تلاوة فلا بأس بها للدعاء لانه وقت فاضل : ولا يحكم بتحريم هذا السجود فإنه لا سبب لتحريمه ، وقد روى عن علي وعثمان رضي الله عنهما أنهما قالوا : من استمع وأنصت فله أجران ومن لم يستمع وأنصت فله أجر ومن سمع ولغا فعليه وزران ومن لم يستمع ولغا فعليه وزر واحد . وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لصاحبه والإمام يخطب أنصت أومه فقد لغا ومن لغا والإمام يخطب فلا جمعة له »^(١) ، وهذا يدل على أن الإسكات ينبغى أن يكون بإشارة أو رمى حصة لا بالنطق . وفي حديث أبي ذر « أنه لما سأل أبا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب فقال : متى أنزلت هذه السورة ؟ فأومأ إليه أن أسكت : فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أبي : اذهب فلا جمعة لك ، فشكاه أبو ذر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : صدق أبي »^(٢) ، وإن كان بعيدا من الإمام فلا ينبغى أن يتكلم في العلم وغيره بل يسكت لأن كل ذلك يتسلل ويفضي إلى هينة حتى يذهب إلى المستمعين ولا يجلس في حلقة من يتكلم من عجز عن الاستماع بالبعد فلينصت فهو المستحب . وإذا كان تكره الصلاة في وقت خطبة الإمام فالكلام أولى بالكراهية . وقال علي كرم الله وجهه : تكره الصلاة في أربع ساعات : بعد الفجر وبعد العصر ونصف النهار والصلاة والإمام يخطب (التاسع) أن يراعى في قدوة الجمعة ما ذكرناه في غيرها فإذا سمع قراءة الإمام لم يقرأ سوى الفاتحة . فإذا فرغ من الجمعة قرأ « الحمد لله ، سبع مرات قبل أن يتكلم » وقال هو الله أحد والمعوذتين ، سبعا سبعا وروى بعض السلف أن من فعله عصم من الجمعة إلى الجمعة وكان حرزا له من الشيطان ويستحب أن يقول بعد الجمعة « اللهم يا حميد يا مبدئ يا معيد يا رحيم يا ودود أغني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك » يقال من داوم على هذا الدعاء أعناه الله سبحانه عن خلقه ورزقه من حيث لا يحتسب ، ثم يصلي بعد الجمعة ست ركعات ، فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي بعد الجمعة ركعتين^(٣) ، وروى أبو هريرة أربعا^(٤) ، وروى علي وعبد الله ابن عباس رضي الله عنهما ستا^(٥) والكل صحيح في أحوال مختلفة ، والأكمل أفضل

(١) حديث « من قال لصاحبه والإمام يخطب أنصت فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له » أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة روى الترمذي قوله « ومن لغا فلا جمعة له » قال الترمذي حديث حسن صحيح وهو في الصحيحين بلفظ « لما قلت لصاحبك » أخرجه أبو داود من حديث علي « من قال صه فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له » (٢) حديث أبي ذر « لما سأل أبا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب وقال متى أنزلت هذه السورة .. الحديث » أخرجه البيهقي وقال في المعرفة لسانه صحيح أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي بن كعب بسند صحيح أد السائل له أبو الدرداء وأبو ذر ولأحمد من حديث أبي الدرداء أنه سأل أبا ولابن حبان من حديث جابر أن السائل عند الله بن مسعود ولأبي يعلى من حديث جابر قال « قال سعد بن أبي وقاص لرجل : لا جمعة لك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لم يساعد فقال لأنه كان يتكلم وأنت تخطب فقال صدق سعد »

(٣) حديث ابن عمر في الركعتين بعد الجمعة متفق عليه (٤) حديث أبي هريرة في الأربع ركعات بعد الجمعة أخرجه مسلم « إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربعا » (٥) حديث علي وعبد الله في صلاة ست ركعات بعد الجمعة أخرجه البيهقي صرفوا من على وله موقوف على ابن مسعود أربعا وأبو داود من حديث ابن عمر : كان إذا كان بمكة صلى بعد الجمعة ستا

(العاشر) أن يلزم المسجد حتى يصلي العصر فإن أقام إلى المغرب فهو الأفضل . يقال من صلى العصر في الجامع كان له ثواب الحج ومن صلى المغرب فله ثواب حجة وعمرة فإن لم يأمن التصبغ ودخول الآفة عليه من نظر الخلق إلى اعتكافه أو خاف الخوض فيما لا يعني فالأفضل أن يرجع إلى بيته ذا كرا الله عز وجل مفسكرا في آلائه شاكر الله تعالى على توفيقه خائفا من تقصيره مراقبا لقلبه ولسانه إلى غروب الشمس حتى لا تنفوته الساعة الشريفة . ولا ينبغي أن يتكلم في الجامع وغيره من المساجد بحديث الدنيا قال صلى الله عليه وسلم : « يأتي على الناس زمان يكون حديثهم في مساجدهم أمر دينهم ليس الله تعالى فيهم حاجة فلا تجالسهم » (١) .

بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يعم جميع النهار وهي سبعة أمور

(الأول) أن يحضر مجالس العلم بكرة أو بعد العصر ولا يحضر مجالس القصاص فلا خير في كلامهم . ولا ينبغي أن يخلو المرید في جميع يوم الجمعة عن الخيرات والدعوات حتى توافيه الساعة الشريفة وهو في خير ولا ينبغي أن يحضر الحلق قبل الصلاة وروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التحلق يوم الجمعة قبل الصلاة » (٢) ، إلا أن يكون عالما بالله يذكر بأيام الله ويفقه في دين الله يتكلم في الجامع بالفداء فيجلس إليه فيكون جامعا بين البكور وبين الاستماع . واستماع العلم النافع في الآخرة أفضل من اشتغاله بالذواقل فقد روى أبو ذر : « إن حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة » (٣) ، قال أنس بن مالك في قوله تعالى ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ أما إنه ليس بطلب دنيا لكن عيادة مريض وشهود جنازة وتعلم علم وزيارة أخ في الله عز وجل . وقد سمي الله عز وجل العلم فضلا في مواضع قال تعالى ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ﴾ يعني العلم فتعلم العلم في هذا اليوم وتعليمه من أفضل القربات . والصلاة أفضل من مجالس القصاص إذ كانوا يرونه بدعة ويخرجون القصاص من الجامع : بكر ابن عمر رضي الله عنهما إلى مجلسه في المسجد الجامع فإذا قاص في موضعه فقال : قم عن مجلسي ! فقال : لا أقوم وقد جلست وسبقتك إليه ، فأرسل ابن عمر إلى صاحب الشرطة فأقامه . فلو كان ذلك من السنة لما جازت إقامته فقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يقيم أحدكم أخاه من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا » (٤) ، وكان ابن عمر إذا قام الرجل له من مجلسه لم يجلس فيه حتى يعود إليه . وروى أن قاصا كان يجلس بفناء حجرة عائشة رضي الله عنها فأرسلت إلى ابن عمر : إن هذا قد آذاني بقصصه وشغلني عن سبحتي ، فضربه ابن عمر حتى كسر عصاه على ظهره ثم طرده (الثاني) أن يكون حسن المراقبة للساعة الشريفة في الخبر المشهور : « إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله عز وجل فيها شيئا إلا أعطاه » (٥) ، وفي خبر آخر « لا يصادفها عبد يصلي » (٦) ، واختلف فيها فقيل لأنها عند طلوع الشمس وقيل عند الزوال وقيل مع الأذان وقيل إذا صعد الإمام المنبر وأخذ في الخطبة وقيل إذا قام

(١) حديث « يأتي على أمتي زمن يكون حديثهم في مساجدهم أمر دينهم ... الحديث » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلًا وأسنده الحاكم من حديث أنس وصححه إسناده وأخرج ابن حبان نحوه من حديث ابن مسعود وقد تقدم
(٢) حديث « عبد الله بن عمر في النهي عن التحلق يوم الجمعة » أخرجه أبو داود والنسائي ورواه ابن ماجه من رواية عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده من حديث ابن عمر (٣) حديث أبي ذر « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة » تقدم في العلم (٤) حديث « لا يقيم أحدكم أخاه من مجلسه .. الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر (٥) حديث « لمن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها شيئا إلا أعطاه » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عمرو بن عوف المزني .
(٦) حديث « لا يصادفها عبد يصلي » متفق عليه من حديث أبي هريرة

الناس إلى الصلاة وقيل آخر وقت العصر - أعنى وقت الاختيار - وقيل قبل غروب الشمس ، وكانت فاطمة رضى الله عنها تراعى ذلك الوقت وتأمّر خادمها أن تنظر إلى الشمس فتؤذنها بسقوطها فتأخذ في الدعاء والاستغفار إلى أن تغرب الشمس ، وتخبر بأن تلك الساعة هي المنتظرة وتؤثره عن أبيها صلى الله عليه وسلم وعليها ^(١) ، وقال بعض العلماء : هي مبهمة في جميع اليوم مثل ليلة القدر تتوفر الدواعي على مراقبتها . وقيل لأنها تنقل في ساعات يوم الجمعة كنتقل ليلة القدر وهذا هو الأشبه ، وله سر لا يليق بعلم المعاملة ذكره ولكن ينبغي أن يصدق بما قال صلى الله عليه وسلم « إن ربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها » ^(٢) ، ويوم الجمعة من جملة تلك الأيام فينبغي أن يكون العبد في جميع نهاره متعرضاً لها بإحضار القلب وملازمة الذكر والزوع عن وساوس الدنيا فعساه يحظى بشيء من تلك النفحات . وقد قال كعب الأحبار : إنها في آخر ساعة من يوم الجمعة وذلك عند الغروب ، فقال أبو هريرة : وكيف تكون آخر ساعة وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يوافقها عبد يصلي ولات حين صلاة ! فقال كعب : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من قعد يمتظر الصلاة فهو في الصلاة ^(٣) قال : بلى ، قال : فذلك صلاة ؟ فسكت أبو هريرة . وكان كعب ماثلاً إلى أنها رحمة من الله سبحانه للقائمين بحق هذا اليوم وأوان إرسالها عند الفراغ من تمام العمل . وبالجملة هذا وقت شريف مع وقت صعود الإمام المنبر فليكثر الدعاء فيهما (الثالث) يستحب أن يكثر الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم فقد قال صلى الله عليه وسلم « من صلى على في يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة قيل يا رسول الله كيف الصلاة عليك ؟ قال تقول اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي ، وتصدق واحدة ، وإن قلت اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون لك رضا ولحقة أداء وأعطه الوسيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعده واجزه عنا ما هو أهله واجزه أفضل ما جازيت نبياً عن أمته وصل عليه وعلى جميع إخوانه من النبيين والصالحين يا أرحم الراحمين » ^(٤) ، نقول هذا سبع مرات فقد قيل من قالها في سبع جمع في كل جمعة سبع مرات ونجبت له شفاعته صلى الله عليه وسلم . وإن أراد أن يزيد أتى بالصلاة المأثورة فقال « اللهم اجعل فضائل صلواتك ونواحي بركاتك وشرائع زكواتك ورأفتك ورحمتك وتحيتك على محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين قائد الخير وفاتح البر ونبي الرحمة وسيد الأمة اللهم ابعثه مقاماً محموداً تضاف به قربته وتقرب به عينه يغبطه به الآقرون والآخرون اللهم اعطه الفضل والفضيلة والشرف والوسيلة والدرجة الرفيعة والمنزلة الشاخصة المنيفة اللهم أعط محمداً سؤله وبلغه مأموله واجعله أول شافع وأول مشفع اللهم عظم برهانه وثقل ميزانه وأبلغ حجته وارفع في أعلى المقربين درجته اللهم احشرنا في زمرة واحملنا من أهل شفاعته وأحينا على سنته وتوفنا على ملته

(١) حديث فاطمة « في ساعة الجمعة أخرجه الدارقطني في المال والبهقي في الشعب وعنه الاختلاف (٢) حديث « إن ربكم في أيام دهركم نفحات . . الحديث » أخرجه المسكين في البوار والطبراني في الأوسط من حديث محمد بن مسلمة . ولأن عبد البر في التمهيد نحوه من حديث أنس ورواه ابن أبي الدنيا في كنز الأبرار من حديث أبي هريرة واختلف في إسناده

(٣) حديث « اختلاف كعب وأبي هريرة في ساعة الجمعة وقول أبي هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يوافقها عبد يصلي ولات حين صلاة فقال كعب ألم يقل عليه الصلاة والسلام من قعد يمتظر الصلاة فهو في صلاة » قالت في الإحياء أن كعباً هو الذي قل لها آخر ساعة وأيس كذلك وإنما هو عبد الله بن سلام وأما كعب فإنه قال أنها في كل سنة مرة ثم رجع الحديث رواء أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان من حديث أبي هريرة وابن ماجه ونحوه من حديث عبد الله بن سلام

(٤) حديث « من صلى على في يوم الجمعة ثمانين مرة ... الحديث » أخرجه الدارقطني من رواية ابن المنيب قال أغنسه عن أبي هريرة وقال حديث غريب ، وقال ابن التمام حديث حسن

وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه غير خزايا ولا نادمين ولا شاكين ولا مبدلين ولا فاتنين ولا مفتونين آمين يارب العالمين ^(١) ، وعلى الجملة فكل ما أتى به من ألفاظ الصلاة ولو بالمشهور في التشهد كان مصليا . وينبغي أن يضيف إليه الاستغفار فإن ذلك أيضا مستحب في هذا اليوم (الرابع) قراءة القرآن فليكثر منه وليقرأ سورة الكهف خاصة . فقد روى عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما « أن من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أعطى نورا من حيث يقرؤها إلى مكة وغفر له إلى يوم الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام وصلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح وعوفي من الداء والدبيلة وذات الخب والبرص والجذام وفتنة الدجال » ^(٢) ، ويستحب أن يختم القرآن في يوم الجمعة وليلتها إن قدر ، وليكن ختمه للقرآن في ركعتي الفجر إن قرأ بالليل أو في ركعتي المغرب أو بين الأذان والإقامة للجمعة فله فضل عظيم . وكان العابدون يستحبون أن يقرءوا يوم الجمعة قل هو الله أحد ألف مرة . ويقال إن من قرأها في عشر ركعات أو عشرين فهو أفضل من ختمه وكأوا يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ألف مرة وكانوا يقولون « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ألف مرة وإن قرأ المسبحات الست في يوم الجمعة أو ليلتها لحسن . وليس يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ سورا بأعيانها إلا في يوم الجمعة وليلتها كان يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة « قل يا أيها الكافرون . وقل هو الله أحد » وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة : سورة الجمعة والمنافقين ^(٣) وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في ركعتي الجمعة . وكان يقرأ في الصباح يوم الجمعة . سورة سجدة لقمان وسورة هل أتى على الإنسان ^(٤) (الخامس) الصلوات يستحب إذا دخل الجامع أن لا يجلس حتى يصلي أربع ركعات يقرأ فيهن « قل هو الله أحد » مائة مرة في كل ركعة خمسين مرة ^(٥) فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن من فعله لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له » ولا يدع ركعتي التحية وإن كان الإمام يخطب ولكن يخفف . أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ^(٦) وفي حديث غريب « أنه صلى الله عليه وسلم سكت للداخل حتى صلاهما ^(٧) » فقال الكوفيون : إن سكت له الإمام صلاهما . ويستحب في هذا اليوم أوى ليلته أن يصلي أربع ركعات بأربع سور : الأنعام والكهف وطه ويس . فإن لم يحس قرأ يس وسورة سجدة لقمان وسورة الدخان وسورة الملك . ولا يدع قراءة هذه الأربع سور في ليلة الجمعة ففيها فضل كثير . ومن لا يحسن القرآن قرأ ما يحسن فهو له بمنزلة الختمة . ويكثر من قراءة سورة الإخلاص . ويستحب أن يصلي صلاة التسبيح - كما سيأتي في باب التطوعات كيفيتها - لأنه صلى الله عليه وسلم قال لعنه العباس « صلاها في كل جمعة ^(٨) وكان ابن عباس رضي الله عنهما لا يدع هذه الصلاة يوم الجمعة بعد الزوال

(١) حديث « اللهم اجعل فضائل صلواتك .. الحديث » أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن مسعود نحوه بنحو صحيح وقفه على ابن مسعود (٢) حديث ابن عباس وأبي هريرة « من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة .. الحديث » لم أجده من حديثهما (٣) حديث « القراءة في المغرب ليلة الجمعة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد » وفي عشاها الجمعة والمنافقين » أخرجه ابن حبان والبيهقي من حديث سمرة وفي ثقات ابن حبان المحفوظ عن سماك مرسلات لا يصح مسداً ولا مرسل (٤) حديث « القراءة في الجمعة بالجمعة والمنافقين » وفي صحيح الجمعة بالسجدة وهل أتى » أخرجه مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة (٥) حديث « من دخل يوم الجمعة المسجد فصلى أربع ركعات يقرأ فيها قل هو الله أحد مائة مرة .. الحديث » أخرجه الخطيب في الرواة عن مالك من حديث ابن عمر وقل غريب جدا (٦) حديث « الأمر بالتخفيف في التحية إذا دخل والإمام يخطب » أخرجه مسلم من حديث جابر والبخاري « الأمر بالركعتين » ولم يذكر التخفيف (٧) حديث « سكوتة صلى الله عليه وسلم من الخطبة لداخل حتى فرع من التحية » أخرجه الدارقطني من حديث أنس وقال أسنده عبيد بن محمد ووم فيه والصواب من مضمون أبيه مرسل (٨) حديث « صلاة التسبيح ونحوه لعنه العباس صلاها في كل جمعة » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن خزيمة والحاكم من حديث ابن عباس وقال القتيبي وغيره ليس فيها حديث صحيح

وكان يخبر عن جلالة فضلها . والأحسن أن يجعل وقته إلى الزوال للصلاة وبعد صلاة الجمعة إلى العصر لاستماع العلم وبعد العصر إلى المغرب للتسبيح والاستغفار . (السادس) الصدقة مستحبة في هذا اليوم خاصة فإنها تتضاعف إلا على من سأل والإمام يخطب وكان يتكلم في كلام الإمام فهذا مكروه . وقال صالح بن محمد : سأل مسكين يوم الجمعة والإمام يخطب - وكان إلى جانب أبي - فأعطى رجل أبي قطعة ليناوله إياها فلم يأخذها منه أبي . وقال ابن مسعود إذا سأل الرجل في المسجد فقد استحق أن لا يعطى وإذا سأل على القرآن فلا تعطوه . ومن العلماء من كره الصدقة على السؤال في الجامع الذين يتخطون رقاب الناس ؛ إلا أن يسأل قائما أو قاعدا في مكانه من غير تخط . وقال كعب الأحبار : من شهد الجمعة ثم انصرف فتصدق بشيئين مختلفين من الصدقة ثم رجع فركع ركعتين يتم ركوعيهما وسجوديهما وخشوعيهما ثم يقول : اللهم إني أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الذي لا إله إلا الله هو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، لم يسأل الله تعالى شيئا إلا أعطاه . وقال بعض السلف . من أطعم مسكينا يوم الجمعة ثم غدا وابتكر ولم يؤذ أحدا ثم قال حين يسلم الإمام « بسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم أسألك أن تغفر لى وترحنى وتعافينى من النار » ثم دعا بما بداله استجيب له (السابع) أن يجعل يوم الجمعة للآخرة فيكشف فيه عن جميع أشغال الدنيا ويكثر فيه الأوراد ولا يبتدىئ فيه السفر فقد روى « أنه من سافر في ليلة الجمعة دعا عليه ملكاه ^(١) » وهو بعد طلوع الفجر حرام إلا إذا كانت الرفقة تفوت . وكره بعض السلف شراء الماء في المسجد من السقاء ليشربه أو بسبله حتى لا يكون مبيعا في المسجد فإن البيع والشراء في المسجد مكروه . وقالوا : لا بأس لو أعطى القطعة خارج المسجد ثم شرب أو سبل في المسجد . وبالجملة ينبغى أن يريد في الجمعة في أوراده وأنواع خيراته فإن الله سبحانه إذا أحب عبدا استعمله في الأوقات الماضلة بفواضل الأعمال وإذا مقتته استعمله في الأوقات الفاضلة بسوء الأعمال ليكون ذلك أوجع في عقابه وأشد لمقتته لحرماته بركة الوقت وانها كرهة الوقت . ويستحب في الجمعة دعوات ، وسيأتى ذكرها في كتاب الدعوات إن شاء الله تعالى . وصلى الله على كل عبد مصطفى .

الباب السادس : في مسائل متفرقة تعم بها البلوى ويحتاج المرید إلى معرفتها

فأما المسائل التى تقع نادرة فقد استقصيناها في كتب الفقه

(مسألة) الفعل القليل وإن كان لا يبطل الصلاة فهو مكروه إلا لحاجة وذلك في دفع المار وقتل العقرب التى تخاف ويمكن قتلها بضربة أو ضربتين فإذا صارت ثلاثا فقد كثرت وبطلت الصلاة ، وكذلك القملة والبرغوث مهما تأذى بهما كان له دفعهما ، وكذلك حاجته إلى الحلك الذى يتشوش عليه الخشوع . كان معاذ يأخذ القملة والبرغوث في الصلاة . وابن عمر كان يقتل القملة في الصلاة حتى يظهر الدم على يده . وقال النخعي : يأخذها ويوهنها ولا شيء عليه إن قتلها . وقال ابن المسيب : يأخذها ويخترها ثم يطرحها . وقال مجاهد : الأحب إلى أن يدعها إلا أن تؤذيه فتسغله عن صلاته فيوهنها قدرما لا تؤذى ثم يلقها . وهذه رخصة وإلا فالكمال الاحتراز عن الفعل وإن قل . ولذلك كان بعضهم لا يطرد الذباب وقال : لا أعوذ نفسى ذلك فأفسد على صلاتى . وقد سمعت أن الفساق بين يدي

(١) حديث « من سافر يوم الجمعة دعا عليه ملكاه » أخرجه الداريمى في الأفراد من حديث ابن عمر وفيه اس لهيعة وقال غريب والخطيب في الرواة عن مالك من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

الملوك يصبرون على أذى كثير ولا يتحركون . ومهما تثامب فلا بأس أن يضع يده على فيه وهو الأول . وإن عطس حمد الله عز وجل في نفسه ولا يحرك لسانه . وإن تجشأ فينبغي أن لا يرفع رأسه إلى السماء وإن سقط رداؤه فلا يبغي أن يسويه وكذلك أطراف عمامته فكل ذلك مكروه إلا لضرورة .

(مسألة) الصلاة في النعلين جائزة وإن كان نزع النعلين سهلاً ، وليست الرخصة في الحلف لغسر النزع بل هذه التجاسة معفو عنها . وفي معناها المداس « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نعليه ، ثم نزع فبزغ الناس نعالهم فقال : لم خلعت نعالكم ؟ قالوا : رأيناك خلعت فخلعنا فقال صلى الله عليه وسلم : إن جبرائيل عليه السلام أتاني فأخبرني أن بهما خبثاً فإذا أراد أحدكم المسجد فليقلب نعليه ولينظر فيهما فإن رأى خبثاً فليمسحه بالأرض وليصل فيهما ^(١) » وقال بعضهم : الصلاة في النعلين أفضل لأنه صلى الله عليه وسلم قال « لم خلعت نعالكم ؟ » وهذه مبالغة فإنه صلى الله عليه وسلم سألهم ليبين لهم سبب خلعه إذ علم أنهم خلعوا على موافقته . وقد روى عبد الله بن السائب « أن النبي صلى الله عليه وسلم خلع نعليه » فإذا نزل فليخلع نعليه . وقال أبو هريرة رضي الله عنه . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه ^(٢) » وقال أبو هريرة لغيره : اجعلهما بين رجليك ولا تؤنهما مسلماً . ووضحهما رسول الله صلى الله عليه وسلم على يساره وكان إماماً ^(٣) ، فلإمام أن يفعل ذلك إذ لا يقف أحد على يساره . والأولى أن لا يضعهما بين قدميه فتشغلانه ولكن قدام قدميه ، ولعله المراد بالحديث . وقد قال جبير بن مطعم . وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة .

(مسألة) إذا بزق في صلاته لم تبطل صلاته لأنه فعل قليل . وما لا يحصل به صوت لا يعد كلاماً وليس على شكل حروف الكلام إلا أنه مكروه فينبغي أن يحتز منه إلا كما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه إذ روى بعض الصحابة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في القبلة نخامة فغضب غضباً شديداً ثم حكها بعرجون كان في يده وقال : ائتوني بعبير ، فاطلع أثرها بزعران ثم التفت إلينا وقال : أيكم يحب أن يبزق في وجهه ؟ فقلنا : لا أحد ، قال : فإن أحدكم إذا دخل في الصلاة فإن الله عز وجل بينه وبين القبلة ^(٤) » وفي لفظ آخر « واجهه الله تعالى فلا يبزق أحدكم تلقاء وجهه ولا عن يمينه ولكن عن شماله أو تحت قدمه اليسرى فإن بدرت به بادرة فليصق في ثوبه وليقل به هكذا وذلك بعضه ببعض »

(مسألة) لوقوف المقتدى : سنة وفرض ؛ أما السنة : فأل يقف الواحد عن يمين الإمام متأخراً عنه قليلاً ، والمرأة الواحدة تقف خلف الإمام ؛ فإن وقفت بجانب الإمام لم يضر ذلك ولكن خالفت السنة . فإن كان معها رجل

الباب السادس

- (١) حديث « صلى في نعليه ثم نزع فبزغ الناس نعالهم » . الحديث « أخرجه أحمد واللفظ لاسنن ماجه وأبو داود والحاكم ومصححه من حديث أبي سعيد (٢) حديث عبد الله بن السائب في « خلع النبي صلى الله عليه وسلم نعليه » أخرجه مسلم
- (٣) حديث أبي هريرة « إذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه » أخرجه أبو داود بسند صحيح وضعه المذري وليس بحديث
- (٤) حديث « وضعه نعليه على يساره » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن السائب
- (٥) حديث « رأى في القبلة نخامة فغضب » . الحديث « أخرجه مسلم من حديث جابر وأما عليه مختصراً من حديث أنس وعائشة وأبي سعيد وأبي هريرة وابن عمر .

وقف الرجل عن يمين الإمام وهي خلف الرجل . ولا يقف أحد خلف الصف منفردا بل يدخل في الصف أو يخرج إلى نفسه واحدا من الصف . فإن وقف منفردا صحت صلاته مع الكراهية . وأما الفرص . فاتصال الصف وهو أن يكون بين المقتدى والإمام رابطة جامعة فإنهما في جماعة فإن كانا في مسجد كفى ذلك جامعا لأنه بي له فلا يحتاج إلى اتصال صف بل إلى أن يعرف أفعال الإمام ، صلى أبو هريرة رضي الله عنه على طهر المسجد بصلاة الإمام . وإذا كان المأموم على فناء المسجد في طريق أو صحراء مشتركة وليس بينهما اختلاف بناء مصرق فيكفي القرب بقدر غلوة سهم وكفى بها رابطة إذ يصل فعل أحدهما إلى الآخر . وإنما يشترط إذا وقف في صحن دار على يمين المسجد أو يساره وبابها لاطيء في المسجد فالشرط أن يمتد صف المسجد في دلهيزها من غير انقطاع إلى الصحن . ثم تصح صلاة من في ذلك الصف ومن خلفه دون من تقدم عليه وهكذا حكم الابنية المختلفة فأما البناء الواحد والعرصة الواحدة فكالصحراء .

(مسألة) المسبوق إذا أدرك آخر صلاة الإمام فهو أول صلاته فليوافق الإمام وليبين عليه وليقنت في الصبح في آخر صلاة نفسه . وإن قنت مع الإمام وإن أدرك مع الإمام بعض القيام فلا يشتغل بالدعاء وليبدأ بالفتحة وليخففها . فإن ركع الإمام قبل تمامها وقدر على لحوقه في اعتداله من الركوع فليتم . فإن عجز وافق الإمام وركع وكان لبعض الفتحة حكم جميعها فتسقط عنه بالسبق . وإن ركع الإمام وهو في السورة فليقطعها . وإن أدرك الإمام في السجود أو التشهد كبر الإحرام ثم جلس ولم يكبر بخلاف ما إذا أدركه في الركوع فإنه يكبر ثانيا في الهوى لأن ذلك انتقال محسوب له . والتكبيرات للانتقالات الأصلية في الصلاة لا للعوارض بسبب القدوة . ولا يكون مدركا للركعة ما لم يعطن راعيا في الركوع والإمام بعد في حد الراكعين . فإن لم يتم طمأنينته إلا بعد مجاوزة الإمام حد الراكعين فاتته تلك الركعة .

(مسألة) من فاتته صلاة الظهر إلى وقت العصر فليصل الظهر أولا ثم العصر ، فإن ابتدأ بالعصر أجزأه ولكن ترك الأولى واقتحم شبهة الخلاف . فإن وجد إماما فليصل العصر ثم ليصل الظهر بعده فإن الجماعة بالأداء أولى . فإن صلى منفردا في أول الوقت ثم أدرك جماعة صلى في الجماعة ونوى صلاة الوقت والله يحتسب أيهما شاء . فإن نوى فاتة أو نطقا جاز . وإن كان قد صلى في الجماعة فأدرك جماعة أخرى فليؤخر الفاتة أو النافلة فإعادة المؤداة بالجماعة مرة أخرى لا وجه له وإنما احتتمل ذلك لدرك فضيلة الجماعة .

(مسألة) من صلى ثم رأى على ثوبه نجاسة فالأحب قضاء الصلاة ولا يلزمه . ولو رأى النجاسة في أثناء الصلاة رمى بالثوب وأتم والأحب الاستئناف . وأصل هذا قصة خلع النعلين حين أخبر جبرائيل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عليهما نجاسة فإنه صلى الله عليه وسلم لم يستأنف الصلاة .

(مسألة) من ترك التشهد الأول أو القنوت أو ترك الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في التشهد الأول أو فعل فعلا سهواً وكانت تبطل الصلاة بتعمده أو شك فلا يدرأ صلى ثلاثاً أو أربعاً : أخذ باليقين وسجد بسجدة السهو قبل السلام . فإن نسي فبعد السلام مهما تذكر على القرب . فإن سجد بعد السلام وبعد أن أحدث بطلت صلاته . فإنه لما دخل في السجود كأنه جعل سلامه نسياناً في غير محله فلا يحصل التحلل به وعاد إلى الصلاة فلذلك يستأنف السلام بعد السجود . فإن تذكر سجود السهو بعد خروجه من المسجد أو بعد طول الفصل فقد فات .

(مسألة) الوسوسة في نية الصلاة سببها خيل في العقل أو جهل بالشرع لأن امتثال أمر الله عز وجل مثل

امثال أمر غيره وتعظيمه كتعظيم غيره في حق القصد . ومن دخل عليه عالم فقام له فلو قال : نويت أن أنتصب قائما تعظيما لدخول زيد الفاضل لأجل فضله مقبلا عليه بوجهي ، كان سفها في عقله بل كما يراه ويعلم فضله تنبذ داعية التعظيم فتقييمه ويكون معظما إلا إذا قام لشغل آخر أو في غفلة . واشترط كون الصلاة ظهرا أداء فرضا في كونه امتثالا كاشتراط كون القيام مقرونا بالدخول مع الإقبال بالوجه على الداخل واتقاء باعث آخر سواء . وقصد التعظيم به ليكون تعظيما . فإنه لو قام مدبرا عنه أو صبر فقام بعد ذلك بمدة لم يكن معظما . ثم هذه الصفات لا بد وأن تكون معلومة وأن تكون مقصودة ثم لا يطول حضورها في النفس في لحظة واحدة وإنما يطول نظم الألفاظ الدالة عليها إما تلفظا باللسان وإما تفكرا بالقلب . فن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه فكانه لم يفهم النية . فليس فيه إلا أنك دعيت إلى أن تصلي في وقت فأجبت وقت فالوسوسة محض الجهل . فإن هذه القصد وهذه العلوم تجتمع في النفس في حالة واحدة ولا تكون مفصلة الآحاد في الذهن بحيث تطالعها النفس وتتأملها . وفرق بين حضور الشيء في النفس وبين تفصيله بالفكر . والحضور مضاد للعزوب والغفلة ، وإن لم يكن مفصلا . فإن من علم الحادث مثلا فيعلمه بعلم واحد في حالة واحدة وهذا العلم يتضمن علوما هي حاضرة وإن لم تكن منمصلة فإن من علم الحادث فقد علم الموجود والمعدوم والتقدم والتأخر والزمان ، وأن التقدم للعدم وأن التأخر للوجود ، فهذه العلوم منظوية تحت العلم بالحادث ، بدليل أن العالم بالحادث إذا لم يعلم غيره لو قيل له هل علت التقدم فقط أو التأخر أو العدم أو تقدم العدم أو تأخر الوجود أو الزمان المنقسم إلى المتقدم والمتأخر ؟ فقال ما عرفته قط كان كاذبا وكان قوله منافضا لقوله : إني أعلم الحادث . ومن الجهل بهذه الحقيقة يشور الوسواس فإن الوسواس يكلف نفسه أن يحضر في قلبه الظاهرية والأدائية والفرضية في حالة واحدة مفصلة بألفاظها وهو يطالعها وذلك محال . ولو كلف نفسه ذلك في القيام لأجل العالم لتعذر عليه . فهذه المعرفة يندفع الوسواس وهو أن امثال أمر الله سبحانه في النية كامثال أمر غيره ثم أزيد على سبيل التسهيل والترخص وأقول . لو لم يفهم الوسواس النية إلا بإحضار هذه الأمور مفصلة ولم يمثل في نفسه الامثال دفعة واحدة وأحضر جملة ذلك في أثناء التكبير من أوله إلى آخره بحيث لا يفرغ من التكبير إلا وقد حصلت النية كفاء ذلك . ولا نسكفه أن يقرن الجميع بأول التكبير أو آخره فإن ذلك تكليف شطط . ولو كان مأمورا به لوقع للأولين سؤال عنه ولو وسوس واحد من الصحابة في النية ، فعدم وقوع ذلك دليل على أن الأمر على التساهل ، فكيفما تبسرت الية للوسوس ينفي أن يقنع به حتى يتعذر ذلك وتفارقة الوسوسة ، ولا يطالب نفسه بتحقيق ذلك فإن التحقيق يزيد في الوسوسة . وقد ذكرنا في الفتاوى وحواها من التحقيق في تحقيق العلوم . والقصود المتعلقة بالنية تستقر العلماء إلى معرفتها أما العامة فربما ضرها سماعها ويهيج . عليها الوسواس فلذلك تركناها .

(مسألة) ينبغي أن لا يتقدم المأموم على الإمام في الركوع والسجود والرفع منهما ولا في سائر الأعمال ولا ينبغي أن يساويه بل يتبعه ويقف أثره فهذا معنى الاقتداء ، فإن ساواه عمدا لم تبطل صلاته كما لو وقف بجانبه غير متأخر عنه . فإن تقدم عليه ففي بطلان صلاته خلاف ، ولا يبعد أن يقضى بالبطلان تشبيها بما لو تقدم في الموقف على الإمام ؛ بل هذا أولى لأن الجماعة اقتداء في الفعل لا في الموقف فالتبعية في الفعل أهم . ولما شرط ترك التقدم في الموقف تسبيلا للمتابعة في الفعل وتحصيلا لصورة التبعية إذ اللائق بالمقتدى به أن يتقدم فالتقدم عليه في الفعل لا وجه له إلا أن يكون سهوا . ولذلك شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير فيه فقال « أما يخشى

الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول رأسه رأس حمار ^(١) ، وأما التأخر عنه بركن واحد فلا يبطل الصلاة ، وذلك بأن يعتدل الإمام عن ركوعه وهو بعد لم يركع ولكن التأخر إلى هذا الحد مكروه فإن وضع الإمام جبهته على الأرض وهو بعد لم ينته إلى حد الركع بطلت صلاته . وكذا إن وضع الإمام جبهته للسجود الثاني وهو بعد لم يسجد السجود الأول .

(مسألة) حق على من حضر الصلاة إذا رأى من غيره إساءة في صلاته أن يغيره ويتكبر عليه . وإن صدر من جاهل رفق بالجاهل وعله ، فن ذلك الأمر بتسوية الصفوف ومنع المنفرد بالوقوف خارج الصف ، والإنكار على من يرفع رأسه قبل الإمام إلى غير ذلك من الأمور . فقد قال صلى الله عليه وسلم « ويل للعالم من الجاهل حيث لا يعلمه » ^(٢) ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : من رأى من يسيء صلاته فلم ينهه فهو شريكه في وزرها . وعن بلال بن سعد أنه قال : الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها فإذا أظهرت فلم تغير أضرت بالجماعة . وجاء في الحديث « أن بلالا كان يسوي الصفوف ويضرب عراقبيهم بالدرة » ^(٣) ، وعن عمر رضي الله عنه قال : تفقدوا إخوانكم في الصلاة فإذا فقدتمهم فإن كانوا مرضى فعودوهم وإن كانوا أصحاء فعاتبوهم . والعتاب إنكار على من ترك الجماعة ولا ينبغي أن يتساهل فيه . وقد كان الأولون يبالغون فيه حتى كان بعضهم يحمل الجنازة إلى بعض من تخلف عن الجماعة إشارة إلى أن الميت هو الذي يتأخر عن الجماعة دون الحي . ومن دخل المسجد ينبغي أن يقصد بين الصف ؛ ولذلك تراحم الناس عليه في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قيل له : تعطلت الميسرة فقال صلى الله عليه وسلم « من عمر ميسرة المسجد كان له كفلان من الأجر » ^(٤) ، ومهما وجد غلاما في الصف ولم يجد لنفسه مكانا فله أن يخرج إلى خلف ويدخل فيه - أعني إذا لم يكن بالغا - وهذا ما أردنا أن نذكره من المسائل التي تعم بها البلوى . وسيأتي أحكام الصلوات المتفرقة في كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى .

الباب السابع : في النوافل من الصلوات

اعلم أن ما عدا الفرائض من الصلوات ينقسم إلى ثلاثة أقسام : سنن ومستحبات وتطوعات . ونعني بالسنن ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المواظبة عليه كالرواتب عقيب الصلوات وصلاة الضحى والوتر والتهجد وغيرها ؛ لأن السنة عبارة عن الطريق المسلوكة . ونعني بالمستحبات ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه - كما سننقله في صلوات الأيام والليالي في الأسبوع - وكالصلاة عند الخروج من المنزل والدخول فيه وأمثاله . ونعني بالتطوعات التي ورد الشرع بفضلها مطلقا ؛ فكأنه متبرع به إذا لم يندب إلى تلك الصلاة بعينها وإن ندب إلى الصلاة مطلقا ، والتطوع عبارة عن التبرع . وسميت الأقسام الثلاثة نوافل من حيث إن النفل هو الزيادة وجملة زائد على الفرائض . فلنفظ : النافلة والسنة والمستحب والتطوع ؛ أردنا الاصطلاح عليه لتعريف هذه المقاصد . ولا حرج على من يغير هذا الاصطلاح فلا مشاحة في الألفاظ بعد فهم المقاصد . وكل قسم من هذه الأقسام تتفاوت درجاته في

(١) حديث « أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث « ويل للعالم من الجاهل » الحديث « أخرجه صاحب مسند الفردوس من حديث أس بن سند ضعيف .

(٣) حديث « أن بلالا كان يسوي الصفوف ويضرب عراقبيهم بالدرة » لم أجده .

(٤) حديث « قيل له قد تعطلت الميسرة فقال من عمر ميسرة المسجد » الحديث « أخرجه ابن ماجه من حديث عمر بن سند ضعيف

الفضل بحسب ما ورد فيها من الأخبار والآثار المعروفة لفضلها وبحسب طول مواظبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وبحسب صحة الأخبار الواردة فيها واشتهارها ، ولذلك يقال سنن الجماعات أفضل من سنن الانفراد . وأفضل سنن الجماعات : صلاة العيد ثم الكسوف ثم الاستسقاء . وأفضل سنن الانفراد : الوتر ثم ركعتا الفجر ثم ما بعدهما من الرواتب على تفاوتها . واعلم أن التوافل باعتبار الإضافة إلى معلقاتها تنقسم إلى ما يتعلق بأسباب الكسوف والاستسقاء وإلى ما يتعلق بأوقات ، والمتعلق بالأوقات ينقسم إلى ما يتكرر بتكرار اليوم والليلة أو بتكرار الأسبوع أو بتكرار السنة فالجملة أربعة أقسام

القسم الأول : ما يتكرر بتكرار الأيام والليالي وهي ثمانية ، خمسة هي رواتب الصلوات الخمس ، وثلاثة ورامها وهي صلاة الضحى وإحياء ما بين العشاءين والتهجد

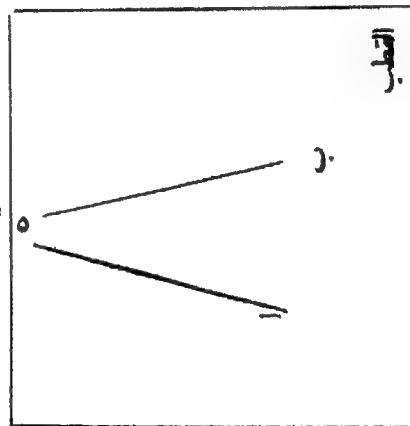
(الأولى) راتبة الصبح وهي ركعتان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها^(١) ، ويدخل وقتها بطول الفجر الصادق وهو المستطير دون المستطيل . وإدراك ذلك بالمشاهدة عسير في أوله إلا أن يتعلم منازل القمر أو يعلم اقتراع طلوعه بالكواكب الطاهرة للبصر . فيستدل بالكواكب عليه ويعرف بالقمر في لبنتين من الشهر فإن القمر يطلع مع الفجر ليلة ست وعشرين ، ويطلع الصبح مع غروب القمر ليلة اثني عشر من الشهر هذا هو الغالب ، ويتطرق إليه تماوت في بعض البروج وشرح ذلك يطول . وتعلم منازل القمر من المهمات للريد حتى يطلع به على مقادير الأوقات بالليل وعلى الصبح ، ويفوت وقت ركعتي الفجر بفوات وقت فريضة الصبح وهو طلوع الشمس ، ولكن السنة أداؤها قبل الفرس . فإن دخل المسجد وقد قامت الصلاة فليشتغل بالمكتوبة فإنه صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة »^(٢) ، ثم إذا فرغ من المكتوبة قام إليهما وصلهما . والصحيح أنهما أداها ما وقتا قبل طلوع الشمس لأنهما تابعتان للعرض في وقته وإنما الترتيب بينهما سنة في التقديم والتأخير إذا لم يصادف جماعة . فإذا صادف جماعة انقلب الترتيب وبقية أداء . والمستحب أن يصلهما في المزل ويخففهما ، ثم يدخل المسجد ويصلي ركعتين تحية المسجد ، ثم يجلس ولا يصلي إلى أن يصلي المكتوبة . وفيما بين الصبح إلى طلوع الشمس الأحب فيه الذكر والفكر والاقتصار على ركعتي الفجر والفريضة (الثانية) راتبة الظهر وهي ست ركعات : ركعتان بعدها وهي أيضاً سنة مؤكدة ، وأربع قبلها وهي أيضاً سنة وإن كانت دون الركعتين الأخيرتين . روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتهن وركوعهن وسجودهن صلى معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى الليل »^(٣) ، وكان صلى الله عليه وسلم لا يدع أربعاً بعد الزوال يطيلهن ويقول إن أبواب السماء تفتح في هذه الساعة فأحب أن يرفع لي فيها عمل^(٤) ، رواه أبو أيوب الأنصاري وتفرّد به ، ودل عليه أيضاً ما روت أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من صلى في كل يوم اثنتي عشرة ركعة غير المكتوبة بنى له بيت في الجنة »

الباب السابع

- (١) حديث « ركعتا الفجر خير من الدنيا .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة .
- (٢) حديث « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .
- (٣) حديث أبي هريرة « من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتهن » الحديث ، ذكره عبد الملك بن حبيب بلافا من حديث أبي مسعود ولم أره من حديث أبي هريرة (٤) حديث أبي أيوب « كان لا يدع أربعاً بعد الزوال . الحديث » أخرجه أحمد بسند ضعيف نحوه وهو عبد أبي داود وابن ماجه مختصراً وروى الترمذي نحوه من حديث عبد الله بن السائب وقال حسن (٢٥ - إحياء علوم الدين - ١)

ركعتين قبل الفجر وأربعاً قبل الظهر وركعتين بعدها وركعتين قبل العصر وركعتين بعد المغرب^(١) ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل يوم عشر ركعات^(٢) فذكر ما ذكرته أم حبيبة رضي الله عنها إلا ركعتي الفجر فإنه قال : تلك ساعة لم يكن يدخل فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن حدثتني أختي حفصة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي ركعتين في بيتها ثم يخرج . وقال في حديثه : ركعتين قبل الظهر وركعتين بعد العشاء . فصارت الركعتان قبل الظهر آكد من جملة الأربع . ويدخل وقت ذلك بالزوال . والزوال يعرف بزيادة ظل الأشخاص المنتصبه مائلة إلى جهة الشرق ، إذ يقع للشخص ظل عند الطلوع في جانب المغرب يستطيل فلا تزال الشمس ترتفع والظل ينقص وينحرف عن جهة المغرب إلى أن تبلغ الشمس منتهى ارتفاعها وهو قوس نصف النهار فيكون ذلك منتهى نقصان الظل . فإذا زالت الشمس عن منتهى الارتفاع أخذ الظل في الزيادة فمن حيث صارت الزيادة مدرجة بالحس دخل وقت الظهر . ويعلم قطعاً أن الزوال في علم الله سبحانه وقع قبله ولكن التكليف لا ترتبط إلا بما يدخل تحت الحس . والقدر الباقي من الظل الذي منه يأخذ في الزيادة يطول في الشتاء ويقصر في الصيف ، ومنتهى طولها بلوغ الشمس أول الجدى ، ومنتهى قصرها بلوغها أول السرطان . ويعرف ذلك بالأقدام والموازين . ومن الطرق القريبة من التحقيق لمن أحسن مراعاته أن يلاحظ القطب الشمالى بالليل ويضع على الأرض لوحاً مربعاً وضعاً مستويّاً بحيث يكون أحد أضلاعه من جانب القطب ، بحيث لو توهمت سقوط حجر من القطب إلى الأرض ثم توهمت خطاً من مسقط الحجر إلى الضلع الذي يليه من اللوح لقام الخط على الضلع على زاويتين قائمتين أى لا يكون الخط مائلاً إلى أحد الضلعين ، ثم تنصب عموداً على اللوح نصباً مستوياً في موضع علامة هـ وهو بإزاء القطب فيقع ظله على اللوح في أول النهار مائلاً إلى جهة المغرب في صوب خط اثم لا يزال يميل إلى أن ينطبق على خط ب ، بحيث لو مد رأسه لانتهى على الاستقامة إلى مسقط الحجر ، ويكون موازياً للضلع الشرقى والغربى غير مائل إلى أحدهما ، فإذا بطل ميله إلى الجانب الغربى فالشمس في منتهى الارتفاع ، فإذا انحرف الظل عن الخط الذي على اللوح إلى جانب الشرق فقد زالت الشمس . وهذا يدرك بالحس تحقيقاً في وقت هو قريب من أول الزوال في علم الله تعالى ، ثم يعلم على رأس الظل عند انحرافه علامة ، فإذا صار الظل من تلك العلامة مثل العمود دخل وقت العصر فهذا القدر لا بأس بمعرفته في علم الزوال وهذه صورته :

جانب الشرق



جانب الشرق

(الثالثة) راتبة العصر وهي أربع ركعات قبل العصر . روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : رحم الله عبداً صلى قبل العصر أربعاً^(٣) ، ففعل ذلك على رجاء الدخول في دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستحب استجابة مؤكداً فإن دعوته تستجاب لا محالة له . ولم تكن مواظبته على السنة قبل العصر كمواظبته على ركعتين قبل الظهر (الرابعة) راتبة المغرب وهما ركعتان بعد الفريضة لم

(١) حديث أم حبيبة « من صل في يوم اثنى عشرة ركعة .. الحديث » أخرجه النسائي والحاكم وصححه اسأده على شرط مسلم ورواه مسلم مختصراً ليس فيه تعيين أوقات الركعات (٢) حديث ابن عمر « حفظت من النبي صلى الله عليه وسلم في كل يوم عشر ركعات .. الحديث » متفق عليه واللفظ للبخاري ولم يقل في كل يوم (٣) حديث أبي هريرة « رحم الله عبداً صلى أربعاً قبل العصر » =

تختلف الرواية فيهما ، وأما ركعتان قبلها بين أذان المؤذن وإقامة المؤذن على سبيل المبادرة فقد نقل عن جماعة من الصحابة كأبي بن كعب وعبادة بن الصامت وأبي ذر وزيد بن ثابت وغيرهم قال عبادة أو غيره : كان المؤذن إذا أذن لصلاة المغرب ابتدر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السواري يصلون ركعتين ^(١) وقال بعضهم : كنا نصلي الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أنما صليتا فيسأل أصليتم المغرب ؟ وذلك يدخل في عموم قوله صلى الله عليه وسلم : بين كل أذانين صلاة لمن شاء ^(٢) . وكان أحمد بن حنبل يصليهما فعابه الناس فتركهما فقيل له في ذلك فقال : لم أر الناس يصلوهما ، فتركتهما وقال : لئن صلاهما الرجل في بيته أو حيت لا يراه الناس خسر . ويدخل وقت المغرب بغيبوبة الشمس عن الأبصار في الأراضي المستوية التي ليست مخنوفة بالجبال فإن كانت مخنوفة بها في جهة المغرب فيتوقف إلى أن يرى إقبال السواد من جانب المشرق قال صلى الله عليه وسلم : إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم ^(٣) ، والأحب المبادرة في صلاة المغرب خاصة وإن أحرث وصليت قبل غيبوبة الشفق الأحمر وقعت أداء ولكنه مكروه . وآخر عمر رضى الله عنه صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم فأعتق رقبة وأخرها ابن عمر حتى طلع كوكبان فأعتق رقتين (الخامسة) رابعة العشاء الآخرة أربع ركعات بعد الصلوة . قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بعد العشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام ^(٤) ، واختار بعض العلماء من مجموع الأخبار أن يكون عدد الرواتب سبع عشرة كعدد المكتوبة : ركعتان قبل الصبح وأربع قبل الظهر وركعتان بعدها وأربع قبل العصر وركعتان بعد المغرب وثلاث بعد العشاء الآخرة وهي الوتر ^(٥) ومهما عرفت الأحاديث الواردة فيه فلا معنى للتقدير فقد قال صلى الله عليه وسلم : الصلاة خير موضع فمن شاء أكثر ومن شاء أقل ^(٦) ، فإذا أختار كل مريد من هذه الصلاة بقدر رغبته في الخير فقد ظهر فيما ذكرناه أن بعضها أكد من بعض ، وترك الآكد أبعد لاسيما والفرائض تكمل بالنوافل فمن لم يستكثر منها يوشك أن لا تسلم له فريضة من غير جابر (السادسة) الوتر : قال أنس بن مالك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات ، يقرأ في الأولى سبح اسم ربك الأعلى وفي الثانية قل يا أيها الكافرون وفي الثالثة قل هو الله أحد ^(٧) ، وجاء في الخبر : أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي بعد الوتر ركعتين جالسا وفي بعضها : متربعا ^(٨) ، وفي بعض الأخبار : إذا أراد أن يدخل فراشه زحف إليه وصلى فوقه ركعتين قبل أن يرقد يقرأ فيهما إذا رزلت الأرض وسورة التكاثر ^(٩) ، وفي رواية أخرى : قل يا أيها الكافرون ، ويجوز الوتر مفصولا وموصولا ، بتسليمة واحدة

= أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان من حديث ابن عمر وأعله ابن القطان ولم أره من حديث أبي هريرة (١) حديث عبادة أو غيره « في ابتداء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السواري إذا أذن أهلة المأمرب » متفق عليه من حديث أنس لا من حديث عبادة ، وروى عبد الله بن أحمد في زيادات المسند « أن أبي بن كعب وعبد الرحمن بن عوف كانا يركعان حبر وتر الشمس ركعتين قبل المغرب (٢) حديث « كنا نصلي الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أنما صليتا » أخرجه مسلم من حديث أنس (٣) حديث « بين كل أذانين صلاة لمن شاء » متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود (٤) حديث « إذا أقبل الليل من ههنا .. الحديث » متفق عليه من حديث عمر (٥) حديث عائشة « كان يصلي بعد العشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام » أخرجه أبو داود (٦) حديث « الوتر بثلاث بعد العشاء » أخرجه أحمد واللفظه والنسائي من حديث عائشة « كان يوتر بثلاث لا يفصل بينهما » (٧) حديث « الصلاة خير موضع » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي ذر (٨) حديث أنس « كان يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات يقرأ في الأولى سبح .. الحديث » أخرجه ابن عدى في ترجمة محمد بن أبان ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند صحيح (٩) حديث « كان يصلي بعد الوتر ركعتين جالسا » أخرجه مسلم من حديث عائشة (١٠) حديث « إذا أراد أن يدخل فراشه زحف إليه ثم صلى ركعتين .. الحديث » أخرجه البيهقي من حديث أنس وأمس نحوه وضعفه وليس فيه « زحف إليه » ولا ذكر « التكاثر »

وتسليمتين : وقد أورد رسول الله صلى الله عليه وسلم بركة (١) وثلاث (٢) وخمس (٣) وهكذا بالأوتار (٤) إلى إحدى عشرة ركعة (٥) والرواية مترددة في ثلاث عشرة (٦) وفي حديث شاذ « سبع عشرة ركعة (٧) » وكانت هذه الركعات - أعني ما سمعنا جملتها وترا - صلاة بالليل وهو التهجد والتهجد بالليل سنة مؤكدة - وسيأتي ذكر فضلها في كتاب الأوراد وفي الأفضل خلاف فقيل إن الإيتار بركة فردة أفضل إذ صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يواظب على الإيتار بركعة فردة وقيل الموصولة أفضل للخروج عن شبهة الخلاف لاسمها الإمام إذ قد يقتدى به من لا يرى الركعة الفردة صلاة ، فإن صلى موصولا نوى بالجميع الوتر وإن اقتصر على ركعة واحدة بعد ركعتي العشاء أو بعد فرض العشاء نوى الوتر وضح . لأن شرط الوتر أن يكون في نفسه وترا وأن يكون موترا لغيره مما سبق قبله وقد أوتر العرض ولو أوتر قبل العشاء لم يصح أي لا ينال فضيلة الوز الذي هو خير له من حر النعم (٨) كما ورد به الخبر . وإلا فركعة فردة صحيحة في أي وقت كان وإنما لم يصح قبل العشاء لأنه خرق إجماع الخلق في الفعل ولأنه لم يتقدم ما يصير به وترا . فأما إذا أراد أن يوتر بثلاث مفصولة ففي نيته في الركعتين نظر . فإنه إن نوى بهما التهجد أو سنة العشاء لم يكن هو من الوتر . وإن نوى الوتر لم يكن هو في نفسه وترا . وإنما الوتر ما بعده . ولكن الأظهر أن ينوى الوتر كما ينوى في الثلاث الموصولة الوتر . ولكن للوتر معنيان ، أحدهما : أن يكون في نفسه وترا ، والآخر أن ينشأ ليكمل وترا بما بعده فيكون مجموع الثلاثة وترا ، والركعتان من جملة الثلاث إلا أن وترته موقوفة على الركعة الثالثة . وإذا كان هو على عزم أن يوترهما بثالثة كان له أن ينوى بهما الوتر . والركعة الثالثة وتر بنفسها وموترة لغيرها . والركعتان لا يوتران غيرهما وليستا وترا بأنفسهما ولكنهما موترتان بغيرهما . والوتر ينبغي أن يكون آخر صلاة الليل فيقع بعد التهجد . وسيأتي فضائل الوتر والتهجد وكيفية الترتيب بينهما في كتاب ترتيب الأوراد (السابعة) صلاة الضحى : فالواظبة عليها من عرائم الأفعال وفواصلها ، أما عدد ركعاتها فأكثر ما نقل فيه ثمان ركعات . روت أم هانيء أخت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما « أنه صلى الله عليه وسلم صلى الضحى ثمان ركعات أطالهن وحسنهن (٩) » ولم ينقل هذا القدر غيرها . فأما عائشة رضي الله عنها فليسا ذكرت « أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي الضحى أربعاً ويريد ما شاء الله سبحانه (١٠) » فلم تحد الزيادة أي أنه كان يواظب على الأربعة ولا ينقص منها وقد يزيد زيادات . وروى في حديث مفرد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي الضحى ست ركعات (١١) ، وأما وقتها فقد روى علي رضي الله عنه « أنه

- (١) حديث « الوتر ركعة » متفق عليه من حديث ابن عمر وهو لمسلم من حديث عائشة (٢) حديث « الوتر ثلاث » تقدم (٣) حديث « الوتر خمس » من حديث عائشة « يوتر من ذلك بخمس ولا يجلس في شيء إلا في آخرها » (٤) حديث « الوتر سبع » أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي « واللفظ له من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كبر وصلى أوتر سبع ركعات لا يفد إلا في السادسة ثم ينهض ولا يسلم فيصلي السابعة » حديث « الوتر تسع » أخرجه مسلم من حديث عائشة وهو في الذي قبله (٥) حديث الوتر بإحدى عشرة . أخرجه أبو داود بإسناد صحيح من حديث عائشة « كان يوتر أربع وثلاث وست وثلاث ، وثمان وثلاث ، وعشر وثلاث . الحديث » ولمسلم من حديثها « كان يصلي بالليل إحدى عشرة ركعة . الحديث » (٦) حديث « الوتر ثلاث عشرة » تقدم في الذي قبله . والترمذي والنسائي من حديث أم سلمة « كان يوتر ثلاث عشرة » وقال الترمذي حسن . ولمسلم من حديث عائشة « كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة » راد في رواية « ركعتي العجر » (٧) حديث « الوتر سبع عشرة » أخرجه ابن المبارك من حديث طاوس مرسل « كان يصلي سبع عشرة ركعة من الليل » (٨) حديث « الوتر خير من حر النعم » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة من حديث خارجة بن حذافة « أن الله أمدهم صلاة هي خير لكم من حر النعم » وصححه الديلمي وغيره . (٩) حديث أم هانيء « على الضحى ثمان ركعات أطالهن وأحسنهن » متفق عليه دون زيادة « أطالهن وأحسنهن » وهي مسكرة (١٠) حديث عائشة « كان يصلي الضحى أربعاً ويريد ما شاء الله » أخرجه مسلم (١١) حديث « كان يصلي الضحى ست ركعات » أخرجه الحاكم في معلى صلاة الضحى من حديث جابر ورحاله ثقات

صلى الله عليه وسلم كان يصلي الضحى ستاً في وقتين ، إذا أشرقت الشمس وارتفعت قام وصلى ركعتين - وهو أول الورد الثاني من أوراد النهار كما سيأتي - وإذا انبسطت الشمس وكانت في ربع السماء من جانب الشرق صلى أربعاً ^(١) ، فالأول إنما يكون إذا ارتفعت الشمس قيد نصف رمح والثاني إذا مضى من النهار ربه بإزاء صلاة العصر فإن وقته أن يبقى من النهار ربه ، والظهر على منتصف النهار ، ويكون الضحى على منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال ، كما أن العصر على منتصف ما بين الزوال إلى الغروب . وهذا أفضل الأوقات . ومن وقت ارتفاع الشمس إلى ما قبل الزوال وقت للضحى على الجملة . (الثامنة) إحياء ما بين العشاءين وهي سنة مؤكدة ومما نقل عدده من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بين العشاءين ست ركعات ^(٢) . ولهذه الصلاة فضل عظيم . وقيل إنها المراد بقوله عز وجل (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ، من صلى بين المغرب والعشاء فإنها من صلاة الأوابين ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من عكف نفسه فيما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو بقرآن كان حقاً على الله أن يبنى له قصرين في الجنة مسيرة كل قصر منهما مائة عام ويغرس له بينهما غراساً لوطاه أهل الأرض لوسعهم ^(٤) ، وسيأتي بقية فضائلها في كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى .

القسم الثاني ما يتكرر بتكرار الأسابيع

وهي صلاة أيام الأسبوع ولياليه لكل يوم ولكل ليلة

أما الأيام فنبدأ فيها بيوم الأحد . يوم الأحد : روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من صلى يوم الأحد أربع ركعات يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وآمن الرسول مرة كتب الله له بعدد كل نصرائي ونصرانية حسنة وأعطاه الله ثواب نبي وكتب له حجة وعمره وكتب له بكل ركعة ألف صلاة وأعطاه الله في الجنة بكل حرف مدينة من مسك أذفر ^(٥) » وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « وحدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد فإنه سبحانه واحد لا شريك له فمن صلى يوم الأحد بعد صلاة الظهر أربع ركعات بعد الفريضة والسنة يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وتزِيل السجدة ، وفي الثانية فاتحة الكتاب وتبارك الملك ثم تشهد وسلم ثم قام فصلى ركعتين أخريين يقرأ فيهما فاتحة الكتاب وسورة الجمعة وسأل الله سبحانه حاجته كان حقاً على الله أن يقضى حاجته ^(٦) » .

يوم الاثنين : روى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد والمعوذتين مرة فإذا سلم

(١) حديث « كان إذا أشرقت وارتفعت قام وصلى ركعتين وإذا انبسطت الشمس وكانت في ربع النهار من جانب المشرق صلى أربعاً » أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث علي كان نبي الله صلى الله عليه وسلم « إذا رأت الشمس من مظهرها قيد رمح أو رمحين كثر - در صلاة العصر من مظهرها صلى ركعتين ثم أمهل حتى إذا ارتفع الضحى صلى أربع ركعات » لعط النسائي وقال الترمذي حسن . (٢) حديث « صلى بين العشاءين ست ركعات » أخرجه ابن منده في الضحى والطبراني في الأوسط والأصغر من حديث عمار اس يامر بسند ضعيف والترمذي وسعه من حديث أبي هريرة « من صلى بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيها بينهم بسوء عدل له به زيادة نبي عشرة سن . » (٣) حديث « من صلى بين المغرب والعشاء فإنها من صلاة الأوابين » أخرجه ابن المبارك والرفاعي من رواية ابن المنذر مرسل . (٤) حديث « من عكف نفسه بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة » أخرجه أبو الوليد الصغار في - كتاب الصلاة - من طريق عبد الملك بن حبيب بإسناد له من حديث عبد الله بن عمر (٥) حديث « من صلى يوم الأحد أربع ركعات ... الحديث » أخرجه أبو موسى المديني من حديث أبي هريرة بسند صحيح (٦) حديث علي « وحدوا الله - كثر الصلاة يوم الأحد . الحديث » ذكره أبو موسى المديني فيه بغير إسناد

استغفر الله عشر مرات وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم عشر مرات غفر الله تعالى له ذنوبه كلها^(١) ، وروى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من صلى يوم الاثنين ثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة فإذا فرغ قرأ قل هو الله أحد اثنتي عشرة واستغفر اثنتي عشرة مرة ينادى به يوم القيامة : أين فلان بن فلان ليقيم فليأخذ ثوابه من الله عز وجل ؟ فأقول ما يعطى من الثواب ألف حلة ويتزوج ويقال له ادخل الجنة ويستقبله مائة ألف ملك مع كل ملك هدية يتسبعونه حتى يدور على ألف قصر من نور يتلألا^(٢) ، .

يوم الثلاثاء : روى يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال : قال صلى الله عليه وسلم : من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انتصاف النهار^(٣) ، وفي حديث آخر : عند ارتفاع النهار يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات لم تكتب عليه خطيئة إلى سبعين يوماً فإن مات إلى سبعين يوماً مات شهيداً وغفر له ذنوب سبعين سنة .

يوم الأربعاء : روى أبو إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى يوم الأربعاء ثنتي عشرة ركعة عند ارتفاع النهار يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات والمعوذتين ثلاث مرات نادى مناد عند العرش : يا عبد الله استأنف العمل فقد غفرك ما تقدم من ذنبك ورفع الله سبحانه عنك عذاب القبر وصيقه وظلمته ورفع عنك شدائد القيامة ، ورفع له من يومه عمل بي^(٤) .

يوم الخميس : عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وآية الكرسي مائة مرة وفي الثانية فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد مائة مرة ويصلي على محمد مائة مرة أعطاه الله ثواب من صام رجب وشعبان ورمضان وكان له من الثواب مثل حاج الميت وكتب له بعدد كل من آمن بالله سبحانه وتوكل عليه حسنة^(٥) .

يوم الجمعة ، روى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يوم الجمعة صلاة كله ما من عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس وارتفعت قدر رمح أو أكثر من ذلك فتوصاً ثم أسبغ الوضوء فصلى سبعة الضحى ركعتين إيماناً واحتساباً إلا كتب الله له مائتي حسنة ومحا عنه مائتي سيئة ومن صلى أربع ركعات رفع الله سبحانه له في الجنة أربع مائة درجة ومن صلى ثمان ركعات رفع الله تعالى له في الجنة ثمان مائة درجة وغفر له ذنوبه كلها ومن صلى ثنتي عشرة ركعة كتب الله له ألفين ومائتي حسنة ومحا عنه ألفين ومائتي سيئة ورفع له في الجنة ألفين ومائتي درجة^(٦) ، وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من دخل الجامع ومائتي درجة^(٦) .

(١) حديث جابر : من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين .. الحديث « أخرجه أبو موسى المديني من حديث جابر عن عمر مرفوعاً وهو حديث متكرر (٢) حديث أنس : من صلى يوم الاثنين اثنتي عشرة ركعة ... الحديث » ذكره أبو موسى المديني سيره وهو منكر . (٣) حديث يزيد الرقاشي عن أنس : من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انتصاف النهار .. الحديث « أخرجه أبو موسى المديني بسند صحيح ولم يقل « عند انتصاف النهار ولا عند ارتفاعه » (٤) حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ : من صلى يوم الأربعاء ثنتي عشرة ركعة ... الحديث « أخرجه أبو موسى المديني وقال رواه ثقات والحديث مركب . قلت : بل فيه غير مسمى وهو محمد بن حميد الرازي أحد السكذابين (٥) حديث عكرمة عن ابن عباس : من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين ... الحديث « أخرجه أبو موسى المديني بسند صحيح (٦) حديث علي : يوم الجمعة صلاة كله ما من عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس .. الحديث » لم أجده أسلاً وهو باطل

يوم الجمعة فصلى أربع ركعات قبل صلاة الجمعة يقرأ في كل ركعة الحمد لله وقل هو الله أحد خمسين مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له (١) .

يوم السبت : روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من صلى يوم السبت أربع ركعات يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات فإذا فرغ قرأ آية الكرسي كتب الله له بكل حرف حجة وعمرة ورفع له بكل حرف أجر سنة صيام نهارها وقيام ليلها وأعطاه الله عز وجل بكل حرف ثواب شهد وكان تحت ظل عرش الله مع النبيين والشهداء (٢) » .

وأما الليالي . ليلة الأحد : روى أنس بن مالك في ليلة الأحد أنه صلى الله عليه وسلم قال « من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد خمسين مرة والمعوذتين مرة مرة واستغفر الله عز وجل مائة مرة واستغفر لنفسه ولوالديه مائة مرة وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة وتبرأ من حوله ووقته والتجأ إلى الله ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن آدم صفة الله وفطرته وإبراهيم خليل الله وموسى كليم الله وعيسى روح الله ومحمدًا حبيب الله كان له من الثواب بعدد من دعا لله ولدا ومن لم يدع لله ولدا وبعثه الله عز وجل يوم القيامة مع الآمين وكان حقا على الله تعالى أن يدخله الجنة مع النبيين (٣) » .

ليلة الاثنين : روى الأعمش عن أنس قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات يقرأ في الركعة الأولى الحمد لله وقل هو الله أحد عشر مرات ، وفي الركعة الثانية الحمد لله وقل هو الله أحد عشرين مرة ، وفي الثالثة الحمد لله وقل هو الله أحد ثلاثين مرة ، وفي الرابعة الحمد لله وقل هو الله أحد أربعين مرة ثم يسلم ويقرأ قل هو الله أحد خمسا وسبعين مرة واستغفر الله لنفسه ولوالديه خمسا وسبعين مرة ثم سأل الله حاجته كان حقا على الله أن يعطيه سؤله ما سأل (٤) » وهي صلاة الحاجة .

ليلة الثلاثاء : من صلى ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمعوذتين خمس عشرة مرة ، ويقرأ بعد التسليم خمس عشرة مرة آية الكرسي واستغفر الله تعالى خمس عشرة مرة كان له ثواب عظيم وأجر جسيم . وروى عن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى ليلة الثلاثاء ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة ولما أنزلناه وقل هو الله أحد سبع موات أعتق الله رقبة من النار ويكون يوم القيامة قائده ودليله إلى الجنة (٥) » .

ليلة الأربعاء : روت فاطمة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى ليلة الأربعاء ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وقل أعوذ برب الفلق عشر مرات ، وفي الثانية بعد الفاتحة قل أعوذ برب الناس عشر مرات

(١) حديث نافع عن ابن عمر « من دخل الجامع يوم الجمعة فصل أربع ركعات . الحديث » أخرجه الدارلقطبي في غرائب ما لا وقال لا يصح وعند الله بن وصيف مجهول والخطيب في الرواة عن مالك وقال غريب جدا ولا أعرف له وجهها غير هذا

(٢) حديث أبي هريرة « من صلى يوم السبت أربع ركعات .. الحديث » أخرجه أبو موسى المديني في كتاب وظائف الليالي والأيام بمدد ضعيف جدا

(٣) حديث « من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة .. الحديث » ذكره أبو موسى المديني بنير لسان وهو منكر وروى أبو موسى من حديث أنس « في فضل الصلاة فيها ست ركعات وأربع ركعات » وكلاهما ضعيف جدا

(٤) حديث « الأعمش عن أنس « من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات .. الحديث » ذكره أبو موسى المديني هكذا عن الأعمش بغير إسناد من رواية يزيد الرقاشي عن أنس حديثا « في صلاة ست ركعات فيها » وهو منكر .

(٥) حديث « الصلاة في ليلة الثلاثاء ركعتين .. الحديث » ذكره أبو موسى أمير إسناد حسكاية عن بعض المصنفين وأسنده من حديث ابن مسعود وجابر حديثا « في صلاة أربع ركعات فيها » وكلها منكرة

ثم إذا سلم استغفر الله عشر مرات ثم يصلى على محمد صلى الله عليه وسلم عشر مرات نزل من كل سماء سبعون ألف ملك يكتبون ثوابه إلى يوم القيامة ^(١) ، وفي حديث آخر « ست عشرة ركعة يقرأ بعد الفاتحة ما شاء الله ويقرأ في آخر الركعتين آية الكرسي ثلاثين مرة وفي الأوليين ثلاثين مرة قل هو الله أحد يشفع في عشرة من أهل بيته كلهم وجبت عليهم النار ، وروت فاطمة رضي الله عنها أنها قالت « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الأربعاء ست ركعات قرأ في ركعة بعد الفاتحة قل اللهم مالك الملك إلى آخر الآية فإذا فرغ من صلاته يقول يقول جزى الله محمدًا عنا ما هو أهله غفر له ذنوب سبعين سنة وكتب له برائة من النار ^(٢) » .

ليلة الخميس : قال أبو هريرة رضي الله عنه « قال النبي صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي خمس مرات وقيل هو الله أحد خمس مرات والمعوذتين خمس مرات فإذا فرغ من صلاته استغفر الله تعالى خمس عشرة مرة وجعل ثوابه لوالديه فقد أدى حق والديه عليه وإن كان حاقا لهما وأعطاه الله تعالى ما يعطى الصديقين والشهداء ^(٣) » .

ليلة الجمعة : قال جابر « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقيل هو الله أحد إحدى عشرة مرة فكأنما عبد الله تعالى اثنتي عشرة سنة صيام نهارها وقيام ليلها ^(٤) » ، وقال أنس « قال النبي صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الجمعة صلاة العشاء الآخرة في جماعة وصلى ركعتي السنة ثم صلى بعدهما عشر ركعات قرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقيل هو الله أحد والمعوذتين مرة مرة ثم أوتر بثلاث ركعات ونام على جنبه الأيمن وجهه إلى القبلة فكأنما أحيا ليلة القدر ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أكثروا من الصلاة على في الليلة الغراء واليوم الأزهر ليلة الجمعة ويوم الجمعة ^(٦) » .

ليلة السبت : قال أنس « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة بنى له قصر في الجنة وكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة وتبرأ من اليهود وكان حقا على الله أن يغفر له ^(٧) » .

القسم الثالث ما يتكرر بتكرار السنين

وهي أربعة : صلاة العيدين والتراويح وصلاة رجب وشعبان (الأولى) صلاة العيدين : وهي سنة مؤكدة وشعار من شعار الدين وينبغي أن يراعى فيها سبعة أمور : الأول . التكبير ثلاثين مرة فيقول « الله أكبر الله أكبر الله أكبر

(١) حديث « من صلى ليلة الأربعاء ركعتين . الحديث » لم أجد فيه إلا حديث جابر « في صلاة أربع ركعات فيها » ورواه أبو موسى المديني وروى من حديث أنس « ثلاثين ركعة » (٢) حديث فاطمة « من صلى ست ركعات - أي ليلة الأربعاء ... الحديث » أخرجه أبو موسى المديني بسند ضعيف جدا (٣) حديث أبي هريرة « من صلى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين .. الحديث » أخرجه أبو موسى المديني وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف حداه هو منسك (٤) حديث جابر « من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة .. الحديث » باطل لا أصل له (٥) حديث أنس « من صلى ليلة الجمعة العشاء الآخرة في جماعة وصلى ركعتي السنة ثم صلى بعدها عشر ركعات .. الحديث » باطل لا أصل له وروى المظفر بن الحسين الأرجاني في كتاب فضائل القرآن وإبراهيم بن المظفر في كتاب وصول القرآن للبيت من حديث أنس « من صلى ركعتين ليلة الجمعة قرأ فيهما بفاتحة الكتاب وإذا زلزلت خمس عشرة مرة » وقال إبراهيم بن المظفر « حين مرة آمنه الله من عذاب القبر ومن أحوال يوم القيامة » ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من هذا الوجه ومن حديث ابن عباس أيضاً وكلها ضعيفة منسكرة وليس يصح في أيام الأسبوع وإليه شيء والله أعلم (٦) حديث « أكثروا على من الصلاة في الليلة الغراء واليوم الأزهر » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وفيه عبد المنعم بن بشير ضعيف ابن معين وابن حبان (٧) حديث أنس « من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة .. الحديث » لم أجد له أصلاً

الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً لا إله إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، يفتتح بالتكبير ليلة الفطر إلى الشروع في صلاة العيد ، وفي العيد الثاني يفتتح بالتكبير عقيب الصبح يوم عرفة إلى آخر النهار يوم الثالث عشر ، وهذا أكل الأفاويل . ويكبر عقيب الصلوات المفروضة وعقيب النوافل وهو عقيب الفرائض أكد : الثاني : إذا أصبح يوم العيد يغتسل ويتزين ويتطيب كما ذكرناه في الجمعة والرداء والعمامة هو الأفضل للرجال ، وليجنب الصبيان الحرير والعجائر التي عند الخروج . الثالث : أن يخرج من طريق ويرجع من طريق آخر ^(١) هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان صلى الله عليه وسلم يأمر بإخراج العواتق وذوات الخدور ^(٢) . الرابع : المستحب الخروج إلى الصحراء إلا بمكة وببيت المقدس ، فإن كان يوم مطر فلا بأس بالصلاة في المسجد ، ويجوز في يوم الصحو أن يأمر الإمام رجلاً يصلي بالضعفة في المسجد ويخرج بالأقوياء مكبرين . الخامس : يراعى الوقت فوق صلاة العيد ما بين طلوع الشمس إلى الزوال . ووقت الذبح للضحايا ما بين ارتفاع الشمس بقدر خطبتين وركعتين إلى آخر اليوم الثالث عشر ويستحب تعجيل صلاة الأضحية لأجل الذبح وتأخير صلاة الفطر لأجل تفريق صدقة الفطر قبلها . هذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) . السادس : في كيفية الصلاة فيخرج الناس مكبرين في الطريق . وإذا بلغ الإمام المصلي لم يجلس ولم يتنفل ويقطع الناس التنفل . ثم ينادى مناد : الصلاة جامعة . ويصلي الإمام بهم ركعتين يكبر في الأولى سوى تكبيرة الإحرام والركوع سبع تكبيرات يقول بين كل تكبيرتين « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ويقول « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض » عقيب تكبيرة الافتتاح ويؤحر الاستعاذة إلى ما وراء الثامنة ويقرأ سورة ق ، في الأولى بعد الفاتحة « واقتربت » في الثانية . والتكبيرات الزائدة في الثانية خمس سوى تكبيرة القيام والركوع . وبين كل تكبيرتين ما ذكرناه . ثم يخطب خطبتين بينهما جلسة ومن فاتته صلاة العيد قضائها ، السابع : أن يضحي بكبش « ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين وذبح بيده وقال « بسم الله والله أكبر هذا عني وعن من لم يضح من أمتي ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم : « من رأى هلال ذي الحجة وأراد أن يضحي فلا يأخذ من شعره ولا من أظفاره شيئاً ^(٥) » قال أبو أيوب الأنصاري : كان الرجل يضحي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة عن أهل بيته يأكلون ويطعمون ^(٦) . وله أن يأكل من الضحية بعد ثلاثة أيام فما هو ، وردت فيه الرخصة بعد الهوى عنه وقال سفيان الثوري : يستحب أن يصلي بعد عيد الفطر اثنتي عشرة ركعة وبعد عيد الأضحية ست ركعات ^(٧) وقال هو من السنة (الثانية) التراويح : وهي عشرون ركعة

(١) حديث « الخروج في طريق والرجوع في أخرى » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث « كان يأمر بإخراج العواتق وذوات الخدور » متفق عليه من حديث أم عطية

(٣) حديث « تعجيل صلاة الأضحية وتأخير صلاة الفطر » أخرجه الشافعي من رواية أبي الخويرث مرسل أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى عمرو بن حرم وهو بسجرات أن يحل الأضحية وأحر الفطر

(٤) حديث « ضحى بكبشين أملحين وذبح بيده وقال . بسم الله والله أكبر هذا عني وعن من لم يضح من أمتي » متفق عليه دون قوله « عني » الخ من حديث أس وهدم الزيادة عند أبي داود والترمذي من حديث حار وقال الترمذي عريب ومنقطع .

(٥) حديث « من رأى هلال ذي الحجة وأراد أن يضحي فلا يأخذ من شعره وأظفاره » أخرجه من حديث أم سلمة .

(٦) حديث أبي أيوب « كان الرجل يضحي على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشاة عن أهل بيته يأكلون ويطعمون » أخرجه الترمذي وابن ماجه قال الترمذي حسن صحيح (٧) قال سفيان الثوري : من السنة أن يصلي بعد عيد الأضحية عشرة ركعات وبعد الأضحية ست ركعات . لم أجده أصلاً في كونه سنة وفي الحديث الصحيح ما يخالفه وهو أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل قبلها ولا بعدها وقد اختلفوا في قول النابغى : من السنة كذا ، وأما قول تابعي التابع كذا كالثوري فهو مقطوع .

وكيفيتها مشهورة وهي سنة مؤكدة وإن كانت دون العيدين واختلوا في أن الجماعة فيها أفضل أم الانفراد ؟ وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ليلتين أو ثلاثاً للجماعة ثم لم يخرج وقال : أخاف أن توجب عليكم ^(١) ، وجمع عمر رضي الله عنه الناس عليها في الجماعة حيث أم من الوجوب بانقطاع الوحي ؛ فقيل إن الجماعة أفضل لفعل عمر رضي الله عنه ولأن الاجتماع بركة وله فضيلة بدليل الفرائض ولأنه ربما يكسل في الانفراد ويذشط عند مشاهدة الجمع . وقيل الانفراد أفضل لأن هذه سنة ليست من الشعائر كالعيدين فالحاقها بصلاة الضحى ونحية المسجد أولى ولم تشرع فيها جماعة . وقد جرت العادة بأن يدخل المسجد جمع معاً ثم لم يصلوا التحية بالجماعة ولقوله صلى الله عليه وسلم : فضل صلاة التطوع في بيته على صلاته في المسجد كفضل صلاة المكتوبة في المسجد على صلاته في البيت ^(٢) ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال « صلاة في مسجدي هذا أفضل من مائة صلاة في غيره من المساجد وصلاة في المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة في مسجدي ، وأفضل من ذلك كله رجل يصلي في زاوية بيته ركعتين لا يعلمها إلا الله عز وجل ^(٣) » ، وهذا لأن الرياء والتصنع ربما يتطرق إليه في الجمع ويأمن منه في الوحدة فهذا ما قيل فيه . والمختار أن الجماعة أفضل كما رآه عمر رضي الله عنه . فإن بعض التوافل قد شرعت فيها الجماعة وهذا جدير بأن يكون من الشعائر التي تطهر . وأما الالتفات إلى الرياء في الجمع والكسل في الانفراد عدول عن مقصود النظر في فضلة الجمع من حيث إنه جماعة ، وكأن قائله يقول : الصلاة خير من تركها بالكسل والإخلاص خير من الرياء . فلنفرض المسألة فيمن يثق بنفسه أنه لا يكسل لو انفرد ولا يرأى لو حضر الجمع فأيهما أفضل له ؟ فيدور النظر بين بركة الجمع وبين مزيد قوة الإخلاص وحضور القلب في الوحدة ، فيجوز أن يكون في تفضيل أحدهما على الآخر تردد ومما يستحب القنوت في الوتر في النصف الأخير من رمضان . أما صلاة رجب : فقد روى بإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من أحد يصوم أول خميس من رجب ثم يصلي فيما بين العشاء والعتمة اثنتي عشرة ركعة يفصل بين كل ركعتين بتسليمة يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة ولما أنزلناه في ليلة القدر ثلاث مرات وقل هو الله أحد اثنتي عشرة مرة ، فإذا فرغ من صلاته صلى على سبعين مرة يقول : اللهم صل على محمد النبي الأمي وعلى آله ثم يسجد ويقول في سجوده سبعين مرة : سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، ثم يرفع رأسه ويقول سبعين مرة : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم ، ثم يسجد بسجدة أخرى ويقول فيها مثل ما قال في السجدة الأولى ثم يسأل حاجته في سجوده فإيها تقضى ^(٤) » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يصلي أحد هذه الصلاة إلا غفر

(١) حديث « ح وحده لقيام رمضان ليلتين أو ثلاثاً ثم لم يخرج وقال أحاف أن يوجب عليكم » متفق عليه من حديث عائشة بلهط « حشيت أن تعرض عليكم » (٢) حديث « فضل صلاة التطوع في بيته على صلاته في المسجد كفضل صلاة المكتوبة في المسجد على صلاته في البيت » رواه آدم بن أبي إياس في كتاب القنوت من حديث ضمرة بن حبيب مرسل ورواه ابن أبي شيبة في المصنف فعله عن سمرة بن حبيب عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم موقوفاً . وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح من حديث زيد بن ثابت صلاة المرأة في بيته أوصل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة

(٣) حديث « صلاة في مسجدي هذا أفضل من مائة صلاة في غيره وصلاة في المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة في مسجدي وأفضل من هذا كله رجل يصلي ركعتين في زاوية لا يعلمها إلا الله » أخرجه أبو الشيخ في الثواب من حديث أنس « صلاة في مسجدي تعدل عشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة والصلاة بأرض الرباط تعدل بألف صلاة وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما المدي في جوف الليل لا يريد بهما إلا وحده الله عز وجل » وإسناده ضعيف وذكر أبو الوليد الصغاني في كتاب الصلاة تعليقا من حديث الأوراعي قال : دخلت على محبي فأُسند لي حديثاً فذكره ، إلا أنه قال في الأولى « ألف » وفي الثانية « مائة » (٤) حديث « ما من أحد يصوم أول خميس من رجب ... الحديث » في صلاة الرغائب أورده رزين في كتابه وهو حديث موصوع

الله تعالى له جميع ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وعدد الرمل ووزن الجبال وورق الأشجار ويشفع يوم القيامة في سبعمئة من أهل بيته عن قد استوجب النار ، فهذه صلاة مستحبة ، وإنما أوردناها في هذا القسم لأنها تتكرر بتكرار السنين وإن كانت رتبته لا تبلغ رتبة التراويح وصلاة العيد لأن هذه الصلاة نقلها الآحاد ، ولكي رأيت أهل القدس بأجمعهم يواظبون عليها ولا يسمحون بتركها فأحببت إيرادها . وأما صلاة شعبان : ليلة الخامس عشر منه يصلي مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ، وإن شاء صلى عشر ركعات يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة مائة مرة قل هو الله أحد ، فهذا أيضا مروي في جملة الصلوات كان السلف يصلون هذه الصلاة ويسمونها صلاة الخير ويجتمعون فيها وربما صلوها جماعة . روى عن الحسن أنه قال : حدثني ثلاثون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن من صلى هذه الصلاة في هذه الليلة نظر الله إليه سبعين نظرة وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها المغفرة^(١)

القسم الرابع من النوافل : ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالمواعيت وهي تسعة

صلاة الخسوف والكسوف والاستسقاء وتحية المسجد وركعتي الرضوء وركعتين بين الاذان والإقامة وركعتين عند الخروج من المنزل والدخول فيه . ونظائر ذلك فذكر منها ما يحضرنا الآن ﴿ الأولى ﴾ صلاة الخسوف : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يحسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة^(٢) » ، قال ذلك لما مات ولده إبراهيم صلى الله عليه وسلم وكسفت الشمس فقال الناس : إنما كسفت لموته . والنظر في كيفية وقوعها ، أما الكيفية : فإذا كسفت الشمس في وقت الصلاة فيه مكروهة أو غير مكروهة نودى « الصلاة جامعة » ، وصلى الإمام بالناس في المسجد ركعتين وركع في كل ركعة ركوعين أو اثلهما أطول من أواخرهما . ولا يجهر فيقرأ في الأولى من قيام الركعة الأولى الفاتحة والبقرة ؛ وفي الثانية الفاتحة وآل عمران ، وفي الثالثة الفاتحة وسورة النساء ، وفي الرابعة الفاتحة وسورة المائدة ، أو مقدار ذلك من القرآن من حيث أراد ، ولو اقتصر على الفاتحة في كل قيام أجزاء ولو اقتصر على سور قصار فلا بأس . ومقصود التطويل دوام الصلاة إلى الانجلاء . ويسبح في الركوع الأول قدر مائة آية ، وفي الثاني قدر ثمانين ، وفي الثالث قدر سبعين ، وفي الرابع قدر خمسين . وليكن السجود على قدر الركوع في كل ركعة . ثم يخطب خطبتين بعد الصلاة بينهما جلسة ويأمر الناس بالصدقة والعتق والتوبة . وكذلك يفعل بخسوف القمر إلا أنه يجهر فيها لأنها ليلية . فأما وقتها فعند ابتداء الكسوف إلى تمام الانجلاء ويخرج وقتها بأن تغرب الشمس كاسفة . وتفوت صلاة خسوف القمر بأن يطلع قرص الشمس إذ يبطل سلطان الليل ولا تفوت بغروب الزمر خاسفا لأن الليل كله سلطان القمر ، فان انجلى في أثناء الصلاة أتمها مخففة . ومن أدرك الركوع الثاني مع الإمام فقد فاتته تلك الركعة لأن الأصل هو الركوع الأول ﴿ الثانية ﴾ صلاة الاستسقاء : فإذا غارت الأنهار وانقطعت الأمطار أو إنهارت قناة فيستحب للإمام أن يأمر الناس أولا بصيام ثلاثة أيام وما أطافوا من الصدقة والخروج من المظالم والتوبة من المعاصي ، ثم يخرج بهم في اليوم الرابع وبالعجائر والصبيان منتظمين في ثياب بذلة واستكانة متواضعين - بخلاف العيد - وقيل يستحب

(١) حديث « صلاة ليلة نصف شعبان » حديث باطل رواه ابن ماجه من حديث علي « لما كانت ليلة النصف من شعبان ففروا لي بها وصوموا نهارها » وأسناده ضعيف (٢) حديث « من الشمس والقمر آيتان من آيات الله .. الحديث » أخرجه من حديث المنيرة بن شعبة

إخراج الدواب لمشاركتها في الحاجة ولقوله صلى الله عليه وسلم « لولا صبيان رضع ومشايخ ركع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا »^(١) ، ولو خرج أهل الذمة أيضا متميزين لم يمنعوا فإذا اجتمعوا في المصلي الواصل من الصحراء نودي « الصلاة جامعة » فصلى بهم الامام ركعتين مثل صلاة العيد - بغير تكبير - ثم يخطب خطبتين وبينهما حلقة خفيفة ، وليكن الاستغفار معظم الخطبتين ، وينبغي في وسط الخطبة الثانية ، أن يستدبر الناس ويستقبل القبلة ويحول رداءه في هذه الساعة تفاولا بتحويل الحال^(٢) . هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجعل أعلاه أسفله وما على اليمين على الشمال وما على الشمال على اليمين . وكذلك يفعل الناس ويدعون في هذه الساعة سراً ، ثم يستقبلهم هيختم الخطبة ويدعون أرديتهم محولة كما هي حتى يزعوها متى نزعوا الشيا . ويقول في الدعاء : اللهم إنك أمرتنا بدعائك ووعدتنا لإجابتك فقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا اللهم فامنن علينا بمغفرة ما قارفنا وإحابتك في سقيانا وسعة أرزاقنا . ولا بأس بالدعاء أدبار الصلوات في الأيام الثلاثة قبل الخروج ولهذا الدعاء آداب وشروط باطنة من التوبة ورد المظالم وغيرها ، وسيأتي ذلك في كتاب الدعوات (الثالثة) صلاة الخنازير : وكيفيتها مشهورة وأجمع دعاء مأثور ماروى في الصحيح عن عوف بن مالك قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على حنزة لحفظت من دعائه : اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار »^(٣) ، حتى قال عوف : تمتيت أن أكون أنا ذلك الميت . ومن أدرك التكبيرة الثانية فينبغي أن يراعى ترتيب الصلاة في نفسه ويكبر مع تكبيرات الإمام فإذا سلم الإمام قضى تكبيره الذي فات كفعل المسبوق ، وإنه لو بادر التكبيرات لم تبقى للقدوة في هذه الصلاة معنى ، فالتكبيرات هي الأركان الظاهرة ، وجدير بأن تقام مقام الركعات في سائر الصلوات ، هذا هو الأوجه عندي وإن كان غيره محتملاً . والأخبار الواردة في فضل صلاة الجنائز وتشجيعها مشهورة فلا نطيل بإيرادها ، وكيف لا يعظم فضلها وهي من فرائض الكفايات ؟ وإنما تصير نفلاً في حق من لم تتعين عليه بحضور غيره ، ثم يال بها فضل فرض الكفاية وإن لم يتعين لأنهم بمجملتهم قاموا بما هو فرض الكفاية وأسقطوا الحرج عن غيرهم ، فلا يكون ذلك كفعل لا يسقط به حرص عن أحد ، ويستحب طلب كثرة الجمع تبركاً بكثرة المهمل والأدعية واشتغالها على ذى دعوة مستجابة لما روى كريب عن ابن عباس : أنه مات له ابن فقال : يا كريب أنظر ما اجتمع له من الناس قال : فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته فقال : تقول هم أربعون قلت : نعم ، قال : أخرجوه فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفّعهم الله عز وجل فيه »^(٤) ، وإذا شيع الجنائز فوصل المقابر أو دخلها ابتداء قال : السلام عليكم أهل هذه الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . والأولى أن لا ينصرف حتى يدفن الميت فإذا سقى على الميت قبره قام عليه وقال : اللهم عبدك رد اليك فأرف به وارحمه اللهم جاف الأرض عن جنبه وافتح أبواب السماء لروحه وتقبله منك بقول حس اللهم

(١) حديث « لولا صبيان رضع ومشايخ ركع .. الحديث » أخرجه البيهقي وضعفه من حديث أبي هريرة (٢) حديث « استدبر الناس واستقبل القبلة وتحول الرداء بالاستسقاء » أخرجه من حديث عبد الله بن زيد المازني (٣) حديث عوف بن مالك في الصلاة على الجنائز « اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه .. الحديث » أخرجه مسلم دون الدعاء للمصلي (٤) حديث ابن عباس « ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون .. الحديث » أخرجه مسلم

إن كان محسناً فضايف له في إحسانه وإن كان مسيئاً فمتجاوز عنه (الرابعة) تحية المسجد : ركعتان فصاعداً سنة مؤكدة حتى أنها لا تسقط وإن كان الإمام يخطب يوم الجمعة مع تؤكد وجوب الإصغاء إلى الخطيب . وإن اشتغل بفرص أو قضاء بأدى به التحية وحصل الفضل إذ المقصود أن لا يحلوا ابتداء دخوله عن العبادة الخاصة بالمسجد قياماً بحق المسجد . ولهذا يكره أن يدخل المسجد على غير وضوء فإن دخل لعبور أو جلوس فليقل : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، يقولها أربع مرات يقال إنها عدل ركعتين في الفضل . ومذهب الشافعي رحمه الله أنه لا تكرر التحية في أوقات الكراهية : وهي بعد العصر وبعد الصبح ووقت الزوال ووقت الطلوع والغروب ، لما روى : أنه صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين بعد العصر فقليل له أما نهيتنا عن هذا ؟ فقال : هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر فتشغلني عنهما الوعد ^(١) ، فأفاد هذا الحديث فائدتين إحداهما : أن الكراهية مقصورة على صلاة لاسبب لها ومن أضعف الأسباب قضاء النوافل إذ اختلف العلماء في أن النوافل هل تقضى وإذا فعل مثل ما هاته هل يكون قضاء ؟ وإذا انتفت الكراهية بأضعف الأسباب فبأحرى أن تنتفي بدخول المسجد وهو سبب قوي . ولذلك لا تكرر صلاة الجنائز إذ حضرت ولا صلاة الخسوف والاستسقاء في هذه الأوقات لأن لها أسباباً . الفائدة الثانية : قضاء النوافل إذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ولنا فيه أسوة حسنة . وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة صلى من أول النهار اثنتي عشرة ركعة ^(٢) ، وقد قال العلماء : من كان في الصلاة ففاته جواب المؤذن فإذا سلم قضى وأجاب وإن كان المؤذن سكت ، ولا معنى الآن لقول من يقول : إن ذلك مثل الأول وليس يقضى ، إذ لو كان كذلك لما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقت الكراهة . نعم من كان له ورد فعاقه عن ذلك عذر فينبغي أن لا يخصص لنفسه في تركه بل يتداركه في وقت آخر حتى لا تميل نفسه إلى الدعة والرفاهية . وتداركه حسن على سبيل مجاهدة النفس ولأنه صلى الله عليه وسلم قال : أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل ^(٣) ، فيقصد به أن لا يفتر في دوام عمله وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من عبد الله عز وجل بعبادة ثم تركها ملالة مقتته الله عز وجل ^(٤) ، فليحذر أن يدخل تحت الوعيد . وتحقيق هذا الخبر . أنه مقتته الله تعالى بتركها ملالة فلولا المقت والإبعاد لما سلطت الملالة عليه (الخامسة) ركعتان بعد الوضوء مستحبتان لأن الوضوء قربة ومقصودها الصلاة والأحداث عارضة فربما يطرأ الحدث قبل صلاة فينتقض الوضوء ويضيع السعي فالمبادرة إلى ركعتين استيفاء لمقصود الوضوء قبل الفوات . وعرف ذلك بحديث بلال إذ قال صلى الله عليه وسلم : دخلت الجنة فرأيت بلالاً فيها فقلت لبلال : بم سبقتني إلى الجنة ؟ فقال بلال لا أعرف شيئاً إلا أني لا أحدث وضوءاً إلا أصلي عقيب ركعتين ^(٥) ، (السادسة) ركعتان عند دخول المنزل وعند الخروج منه : روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خرجت من منزلك فصل ركعتين يمنعانك من الخروج السوء وإذا دخلت إلى منزلك فصل ركعتين

(١) حديث « صلى ركعتين بعد العصر قيل له أما نهيتنا عن هذا فقال هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر ... الحديث »

أخرجاه من حديث أم سلمة وأسلم من حديث عائشة « كان يصلي ركعتين قبل العصر ثم انه سئل عنهما .. الحديث »

(٢) حديث عائشة « كان إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة .. الحديث » أخرجه مسلم (٣) حديث « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » أخرجاه من حديث عائشة (٤) حديث عائشة « من عبد الله عبادة ثم تركها ملالة مقتته الله » ورواه

ابن السني في رياضة المتعبدين موقوفاً على عائشة (٤) حديث « دخلت الجنة ورأيت بلالاً فيها فقلت يا بلال : بم سبقتني إلى الجنة . الحديث » أخرجاه من حديث أبي هريرة

يمنعنا ذلك مدخل السوء^(١) ، وفي معنى هذا كل أمر يبدأ به مما له وقع ، ولذلك ورد ركعتان عند الإحرام^(٢) وركعتان عند ابتداء السفر^(٣) وركعتان عند الرجوع من السفر^(٤) في المسجد قبل دخول البيت فكل ذلك مأثور من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان بعض الصالحين إذا أكل أكلة صلى ركعتين وإذا شرب شربة صلى ركعتين ، وكذلك في كل أمر يحدثه . وبداية الأمور ينبغي أن يتبرك فيها بذكر الله عز وجل وهي على ثلاث مراتب : بعضها يتكرر مراراً كالأكل والشرب فيبدأ فيه باسم الله عز وجل وقال صلى الله عليه وسلم : كل أمر ذي مال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أبطر^(٥) ، الثانية : ما لا يكثر تكرره وله وقع كعقد النكاح وابتداء النصيحة والمشورة فالمستحب فيها أن يصدر بحمد الله فيقول المزوج : الحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجتك ابنتي ، ويقول القابل : الحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلت النكاح ، وكانت عادة الصحابة رضي الله عنهم في ابتداء أداء الرسالة والنصيحة والمشورة تقديم التحميد . الثالثة : ما لا يتكرر كثيراً وإذا وقع دام وكان له وقع كالسفر وشراء دار جديدة والاحرام وما يجري مجراه فيستحب تقديم ركعتين عليه وأداء الخروج من المنزل والدخول إليه فإنه نوع سفر قريب (السابعة) صلاة الاستخارة : فمن هم بأمر وكان لا يدري عاقبته ولا يعرف أن الخير في تركه أو في الإقدام عليه فقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم : بأن يصلي ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وقل يا أيها الكافرون ، وفي الثانية الفاتحة وقل هو الله أحد ، فإذا فرغ دعا وقال اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فاقدري لي وباركي لي فيه ثم يسره لي وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فاصرفني عنه واصرفه عني واقدر لي الخير أينما كان إنك على كل شيء قدير^(٦) ، رواه جابر بن عبد الله قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن » وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا هم أحدكم بأمر فليصل ركعتين ثم ليسم الأمر ويدعو بما ذكرناه ، وقال بعض الحكماء من أعطى أربعاً لم يمنع أربعاً ، من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب (الثامنة) صلاة الحاجة^(٧) فمن ضاق عليه الأمر ومستحاجة في صلاح دينه ودنياه إلى أمر تعذر عليه فليصل هذه الصلاة فقد روى عن وهيب بن الورد أنه قال : إن من الدعاء الذي لا يردان يصلي العبد ثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة

(١) حديث أبي هريرة : « إذا خرجت من منزلك فصل ركعتين يمنعاك مخرج السوء وإذا دخلت منزلك . . الحديث » أخرجه البيهقي في الشعب من رواية بسكر بن عمرو عن صفوان بن سليم ، قال : « كره حجتة عن أبي سلمة عن أبي هريرة ذكره : وروى الحرائطي في مكارم الأخلاق وابن عدي في الكامل من حديث أبي هريرة » « إذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين فإن الله جاعل له من ركعتيه خيراً » قال ابن عدي . وهو بهذا الإسناد منكر وقال البخاري لأصله (٢) حديث « ركعتي الإحرام » أخرجه البخاري من حديث ابن عمر (٣) حديث « صلاة ركعتين عند ابتداء السفر » أخرجه الحرائطي و مكارم الأخلاق من حديث أنس « ما استخلف في أهل من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات يصلين العبد في بيته إذا شد عليه نيات سمره . . الحديث » وهو ضعيف (٤) حديث « الركعتين عند القدوم من السفر » أخرجه من حديث كعب بن مالك (٥) حديث « كل أمر ذي مال لا يبدأ فيه بسم الله فهو أبطر » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة (٦) حديث « صلاة الاستخارة » أخرجه البخاري من حديث جابر قال أحمد حديث منكر (٦) حديث ابن مسعود « في صلاة الحاجة اثنتي عشرة ركعة » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بأسانيد ضعيفين جداً فيهما عمرو بن هارون البصري كسبه ابن معين وفيه علة أخرى وقد وردت « صلاة الحاجة ركعتين » رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عبد الله بن أبي أوفى وقال الترمذي حديث غريب وفي مسنده مقال

بأم الكتاب وآية الكرسي وقل هو الله أحد فإذا فرغ ختر ساجدا ثم قال « سبحان الذي ليس العز وقال به سبحان الذي تعطف بالمجد وتكرم به سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له سبحان ذي المن والفضل سبحان ذي العز والكرم سبحان ذي الطول أسألك بمعاقدة العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم وحدك الأعلى وكتبائك النامات العامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر أن تصلي على محمد وعلى آل محمد ، ثم سأل حاجته التي لا معصية فيها فيجاب إن شاء الله عز وجل . قال وهيب : بلغنا أنه كان يقال : لا تعلموها لسفهاكم فتعاونون بها على معصية الله عز وجل (التاسعة) صلاة التسبيح : وهذه الصلاة مأتورة على وجهها ولا تختص بوقت ولا بسبب ويستحب أن لا يحلو الأسبوع عنها مرة واحدة أو الشهر مرة . فقد روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه صلى الله عليه وسلم قال للعباس بن عبد المطلب : ألا أعطيك ألا أمنحك ألا أحبوك بشيء إذا أنت فعلته غفر الله لك ذنبك أوله وآخره قديمه وحديثه خطؤه وعمده سره وعلايته تصلي أربع ركعات تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة ، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة وأنت قائم تقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . خمس عشرة مرة ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشر مرات ، ثم ترفع من الركوع فتقولها قائما عشرا ، ثم تسجد فتقولها عشرا ، ثم ترفع من السجود فتقولها حالسا عشرا ، ثم تسجد فتقولها وأنت ساجد عشرا ، ثم ترفع من السجود فتقولها عشرا ، هذلك خمس وسبعون في كل ركعة تفعل ذلك في أربع ركعات إن استطعت أن تصلها في كل يوم مرة فافعل فإن لم تفعل في كل جمعة مرة فإن لم تفعل في كل شهر مرة فإن لم تفعل في السنة مرة ^(١) ، وفي رواية أخرى « أنه يقول في أول الصلاة سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وقدّست أسماءك ولا إله غيرك ، ثم يسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة وعشرا بعد القراءة والباقي كما سبق عشرا وعشرا ولا يسبح بعد السجود الأخير قاعدا ، وهذا هو الأحسن وهو اختيار ابن المبارك . والمجموع من الروايتين ثلاثمائة تسبيحة فإن صلاها نهارا فبنسليمة واحدة وإن صلاها ليلا فبتسليمتين أحسن ؛ إذ ورد . أن صلاة الليل مثنى مثنى ^(٢) ، وإن زاد بعد التسبيح قوله ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فهو حسن فقد ورد ذلك في بعض الروايات وهذه الصلوات المأتورة . ولا يستحب شيء من هذه النوافل في الأوقات المكروهة إلا تحية المسجد « وما أوردناه بعد التحية من ركعتي الوضوء وصلاة السفر والخروج من المنزل والاستخار فلا لأن الهى مؤكدا وهذه الأسباب ضعيفة فلا تبلغ درجته الخسوف والاستسقاء والتحية . وقد رأيت بعض المنصوفة يصل في الأوقات المكروهة ركعتي الوضوء وهو في غاية البعد لأن الوضوء لا يكون سببا للصلاة بل الصلاة سبب الوضوء . فينبغي أن يتوضأ ليصل لأنه يصل لأنه توضأ . وكل محدث يريد أن يصل في وقت الكراهية فلا سبيل له إلا أن يتوضأ ويصل فلا يبقى للكراهية معنى . ولا ينبغي أن ينوي ركعتي الوضوء كما ينوي ركعتي التحية بل إذا توضأ صلى ركعتين تطوعا كيلا يتعطل وضوءه كما كان يفعل بلال فهو تطوع محض يقع عقيب الوضوء . وحديث بلال لم يدل على أن الوضوء سبب كالخسوف والتحية حتى ينوي ركعتي الوضوء فيستحيل أن ينوي بالصلاة الوضوء بل ينبغي أن ينوي بالوضوء الصلاة . وكيف يلتزم أن يقول في وضوئه أتوضأ لصلاحي وفي صلاته يقول أصلي لوضوئي ، بل من أراد أن يحرس وضوءه عن التعطيل في وقت الكراهية فلينبذ قضاءه إن كان يجوز أن يكون في ذمته صلاة تطرق إليها خلل لسبب من الأسباب فإن قضاء الصلوات في أوقات الكراهية غير مكروه « فأمانية التطوع فلا وجه لها . ففي النهي في أوقات الكراهية مهام ثلاثة

(١) حديث « صلاة التسبيح » تقدم (٢) حديث « صلاة الليل مثنى مثنى » أخرجه من حديث ابن عمر

أحدها التوقى من مضاهاة عبدة الشمس ، والثاني : الاحتراز من انتشار الشياطين إذ قال صلى الله عليه وسلم « إن الشمس لتطلع ومعها قرن الشيطان فإذا طلعت قارنها وإذا ارتفعت فارقتها فإن استوت قارنها فإذا زالت فارقتها فإذا تضيفت للغروب قارنها فإذا غربت فارقتها » ونهى عن الصلوات في هذه الأوقات ونبه به على العلة ، والثالث : أن سالكى طريق الآخرة لا يزالون يواظبون على الصلوات في جميع الأوقات . والمواظبة على نمط واحد من العبادات يورث الملل . ومهما منع منها ساعة زاد النشاط وانبعثت الدواعى ، والإنسان حريص على ما منع منه ففي تعطيل هذه الأوقات زيادة تحريض وبعث على انتظار انقضاء الوقت ، نقصت هذه الأوقات بالتسييح والاستغفار حذرا من الملل بالمداومة وتفرجا بالانتقال من نوع عبادة إلى نوع آخر . ففي الاستطراف والاستجداد لذة ونشاط وفى الاستمرار على شيء واحد استئقال وملال . ولذلك لم تكن الصلاة بمجردا ولا ركوعا بمجردا ولا قياما بمجردا بل رتبت العبادات من أعمال مختلفة وأذكار متباعدة ، فإن القلب يدرك من كل عمل منهما لذة جديدة عند الانتقال إليها ولو واطب على الشيء الواحد لتسارع إليه الملل . فإذا كانت هذه أمور مهمة في النهى عن ارتكاب أوقات الكراهة إلى غير ذلك من أسرار أخر ليس في قوة البشر الاطلاع عليها والله ورسوله أعلم بها . فهذه المهمات لا تترك إلا بأسباب مهمة في الشرع مثل قضاء الصلوات وصلاة الاستسقاء والخسوف وتحية المسجد . فأما ما ضحف عنها فلا ينبغي أن يصادم به مقصود النهى . هذا هو الأوجه عندنا والله أعلم .

كامل كتاب : أسرار الصلاة من كتاب إحياء علوم الدين يتلوه إن شاء الله كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه . والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

كتاب أسرار الزكاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أسعد وأشقى وأمات وأحيا وأضحك وأبكى وأوجد وأفنى وأفقر وأغنى وأضر وأقنى الذى خلق الحيوان من نطفة تبنى ، ثم تفرد عن الخلق بوصف الغنى ، ثم خصص بعض عبادته بالحسنى فأفاض عليهم من نعمة ما ليس به من شاء واستغنى وأحوج إليه من أخفق في رزقه وأكدى إظهار الامتحان والابتلاء . ثم جعل الزكاة للدين أساسا ومنى وبين أن بفضلته تزكى من عباده من تزكى ومن غناه زكى ماله من زكى والصلاة على محمد المصطفى سيد الورى وشمس الهدى وعلى آله وأصحابه المخصوصين بالعلم والتقى .

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الزكاة إحدى مبادئ الإسلام وأردف بذكرها الصلاة التى هى أعلى الأعلام فقال تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وقال صلى الله عليه وسلم « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ^(١) » وشدد الوعيد على المقصرين فيها فقال (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) ومعنى الإنفاق في سبيل الله لإخراج حق الزكاة قال

(١) حديث « إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا طلعت قارنها ... الحديث » أخرجه السائى من حديث عبد الله المناجمى وهو مرسل ومالك هو الذى يقول عبد الله الصائغى وروى فيه والصواب عبد الرحمن ولم ير النى صلى الله عليه وسلم

كتاب أسرار الزكاة

(٢) حديث « بنى الإسلام على خمس » أخرجه من حديث ابن عمر

الأخف بن قيس : كنت في نفر من قريش فرأى أبو ذر فقال بشركائز بني في ظهورهم يخرج من جنوبهم وبني في أفئدتهم يخرج من جباههم . وفي رواية أنه يوضع على حلة ثدي أحدهم فيخرج من نفض كتفيه ويوضع على نفض كتفيه حتى يخرج من حله ثديه يترلزل . وقال أبو ذر : انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رأيته قال : هم الأخسرون ورب الكعبة فقلت ومن هم : قال : الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم ، ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفدت أخرها عادت عليه أولاهها حتى يقضى بين الناس ^(١) ، وإذا كان هذا التشديد مخزجا في الصحيحين فقد صار من مهمات الدين الكشف عن أسرار الزكاة وشروطها الجلية والخصبة ومعانيها الطاهرة والباطنة مع الاختصار على ما لا يستغنى عن معرفته مؤدى الزكاة وقائضها وينكشف ذلك في أربعة فصول (الفصل الأول) في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها (الثاني) آدابها وشروطها الباطنة والطاهرة (الثالث) في القائض وشروط استحقاقه وآداب قبضه (الرابع) في صدقة التطوع وفضلها

الفصل الأول : في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها والزكوات باعتبار متعلقاتها ستة أنواع :
زكاة النعم والتقدين والتجارة وزكاة الركا والمعادن وزكاة المعشرات وزكاة العطر

النوع الأول : زكاة النعم

ولا تجب هذه الزكاة وغيرها إلا على حر مسلم . ولا يشترط البلوغ بل تجب في مال الصبي والمجنون هذا شرط من عليه . وأما المال فشروطه خمسة : أن يكون له سائمة باقية حولان نصبا كاملا مملوكا على الكمال (الشرط الأول) كونه نعم فلا زكاة إلا في الإبل والبقر والغنم . أما الخيل والبغال والحمير والمتولد من بين الظباء والغنم فلا زكاة فيها (الثاني) السوم : فلا زكاة في معلوفة وإذا أسيمت في وقت وعلفت في وقت تظاهر بذلك مؤنتها فلا زكاة فيها (الثالث) الحول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول ^(٢) » ويستثنى من هذا نتاج الحول (الرابع) كمال الملك والتصرف : فتجب الزكاة في الماشية المرهونة لأنه الذي حجر على نفسه فيه ولا تجب في الضال والمغصوب إلا إذا عاد بجميع ماله فيجب زكاة ماضى عند عوده ولو كان عليه دين يستغرق ماله فلا زكاة عليه فإنه ليس غنيا به إذ الغنى ما يفضل عن الحاجة . (الخامس) كمال النصاب .

أما الإبل فلا شيء فيها حتى تبلغ حمسا ففيها جذعة من الضأن والحذقة هي التي تكون في السنة الثانية ، أو ثنية من المعز وهي التي تكون في السنة الثالثة . وفي عشر شاتان ، وفي خمس عشرة ثلاث شياه . وفي عشرين أربع شياه . وفي خمس وعشرين بنت مخاض وهي التي في السنة الثانية ، فإن لم يكن في ماله بنت مخاض فابن لبون ذكر وهو الذي في السنة الثالثة يؤخذ إن كان قادرا على شرائها . وفي ست وثلاثين ابنة لبون . ثم إذا بلغت ستا وأربعين ففيها حقة وهي التي في السنة الرابعة . فإذا صارت إحدى وستين ففيها جذعة وهي التي في السنة الخامسة ، فإذا صارت ستا وسبعين ففيها بنتا لبون . فإذا صارت إحدى وتسعين ففيها حقتان . فإذا صارت إحدى وعشرين ومائة ففيها ثلاث بنات لبون . فإذا صارت مائة وثلاثين فقد استقر الحساب ؛ ففي كل خمسين حقة ، وفي كل أربعين بنت لبون .

(١) حديث أبي ذر « انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رأيته قال هم الأخسرون ورب الكعبة . . الحديث » أخرجه مسلم والبخاري (٢) حديث « لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول » أخرجه أبو داود من حديث علي بإسناد جيد وابن ماجة من حديث عائشة بإسناد ضعيف

وأما البقر فلا شيء فيها حتى تبلغ ثلاثين ففيها تبسيع وهو الذي في السنة الثانية . ثم في أربعين مسنة وهي التي في السنة الثالثة . ثم في ستين تبسيعان . واستقر الحساب بعد ذلك . ففي كل أربعين مسنة . وفي كل ثلاثين تبسيع .
وأما الغنم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المعز . ثم لاشيء فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ففيها شاتان . إلى مائتي شاة وواحدة ففيها ثلاث شياه إلى أربع مائة ففيها أربع شياه . ثم استقر الحساب في كل مائة شاة . وصدقة الخليطين كصدقة المالك الواحد في النصاب فإذا كان بين رجلين أربعون من الغنم ففيها شاة . وإن كان بين ثلاثة نفر مائة شاة وعشرون ففيها شاة واحدة . على جميعهم . وخطلة الجوار خلطة الشيوخ ولكن يشترط أن يريحا معا ويسقيا معا ويحلبا معا ويسرحا معا ويكون المرعى معا ويكون لإنزاء الفحل معا وأن يكونا جميعاً من أهل الزكاة ولا حكم للخلطة مع الذمي والمكاتب . ومهما نزل في واحد الإبل عن سن إلى سن فهو جائز ما لم يجاوز بنت مخاض في الزول . ولكن تضم إليه جبران السن لسنة واحدة شاتين أو عشرين درهما . ولستين أربع شياه أو أربعين درهما . وله أن يصعد في السن ما لم يجاوز الجذعة في الصعود ويأخذ الجبران من الساعين من بيت المال . ولا تؤخذ في الزكاة مريضة إذا كان بعض المال صحيحاً ولو واحدة . ويؤخذ من الكرائم كريمة ومن اللثام أثيمة . ولا يؤخذ من المال الآكولة ولا الماخض ولا الربا ولا الفحل ولا غراء المال .

النوع الثاني : زكاة المعشرات

فيه جب العشر في كل مستنبت مقتات بلغ ثمانمائة من ولا شيء فيما دونها ولا في الفواكه والقطر ، ولكن في الحبوب التي تقتات وفي التمر والزبيب . ويعتبر أن تكون ثمانمائة من تمر أو زبيباً لارطباً وعنباً ، ويخرج ذلك بعد التجفيف . ويكمل مال أحد الخليطين بمال الآخر في خلطة الشيوخ كالبيتان المشترك بين ورثة لجميعهم ثمانمائة من من زبيب ، فيجب على جميعهم ثمانون من زبيب بقدر حصصهم . ولا يعتبر خلطة الجوار فيه . ولا يكمل نصاب الخلطة بالشعير . ويكمل نصاب الشعير بالسلت فإنه نوع منه ، هذا قدر الواجب إن كان يسقى بسبح أو قناة فإن كان يسقى بنضح أو دالية فيجب نصف العشر ، فإن اجتمعا فالأغاب يعتمر . وأما صفة الواجب فالتمر والزبيب اليابس والحب اليابس بعد التنقية . ولا يؤخذ عنب ولا رطب إلا إذا حلت بالأشجار آفة وكانت المصلحة في قطعها قبل تمام الإدراك ، فيؤخذ الرطب ويكال تسعة للمالك وواحد للفقير . ولا يمنع من هذه القسمة قولنا : إن القسمة بيع ، بل يرخص في مثل هذا للحاجة . ووقت الوجوب أن يبدو الصلاح في الثمار وأن يشتد الحب . ووقت الأداء بعد الجفاف .

النوع الثالث : زكاة التقدين

فإذا تم الحول على وزن مائتي درهم بوزن مكة نقرة خالصة ففيها خمسة دراهم ، وهو ربع العشر ، وما زاد محسابه ولو درهما . ونصاب الذهب عشرون مثقالاً خالصاً بوزن مكة ففيها ربع العشر ، وما زاد فمحسابه ، وإن نقص من النصاب حبة فلا زكاة . وتجب على من معه دراهم مغشوشة إذا كان فيها هذا المقدار من النقرة الخالصة . وتجب الزكاة في التبر وفي الحلي المخطور كأواني الذهب والفضة ومراكب الذهب للرجال . ولا تجب في الحلي المباح . وتجب في الدين الذي هو على ملى . ولكن تجب عند الاستيفاء وإن كان مؤجلاً فلا تجب إلا عند حلول الأجل .

النوع الرابع : زكاة التجارة

وهى كزكاة النقدين ، وإنما ينعقد الحول من وقت ملك النقد الذى به اشترى البضاعة إن كان النقد نصاباً ؛ فإن كان ناقصاً أو اشترى لعرض على نية التجارة فالحول من وقت الشراء . وتؤدى الزكاة من نقد البلد وبه يقوم . فإن كان ما به الشراء نقداً وكان نصاباً كاملاً كان التقويم به أولى من نقد البلد . ومن نوى التجارة من مال قنية فلا ينعقد الحول بمجرد نيته حتى يشتري به شيئاً ومهما قطع نية التجارة قبل تمام الحول سقطت الزكاة . والأولى أن تؤدى زكاة تلك السنة ، وما كان من ربح فى السلعة فى آخر الحول وجبت الزكاة فيه بحول رأس المال ولم يستأنف له حولاً كما فى النتائج . وأموال الصيارفة لا ينقطع حولها بالمبادلة الجارية بينهم كمساير التجارات وزكاة ربح مال القراض على العامل وإن كان قبل القسمة ؛ هذا هو الأقيس .

النوع الخامس : الركاﺯ والمعدن

والركاﺯ مال دفن فى الجاهلية ووجد فى أرض لم يجر عليها فى الإسلام ملك ، فعلى واجده فى الذهب والفضة منه الخمس والحول غير معتبر . والأولى أن لا يعتبر النصاب أيضاً لأن إيجاب الخمس يؤكد شبهة بالقيمة . واعتباره أيضاً ليس ببعيد لأن مصرف الزكاة ولذلك يخصص على الصحيح بالنقدين . وأما المعدن فلا زكاة فيما استخرج منها سوى الذهب والفضة ؛ ففيها بعد الطحن والتخليص ربع العشر على أصح القولين ، وعلى هذا يعتبر النصاب . وفى الحول قولان ، وفى قول : يجب الخمس ؛ فعلى هذا لا يعتبر . وفى النصاب قولان والأشبه - والعلم عند الله تعالى - أن يلحق فى قدر الواجب بزكاة التجارة فإنه نوع اكتساب . وفى الحول بالمعشرات فلا يعتبر لأنه عين الرفق ويعتبر النصاب بالمعشرات ، والاحتياط أن يخرج الخمس من القليل والكثير ، ومن عين النقدين أيضاً خروجاً عن شبهة هذه الاختلافات فإنها ظنون قريية من التعارض وحزم الفتوى فيها خطر لتعارض الاشتباه .

النوع السادس : فى صدقة الفطر

وهى واجبة - على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم - على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من بقوته يوم الفطر وليته صاع مما يقتات^(١) بصاع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منوال وثلاث من ، يخرج من جنس قوته أو من أفضل منه . فإن اقتات بالحنطة لم يجر الشعير . وإن اقتات حبوا مختلفة اختار خير ما ومن أيها أخرج أجراه . وقسمتها كقسمة زكاة الأموال فيجب فيها استيعاب الأصناف ولا يجوز لإخراج الدقيق والسويق . ويجب على الرجل المسلم فطرة زوجته وماله وأولاده وكل قريب هو فى نفقته أعنى من تجب عليه نفقته من الآباء والأمهات والأولاد . قال صلى الله عليه وسلم : أدوا صدقة الفطر عن تمونون^(٢) ، وتجب صدقة العبد المشترك على الشريكين ولا تجب صدقة العبد الكافر . وإن تبرعت الزوجة بالإخراج عن نفسها أجزأها وللزوج الإخراج عنها دون إذنها . وإن فضل عنه ما يؤدى عن بعضهم أدى عن بعضهم ، وأولاهم بالتقديم من كانت نفقته أكد . وقد

(١) حديث « وجوب صدقة الفطر على كل مسلم » أخرجه من حديث ابن عمر قال « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان .. الحديث » (٢) حديث « أدوا زكاة الفطر عن تمونون » أخرجه البخاري والبيهقي من حديث ابن عمر « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر من الصنير والكبير والحمر والعبد من تمونون » قال البيهقي لمساعدة غير قوى

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم^(١) فهذه أحكام فقهية لا بد للغنى من معرفتها ، وقد تعرض له وقائع نادرة خارجة عن هذا فله أن يتكفل فيها على الاستفتاء عند نزول الواقعة بعد إلاحظته بهذا المقدار .

الفصل الثاني : فى الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة

اعلم أنه يجب على مؤدى الزكاة خمسة أمور (الأول) النية : وهو أن ينوى بقلبه زكاة الفرض ويسنّ عليه تعيين الأموال . فإن كان له مال غائب فقال هذا عن مالى الغائب إن كان سالماً وإلا فهو نافلة حاز ؛ لأنه إن لم يصرح به فكذلك يكون عند إطلاقه . ونية الولي تقوم مقام نية المجنون والصبي . ونية السلطان تقوم مقام نية المالك الممتنع عن الزكاة ولكن فى ظاهر حكم الدنيا - أعنى فى قطع المطالبة عنه - أما فى الآخرة فلا بل تبقى ذمته مشغولة إلى أن يستأنف الزكاة وإذا وكل بأداء الزكاة ونوى عند التوكيل أو وكل الوكيل بالنية كفاه لأن توكيله بالنية نية (الثاني) البدار عقيب الحول وفى زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر . ويدخل وقت وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان . ووقت تعجيلها شهر رمضان كله . ومن آخر زكاة ماله مع التمكن عصى ولم يسقط عنه بتلف ماله وتمككه بمصادفة المستحق . وإن آخر لعدم المستحق فتلف ماله سقطت الزكاة عنه . وتعجيل الزكاة جائز بشرط أن يمع بعد كمال النصاب وانقضاء الحول . ويجوز تعجيل زكاة حواش . ومهما عجل فئات المسكين قبل الحول أو ارتد أو صار غنياً بغير ما عجل إليه أو تلف مال المالك أو مات ، فالمندفع ليس بزكاة واسترجاعه غير ممكن إلا إذا قيد الدفع بالاسترجاع فليكن المعجل مراقباً آخر الأمور وسلامة العاقبة (الثالث) أن لا يخرج بدلاً باعتبار القيمة بل يخرج المنصوص عليه ، فلا يجزئ ورق عن ذهب ولا ذهب عن ورق وإن زاد عليه فى القيمة . ولعل بعض من لا يدرك غرض الشافعى رضى الله عنه يتساهل فى ذلك ويلاحظ المقصود من سد الخلة وما أبعداه عن التحصيل ، فإن سد الخلة مقصود وليس هو كل المقصود بل واجبات الشرع ثلاثة أقسام : قسم هو تعبد محض لا مدخل للخطوط والأغراض فيه . وذلك كرمى الحمرات مثلاً إذ لاحظ للجمرات فى وصول الحصى إليها ، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقه وعبوديته بفعل ما لا يعقل له معنى ، لأن ما يعقل معناه فقد يساعده الطبع عليه ويدعوه إليه فلا يظهر به خلوص الرق والعبودية ، إذ العبودية تظهر بأن تكون الحركة لحق أمر المعبود فقط لالمعنى آخر . وأكثر أعمال الحج كذلك ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فى إحرامه « لبيك بحجة حقاً تعبد أوقاً^(٢) ، تنبيهاً على أن ذلك اظهار للعبودية بالانقياد لمجرد الأمر وامتناله كما أمر من غير استئناس العقل منه بما يميل إليه ويحث عليه . القسم الثانى : من واجبات الشرع ما المقصود منه حظ معقول وليس يقصد منه التعبد كقضاء دين الآدميين ورد المغصوب فلا جرم لا يعتبر فيه فعله ونيتة . ومهما وصل الحق إلى مستحقه بأخذ المستحق أو يبدل عنه عند رضاه تأدى الوجوب وسقط خطاب الشرع . وهذان قسمان لا تركيب فيهما يشترك فى دركهما جميع الناس والقسم الثالث : هو المركب الذى يقصد منه الأمران جميعاً وهو حظ العباد وامتحان المكلف بالاستعداد ، فيجتمع فيه تعبد رعى الجار وحظ رد الحقوق فهذا قسم فى نفسه معقول ، فإن ورد الشرع به وجب الجمع بين المعنيين ولا ينبغى أن

(١) حديث « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بسند صحيح وابن حبان والحاكم وصححه ورواه النسائي وابن حبان بتقديم « الروضة على الولد » وسأيت (٢) حديث « لبيك بحجة حقاً تعبد أوقاً » أخرجه البزار والدارقطني فى العلل من حديث أنس

ينسى أدق المعنيين وهو التعبد والاسترقاق بسبب أحلاهما ، ولعل الأدق هو الأهم والزكاة من هذا القليل ولم ينتبه له غير الشافعي رضي الله عنه لحظ الفقير مقصود في سد الخلة وهو جلي سابق إلى الأفهام وحق التعبد في اتباع التفاصيل مقصود للشرع . وباعتباره صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج في كونها من مباني الإسلام . ولا شك في أن على المكلف تعباً في تمييز أجناس ماله وإخراج حصة كل مال من نوعه وجنسه وصفته . ثم توزيعه على الأصناف الثمانية كما سيأتي . والتساهل فيه غير قادح في حظ الفقير لكنه قادح في التعبد . ويدل على أن التعبد مقصود بتعيين الأنواع أمور ذكرناها في كتب الخلاف من الفقهيات . ومن أوضحها أن الشرع أوجب في خمس من الإبل شاة فعُدل من الإبل إلى الشاة ولم يعدل إلى التقدين والتقويم وإن قدر أن ذلك لقلة النقود في أيدي العرب بطل بذكره عشرين درهما في الجبران مع الشاتين فلم يذكر في الجبران قدر التقصان من القيمة ؟ ولم قدر عشرين درهما وشاتين ؟ وإن كانت الشياح والأمتعة كلها في معناها . فهذا وأمثاله من التخصيصات يدل على أن الزكاة لم تترك خالية عن التعبدات كما في الحج ولكن جمع بين المعنيين . والأذهان الضعيفة تقصر عن درك المركبات فهذا شأن الغلط فيه (الرابع) أن لا ينقل الصدقة إلى بلد آخر فإن أعين المساكين في كل بلدة تمتد إلى أموالها ، وفي النقل تخيب للطنون . فإن فعل ذلك أجزاء في قول ولكن الخروج عن شبهة الخلاف أولى فليخرج زكاة كل مال في تلك البلدة . ثم لا بأس أن يصرف إلى الغرباء في تلك البلدة (الخامس) أن يقسم ماله بعدد الأصناف الموحودين في بلده ، فإن استيعاب الأصناف واجب وعليه يدل ظاهر قوله تعالى ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ الآية فإنه يشبه قول المريض إنما تلك مالى للفقراء والمساكين وذلك يقتضى التشريك في التملك . والعبادات ينبغي أن يتوق عن الهجوم فيها على الظواهر . وقد عدم من الثمانية صنفان في أكثر البلاد : وهم المؤلفعة قلوبهم والعاملون على الزكاة . ويوجد في جميع البلاد أربعة أصناف : الفقراء والمساكين والغارمون والمسافرون - أعنى أبناء السبيل - وصنفان يوجدان في بعض البلاد دون البعض : وهم الغزاة والمكاتبون . فإن وحد خمسة أصناف مثلاً قسم بينهم زكاة ماله بخمسة أقسام متساوية أو متقاربة وعين لكل صنف قسم . ثم قسم كل قسم ثلاثة أمهم فما فوقه إما متساوية أو متفاوتة وليس عليه التسوية بين أحاد الصنف فإن له أن يقسمه على عشرة وعشرين فينقص نصيب كل واحد . وأما الأصناف فلا تقبل الزيادة والنقصان فلا ينبغي أن ينقص في كل صنف عن ثلاثة إن وجد . ثم لولم يجب إلا صاع للفطرة ووجد خمسة أصناف فعليه أن يوصله إلى خمسة عشر نفراً . ولو نقص منهم واحد مع الإمكان غرم نصيب ذلك الواحد . فإن عسر عليه ذلك لقلة الواجب فليتشرك جماعة من عليهم الزكاة وليخلط مال نفسه بمالهم وليجمع المستحقين وليسلم إليهم حتى يتساهموا فيه فإن ذلك لا بد منه .

بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

اعلم أن على مرید طریق الآخرة بركاته وظائف الوظيفة الأولى : مهم وجوب الزكاة ومعناها ووجه الامتحان فيها وأنها لم جعلت من مباني الإسلام مع أنها تصرف مالى وليست من عبادة الأبدان وفيه ثلاث معان : الأول : أن التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بإفراد المعبود وشرط تمام الوفاء به أن لا يبق للموحد محبوب سوى الواحد الفرد فإن الحجة لا تقبل الشراكة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى وإنما يمتحن به درجة المحب بمبارقة المحبوب والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبسيبها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب ، فامتحنوا بتصدق دعواهم في المحبوب واستنزوا عن المال الذى هو مرموقهم ومعشوقهم . ولذلك قال

الله تعالى ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ وذلك بالجهد وهو مساححة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله عز وجل والمساححة بالمال أهون . ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع أموالهم فلم يدخروا ديناراً ولا درهماً فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم حتى قيل لبعضهم كم يجب من الزكاة في مائتي درهم ؟ فقال : أما على العوام بحكم الشرع خمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع . ولهذا تصدق أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله وعمر رضي الله عنه بشطر ماله فقال صلى الله عليه وسلم « ما بقيت لأهلك ، فقال : مثله ، وقال لأبي بكر رضي الله عنه « ما بقيت لأهلك » قال الله ورسوله ، فقال صلى الله عليه وسلم « بينكما ما بين كلتيكما »^(١) ، فالصديق وفي تمام الصدق فلم يسك سوى المحبوب عنده وهو الله ورسوله . القسم الثاني : درجتهم دون درجة هذا وهم المسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات ، فيكون قصدهم في الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التعم وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البرمها ظهر وجوهها ، وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة . وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن في المال حقوقاً سوى الزكاة كالنخعي والشعبي وعطاء ومجاهد . قال الشعبي بعد أن قيل له هل في المال حق سوى الزكاة ؟ قال : نعم أما سمعت قوله عز وجل ﴿ وآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى ﴾ الآية واستدلوا بقوله عز وجل ﴿ وما رزقناهم ينفقون ﴾ بقوله تعالى ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ وزعموا أن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة بل هو داخل في حق المسلم على المسلم ، ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجاً أن يزيل حاجته فضلاً عن مال الزكاة والذي يصح في الفقه من هذا الباب أنه مهما أرهقته حاجته كانت إزالتها فرض كفاية إذ لا يجوز تضییع مسلم ، ولكن يحتمل أن يقال ليس على الموسر إلا تسليم ما يزيل الحاجة قرصاً ولا يلزمه بذله بعد أن أسقط الزكاة عن نفسه ، ويحتمل أن يقال يلزمه بذله في الحال ولا يجوز له الاقتراض أى لا يجوز له تكليف الفقير قبول القرض وهذا مختلف فيه ، والاقتراض نزول إلى الدرجة الأخيرة من درجات العوام وهي درجة القسم الثالث الذين يقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون عنه وهي أقل الرتب ، وقد اقتصر جميع العوام عليه لئلا يخلهم بالمال ويميلهم إليه وضعف حبهم للأخرة قال الله تعالى ﴿ إن يسألوكوها فيحفكم تبخلوا ﴾ يحفكم أى يستقص عليكم فكم بين عبد اشترى منه ماله ونفسه بأن له الجنة وبين عبد لا يستقصى عليه لئلا يخله ؛ فهذا أحد معاني أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال المعنى الثاني : التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شيع مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه »^(٢) ، وقال تعالى ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ وسيأتى في ربيع المهلكات وجه كونه مهلكاً وكيفية التقصى منه ، وإنما نزول صفة البخل بأن تتعبد بذل المال لحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقتها حتى يصير ذلك اعتياداً . فالزكاة بهذا المعنى طهرة أى تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك وإنما طهارته بقدر بذله ويقدر فرجه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى . المعنى الثالث : شكر النعمة فإن الله عز وجل على عبده نعمة في نفسه وفي ماله فالعادات البدنية شكر لنعمة البدن والمالية شكر لنعمة المال . وما أخص من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وأحوج إليه ثم لا تسمع نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله .

(١) حديث « جاء أبو بكر بجميع ماله وعمر بشطر ماله .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي والمحاكم وصححه من حديث ابن عمر وليس فيه قوله « بينكما ما بين كلتيكما » . (٢) حديث « ثلاث مهلكات .. الحديث » تقدم

الوظيفة الثانية : في وقت الأداء ؛ ومن آداب ذوى الدين التعجيل عن وقت الوجوب لإظهار الرغبة في الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعواقب الزمان أن تعوقه عن الخيرات وعلماً بأن في التأخير آفات مع ما يتعترض العبد له من العصيان لو أخر عن وقت الوجوب . ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغي أن يقتنم فإن ذلك لمة الملك وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، فما أسرع قلبه والشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر . وله لمة عقيب لمة الملك فليغتتم الفرصة فيه وليعين لزكاتها إن كان يؤديها جميعاً شهراً معلوماً وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات ليكون ذلك سبباً لنماء قربته وتضاعف زكاته . وذلك كشهر المحرم فإنه أول السنة وهو من الأشهر الحرم أو رمضان فقد كان صلى الله عليه وسلم أجود الخلق وكان في رمضان كالريح المرسلة لا يمسك فيه شيئاً ^(١) ولرمضان فضيلة ليلة القدر وأنه أنزل فيه القرآن . وكان مجاهد يقول : لا تقولوا رمضان فإنه اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان . وذو الحجة أيضاً من الشهور الكثيرة الفضل فإنه شهر حرام وفيه الحج الأكبر وفيه الأيام المعلومات وهي العشر الأول والأيام المعدودات وهي أيام التشريق . وأفضل أيام شهر رمضان العشر الأواخر . وأفضل أيام ذي الحجة العشر الأول .

الوظيفة الثالثة : الإسرار ؛ فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة قال صلى الله عليه وسلم : أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير في سر ^(٢) ، وقال بعض العلماء . ثلاث من كنوز البر منها إخفاء الصدقة ^(٣) وقد روى أيضاً مسنداً . وقال صلى الله عليه وسلم : إن العبد ليعمل عملاً في السر فيكتبه الله له سرا فإن أظهره نقل من السر وكتب في العلانية فإن تحدث به نقل من السر والعلانية وكتب رياء ^(٤) وفي الحديث المشهور : سبعة يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله أحدهم رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله بما أعطت يمينه ^(٥) ، وفي الخبر : صدقة السر تطفى غضب الرب ^(٦) ، وقال تعالى ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ وفائدة الإخفاء الخلاص من آفات الرياء والسمعة فقد قال صلى الله عليه وسلم : لا يقبل الله من مسمع ولا مرأ ولا منان والمتحدث لصدقة يطلب السمعة والمعطى في ملأ من الناس يبغي الرياء والإخفاء والسكوت هو المخلص منه ^(٧) ، وقد بالغ في فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطى فكان بعضهم يلقيه في يد أعمى وبعضهم يلقيه في طريق الفقير وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطى وبعضهم كان يصره في ثوب الفقير وهو نائم . وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطى وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشي : كل ذلك توصل إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازاً من الرياء والسمعة . ومهما لم يتمكن إلا بأن يعرفه شخص واحد فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى المسكين والمسكين لا يعرف أولى ؛ إذ في معرفة المسكين الرياء والمنة جميعاً وليس في معرفة المتوسط إلا الرياء . ومهما كانت الشهرة مقصودة له

(١) حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الخلق وأجود ما يكون في رمضان . الحديث » أخرجه من حديث ابن عباس (٢) حديث « أفضل الصدقة حود المقل إلى فقير في سر » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث أبي ذر ولأبي داود من حديث أبي هريرة « أي الصدقة أفضل ؟ قال جهد المقل » (٣) حديث « ثلاث من كنوز البر فذكر منها إخفاء الصدقة » أخرجه أبو نعيم في كتاب الإيجاز وجوامع الكلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٤) حديث « أن العبد ليعمل عملاً في السر فيكتبه الله له سرا فإن أظهره نقل من السر . الحديث » أخرجه الطحاوي في التاريخ من حديث أنس نحوه بإسناد ضعيف (٥) حديث « سبعة يظلمهم الله في مله . الحديث » أخرجه من حديث أبي هريرة (٦) حديث « صدقة السر تطفى غضب الرب » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة ورواه أبو الصيغ في كتاب الثواب والبهق في الفع من حديث أبي سعيد كلاماً ضعيفاً والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة « أن الصدقة لتطفى غضب الرب » ولابن حبان نحوه من حديث أنس وهو ضعيف أيضاً (٧) حديث « لا يقبل الله من مسمع ولا مرأ ولا منان » لم أظفر به هكذا

حبط عمله لأن الزكاة لإزالة البخل وتضعيف حب المال . وحب الجاه أشد استيلاء على النفس من حب المال وكل واحد منهما مهلك في الآخرة ؛ ولكن صفة البخل تنقلب في القبر في حكم المثال عقربا لادغا ، وصفة الرياء تنقلب في القبر أفعى من الأفاعى وهو مأثور بتضعيفيهما أو قتلهما لدفع أذاهما أو تخفيف أذاهما فهما قصد الرياء والسمعة فكأنه جعل بعض أطراف العقرب مقويا للحية فبقدر ما ضعف من العقرب زاد في قوة الحية ولو ترك الأمر كما كان لكان الأمر أهون عليه . وقوة هذه الصفات التي بها قوتها العمل بمقتضاها ، وضعف هذه الصفات بمجاهدتها ومخالفتها والعمل بخلاف مقتضاها فأى فائدة في أن يخالف دواعي البخل ويحجب دواعي الرياء فيضعف الأدنى ويقوى الأفوى ؟ وستأتى أسرار هذه المعاني في ربح المهلكات .

الوظيفة الرابعة : أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيبا للناس في الاقتداء ويحرس سره من داعية الرياء بالطريق الذى سنذكره في معالجة الرياء في كتاب الرياء فقد قال الله عز وجل ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هي ﴾ وذلك حيث يقتضى الحال الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس فلا ينبغي أن يترك التصدق خيفة من الرياء في الإظهار بل ينبغي أن يتصدق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان ، وهذا لأن في الإظهار محذورا ثالثا سوى المن والرياء وهو هتك ستر الفقير ، فإنه ربما يتأذى بأن يرى في صورة المحتاج فن أظهر السؤال فهو الذى هتك ستر نفسه . فلا يحذر هذا المعنى في إظهاره وهو كإظهار الفسق على من تستر به فإنه محذور ، والتجسس فيه والاعتیاد بذكره منى عنه : فأما من أظهره لإقامة الحد عليه لإشاعة ولكن هو السبب فيها . وبمثل هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ^(١) » ، وقد قال الله تعالى ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ﴾ ندب إلى العلانية أيضا لما فيها من فائدة الترغيب فليكن العبد دقيق التأمل في وزن هذه الفائدة بالمحذور الذى فيه فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص ، فقد يكون الإعلان في بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفضل . ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال .

الوظيفة الخامسة : أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى قال الله تعالى (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) واختلّفوا في حقيقة المن والأذى فقيل المن أن يذكرها والأذى أن يظهرها : وقال سفيان : من منّ وسدت صدقته فقيل له كيف المن ، فقال : أن يذكره ويتحدث به . وقيل : المن أن يستخدمه بالعطاء ، والأذى أن يعيره بالفقر . وقيل : المن أن يتكبر عليه لأجل عطائه ، والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالمسألة . وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يقبل الله صدقة من ^(٢) » ، وعندى أن المن له أصل ومعرس وهو من أحوال القلب وصفاته : ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح فأصله أن يرى نفسه محسنا إليه ومنعا عليه ، وحقه أن يرى الفقير محسنا إليه بقبول حق الله عز وجل منه الذى هو طهرته ونجاته من النار ، وأنه لو يقبله لبقى مرتبها به فحقه أن يتقلد منه الفقير إذ جعل كفه نائبا عن الله عز وجل في قبض حق الله عز وجل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الصدقة تقع بيد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل ^(٣) » ، فليتحقق أنه مسلم إلى عز وجل حقه والفقير آخذ من الله تعالى . رزقه بعد صيرورته إلى الله عز وجل . ولو كان عليه دين لإنسان فأحال به عبده أو خادمه الذى هو متكفل برزقه

(١) حديث « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له » أخرجه ابن عدى وابن حبان في الصغفاء من حديث أس بن سدد ضعيف

(٢) حديث « لا يقبل الله صدقة من ^(٣) » هو كالأذى قبله بمحدث لم أجده . (٣) حديث « إن الصدقة تقع بيد الله قبل أن تقع في يد السائل » أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث ابن عباس وقال غريب من حديث عكرمة عنه ورواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف

لكان اعتقاد مؤدى الدين كون القابض تحت منته سفها وجهلا ، فإن المحسن لإليه هو المتكفل برزقه . أما هو فإنما يقضى الذى لزمه بشراء ما أحبه فهو ساع فى حق نفسه فلم يمن به على غيره . ومهما عرف المعانى الثلاثة التى ذكرناها فى فهم وجوب الزكاة أو أحدها لم ير نفسه محسنا إلا إلى نفسه ؛ إما ببذل ماله لإظهارا لحب الله تعالى أو تطهيراً لنفسه عن رذيلة البخل أو شكراً على نعمة المال طلباً للمزيد . وكيفما كان فلا معاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسنا إليه ، ومهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسنا إليه فتفرع منه على ظاهره ما ذكر فى معنى المن وهو التحدث به وإظهاره وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم فى المحاسن والمتابعة فى الأمور ؛ فهذه كلها ثمرات المنة ، ومعنى المنة فى الباطن ما ذكرناه . وأما الأذى : فظاهره التوبيخ والتعيير وتحسين الكلام وتقطيب الوجه وهتك الستر بالإظهار وفنون الاستخفاف ، وباطنه وهو منعه أمران ؛ أحدهما : كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه فإن ذلك يضيق الخلق لا محالة . والثانى : ووثيته أنه خير من الفقير وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه وكلاهما منشؤه الجهل . أما كراهية تسليم المال فهو حق لأن من كره بذل درهم فى مقابلة ما يساوى ألفاً فهو شديد الحق . ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله عز وجل والثوب فى الدار الآخرة وذلك أشرف مما بذله أو يبدله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكراً لطلب المزيد . وكيفما فرض الكراهية لا وجه لها . وأما الثانى : فهو أيضاً جهل لأنه لو عرف فضل الفقر على الغنى وعرف خطر الأغنياء لما استحققر الفقير بل تبرك به وتمنى درجته ، فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ، هم الأخسرون ورب الكعبة فقال أبو ذر : من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالاً ، الحديث ؟ ثم كيف يستحققر الفقير وقد جعله الله تعالى متجرة له ؟ إذ يكتسب المال بجهده ويستكثر منه ويجهتد فى حفظه بمقدار الحاجة وقد ألزم أن يسلم إلى الفقير قدر حاجته ويكف عنه الفاضل الذى يضره لو سلم إليه ؛ فالغنى مستخدم للسعى فى رزق الفقير ويتميز عليه بتقليد المظالم والتزام المشاق وحراسة الفضلات إلى أن يموت فيأكله أعداؤه ، فإن مهما انتقلت الكراهية وتبدلت بالسرور والفرح بتوفيق الله تعالى له أداء الواجب وتفضيله الفقير حتى يخلصه عن عهده بقبوله منه انتنى الأذى والتوبيخ وتقطيب الوجه وتبدل بالاستبشار والثناء وقول المنة فهذا منشأ المن والأذى . فإن قلت : فرويته نفسه فى درجة المحسن أمر غامض فهل من علامة يمتحن بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسناً ؟ فاعلم أن له علامة دقيقة واضحة وهو أن يقدر أن الفقير لوجئ عليه جناية أو مالا عدواً له عليه مثلاً هل كان يزيد استنكاره واستبعاده له على استنكاره قبل التصديق ؟ فإن زاد لم تغل صدقته عن شائبة المنة لأنه توقع سببه ما لم يكن يتوقعه قبل ذلك . فإن قلت ، وهذا أمر غامض ولا ينفك قلب أحد عنه فما دواؤه ؟ فاعلم أن له دواء باطناً ودواء ظاهراً : أما الباطن : فالمعرفة بالحقائق التى ذكرناها فى فهم الوجوب وأن الفقير هو المحسن إليه فى تطهيره بالقبول . وأما الظاهر : فالأعمال التى يتعاطاها متقلد المنة فإن الأفعال التى تصدر عن الأخلاق تصيغ القلب بالأخلاق - كما سيأتى أسرارها فى الشطر الأخير من الكتاب - ولهذا كان بعضهم يضع الصدقة بين يدى الفقير ويتمثل قائماً بين يديه يسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائلين وهو يستشعر مع ذلك كراهية لو رده . وكان بعضهم يبسط كفه لياخذ الفقير من كفه وتكون يد الفقير هى العليا . وكانت عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما إذا أرسلتا معروفاً إلى فقير قالتا للرسول : احفظ ما يدعو به ثم كانتا تردان . عليه مثل قوله ، وتقولان : هذا بذاك حتى تخلص لنا صدقتنا . فكانوا لا يتوقعون الدعاء لأنه شبه المكافأة وكانوا يقابلون الدعاء

بمثله . وهكذا فعل عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما . وهكذا كان أرباب القلوب يداونون قلوبهم ولا دواء من حيث الظاهر إلا هذه الأعمال الدالة على التذلل والتواضع وقبول المنة ومن حيث الباطن المعارف التي ذكرناها ؛ هذا من حيث العمل وذلك من حيث العلم . ولا يعالج القلب إلا بمعجون العلم والعمل ، وهذه الشريطة من الزكوات تجري مجرى الخشوع من الصلاة وثبت ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم ، ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها ^(١) . وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « لا يتقبل الله صدقة منان » وكقوله عز وجل ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ وأما فتوى الفقيه بوقوعها موقعها وبراءة ذمته عنها دون هذا الشرط فحديث آخر وقد أشرنا إلى معناه في كتاب الصلاة .

الوظيفة السادسة : أن يستصغر العظمة فإنه إن استعظمها أعجب بها والعجب من المهلكات وهو محبط للأعمال قال تعالى ﴿ ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ﴾ ويقال إن الطاعة كلها استصغرت عظمت عند الله عز وجل . والمعصية كلها استعظمت صغرت عند الله عز وجل . وقيل لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور : تصغيره وتجييله وستره . وليس الاستعظام هو المن والأذى ، فإنه لو صرف ماله إلى عمارة مسجد أو رباط أمكن فيه الاستعظام ولا يمكن فيه المن والأذى بل العجب والاستعظام يجري في جميع العبادات ودواؤه علم وعمل . أمام العلم : فهو أن يعلم أن العشر أو ربع العشر قليل من كثير وأنه قد قنع لنفسه بأخس درجات البذل - كما ذكرنا في فهم الوجوب - فهو جدير بأن يستحي منه فكيف يستعظمه ؟ وإن ارتقى إلى الدرجة العليا فبذل كل ماله أو أكثره فليتأمل أنه من أين له المال وإلى ماذا يصرفه ؟ فالمال لله عز وجل وله المنة عليه إذ أعطاه وفقه لبذله فلم يستعظم في حق الله تعالى ما هو عين حق الله سبحانه ؟ وإن كان مقامه يقتضى أن ينظر إلى الآخرة وأنه يبذله للثواب فلم يستعظم بذل ما ينتظر عليه أضعافه ؟ وأما العمل : فهو أن يعطيه عطاء الخجل من بخله بإمساك بقية ماله عن الله عز وجل فتكون هيئته الانكسار والحياء ، كهيئة من يطلب رد ودیعة فبمسك بعضها ويرد البعض ، لأن المال كله لله عز وجل وبذل جميعه هو الاحب عند الله سبحانه ، وإنما لم يأمر به عبده لأنه يشق عليه بسبب بخله كما قال الله عز وجل ﴿ فيحفكم تبخلوا ﴾

الوظيفة السابعة : أن يلتقى من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا . وإذا كان المخرج من شبهة فربما لا يكون ملكا له مطلقا فلا يقع الموقع . وفي حديث أبان عن أنس بن مالك « طوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية ^(٢) ، وإذا لم يكن المخرج من حيد المال فهو من سوء الأدب إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لعبده أو لأهله فيكون قد أثر على الله عز وجل غيره ، ولو فعل هذا بضيعة وقدم إليه أردأ طعام في بيته لأوغر بذلك صدره ، هذا إن كان نظره إلى الله عز وجل ، وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه في الآخرة فليس بعاقل من يؤثر غيره على نفسه ، وليس له من ماله إلا ما تصدق به فأبقى أو أكل فأفنى ، والذي يأكله قضاء وطر في الحال فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادخار وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخيثة منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه ﴾ أى لا تأخذوه إلا مع كراهية وحياء وهو معنى الإغماض فلا تؤثروا به ربكم . وفي الخبر « سبق درهم مائة ألف درهم ^(٣) ،

(١) حديث « ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها » تقدم في الصلاة

(٢) حديث أنس « طوبى لعبد أنفق من ماله اكتسبه من غير معصية » أخرجه ابن عدى والبرار (٣) حديث « سبق درهم مائة ألف » أخرجه النسائي وابن حبان وصححه من حديث أبي هريرة

وذلك بأن يخرج الإنسان وهو من أحل ماله وأحوده فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبذل ، وقد يخرج مائة ألف درهم مما يكره من ماله فيبدل ذلك على أنه ليس يؤثر الله عز وجل بشيء مما يحبه . وبذلك ذم الله تعالى قوما جعلوا الله ما يكرهون فقال تعالى ﴿ ويحعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا ﴾ وقف بعض القراء على النبي تكذيباً لهم ، ثم ابتداء وقال ﴿ جرم أن لهم النار ﴾ أى كسب لهم جعلهم لله ما يكرهون النار .

الوظيفة الثامنة : أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة ولا يكتفى بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فإن في عمومهم خصوص صفات فإبراع خصوص تلك الصفات وهى ستة . الأولى : أن يطلب الاتقياء المعرضين عن الدنيا المتجردين لتجارة الآخرة قال صلى الله عليه وسلم « لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى »^(١) . وهذا لأن التقى يستعين به على التقوى فتكون شريكاً فى طاعته بإعانتك إياه ، وقال صلى الله عليه وسلم « أطعموا طعامكم الاتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين »^(٢) ، وفى لفظ آخر « أضف بطعامك من تحبه فى الله تعالى ، وكان بعض العلماء يؤثر بالطعام فقراء الصوفية دون غيرهم فقيل له : لو عمت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل . فقال : لا هؤلاء قوم همهم الله سبحانه فإذا طرقتهم فاقه تشنت هم أحدهم فلأن أرد همة واحد إلى الله عز وجل أحب إلى من أن أعطى ألفاً من همة الدنيا ، فدكر هذا الكلام للجديد فاستحسنه وقال . هذا ولى من أولياء الله تعالى وقال ما سمعت منذ زمان كلاماً أحسن من هذا ، ثم حكى أن هذا الرجل اختل حاله وهم ترك الحانوت فبعث إليه الجعيد ما لا وقال : اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت فإن التجارة لا تضر مثلك ، وكان هذا الرجل بقالا لا يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه . الصفة الثانية : أن يكون من أهل العلم خاصة فإن ذلك إعانة له على العلم ، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية . وكان ابن المبارك يخص بمعرفته أهل العلم فقيل له : لو عمت ، فقال : إني لأعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم فتفرغهم للعلم أفضل . الصفة الثالثة : أن يكون صادقاً فى تقواه وعلمه بالتوحيد . وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى أن النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة فهذا هو أشكر العباد لله سبحانه وهو أن يرى أن النعمة كلها منه . وفى وصية لقمان لابنه : لا تجعل بينك وبين الله منعاً واعدد نعمة غيره عليك مغرماً . ومن شكر غير الله سبحانه فكأنه لم يعرف المنعم ولم يتيقن أن الواسطة مقهور مسخر بتسخير الله عز وجل إذ ساط الله تعالى عليه دواعى الفعل ويسر له الأسباب فأعطى وهو مقهور ، ولو أراد تركه لم يقدر عليه بعد أن ألقى الله عز وجل فى قلبه أن صلاح دينه ودينه فى فعله . فهما قوى الباعث أو جب ذلك جزم الإرادة وانتهاض القدرة ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوى الذى لا تردد فيه والله عز وجل خالق البواعث ومهيجه ومزيل للضعف والتردد عنها ومسخر القدرة للانتهاض بمقتضى البواعث . فمن تيقن هذا لم يكن له نظر إلا إلى مسبب الأسباب : وتيقن مثل هذا العبد أنفع للمعطى من ثناء غيره وشكره ، فذلك حركة لسان يقل فى الأكثر جدواه وإعانة مثل هذا العبد الموحد لا تضيق . وأما الذى يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فسيديم بالمنع ويدعو بالشر عند الإيذاء وأحواله متفاوتة . وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم بعث معروفاً إلى بعض الفقراء وقال للرسول احفظ ما يقول ؛ فلما أخذ قال : الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ولا يضيع من شكره . ثم قال اللهم إني لم تنس فلاناً - يعنى نفسه - فأجعل فلاناً لا ينساك - يعنى بفلان نفسه - فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك

(١) حديث « لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث أبي سعيد بن جابر .
 (٢) حديث « أطعموا طعامكم الاتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين » أخرجه ابن المبارك فى البر والصلة من حديث أبي سعيد الخدرى قال ابن طاهر غريب فيه مجهول (٣) حديث « أضف بطعامك من يحبه الله » أخرجه ابن المبارك أبناً جوير عن الضحاك .

فسر وقال صلى الله عليه وسلم : علمت أنه يقول ذلك ^(١) ، فانظر كيف قصر التفاته على الله وحده ، وقال صلى الله عليه وسلم لرجل : تب فقال أتوب إلى الله وحده ولا أتوب إلى محمد فقال صلى الله عليه وسلم عرف الحق لأهله ^(٢) ، ولما نزلت براءة عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك قال أبو بكر رضي الله عنه : قومي فقيلي رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت والله لأفعل ولا أحد إلا الله فقال صلى الله عليه وسلم : دعها يا أبا بكر ^(٣) ، وفي لفظ آخر : أنها رضي الله عنها قالت لابي بكر رضي الله عنه : بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد صاحبك ، فلم ينكر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها ذلك مع أن الوحي وصل إليها على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورؤية الأشياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين قال الله تعالى ﴿ ولذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث لهم وسائط فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفي سره . فليتنق الله سبحانه في تصفية توحيده عن كدورات الشرك وشوائبه .

الصفة الرابعة : أن يكون مستترا مخفيا حاجته لا يكثر البت والشكوى أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته فهو يتعيش في جلباب التجمل قال الله تعالى ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ﴾ أي لا ياحون في السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم أعزة بصبرهم ، وهذا ينبغي أن يطلب بالتفحص عن أهل الدين في كل محلة ويستكشف عن مواطن أحوال أهل الخير والتجمل فتواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المحاهرين بالسؤال .

الصفة الخامسة : أن يكون ميلا أو محبوسا بمرض أو بسبب من الأسباب فيوجد فيه معنى قوله عز وجل ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ﴾ أي حبسوا في طريق الآخرة بعيلة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب ﴿ لا يستطيعون ضربا في الأرض ﴾ لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الأطراف . فهذه الأسباب كان عمر رضي الله عنه يعطى أهل البيت القطيع من الغنم - العشرة فما فوقها - وكان صلى الله عليه وسلم يعطى العطاء على مقدار العيلة ^(٤) وسأل عمر رضي الله عنه عن جهد البلاء فقال كثرة العيال وقلة المال .

الصفة السادسة : أن يكون من الأقارب وذوى الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى . قال صلى الله عليه وسلم : لأن أصل أخا من إخواني بدرهم أحب إلى من أن أتصدق بعشرين درهما ولأن أصله بعشرين درهما أحب إلى من أن أتصدق بمائة درهم ولأن أصله بمائة درهم أحب إلى من أن أعطي رقبة . والأصدقاء وإخوان الخير أيضا

(١) حديث « بث معروف إلى بعض الفقراء وقال للرسول احفظ ما يقول فلما أخذه قال الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ... الحديث » لم أجده أصلا إلا في حديث ضعيف من حديث ابن عمر وروى ابن منده في الصحابة أوله ولم يسبق هذه القطعة التي أوردتها المصنف وسمى الرجل حديرا ، فقد روي من طريق البيهقي « أنه وصل لحدير من أبي الدرداء شيء فقال اللهم مالك لم تس حديرا فأجبت حديرا لا ينساك » وقيل لأن هذا آخر لصحبة له يسكنى أباجيرة وقد ذكره ابن حبان في ثقات الثنايين .

(٢) حديث « قال لرجل تب فقال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد . . . الحديث » أخرجه أحمد والطبراني من حديث الأسود ابن سريع بسند ضعيف (٣) حديث « لما نزلت براءة عائشة قال أبو بكر قومي فقيلي رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عائشة بلفظ « فقال أبو بكر قومي فقيلي رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت أحمد الله لا إياكما » ولبخاري تعليقا « فقال أبو بكر قومي إليه فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحمدك ولا بكر أحمد الله » وله ولم « فقالت لي أمي قومي إليه فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد لا الله » ولطبراني « فقالت بحمد الله لا بحمد صاحبك » وله من حديث ابن عباس « فقالت لا بحمدك ولا بحمد صاحبك » وله من حديث ابن عمر « فقال أبو بكر قومي فأخضني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا والله لا أدنو منه . . . الحديث » وفيه « أنها قالت فأنبي صلى الله عليه وسلم بحمد الله لا بحمدك »

(٤) حديث « كان يعطى العطاء على مقدار العيلة » لم أر له أصلا ولأبي داود من حديث عوف بن مالك « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه النعماء قسمه في يومه وأعطى الأهل حظين وأعطى العزب حظا »

يقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب ؛ فليراع هذه الدقائق فهذه هي الصفات المطلوبة ، وفي كل صفة درجات فينبغي أن يطلب أعلاها ، فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهي الذخيرة الكبرى والتنمية العظمى . ومهما اجتهد في ذلك وأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد ، فإن أجد أجريه في الحال تطهيره نفسه عن صفة البخل وتأكيد حب الله عز وجل في قلبه واجتهاده في طاعته ، وهذه الصفات هي التي تقوى في قلبه فتشوقه إلى لقاء الله عز وجل . والأجر الثاني ما يعود إليه من فائدة دعوة الآخذ وحمته فإن قلوب الأبرار لها آثار في الحال والمآل ، فإن أصاب حصل الأجران وإن أخطأ حصل الأول دون الثاني فهذا يضاعف أجر المصيب في الاجتهاد مهنا وفي سائر المواضع والله أعلم .

الفصل الثالث في القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه

بيان أسباب الاستحقاق

اعلم أنه لا يستحق الزكاة إلا الحر مسلم ليس بهاشمي ولا مطلبى اتصف بصفه من صفات الأصناف الثمانية المذكورين في كتاب الله عز وجل . ولا تصرف زكاة إلى كافر ولا إلى عبد ولا إلى هاشمي ولا إلى مطلبى أما الصبي والمجنون فيجوز الصرف إليهما إذا قبض وليهما فلنذكر صفات الأصناف الثمانية (الصنف الأول) الفقراء : والفقير هو الذي ليس له مال ولا قدرة له على الكسب ، فإن كان معه قوت يومه وكسوة حاله فليس بفقير ولكنه مسكين ، وإن كان معه نصف قوت يومه فهو فقير ، وإن كان معه قيس وليس معه منديل ولا خف ولا سراويل ولم تكن قيمة القميص بحيث تنفي جميع ذلك كما يليق بالفقراء فهو فقير ، لأنه في الحال قد عدم ما هو محتاج إليه وما هو عاجز عنه فلا ينبغي أن يشترط في الفقير أن لا يكون له كسوة سوى سائر العورة فإن هذا غلو ، والغالب أنه لا يوجد مثله ولا يخرج من الفقر كونه معتاداً للسؤال ، فلا يجعل السؤال كسباً بخلاف ما لو قدر على كسب فإن ذلك يخرج من الفقر فإن قدر على الكسب بآلة فهو فقير ويجوز أن يشتري له آلة . وإن قدر على كسب لا يليق بمروءته وبحال مثله فهو فقير ، وإن كان متفقها ويمتنع الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تعتبر قدرته ، وإن كان متعبداً يمتنع الكسب من وظائف العبادات وأوراد الأوقات فليكتسب لأن الكسب أولى من ذلك قال صلى الله عليه وسلم «طلب الحلال فريضة بعد الفريضة»^(١) ، وأراد به السعي في الاكتساب . وقال عمر رضي الله عنه : كسب في شبهة خير من مسألة . وإن كان مكتفياً بفقته أبيه أو من يجب عليه نفقته فهذا أهون من الكسب فليس بفقير (الصنف الثاني) المساكين : والمسكين هو الذي لا يفي دخله بخرجه فقد يملك ألف درهم وهو مسكين وقد لا يملك إلا فأساً وجبلاً وهو غني ، والدورة التي يسكنها والثوب الذي يستره على قدر حاله لا يسلبه اسم المسكين ، وكذا أثاث البيت - أعني ما يحتاج إليه - وذلك ما يليق به ، وكذا كتب الفقه لا تخرج من المسكنة وإذا لم يملك إلا الكتب فلا تلزمه صدقة الفطر . وحكم الكتاب حكم الثوب وأثاث البيت فإنه محتاج إليه ولكن ينبغي أن يحتاط في قطع الحاجة بالكتاب ، فالكتاب محتاج إليه لثلاثة أغراض : التعليم والاستفادة والتفرج بالمطالعة . أما حاجة التفرج فلا تعتبر كافتناء كتب الأشعار وتواريخ الأخبار وأمثال ذلك مما لا يرفع في الآخرة ولا يجري في الدنيا إلا بجرى التفرج والاستئناس ، فهذا يباع في الكفارة وزكاة الفطر وتمتع اسم المسكنة . وأما حاجة التطعيم إن كان لأجل الكسب كالمؤدب والمعلم والمدرس بأجره فهذه آله فلا تباع في الفطرة كأدوات الخياطة وسائر المحترفين ، وإن كان يدرس للقيام بفرض

(١) حديث « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » أخرجه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود

الكفاية فلا تباع ولا يسلبه ذلك اسم المسكين لأنها حاجة مهمة ، وأما حاجة الاستفادة والتعلم من الكتاب كادخاره كتب طب ليعالج بها نفسه أو كتاب وعظ ليطالع فيه ويتعظ به فإن كان في الدلد طيب وواعظ فهذا مستغنى عنه وإن لم يكن فهو محتاج إليه ثم ربما لا يحتاج إلى مطالعة الكتاب إلا بعد مدة فينبغي أن يضبط مدة الحاجة . والأقرب أن يقال ما لا يحتاج إليه في السنة فهو مستغنى عنه فإن من فضل من قوت يومه شيء لزمته الفطرة . فإذا قدرنا القوت باليوم لحاجة أثاث البيت وثياب البدن فينبغي أن تقدر بالسنة ؛ فلا تناع ثياب الصيف في الشتاء والكتب بالثياب والأثاث أشبه وقد يكون له من كتاب نسختان فلا حاجة إلى إحداها . فإن قال : إحداها أصح والآخرى أحسن فأنا محتاج إليهما ؟ قلنا : اكتف بالأصح وبع الأحسن ودع التفرج والترفع . وإن كان نسختان من علم واحد إحداها بسيطة والآخرى وجيزة فإن كان مقصوده الاستفادة فليكتف بالبسيطة وإن كان قصده التدريس فيحتاج إليهما إذ في كل واحدة فائدة ليست في الأخرى . وأمثال هذه الصور لا تحصر ولم يتعرض له في فن الفقه وإنما أوردناه لعموم البلوى والتنبه بحسن هذا النظر على غيره . فإن استقصاء هذه الصور غير ممكن إذ يتعدى مثل هذا النظر في أثاث البيت في مقدارها وعددها ونوعها وفي ثياب البدن وفي الدار وسعتها وضيقتها . وليس لهذه الأمور حدود محدودة ولكن الفقيه يجهل فيها برأيه ويقرب في التحديدات بما يراه ويقترح فيه خطر الشبهات . والمتووع يأخذ فيه بالأحوط ويدع ما يريه إلى ما لا يريه . والدرجات المتوسطة المشككة بين الأطراف المتقابلة الجلية كثيرة ولا ينجى منها إلا الاحتياط والله أعلم . (الصنف الثالث)

العاملون : وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات سوى الخليفة والقاضي ويدخل فيه العريف والكتاب والمستوى والحافظ والقال ولايزاد واحد منهم على أجرة المثل ؛ فإن فضل شيء من الثمن عن أجر مثلهم رد على بقية الأصناف وإن نقص كل من مال المصالح (الصنف الرابع) المؤلف قلوبهم على الإسلام : وهم الأشراف الذين أسلموا وهم مطاعون في قومهم ، وفي إعطائهم تقريرهم على الإسلام وترعيب نظائهم وأتباعهم (الصنف الخامس) المكاتبون : فيدفع إلى السيد سهم المكاتب وإن دفع إلى المكاتب جاز ولا يدفع السيد زكاته إلى مكاتب نفسه لأنه يعتد عبدا له . (الصنف السادس) الغارمون : والغارم هو الذي استقرض في طاعة أو مباح وهو فقير فإن استقرض في معصية فلا يعطى إلا إذا تاب ، وإن كان غنيا لم يقض دينه إلا إذا كان قد استقرض لمصلحة أو إطفاء فتنه (الصنف السابع) الغزاة : الذين ليس لهم مرسوم في ديوان المرتزة فيصرف إليهم سهم وإن كانوا أغنياء إعانة لهم على الغزو (الصنف الثامن) ابن السبيل : وهو الذي شخص من بلده ليسافر في غير معصية أو اجتاز بها فيعطى إن كان فقيرا وإن كان له مال ببلد آخر أعطى بقدر بلغته . فإن قلت : فبم تعرف هذه الصمات ؟ قلنا : أما الفقر والمسكنة فبقول الآخذ ولا يطالب ببينة ولا يحلف بل يجوز اعتماد قوله إذا لم يعلم كذبه . وأما الغزو والسفر فهو أمر مستقيل فيعطى بقوله إنى غاز فإن لم يف به استرد . وأما بقية الأصناف فلا بد فيها من البينة فهذه شروط الاستحقاق . وأما مقدار ما يصرف إلى كل واحد فسيأتى .

بيان وظائف القابض وهي خمسة

(الأولى) أن يعلم أن الله عز وجل أوجب صرف الزكاة إليه ليكني هم ويجعل همومه هما واحدا . فقد تعبد الله عز وجل الخلق بأن يكون همهم واحدا وهو الله سبحانه واليوم الآخر وهو المعنى بقوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ولكن لما اقتضت الحكمة أن يسلم على العبد الشهوات والحاجات وهي تفرق هم

اقتضى الكرم إفاضة نعمة تكفي الحاجات فأكثر الأموال وصبها في أيدي عباده لتكون آله لهم في دفع حاجاتهم ووسيلة اتفرغهم لطاعاتهم ، فمنهم من أكثر ماله فتنة وبلية فأقجمه في الخطر ومنهم من أحبه لحماه عن الدنيا كما يحمي المشفق مريضه فزوى عنه فضولها وساق إليه قدر حاجته على يد الأغنياء ليكون سهل الكسب والتعب في الجمع والحفظ عليهم ، وفائدته تنصب إلى الفقراء فيتجزدون لعبادة الله والاستعداد لما بعد الموت فلا تصرفهم عنها فضول الدنيا ولا تشغلهم عن التأهب الفاقة وهذا منتهى النعمة . فحق المقيم أن يعرف قدر نعمة الفقر ويتحقق أن فضل الله عليه فيما زواه عنه أكثر من فضله فيما أعطاه - كما سيأتي في كتاب الفقر تحقيقه وبيانه إن شاء الله تعالى - وأياً أخذ ما يأخذه من الله سبحانه رزقا له وعونا له على الطاعة ولتكن نيته فيه أن يتقوى به على طاعة الله فإن لم يقدر عليه فليصرفه إلى ما أباحه الله عز وجل فإن استعان به على معصية الله كان كافرا لأنعم الله عز وجل مستحقا للبعد والمقت من الله سبحانه (الثانيه) أن يشكر المعطى ويدعو له ويثني عليه ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرج عن كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه ، وللطريق حق من حيث جعله الله طريقا وواسطة وذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله سبحانه فقد قال صلى الله عليه وسلم « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » (١) ، وقد أثني الله عز وجل على عباده في مواضع على أعمالهم وهو خالقها وفاطر القدرة عليها نحو قوله تعالى ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ إلى غير ذلك . وليقل القاص في دعائه طهر الله قلبك في قلوب الأبرار وزكى عملك في عمل الأخيار وصلى على روحك في أرواح الشهداء وقد قال صلى الله عليه وسلم « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه » (٢) ، ومن تمام الشكر أن يستمر عيوب العطاء إن كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيره بالمتع إذا منع ويفخم عند نفسه وعند الناس صنيعة فوظيفة المعطى الاستصغار ووظيفة القابض تقلد المنة والاستعظام وعلى كل عند القيام بحقه ؛ وذلك لاتناقض فيه إذ موجبات التصغير والتعظيم تتعارض . والنافع للمعطى ملاحظة أسباب التصغير ويضره خلافه والآخذ بالعكس منه . وكل ذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله عز وجل فإن من لا يرى الوسطة واسطة فقد جهل وإنما المنكر أن يرى الوسطة أصلا (الثالثة) أن ينظر فيما يأخذه فإن لم يكن من حل تورع عنه (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) وإن يعدم المتورع عن الحرام فتوحا من الحلال . فلا يأخذ من أموال الأتراك والخنود وعمال السلاطين ومن أكثر كسبه من الحرام إلا إذا ضاق الأمر عليه وكان ما يسلم إليه لا يعرف له مالكا معينا فله أن يأخذ بقدر الحاجة ؛ فإن فتوى الشرع في مثل هذا أن يتصدق به - على ما سيأتي بيانه في كتاب الحلال والحرام - وذلك إذا عجز عن الحلال فإذا أخذ لم يكن أخذه أخذ زكاة إذ لا يقع زكاة عن مؤديه وهو حرام (الرابعة) أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه في مقدار ما يأخذه فلا يأخذ إلا المقدار المباح ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق . فإن كان يأخذه بالكتابة والغرامة فلا يزيد على مقدار الدين . وإن كان يأخذ بالعمل فلا يريد على أجرة المثل . وإن أعطى زيادة أبي وامتنع إذ ليس المال للمعطى حتى يتبرع به . وإن كان مسافرا لم يزد على الزاد وكراء الدابة إلى مقصده . وإن كان غازيا لم يأخذ إلا ما يحتاج إليه للغزو خاصة من خيل وسلاح ونفقة . وتقدير ذلك بالاجتهاد وليس له حد ، وكذا زاد السفر ، والورع ترك ما يريبه إلا ما لا يريبه . وإن أخذ بالمسكنة فلينظر أولا إلى أمثاله يتيه وثمانه

(١) حديث « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد وله ولأبي داود وابن حبان نحوه من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح (٢) حديث « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه » الحديث « أخرجه أبو داود والنسائي من حديث ابن عمر بإسناد صحيح بلفظ « من صنع »

وكتبه هل فيها ما يستغنى عنه بعينه أو يستغنى عن نفاسته فيمكن أن يبدل بما يكفي ويفضل بعض قيمته ؟ وكل ذلك إلى اجتهاده . وفيه طرف ظاهر يتحقق معه أنه مستحق وطرف آخر مقابل يتحقق معه أنه غير مستحق ، بينهما أوساط مشتبهة ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، والاعتدال في هذا على قول الآخذ ظاهراً . وللمحتاج في تقدير الحاجات مقامات في التضييق والتوسيع ولا تحصر مراتبه وميل الورع إلى التضييق وميل المتساهل إلى التوسيع حتى يرى نفسه محتاجاً إلى فنون من التوسيع وهو عمقوت في الشرع . ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذن مالا كثيراً بل ما يتم كفايته من وقت أخذه إلى سنة . فهذا أقصى ما يرخص فيه من حيث أن السنة إذا تكرر تكثرت أسباب الدخول . ومن حيث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ادخل لعياله قوت سنة ^(١) فهذا أقرب ما يجد به حد الفقير والمساكين ولو اقتصر على حاجة شهره أو حاجة يومه فهو أقرب للتقوى . ومذاهب العلماء في قدر المأخوذ بحكم الزكاة والصدقة مختلفة فمن مبالغ في التقليل إلى حد أوجب الاقتصاد على قدر قوت يومه وليته وتمسكوا بما روى سهل بن الحنظلية « أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن السؤال مع الغنى فمثل من ضاع فقال صلى الله عليه وسلم غداؤه وعشاؤه ^(٢) » وقال آخرون : يأخذ إلى حد الغنى . حد الغنى نصاب الزكاة إذ لم يوجب الله تعالى الزكاة إلا على الأغنياء فقالوا له أن يأخذ بنفسه ولكل واحد من عياله نصاب زكاة . وقال آخرون : حد الغنى خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب لما روى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وله مال يغنيه جاء يوم القيامة وفي وجهه خورش فسل وما غناه ؟ قال خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب ^(٣) » وقيل : راويه ليس بقوى وقال قوم : أو بعون ، لما رواه عطاء بن يسار منقطعاً أنه صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال ^(٤) » وبالع آخرون في التوسيع فقالوا : له أن يأخذ مقدار ما يشتري به ضيعة فيستغنى به طول عمره أو يهيئ بضاعة ليجر بها ويستغنى بها طول عمره لأن هذا هو الغنى وقد قال عمر رضي الله عنه : إذا أعطيتم فأغنوا ، حتى ذهب قوم إلى أن من افتقر فله أن يأخذ بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم إلا إذا خرج عن حد الاعتدال . ولما شغل أبو طلحة ببستانه عن الصلاة قال : جعلته صدقة . فقال صلى الله عليه وسلم « اجعله في قرابتك فهو خير لك ^(٥) » فأعطاه حسان وأبا قتادة . لحاط من نخل لرجلين كثير مغن وأعطى عمر رضي الله عنه أعرابياً ناقة معها ظئر لها ، فهذا ما حكي فيه فأما التقليل إلى قوت اليوم أو الأوقية فذلك ورد في كراهية السؤال والتردد على الأبواب وذلك مستنكر وله حكم آخر ، بل التجويز إلى أن يشتري ضيعة فيستغنى بها أقرب إلى الاحتمال وهو أيضاً مائل إلى الإسراف . والأقرب إلى الاعتدال كفاية سنة فأوراه فيه خطر وفيما دونه تضييق . وهذه الأمور إذا لم يكن فيها تقدير جزم بالترقيف فليس للمجتهد إلا الحكم بما يقع له . ثم يقال للورع « استفت قلبك وإن أفنوك وأفنوك ^(٦) » كما قاله صلى الله عليه وسلم إذ الإثم حراز القلوب ، فإذا وجد القابض في نفسه شيئاً عما يأخذه فليستق الله فيه ولا يترخص تعطلا بالفتوى من

(١) حديث « ادخل لعياله قوت سنة » أخرجه من حديث عمر « كان يعزل بقعة أهله سنة » والطبراني في الأوسط من حديث أنس « كان إذا ادخل لأهله قوت سنة تصدق عايق » قال الذهبي حديث منكر

(٢) حديث سهل بن الحنظلية « في النهي عن السؤال مع الغنى فيسأل ما لديه فقال غداؤه وعشاؤه » أخرجه أبو داود وابن حبان بلفظ « من سأل وله ما يغنيه فإنه يستكثر من جر جهنم .. الحديث » (٣) حديث ابن مسعود « من سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة وفي وجهه خورش » الحديث « أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذي وضعفه النسائي والخطابي » (٤) حديث عطاء بن يسار منقطعاً « من سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال » أخرجه أبو داود والنسائي من رواية عطاء عن رجل من بني أسد متصلاً وليس بمنقطع كما ذكر المصنف لأن الرجل صحابي فلا يضر عدم تسميته وأخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد (٥) حديث « لما شغل أبو طلحة ببستانه عن الصلاة قال جعلته صدقة » تقدم في الصلاة

(٦) حديث « استفت قلبك وإن أفنوك » تقدم في العلم .

علماء الظاهر وإن لفتواهم قيودا ومطلقات من الضرورات ، وفيها تخمينات واقتحام شبهات . والتوقى من الشبهات من شيم ذوى الدين وعادات السالكين لطريق الآخرة (الخامسة) أن يسأل صاحب المال عن قدر الواجب عليه فإن كان ما يعطيه فوق الثمن فلا يأخذه منه فإنه لا يستحق مع شريكه إلا الثمن فليستقص من الثمن مقدار ما يصرف إلى اثنين من صنفه . وهذا السؤال واجب على أكثر الخلق فإنهم لا يراعون هذه القسمة إما للجهل وإما للتساهل ، وإنما يحوز ترك السؤال عن مثل هذه الأمور إذا لم يغلب على الظن احتمال التحريم . وسيأتى ذكر مظان السؤال ودرجة الاحتمال فى كتاب الحلال والحرام إن شاء الله تعالى .

الفصل الرابع : فى صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها

بيان فضيلة الصدقة

من الأخبار : قوله صلى الله عليه وسلم « تصدقوا ولو بتمررة فإنها تسد من الجائع وتطنى الخطيئة كما يطنى الماء البار ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا إلا كان الله أخذها بيمينه فيربها كما يربى أحدكم فضيله حتى تبلغ التمرة مثل أحد ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا طبخت مرققة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله عز وجل الخلافة على تركته ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « الصدقة تسد سبعين بابا من الشر ^(٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « صدقة السر تطنى غضب الرب عز وجل وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الذى أعطى من سعة بأفضل أجرا من الذى يقبل من حاجة ^(٨) » ولعل المراد به الذى يقصد من دفع حاجته التفرغ للدين فيكون مساويا للبعطى الذى يقصد بإعطائه عمارة دينه . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الصدقة أفضل ؟ قال : أن تصدق وأنت صحيح تأمل البقاء وتحشى الفاقة ولا تمهل حتى إذا بلغت الخلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان ^(٩) » وقد قال صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه « تصدقوا فقال رجل إن عندى دينار فقال أنفقه على نفسك فقال : إن عندى آخر قال أنفقه

(١) حديث « تصدقوا ولو بتمررة فإنها تسد من الجائع وتطنى الخطيئة كما يطنى الماء البار » أخرجه ابن المبارك فى الرهد من حديث عكرمة مرسلا ولأحمد من حديث عائشة بسند حسن « استترى من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسددا من الشيطان » ولأبي يعلى والزارى من حديث أنى بكر « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإنها تقوم الدوج وتدفع ميتة السوء وتقع من الجائع موقعها من الشيطان » ولإسادة ضعيف والترمذى والنسائى فى الكبرى وابن ماجه فى حديث معاذ « والصدقة تطنى الخطيئة كما يطنى الماء النار » (٢) حديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » أخرجه من حديث عدى بن حاتم (٣) حديث « ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا » الحديث « أخرجه الحارثى تلميذا ومسلم والترمذى والنسائى فى الكبرى والألفاظ لابن ماجه من حديث أنى هريرة (٤) حديث « قال لأبى الدرداء إذا طبخت مرققة فأكثر ماءها .. الحديث » أخرجه من حديث أنى ذر أنه قال ذلك له وما ذكره المصنف أنه قال لأبى الدرداء وم (٥) حديث « ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله الخلافة على تركته » أخرجه ابن المبارك فى الرهد من حديث ابن شهاب مرسلا بإسناد صحيح وأسند الخطيب فيمن روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه (٦) حديث « كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم من حديث عقبة بن عامر (٧) حديث « الصدقة تسد سبعين بابا من الشر » أخرجه ابن المبارك فى البر من حديث أنس بسند ضعيف « لأن الله ليذرا فالصدقة سبعين بابا من ميستة السوء » (٨) حديث « ما المعطى من سعة بأفضل أجرا من الذى يقبل من حاجة » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء والطرائق فى الأوسط من حديث أنس ورواه فى الكبير من حديث ابن عمر بسند ضعيف (٩) حديث « مثل أى الصدقة أفضل قال أن تصدق وأنت صحيح صحيح ... الحديث » أخرجه من حديث أنى هريرة

على زوجته قال إن عندى آخر قال أنفق على ولدك قال إن عندى آخر قال أنفق على خادمك قال إن عندى آخر قال صلى الله عليه وسلم أنت أبصر به ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تحل الصدقة لآل محمد إنما هى أوساخ الناس » ^(٢) ، وقال « ردوا مدممة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام » ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لو صدق السائل ما أفلح من رده » ^(٤) ، وقال عيسى عليه السلام . من رد سائلا خائبا من بيته لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام « وكان نبينا صلى الله عليه وسلم لا يسكل خصلتين إلى غيره كان يضع طهوره بالليل ويخمره وكان يناول المسكين بيده » ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمران والقمة والقمة إنما المسكين المتعفف اقرءوا إن شئتم لا يسألون الناس إلخافا » ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما من مسلم يكسو مسلما إلا كان فى حفظ الله عز وجل مادامت عليه منه رقعة » ^(٧) ، * الآثار : قال عروة بن الزبير لقد تصدقت عائشة رضى الله عنها بخمسين ألفا وإن درعها المرقع وقال بجاهد فى قول الله عز وجل « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » فقال : وهم يتستهون به وكان عمر رضى الله عنه يقول : اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلمهم يعودون به على ذوى الحاجة منا . وقال عمر عبد العزيز : الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه . وقال ابن أبي الجعد : إن الصدقة لتدفع سبعين بابا من السوء وفضل سرها على علائقتها بسبعين ضعفا وإنها لتذك لكى سبعين شيطانا . وقال ابن مسعود : إن رجلا عبد الله سبعين سنة ثم أصاب فاحشة فأحبط عمله ثم مر بمسكين فتصدق عليه برعيف فغفر الله له ذنبه ورد عليه عمل السبعين سنة . وقال لقمان لابنه : إذا أخطأت خطيئة فأعط الصدقة . وقال يحيى بن معاذ ما عرف حبة ترز جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة . وقال عبد العزيز بن أبي رواد : كان يقال ثلاثة من كنوز الجنة كتبان المرض وكتبان الصدقة وكتبان المصائب . وروى مسندا وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن الأعمال تباها فقالت الصدقة أنا أفضل لكن . وكان عبد الله بن عمر يتصدق بالسكر ويقول سمعت الله يقول « إن تتالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » والله يعلم أنى أحب السكر . وقال النخعي : إذا كان الشيء لله عز وجل لا يسرفى أن يكون فيه عيب . وقال عبيد بن عمير : يحشر الناس يوم القيامة أحوج ما كانوا قط وأعطش ما كانوا قط وأعرى ما كانوا قط ، فمن أطعم الله عز وجل أشبعه الله ومن سقى الله عز وجل سقاه الله ومن كسا الله عز وجل كساه الله ، وقال الحسن : لو شاء الله لجمع لكم أغنياء لا فقير فيكم ولكنه ابتلى بعضكم ببعض . وقال الشعبي : من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه . وقال مالك : لا ترى بأسا بشرب المؤمن من الماء الذى يتصدق به ويسقى فى المسجد لأنه إنما جعل للعطشان من كان ، ولم يرد به أهل الحاجة والمسكنة على الخصوص ويقال : إن الحسن مر به نخاس

(١) حديث « قال يوما لأصحابه تصدقوا فقال رجل لى عندى دينار فقال أنفق على نفسك .. الحديث » أخرجه أبو دواد والنسائي والبيهقي وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة وقد تقدم قبل بسير

(٢) « حديث لا تحل الصدقة لآل محمد .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث المطالب بن ربيعة .

(٣) حديث « ردوا مدممة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام » أخرجه العقيلي فى الصنعاء من حديث عائمة

(٤) حديث « لو صدق السائل ما أفلح من رده » أخرجه العقيلي فى الصنعاء وابن عبد البر فى التمهيد من حديث عائشة ، قال العقيلي

لا يصح فى هذا الباب شيء وللطبرانى نحوه من حديث أبي أمامة بسند ضعيف (٥) حديث « كان لا يسكل خصلتين إلى غيره ..

الحديث » أخرجه الدارقطنى من حديث ابن عباس بسند ضعيف ورواه ابن المبارك فى البر مرسل

(٦) حديث « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمران .. الحديث » متفق عليه من حديث عائشة

(٧) حديث « ما من مسلم يكسو مسلما إلا كان فى حفظ الله .. الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه إسناده

من حديث ابن عباس وبه خالد بن طهسان ضعيف

ومعه حارية فقال للنخاس أترضى فى ثمنها الدرهم والدرهمين ؟ قال : لا ، قال فاذهب فإن الله عز وجل رضى فى الخور العين بالفلس واللقة .

بيان إخفاء الصدقة وإظهارها

قد اختلف طريق طلاب الإخلاص فى ذلك فقال قوم إلى أن الإخفاء أفضل ومال قوم إلى أن الإظهار أفضل ونحن نشير إلى ما فى كل واحد من المعانى والآفات ثم نكشف الغطاء عن الحق فيه .

أما الإخفاء ففيه خمسة معان (الأول) أنه أبقي للستر على الآخذ فإن أخذه ظاهراً هتك لستر المروءة وكشف عن الحاجة وخروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب الذى يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف . (الثانى) أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم فإنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ويظنون أنه آخذ مع الاستغناء أو ينسبون له إلى أخذ زيادة . والحسد وسوء الظن والغيبة من الذنوب الكبار وصياتهم عن هذه الجرائم أولى . وقال أبو أيوب السجستاني : إني لأترك لبس الثوب الحديد خشية أن يحدث فى جيراني حسداً . وقال بعض الرهاد : ربما تركت استعمال الشيء لأجل إخواني يقولون من أين له هذا ؟ وعن ابراهيم التيمي : أنه رأى عليه قيص جديد فقال بعض إخوانه من أين لك هذا ؟ فقال كسانيه أخى خيشمة ولو علمت أن أهله علموا به ما قبلته . (الثالث) إعانة المعطى على إسرار العمل فإن فضل السر على الجهر فى الإعطاء أكثر والإعانة على إتمام المعروف معروف ، والكتمان لا يتم إلا باثنين فهما أظهر هذا انكشف أمر المعطى . ودفع رجل إلى بعض العلماء شيئاً ظاهراً فردّه إليه ودفع إليه آخر شيئاً فى السر فقبله ، فقيل له فى ذلك فقال : إن هذا عمل الأدب فى إخفاء معروفه وقبلته وذلك أساء أده فى عمله فرددته عليه وأعطى رجل بعض الصوفية شيئاً فى الملاء فردّه فقال له : لم ترد على الله عز وجل ما أعطاك ؟ فقال : إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى ولم تقنع بالله عز وجل فرددت عليك شركك . وقبل بعض العارفين فى السر شيئاً كان رده فى العلانية فقبل له فى ذلك ؛ فقال عصيت الله بالجهر فلم أك عوناً لك على المعصية وأطعته بالإخفاء فأعنتك على برك وقال الثوري : لو علمت أن أحدهم لا يذكر صدقته ولا يتحدث بها لقبلك صدقته . (الرابع) أن فى إظهار الآخذ ذلاً وامتهاناً وليس للؤمن أن يذل نفسه . كان بعض العلماء يأخذ فى السر ولا يأخذ فى العلانية ويقول : إن فى إظهاره إذلالاً للعلم وامتهاناً لأهله فأكنت بالذى أرفع شيئاً من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله (الخامس) الاحتراز عن شبهة التركة قال صلى الله عليه وسلم « من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها ^(١) ، وبأن يكون ورقاً أو ذهباً لا يخرج عن كونه هدية قال صلى الله عليه وسلم « أفضل ما يهدى الرجل إلى أخيه ورقاً أو يطعمه خبزاً ^(٢) ، فجعل الورق هدية بانهفاده فما يعطى فى الملاء مكروه إلا برضا جميعهم ولا يخلو عن شبهة ، فإذا انفرد سلم من هذه الشبهة .

أما الإظهار والتحدث به ففيه معان أربعة (الأول) الإخلاص والصدق والسلامة عن تلبس الحال والمراعاة (الثانى) إسقاط الجاه والمنزلة وإظهار العبودية والمسكنة والتبرى عن الكبرياء ودعوى الاستغناء وإسقاط النفس من أعين الخلق . قال بعض العارفين لتلميذه : أظهر الآخذ على كل حال إن كنت آخذاً فإنك لا تخلو عن أحد رجلين :

(١) حديث « من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها » أخرجه العقيلي وابن حبان فى الضعفاء والطبرانى فى الأوسط والبيهقى من حديث ابن عباس قال العقيلي لا يصح فى هذا المتن حديث (٢) حديث « أفضل ما يهدى الرجل إلى أخيه ورقاً أو يطعمه خبزاً » أخرجه ابن عدى وضعفه من حديث ابن عمر « أفضل العمل عند الله أن يقضى من مسلم دينه أو يدخل عليه سروراً أو يطعمه خبزاً » ولأحمد والترمذى وصححه من حديث البراء « من منح منحة ورق أو منحة لبن أو أهدى رقفاً فهو كمنافق نسمة »

رجل تسقط من قلبه إذا فعلت ذلك فذلك هو المراد لأنه أسلم لدينك وأقل لآفات نفسك ، أورد رجل تزداد في قلبه بإظهارك الصدق فذلك الذي يريد أخوك لأنه يزداد ثواباً بزيادة حبه لك وتعظيمه إياك فتوَجَّرَأنت إذ كنت سبب مزيد ثوابه . (الثالث) هو أن العارف لا نظر له إلا إلى الله عز وجل والسر والعلائية في حقه واحد باختلاف الحال شرك في التوحيد . قال بعضهم : كنا لانعبأ بدعاء من يأخذ في السر ويرد في العلانية . والالتفات إلى الخلق حضروا أم غابوا نقصان في الحال ، بل ينبغي أن يكون النظر مقصور على الواحد الفرد . حكى أن بعض الشيوخ كان كثير الميل إلى واحد من جملة المريدين هشق على الآخرين فأراد أن يظهر لهم فضيلة ذلك المريد ، فأعطى كل واحد منهم دجاجة وقال : لينفرد كل واحد منكم بها وليذبجها حيث لا يراه أحد . فاتفرد كل واحد وذبح إلا ذلك المريد فإنه رد الدجاجة ، فسألهم فقالوا : فعلنا ما أمرنا به الشيخ ، فقال الشيخ للمريد : مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال ذلك المريد . لم أقدر على مكان لا يراني فيه أحد فإن الله يراني في كل موضع ، فقال الشيخ : لهذا أميل إليه لأنه لا يلتفت لغير الله عز وجل . (الرابع) أن الإظهار إقامة لسنة الشكر وقد قال تعالى ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ والسكتان كفران النعمة وقد ذم الله عز وجل من كتم ما آتاه الله عز وجل وقرنه بالبخل فقال تعالى ﴿ الذين يبخلون ويأمرزون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن ترى نعمته عليه ^(١) ، وأعطى رجل بعض الصالحين شيئاً في السر فرفع به يده وقال : هذا من الدنيا والعلانية فيها أفضل والسر في أمور الآخرة أفضل . ولذلك قال بعضهم . إذا أعطيت في المأخذ ثم اردد في السر والشكر فيه محثوث عليه . قال صلى الله عليه وسلم « من لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل ^(٢) ، والشكر قائم مقام المكافأة حتى قال صلى الله عليه وسلم « من أسدى إليكم معروفًا فكافؤوه فإن لم تستطيعوا فأثموا عليه به حيرا وادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه ، ولما قال المهاجرون في الشكر « يا رسول الله ما رأينا خيراً من قوم نزلنا عندهم قاسمونا الأموال حتى خفنا أن يذهبوا بالآجر كله فقال صلى الله عليه وسلم كل ما شكرتم لهم وأثنيتم عليهم به فهو مكافأة ^(٣) » .

فالآن إذا عرفت هذه المعاني فاعلم أن ما نقل من اختلاف الناس فيه ليس اختلافاً في المسئلة بل هو اختلاف حال ، فكشف الغطاء في هذا أنا لانحكم حكماً بتأنا بأن الإخفاء أفضل في كل حال أو الإظهار أفضل بل يختلف ذلك باختلاف النيات وتختلف البيات باختلاف الأحوال والأشخاص . فينبغي أن يكون المخلص مراقباً لنفسه حتى لا يتبدل بجبل الغرور ولا يتخدد بتبليس الطبع ومكر الشيطان والمكر والخداع أغلب في معاني الإخفاء منه في الإظهار مع أن له دخلاً في كل واحد منهما . فأما مدخل الخداع في الإسرار فمن ميل الطبع إليه لما فيه من في خفض الجاه والمنزلة وسقوط القدر عن أعين الناس ونظر الخلق إليه بعين الازدراء وإلى المعطى بعين المنعم المحسن فهذا هو الداء الدفين ويستكن في النفس . والشيطان بواسطته يظهر معاني الخير حتى يتعامل بالمعاني الخسة التي ذكرناها . ومعيار كل ذلك ومحكمه أمر واحد وهو أن يكون تأمله بانكشاف أخذه الصدقة كتأمله بانكشاف صدقة أخذهما بعض نظرائه وأمثاله ، فإنه إن كان ينبغي صيانة الناس عن الغيبة والحسد وسوء الظن أو يتق

(١) حديث « إذا أنعم الله تعالى على عبد نعمة أحب أن ترى نعمته عليه » أخرجه أحمد من حديث عمران بن حصين بسند صحيح وحسنه الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . (٢) حديث « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » تقدم . (٣) حديث « قالت المهاجرون يا رسول الله ما رأينا خيراً من قوم نزلنا عنهم » أخرجه الترمذي وصححه من حديث أنس ورواه مختصراً أبو داود والبيهقي في اليوم واليلة والحاكم وصححه ابن ماجه

انتهاك السر أو إعانة المعطى على الإسرار أو صيانة العلم عن الابتذال فكل ذلك مما يحصل بانكشاف صدقة أخيه ، فإن كان انكشاف أمره أثقل عليه من انكشاف أمر غيره فتقديره الحذر من هذه المعاني أغاليظ وأباطيل من مكر الشيطان وخدعه ، فإن إذلال العلم محدود من حيث إنه علم لا من حيث إنه علم زيد أو علم عمرو . والغية محدورة من حيث إنها تعرض لعرض مصون لا من حيث إنها تعرض لعرض زيد على الخصوص ومن أحسن من ملاحظة مثل هذا ربما يعجز الشيطان عنه وإلا فلا يزال كثير العمل قليل الخط . وأما جانب الإظهار فيل الطبع إليه من حيث إنه تطيب لقلب المعطى واستحثاث له على مثله وإظهاره عند غيره أنه من المبالغين في الشكر حتى يرغبوا في إكرامه وتفقدوه وهذا داء دفين في الماطن ، والشيطان لا يقدر على المتدين إلا بأن يروج عليه هذا الخبث في معرض السنة ويقول له الشكر من السنة والإخفاء من الرياء ويورد عليه المعاني التي ذكرناها ليحمله على الإظهار وقصده الباطن ما ذكرناه ومعياري ذلك ومحكمه أن ينظر إلى ميل نفسه إلى الشكر حيث لا ينتهي الخبر إلى المعطى ولا إلى من يرغب في عطائه ؛ وبين يدي جماعة يكرهون إظهار العطية ويرغبون في إخفائها وعادتهم أنهم لا يعطون إلا من يخفى ولا يشكر . فإن استوت هذه الأحوال عنده فليعلم أن باعته هو إقامة السنة في الشكر والتحدث بالنعمة وإلا فهو مغرور . ثم إذا علم أن باعته السنة في الشكر فلا ينبغي أن يعمل عن قضاء حق المعطى فينظر فإن كان هو من يجب الشكر والذم فيجب أن يحسن ولا يشكر ، لأن قضاء حقه أن لا ينصره على الظلم وطلبه الشكر ظلم . وإذا علم من حاله أنه لا يجب الشكر ولا يقصده فعند ذلك يتكره ويظهر صدقته . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي مدح بين يديه « ضربتم عنقه لو سمعها ما أفلح »^(١) ، مع أنه صلى الله عليه وسلم كان يثنى على قوم في وجوههم لثقتهم بيقينهم وعلمه بأن ذلك لا يضرهم بل يريد في رغبتهم في الخير فقال لواحد « إنه سيد أهل الوبر »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم في آخر « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه »^(٣) ، وسمع كلام رجل فأعجبه فقال صلى الله عليه وسلم « إن من البيان لسحراً »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه »^(٥) ، وقال الثوري : من عرف نفسه لم يضره مدح الناس . وقال أيضاً ليوسف بن أسباط : إذا أوليتك معروفا كنت أنا أسر به منك ورأيت ذلك نعمة من الله عز وجل على فاشكر وإلا فلا تشكر . ورقائق هذه المعاني ينبغي أن يلحظها من يراعى قلبه فإن أعمال الجوارح مع إهمال هذه الدقائق صالحة للشيطان وشماته له لكثرة التعب وقلة النفع ، ومثل هذا العلم هو الذي يقال فيه : إن تعلم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة إذ بهذا العلم تحيا عبادة العمل وبالجهل به تموت عبادة العمل كله وتتعلل . وعلى الجملة فالأخذ في الملأ والرد في السر أحسن المسالك وأسلمها ، فلا ينبغي أن يدفع بالتزويقات إلا أن تكمل المعرفة

(١) حديث « قال للرجل الذي مدح بين يديه ضربتم عنقه لو سمعها ما أفلح » متفق عليه من حديث أبي بكر بن داود « ويحك قطعت عنق صاحبك » راد الطبراني في رواية « والله لو سمعها ما أفلح أبدا » وفي نسخة على بن زيد بن جدهان متكلم فيه وابن ماجه نحوه من حديث أبي موسى (٢) حديث « إنه سيد أهل الوبر » أخرجه الألباني والطبراني وابن قانع في معاجمهم وابن حبان في الثقات من حديث قيس بن عاصم المقرئ « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له ذلك » .

(٣) حديث « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر ورواه أبو داود في المراسيل من حديث الشعبي مرسلًا بسند صحيح وقال روى متصلًا وهو صيفي والحاكم نحوه من حديث معبد بن خالد الأعمري عن أبيه وصححه إسناده (٤) حديث « إن من البيان لسحراً » أخرجه البخاري من حديث ابن عمر

(٥) حديث « إذا علم أحدكم من أخيه خيرا فليخبره فإنه يزداد رعة في الخير » أخرجه الدارقطني في المال من رواية ابن المسيب عن أبي هريرة . وقال لا يصح عن الزهري وروى عن ابن المسيب مرسلًا

(٦) حديث « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه » أخرجه الطبراني من حديث أسامة بن زيد بسند ضعيف

بحيث يستوى السر والعلانية وذلك هو الكبريت الأحمر الذى يتحدث به ولا يرى . نسأل الله الكريم حسن العون والتوفيق .

بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة

كان إبراهيم الخواص والجنيد وجماعة يرون أن الآخذ من الصدقة أفضل فإن فى أخذ الزكاة مزاحمة للمساكين وتضييقا عليهم ولأنه ربما لا يكمل فى أخذه صفة الاستحقاق كما وصف فى الكتاب العزيز وأما الصدقة فالأمر فيها أوسع . وقال قائلون : بأخذ الزكاة دون الصدقة لأنها إعانة على الواجب . ولوترك المساكين كلهم أخذ الزكاة لأنهم : ولأن الزكاة لأمنة فيها وإنما هو حق واجب لله سبحانه رزقا لعباده المحتاجين . ولأنه أخذ بالحاجة والإنسان يعلم حاجة نفسه قطعاً . وأخذ الصدقة أخذ بالدين فإن العال أن المتصدق يعطى من يعتقد فيه حيراً ؛ ولأن مرافقة المساكين أدخل فى الذل والمسكنة وأبعد من التكبر ؛ إذ قد يأخذ الإنسان الصدقة فى معرض الهدية فلا تتميز عنه ؛ وهذا تنصيص على ذل الآخذ وحاجته . والقول الحق فى هذا يختلف بأحوال الشخص وما يغلب عليه وما يحضره من النية فإن كان فى شبهة من اتصافه بصفة الاستحقاق فلا ينبغي أن يأخذ الزكاة . فإذا علم أنه مستحق قطعاً إذا حصل عليه دين صرفه إلى خير وليس له وجه فى قضاءه وهو مستحق قطعاً . فإذا خير هذا بين الزكاة وبين الصدقة فإذا كان صاحب الصدقة لا يتصدق بذلك المال لو لم يأخذه هو فليأخذ الصدقة ؛ فإن الزكاة الواجبة يصرفها صاحبها إلى مستحقها فى ذلك تكثير للخير وتوسيع على المساكين . وإن كان المال معزواً للصدقة ولم يكن فى أخذ الزكاة تضييق على المساكين وهو خير والأمر بهما يتفاوت وأخذ الزكاة أشد فى كسر النفس وإذلالها فى أغلب الأحوال والله أعلم .

كل كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ؛ ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصوم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى الملائكة والمقرئين من أهل السموات والأرضين وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل ،

كتاب أسرار الصوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أعظم على عباده المنّة ، بما دفع عنهم كيد الشيطان وفنه ، ورد أملة وخيب ظنه ؛ إذ جعل الصوم حصناً لأولياته وجنة ، وفتح لهم به أبواب الجنة ، وعرفهم أن وسيلة الشيطان إلى قلوبهم الشهوات المستكنة ، وإن بقيعها تصبح النفس المطمئنة ظاهرة الشوكة فى قصم خصمها قوية المنّة ، والصلاة على محمد قائد الخلق ومهد السنة وعلى آله وأصحابه ذوى الأنصار الثابتة والعقول المرجحة وسلم تسليماً كثيراً . أما بعد : فإن الصوم ربح الإيمان بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصوم نصف الصبر »^(١) ، وبمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف

كتاب أسرار الصيام

(١) حديث « الصوم نصف الصبر » أخرجه الترمذى وحسنه من حديث رجل من بنى سليم وابن ماجه من حديث أبى هريرة

الإيمان ^(١) ، ثم هو متميز بحاصية النسبة إلى الله تعالى من بين سائر الأركان إذ قال الله تعالى فيما حكاه عنه نبيه صلى الله عليه وسلم « كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعائة ضعف إلا الصيام فإنه لي وأنا أجرى به » ^(٢) ، وقد قال الله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) والصوم نصف الصبر فقد جاوز ثوابه قانون التقدير والحساب وناهيك في معرفة فضله قوله صلى الله عليه وسلم ، والذي نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عنده الله من ريح المسك يقول الله عز وجل إنما ينذر شهوته وطعامه وشرابه لأحلى فالصوم لي وأنا أجرى به ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « للجنة باب يقال له الريان لا يدخله إلا الصائمون وهو موعود بقاء الله تعالى في جزء صومه » ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « للصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه » ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لكل شيء باب وباب العبادة الصوم » ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « نوم الصائم عبادة » ^(٧) ، وروى أبو هريرة رضي الله عنه « أنه صلى الله عليه وسلم قال : إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين ونادى مناد يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر » ^(٨) ، وقال وكيع في قوله تعالى (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) هي أيام الصيام إذ تركوا فيها الأكل والشرب وقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رتبة المساهاة بين الزهد في الدنيا وبين الصوم فقال « إن الله تعالى يباهى ملائكته بالشباب العابد فيقول : أيها الشاب التارك شهوته لأحلى المبدل شبابه لي أنت عندى كبعض ملائكتي » ^(٩) ، وقال صلى الله عليه وسلم في الصائم « يقول الله عز وجل : انظروا يلا ملائكتي إلى عبدي ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجل » ^(١٠) ، وقيل في قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين حراء بما كانوا يعملون) قيل كان عملهم الصيام لأنه قال (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) فيفرغ للصائم حزاؤه إفراغا ويجازف جزافا فلا يدخل تحت وهم وتقدير ، وحدير بأن يكون كذلك لأن الصوم إنما كان له ومشرفا بالنسبة إليه وإن كانت العبادات كلها له كما شرف البيت بالنسبة إلى نفسه والأرض كلها له لمعنيين ؛ أحدهما : أن الصوم كف وترك وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد . وجميع أعمال الطاعات ممتهد من الخلق ومرأى والصوم لا يراه إلا الله عز وجل فإنه عمل في الباطن بالصبر المحترق . والثاني : أنه قهر لعدو الله عز وجل فإن وسيلة الشيطان لعنة الله الشهوات ؛ وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان

(١) حديث « الصبر نصف الإيمان » أخرجه أبو نعيم في الحلية والطبيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بسند حسن

(٢) حديث « كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعائة ضعف إلا الصوم الحديث . . » أخرجه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث « والذي نفسى بيده لخلوف فم الصائم . . الحديث » أخرجه من حديثه وهو بعض الذي قلناه

(٤) حديث « للجنة باب يقال له الريان . . الحديث » أخرجه من حديث سهل بن سعد (٥) حديث للصائم فرحتان . .

الحديث « أخرجه من حديث أبي هريرة (٦) حديث « لكل شيء باب وباب العبادة الصوم » أخرجه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه أبو الشيخ في الثواب من حديث أبي الرداء بسند ضعيف (٧) حديث « نوم الصائم عبادة » رويناه في أمالي ابن منبه من رواية ابن المعمدة القواس عن عبد الله بن عمر بسند ضعيف ولعله عبد الله بن عمرو فاهم لم يذكروا لابن المعمدة رواية إلا عنه ، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عبد الله بن أبي أوفى وفيه سليمان بن عمرو الحمصي أحد السكندانيين

(٨) حديث « إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة » أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي هريرة وصحح البخاري وفيه على محاهد وأصله متفق عليه دون قوله « وبأذى ماد »

(٩) حديث « إن الله تعالى يباهى ملائكته بالإنسان الماند فيقول أيها الشاب التارك شهوته . . الحديث » أخرجه ابن عدي من

حديث ابن مسعود بسند ضعيف (١٠) حديث « يقول الله تعالى للملائكة ياملائكتي انظروا إلى عبدي ترك شهوته ولذته

وطعامه وشرابه من أجل »

ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع ^(١) ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها « داومي قرع باب الجنة » قالت : بماذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : بالجوع ^(٢) ، - وسيأتى فضل الجوع في كتاب : شره الطعام - وعلاج ، من ربيع المهلكات - فلما كان الصوم على الخصوص قبيحا للشيطان وسدا لمسالكه وتضييقا لمجاريه استحق التخصيص بالنسبة إلى الله عز وجل ففي قرع عدو الله نصرة لله سبحانه وناصر الله تعالى موقوف على النصرة له قال الله تعالى (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) فالبداية بالجهاد من العبد والجزاء بالهداية من الله عز وجل ولذلك قال تعالى (والذين حاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقال تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وإنما التغير تكثير الشهوات فهي مرتع الشياطين ومرعاهم فما دامت محضبة لم ينقطع تردددهم وبها داموا يترددون لم ينكشف للعبد جلال الله سبحانه وكان محجوبا عن لقاءه . وقال صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات ^(٣) » فمن هذا الوجه صار الصوم باب العبادة وصار جنة وإذا عظمت فضيلته إلى هذا الحد فلا بد من بيان شروطه الطاهرة والباطنة بذكر أركانه وسننه وشروطه الباطنة ، ونبين ذلك بثلاثة فصول .

الفصل الأول : في الواجبات والسنن الظاهرة واللوامز بإفساده

أما الواجبات الظاهرة فسته

(الأول) مراقبة أول شهر رمضان وذلك برؤية الهلال فإن غم فاستكمال ثلاثين يوما من شعبان . ونعني بالرؤية العلم « ويحصل ذلك بقول عدل واحد . ولا يثبت هلال شوال إلا بقول عدلين احتياطا للعبادة . ومن سمع عدلا ووثق بقوله وغلب على ظنه صدقه لزمه الصوم وإن لم يقض القاضي به فليتبع كل عبد في عبادته موجب ظنه ، وإذا رأى الهلال ببلدة ولم ير بأخرى وكان بينهما أقل من مرحلتين وحب الصوم على الكل ، وإن كان أكثر كان لكل بلدة حكمها ولا يتعدى الوجوب (الثاني) النية : ولا بد لكل ليلة من نية مبينة معينة جازمة فلو نوى أن يصوم شهر رمضان دفعة واحدة لم يكفه ، وهو الذي عنينا بقولنا « كل ليلة » ولو نوى بالنهار لم يحزه صوم رمضان ولا صوم الفرض إلا التطوع ، وهو الذي عنينا بقولنا « مبينة » ولو نوى الصوم مطلقا أو الفرض مطلقا لم يحزه حتى ينوى فريضة الله عز وجل صوم رمضان ولو نوى ليلة الشك أن يصوم غدا إن كان من رمضان لم يحزه فإنها ليست جازمة إلا أن تستند نيته إلى قول شاهد عدل ، واحتمال غلط العدل أو كذبه لا يبطل الجزم أو يستند إلى استصحاب حال كالشك في الليلة الأخيرة من رمضان ، فذلك لا يمنع جزم النية أو يستند إلى اجتهد كالمحبوس في المطمورة إذا غلب على ظنه دخول رمضان باجتهاده فشكه لا يمنعه من النية . ومهما كان شاكا ليلة الشك لم ينفعه جزمه الية باللسان فإن النية محلها القلب . ولا يتصور فيه جزم القصد مع الشك كما لو قال في وسط رمضان : أصوم غدا إن كان من رمضان فإن ذلك لا يضره لأنه ترديد لفظ ومحل النية لا يتصور فيه تردد بل هو قاطع بأنه من رمضان : ومن نوى ليلا ثم أكل لم تفسد نيته ولو نوت امرأة في الحيض ثم ظهرت قبل الفجر صبح صومها (الثالث) الإمساك عن إيصال شيء إلى الجوف عمدا مع ذكر الصوم فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحفنة . ولا يفسد بالفصد والحجامة

(١) حديث « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم .. الحديث » متفق عليه من حديث صفية دون قوله « فضيقوا مجاريه بالجوع » (٢) حديث « قال لعائشة داومي قرع باب الجنة . الحديث » لم أجده أصلا
(٣) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم .. الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه

الاكتحال وإدخال الميل في الأذن والإحليل إلا أن يقطر فيه ما يبلغ المائنة وما يصل بغير قصد من غبار الطريق . ذبابة تسبق إلى جوفه أو ما يسبق إلى جوفه في المضمضة ، فلا يفطر إلا إذا بالغ في المضمضة فيفطر نه مقصر وهو الذي أردنا بقولنا « عمدا » ، فأما ذكر الصوم فأردنا به الاحتراز عن الناس فإنه لا يفطر .
 ١ من أكل عامدا في طرفي النهار ثم ظهر له أنه أكل هارا بالتحقيق فعليه القضاء وإن بقي على حكم ظنه واجتهاده .
 ٢ قضاء عليه ولا ينبغي أن يأكل في طرفي النهار إلا بنظر واجتهاد . (الرابع) الإمساك عن الجماع : وحده مغيب لشبهة وإن جامع ناسيا لم يفطر وإن جامع ليلا أو احتمل فأصبح جنباً لم يفطر وإن طلع الفجر وهو مخاطأهله فززع الحال صح صومه فإن صبر فسد ولزمته الكفارة . (الخامس) الإمساك عن الاستمناء : وهو إخراج المني قصداً باع أو بغير جماع فإن ذلك يفطر ولا يفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها ما لم ينزل ، لكن يكره ذلك إلا أن يكون بخا أو مالكا لإربه ، فلا بأس بالتقيل وتركه أولى . وإذا كان يخاف من التقيل أن ينزل فقبل وسبق المني أفطر نصيره . (السادس) الإمساك عن إخراج القيء فالاستقاء يفسد الصوم وإن ذرعه القيء لم يفسد صومه ، وإذا لمع نخامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى به إلا أن يتلعه بعد وصوله إلى فيه فإنه طار عند ذلك .

وأما لوازم الإفطار فأربعة

القضاء والكفارة والغدية وإمساك بقية النهار تشبها بالصائمين . أما القضاء : فوجوبه عام على كل مسلم مكلف يك الصوم بعذر أو بغير عذر ، فالحائض تقضى الصوم وكذا المرتد . وأما الكافر والصبي والمجنون فلا قضاء عليهم لا يشترط التتابع في قضاء رمضان ولكن يقضى كيف شاء متفرقا ومجموعا .
 وأما الكفارة : فلا تجب إلا بالجماع . وأما الاستمناء والأكل والشرب وما عدا الجماع لا يجب به كفارة فالكفارة تنق رقة فإن أعسر فصوم شهرين متتابعين وإن عجز فإطعام ستين مسكينا مدا .
 وأما إمساك بقية النهار : فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه . ولا يجب على الحائض إذا ظهرت إمساك بية نهارها ولا على المسافر إذا قدم مفطرا من سفر بلغ مرحلتين . ويجب الإمساك إذا شهد بالهلال عدل واحد رم الشك . والصوم في السفر أفضل من الفطر إلا إذا لم يطق ولا يفطر يوم يخرج وكان مقيا في أوله ولا يوم ندم إذا قدم صائما .
 وأما الغدية : فتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفا على ولديهما ، لكل يوم مده حنطة لمسكين واحد مع قضاء والشيخ الهرم إذا لم يصم تصدق عن كل يوم مدا .
 وأما السنن فست : تأخير السحور ؛ وتعجيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة ، وترك السواك بعد الزوال ، الجود في شهر رمضان لما سبق من فضائله في الزكاة ، ومدارسة القرآن ، والاعتكاف في المسجد ، لاسيا في العشر الأخير فهو عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان إذا دخل العشر الأخير طوى الفراش وشد المئزر ودأب أدأب أهله ^(١) ، أى أداموا النصب في العبادة إذ فيها ليلة القدر والأغلب أنها في أوتارها وأشبه الأوتار ليلة إحدى ثلاث وخمس وسبع . والتتابع في هذا الاعتكاف أولى فإن نذر اعتكافا متتابعا أو نواه انقطع تتابعه بالخروج من

(١) حديث « كان إذا دخل العشر الأخير طوى الفراش .. الحديث » متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « أحيا الليل وأيقظ

هله وجد وشد المئزر » .

غير ضرورة؛ كما لو خرج لقيادة أو شهادة أو جنازة أو زيارة أو تجديد طهارة، وإن خرج لقضاء الحاجة لم ينقطع وله أن يتروصاً في البيت. ولا ينبغي أن يعرج على شغل آخر «كان صلى الله عليه وسلم لا يخرج إلا لحاجة الإنسان ولا يسأل عن المريض إلا ماراً»^(١)، ويقطع التتابع بالجماع ولا يقطع بالتقيل. ولا بأس في المسجد بالطيب وعقد النكاح وبالأكل والنوم وغسل اليد في الطست فكل ذلك قد يحتاج إليه في التتابع. ولا ينقطع التتابع بخروج بعض بدنه «كان صلى الله عليه وسلم يدني رأسه فترحله عائشة رضي الله عنها وهي في الحجرة»^(٢)، ومهما خرج المعتكف لقضاء حاجته فإذا عاد ينبغي أن يستأنف النية إلا إذا كان قد نوى أولاً عشرة أيام مثلاً. والأفضل مع ذلك التجديد.

الفصل الثاني : في أسرار الصوم وشروطه الباطنية

اعلم أن الصوم ثلاث درجات : صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص. أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق تفصيله. وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام. وأما صوم خصوص الخصوص فهو كف القلب عن الهضم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عز وجل والبوم الآخر وبالفكر في الدنيا إلا دنيا تراد للدين، فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا حتى قال أرباب القلوب : من تحركت همته بالتصرف في نهاره اتدبير ما يفطر عليه كتمت عليه حطيئة، فإن ذلك من قلة الوثوق بفضل الله عز وجل وقلة اليقين برزقة الموعود، وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين ولا يطول النظر في تفصيلها قولا ولكن في تحقيقها عملا، فإنه إقبال بكنهه الهمة على الله عز وجل وانصراف عن غير الله سبحانه وتلبس بمعنى قوله عز وجل ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ وأما صوم الخصوص وهو صوم الصالحين فهو كف الجوارح عن الآثام وتسامه ستة أمور : الأول : غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره وإلى كل ما يشغل القلب ويلهى عن ذكر الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم « النظره سهم مسموم من سهام إبليس لعهن الله من تركها خوفا من الله آتاه الله عز وجل إيمانا يمجده حلاوته في قلبه »^(٣)، وروى جابر عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « خمس يفطرن الصائم الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظر بشهوة »^(٤). الثاني : حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء، وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله سبحانه وتلاوة القرآن فهذا صوم اللسان. وقد قال سفيان : الغيبة تفسد الصوم. رواه بشر بن الحارث عنه. وروى ليث عن مجاهد : خصلتان يفسدان الصيام الغيبة والكذب. وقال صلى الله عليه وسلم « إنما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إلى صائم إلى صائم »^(٥)، وجاء في الخبر « أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تتلفا فبعثتا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذناه في الإفطار فأرسل إليهما قدحا وقال صلى الله عليه وسلم : قل لهما

(١) حديث « كان لا يخرج إلا للحاجة ولا يسأل عن المريض إلا ماراً » متفق على الشطر الأول من حديث عائشة والشارح الثاني « رواه أبو داود نحوه بإسنادين » (٢) حديث « كان يدني رأسه لعائشة » متفق عليه من حديثها (٣) حديث « النظره سهم مسموم من سهام إبليس .. الحديث » أخرجه الحاكم وصححه إسناده من حديث حذيفة (٤) حديث جابر عن أنس « خمس يفطرن الصائم ... الحديث » أخرجه الأزدى في الضعفاء من رواية جابان عن أنس وقوله جابر تصحيف قال أبو حاتم الرازي هذا كذاب (٥) حديث « الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائما .. الحديث » أخرجه من حديث أبي هريرة

قيثا فيه ما أكلتما فقامت إحداهما نصفه دما عيطا ولما غريضا وقامت الأخرى مثل ذلك حتى ملأناه فوجب الناس من ذلك فقال صلى الله عليه وسلم هاتان صامتتا عما أحل الله لها وأفطرتا على ما حرم الله تعالى عليهما . فعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلتا يعتابان الناس فهذا ما أكلتما من لحومهم^(١) ، الثالث : كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه ولذلك سوى الله عز وجل بين المستمع وآكل السحت فقال تعالى ﴿ سماعون للكذب أكلون للسحت ﴾ وقال عز وجل ﴿ لولا ينهائم الربايون والآخر عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ﴾ فالسكوت على الغيبة حرام وقال تعالى ﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : المغتاب والمستمع شريكان في الإثم^(٢) ، الرابع : كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل عن المكاره ، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار . فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام . فثال هذا الصائم مثال من يبني قصرا ويهدم مصرا فإن الطعام الحلال إنما يضرب كثرته لابنوعه ، فالصوم لتقليله . وتارك الاستكثار من الدواء خوفا من ضرره إذا عدل إلى تناول السم كان سفيها . والحرام سم مهلك للدين . والحلال دواء ينفع قليله ويضر كثيره . وقصد الصوم تقليله . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش^(٣) » ، فقل هو الذي يفطر على الحرام ، وقيل هو الذي يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو حرام ، وقيل هو الذي لا يحفظ حوارحه عن الآثام . الخامس : أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ^(٤) خوفا من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من لطن ملي^(٥) من حلال . وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاهه ضخوة نهاره وربما يريد عليه في ألوان الطعام ؟ حتى استمرت العادات بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر . ومعلوم أن مقصود الصوم الحواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى . وإذا دفعت المعدة من ضخوة نهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها ثم أطعمت من اللذات وأشبع رادت لذتها وتضاعفت قوتها وانبعثت من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها . فروح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور ، وإن يحصل ذلك إلا بالتقليل وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لولم يصم فأما إذا جمع ما كان يأكل ضخوة إلى ما كان يأكل ليلا فلم ينتفع بصومه . بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القوى فيصفو عند ذلك قلبه ويستديم في كل ليلة قدرا من الضعف حتى يخف عليه تهجده وأوراده ، فعسى الشيطان أن لا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء . وليلة القدر عبارة عن الليلة التي ينكشف فيها شيء من الملكوت وهو المراد بقوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر) ومن جعل بين قلبه وبين صدره خلاة من الطعام فهو عنه محجوب . ومن أخلى معدته فلا يكتفيه ذلك لرفع الحجاب مالم يخل همته عن غير الله عز وجل وذلك هو الأمر كله . ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام . وسيأتي له مزيد بيان في كتاب الأطعمة إن شاء الله عز وجل . السادس : أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقا مضطربا بين الخوف والرجاء إذ ليس يدرى أيقبل صومه فهو من المقرين أو يرد عليه فهو من المعقوتين ؟ وليكن كذلك في آخر كل عبادة يفرغ

(١) حديث « أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » في المية للصائم أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث بسند فيه مجهول (٢) حديث « المتاب والسمع شريكان في الإثم » غريب ولطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى المية (٣) حديث « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » أخرجه الدسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة

منها فقد روى عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه مرقوم وهم يضحكون فقال : إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه لطاعته فسبق قوم ففازوا وتخلف أقوام فخابوا فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه السابقون وخاب فيه المبطلون . أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته أى كان سرور المقبول يشغله عن اللعب وحسرة المردود تستد عليه باب الضحك . وعن الاحنف بن قيس : أنه قيل له إنك شيخ كبير وإن الصيام يضعفك فقال : إني أعده لسفر طويل والصبر على طاعة الله سبحانه أهون من الصبر على عذابه . فهذه هي المعاني الباطنة في الصوم * فإن قلت : فمن اقتصر على كف شهوة البطن والفرج وترك هذه المعاني فقد قال الفقهاء . صومه صحيح فما معناه ؟ فاعلم أن فقهاء الظاهر يثبتون شروط الظاهر بأدلة هي أضعف من هذه الأدلة التي أوردناها في هذه الشروط الباطنة لاسيما الغيبة وأمثالها ، ولكن ليس إلى فقهاء الظاهر من التكاليف إلا ما يتيسر على عموم الغافلين المقبلين على الدنيا الدخول تحته . فأما علماء الآخرة فيعنون بالصحة القبول والقبول الوصول إلى المقصود . ويفهمون أن المقصود من الصوم التخلص بخلق من أخلاق الله عز وجل وهو الصمدية ، والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان فإنهم منزهون عن الشهوات . والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه وكونه مبتلى بمجاهدتها ، فكلما انهمك في الشهوات انحط إلى أسفل السافلين والتحق بغمار البهائم ، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة . والملائكة مقرَّبون من الله عز وجل والذي يقتدى بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله عز وجل كقربهم ، فإن التشبيه من القريب قريب ، وليس القرب ثم بالمكان بل بالصفات . وإذا كان هذا سر الصوم عند أرباب الآلِباب وأصحاب القلوب فأى جدوى لتأخير أكلة وجمع أكلتين عند العشاء مع الانهماك في الشهوات الآخر طول النهار ؟ ولو كان لمثله جدوى فأى معنى لقوله صلى الله عليه وسلم « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش ، ولهذا قال أبو الدرداء : يا حبيذا يوم الآكياس وفطرم كيف لا يعيرون صوم الحق وسهرهم ! ولذرة من ذوى يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغترِّبين . ولذلك قال بعض العلماء كم من صائم مفطر وكَم من مفطر صائم . والمفطر الصائم هو الذى يحفظ جوارحه عن الآثام ويأكل ويشرب ، والصائم المفطر هو الذى يجوع ويعطش ويطلق جوارحه . ومن فهم معنى الصوم وسره علم أن مثل من كف عن الأكل والجماع وأفطر بمخالطة الآثام كن مسح على عضو من أعضائه في الرضوء ثلاث مرات فقد وافق في الظاهر العدد إلا أنه ترك المهم وهو الغسل فصلاته مردودة عليه بجهله ، ومثل من أفطر بالأكل وصام بجوارحه عن المكاره كن غسل أعضائه مرة مرة فصلاته متقبلة إن شاء الله لإحكامه الأصل وإن ترك الفضل . ومثل من جمع بينهما كن غسل كل عضو ثلاث مرات لجمع بين الأصل والفضل وهو الكمال . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته ^(١) ، ولما تلا قوله عز وجل (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وضع يده على سمعه وبصره فقال : السمع أمانة والبصر أمانة ^(٢) ، ولولا أنه من أمانات الصوم لما قال صلى الله عليه وسلم « فليقل إني صائم ، أى إني أودعت لساني لأحفظه فكيف أطلقه بجوابك ؟ فإذا قد ظهر أن لكل عبادة ظاهراً وباطناً

(١) حديث « لما الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته » أخرجه الحرائطى في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود في حديث في الأمانة والصوم وإسناده حسن (٢) حديث « لما تلا قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وضع يده على سمعه وبصره وقال السمع أمانة والبصر أمانة » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة دون قوله « السمع أمانة »

وقشرا وابتا ولقشرها درجات ولكل درجة طبقات . فإليك الخيرة الآن في ان تقنع بالقشر عن اللباب أو تتحيز إلى غمار أرباب الألباب .

الفصل الثالث : في التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه

اعلم أن استحباب الصوم يتأكد في الأيام الفاضلة وفواضل الأيام بعضها يوجد في كل سنة وبعضها يوجد في كل شهر وبعضها في كل أسبوع . أما في السنة بعد أيام رمضان فيوم عرفة ويوم عاشوراء والعشر الأول من ذي الحجة والعشر الأول من المحرم . وجميع الأشهر الحرم مطلق الصوم وهي أوقات فاضلة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر صوم شعبان حتى كان يظن أنه في رمضان ^(١) ، وفي الخبر « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم ^(٢) » . لأنه ابتداء السنة فبناؤها على الخير أحب وأرحى لدوام بركته . وقال صلى الله عليه وسلم « صوم يوم من شهر حرام أفضل من ثلاثين من غيره وصوم يوم من رمضان أفضل من ثلاثين من شهر حرام ^(٣) » وفي الحديث « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت كتب الله له بكل يوم عبادة تسعائة عام ^(٤) » وفي الخبر : إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان ^(٥) ولهذا يستحب أن يفطر قبل رمضان أياما فإن وصل شعبان برمضان لجأز ^(٦) فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة وفصل مرارا كثيرة ^(٧) ولا يجوز أن يقصد استقبال رمضان بيومين أو ثلاثة إلا أن يوافق وردا له وكره بعض الصحابة أن يصام رجب كله حتى لا يضاهى بشهر رمضان . فالأشهر الفاضلة : ذو الحجة والمحرم ورجب وشعبان . والأشهر الحرم : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، واحد فرد وثلاثة سرد . وأفضلها ذو الحجة لأن فيه الحج والأيام المعلومات والمعدودات . وذو القعدة من الأشهر الحرم وهو من أشهر الحج ، وشوال من أشهر الحج وليس من الحرم والمحرم ورجب ليسا من أشهر الحج . وفي الخبر « ما من أيام العمل فيها أفضل وأحب إلى الله عز وجل من أيام عشر ذي الحجة إن صوم يوم منه يعدل صيام سنة وقيام ليلة منه تعدل قيام ليلة القدر » قيل : ولا الجهاد في سبيل الله تعالى ، قال : ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل إلا من عقر جواده وأهريق دمه ^(٨) ، وأما ما يتكرر في الشهر : فأقول الشهر وأوسطه وآخره ، وأوسطه الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر . وأما في الأسبوع : فالأثنين والخميس والجمعة فهذه هي الأيام الفاضلة فيستحب فيها الصيام وتكثير الخيرات لتضاعف أجورها ببركة هذه الأوقات . وأما صوم الدهر فإنه

(١) حديث « كان يكثر صيام شعبان .. الحديث » متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث « صوم يوم من شهر حرام أفضل من صوم ثلاثين .. الحديث » لم أجده هكذا في المعجم الصغير للعلاء بن ربيعة (٣) حديث « من صام يوما من المحرم فله بكل يوم ثلاثون يوما » (٤) حديث « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت .. الحديث » أخرجه الأزد في الضملاء من حديث أس (٥) حديث « إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان » أخرجه الأربعة من حديث أبي هريرة وابن حبان في صحيحه عنه « إذا كان النصف من شعبان فأفطروا حتى يمضي رمضان » وصححه الترمذي (٦) حديث « وصل شعبان برمضان مرة » أخرجه الأربعة من حديث أم سلمة « لم يكن يوم من السنة شهرا تاما إلا شعبان يصل به رمضان وأخرج أبو داود والنسائي نحوه من حديث عائشة (٧) حديث « فصل شعبان من رمضان مرارا » أخرجه أبو داود من حديث عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعطف من هلال شعبان مالا يتعطف من غيره فإن عم عليه عد ثلاثين يوما ثم صام » وأخرجه الدارقطني وقال إسناده صحيح والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين (٨) حديث « ما من أيام العمل فيها أفضل وأحب إلى الله من عشر ذي الحجة .. الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة دون قوله « قيل ولا الجهاد الخ وعند البخاري من حديث ابن عباس « ما العمل في أيام أفضل من العمل في هذا العصر قالوا ولا الجهاد قال ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء »

شامل للسكل وزيادة والسالكين فيه طرق فمنهم من كره ذلك إذ وردت أخبار تدل على كراهته . والصحيح أنه إنما يكره لشيئين ؛ أحدهما : أن لا يفطر في العيدين وأيام التشريق فهو الدهر كله ^(١) والآخر أن يرغب عن السنة في الإفطار ويجعل الصوم حرجا على نفسه مع أن الله سبحانه يحب أن توثق رحصه كما يحب أن توثق عزائمه . فإذا لم يكن شيء من ذلك ورأى صلاح نفسه في صوم الدهر فليفعل ذلك . فقد فعله جماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم . وقال صلى الله عليه وسلم فيا رواء أبو موسى الأشعري « من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم وعقد تسعين ^(٢) » ومعناه لم يكن له فيها موضع ، ودووه درجة أخرى وهو صوم نصف الدهر بأن يصوم يوما ويفطر يوما وذلك أشد على النفس وأقوى في قهرها ، وقد ورد في فضله أخبار كثيرة لأن العبد فيه بين صوم يوم وشكر يوم فقد قال صلى الله عليه وسلم ، عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا وكنوز الأرض فرددتها وقلت أحوج يوما وأشبع يوما أحملك إذا شبت وأتضرع إليك إذا حمت ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الصيام صوم أخى داود كان يصوم ويفطر يوما ^(٤) » ومن ذلك « منازاته صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في الصوم وهو يقول ؛ إني أطيق أكثر من ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : صم يوما وأفطر يوما ، فقال : إني أريد أفضل من ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا أفضل من ذلك ^(٥) » وقد روى « أنه صلى الله عليه وسلم ما صام شهرا كاملا قط إلا رمضان ^(٦) » بل كان يفطر منه ومن لا يقدر على صوم نصف الدهر فلا بأس بثلثه وهو أن يصوم ويفطر يومين . وإذا صام ثلاثة من من أول الشهر وثلاثة من الوسط وثلاثة من الآخر فهو ثلث ، وواقع في الأوقات الفاصلة . وإن صام الاثنين والخميس والجمعة فهو قريب من الثلث . وإذا ظهرت أوقات الفضيلة فالكمال في أن يفهم الإنسان معنى الصوم وأن مقصوده تصفية القلب وتفريغ الهم لله عز وجل . والفقيه بدقائق الباطن ينظر إلى أحواله فقد يقتضى حاله دوام الصوم وقد يقتضى دوام الفطر وقد يقتضى مزج الإفطار بالصوم . وإذا فهم المعنى وتحقق حده في سلوك طريق الآخرة بمراقبة القلب لم يخف عليه صلاح قلبه وذلك لا يوجب ترتيبا مستمرا . ولذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم « كان يصوم حتى يقال لا يفطر ويفطر حتى يقال لا يصوم وينام حتى يقال لا يقوم ويقوم حتى يقال لا ينام ^(٧) » وكان ذلك بحسب ما ينكشف له بنور النبوة من القيام بحق الأوقات . وقد كره العلماء أن يوالى بين الإفطار أكثر من أربعة أيام تقديرا بيوم العيد وأيام التشريق وذكروا أن ذلك يقسى القلب ويولد ردى العادات ويفتح أبواب الشهوات ولعمري هو كذلك في حق أكثر الخلق لاسيما من يأكل في اليوم والليل مرتين . فهذا ما أردنا ذكره من ترتيب الصوم المتطوع به والله أعلم بالصواب . تم كتاب : أسرار الصوم ، والحمد لله بجميع محامده كلها ما علمنا منها وما لم نعلم على جميع نعمه كلها ما علمنا منها

- (١) الأحاديث الدالة على كراهة صيام الدهر أخرجهما البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو وفي حديث لابن ماجة « لا صام من صام الأبد » ومسلم من حديث أبي قتادة « قيل يا رسول الله كيف من صام الدهر قال لا صام ولا أفطر » وأخرج النسائي نحوه من حديث عبد الله بن عمرو وعمران بن حصين وعبد الله بن الشخير
- (٢) حديث أبي موسى الأشعري « من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم هكذا وعقد تسعين » أخرجه أحمد والبيهقي في الكبرى وابن حبان وحسنه أبو علي الطوسي (٣) حديث « عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي أمامة بنظف « عرض على ربي ليجعل لى خطباء مكة دها » وقال حسن (٤) حديث « أفضل الصيام صوم أخى داود .. الحديث » أخرجه من حديث عبد الله بن عمر (٥) حديث « منازاته لعبد الله بن عمرو وقوله : صم يوما وأفطر يوما .. الحديث » أخرجه من حديثه (٦) حديث « ما صام شهرا كاملا قط إلا رمضان » أخرجه من حديث عائشة (٧) حديث « كان صوم حتى لا يقال لا يفطر .. الحديث » أخرجه من حديث عائشة وابن عباس دون ذكر « القيام والنوم » والبخارى من حديث أنس « كان يفطر من الشهر حتى يظن أن لا يصوم منه شيئا ويعصم حتى يظن أن لا يفطر منه شيئا وكان لا تنام تراه من الليل مصليا إلا رأيته ولا نائما إلا رأيته »

وما لم نعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وكرم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسما يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب : أسرار الحج ، والله المعين لارب غيره وما توفيقى إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل .

كتاب أسرار الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل كلمة التوحيد لعباده حرزا وحصنا . وجعل البيت العتيق مثابة للناس وأمنا ، وأكرمه بالنسبة إلى نفسه تشريفا وتحصينا ومنا ، وجعل زيارته والطواف به حجابا بين العبد وبين العذاب ومجنا ، والصلاة على محمد بى الرحمة وسيد الأمة وعلى آله وصحبه قادة الحق وسادة الخلق وسلم تسليما كثيرا . أما بعد : فإن الحج من بين أركان الإسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الأمر وتمام الإسلام وكال الدين . فيه أنزل الله عز وجل (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) وفيه قال صلى الله عليه وسلم « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرايا ^(١) ، فأعظم بعبادة يعدم الدين بفقدائها الكمال ويساوى تاركها اليهود والنصارى فى الضلال ، وأحذر بها أن تصرف العناية إلى شرحها وتفصيل أركانها وسننها وآدابها وفضائلها وأسرارها . وجملة ذلك ينكشف بتوفيق الله عز وجل فى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : فى فضائلها وفضائل مكة والبيت العتيق وجمل أركانها وشرائط وجوبها .

الباب الثانى : فى أعمالها الطاهرة على الترتيب من مبدأ السفر إلى الرجوع .

الباب الثالث : فى آدابها الدقيقة وأسرارها الخفية وأعمالها الباطنة : فليبدأ بالباب الأول وفيه فصلان :

الفصل الأول : فى فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى

وشد الرحال إلى المساجد

فضيلة الحج

قال الله عز وجل (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) وقال قتادة لما أمر الله عز وجل إبراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا وعلى كل عبد مصطفى أن يؤذن فى الناس بالحج نادى : يا أيها الناس إن الله عز وجل بنى بيتا فحجوه وقال تعالى (ليشهدوا منافع لهم) قيل التجارة فى الموسم والأجر فى الآخرة . ولما سمع بعض السلف هذا قال : غفر لهم ورب الكعبة . وقيل فى تفسير قوله عز وجل (لأفعلن لهم صراطك المستقيم) أى طريق مكة يقعد الشيطان عليها لينع الناس منها وقال صلى الله عليه وسلم « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ^(٢) » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « ما روى حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » أخرجه من حديث أبى هريرة

كتاب أسرار الحج

(١) حديث « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرايا » أخرجه ابن عدى من حديث أبى هريرة والترمذى نحوه من حديث على وقال عريب وفى إسناده مقال (٢) حديث « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » أخرجه من حديث أبى هريرة

الشیطان فی يوم اصفر ولا أدر ولا أحقر ولا أغیظ منه يوم عرفة ^(١) ، وما ذلک إلا لما یرى من نزول الرحمة وتجاوز الله سبحانه عن الذنوب العظام إذ یقال « إن من الذنوب ذنوبا لا یکفرها إلا الوقوف بعرفة » ^(٢) ، وقد أسنده جعفر بن محمد إلى رسول الله صلى الله علیه وسلم . وذكر بعض المکاشفین من المقربین أن إبلیس لعنة الله علیه ظهر له فی صورة شخص بعرفة فإذا هو نازل الجسم مصفر اللون بأکی العین مقصوف الظهر فقال له : ما الذی أبکی عینک ؟ قال : خروج الحاج إلیه بلا تجارة ، أقول قد قصدوه أخاف أن لا ینخبهم فیحزنی ذلک قال : فما الذی أنحل جسمک ؟ قال : صهیل الخیل فی سبیل الله عز وجل ولو کانت فی سبیل کان أحب إلی ، قال : فما الذی غیر لونک ؟ قال تعاون الجماعة علی الطاعة ولو تعاونوا علی المعصية کان أحب إلی ، قال : فما الذی قصف ظهرک ؟ قال : قول العبد أسألک حسن الخاتمة ، أقول یا ویلتی متى یعجب هذا بعمله أخاف أن یرکون قد فطن ؟ وقال صلى الله علیه وسلم « من خرج من بیته حاجا أو معتمرا فمات أجر الحجاج المعتمر إلی يوم القيامة ومن مات فی أحد الحرمین لم یرض ولم یحاسب وقیل له ادخل الجنة » ^(٣) ، وقال صلى الله علیه وسلم « حجة مبرورة خیر من الدنیا وما فیها وحجة مبرورة لیس لها حزاء إلا الجنة » ^(٤) ، وقال صلى الله علیه وسلم « الحجاج والعمار وفد الله عز وجل وزواره إن سألوه أعطاهم وإن استغفروه غفر لهم وإن دعوا استجیب لهم وإن شفّعوا شفّعوا » ^(٥) ، وفی حدیث مسند من طریق أهل البیت علیهم السلام « أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله تعالى لم یغفر له » ^(٦) ، وروی ابن عباس رضی الله عنهما عن النبی صلى الله علیه وسلم أنه قال « یزل علی هذا البیت فی کل يوم مائة وعشرون رحمة ستون للطائفین وأربعون للبصلین وعشرون للناظرین » ^(٧) ، وفی الخبر « استکثروا من الطواف بالبیت فإنه من أجل شیء تجددونه فی صحفکم يوم القيامة وأغبط عمل تجدونه » ^(٨) ، ولهذا یستحب الطواف ابتداء من غیر حج ولا عمرة وفی الخبر « من طاف أسبوعا حافیا حاسرا کان له کعتق رقبة ومن طاف أسبوعا فی المطر غفر له ما سلف من ذنبه » ^(٩) ، ویقال : إن الله عز وجل إذا غفر لعبدا ذنبا فی الموقف غفره لکل من أصابه فی ذلک الموقف . وقال بعض السلف : إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة غفر لکل أهل عرفة وهو أفضل

(١) حدیث « ما رآی الشیطان فی يوم هو أصفر .. الحدیث » أخرجه مالک عن إبراهیم بن أبی عیلة عن طلحة بن عبد الله بن کریز مرسل (٢) حدیث « من الذنوب ذنوب لا یکفرها إلا الوقوف بعرفة » لم أحده أصلا

(٢) حدیث « من خرج من بیته حاجا أو معتمرا فمات أجر الحجاج المعتمر إلی يوم القيامة ومن مات فی أحد الحرمین لم یرض ولم یحاسب وقیل له ادخل الجنة » أخرجه البیهقی فی الشعب بالشر الأول من حدیث أبی هريرة . وروی هو والدارقطنی من حدیث عائشة الشطر الثانی نحوه وكلاهما ضعیف (٤) حدیث « حجة مبرورة خیر من الدنیا وما فیها وحجة مبرورة لیس لها حزاء إلا الجنة » أخرجه من حدیث أبی هريرة الفطر الثانی بلفظ « المح المبرور » وقال « إن الحجة المبرورة » وعند ابن عدی « حجة مبرورة » (٥) حدیث « الحجاج والعمار وفد الله وزواره » الحدیث « أخرجه من حدیث أبی هريرة دون قوله « وزواره » ودون قوله « إن سألوه أعطاهم وإن شفّعوا شفّعوا » وله من حدیث ابن عمر « وسألوه فأعطاهم » ورواه ابن حبان (٦) حدیث « أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله لم یغفر له » أخرجه الخطیب فی المنتقى والمفتقر وأبو منصور شهر دار بن شیمويه الدیلمی فی مسند الفردوس من حدیث ابن عمر فاساد ضعیف (٧) حدیث « یرل علی هذا البیت فی کل يوم مائة وعشرون رحمة » أخرجه ابن حبان فی الضعفاء والبیهقی فی الشعب من حدیث ابن عباس بإسناد حسن وقال أبو حاتم حدیث منکر (٨) حدیث « استکثروا من الطواف بالبیت . الحدیث » أخرجه ابن حبان والحاکم من حدیث ابن عمر « استمتعوا من هذا البیت فإنه هدم مرتین ویرفع فی الثالثة » وقال الحاکم صحیح علی شرط الشیخین .

(٩) حدیث « من طاف أسبوعا حافیا حاسرا کان له کعتق رقبة ومن طاف أسبوعا فی المطر غفر له ما سلف من ذنوبه » لم أجده هكذا وهند الترمذی وابن ماجه من حدیث ابن عمر « من طاف بهذا البیت أسبوعا فأحصاه کان کعتق رقبة » لفظ الترمذی وحسنه .

يوم في الدنيا ، وفيه حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وكان واقفا إذ نزل قوله عز وجل (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) (١) ، قال أهل الكتاب . لو أنزلت هذه الآية علينا لجعلناها يوم عيد فقال عمر رضي الله عنه : أشهد لقد نزلت هذه الآية في يوم عيدين اثنين ؛ يوم عرفة ويوم جمعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة . وقال صلى الله عليه وسلم : اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج (٢) ، ويروى أن علي بن موفّق حج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حججا قال : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي : يا ابن موفّق حجّج عني ؟ قلت : نعم ، قال : وليت عني ؟ قلت : نعم . قال : فأني أكافئك بها يوم القيامة آخذ بيدك في الموقف فأدخلك الجنة والخلاق في كرب الحساب . وقال مجاهد وغيره من العلماء : إن الحجّاج إذا قدموا مكة تلقّتهم الملائكة فسلّوا على ركبّان الإبل وصالحوا ركبّان الحر واعتنقوا المشاة اعتناقا . وقال الحسن : من مات عقيب رمضان أو عقيب غزو أو عقيب حج مات شهيدا . وقال عمر رضي الله عنه : الحاج مغفور له ولمن يستغفر له في شهر ذي الحجة والحرم وصفر وعشرين من ربيع الأول . وقد كان من سنة السلف رضي الله عنهم أن يشيعوا الغزاة وأن يستقبلوا الحاج ويقبلوا بين أعينهم ويسألوهم الدماء ويبادرون ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام . ويروى عن علي بن موفّق قال : حججت سنة فلما كان ليلة عرفة نمت بمي في مسجد الخيف فرأيت في المنام كأن ملكين قد نزلا من السماء عليهما ثياب حضر فتأدى أحدهما صاحبه : يا عبد الله فقال الآخر : لبيك يا عبد الله . قال : تدري كم حج بيت ربنا عز وجل في هذه السنة ؟ قال : لا أدري قال : حج بيت ربنا ستائة ألف أفندري كم قبل منهم ؟ قال : لا ، قال : ستة أنفس ، قال : ثم ارتفعا في الهواء فعابا عني فانتبهت فزعا واغتيمت غما شديدا وأهمني أمرى فقلت : إذا قبل حج ستة أنفس فأين أكون أنا في ستة أنفس ؟ فلما أفضت من عرفة قت عند المشعر الحرام جعلت أفكر في كثرة الخلق وفي قلة من قبل منهم ؛ فحلمني النوم فإذا الشخصان قد نزلا على هبتهما ؛ فتأدى أحدهما صاحبه وأعاد الكلام بعينه ثم قال : أتدري ماذا حكم ربنا عز وجل في هذه الليلة ؟ قال : لا ، قال : فإنه وهب لكل واحد من الستة مائة ألف ، قال : فانتبهت وبني من السرور ما يحل عن الوصف . وعنه أيضا رضي الله عنه قال : حججت سنة فلما قضيت مناسكي تفكرت فيمن لا يقبل حجه فقلت : اللهم إني قد وهبت حجتي وجعلت ثوابها لمن لم تقبل حجته قال : فرأيت رب العزة في النوم جل جلاله فقال لي : يا علي تنسخي على وأنا خلقت السخاء والابخياء وأنا أجود الأجودين وأكرم الأكرمين وأحق بالجوّد والكرم من العالمين قد وهبت كل من لم أقبل حجه لمن قبلته .

فضيلة البيت ومكة المشرفة

قال صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستائة ألف فإن نقصوا أكملهم الله عز وجل من الملائكة (٣) ، وإن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة وكل من حجها يتعلق بأستارها يسعون حولها حتى تدخل الجنة فيدخلون معها في الخبر ، إن الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنة ولأنه يبعث يوم القيامة له عينان ولسان ينطق

(١) حديث « وقوفه في حجة الوداع يوم الجمعة ونزول (اليوم أكملت لكم دينكم) الحديث » أخرجه من حديث عمر

(٢) حديث « اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج » أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم

(٣) حديث « لأن الله قد وعد هذا البيت أن يحجه في كل سنة ستائة ألف .. الحديث » لم أجده أصلا

به يشهد لكل من استلمه بحق وصدق ^(١) ، وكان صلى الله عليه وسلم يقبله كثيرا ^(٢) وروى أنه صلى الله عليه وسلم سجد عليه وكان يطوف على الراحلة فيضع المحجن عليه ثم يقبل طرف المحجن ^(٣) وقبله عمر رضي الله عنه ثم قال: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ^(٤) ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ، ثم بكى حتى علا نسيجه فالتفت إلى ورائه فرأى عليا كرم الله وجهه ورضي الله عنه فقال : يا أبا الحسن ههنا تسكب العبرات وتستجاب الدعوات ، فقال علي رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع ، قال : وكيف ؟ قال : إن الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتابا ثم القمه هذا الحجر ؛ فهو يشهد للؤمن بالوفاء ويشهد على الكافر بالحدود . قيل : فذلك هو معنى قول الناس عند الاستلام « اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء لعهدك . » وروى عن الحسن البصري رضي الله عنه : أن صوم يوم فيها بمائة ألف يوم وصدقة درهم بمائة ألف درهم وكذلك كل حسنة مائة ألف ويقال : طواف سبعة أسابيع يعدل عمرة وثلاث عمر تعدل حجة . وفي الخبر الصحيح « عمرة في رمضان كحجة معي ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « أنا أول من تلتحق عنه الأرض ثم آتى أهل البقيع فيحشرون معي ثم آتى أهل مكة فأحشر بين الحرمين ^(٦) » وفي الخبر « إن آدم صلى الله عليه وسلم لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا : برحمتك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بالنبي عام ^(٧) » وجاء في الآثار : إن الله عز وجل ينظر في كل ليلة إلى أهل الأرض فأول من ينظر إليه أهل الحرم وأول من ينظر إليه من أهل الحرم أهل المسجد الحرام فمن رآه طائفا غفر له ومن رآه مصليا غفر له ومن رآه قائما مستقبل الكعبة غفر له . وكوشف بعض الأولياء رضي الله عنهم قال: إني رأيت الغفور كلها تسجد لعبادان ورأيت عبادان ساجدة لحدة . ويقال : لا تغرب الشمس من يوم إلا ويطوف بهذا البيت رحل من الأبدال ، ولا يطلع الفجر من ليلة إلا طاف به واحد من الأوتاد ، وإذا انقطع ذلك كان سبب رفعه من الأرض فيصبح الناس وقد رفعت الكعبة لا يرى الناس لها أثرا ، وهذا إذا أتى عليها سبع سنين لم يحجها أحد . ثم يرفع القرآن من المصاحف فيصبح الناس فإذا الورق أبيض يلوح فيه ليس فيه حرف ، ثم ينسخ القرآن من القلوب فلا يذكر منه كلمة ثم يرحم الناس إلى الأشعار والأعاني وأخبار الجاهلية . ثم يخرج الدجال وينزل عيسى عليه السلام فيقتله والساعة عند ذلك منزلة الحامل المقرب التي تتوقع ولادتها . وفي الخبر « استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع فقد هدم مرتين ويرفع في الثالثة ^(٨) » وروى عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال

(١) حديث « إن الحجر باقوة من يوافيت الحمة ويعت يوم القيام له عينا . » الحديث « أخرجه الترمذي وصححه النسائي من حديث ابن عباس « المحرر الأسود من الحنة » لعط النسائي وباقي الحديث رواه الترمذي وحسنه وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن عباس أيضا والحاكم من حديث أنس « إن الركن والمقام ياقوتتان من يوافيت الحنة » وصححه إسناده ورواه النسائي وابن حبان والحاكم من حديث مبد الله بن عمرو .

(٢) حديث « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبله كثيرا » أخرجاه من حديث عمر دون قوله « كثيرا » والنسائي « أنه كان يقبله كل مرة ثلاثا إن رآه حاليا » (٣) حديث « أنه كان يسعد عليه » أخرجه البرار والحاكم من حديث عمر وصححه إسناده .

(٤) « قبله عمر وقال إني لأعلم أنك حجر » أخرجاه من حديث عمر دون قوله « كثيرا » والنسائي « أنه كان يقبله كل مرة ثلاثا إن رآه حاليا » (٥) حديث « أنه كان يسعد عليه » أخرجه البرار والحاكم من حديث عمر وصححه إسناده . (٦) « قبله عمر وقال إني لأعلم أنك حجر » أخرجاه من حديث عمر دون قوله « كثيرا » والنسائي « أنه كان يقبله كل مرة ثلاثا إن رآه حاليا » (٧) حديث « أنه كان يسعد عليه » أخرجه البرار والحاكم من حديث عمر وصححه إسناده . (٨) حديث « أنه كان يسعد عليه » أخرجه البرار والحاكم من حديث عمر وصححه إسناده .

(٩) حديث « أن آدم لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا برحمتك يا آدم » الحديث « رواه المفضل الجمدي ومن طريقه ابن الحوزي في الملل من حديث ابن عباس وقال لا يصح ورواه الأزرقي في تاريخ مكة موقوفا على ابن عباس

(٨) حديث « استكثروا من الطواف بهذا البيت » الحديث « أخرجه الزار وابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابن عمر « استكثروا من هذا البيت فإنه هدم مرتين ويرفع في الثالثة »

الله تعالى « إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببیتی غفرته ثم أخرب الدنيا على أثره » (١) .

فضيلة المقام بمكة حرسها الله تعالى وكرهه

كره الخائفون المحتاطون من العلماء المقام بمكة لمعان ثلاثة (الأول) خوف التبرم والأذى بالبیت ، فإن ذلك ربما يؤثر في تسكين حرقة القلب في الاحترام ، وهكذا كان عمر رضي الله عنه يضرب الحجاج إذا حجوا ويقول : يا أهل اليمن ينسكم ويا أهل الشام شامكم ويا أهل العراق عراقكم . ولذلك هم عمر رضي الله عنه بمنع الناس من كثرة الطواف ، وقال : خشيت أن يأنس الناس بهذا البيت (الثاني) تهيج الشوق بالمفارقة لتنبعث داعية العودة فإن الله تعالى جعل البيت مثابة للناس وأمنا أي يثوبون ويعودون إليه مرة بعد أخرى ولا يقضون منه وطرا . وقال بعضهم تكون في بلد وقلبك مشتاق إلى مكة متعلق بهذا البيت خير لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بالمقام وقلبك في بلد آخر . وقال بعض السلف : كم من رجل بحراسان وهو أقرب إلى هذا البيت من يطوف به ؟ ويقال : إن الله تعالى عمادا تطوف بهم الكعبة تقربا إلى الله عز وجل (الثالث) الخوف من ركوب الخطايا والدنوب بها ، فإن ذلك يخطر وبالحرى أن يورث مقت الله عز وجل لشرف الموضع . وروى عن وهيب بن الورد المكي قال : كنت ذات ليلة في الحجر أصلي فسمعت كلاما بين الكعبة والاستار يقول إلى الله أشكركم إليك يا جبرائيل ما ألقى من الطائفين حولي من تفكيرهم في الحديث لغوهم ولهوهم لأن لم ينتهوا عن ذلك لا تنفضن انتفاضة يرجع كل حجر مني إلى الجبل الذي قطع منه . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ما من بلد يؤخذ فيه العبد بالنية قبل العمل إلا مكة وتلا قوله تعالى ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ أي أنه على مجرد الإرادة . ويقال : إن السيئات تضاعف بها كما تضاعف الحسنات . وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول : الاحتكار بمكة من الإلحاد في الحرم ، وقيل : الكذب أيضا وقال ابن عباس : لأن أذن سبعين ذنبا بركية أحب إلى من أن أذن ذنبا واحدا بمكة . وركية منزل بين مكة والطائف . والخوف ذلك انتهى بعض المقيمين إلى أن لم يقض حاجته في الحرم بل كان يخرج إلى الحل عند قضاء الحاجة . وبعضهم أقام شهرا وما وضع جنبه على الأرض . وللنوع من الإقامة كره بعض العلماء أجور دور مكة . ولا تظن أن كراهة المقام يناقض فضل البقعة لأن هذه كراهة علتها ضعف الخلق وقصورهم عن القيام بحق الموضع فعنى قولنا إن ترك المقام به أفضل أي بالإضافة إلى مقام مع التقصير والتبرم ، أما أن يكون أفضل من المقام مع الوفاء بحقه فهيات ، وكيف لا ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة استقبل الكعبة وقال : إنك خير أرض الله عز وجل وأحب بلاد الله تعالى إلى ولولا أني أخرجت منك لما خرجت (٢) ، وكيف لا والنظر إلى البيت عبادة والحسنات فيها مضاعفة كما ذكرناه .

فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد

ما بعد مكة بقعة أفضل من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالأعمال فيها أيضا مضاعفة قال صلى الله عليه وسلم « صلاة في مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » (٣) . وكذلك كل عمل بالمدينة بألف

(١) حديث « قال الله إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببیتی غفرته ثم أخرب الدنيا على أثره » ليس له أصل

(٢) حديث « إنك خير أرض الله وأحب بلاد الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت » أخرجه الترمذي وصححه النسائي في الكبرى وابن ماجه وابن سبان من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء (٢) حديث « صلاة في مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث ابن عمر

وبعد مدينته الأرض المقدسة فإن الصلاة فيها بخمسة صلاة فيها سواها إلا المسجد الحرام ، وكذلك سائر الأعمال . وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « صلاة في مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من صبر على شدتها ولأوائها كنت له شفيعا يوم القيامة »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت فإنه لن يموت بها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة »^(٣) ، وما بعد هذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية إلا الثغور فإن المقام بها للرابطة فيها فيه فضل عظيم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى »^(٤) ، وقد ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال بهذا الحديث في المنع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء والصلحاء . وما تبين لي أن الأمر كذلك بل الزيارة مأمور بها قال صلى الله عليه وسلم « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا »^(٥) ، والحديث إنما ورد في المساجد وليس في معناها المشاهد ، لأن المساجد بعد المساجد الثلاثة متماثلة ولا بلد إلا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر ، وأما المشاهد فلا تتساوى بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله عز وجل ، نعم لو كان في موضع لا مسجد فيه فله أن يشد الرحال إلى موضع فيه مسجد وينتقل إليه بالكلية إن شاء ثم ليت شعري هل يمنع هذا القائل من شد الرحال إلى قبور الأنبياء عليهم السلام مثل إبراهيم وموسى ويحيى وغيرهم عليهم السلام ، فالمنع من ذلك في غاية الإحالة ، فإذا جَوَّزَ هذا فقبور الأولياء والعلماء والصلحاء في معناها ، فلا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة كما أن زيارة العلماء في الحياة من المقاصد ؛ هذا في الرحلة . أما المقام فالأولى بالمريد أن يلزم مكانه إذا لم يكن قصده من السفر استفادة العلم مهما سلم له حاله في وطنه ؛ فإن لم يسلم فيطلب من المواضع ما هو أقرب إلى الخول وأسلم للدين وأفرح للقلب وأيسر للعبادة فهو أفضل المواضع له ، قال صلى الله عليه وسلم « البلاد بلاد الله عز وجل والخلق عباده فأى موضع رأيت فيه رفقا فأقم واحمد الله تعالى »^(٦) ، وفي الخبر « من بورك له في شيء فليزمه ومن جعلت معيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه »^(٧) ، وقال أبو نعيم : رأيت سميان الثوري وقد جعل جرابه على كتفه وأخذ نعلبه بيده فقلت : لى أين يا أبا عبد الله ؟ قال : إلى بلد أملا فيه جرابي بدرهم . وفي حكاية أخرى بلغني عن قرية فيها رخص أقيم فيها ، قال فقلت : وتفعل هذا يا أبا عبد الله ؟ فقال : نعم إذا سمعت برخص في بلد فاقصده فإنه أسلم لدينك وأقل لهلك ، وكان يقول هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخاملين فكيف

(١) حديث ابن عباس « صلاة في مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة » غريب لم أجده بمجملته هكذا وأخرجه ابن ماجه من حديث ميمونة باسناد جيد في بيت المقدس « انثوه فصلوا فيه فان الصلاة فيه كألف صلاة في غيره » ولابن ماجه من حديث أنس « صلاة بالمسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة وصلاة في مسجدي خمسين ألف صلاة » وليس في إسناده من ضعف وقال الذهبي أنه منكر

(٢) حديث « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة » من حديث أبي هريرة وابن عمر وأبي سعيد (٣) حديث « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها . . الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر قال الترمذي حسن صحيح (٤) حديث « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد . . الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد (٥) حديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها » أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب

(٦) حديث « البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فأى موضع رأيت فيه رفقا فأقم » أخرجه أحمد والبخاري من حديث الربيع بسند ضعيف (٧) حديث « من رزق في شيء فليزمه ومن جعلت معيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه » أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بالجملة الأولى بسند حسن ومن حديث عائشة بسند فيه جهالة بالنظر « إذا سبب الله لأحدكم ورقا من وجه فلا يدعه حتى يتغير أو يتنكر له »

بالمشهورين ؟ هذا زمان تنقل ينتقل الرجل من قرية إلى قرية يفتردينه من الفتن . ويحكى عنه أنه قال : والله ما أدرى أى البلاد أسكن ؟ فقيل له : خراسان ، فقال : مذاهب مختلفة وآراء فاسدة ، قيل : فالتسام ، قال : يشار إليك بالأصابع - أراد الشهرة - قيل ؟ فالعراق ، قال : بلاد الجابرة ، قيل : مكة ، قال : مكة تذيب الكيس والمدن . وقال له رجل غريب : عزمت على المجاورة بمكة فأوصنى ، قال : أوصيك بثلاث : لاتصلين فى الصف الأول ولا تصحبين قرشياً ولا تظهرين صدقة . وإنما كره الصف الأول لأنه يشتهر فيفتقد إذا غاب فيختلط بعمله التزين والتصنع .

الفصل الثانى : فى شروط وجوب الحج وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته

أما الشرائط فشرط صحة الحج اثنان : الوقت والإسلام . فيصح حج الصبي ويحرم بنفسه إن كان مميزاً ويحرم عنه وليه إن كان صغيراً ويفعل به ما يفعل فى الحج من الطواف والسعى وغيره . وأما الوقت فهو شؤال وذو القعدة وتسع من ذى الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر ، فمن أحرم بالحج فى غير هذه المدة فهو عمره وجميع السنة وقت العمرة ، ولكن من كان معكوفاً على النسك أيام منى فلا ينبغى أن يحرم بالعمرة لأنه لا يتمكن من الاشتغال عقيب اشتغاله بأعمال منى . وأما شروط وقوعه عن حجة الإسلام الخمسة : الإسلام والحرية والبلوغ والعقل والوقت ، فإن أحرم الصبي أو العبد ولكن عتق العبد وبلغ الصبي بعرفة أو بمردلة وعاد إلى عرفة قبل طلوع الفجر أجزأهما عن حجة الإسلام ، لأن الحج عرفة ، وليس عليهما دم إلا شاة . وتنتشرط هذه الشرائط فى وقوع العمرة عن ورس الإسلام إلا الوقت . وأما شروط وقوع الحج نفلاً عن الحر البالغ فهو بعد براءة ذمته عن حجة الإسلام فحج الإسلام متقدم ، ثم القضاء لمن أسداه فى حالة الوقوف ؛ ثم النذر ، ثم النيابة ، ثم النفل ؛ وهذا الترتيب مستحق ، وكذلك يقع وإن نوى خلافه . وأما شروط لزوم الحج الخمسة : البلوغ والإسلام والعقل والحرية والاستطاعة . ومن لزمه فرص الحج لزمه فرض العمرة . ومن أراد دخول مكة لزيارة أو تجارة ولم يكن خطاباً لزمه الإحرام على قول ثم يتحلل بعمل عمرة أو حج . وأما الاستطاعة فنوعان : أحدهما المباشرة وذلك له أسباب أما فى نفسه فبالصحة ، وأما فى الطريق فبأن تكون خصبة آمنة بلا بحر مخطر ولا عدو قاهر ، وأما فى المال فبأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه - كان له أهل أو لم يكن - لأن ممارسة الوطن شديدة وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته فى هذه المدة وأن يملك ما يقضى به ديونه وأن يقدر على راحلة أو كرائها بمحمل أو زاملة إن استمسك على الزاملة وأما النوع الثانى : فاستطاعة المعضوب بماله وهو أن يستأجر من يحج عنه بعد فراغ الأجير عن حجة الإسلام لنفسه . ويكفى نفقة الذهاب بزاملة فى هذا النوع ، والابن إذا عرس طاعته على الأب الزمن صار به مستطيعاً ولو عرض ماله لم يصربه مستطيعاً ؛ لأن الخدمة بالبدن فيها شرف للولد ، وبدل المال فيه منة على الوالد . ومن استطاع لزمه الحج وله التأخير ولكنه فيه على خطر فإن تيسر له ولو فى آخر عمره سقط عنه ؟ وإن مات قبل الحج لقي الله عز وجل عاصياً بترك الحج ، وكان الحج فى تركته يحج عنه وإن لم يوص كسائر ديونه . وإن استطاع فى سنة فلم يخرج مع الناس وهلك ماله فى تلك السنة - قبل حج الناس - ثم مات لقي الله عز وجل ولا حج عليه . ومن مات ولم يحج مع اليسار فأمره شديد عند الله تعالى . قال عمر رضى الله عنه : لقد هممت أن أكتب فى الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلاً . وعن سعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعى وبجاء وطاوس : لو علمت رجلاً غنياً وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ما صليت عليه وبعضهم كان له جار موسر فمات ولم يحج فلم يصل عليه . وكان ابن عباس يقول : من مات ولم يرك ولم يحج سأل الرجعة إلى الدنيا وقرأ قوله عز وجل (رب ارجعون لى أعمل صالحاً فإني تركت) قال :

الحج وأما الأركان التي لا يصح الحج بدونها الخمسة : الإحرام والطواف والسعى بعده والوقوف بعرفة والحلق بعده على قول وأركان العمرة كذلك إلا الوقوف والواجبات المجبورة بالدم مست : الإحرام من الميقات فمن تركه وحاوز الميقات محلاً فعليه شاة والرمي فيه الدم قولاً واحداً ، وأما الصبر بعرفة إلى غروب الشمس والمبيت بمزدلفة والمييب بمنى وطواف الوداع فهذه الأربعة يجبر تركها بالدم على أحد القولين ، وفي القول الثاني فيها دم على وجه الاستحباب . وأما حوّه أداء الحج والعمرة الثلاثة (الأول) الأفراد وهو الأفضل وذلك أن يقدم الحج وحده فإذا فرغ خرج إلى الحل فأحرم واعتمر . وأفضل الحل لإحرام العمرة الجعزاة ثم التمتع ثم الحديبية . وليس على المرد دم إلا أن يتطوع (الثاني) القران وهو أن يجمع فيقول « لبيك حجة وعمرة معا » فيصير محرماً بهما ويكفيه أعمال الحج وتندرج العمرة تحت الحج كما يندرج الوضوء تحت الغسل ؛ إلا أنه إذا طاف وسعى قبل الوقوف بعرفة فسعيه محسوب من النسكين وأما طوافه فغير محسوب ، لأن شرط الطواف الفرض في الحج أن يقع بعد الوقوف . وعلى القارن دم شاة إلا أن يكون مكياً فلا شيء عليه لأنه لم يترك ميقاته إذ ميقاته مكة (الثالث) التمتع وهو أن يجاوز الميقات محرماً بعمرة ويتحلل بمكة ويتمتع بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج ولا يكون متمتعاً إلا بخمس شرائط . أحدها أن لا يكون من حاضري المسجد الحرام وحاضره من كان منه على مسافة لا تقصر فيها الصلاة . الثاني . أن يقدم العمرة على الحج . الثالث . أن تكون عمرته في أشهر الحج . الرابع : أن لا يرجع إلى ميقات الحج ولا إلى مثل مسافته لإحرام الحج . الخامس : أن يكون حجه وعمرته عن شخص واحد فإذا وجدت هذه الأوصاف كان متمتعاً ولزمه دم شاة ؛ فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة وسبعة إذا رجع إلى الوطن ، وإن لم يصم الثلاثة حتى رجع إلى الوطن صام العشرة تتابعاً أو متفرقاً وبذل دم القران والتمتع سواء . والأفضل الأفراد ثم التمتع ثم القران . وأما محظورات الحج والعمرة فستة : الأول : اللبس للقميص والسراويل والخف والغمامة بل ينبغي أن يلبس إزاراً ورداء ونعلين ، فإن لم يجد نعلين فكعبين فإن لم يجد إزاراً فسراويل ولا بأس بالمنطقة والاستغلال في الحمل ولكن لا ينبغي أن يغطي رأسه فإن إحرامه في الرأس وللرأة أن تلبس كل محيط بعد أن لاتستر وجهها بما يماسه فإن إحرامها في وجهها . الثاني الطيب فليجتنب كل ما يعده العقلاء طيباً فإن تطيب أو لبس فعليه دم شاة . الثالث : الحلق والقلم وفيهما المدينة أعنى دم شاة ، ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والفصد والحجامة وترجيل الشعر ، الرابع : الجماع وهو مفسد قبل التحلل الأول وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه وإن كان بعد التحلل الأول لزمه البدنة ولم يفسد حجه . والخامس : مقدمات الجماع كالقبلة والملازمة التي تنقض الطهر مع النساء فهو محرم وفيه شاة وكذا في الاستمناء ، ويحرم النكاح والإنكاح ولا دم فيه لأنه لا ينعقد . السادس : قتل صيد البر أعنى ما يؤكل أو هو متولد من الحلال والحرام فإن قتل صيداً فعليه مثله من النعم يراعى فيه التقارب في الخلقة وصيد البحر حلال ولا جزاء فيه .

الباب الثاني في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع وهي عشر جمل

الجملة الأولى : في السير من أول الخروج إلى الإحرام وهي ثمانية

(الأولى) في المال : فينبغي أن يبدأ بالتوبة ورد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع ويرد ما عنده من الودائع . ويستصحب من المال الحلال الطيب ما يكفي لذهابه وإيابه من غير

الباب الثاني - في ترتيب الأفعال الظاهرة

- (١) حديث « أستودع الله دينك وأمانتكم وحواشي عملكم » أخرجه الترمذى وصححه والنساقى من حديث ابن عمر « أنه كان يقول للرجل إذا أراد سفرا : أدن حتى أودعك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعنا »
- (٢) حديث « كان صلى الله عليه وسلم يقول لمن أراد سفرا . في حفظ الله وكنته روك الله التقوى وغفر الله ذنك ووجهك للخير أينما توجهت » أخرجه الطبرانى فى الدعاء من حديث أنس وهو عند الترمذى وحسنه دون قوله « في حفظ الله وكنته »
- (٣) حديث « عليكم بالدجلة فإن الأرض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار » أخرجه أبو داود من حديث أنس دون قوله « مالا تطوى بالنهار » وهذه الزيادة فى الموطأ من حديث خالد بن معدان مرسلا

عونا على السير . ومهما أشرف على المنزل فليقل : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أظللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما ذرين ورب البحار وما جرين أسألك خير هذا المنزل وخير أهله وأعوذ بك من شره وشر ما فيه أصرف عني شر شرارهم . فإذا نزل المنزل صلى ركعتين فيه ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق . فإذا جن عليه الليل يقول : يا أرض ربى وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما دب عليك أعوذ بالله من شر كل أسد وأسد وحية وعقرب ومن شر ساكن البلد ووالده وما ولد ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾ (السابعة) في الحراسة : ينبغي أن يحتاط بالنهار فلا يمشي منفردا خارج القافلة لأنه ربما يغتال أو ينقطع ، ويكون بالليل متحفظا عند النوم فإن نام في ابتداء الليل افترش ذراعه ، وإن نام في آخر الليل نصب ذراعه نصبا وجعل رأسه في كفه ، هكذا كان ينام رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفره ^(١) لأنه ربما استقل النوم فتطلع الشمس وهو لا يدري فيكون ما يفوته من الصلاة أفضل مما يناله من الحج والاحب في الليل أن يتناوب الرفيقان في الحراسة فإذا نام أحدهما حرس الآخر ^(٢) فهو السنة فإن قصده عدو أو سبع في ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسي وشهد الله والإخلاص والمعوذتين وليقل بسم الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله حسبي الله توكلت على الله ماشاء الله لا يأتي بالخير إلا الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله حسبي الله وكفى سمع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى ولا دون الله ملجأ ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ تحصنت بالله العظيم واستغثت بالحى الذى لا يموت اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام واكنفنا بركنك الذى لا يرام . اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك وأنت ثقتنا ورجاؤنا . اللهم أعطف علينا قلوب عبادك وإمامك برأفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين (الثامنة) مهما علا نشزا من الأرض في الطريق فيستحب أن يكبر ثلاثا ثم يقول : اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال . ومهما هبط سبج ومهما غاف الوحشة في سفره قال : سبحان الله الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات بالعزة والجبروت .

الجملة الثانية : في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة وهي خمسة

(الأول) أن يعتسل وينوى به غسل الإحرام أعنى إذا انتهى إلى الميقات المشهور الذى يحرم الناس منه . ويتم غسله بالتنظيف ويسرح لحيته ورأسه بقلم اظفاره ويقص شاربه ويستكمل النظافة التى ذكرناها في الطهارة (الثانى) أن يفارق الثياب المخيطة ويلبس ثوبى الإحرام فيرتدى ويتزر بثوبين أبيضين فالأبيض هو أحب الثياب إلى الله عز وجل ، ويتطيب في ثيابه وبدنه ولا بأس بطيب يبقى جرمه بعد الإحرام ؛ فقد روى بعض المسلك على مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الإحرام بما كان استعمله قبل الإحرام ^(٣) (الثالث) أن يصبر بعد لبس الثياب حتى تنبعث به راحلته إن كان راكبا أو يبدأ بالسير إن كان راجلا فعند ذلك ينوى الإحرام بالحج أو بالعمرة

(١) حديث « كان إذا نام في أول الليل افترش ذراعه وإذا نام في آخر الليل نصب ذراعه نصبا وجعل رأسه في كفه » أخرجه أحمد والترمذى في المعجمين من حديث أبي قتادة بأسناد صحيح وعزاه أبو مسعود الدمشقي والحميدي إلى مسلم ولم أره فيه .

(٢) حديث « تناوب الرفيقان في الحراسة فإذا نام أحدهما حرس الآخر » أخرجه البيهقي من طريق ابن إسحاق من حديث جابر في حديث فيه « فقال الأنصارى أى الليل أحب إليك أن أكفيسك أوله أو آخره ؟ فقال : بل أكفنى أوله فاضطجع المهاجرى .. الحديث » والحديث عند أبي داود ولكن ليس فيه قول الأنصارى للمهاجرين (٣) حديث رؤية وبس المسك على مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الإحرام « متفق عليه من حديث عائشة قالت « كأنما أنظر إلى ويس المسك » الحديث .

قرانا أو أفرادا كما أراد . ويكفي مجرد النية لانعقاد الإحرام ولكن السنة أن يقرن بالنية لفظ التلبية فيقول : ليبيك اللهم ليبيك ليبيك لا شريك لك ليبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، وإن زاد قال : ليبيك وسعديك والخير كله بيدك والرغباء إليك ليبيك بحجة حقا تعدا ورقا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، (الرابع) إذا انعقد إحرامه بالتلبية المذكورة فيستحب أن يقول : اللهم إني أريد الحج فيسره لي وأعني على أداء فرضه وتقبله مني . اللهم إني نويت أداء فريضتك في الحج فاجعلني من الذين استجابوا لك وآمنوا بوعدك واتبعوا أمرك واجعلني من وفدك الذين رضيت عنهم وارتضيت وقبلت منهم . اللهم فيسر لي أداء ما نويت من الحج ، اللهم قد أحرم لك لحمي وشعري ودمي وعصبي وعظمي وحزمت على نفسي النساء والطيب ولبس الخيط ابتغاء وجهك والدار الآخرة . ومن وقت الإحرام حرم عليه المحظورات الستة التي ذكرناها من قبل فليجتنبها (الخامس) يستحب تجديد التلبية في دوام الإحرام خصوصا عند اصطدام الرفاق وعند اجتماع الناس وعند كل صعود وهبوط وعند كل ركوب ورسول ورافعا بها صوته بحيث لا يسمع حلقه ولا يذهر ، فإنه لا يبادى أصم ولا غائبا ^(١) كما ورد في الخبر . ولا بأس برفع الصوت بالتلبية في المساجد الثلاثة فإنها مظلة المناسك - أعني المسجد الحرام ومسجد الخيف ومسجد الميقات - وأما سائر المساجد فلا بأس فيها بالتلبية من غير رفع صوت : وكان صلى الله عليه وسلم إذا أعجبه شيء قال : ليبيك إن العيش عيش الآخرة ^(٢) ،

الجملة الثالثة في آداب دخول مكة إلى الطواف وهي ستة

(الاول) أن يغتسل بذي طوى لدخول مكة . والاعتسالات المستحبة المسنونة في الحج تسعة . الاول : الإحرام من الميقات ثم لدخول مكة ثم لطواف القدوم ثم للوقوف بعرفة ثم للوقوف بمزدلفة ثم لثلاثة أغسال لرمي الحمار الثلاث ؛ ولا غسل لرمي جمرة العقبة ، ثم لطواف الوداع . ولم ير الشافعي رضي الله عنه في الجديد : الغسل لطواف الزيارة ولطواف الوداع فتعود إلى سابعة ، الثاني : أن يقول عند الدخول في أول الحرم وهو خارج مكة ، اللهم هذا حرمك وأمنك فحرم لحمي ودمي وشعري وبشرى على النار وآمئني من عذابك يوم تبعث عبادك واجعلني من أوليائك وأهل طاعتك . الثالث أن يدخل مكة من جانب الأبطح وهو ثنية ، كذا - بفتح الكاف - عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم من حادة الطريق إليها ^(٣) فالتأسي به أولى ، وإذا خرج خرج من ثنية كدى - بضم الكاف - وهي الثنية السفلى والأولى هي العليا . الرابع : إذا دخل مكة وانتهى إلى رأس الردم فمنده يقع بصره على البيت فليقل : لا إله إلا الله والله أكبر اللهم أنت السلام ومنك السلام ودارك دار السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام اللهم إن هذا بيتك عظمت وكرمته وشرفته اللهم مرده تعظيما وزده تشريفا وتكريما وزده مهابة وزد من حجة يرا وكرامة اللهم افتح لي أبواب رحمتك وأدخلني جنتك وأعذني من الشيطان الرجيم . الخامس : إذا دخل المسجد الحرام فليدخل من باب بني شيبه وليلقل : بسم الله وبالله ومن الله ولإلى وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا قرب من البيت قال الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . اللهم

(١) حديث « لم يسمي لاتنادون أصم ولا غائبا » متفق عليه من حديث أبي موسى (٢) حديث « كان إذا أعجبه شيء قال : ليبيك إن العيش عيش الآخرة » أخرجه الدارقمي في المسند من حديث مجاهد مرسلًا بحقه وللعالم وصححه من حديث ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف بعرفات فلما قال ليبيك اللهم ليبيك » قال « لما الخير خير الآخرة » (٣) حديث « دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثنية كداء - بفتح الكاف - متفق عليه من حديث ابن عمر قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل مكة دخل من الثنية العليا التي بالأبطح .. الحديث »

صل على محمد عبدك ورسولك وعلى إبراهيم خليلك وعلى جميع أنبيائك ورسلك ، ويرفع يديه وليقل : اللهم إني أسألك في مقامى هذا في أول مناسكى أن تتقبل توبتى وأن تتجاوز عن خطيئتى وتضع عنى وزرى الحمد لله الذى بلغنى بيته الحرام الذى جعله مثابة للناس وأمنا وجعله مباركا وهدى للعالمين . اللهم إني عبدك والبلد بلدك والحرم حرمك والبيت بيتك حبسك أطلب رحمتك وأسألك مسئلة المضطر الخائف من عقوبتك الراحى لرحمتك الطالب مرضاتك . السادس : أن تقصد الحجر الأسود بعد ذلك وتمسه بيدك اليمنى وتقبله وتقول : اللهم أمانتى أديتها وميثاقى وفيتته اشهد لى بالموافاة فإن لم يستطع التقبيل وقف فى مقابلته ويقول ذلك . ثم لا يعرج على شىء دون الطواف وهو طواف القدوم إلا أن يجد الناس فى المكتوبة فيصلى معهم ثم يطوف .

الجملة الرابعة : فى الطواف

فإذا أراد افتتاح الطواف إما للقدوم وإما لغيره فينبغى أن يراعى أموراً ستة (الأول) أن يراعى شروط الصلاة من طهارة الحدث والحبث فى الثوب والبدن والمكان وستر العورة . فالطواف بالبيت صلاة ولكن الله سبحانه أباح فيه الكلام . وليضطبع قبل ابتداء الطواف وهو أن يجعل وسط رداءه تحت إبطه اليمنى ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر هيرخى طرفاً وراء ظهره وطرفاً على صدره . ويقطع التلية عند ابتداء الطواف ويشغل بالأدعية التى سند كرها (الثانى) إذا فرغ من الاضطباع فليجعل البيت على يساره وامقف عند الحجر الأسود وليتحن عنه قليلاً ليكون الحجر قدامه فيمر بجميع الحجر بجميع بدنه فى ابتداء طوافه . وليجعل يديه وبين البت قدر ثلاث خطوات لسكون قريباً من البت فإنه أفضل ولكيلاً يكون طائفاً على الساذروان فإنه من البيت ، وعند الحجر الأسود قد يتصل الساذروان بالأرض ويلتبس به ، والطائف عليه لا يصح طوافه ؛ لأنه طائف فى البيت . والشاذروان هو الذى فضل عن عرص حدار البيت بعد أن صبق أعلى الجدار ثم من هذا الموقف يبتدئ الطواف (الثالث) أن يقول قبل مجاوزة الحجر بل فى ابتداء الطواف : بسم الله والله أكبر اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعاً لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، ويطوف . فأقول مايجاوز الحجر ينتهى إلى باب البيت فيقول : اللهم هذا البيت بيتك وهذا الحرم حرمك وهذا الأمن أمنك وهذا مقام العائذ بك من النار ، وعند ذكر المقام يشير بعينه إلى مقام إبراهيم عليه السلام : اللهم إن بيتك عظيم ووجهك كريم وأنت أرحم الراحمين فأعذنى من النار ومن الشيطان الرجيم وحزمت لحمى ودمى على الدار وآمنى من أهوال يوم القيامة واكفى مؤنة الدنيا والآخرة ، ثم يسبح الله تعالى ويمجده حتى يبلغ الركن العراقى فعنده يقول : اللهم إني أعوذ بك من الشرك والشك والكفر والنفاق والشقاق وسوء الأخلاق وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد ، فإذا بلغ الميزاب قال : اللهم أظلمنا تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك اللهم اسقنى بكأس محمد صلى الله عليه وسلم شربة لا أظلم بعدها أبداً ، فإذا بلغ الركن الشامى قال : اللهم اجعله حجامبرورا وسعيماً مشكوراً وذنباً مغفوراً وتعارة لى تبور يا عزيز ياغفور رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم ، فإذا بلغ الركن اليمانى قال : اللهم إني أعوذ بك من الكفر وأعوذ بك من الفقر ومن عذاب القبر ومن فتنة المحا والممات وأعوذ بك من الخزى فى الدنيا والآخرة ، ويقول بين الركن اليمانى والحجر الأسود : اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا برحمتك فتنة القبر وعذاب النار ، فإذا بلغ الحجر الأسود قال اللهم اغفر لى رحمتك أعوذ برب هذا الحجر من الدين والفقر وضيق الصدر وعذاب القبر ، وعند ذلك قد تم شوط واحد فيطوف كذلك سبعة أشواط فيدعو بهذه الأدعية فى كل شوط (الرابع) أن يرمل فى ثلاثة أشواط ويمشى فى الأربعة الأخر

على الهيئة المعتادة . ومعنى الرمل الإسراع في المشي مع تقارب الخطأ ، وهو دون العدو وفوق المشي المعتاد . والمقصود منه ومن الاضطباع إظهار الشطارة والجلادة والقوة ، هكذا كان القصد أولاً قطعاً لطمع الكفار وبقيت تلك السنة^(١) والأفضل الرمل مع الدنو من البيت فإن لم يمكنه للزحمة فالرمل مع البعد أفضل فيخرج إلى حاشية المطاف وليرمل ثلاثاً ثم يقرب إلى البيت في المزدحم وليمش أربعاً . وإن أمكنه استلام الحجر في كل شوط فهو الأحب ، وإن منعه الزحمة أشار باليد وقبل يده ، وكذلك استلام الركن اليماني يستحب من سائر الأركان . وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يستلم الركن اليماني^(٢) ويقبله^(٣) ويضع حذّه عليه^(٤) ، ومن أراد تخصيصه بالحجر بالتفصيل واقتصر في الركن اليماني على الاستلام أغنى عن اللبس باليد فهو أولى (الخامس) إذا تم الطواف سبعا فليأت الملتزم وهو بين الحجر والباب وهو موضع استجابة الدعوة ، وليلتزم بالبيت وليتعلق بالاستار ويلصق بطنه بالبيت وليضع عليه خذّه الأيمن وليبسط عليه ذراعيه وكفيه ، وليقل : اللهم يارب البيت العتيق أعتق رقبتى من النار وأعذنى من الشيطان الرحيم وأعذنى من كل سوء وقنعنى بما رزقتنى وبارك لى فيما آتيتنى اللهم إن هذا البيت يبتك والعبد عبدك وهذا مقام العائذ بك من النار اللهم اجعلنى من أكرم وفدك عليك ، ثم ليحمد الله كثيراً في هذا الموضع وليصل على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الرسل كثيراً وليدع بجوانحه الخاصة وليستغفر من ذنوبه . كان بعض السلف في هذا الموضع يقول لمواليه : تنحوا عنى حتى أقف لربى بذنوبى (السادس) إذا فرغ من ذلك ينبغى أن يصلى خلف المقام ركعتين يقرأ في الأولى قل يا أيها الكافرون وفي الثانية الإخلاص وهما ركعتا الطواف . قال الزهرى : مضت السنة أن يصلى لكل سبع ركعتين^(٥) . وإن قرن بين أسابيع وصلى ركعتين جاز^(٦) . فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل أسبوع طواف . وليدع بعد ركعتي الطواف وليقل : اللهم يسر لى اليسرى وجنبنى العسرى واغفر لى فى الآخرة والأولى واعصنى بالطواف حتى لا أعصيك وأعنى على طاعتك بتوفيقك وجنبنى معاصيك واجعلنى ممن يحبك ويحب ملائكتك ورسلك ويحب عبادك الصالحين . اللهم جنبنى إلى ملائكتك ورسلك وإلى عبادك الصالحين اللهم فكما هديتنى إلى الإسلام فثبتنى عليه بالطواف وولايتك واستعملنى لطاعتك وطاعة رسولك وأحرنى من مضلات

(١) حديث « مشروعية الرمل والاضطباع قطعاً لطمع الكفار وبقيت تلك السنة » أما الرمل فتفق عليه من حديث ابن عباس قال « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال المشركون إنه يقدم عليكم قوم قد وهتهم حتى يثرب فأمرهم إلى صلى الله عليه وسلم أن يرموا الأشواط الثلاثة ... الحديث » وأما الاضطباع فروى أبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عمر قال « في الرمل الآن والكشف عن الماك وقد أظهر الله الإسلام ونفى الكفر وأهل ومع ذلك لا بدع شيئاً كسنا نعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٢) حديث « استلامه صلى الله عليه وسلم للركن اليماني » متفق عليه من حديث ابن عمر قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقدم مكة إذا استلم الركن الأسود ... الحديث » ولهما من حديثه « لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يمس من الأركان إلا اليمانيين » ولما لم من حديث ابن عباس « لم أره يستلم غير الركنين اليمانيين » وله من حديث جابر الطويل « حتى إذا أتمت البيت معه استلم الركن » (٣) حديث « تقبله صلى الله عليه وسلم له » متفق عليه من حديث عمر « أنه قبل الحجر وقال لولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك » ولله خوارى من حديث ابن عمر « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلمه ويقبله » وله في التاريخ من حديث ابن عباس « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا استلم الركن اليماني قبله » (٤) حديث « وضع الحذ عليه » أخرجه الدارقطنى من حديث ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الركن اليماني .. الحديث » قال الحاكم صحيح الإسناد قلت فيه عبد الله بن مسلم بن هسرمر صدقه الجمهور (٥) حديث الزهرى « مضت السنة أن يصلى لكل أسبوع ركعتين » ذكره البخارى تطبيقاً لسنة أفضل لم يطلب النى صلى الله عليه وسلم أسبوعاً إلا صلى ركعتين وفى الصحيحين من حديث ابن عمر « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين » (٦) حديث « قرأه صلى الله عليه وسلم بين أسابيع » ورواه ابن أبي حاتم من حديث ابن عمر « أن النبي صلى الله عليه وسلم قرن ثلاثة أطواف ليس بينهما صلاة » ورواه العقيلي فى الضعفاء وابن شاهين فى أماليه من حديث أبي هريرة وزاد « ثم صلى لكل أسبوع ركعتين » وفى مسندهما عبد السلام بن أبي الجيوب منسك الحديث

الفتن . ثم ليعد إلى الحجر وليستله وليختم به الطواف قال صلى الله عليه وسلم ، من طاف بالبيت أسبوعا وصلى ركعتين فله من الأجر كعتق رقبة ^(١) ، وهذه كيفية الطواف . والواجب من جلته بعد شروط الصلاة أن يستكمل عدد الطواف سبعا بجميع البيت ، وأن يبتدئ بالحجر الأسود ويجعل البيت على يساره وأن يطوف داخل المسجد وخارج البيت لأعلى الشاذروان ولا في الحجر ، وأن يوالى بين الأشواط ولا يفرقها تفريقا غارجا عن المعتاد وما عدا هذا فهو سنن وهيات .

الجملة الخامسة : في السعى

فإذا فرغ من الطواف فليخرج من باب الصفا وهو في محاذة الضلع الذى بين الركن اليماني والحجر . فإذا خرج من ذلك الباب وانتهى إلى الصفا وهو جبل فيرقى فيه درجات في حضيض الجبل بقدر قامة الرجل . رقى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت له الكعبة ^(٢) . وابتداء السعى من أصل الجبل كاف وهذه الزيادة مستحبة ، ولكن بعض تلك الدرج مستحثة فينبغى أن لا يتخلفها وراء ظهره فلا يكون متما للسعى ، وإذا ابتدأ من ههنا سعى بينه وبين المروة سبع مرات . وعند رقبة في الصفا ينبغى أن يستقبل البيت ويقول : الله أكبر الله أكبر الحمد لله على ما هدانا الحمد لله بمحامده كلها على جميع نعمه كلها لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنشقرون ﴾ اللهم إني أسألك إيمانا دائما وقينا صادقا وعلما نافعا وقلبا غاشعا ولسانا ذا ذكرا وأسألك العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدنيا والآخرة ويصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدعو الله عز وجل بما شاء من حاجته عقيب هذا الدعاء ثم ينزل ويبتدئ السعى وهو يقول : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، ويمشى على هيئة حتى ينتهى إلى الميل الأخضر وهو أول ما يلقاه إذا نزل من الصفا - وهو على زاوية المسجد الحرام - فإذا بقى بينه وبين محاذة الميل ستة أذرع أخذ في السير السريع وهو الرمل حتى ينتهى إلى الميلين الأخضرين . ثم يعود إلى الهيئة فإذا انتهى إلى المروة صعدا كما صعد الصفا وأقبل بوجهه على الصفا ودعا بمثل ذلك الدعاء وقد حصل السعى مرة واحدة ؛ فإذا عاد إلى الصفا حصلت مرتان . يفعل ذلك سبعا ويرمل في موضع الرمل في كل مرة ويسكن في موضع السكون - كما سبق - وفى كل نوبة يصعد الصفا والمروة فإذا فعل ذلك فقد فرغ من طواف القدوم والسعى وهما سنتان . والطهارة مستحبة للسعى وليست بواجبة بخلاف الطواف وإذا سعى فينبغى أن لا يعيد السعى بعد الوقوف ويكتفى بهذا ركعا ؛ فإنه ليس من شروط السعى أن يتأخر عن الوقوف وإنما ذلك شرط في طواف الركن . نعم شرط كل سعى أن يقع بعد طواف أى طواف كان .

(١) حديث « من طاف بالبيت أسبوعا وصلى ركعتين فله من الأجر كعتق رقبة » أخرجه الترمذى وحسنه والبيهقى وابن ماجه من حديث ابن عمر « من طاف بالبيت وصلى ركعتين كان كعتق رقبة » لفظ ابن ماجه وقال « الآخر من طاف بهذا البيت أسبوعا فأحصاه كان كعتق رقبة » والبيهقى في الشعب « من طاف أسبوعا وركع ركعتين كانت كعتق رقبة »

(٢) حديث « أنه رقى على الصفا حتى بدت له الكعبة » أخرجه مسلم من حديث جابر « قبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت » وله من حديث أبى هريرة « أنى الصفا فعلا عليه حتى نزل إلى البيت » .

الجملة السادسة : في الوقوف وما قبله

الحاج إذا انتهى يوم عرفة إلى عرفات يتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف . وإذا وصل قبل ذلك بأيام فطاف طواف القدوم فيمكث محرماً إلى اليوم السابع من ذى الحجة . فيخطب الإمام مكة خطبة بعد الظهر عند الكعبة ويأمر الناس بالاستعداد للخروج إلى منى يوم التروية والمبيت بها ، وبالدخول منها إلى عرفة لإقامة فرض الوقوف بعد الزوال ؛ إذ وقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر ، فينبغي أن يخرج إلى منى ملياً : ويستحب له المشي من مكة في المناسك إلى انقضاء حجته إن قدر عليه . والمشي من مسجد إبراهيم عليه السلام إلى الموقف أفضل وأكثر . فإذا انتهى إلى منى قال : اللهم هده منى فأمّن على مما منّدت به على أوليائك وأهل طاعتك ولبيك هذه الليلة بمنى - وهو مبيت منزل لا يتعلق به نسك - فإذا أصبح يوم عرفة صلى الصبح فإذا طلعت الشمس على ثبير سار إلى عرفات ويقول : اللهم أجعلها خير غدوة غدوتها قط وأقرها من رضوانك وأبعد ما من سخطك اللهم إليك غدوت وإليك رجوت وعليك اعتمدت ووجهك أردت فأجعلنى ممن تباهى به اليوم من هو خير منى وأفضل . فإذا أتى عرفات فليضرب خبائه بنمرة قريباً من المسجد ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قنّته ^(١) ونمرة هي بطن عرنة دون الموقف ودون عرفة . وليغتسل للوقوف فإذا زالت الشمس حطب الإمام خطبة وجيزة وقعد ، وأخذ المؤذن في الأذان والإمام في الخطبة الثانية ووصل الإقامة بالأذان ، وهرغ الإمام مع تمام إقامة المؤذن . ثم جمع بين الظهر والعصر بأذان وإقامتين ، وقصر الصلاة ، وراح إلى الموقف فليقف بعرفة ولا يقف في وادي عرنة . وأما مسجد إبراهيم عليه السلام فصدره في الوادي وأخرياته من عرفة من وقف في صدر المسجد لم يحصل له الوقوف بعرفة . ويتميز مكان عرفة من المسجد بصخرات كبار فرشت ثم . والأفضل أن يقف عند الصخرات بقرب الإمام مستقبلاً للقبلة راكباً . وليكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتلهيل والثناء على الله عز وجل والدعاء والتوبة . ولا يصوم في هذا اليوم لقوى على المواظبة على الدعاء . ولا يقطع التلبية يوم عرفة بل الأحب أن يلبي تارة ويكسب على الدعاء أخرى . وينبغي أن لا ينفصل من طرف عرفة إلا بعد العروب ليجمع في عرفة بين الليل والنهار : وإن أمكنه الوقوف يوم الثامن ساعة عند إمكان الغلط في الهلال فهو الحزم وبه الأمان من الفوات . ومن فاته الوقوف حتى طلع الصجر يوم النحر فقد فاته الحج ، فعليه أن يتحلل عن إحرامه بأعمال العمرة ثم يريق دماً لأجل الفوات ، ثم يقضى العام الآتي ، وليكن أهم استغاله في هذا اليوم الدعاء . ففي مثل تلك البقعة ومثل ذلك الجمع ترجى لإجابة الدعوات . والدعاء المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) وعن السلف

(١) حديث « ضربني صلى الله عليه وسلم قنّته بنمرة » أخرجه مسلم من حديث جابر الطويل « أمر بقنّة من شعر تضرب له بنمرة .. الحديث » (٢) حديث « الدعاء المأثور في يوم عرفة لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. الحديث » أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » وقال حسن غريب وله من حديث علي قال « أكثر ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة في الموقف اللهم لك الحمد كالقوى وخيراً مما تقول لك صلاح ونسك ومحباي ومحباي واليك مآتي ولك رب ترائي اللهم إني أعوذ بك من شر ما تحيى به الريح » وقال ليس بالقوى إسناده وروى المستمري في الدعوات من حديثه « يا علي إن أكثر دعاء من قبل يوم عرفة أن أقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم اجعل في صدري نوراً وفي سمعي نوراً وفي قلبي نوراً اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري اللهم إني أعوذ بك من وسواس الصدر وشتات الأمر وفنّة القبر وشر ما يلج في الليل وشر ما يلج في النهار وشر ما يهب به الرياح ومن شر بوائق الدهر » وإسناده ضعيف وروى الطبراني في المعجم الصغير من حديث ابن عباس قال « كان مما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة : اللهم إني أدعوك ترضى مكانى وتسمع كلامى وتعلم سرى وعلايتى ولا يخفى عليك شيء من أمرى أنا البائس =

في يوم عرفة أول ما يدعوه به فليقل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير . اللهم اجعل في قلبي نورا وفي سمعي نورا وفي بصري نورا وفي لساني نورا . اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري وليقل : اللهم رب الحمد لك الحمد كما تقول وخيراً مما تقول لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي وإليك مآبي وإليك ثوابي . اللهم إني أعوذ بك من وساوس الصدر وشتات الأمر وعذاب القبر . اللهم إني أعوذ بك من شر ما يلج في الليل ومن شر ما يلج في النهار ومن شر ما تنهب به الرياح . ومن شر بوائق الدهر . اللهم إني أعوذ بك من تحول عافيتك ونجاة نعمتك وجميع سخطك . اللهم اهدني بالهدى واغفر لي في الآخرة والأولى ياخير مقصود وأسنى منزل به وأكرم مسئول مألديه أعطني العشية أفضل ما أعطيت أحداً من خلقك وحجاج بيتك يا أرحم الراحمين . اللهم يارفع الدرجات ومنزل البركات ويا فاطر الأرضين والسموات ضجت إليك الأصوات بصوف ألغات يسألونك الحاجات وحاجتي إليك أن لاتنسني في دار البلاء إذا نسيت أهل الدنيا . اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سري وعلائي ولا يحق عليك شيء من أمري أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المعترف بذنبي أسألك مسئلة المسكين وأبتل إليك ابتهاج المدنف الدليل وأدعوك دعاء الخائف الضريع دعاء من خضعت لك رقبته وفاضت لك عبرته وذل لك جسده ورغم لك أنفه . اللهم لاتجعلني بدعائك رب شقياً وكن لي رموفاً رحيماً ياخير المسؤولين وأكرم المعطين إلهي من مدح لك نفسه فأني لأثم نفسي . إلهي أخرست المعاصي لساني فإني وسيلة عن عمل ولا شفيع سوى الأمل . إلهي إني أعلم أن ذنوبي لم تبق لي عندك جاهاً ولا الاعتذار وجهاً ولكم أكرم الأكرمين . إلهي إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهل أن تبغني ورحمتك وسعت كل شيء وأنا شيء إلهي إن ذنوبي وإن كانت عظيماً ولكنها صغار في جنب عفوك فاغفرها لي يا كريم إلهي أنت أنت وأنا أنا ، أنا العواد إلى الذنوب وأنت العواد إلى المغفرة . إلهي إن كنت لا ترحم إلا أهل طاعتك فأني من يفرغ المذنبون . إلهي تجنبني عن طاعتك عمداً وتوجهني إلى معصيتك قصداً فسبحانك ما أعظم حجتك علي وأكرم عفوك عني فبوحوب حجتك علي واقطاع حجتي عنك وفقري إليك وغناك عني إلا غفرت لي ياخير من دعاء داع وأفضل من رجاء راج بحرمة الإسلام وبدمة محمد عليه السلام أتوسل إليك فاغفر لي جميع ذنوبي واصرفني من موقفي هذا مقضى الخوائج وهب لي ما سألت وحقق رجائي فيما تمنيت . إلهي دعوتك بالدعاء الذي علمته فلا تحرمي الرجاء الذي عرفته إلهي ما أنت صانع العشية بعبد مقرر لك بذنبي خاشع لك بدلته مستكين بجرمه متضرع إليك من عمله تائب إليك من اقترافه مستغفر لك من ظلمه مبتل إليك في العفو عنه طالب إليك نجاح حوائجه راج إليك في موقفه مع كثرة ذنوبه فيا ملجأ كل حي وولي كل مؤمن من أحسن فبرحمتك يفوز ومن أخطأ فبخطيئته يهلك . اللهم إليك خرجنا وبفنائك أنحنأ وإياك أمنا وما عندك طلبنا وإحسانك تعرضنا ورحمتك رجونا ومن عذابك أشفقنا وإليك بأثقال الذنوب هربنا وليبتك الحرام حججنا يامن يملك حوائج السائلين ويعلم صمائر الصامتين يامن ليس معه رب يدعي ويامن ليس فوقه خالق يخشى ويامن ليس له وزير يؤتي ولا حاجب يرشي يامن لا يزداد على كثرة السؤال إلا جوداً وكرماً وعلى كثرة الخوائج إلا انفضلاً وإحساناً . اللهم إنك جعلت لكل ضيف قري ونحن أضيافك فاجعل قرانا منك الجنة . اللهم إن لكل وفد جائزة ولكل زائر كرامة ولكل سائل عطية ولكل راج ثواباً ولكل ملتزم لما عندك جزاء ولكل

= الفقير « فذكر الحديث إلى قوله « ياخير المسؤولين وياخير المعطين » ولإسناده ضعيف وباقي الدعاء من دعاء بعض السلف في بعض ما هو مرفوع ، لكن ليس مقيداً بموقف عرفة .

مسترحم عندك رحمة ولكل راغب إليك زلنى ولكل متوسل إليك عفواً وقد وفدنا إلى بيتك الحرام ووقفنا بهذه المشاعر العظام وشهدنا هذه المشاهد الكرام رجاء لما عندك فلا تخيب رجاءنا . إلهنا تابعت النعم حتى اطمانت الأنفس بتتابع نعمك وأظهرت العبر حتى نطق الصوامت بحجتك وظهرت المنن حتى اعترف أولياؤك بالتقصير عن حقك وأظهرت الآيات حتى أفصححت السموات والأرضون بأدلتك وقهرت بقدرتك حتى خضع كل شيء لعزتك وعنت الوجوه لعظمتك إذا أسامت عبادك حلت وأمهلت وإن أحسنوا تفضلت وقبلت وإن عصوا سترت وإن أذنبوا عفوت وغفرت وإذا دعونا أجبت وإذا نادينا سمعت وإذا أقبلنا إليك قربت وإذا ولينا عنك دعوت . إلهنا إنك قلت في كتابك المبين لمحمد خاتم النبيين ﴿ قل للذين كفروا إن يذنبوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ فأرضاك عنهم الإقرار بكلمة التوحيد بعد الجحود وإنا نشهد لك بالتوحيد محبتين ولمحمد بالرسالة محاضرين فأغفر لنا بهذه الشهادة سوائف الإجماع ولا تجعل حظنا فيه أنقص من حظ من دخل في الإسلام . إلهنا إنك أحببت التقرب إليك بعق ممالك أيماننا ونحن عبيدك وأنت أولى بالتفضل فاعتقنا . وإنك أمرتنا أن نتصدق على فقرائنا ونحن فقراؤك وأنت أحق بالتطول فتصدق علينا . ووصيتنا بالعرف عن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا وأنت أحق بالكرم فأعف عنا . ربنا اغفر لنا وارحمنا أنت مولانا ربنا آمنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا برحمتك عذاب النار ، وليكثر من دعاء الخضر عليه السلام وهو أن يقول « يا من لا يشغله شأن عن شأن ولا سمع عن سمع ولا تشبه عليه الأصوات ، يا من لا تعلطه المسائل ولا تختلط عليه اللغات ، يا من لا يبرمه إلحاح المالحين ولا تضجره مشقة السائلين أذقنا برد عفوك وحلاوة مناجاتك ، وليدع بما بدا له وليستغفر له ولو الدية وجميع المؤمنين والمؤمنات ولبح في الدعاء وليعظم المسألة فإن الله لا يتعاطى شيء » ، وقال مطرف بن عبد الله وهو بعرفة : اللهم لا ترد الجميع من أجل . وقال بكر المزني : قال رجل لما نظرت إلى أهل عرفات طننت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم .

الجملة السابعة : في بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمى والنحر والحلق والطواف

فإذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس فينبغي أن يكون على السكينة والوقار وليجتنب وجيف الخيل وإيضاع الإبل كما يعتاده بعض الناس . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن وجيف الخيل وإيضاع الإبل وقال : اتقوا الله وسيروا سيراً جميلاً لا تطأوا ضعيفاً ولا تؤذوا مسلماً ^(١) » ، فإذا بلغ المزدلفة اغتسل لها لأن المزدلفة من الحرم وليدخله بغسل ، وإن قدر على دخولها ماشياً فهو أفضل وأقرب إلى توقيف الحرم . ويكون في الطريق رافعاً صوته بالنبلية فإذا بلغ المزدلفة قال « اللهم إن هذه مزدلفة جمعت فيها ألسنة مختلفة تسألك حوائج مؤتلفه فاجعلني ممن دعاك فاستجبت له وتوكل عليك فكفيته » ثم يجمع بين المغرب والعشاء بمزدلفة في وقت العشاء قاصراً له بأذان وإمامتين ليس بينهما نافلة ، ولكن يجمع نافلة المغرب والعشاء والوتر بعد الفريضتين ، ويبدأ بنافلة المغرب ثم بنافلة العشاء كما في الفريضتين . فإن ترك النوافل في السفر خسران ظاهر . وتكليف إيقاعها في الأوقات إضرار وقطع للتبعية بينهما وبين الفرائض فإذا جاز أن يؤدي النوافل مع الفرائض بتيمم واحد بحكم التبعية فبأن يحوز أدائها على حكم الجمع بالتبعية أولى . ولا يمنع من هذا مفارقة النفل للفرض في حواز أدائه على الراحة لما أو ماناً إليه من التبعية والحاجة . ثم يمكث تلك الليلة

(١) حديث « نهى النبي عن وجيف الخيل وإيضاع الإبل » أخرجه النسائي والحاكم وصححه من حديث أسامة بن زيد « عليكم بالسكينة والوقار فإن البر ليس في إيضاع الإبل » وقال الحاكم « ليس البر بإيجاف الخيل والإبل » ولبخاري من حديث ابن عباس « فإن البر ليس بالإيضاع » .

بمزدلفة وهو ميّت نسك ، ومن خرج منها في النصف الأول من الليل ولم يبيت فعليه دم ، وإحياء هذه الليلة الشريفة من محاسن القربات لمن يقدر عليه ثم إذا انتصف الليل يأخذ في التأهب للرحيل ويتزود الحصى منها - ففيها أحجار رخوة - فليأخذ سبعين حصاة فإنها قدر الحاجة ، ولا بأس بأن يستظهر بزيادة فربما يسقط منه بعضها . ولتكن الحصى خفافاً بحيث يحتوى عليه أطراف البراجم . ثم ليغسل بصلاة الصبح وليأخذ في المسير حتى إذا انتهى إلى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة فيقف ويدعو إلى الإسفار ويقول : اللهم بحق المشعر الحرام والبيت الحرام والشعر الحرام والركن والمقام أبلغ روح محمد منا التحية والسلام وأدخلنا دار السلام يا ذا الحلال والإكرام ، ثم يدفع منها قبل طوع الشمس حتى ينتهي إلى موضع يقال له وادي محسر فيستحب له أن يحرك دابته حتى يقطع عرض الوادي وإن كان راجلاً أسرع في المشي . ثم إذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير فيلبي تارة ويكبر أخرى . فينتهي إلى منى ومواضع الجمرات وهي ثلاثة فيتجاوز الأولى والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر ، حتى ينتهي إلى جمره العقبة وهي على يمين مستقبل القبلة في الجادة - والمرمى مرتفع قليلاً في سفح الجبل وهو ظاهر بمواقع الجمرات - ويرمى جمره العقبة بعد طلوع الشمس بقدر رمح . وكيفيته أن يقف مستقبلاً القبلة وإن استقبل الجمره فلا بأس ويرمى سبع حصيات رافعاً يده ، ويدل التلبية بالتكبير ويقول مع كل حصاة : الله أكبر على طاعة الرحمن ، ورغم الشيطان اللهم تصديقاً بكتابك واتباعاً لسنة نبيك ، فإذا رمى قطع التلبية والتكبير إلا التكبير عقيب فرائض الصلوات من طهر يوم النحر إلى عقيب الصبح من آخر أيام التشريق . ولا يقف في هذا اليوم للدعاء بل يدعو في منزله . وصفة التكبير أن يقول : الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً لا إله إلا الله وحده لا شريك له محليين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله والله أكبر ، ثم ليذبح الهدى إن كان معه والأولى أن يذبح بنفسه وليقل : سم الله والله أكبر اللهم منك وبك وإليك تقبل منى كما تقبلت من خليلك إبراهيم ، والتضحية بالبدن أفضل ثم بالبقر ثم بالشاة . والشاة أفضل من مشاركة ستة في البدنة أو البقرة . والضأن أفضل من المعز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خير الأضحية الكبش الأقرون والبيضاء أفضل من الغبراء والسوداء ^(١) ، وقال أبو هريرة : البيضاء أفضل في الأضحية من دم سوداوين وليأكل منه إن كانت من هدى التطوع ولا يضحين بالعرجاء والجدعاء والعضباء والجرباء والشرقاء والخرقاء والمقابلة والمدابرة والعجفاء . والجدة في الأنف والأذن للقطع منهما ، والعضب في القرن وفي نقصان القوائم والشرقاء المشقوقة الأذن من فوق ، والخرقاء من أسفل ، والمقابلة المخروقة الأذن من قدام ، والمدابرة من خلف . والعجفاء المهزولة التي لا تنقي أي لامخ فيها من الهزال . ثم ليحلق بعد ذلك والسنة أن يستقبل القبلة ويبتدئ بمقدم رأسه فيحلق الشق الأيمن إلى العظمين المشرفين على القفا ثم ليحلق الباقي ويقول : اللهم أثبت لي بكل شعرة حسنة وامح عني بها سيئة وارفع لي بها عندك درجة ، والمرأة تقصر الشعر . والأصلع يستحب له إمرار الموصى على رأسه ومهما حلق بعد رمى الجمره فقد حصل له التحلل الأول وحل له كل المحذورات إلا النساء والصيد . ثم يفيض إلى مكة يطوف كما وصفناه . وهذا الطواف طواف ركن في الحج ويسمى طواف الزيارة وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر ، وأفضل وقته يوم النحر ولا آخر لوقته بل له أن يؤخر إلى أي وقت شاء ، ولكن يبقى مقيداً بعلقة الإحرام فلا تحل له النساء إلى أن يطوف . فإذا طاف تم التحلل وحل الجماع وارتفع الإحرام بالكلية ولم يبق

(١) حديث « خير الأضحية الكرش » أخرجه أبو داود من حديث عاتكة الصامت والترمذي من حديث أبي أمامة قال الترمذي دريب وعمر يضعف في الحديث .

إلا رمى أيام التشريق والمبيت بمنى وهى واجبات بعد زوال الإحرام على سبيل الاتباع للحق وكيفية هذا الطواف مع الركعتين كما سبق في طواف القدوم . فإذا فرغ من الركعتين فليسع كما وصفنا إن لم يكن سعى بعد طواف القدوم وإن كان قد سعى فقد وقع ذلك ركناً فلا ينبغي أن يعيد السعى . وأسباب التحلل ثلاثة : الرمي والحلق والطواف الذى هو ركن . ومهما أتى باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين ، ولا حرج عليه في التقديم والتأخير بهذه الثلاث مع الذبح ، ولكن الأحسن أن يرمى ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف . والسنة للإمام في هذا اليوم أن يخطب بعد الزوال وهى خطبة وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحج أربع خطب : خطبة يوم السابع وخطبة يوم عرفة وخطبة يوم النحر ^(١) وخطبة يوم النفر الأول ، وكلها عقيب الزوال وكلها لإفراد إلا خطبة يوم عرفة فإنها خطبتان بينهما جلسة . ثم إذا فرغ من الطواف عاد إلى منى للمبيت والرمي فمبيت تلك الليلة بمنى وتسمى ليلة القدر لأن الناس في غد يقفون بمنى ولا ينفرون . فإذا أصبح اليوم الثانى من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمي وقصد الجرة الأولى التى تلى عرفة وهى على يمين الجادة ويرمى إليها بسبع حصيات ، فإذا تعداها انحرف قليلاً عن يمين الجادة ووقف مستقبل القبلة وحمد الله تعالى وهال وكبر ودعا مع حضور القلب وخشوع الجوارح ووقف مستقبل القبلة قدر قراءة سورة البقرة مقبلاً على الدعاء ، ثم يتقدم إلى الجرة الوسطى ويرمى كما رمى الأولى ويقف كما وقف للأولى ثم يتقدم إلى جرة العقبة ويرمى سبعاً ، ولا يعرج على شغل بل يرجع إلى منزله ويبيت تلك الليلة بمنى وتسمى هذه الليلة ليلة النفر الأول ، ويصبح فإذا صلى الظهر في اليوم الثانى من أيام التشريق رمى في هذا اليوم إحدى وعشرين حصاة كالיום الذى قبله . ثم هو مخير بين المقام بمنى وبين العود إلى مكة . فإن خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شئ عليه وإن صبر إلى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمى في يوم النفر الثانى أحداً وعشرين حجراً كما سبق . وفى ترك المبيت والرمي إراقة دم وليتصدق باللحم . وله أن يزور البيت في ليالى منى بشرط أن لا يبيت إلا بمنى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ^(٢) ولا يترك حضور الفرائض مع الإمام في مسجد الخيف فإن فضله عظيم فإذا أفاض من منى فالأولى أن يقيم بالمحصب من منى ويصلى العصر والمغرب والعشاء ويرقد رقة ^(٣) فهو السنة . رواه جماعة من الصحابة رضى الله عنهم . فإن لم يفعل ذلك فلا شئ عليه .

الجملة الثامنة : في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع

من أراد أن يعتمر قبل حجه أو بعده كيفما أراد فليغتسل ويلبس ثياب الإحرام كما سبق في الحج ويحرم بالعمرة من ميقاتها ، وأفضل مواقيتها الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية . وينوى العمرة ويلبى ويقصد مسجد عائشة رضى الله

(١) حديث « الخطبة يوم النحر وهى خطبة وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم » أخرجه البخارى من حديث أبى بكره « خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر » وله من حديث ابن عباس « خطب الناس يوم النحر » وفى حديث علقه البخارى ووصله ابن ماجه من حديث ابن عمر « وقف النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر بين الجمرات في المحلة التى حج فيها فقال : أى يوم هذا ؟ الحديث » وفيه « ثم ودع الناس فقالوا هذه حجة الوداع »

(٢) حديث « زيارة البيت في ليالى منى والمبيت بمنى » أخرجه أبو داود في المراسيل من حديث طاوس « قال أشهد أن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور البيت أيام منى » وفيه عمرو بن رباح ضيف والمرسل صحيح الإسناد ولأن داود من حديث عائشة « أن النبي صلى الله عليه وسلم مكث بمنى ليالى أيام التشريق »

(٣) حديث « نزول المحصب وصلاة العصر والمغرب والعشاء » والرفقة رقة « أخرجه البخارى من حديث أس « أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالبطحاء ثم هجع هجعة . الحديث »

عنها ويصلي ركعتين ويدعو بما شاء . ثم يعود إلى مكة وهو يلبي حتى يدخل المسجد الحرام . فإذا دخل المسجد ترك التلبية وطاف سبعا وسعى سبعا كما وصفنا . فإذا فرغ حلق رأسه وقد تمت عمرته والمقيم بمكة ينبغي أن يكثر الاعتمار والطواف . وليكثر النظر إلى البيت . فإذا دخله فليصل ركعتين بين العمودين فهو الأفضل وليدخله حافياً موقراً . قيل لبعضهم : هل دخلت بيت ربك اليوم ؟ فقال : والله ما أرى هاتين القدمين أهلاً للطواف حول بيت ربى فكيف أراهما أهلاً لأن أطأ بهما بيت ربى ؟ وقد علمت حيث متيتا وإلى أين مشيتا . وليكثر شرب ماء زمزم وليستق بيده من غير استنابة إن أمكنه وليرتو منه حتى يتضلع وايقل : اللهم اجعله شفاء من كل داء وسقم وارزقني الإخلاص واليقين والمعافاة في الدنيا والآخرة قال صلى الله عليه وسلم : « ماء زمزم لما شرب له »^(١) ، أى يشفى ما قصد به .

الجملة التاسعة : في طواف الوداع

مهما عن له الرجوع إلى الوطن بعد الفراغ من إتمام الحج والعمرة فلينجز أولاً أشعاله وليشد رحاله وليجعل آخر أشعاله وداع البيت . ووداعه بأن يطوف به سبعا كما سبق ولكن من غير رمل واضطباع . فإذا فرغ منه صلى ركعتين خلف المقام وشرب من ماء زمزم ثم يأتي الملتزم ويدعو ويتضرع ويقول : اللهم إن البيت بيتك والعبد عبدك وابن عبدك وابن أمتك حملتني على ما سخرت لي من خلقك حتى سيرتني في بلادك وبلغتني بنعمتك حتى أعنتني على قضاء مناسكك ، فإن كنت رضية عني فازدد عني رضا وإلا فتن الآن قبل تباعدى عن بيتك هذا أو أن الصراى إن أذنت لي غير مستبدل بك ولا ببيتك ولا راغب عنك ولا عن بيتك . اللهم أصحبنى العافية في بدنى والعصمة في دينى وأحسن منقلى وارزقنى طاعتك أبداً ما أبقيتني واجمع لي خير الدنيا والآخرة إنك على كل شىء قدير . اللهم لاتجعل هذا آخر عهدى ببيتك الحرام وإن جعلته آخر عهدى فعوضنى عنه الجنة ، والأحب أن لا يصرف بصره عن البيت حتى يغيب عنه .

الجملة العاشرة : في زيارة المدينة وآدابها

قال صلى الله عليه وسلم : « من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من وجد سعة ولم يقد إلى فقد جفاني »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من جاءني زائراً لا يهيمه إلا زيارتي كان حقاً على الله سبحانه أن أكون له شفيعاً »^(٤) ، فمن قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريقه كثيراً . فإذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال : اللهم هذا حرم رسولك فاجعله لي وقاية من النار وأماناً من العذاب وسوء الحساب ، وليغتسل قبل الدخول من بئر الحرة وليتطيب ويلبس أنظف ثيابه . فإذا دخلها فليدخلها

(١) حديث « ماء زمزم لما شرب له » أخرجه ابن ماجة من حديث جابر بسند ضعيف ورواه الدارقطني والحاكم في المستدرک من حديث ابن عباس قال الحاكم صحيح الإسناد إن سلم من محمد بن حبيب الجلازودي قال ابن القطان سلم منه فإن الخطيب قال فيه كان صدوقاً ، قال ابن القطان لكن الراوى عنه مجهول وهو محمد بن همام المروزي (٢) حديث « من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي » أخرجه الطبراني والدارقطني من حديث ابن عمر (٣) حديث « من وجد سعة ولم يقد إلى فقد جفاني » أخرجه ابن عدی والدارقطني في غرائب مالك وابن حبان في الصغاء والخطيب في الرواة عن مالك في حديث ابن عمر « من حج ولم يزرني فقد جفاني » وذكره ابن الجوزي في الموضوعات . وروى ابن النجار في تاريخ المدينة من حديث أنس « ما من أحد من أمتي له سعة ثم لم يزرني فليس له عذر » (٤) حديث « من جاءني زائراً لا يهيمه إلا زيارتي كان حقاً على الله أن أكون له شفيعاً » أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر وصححه ابن السكس .

متواضعاً معظماً وليقل : بسم الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ ثم يقصد المسجد ويدخله ويصلي بجنب المنبر ركعتين . ويجعل عمود المنبر حذاء منكبه الأيمن ويستقبل السارية التي إلى جانبها الصندوق وتكون الدائرة التي في قبلة المسجد بين عينيه فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يعبر المسجد . وليجتهد أن يصلي في المسجد الأول قبل أن يزد فيه . ثم يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيقف عند وجهه وذلك بأن يستدير القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو من أربعة أذرع من السارية التي في زاوية جدار القبر ، ويجعل القنديل على رأسه وليس من السنة أن يمس الجدار ولا أن يقبله بل الوقوف من بعد أقرب الاحترام ، فيقف ويقول : السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا نبي الله السلام عليك يا أمين الله السلام عليك يا حبيب الله السلام عليك يا صفوة الله السلام عليك يا خيرة الله السلام عليك يا أحمد السلام عليك يا محمد السلام عليك يا أبا القاسم السلام عليك يا ماحي السلام عليك يا عاقب السلام عليك يا حاشر السلام عليك يا بتير السلام عليك يا نذير السلام عليك يا طهر السلام عليك يا طاهر السلام عليك يا أكرم ولد آدم السلام عليك يا سيد المرسلين السلام عليك يا خاتم النبيين السلام عليك يا رسول رب العالمين السلام عليك يا قائد الخير السلام عليك يا فاتح البر السلام عليك يا نبي الرحمة السلام عليك يا هادي الأمة السلام عليك يا قائد الغر المحجلين السلام عليك وعلى أهل بيتك الدين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين جزاك الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن قومه ورسولاً عن أمته وصلى عليك كلما ذكرك الذاكرون وكلما غفل عنك الغافلون وصلى عليك في الأولين والآخرين أفضل وأكمل وأعلى وأحل وأطيب وأطهر ما صلى على أحد من خلقه كما استقننا بك من الضلالة وبصرنا بك من العمية وهدانا بك من الجهالة أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك عبده ورسوله وأمينه وصفيه وخيرته من خلقه وأشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت عدوك وهديت أمتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وسلم وترف وكترم وعظم وإن كان قد أوصى بتبليغ سلام فيقول : السلام عليك من - فلان - السلام عليك من - فلان - ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأن رأسه عند منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر رضي الله عنه عند منكب أبي بكر رضي الله عنه . ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على الفاروق عمر رضي الله عنه ويقول : السلام عليك يا وزير رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعاونين له على القيام بالدين مادام حياً والقائمين في أمته بعده بأمر الدين تتبعان في ذلك آثاره وتعملان بسنته فجراً كما الله خير ما جزى وزيرى نبي عن دينه . ثم يرجع فيقف عند رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم - بين القبر والاسطوانة اليوم - ويستقبل القبلة وليحمد الله عز وجل وليمجده وليكثر من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول : اللهم إنك قد قلت وقولك الحق ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ اللهم إنا قد سمعنا قولك وأطعنا أمرك وقصدنا نبيك متشفعين به إليك في ذنوبنا وما أثقل ظهورنا من أوزارنا تأمبين من زللتنا معترفين بخطايانا وتقصيرنا فتب اللهم علينا وشفع نبيك هذا فينا وارفعنا بمنزلته عندك وحقه عليك . اللهم اغفر للهاجرين والأنصار واغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان . اللهم لاتجعل آخر العهد من قبر نبيك ومن حرمك يا أرحم الراحمين . ثم يأتي الروضة فيصلي فيها ركعتين ويكثر من الدعاء ما استطاع لقوله صلى الله

عليه وسلم « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي »^(١) ، ويدعو عند المنبر ويستحب أن يضع يده على الرمانة السفلى التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع يده عليها عند الخطبة^(٢) ويستحب له أن يأتي أحدا يوم الخيس ويزور قبور الشهداء فيصلّي الغداة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم . ثم يخرج ويعود إلى المسجد لصلاة الظهر فلا يفوته فريضة في الجماعة في المسجد . ويستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويزور قبر عثمان رضي الله عنه وقبر الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وفيه أيضا قبر علي ابن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد رضي الله عنهم ، ويصلي في مسجد فاطمة رضي الله عنها ويزور قبر إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك كله بالبقيع . ويستحب له أن يأتي مسجد قباء في كل سبت ويصلي فيه لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال من خرج من بيته حتى يأتي مسجد قباء ويصلي فيه كان له عدل عمرة »^(٣) ، ويأتي بئر أريس يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم تفل فيها وهي عند المسجد فيتوضأ منها ويشرب من مائها^(٤) ويأتي مسجد الفتح وهو على الخندق . وكذا يأتي سائر المساجد والمشاهد ويقال إن جميع المشاهد والمساجد بالمدينة ثلاثون موضعا يعرفها أهل البلد فيقصد ما قدر عليه وكذلك يقصد الآبار التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ منها ويغتسل ويشرب منها^(٥) وهي سبع آبار طلبا للشفاء

(١) حديث « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي » متفق عليه من حديث أبي هريرة وعبد الله ابن زيد . (٢) حديث « وصمه صلى الله عليه وسلم يده عند الخطبة على رمانة المنبر » لم أقف له على أصل وفكر محمد بن الحسن ابن زبالة في تاريخ المدينة أن طول رمانتي المنبر اللتين كان يمسكهما صلى الله عليه وسلم بيديه السكريتين إذا جلس شبرا وأصعانا . (٣) حديث « من خرج من بيته حتى يأتي مسجد قباء ويصلي فيه كان عدل عمرة » أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث سهل بن حنيف بإسناد صحيح . (٤) حديث « أن النبي صلى الله عليه وسلم تفل في بئر أريس » لم أقف له على أصل وإنما ورد أنه تفل في بئر الهبة وبئر غرس — كما سيأتي عند ذكرها — (٥) حديث « الآبار التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ ويمتسل ويشرب منها » وهي سبعة آبار . قلت : وهي بئر أريس وبئر حار وبئر رومة وبئر غرس وبئر بضاعة وبئر البصة وبئر السقيا أو المهن أو بئر حمل . حديث « بئر أريس » رواه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري في حديث فيه « حتى دخل بئر أريس قال خلست عند بابها وبابها من حديث حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته وتوضأ . . . الحديث » وحديث « بشرحا » متفق عليه من حديث أنس قال « كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة تخلاؤا وكان أحب أمواله إليه بئر حار وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . . . الحديث » وحديث « بئر رومة » رواه الترمذي والنسائي من حديث عثمان « أنه قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعد به غير بئر رومة فقال من يشترى بئر رومة ويحمل دلوه مع دلاء المسلمين . . . الحديث » قال الترمذي حديث حسن . وفي رواية لها « هل تعلمون أن رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بالثمن فابتعتها جعلتها للمني والمقير وابن السبيل . . . الحديث » وقال حسن صحيح وروى البزري والعلواني من حديث بشير الأسدي قال « لما قدم المهاجرون المدينة استكروا الماء وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة وكان يبيع منها القربة بعد . . . الحديث » وحديث « بئر غرس » رواه ابن حبان في الثقات . من حديث أنس « أنه قال اتفوني بئرا من بئر غرس فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب منها ويتوضأ » ولأن ما جبه بإسناد جيد مرفوعا « إذا ألتفت فافعلوني بسبع قرب من بئر بئر غرس » وروينا في تاريخ المدينة لابن السخار بإسناد ضعيف مرسلا « أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ منها وبزق فيها وغسل منها حين توفي » وحديث « بئر بضاعة » رواه أصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري « أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتوضأ من بئر بضاعة » وفي رواية « أنه يستقيك من بئر بضاعة . . . الحديث » قال يحيى بن معين لمساه جيد وقال الترمذي حسن والعلواني من حديث أبي أسيد « بصق النبي صلى الله عليه وسلم في بئر بضاعة » وروينا أيضا في تاريخ ابن الجار من حديث سهل بن سعد . وحديث « بئر البصة » رواه ابن عدي من حديث أبي سعيد الخدري « أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء يوما فقال هل عندكم من سدر أغسل به رأسي فان اليوم الجمعة ؟ قال نعم فأخرج له سدرًا وخرج معه إلى البصة فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه وصب غسالة رأسه وصراق شعره في البصة » وفيه محمد بن الحسن بن زبالة ضعيف وحديث « بئر السقيا » رواه أبو داود من حديث عائشة « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعذب له من بيوت السقيا » زاد البزار في مسنده « أو من بئر السقيا » ولأحمد من حديث علي « خرج جامع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بالسقيا التي كانت لسعد بن أبي وقاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتفوني بوضوء فلما توضأ

وتبركا به صلى الله عليه وسلم وإن أمكنه الإقامة بالمدينة مع مراعاة الحرمة فلها فضل عظيم قال صلى الله عليه وسلم « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت فإنه لن يموت بها أحد إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة »^(٢) ، ثم إذا فرغ من أشغاله وعزم على الخروج من المدينة فالمستحب أن يأتي القبر الشريف ويعيد دعاء الزيارة - كما سبق - ويودع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسأل الله عز وجل أن يرزقه العودة إليه ويسأل السلامة في سفره . ثم يصلي ركعتين في الروضة الصغيرة وهي موضع مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن زيدت المقصورة في المسجد . فإذا خرج فليخرج رجله اليسرى أولا ثم اليمنى وليقل « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ولا تجعله آخر العهد بنبيك وحط أوزاري بزيارته وأصغني في سفرى السلامة ويسر رجوعي إلى أهلى ووطنى سالميا أرحم الراحمين ، وليتصدق على حيران رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدر عليه . وليتبع المساجد التي بين المدينة ومكة فيصل فيها وهي عشرون موضعا .

فصل : في سنن الرجوع من السفر

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على رأس كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيئون ثابتون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده »^(٣) ، وفي بعض الروايات « وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » فينبغي أن يستعمل هذه السنة في رجوعه . وإذا أشرف على مدينته يحرك الدابة ويقول « اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا حسنا . ثم ليرسل إلى أهله من يخبرهم بقدمه كي لا يقدم عليهم بعته فذلك هو السنة »^(٤) ولا ينبغي أن يطرق أهله ليلا فإذا دخل البلد فليقصد المسجد أولا وليصل ركعتين فهو السنة^(٥) كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا دخل بيته قال « توبا توبا لربنا أوبا لا يغادر علينا حوبا ، فإذا استقرت في منزله فلا ينبغي أن ينسى ما أنعم الله به عليه من زيارة بيته وحرمة وقبر بنيه صلى الله عليه وسلم فيكفر تلك النعمة بأن يعود إلى الغفلة واللهو والخلوص في المعاصي ، فما ذلك علامة الحج المبرور بل علامته أن يعود راهدا في الدنيا راغبا في الآخرة متأهبا للقاء رب البيت بعد لقاء البيت .

الباب الثالث : في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

بيان دقائق الآداب وهي عشرة

(الاول) أن تكون المقة حلالا وتكون اليد حالية من تحارة تشغل القلب وتفترق الهم حتى يكون الهم مجردا

= قام .. الحديث « وأما برجل في الصحيحين من حديث أبي الهمم « أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو شرجل .. الحديث » وصلة البخارى وعلقه مسلم والمشهور أن الآثار بالمدينة سبعة . وقد روى الداريمى من حديث عائشة « أن النى صلى الله عليه وسلم قال في مرضه : صوا على سبع قرب من آبار شتى .. الحديث . وهو عند البخارى دون قوله « من آبار شتى »

(١) حديث « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة » تقدم في الباب قبله (٢) حديث « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها .. الحديث » تقدم في الباب قبله (٣) حديث « كان النى صلى الله عليه وسلم إذا قفل من عرو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض .. الحديث » منق من حديث ابن عمر وما راده في آخره في بعض الروايات من قوله « وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » رواه الحاملى في الدعاء بأساد حيد .

(٤) حديث « لرسال المسافر إلى أهل بيته من يخبرهم بقدمه كيلا يقدم عليهم بعته » لم أجد به ذكر الإرسال وفي الصحيحين من حديث جابر « كما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فلما قدما المدينة ذهبا لدخل فقال أمهلوا حتى ندخل ليلا أى عشاء كي تمتشط الشعثة وتستجد المنيية » (٥) حديث « صلاة ركعتين في المسجد بعد القدوم من السفر » تقدم في الصلاة

لله تعالى والقلب مطمئناً منصرفاً إلى ذكر الله تعالى وتعظيم شعائره . وقد روى في خبر من طريق أهل البيت « إذا كان آخر الزمان خرج الناس إلى الحج أربعة أصناف سلاطينهم للزهوة وأغنياؤهم للتجارة وفقراؤهم للسألة وقراؤهم للسمعة ^(١) » ، وفي الخبر إشارة إلى جملة أغراض الدنيا التي يتصور أن تتصل بالحج ، فكل ذلك مما يمنع فضيلة الحج ويخرجه عن حيز حج الخصوص ؛ لا سيما إذا كان متجرداً بنفس الحج بأن يحج لغيره بأجرة فيطلب الدنيا بعمل الآخرة . وقد كره الورعون وأرباب القلوب ذلك إلا أن يكون قصده المقام بمكة ولم يكن له ما يبلعه فلا بأس أن يأخذ ذلك على هذا القصد ، لا ليتوصل بالدين إلى الدنيا بل بالدنيا إلى الدين . فعند ذلك ينبغي أن يكون قصده زيارة بيت الله عز وجل ومعاونة أخيه المسلم بإسقاط الفرض عنه . وفي مثله ينزل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل الله سبحانه بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة : الموصى بها والمنفذ لها ومن حج بها عن أخيه ^(٢) » ، ولست أقول لا تحمل الآخرة أو يحرم ذلك بعد أن أسقط فرض الإسلام عن نفسه ، ولكن الأولى أن لا يفعل ولا يتخذ ذلك مكسبه ومتجره فإن الله عز وجل يهبط الدنيا بالدين ولا يعطي الدين بالدنيا . وفي الخبر « مثل الذي يغزو في سبيل الله عز وجل ويأخذ أجراً مثل أم موسى عليه السلام ترضع ولدها وتأخذ أجراً ^(٣) » ، فمن كان مثاله في أخذ الأجرة على الحج مثال أم موسى فلا بأس بأخذه فإنه يأخذ ليتمكن من الحج والزيارة فيه ، وليس يحج ليأخذ الأجرة بل يأخذ الأجرة ليحج كما كانت تأخذ أم موسى ليتيسر لها الإرضاع بتلبس حالها عليهم (الثاني) أن لا تعاون أعداء الله سبحانه بتسليم المكس وهم الصادون عن المسجد الحرام من أمراء مكة والأعراب المترصدين في الطريق . فإن تسليم المال إليهم إعانة على الظلم وتيسير لأسبابه عليهم فهو كالإعانة بالنفس ؛ فليتلطف في حيلة الخلاص فإن لم يقدر فقد قال بعض العلماء - ولا بأس بما قاله - إن ترك التنفل بالحج والرجوع عن الطريق أفضل من إعانة الظلمة فإن هذه بدعة أحدثت وفي الانقياد لها ما يجعلها سنة مطردة وفيه ذل وصغار على المسلمين ببذل جزية . ولا معنى لقول القائل إن ذلك يؤخذ مني وأنا مضطر فإنه لو قعد في البيت أو رجع من الطريق لم يؤخذ منه شيء بل ربما يظهر أسباب الترفه فتكثر مطالبته فلو كان في زى الفقراء لم يطالب فهو الذي ساق نفسه إلى حالة الاضطرار (الثالث) التوسع في الزاد وطيب النفس بالبذل والإنفاق من غير تقتير ولا إسراف بل على اقتصاد ، وأعنى بالإسراف التمتع بأطيب الأطعمة والترفه بشرب أنواعها على عادة المترقين . فأما كثرة البذل فلا سرف فيه . إذ لاخير في السرف ولا سرف في الخير ، كما قيل . وبذل الزاد في طريق الحج نفقته في سبيل الله عز وجل والدرهم بسبعائة درهم . قال ابن عمر رضي الله عنهما : من كرم الرجل طيب زاده في سفره . وكان يقول أفضل الحاج أخلصهم نية وأزكاهم نفقة وأحسنهم يقيناً . وقال صلى الله عليه وسلم « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة فقيل له يا رسول الله ما بر الحج ؟ فقال : طيب الكلام وإطعام الطعام ^(٤) » (الرابع) ترك الرفث والفسوق

الباب الثالث : في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

(١) حديث « إذا كان في آخر الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف سلاطينهم للزهوة وأغنياؤهم للتجارة وفقراؤهم للسؤال وقراؤهم للسمعة » أخرجه الخطيب من حديث أنس بن مالك مجهول وليس فيه ذكر السلاطين ، ورواه أبو عثمان الصابوني في كتاب السائين فقال « تجع أغنياء أمنى للزهوة وأوساطهم للتجارة وفقراؤهم للسألة وقراؤهم للرياء والسمعة » (٢) حديث « يدخل بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة الموصى بها والمنفذ لها ومن حج بها عن أخيه » أخرجه البيهقي من حديث جابر بسند ضعيف (٣) حديث « مثل الذي يغزو ويأخذ أجراً مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجراً » أخرجه ابن عدى من حديث معاذ وقال مستقيم الإسناد منكر المتن (٤) حديث « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » فقيل له ما بر الحج ؟ قال طيب الكلام وإطعام الطعام » أخرجه أحمد من حديث جابر بإسناد لين ورواه الحاكم مختصراً وقال صحيح الإسناد

والجدال كما نطق به القرآن . والرث اسم جامع لكل لغو وخنى ولحش من الكلام ويدخل فيه مغازلة النساء ومداعبتن والتحدث بشأن الجماع ومقدماته ، فإن ذلك يهيج داعية الجماع المحذور والداعى إلى المحذور محذور . والفسق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله عز وجل . والجدال هو المبالغة في الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن ويفرق في الحال الهمة وينافض حسن الخلق . وقد قال سفيان : من رث فسد حجه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم طيب الكلام مع إطعام الطعام من بر الحج . والمماراة تنافض طيب الكلام فلا ينبغي أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجاله وعلى غيره من أصحابه بل يلين جانبه ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله عز وجل ويلزم حسن الخلق وليس حسن الخلق كف الأذى بل احتمال الأذى وقيل سمى السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال . ولذلك قال عمر رضي الله عنه لمن زعم أنه يعرف رجلا : هل صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا ، فقال : ما أراك تعرفه (الخامس) أن يحج ماشيا إن قدر عليه فذلك الأفضل . أوصى عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما بنيه عند موته فقال . يا بني حجوا مشاة فإن الحاج الماشي بكل خطوة يخطوها سبعة حسة من حسنات الحرم ، قيل وما حسنات الحرم ؟ قال : الحسة بمائة ألف والاستجاب في المشي في المناسك والتردد من مكة إلى الموقف وإلى منى أكد منه في الطريق . وإن أضاف إلى المشي الإحرام من ديرة أهله فقد قيل إن ذلك من إتمام الحج قاله عمر وعلى وابن مسعود رضي الله عنهم في معنى قوله عز وجل ﴿ واثموا الحج والعمرة لله ﴾ وقال بعض العلماء : الركوب أفضل لما فيه من الإنفاق والمؤنة ولأنه أبعد عن ضجر النفس وأقل لأذاه وأقرب إلى سلامته وتمام حجه . وهذا عند التحقيق ليس مخالفا للأول بل ينبغي أن يفصل . ويقال من سهل عليه المشي فهو أفضل فإن كان يضعف ويؤدى به ذلك إلى سوء الخلق وقصور عن عمل فالركوب له أفضل ، كما أن الصوم للمسافر أفضل وللبريض مالم يفيض إلى ضعف وسوء خلق . وسئل بعض العلماء عن العمرة : أيمشي فيها أو يركب حمارا بدرهم ؟ فقال : إن كان وزن الدرهم أشد عليه فالركب أفضل من المشي ، وإن كان المشي أشد عليه كالأغنياء فالمشي له أفضل ؛ فكأنه ذهب فيه إلى طريق مجاهدة النفس وله وجه . ولكن الأفضل له أن يمشي ويصرف ذلك الدرهم إلى خير فهو أولى من صرفه إلى المكاري عوضا عن ابتذال الدابة . فإذا كانت لا تتسع نفسه للجمع بين مشقة النفس ونقصان المال فما ذكره غير بعيد فيه (السادس) أن لا يركب إلا زاملة أما الحمل فليجتنبه إلا إذا كان يخاف على الزاملة أن لا يستمسك عليها لعدو وفيه معنيان أحدهما : التخفيف على البعير فإن الحمل يؤذيه . والثاني : اجتناب زى المترفين المتكبرين « حج رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلة وكان تحته رجل رث وقطيفة خلقة قيمتها أربعة دراهم ^(١) وطاف على الراحلة لينظر الناس إلى هديه وشماله ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « خذوا عني مناسككم ^(٣) » وقيل إن هذه المحامل أحدثها الحجاج وكان العلماء في وقته ينكرونها . فروى سفيان الثوري عن أبيه أنه قال : برزت من الكوفة إلى القادسية للحج ووافيت الرفاق من البلدان فرأيت الحاج كلهم على زوامل وجوالقات ورواحل ومارأيت في جميعهم إلا محملين . وكان ابن عمر إذا نظر إلى ما أحدث الحجاج من الزى والمحامل يقول الحاج قليل والركب كثير ثم نظر إلى رجل مسكين رث الهيئة تحته جوالقه فقال : هذا نعم من الحجاج .

(١) حديث « حج رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وكان تحته رجل رث وقطيفة خلقة قيمتها أربعة دراهم » أخرجه الترمذي في المعجم وأبو ماجه من حديث أنس بسند ضعيف (٢) حديث « طوافه صلى الله عليه وسلم على راحلته » تقدم . (٣) حديث « خذوا عني مناسككم » أخرجه مسلم والنسائي واللفظ له من حديث جابر

(السابع) أن يكون رث الهيئة أسعث أغبر غير مستكثر من الزينة ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر فيكتب في ديوان المتكبرين المترفعين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين وخصوص الصالحين ، فقد أمر صلى الله عليه وسلم بالشعث والاختفاء ^(١) ونهى عن التعمم والرفاهية ^(٢) في حديث فضالة بن عبيد وفي الحديث «لما الحاج الشعث النفث ^(٣)» ويقول الله تعالى : انظروا إلى زوار ييتى قد جاءوا في شعثا غبرا من كل فج عميق ^(٤) ، وقال تعالى «ثم ليقتضوا تفههم» والشعث الشعث والاعبرار ، وقضاؤه بالخلق وقص الشارب والأظفار . وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد : اخذوا قلوبكم واخشوشوا . أى البسوا الخلقان واستعملوا الخشونة في الأشياء . وقد قيل : زين الحجيح أهل اليمن لأنهم على هيئة التواضع والضعف وسيرة السلف فبذبح أن يجتنب الحمرة في زيه على الخصوص والشهرة كيفما كانت على العموم . فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم كان في سفر فنزل أصحابه منزلا فسرحت الإبل فنظر إلى أكسية حمر على الأفتاب فقال صلى الله عليه وسلم أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم ^(٥) قالوا فقمنا إليها ونزعناها عن ظهورها حتى شرد بعض الإبل ، (الثامن) أن يرفق بالدابة فلا يحملها مالا تطيق والمحمل خارج عن حد طاقتها والنوم عليها يؤذيها ويثقل عليها كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة عن قعود وكانوا لا يقفون عليها الوقوف الطويل قال صلى الله عليه وسلم «لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسى ^(٦)» ، ويستحب أن ينزل عن دابته غدوة وغشية يروحها بذلك فهو سنة ^(٧) وفيه آثار عن السلف . وكان بعض السلف يكثرى بشرط أن لا ينزل ويوى الأجرة ثم كان ينزل عنها ليكون بذلك محسنا إلى الدابة ، فيكون في حسنة ويوضع في ميزانه لا في ميزان المكارى . وكل من أذى بهيمة وحملها مالا تطيق طوبى له يوم القيامة . قال أبو الدرداء لبعير له عند الموت : يا أيها البعير لا تخافنى إلى ربك فإنى لم أكن أحملك فوق طاقتك . وعلى الجملة في كل كبد حزاء أجر فليراع حق الدابة وحق المكارى جميعا وفي نزوله ساعة ترويح الدابة وسرور قلب المكارى . قال رجل لابن المبارك : احمللى هذا الكتاب معك لتوصله فقال : حتى استأمر الجمال فإنى قد اكترت . فانظر كيف توزع من استصحب كتاب لا وزن له ؟ وهو طريق الحزم في الورع فإنه إذا فتح باب القليل انجز إلى الكثير يسيرا يسيرا (التاسع) أن يتقرب بإراقة دم وإن لم يكن واجبا عليه ويجتهد أن يكون من سمين النعم ونفيسه ، وليأكل منه إن كان تطوعا ولا يأكل منه إن كان واجبا . قيل في تفسير قوله تعالى ﴿ ذلِكَ وَمَنْ يُعْطِمْ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ إنه تحسينه وتسمينه . وسوق الهدى من الميقات أفضل إن كان لا يجهد ولا يكده . ولترك المكاس في شرائه فقد كانوا يغالون في ثلاث ويكرهون

(١) حديث « الأمر بالشعث والاختفاء » أخرجه الجوى والطبراني من حديث عداة بن أبي حمزة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تمعدوا واخفوشوا واتصلوا وامشوا حفاة » وفيه اختلاف ورواه ابن عدى من حديث أنى هريرة وكلاما ضعيفا (٢) حديث فضالة بن عبيد « فى النهى عن التعمم والرفاهية وأن الذى صلى الله عليه وآله وسلم كان ينهى عن كثير من الإرفاء » ولأحمد من حديث معاذ لياك والتعمم . الحديث (٣) حديث « لما الحاج الشعث النفث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عمر وقال غريب (٤) حديث « يقول الله تعالى أنظروا إلى زوار ييتى قد جاءوا في شعثا غبرا من كل فج عميق » أخرجه الحاكم وصححه من حديث أنى هريرة دون قوله « من كل فج عميق » وكذا رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمر (٥) حديث « أنه صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فنزل أمصطاه منزلا فسرحت الإبل فنظر إلى أكسية حمر على الأفتاب فقال أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم . الحديث » أخرجه أبو داود من حديث رافع بن خديج وفيه رجل لم يسم . (٦) حديث « لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسى » أخرجه أحمد من حديث سهل بن معاذ بن عدي ضعيف ورواه الحاكم وصححه من رواية معاذ بن أنس عن أبيه (٧) حديث « النزول عن الدابة غدوة وغشية يريحها بذلك » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس باسناد جيد « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى العصر فى السمر مسمى » ورواه البيهقى فى الأدب وقال « مسمى قليلا وناقته نقاد »

المكاس فيهن: الهدى والأضحية والرقبة، فإن أفضل ذلك أغلاه ثمنا وأنفسه عند أهله، وروى ابن عمر، أن عمر رضي الله عنهما أهدى بختية فطلبت منه بثلاثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشتري بثمنها بدنانها عن ذلك وقال بل أهدها^(١)، وذلك لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون. وفي ثلاثمائة دينار قيمة ثلاثين بدنة وفيها تكثير اللحم ولكن ليس المقصود اللحم إنما المقصود تركية النفس وتطهيرها عن صفة البخل وتزيينها بجمال التعظيم لله عز وجل فـ ﴿إن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾ وذلك يحصل بمراعاة المفاسد في القيمة كثر العدد أو قل «وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بئر الحج فقال العج والثج»^(٢)، والعج هو رفع الصوت بالتلبية، والثج هو نحر البدن. وروت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ما عمل آدمي يوم النحر أحب إلى الله عز وجل من إهراقه دما وإنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وإن الدم يقع من الله عز وجل بمكان قبل أن يقع بالأرض فطسوا بها نفسا»^(٣) وفي الخبر «لكم بكل صوفة من حادها حسنة وكل قطرة من دمها حسنة وإنها لتوضع في الميزان فأبشروا»^(٤) وقال صلى الله عليه وسلم «استجدوا هداياكم فإنها مطاياكم يوم القيامة» (العاشر) أن يكون طيب النفس بما أنفقته من نفقة وهدى وبما أصابه من خسران ومصيبة في مال أو بدن إن أصابه ذلك فإن ذلك من دلائل قبول حجه. فإن المصيبة في طريق الحج تعدل النفقة في سبيل الله عز وجل الدرهم لسبعائة درهم بمثابة الشدائد في طريق الجهاد لله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب فلا يضيع منه شيء عند الله عز وجل. ويقال إن من علامة قبول الحج أيضا ترك ما كان عليه من المعاصي وأن يتبدل بإخوانه البطالين لإخوانا صالحين، وبمجالس اللهو والغفلة بمجالس ذكر واليقظة.

بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص في النية وطريق اعتبار بالمشاهد الشريفة

وكيفية الافتكار فيها والتذكر لأسرارها ومعانيها من ول الحج إلى آخره

اعلم أن أول الحج الفهم - أعني فهم موقع الحج في الدين - ثم التوق إليه ثم العزم عليه ثم قطع العلائق المانعة منه ثم شراء ثوب الإحرام ثم شراء الزاد ثم اكتراء الراحلة ثم الخروج ثم المسير في البادية ثم الإحرام من الميقات بالتلبية ثم دخول مكة ثم استتمام الأفعال كما سبق. وفي كل واحد من هذه الأمور تذكرة للتذكير وعبرة للعبير وتنبيه للريد الصادق وتعريف وإشارة للقطب. فلنمرن إلى معانيها حتى إذا انفتح بابها وعرفت أسبابها انكشفت لكل حاج من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وطهارة باطنه وغزارة فهمه.

أما الفهم: اعلم أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتزهد عن الشهوات والكف عن اللذات والاقتصار على الضرورات فيها والتجرد لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات. ولأجل هذا انفرد الرهبانيون في الملل السالفة

(١) حديث ابن عمر «أن عمر أهدى بختية فطلبت منه بدنانها» أخرجه أبو داود وقال «أعمرها» (٢) حديث «مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بئر الحج؟ قال: العج والثج» أخرجه الترمذي واستغربه وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي في حديث أبي بكر وقال الباقول «أى الحج أفضل» (٣) حديث عائشة «ما عمل ابن آدم يوم النحر أحب إلى الله من إهراقه دما.. الحديث» أخرجه الترمذي وحسنه ابن ماجه وضعفه ابن حبان وقال البخاري أنه مرسل ووصله ابن خزيمة (٤) حديث «لكم بكل صوفة من حادها حسنة وكل قطرة من دمها حسنة وإنها لتوضع في الميزان فأبشروا» أخرجه ابن ماجه وصححه البيهقي في حديث زيد بن أرقم في حديث فيه «بكل شعرة حسنة قالوا فالصوف قال بكل شعرة من الصوف حسنة» وفي رواية للبيهقي «بكل قطرة حسنة» قال البخاري لا يصح وروى أبو الشيخ في كتاب الصحايا من حديث علي «أما أنها يجاه بها يوم القيامة لحومها ودمائها حتى توضع في ميراك» يقولها لهاطمة.

عن الخلق وانحازوا إلى قلة الجبال وآثروا التوحش عن الخلق لطلب الأنس بالله عز وجل فتركوا الله عز وجل اللذات الحاضرة وألزموا أنفسهم المجاهدات الشاقة طمعا في الآخرة وأثنى الله عز وجل عليهم في كتابه فقال ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴾ فلما اندرس ذلك وأقبل الخلق على اتباع الشهوات وهجروا التجرد لعبادة الله عز وجل وفتروا عنه بعث الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم لإحياء طريق الآخرة وتجديد سنة المرسلين في سلوكها . فسأله أهل الملل عن الرهبانية والسياسة في دينه فقال صلى الله عليه وسلم : أبدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف ^(١) يعني الحجج « وسئل صلى الله عليه وسلم عن السائحين فقال : هم الصائمون ^(٢) » فأنعم الله عز وجل على هذه الأمة بأن جعل الحجج رهبانية لهم فشرف البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه تعالى . ونصبه مقصدا لعباده وجعل ماحواله حرما لبيته تفضيلا لأمره . وجعل عرفات كالميزاب على فناء حوضه : وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره . ووضعه على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق ومن كل أوب سحيق شعنا غبرا متواضعين لرب البيت ومستكينين له خضوعا لجلاله واستكانة لعزته . مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ليكون ذلك ابلاغ في رقهم وعبوديتهم وأتم في إذعانهم وانقيادهم . ولذلك وظف عليهم فيها أعمالا لاتأنس بها النفوس ولا تهتدى إلى معانيها العقول كرمى الجمار بالأحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار . وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية . فإن الزكاة إرفاق ووجهه مفهوم وللعقل إليه ميل . والصوم كسر للشهوة التي هي آلة عدو الله وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل . والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعال هي هيئة النواضع وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل . فأما ترددات السعي ورمى الجمار وأمثال هذه الأعمال فلا حظ للنفوس ولا أنس فيها ولا اهتداء للعقل إلى معانيها فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلا الأمر المحرود وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط . وفيه عزل للعقل عن تصرفه وصرف النفس والطبع عن محل أنسه فإن كل ما أدرك العقل معناه ؛ مال الطبع إليه ميلا ما . فيكون ذلك الميل معينا للأمر وباعثا معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في الحج على الخصوص « لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا ^(٣) » ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها . وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط لحاجة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في أعمالهم على سنن الانقياد وعلى مقتضى الاستعباد . كان مالا يهتدى إلى معانية أبلغ أنواع التعبدات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق . مقتضى الاسترقاق . وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات . وهذا القدر كاف في تفهم أصل الحجج إن شاء الله تعالى .

وأما الشوق : فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأن البيت بيت الله عز وجل وأنه وضع على مثال حضرة الملوك

(١) حديث « سئل عن الرهبانية والسياسة فقال : بدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف » أخرجه أبو داود من حديث أبي أمامة « أن رجلا قال لرسول الله أنذن لي في السياحة فقال إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله » رواه الطبراني بلفظ « لمن سلك أمة سياحة وسياحة أمتي الجهاد في سبيل الله واسلك أمة رهبانية ورهبانية أمتي الرباط في نحر العدو » ولبيهقي في الشعب من حديث أنس « رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله » وكلاهما ضعيف والترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث أبي هريرة « أن رجلا قال لرسول الله لاني أريد أن أسافر فأوصني قال عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف » .

(٢) حديث « سئل عن السائحين فقال هم الصائمون » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة وقال المحفوظ عن

هيبد بن عمر عن عمر مرسلا

(٣) حديث « لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا » تقدم في الزكاة .

فقاصده قاصد إلى الله عز وجل وزائر له وأن من قصد البيت في الدنيا جدير بأن لا يضيع زيارته فيرزق مقصود الزيارة في ميغاده المضروب له وهو النظر إلى وجه الله الكريم في دار القرار ، من حيث إن العين القاصرة الفانية في دار الدنيا لا تنهياً لقبول النظر إلى وجه الله عز وجل ولا تطبيق احتمال له ولا تستعد للاكتحال به لقصورها ، وأنها إن أمدت في الدار الآخرة بالبقاء ونزهت عن أسباب التغير والفناء استعدت للنظر والإبصار ولكنها بقصد البيت والنظر إليه تستحق لقاء رب البيت بحكم الوعد الكريم . فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لاحالة ، هذا مع أن المحب مشتاق إلى كل ماله إلى محبوبه إضافة والبيت مضاف إلى الله عز وجل فبالحرى أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة فضلاً عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل .

وأما العزم : فليعلم أنه بعزمه قاصداً إلى مفارقة الأهل والوطن ومهاجرة الشهوات واللذات متوجهاً إلى زيارة بيت الله عز وجل . وليعظم في نفسه قدر البيت وقد رب البيت وليعلم أنه عزم على أمر رفيع شأنه خطير أمره وأن من طلب عظيماً خاطربعظيم . وليجعل عزمه خالصاً لوجه الله سبحانه بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة . وليستحق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص وإن من ألحس الفواحش أن يقصد بيت الله وحرمة والمقصود غيره . فليصح مع نفسه العزم وتصحيحه بإخلاصه وإخلاصه باجتنب كل ما فيه رياء وسمعة فليحذر أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير .

وأما قطع العلائق : فمعناه رد المظالم والتوبة الخاصة لله تعالى عن جملة المعاصي فكل مظلمة علاقة وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتلاييه ينادى عليه ويقول ؛ إلى أين تتوجه أتقصد بيت ملك الملوك وأنت مضيع أمره في منزلك هذا ومستتهين به ومهمهل له ؟ ألا تستحي أن تقدم عليه قدوم العبد العاصي فيردك ولا يقبلك ؟ فإن كنت راغباً في قبول زيارتك فنفذ أوامره ورد المظالم وتب إليه أولاً من جميع المعاصي واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ما وراءك لتكون متوجهاً إليه بوجه قلبك كما أنك متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك . فإن لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك أولاً إلا النصب والشقاء وآخراً إلا الطرد والرد . وليقطع العلائق عن وطنه انقطع من قطع عنه وقدّر أن لا يعود إليه وليكتب وصيته لأولاد وأهله فإن المسافر وماله لعل خطر إلا من وقى الله سبحانه . وليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة فإن ذلك بين يديه على القرب وما يقدمه من هذا السفر طمع في تبسير ذلك السفر فهو المستقر وإليه المصير . فلا ينبغي أن يغفل عن ذلك السر عند الاستعداد بهذا السفر .

وأما الزاد : فليطلبه من موضع حلال وإذا أحس من نفسه الحرص على استكثاره وطلب ما يبقى منه على طول السفر ولا يتغير ولا يفسد قبل بلوغ المقصد فليتذكر أن سفر الآخرة أطول من هذا السفر ، وأن زاده التقوى وأن ما عده مما يظن أنه زاده يتخلف عنه عند الموت ويخونه فلا يبقى معه ، كالطعام الرطب الذي يفسد في أول منازل السفر فيبقى وقت الحاجة متحيراً محتاجاً لاحيلة له . فليحذر أن تكون أعماله التي هي زاده إلى الآخرة لا تصحبه بعد الموت بل يفسدها شوائب الرياء وكدورات التقصير .

وأما الراحلة : إذا أحضرها فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عز وجل له الدواب لتحمل عنه الأذى وتخفف عنه المشقة . وليتذكر عنده المركب الذي يركبه إلى دار الآخرة وهي الجنائز التي يحمل عليها . فإن أمر الحج من وجه يوازى أمر السفر إلى الآخرة ولينظر أياصلح سفره على هذا المركب لأن يكون زادا له لذلك السفر على ذلك المركب ؟ فما أقرب ذلك منه . وما يدريه لعل الموت قريب ويكون ركبته للجنائز قبل ركوبه للجمل ، وركوب

الجنائز المقطوع به وتيسر أسباب السفر مشكوك فيه فكيف يحتاط في أسباب السمر المشكوك فيه ويستظهر في زاده وراحته ويهمل أمر السفر المستيقن ؟

وأما شراء ثوب الإحرام : فليتذكر عنده الكفن ولفه فيه فإنه سبرتدى ويتزر بثوب الإحرام عند القرب من بيت الله عز وجل وربما لا يتم سفره إليه . وأنه سيلقى الله عز وجل ملفوفاً في ثياب الكفن لا محالة . فكما لا يلقى بيت الله عز وجل إلا محالفاً عادته في الزي والهيئة فلا يلقى الله عز وجل بعد الموت إلا في زي مخالف لزي الدنيا . وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب إذ ليس فيه غيظ كما في الكفن .

وأما الخروج من البلد : فليعلم عنده أنه فارق الأهل والوطن متوجهاً إلى الله عز وجل في سفر لا يضاهاه أسفار الدنيا . فليحضر في قلبه أنه ماذا يريد وأين يتوجه وزيارة من يقصد ؟ وأنه متوجه إلى ملك الملوك في زمرة الزائرين له الذين نودوا فأجابوا وشوقوا فاشتاقوا واستنهضوا فنهضوا وقطعوا العلائق وفارقوا الخلائق وأقبلوا على بيت الله عز وجل الذي نغم أمره وعظم شأنه ورفع قدره تسلياً بلقاء البيت عن لقاء رب البيت إلى أن يرزقوا منتهى مناهم ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم . وليحضر في قلبه رجاء الوصول والقبول لا إدلالاً بأعماله في الارتحال ومفارقة الأهل والمال ولكن ثقة بفضل الله عز وجل ورجاء لتحقيقه وعده لمن زار بيته . وليرج أنه إن لم يصل إليه وأدركته المنية في الطريق لقي الله عز وجل واهداً إليه إذ قال حل جلاله ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ .

وأما دخول البادية إلى الميقات ومشاهدة تلك العقبات : فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات . وليتذكر من هول قطاع الطريق هول سؤال منكر ونكير ومن سباع البوادي عقارب القبر وديدانه وما فيه من الأفاعى والحيات ومن انفراده من أهله وأقاربه وحشة القبر وكربته ووحدته . وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزوداً لمخاوف القبر .

وأما الإحرام والتلبية من الميقات . فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عز وجل فأرج أن تكون مقبولا واخش أن يقال لك لا لبيك ولا سعديك فكن بين الرجاء والخوف متردداً وعن حولك وقوتك متبرئاً وعلى فضل الله عز وجل وكرمه متكلاً . فإن وقت التلبية هو بداية الأمر وهي محل الخطر . قال سفيان بن عيينة : حج على ابن الحسين رضي الله عنهما فلما أحرم واستوت به راحلته اصفرت لونه وانتفض ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبي فقبل له : لم لا تلبي ؟ فقال : أخشى أن يقال لي لا لبيك ولا سعديك . فلما لبى غشى عليه ووقع عن راحلته فلم يزل يعتربه ذلك حتى قضى حجه وقال أحمد بن أبي الخوارى : كنت مع أبي سليمان الداراني رضي الله عنه حين أراد الإحرام فلم يلب حتى سرنا ميلاً فأخذته الغشية ثم أفاق وقال : يا أحمد إن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام مر ضلة بني إسرائيل أن يقولوا من ذكرى فأني أذكر من ذكرى منهم باللعنة . ويحك يا أحمد بلغني أن من حج من غير حله ثم لبى قال الله عز وجل لا لبيك ولا سعديك حتى ترد ما في يديك فما نأمن أن يقال لنا ذلك . وليتذكر الملبي عند رفع الصوت بالتلبية في الميقات إجابته لنداء الله عز وجل إذ قال ﴿ وأذن في الناس بالحج ﴾ ونداء الخلق بنفخ الصور وحشرهم من القبور وازدحامهم في عرصات القيامة مجيبين لنداء الله سبحانه ؛ ومنقسمين إلى مقرئين ومقوتين . ومقبولين ومردودين . ومترددين في أول الأمر بين الخوف والرجاء تردد الحاج في الميقات حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا ؟

وأما دخول مكة : فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمناً وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل وليخش أن لا يكون أهلاً للقرب فيكون بدخوله الحرم خائباً ومستحقاً للمقت . وليكن رجاءه في جميع الأوقات غالباً فالكرم عظيم والرب رحيم وشرف البيت عظيم وحق الزائر مرعى وذمام المستحير اللاتذ غير مضيع .

وأما وقوع البصر على البيت : فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه إياه . وارج أن يرزقك الله تعالى النظر إلى وجهه الكريم كما رزقك الله النظر إلى بيته العظيم . واشكر الله تعالى على تبليغه إياك هذه الرتبة والحاقه إياك رمة الوافدين عليه . واذكر عند ذلك انصباب الناس في القيامة إلى جهة الجنة آمليين لدخولها كافة ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصروفين انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين . ولا تغفل عن تذكر أمور الآخرة في شيء مما تراه فإن كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة .

وأما الطواف بالبيت : فاعلم أنه صلاة فأحضر في قلبك فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة ما فصلناه في كتاب الصلاة . واعلم أنك بالطواف متمسكاً بالملائكة المقرئين الخافين حول العرش الطائمين حوله . ولا تظن أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت حتى لا تبتدىء الذكر إلا منه ولا تختم إلا به كما تبتدىء الطواف من البيت وتختم بالبيت . واعلم أن الطواف الشريف هو طواف القاب بحضرة الربوبية . وأن البيت مثال طاهر في عالم الملك لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر وهي عالم الملكوت ، كما أن البدن مثال ظاهر في عالم الشهادة للقلب الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب . وأن عالم الملك والشهادة مدركة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح الله له الباب وإلى هذه الموازنة وقعت الإشارة بأن البيت المعمور في السموات بإزاء الكعبة . فإن طواف الملائكة به كطواف الأنس بهذا البيت . ولما قصرت رتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف أمروا بالتشبه بهم بحسب الإمكان ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم ^(١) والذي يقدر على مثل ذلك الطواف هو الذي يقال إن الكعبة تزوره وتطوف به على ما رآه بعض المكاشفين لبعض أولياء الله سبحانه وتعالى .

وأما الاستلام : فاعتقد عنده أنك مبايع لله عز وجل على طاعته فصمم عزيمتك على الوفاء ببيعتك فمن غدر في المبايعه استحق المقت . وقد روى ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الحجر الأسود يمين الله عز وجل في الأرض يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه ^(٢) .

وأما التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم : فلتكن نيتك في الالتزام طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت وتبركا بالمهاسة ورجاءاً للتحصن عن النار في كل جزء من بدنك لاقى البيت . ولتكن نيتك في التعلق بالأستار الإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان كالمندب المتعلق بثياب من أذنب إليه المتضرع إليه في عفوه عنه المظهر له أنه لا ملجأ له منه إلا إليه ولا معزج له إلا كرمه وعفوه وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعفو وبذل الأمان في المستقبل .

وأما السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت : فإنه يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جائئاً وذاهباً مرة بعد أخرى

(١) حديث « من تشبه بقوم فهو منهم » أخرجه أبو دواد من حديث ابن عمر بسند صحيح (٢) حديث ابن عباس « الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه .. الحديث » تقدم في العلم من حديث عبدالله بن عمرو .

إظهاراً للخلوص في الخدمة ورجاء للملاحظة بعين الرحمة ، كالذى دخل على الملك وخرج وهو لا يدري ما الذى يقضى به الملك في حقه من قبول أو رد ؟ فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن يرحم في الثانية إن لم يرحم في الأولى . وليتذكر عند ترده بين الصفا والمروة ترده بين كفتى الميزان في عرصات القيامة وليمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات . وليتذكر ترده بين الكفتين ناظراً إلى الرجحان والنقصان متردداً بين العذاب والغفران .

وأما الوقوف بعرفة . فاذكر - بما ترى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات واختلاف اللغات واتباع الفرق أممهم في الترددات على المشاعر اقتفاء لهم وسيراً بسيرهم - عرصات القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والآئمة واقتفاء كل أمة نبيها وطمعهم في شفاعتهم وتخيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول . وإذا تذكرت ذلك فالزم قلبك الضراعة والابتغال إلى الله عز وجل فتحشر في زمرة الفائزين المرحومين وحقق رجاءك بالإجابة فالموقف شريف والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب العريضة من أوتاد الأرض . ولا ينفك الموقف عن طبقة من الأبدال والأوتاد وطبقة من الصالحين وأرباب القلوب . فإذا اجتمعت همهم وتجردت للضراعة والابتغال قلوبهم وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم وامتدت إلى أعناقهم وشخصت نحو السماء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة فلا تظن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ويدخر عنهم رحمة تغمرهم . ولذلك قيل : إن من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ، ويظن أن الله تعالى لم يغفر له . وكأن اجتماع الهمم والاستظهار بمجاورة الأبدال والأوتاد المجتمعين من أقطار البلاد هو سر الحج وغاية مقصوده فلا طريق إلى استدرار رحمة الله سبحانه مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب في وقت واحد .

وأما رمى الجمار : فاقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية وانتهاءً لمحرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه . ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى في ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة أو يفتنه بمعصية فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لآمله . فإن خطر لك : أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه وأما أنا فليس يعرض لى الشيطان ؟ فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان وأنه الذى ألقاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي ويخيل إليك أنه فعل لافائدة فيه وأنه يضاهى اللعب فلم تشتعل به ؟ فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير في الرمي فيه برغم أنف الشيطان . واعلم أنك في الظاهر ترمى الحصى إلى العقبة وفى الحقيقة ترمى به وحه الشيطان وتقسم به ظهره إذ لا يحصل لرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيمه به بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه .

وأما ذبح الهدى : فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال فأكل الهدى وارج أن يعتق الله بكل حزم منه جزءاً منك من النار ^(١) فهكذا ورد الوعد . فكلما كان الهدى أكبر وأجراؤه أوفر كان فداؤك من النار أعم

وأما زيارة المدينة : فإذا وقع بصرك على حيطانها فتذكر أنها البلدة التى اختارها الله عز وجل لمبيه صلى الله عليه وسلم وجعل إليها هجرته وأنها داره التى شرع فيها فرائض ربه عز وجل وسنته وجاهد عدوه وأظهر بها دينه إلى أن

(١) حديث « أنه يعتق بكل حزم من الأحمية جزءاً من المضحي من النار » لم أتف له على أصل وفى كتابه الضحايا لأبي الشيخ من حديث أبي سعيد « فإن لك لأول قطرة تقطر من دمه أن تفر لك ما تقدم من ذنوبك » بقوله لفاطمة رضى الله عنها وإسناده ضعيف

توفاه الله عز وجل . ثم جعل تربته فيها وترته وزيره القائمين بالحق بعده رضى الله عنهما . ثم مثل في نفسك مواقع أقدام رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تردداته فيها وأنه ما من موضع قدم تطؤه إلا وهو موضع أقدامه العزيرة فلا تضع قدمك عليه إلا عن سكينته ووجل . وتذكر مشيه وتخطيه في سككها وتصور خشوعه وسكيفته في المشي وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره مع ذكره تعالى حتى قرنه بذكر نفسه وإجباطه عمل من هتك حرمة ولو برفع صوته فوق صوته . ثم تذكر ما من الله تعالى به على الذين أدركوا صحبته وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه وأعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته وصحبة أصحابه رضى الله عنهم . ثم اذكر أنك قد فاتت رؤيته في الدنيا وأنك من رؤيته في الآخرة على خطر . وأنك ربما لاتراه إلا بحسرة وقد حيل بينك وبين قبوله إليك بسوء عملك كما قال صلى الله عليه وسلم : « يرفع الله إلى أقواما فيقولون يا محمد فأقول يارب أصحابي فيقول إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك فأقول بعدا وسحقاً ^(١) » فإن تركت حرمة شريعته ولو في دقيقة من الدقائق فلا تأمن أن يحال بينك وبينه بعد ذلك عن محبته . وليعظم مع ذلك رجاؤك أن لا يحول الله تعالى بينك وبينه بعد أن رزقك الإيمان وأشخصك من وطنك لأجل زيارته من غير تجارة ولا حظ في دنيا بل لمحض حبك له وشوقك إلى أن تنظر إلى آثاره وإلى حائط قبره ؛ إذ سمحت نفسك بالسفر بمجرد ذلك لما فاتت رؤيته فما أجدرك بأن ينظر الله تعالى إليك بعين الرحمة . فإذا بلغت المسجد فاذكر أنها العرصة التي اختارها الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة . وإن فرائض الله سبحانه أول ما أقيمت في تلك العرصة . وأنها جمعت أفضل خلق الله حيا وميتا فليدطم أملك في الله سبحانه أن يرحمك بدخولك إياه فادخله خاشعاً معظماً . وما أجدر هذا المكان بأن يستدعى الخشوع من قلب كل مؤمن كما حكى عن أبي سليمان أنه قال : حج أويس القرني رضى الله عنه ودخل المدينة فلما وقف على باب المسجد قيل له : هذا قبر النبي صلى الله عليه وسلم فغشى عليه . فلما أفاق قال : أخرجوني فليس يلذ لي بلد فيه محمد صلى الله عليه وسلم مدفون .

وأما زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم : فينبغي أن تقف بين يديه كما وصفنا وتزوره ميتا كما تزوره حيا ولا تقرب من قبره إلا كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كان حيا . وكما كنت ترى الحرمة في أن لاتمس شخصه ولا تقبله بل تقف من بعد ما تلا بين يديه فكذلك فافعل فإن المس والتقبيل للمشاهد عادة النصارى واليهود . واعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك وأنه يبلغه سلامك وصلاتك : فثل صورته الكريمة في خيالك . وضوعا في اللحد بإزائك وأحضر عظيم رنته في قلبك فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم : « أن الله تعالى وكل بقبره ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من أمته ^(٢) » هذا في حق من لم يحضر قبره فكيف بمن فارق الوطن وقطع البوادي شوقا إلى لقائه واكتفى بمشاهدة مشهده الكريم إذ فاته مشاهدة غزته الكريمة ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من صلى على مرة واحدة صلى الله عليه عشرا ^(٣) » فهذا جزاؤه في الصلاة عليه بلسانه فكيف بالحضور لزيارته بيده ؟ ثم امت منبر الرسول صلى الله عليه وسلم وتوهم صعود النبي صلى الله عليه وسلم المنبر ومثل في قلبك طلعتة البهية كأنها على المنبر

(١) حديث « يرفع إلى أقوام فيقولون يا محمد فأقول يارب أصحابي فيقول إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك فأقول بعدا وسحقاً » متفق عليه من حديث ابن مسعود وأُس وغيرهما دون قوله « يا محمد يا محمد » (٢) حديث « إن الله وكل بقبره صلى الله عليه وسلم ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من أمته » أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود بلفظ « إن الله ملائكة سياحين في الأرض يلدونني عن أمي السلام »

(٢) حديث « من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرا » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وعبد الله بن عمرو

وقد أحقق به المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم وهو صلى الله عليه وسلم يحتهم على طاعة الله عز وجل بخطبته
وسل الله عز وجل أن لا يفرق في القيامة بينك وبينه فهذه وظيفة القلب في أعمال الحج . فإذا فرغ منها كلها فينبغي
أن يلزم قلبه الحزن والهم والخوف وأنه ليس يدري أقبل منه حجه وأثبت في زمرة المحبوبين أم رد حجه وألحق
بالمطرودين ؟ وليتعرف ذلك من قلبه وأعماله فإن صادف قلبه قد ازداد تحافيا عن دار الغرور وانصرافا إلى
دار الأانس بالله تعالى ووجد أعماله قد اتزنت بيزان الشرع فاشتق بالقبول فإن الله تعالى لا يقبل إلا من
أحبه ؛ ومن أحبه تولاه وأطهر عليه آثار محبته وكف عنه سطوه عدوه إبليس لعنه الله . فإذا طهر ذلك عليه
دل على القبول ، وإن كان الأمر بخلافه فيسوتك أن يكون حظه من سفره : العناء والتعب نعوذ بالله سبحانه
وتعالى من ذلك .

تم كتاب : أسرار الحج . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب . آداب تلاوة القرآن .

كتاب آداب تلاوة القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى آمن على عباده بنبيه المرسل صلى الله عليه وسلم وكتابه المنزل الذى لا يأتيه الباطل من بين
يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد حتى اتسع على أهل الأفكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص
والأخبار . واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما فصل فيه من الأحكام . وفترق بين الحلال والحرام
فهو الضياء والنور وبه الهجاة من الغرور وفيه شفاء لما فى الصدور . ومن خالفه من الجبارة قصمه الله ومن ابتغى
العلم فى غيره أضله الله . هو جبل الله المتين ونوره المبين والعروة الوثقى والمعتصم الآوى وهو المحيط بالقبائل
والكثير والصغير والكبير . لاتقصى عجائبه ولا تنهاى غرائبه لايحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد ولا يخلق
عند أهل التلاوة كثرة التردد هو الذى أرشد الأولين والآخرين ولما سمعه الجن لم يلبسوا أن ولوا إلى قومهم
منذرين فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشd فأما به ولى نشرك بربنا أحدا فكل من آمن به فقد وفق
ومن قال به فقد صدق ومن تمسك به فقد هدى ومن عمل به فقد فاز وقال تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له
لحافظون ﴾ ومن أسباب حفضه فى القلوب والمصاحف استدامة تلاوته والمواظبة على دراسته مع القيام بأدابه
وشروطه والحفاظة على ما فيه من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة . وذلك لا بد من بيانه وتفصيله وتنكشاف
مقاصده فى أربعة أبواب : (الباب الأول) فى فضل القرآن وأهله . (الباب الثانى) فى آداب التلاوة
فى الظاهر . (الباب الثالث) فى الأعمال الباطنة عند التلاوة . (الباب الرابع) فى فهم القرآن
وتفسيره بالرأى وغيره .

الباب الأول : فى فضل القرآن وأهله وذم المقصرين فى تلاوته

فضيله القرآن

قال صلى الله عليه وسلم : من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظمه الله

تعالى (١) « وقال صلى الله عليه وسلم ، ما من شفيح أفضل منزلة عند الله تعالى من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره (٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار (٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن (٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً « إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت : طوبى لأمة ينزل عليهم هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لآلسنة تنطق بهذا (٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تبارك وتعالى من شغله قراءة القرآن عن دعائى ومسألتى أعطيته أفضل ثواب الشاكرين (٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك أسود لا يهولهم فرع ولا ينالهم حساب حتى يفرغ ما بين الناس : رحل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل وإلخ أم به قوما وهم به رضوان (٨) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أهل القرآن أهل الله وخاصته (٩) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد فقليل يارسل الله وما جلاؤها ؟ فقال : تلاوة القرآن وذكر الموت (١٠) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « لله أشد أذناً إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قيظته (١١) » ، الآثار . قال أبو أمامة الباهلي : اقرءوا القرآن ولا تفترنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء للقرآن . وقال ابن مسعود : إذا أردتم العلم فاشروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين . وقال أيضاً : اقرءوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه بكل حرف منه عشر حسنات أما إنى لا أقول : الحرف ألم ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف . وقال أيضاً : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن ويعجبه فهو يحب الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم . وقال عمرو بن العاص : كل آية في القرآن درجة في الجنة ومصباح في بيوتكم وقال أيضاً : من قرأ القرآن فقد ادرحت النبوة بين جنبيه لإلأنه لا يوحى إليه . وقال أبو هريرة :

كتاب آداب تلاوة القرآن

الباب الأول في فضل القرآن وأهله

(١) حديث « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظمه الله » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف (٢) حديث « ما من شفيح أعظم منزلة عند الله من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره » رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلًا للطبراني من حديث ابن مسعود « القرآن شافع مشفع » ولمسلم من حديث أبي أمامة « اقرءوا القرآن فإنه يحىء يوم القيامة شفيها لصاحبه »

(٢) حديث « لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار » أخرجه الطبراني وابن حبان في الصغفاء من حديث سهل بن سعد وأحمد والدارمي والطبراني من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن أبي شيبة ورواه ابن عدى والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عصمة ابن مالك بإسناد ضعيف (٤) حديث « أفضل هادة أمتي تلاوة القرآن » أخرجه أبو نعيم في فضائل القرآن من حديث العمان ابن بشير وأنس ولمساندهما ضعيف (٥) حديث « إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام . الحديث » أخرجه الدارمي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٦) حديث « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » أخرجه البخاري من حديث عثمان بن عفان (٧) حديث « يقول الله من شغله قراءة القرآن عن دعائى ومسألتى أعطيته ثواب الشاكرين » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد « من شغله القرآن عن ذكرى أو مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » وقال حس غريب ورواه ابن شاهين بلفظ المصنف (٨) حديث « ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك . الحديث » تقدم في الصلاة

(٩) حديث « أهل القرآن أهل الله وخاصته » أخرجه النسائي في السكبرى وابن ماجه والحاكم من حديث أس بإسناد حسن . (١٠) حديث « إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قيل ما جلاؤها قال تلاوة القرآن وذكر الموت » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف (١١) حديث « لله أشد أذناً إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قيظته » أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث فضالة بن عبيد

إن البيت الذي يتلى فيه القرآن اتسع بأهله وكثر خيره وحضرته الملائكة وخرجت منه الشياطين ، وإن البيت الذي لا يتلى فيه كتاب الله عز وجل : صاق بأهله وقل خيره وخرجت منه الملائكة وحضرته الشياطين . وقال أحمد ابن حنبل : رأيت الله عز وجل في المنام فقلت : يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك ؟ قال : بكلامي يا أحمد ، قال قلت : يا رب بفهم أو بغير فهم ؟ قال : بفهم وبعير فهم . وقال محمد بن كعب القرظي : إذا سمع الناس القرآن من الله عز وجل يوم القيامة فكأنهم لم يسمعه قط . وقال الفضيل بن عياض : ينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفاء فمن دونهم فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه . وقال أيضا حامل القرآن حامل راية الإسلام فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلغو مع من يلغو تعظيما لحق القرآن . وقال سفيان الثوري : إذا قرأ الرجل القرآن قبل الملك بين عينيه . وقال عمرو بن ميمون : من نشر مصحفا حين يصلي الصبح فقرأ منه مائة آية رفع الله عز وجل له مثل عمل جميع أهل الدنيا . وروى « أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اقرأ على القرآن فقرأ عليه ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾ الآية فقال له أعد فأعاد فقال : والله إن له لحلاوة ولأن عليه لطلاوة ولأن أسفله لمورق وإن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر ^(١) ، وقال الحسن والله مادون القرآن من عني ولا بعده من فاقة . وقال الفضيل : من قرأ خاتمة سورة الحشر حين يصبح ثم مات من يومه ختم له بطابع الشهداء ومن قرأها حين يمسي ثم مات من ليلته ختم له لطابع الشهداء وقال القاسم بن عبد الرحمن : قلت لبعض النساك ما ههنا أحد يستأنس به فديده إلى المصحف ووضعه على حجره وقال : هذا . وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : ثلاث يزدن في الحفظ ويذهبن البلغم : السواك والصيام وقراءة القرآن .

في ذم تلاوة الغافلين

قال أنس بن مالك : رب تال للقرآن والقرآن يلغنه . وقال ميسرة : العريب هو القرآن في حوف الفاجر وقال أبو سليمان الداراني : الزبانية أسرع إلى حمله القرآن الذين بعصو الله عز وجل منهم إلى عبدة الأوثان حين عصوا الله سبحانه بعد القرآن . وقال بعض العلماء : إذا قرأ ابن آدم القرآن ثم خلط ثم عاد فقرأ قيل له : مالك ولعلك لم يسمع . وقال ابن الرماح : ندمت على استظهار القرآن لأنه بلغني أن أصحاب القرآن يسألون عما يسأل عنه الأنبياء يوم القيامة . وقال ابن مسعود ، ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليته إذا الناس ينامون وبهناؤه إذا الناس يفرطون وبجزئه إذا الناس يفرحون وببكائه إذا الناس يضحكون وبصمته إذا الناس يحوصون وبخشوعه إذا الناس يختالون . وينبغي لحامل القرآن أن يكون مستكينا لنا ولا ينبغي له أن يكون جافيا ولا مارييا ولا صياحا ولا صخابا ولا حديدا . وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر منافق هذه الأمة قراؤها ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرأه ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه ^(٤) » وقال بعض السلف :

(١) حديث « أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اقرأ على القرآن فقرأ عليه ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾ فقال : أعد فأعاد فقال : إن له لحلاوة ولأن عليه لطلاوة ولأن أسفله لمورق ولأن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر » ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب سير أئمة ورواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد لا أنه قال « الوليد بن الميرة » بدل « خالد بن عقبة » وكذا ذكره ابن إسحق في السيرة بنحوه (٢) حديث « أكثر منافق أمي قراؤها » أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو وفيهما ابن لميعة (٣) حديث « اقرأ القرآن ما نهاك فان لم ينهك فلست تقرأه » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بسند صحيح (٤) حديث « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه » أخرجه الترمذي من حديث صهيب وقال ليس بأسناده بالقوى

إن العبد ليفتتح سورة فتصلي عليه الملائكة حتى يفرغ منها ، وإن العبد ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها ، ف قيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : إذا أحل حلالها وحرم حرامها صلت عليه وإلا لعنته . وقال بعض العلماء : إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم يقول ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ وهو طالم نفسه ﴿ ألا لعنة الله على الكاذبين ﴾ وهو منهم . وقال الحس : إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل حلا فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحل ، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار . وقال ابن مسعود أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فأنخذوا دراسته عملا إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفا وقد أسقط العمل به . وفي حديث ابن عمر وحديث حذوب رضي الله عنهما : لقد عشنا دهرا طويلا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فيتعلم حلالها وحرامها وأمرها وزاكرها وما ينبغي أن يقف عنده منها . ثم لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدرى ما أمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه ينثره نثر الدقل (١) وقد ورد في التوراة : يا عبدي أما تستحي مني يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتعدل عن الطريق وتقعده لأجله وتقرؤه وتتدبره حرفا حرفا حتى لا يفوتك شيء منه ، وهذا كثنائي أنزلته إليك أنظر كم فصلت لك فيه من القول وكم كررت عليك فيه لتتأمل طوله وعرضه ثم أنت معرض عنه أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك ؟ يا عبدي يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك وتصغي إلى حديثه بكل قلبك فإن تكلم متكلم أو شغل شاعل عن حديثه أو مات إليه أن كف وما أنا ذا مقلد عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عنى أفعلتني أهون عندك من بعض إخوانك ؟

الباب الثاني : في ظاهر آداب التلاوة وهي عشرة

(الأول) في حال القارئ : وهو أن يكون على الوضوء واقفا على هيئة الأدب والسكون إما قائما وإما جالسا مستقبلا القبلة مطرقا رأسه غير متربع ولا متسكى ولا حالس على هيئة التكبر . ويكون جلوسه وحده جكوسه بين يدي أستاذه . وأفضل الأحوال أن يقرأ في الصلاة قائما وأن يكون في المسجد وذلك من أفضل الأعمال . فإن قرأ على غير وضوء وكان مضطجعا في الفراش فله أيضا فضل ولكنه دون ذلك . قال الله تعالى ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ فأنتى على الكل ولكن قدم القيام في الذكر ثم القعود ثم الذكر مضطجعا . قال على رضي الله عنه من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ومن قرأه وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة . ومن قرأه في غير صلاة وهو على وضوء فخمسة وعشرون حسنة . ومن قرأه على غير وضوء وحشر حسنة . وما كان من القيام بالليل فهو أفضل لأنه أفرغ للقلب ، قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه : إن كثرة السجود بالنهار وإن طول القيام بالليل أفضل (الثاني) في مقدار القراءة : وللقراء عادات مختلفة في الاستكثار والاختصار فهم من يحتم القرآن في اليوم واللييلة مرة وبعضهم مرتين وانتهى بعضهم إلى ثلاث ومهم من يختم في السهر مرة وأولى ما يرجع إليه في التقديرات قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه » (٢) ، وذلك لأن الريادة عليه تمنعه الترتيل . وقد قالت عائشة

(١) حديث ابن عمر وحديث حذوب « لقد عشنا دهرا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن .. الحديث » تقدم في العلم

الباب الثاني في ظاهر آداب التلاوة

(٢) حديث « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه » أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمرو وصححه الترمذى

رضى الله تعالى عنها - لما سمعت رجلا يهذر القرآن هذرا - « إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت » وأمر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن يختم القرآن في كل سبع ^(١) وكذلك كان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم يختمون القرآن في كل جمعة كعثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبي س كعب رضي الله عنهم . ففي الختم أربع درجات : الختم في يوم وليلة وفد كرهه جماعة والختم في كل شهر كل يوم جزء من ثلاثين جزءا - وكأنه مبالغة في الاختصار كما أن الأول مبالغة في الاستكثار - وبينهما درجتان معتدلتان إحداهما في الأسبوع مرة والثانية في الأسبوع مرتين تقريبا من الثلاث . والآخر أن يختم ختمة بالليل وختمة بالنهار ، ويجعل ختمة بالنهار يوم الاثنين في ركعتي الفجر أو بعدهما ، ويجعل ختمة بالليل ليلة الجمعة في ركعتي المغرب أو بعدهما ، ليستقبل أول النهار وأول الليل بختمته . فإن الملائكة عليهم السلام تصلي عليه إن كانت ختمته ليلا حتى يصبح وإن كان نهارا حتى يمسي فتشمل بركتهما جميع الليل والنهار . والتفصيل في مقدار القراءة أنه إن كان من العابدين السالكين طريق العمل فلا ينبغي أن ينقص عن ختمتين في الأسبوع . وإن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر أو من المستغلين بنشر العلم فلا بأس أن يقتصر في الأسبوع على مرة . وإن كان نافذ الفكر في معاني القرآن فقد يكتفي في الشهر بمرة لكثرة حاجته إلى كثرة التردد والتأمل (الثالث) في وجه القسمة : أما من ختم في الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب فقد حزب الصحابة رضي الله عنهم القرآن أحزابا ^(٢) فروى أن عثمان رضي الله عنه كان يفتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم ، وليلة الاثنين بطة إلى طسم ، موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ، ويختم ليلة الخميس . وابن مسعود كان يقسمه أقساما لأعلى هذا الترتيب وقيل أحزاب القرآن سبعة فالحزب الأول ثلاث سور والحزب الثاني خمس سور والحزب الثالث سبع سور والرابع تسع سور والخامس إحدى عشرة سورة والسادس ثلاث عشرة سورة والسابع المفصل من ق إلى آخره . فهكذا حازه الصحابة رضي الله عنهم وكانوا يقرءونه كذلك . وفيه خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا قبل أن تعمل الأخماس والأعشار والأجزاء فاسوى هذا محدث (الرابع) في الكتابة : يستحب تحسين كتابة القرآن وتبينه ولا بأس بالنقط والعلامات بالحرمة وغيرها فإنها تزيين وتبين وصد عن الخطأ واللعن لمن يقرؤه . وقد كان الحسن وابن سيرين ينكرون الأخماس والعواشر والأجزاء . وروى عن الشعبي وإبراهيم كراهية النقط بالحرمة وأخذ الأجرة على ذلك ، وكانوا يقولون جردوا القرآن . والطن بهؤلاء أنهم كرهوا فتح هذا الباب خوفا من أن يؤدي إلى إحداث زيادات وحسبا للباب وتشوقا إلى حراسة القرآن عما يطرق إليه تغييرا . وإذا لم يؤد إلى محذور واستقر أمر الأمة فيه على ما يحصل به مزيد معرفة فلا بأس به . ولا يمنع من ذلك كونه محدثا فكم من محدث حسن كما قيل في إقامة الجماعات في التراويح إنها من محدثات عمر رضي الله عنه وأنها بدعة حسنة . إنما البدعة المذمومة ما يصادم السنة القديمة أو يكاد يفضي إلى تغييرها . وبعضهم كان يقول . أقرأ من المصحف في المنقوط ولا أنقطه بنفسى وقال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير : كان القرآن مجزأ في المصاحف فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء وقالوا

(١) حديث « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمرو أن يحم القرآن في كل أسبوع » متفق عليه من حديثه .

(٢) حديث « تخريب القرآن على سبعة أجزاء » أخرجه ابن ماجه من حديث أوس بن حذيفة في حديث فيه « طرأ على حري من القرآن » قال أوس فسألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تحربون القرآن ؟ قالوا : ثلاث وحس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل . وفي رواية للطبراني سألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرئ القرآن ؟ فقالوا . كان يجزئه ثلاثا . فذكره مهودا ولمساده حسن

لأبأس به فإنه نور له . ثم أحدثوا بعده نقطا كبارا عند منتهى الآي فقالوا : لأبأس به يعرف به رأس الآية . ثم أحدثوا بعد ذلك الخواتم والعواتج . قال أبو بكر الهذلي سألت الحسن عن تنقيط المصاحف بالأحمر فقال : وما تنقيطها ؟ قلت : يعربون الكلمة بالعربية قال : أما إعراب القرآن فلا أبأس به وقال خالد الحذاء : دخلت على ابن سيرين فرأيت يقرأ في مصحف منقوط وقد كان يكره النقط . وقيل : إن الحجاج هو الذي أحدث ذلك وأحضر القراء حتى عدوا كلمات القرآن وحروفه وسووا أجزائه وقسموه إلى ثلاثين جزءا وإلى أقسام أخر . (الخامس) الترتيل : هو المستحب في هيئة القرآن لأننا سنبين أن المقصود من القراءة التفكير والترتيل معين عليه . ولذلك نعتت أم سلمة رضي الله عنها قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هي تمت قراءة مفسرة حرفا حرفا ^(١) وقال ابن عباس رضي الله عنه : لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلها وأتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ القرآن هدرمة . وقال أيضا : لأن أقرأ إذا زلزلت والقارة أتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيرا . وسئل مجاهد عن رجلين دخلا في الصلاة فكان قيامهما واحدا إلا أن أحدهما قرأ البقرة فقط والآخر القرآن كله فقال . هما في الآخر سواء . واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبر فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له في القراءة أيضا الترتيل والتؤدة لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيرا في القلب من الهدرمة والاستعجال (السادس) البكاء : البكاء مستحب مع القراءة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فنبأكموا » ^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » ^(٣) وقال صالح المزني : قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المام فقال لي يا صالح هذه القراءة فأين البكاء ؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إذا قرأتهم سجدة سبحان ؛ فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فن الحزن يذشأ البكاء قال صلى الله عليه وسلم « إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحزنوا » ^(٤) ، ووجه إحضار الحزن أن يتأمل مافيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود . ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن للاحالة ويبكى . فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك أعظم المصائب . (السابع) أن يراعى حق الآيات : فإذا مر بآية سجدة بسجد ، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة بسجد إذا سجد التالي ، ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة . وفي القرآن أربع عشرة سجدة . وفي الحج سجدة تان وليس في ص سجدة وأقله أن يسجد بوضع جبهته على الأرض وأكمله أن يكبر فيسجد ويدعو في سجوده بما يليق بالآية التي قرأها مثل أن يقرأ قوله تعالى ﴿ خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ﴾ فيقول « اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو على أوليائك » وإذا قرأ قوله تعالى ﴿ ويحزون للأذناب يكونون يزيدهم خسوعا ﴾ فيقول « اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك ، وكذلك كل سجدة ، ويشترط في هذه السجدة شروط الصلاة من ستر العورة واستقبال القبلة وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث . ومن لم يكن على طهارة عند السماع وإذا تطهر يسجد ، وقد قيل في كمالها أنه يكبر رافعا يديه لتحريمه ثم يكبر للهوى للسجود ثم يكبر الارتفاع ثم يسلم . وزاد زائدون

(١) حديث « نعتت أم سلمة قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هي تمت قراءة مفسرة حرفا حرفا » أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح (٢) حديث « اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فنبأكموا » أخرجه ابن ماجة . من حديث سعد

ابن أبي وقاص بإسناد جيد (٣) حديث « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة

(٤) حديث « إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحزنوا » أخرجه أبو يعلى وأبو يعين في الحلة من حديث ابن عمر

التشهد ولا أصل لهذا إلا القياس على سجود الصلاة وهو بعيد فإنه ورد الأمر في السجود فليتبع فيه الأمر وتكبيرة الهوى أقرب للبداية وما عدا ذلك ففيه بعد . ثم المأموم ينبغي أن يسجد عند سجود الإمام ولا يسجد لتلاوة نفسه إذا كان مأموماً (الثامن) أن يقول في مبتدأ قراءته : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿ رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ وافقراً : قل أعوذ برب الناس وسورة الحمد لله وليقل عند فراغه من القراءة : صدق الله تعالى وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه الحمد لله رب العالمين وأستغفر الله الحى القيوم . وفي أثناء القراءة إذا مر بآية تسييح سبح وكبر ، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر ، وإن مر بمرجق سأل وإن مر بمخوف استعاذ . يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه فيقول : سبحان الله نعوذ بالله اللهم ارزقنا اللهم ارحمنا . قال حذيفة : صليت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فابتدأ سورة البقرة فكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل ولا بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية تنزيه إلا سبح ^(١) ، فإذا فرغ قال ما كان يقول صلوات الله وسلامه عند ختم القرآن « اللهم ارحمني بالقرآن واجعله لي إماماً ونوراً وهدى ورحمة اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لي حجة يارب العالمين ^(٢) » (التاسع) في الجهر بالقراءة : ولا شك في أنه لا بد أن يجهر به إلى حد يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف ولا بد من صوت فأقله ما يسمع نفسه فإن لم يسمع نفسه لم تصح صلاته . فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ومكروه على وجه آخر . ويدل على استحباب الإسرار ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية » وفي لفظ آخر « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر به كالسر بالصدقة ^(٣) » وفي الخبر العام « يفضل عمل السر على عمل العلانية سبعين ضعفاً ^(٤) » وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « خير الرزق ما يكتفى وخير الذكر الخفي ^(٥) » وفي الخبر « لا يجهر بعضهم على بعض في القراءة بين المغرب والعشاء ^(٦) » وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة وكان حسن الصوت فقال لغلامه : اذهب إلى هذا المصلي فمره أن يخفض صوته ، فقال الغلام : إن المسجد لبس لنا وللرحل فيه نصيب ، فرفع سعيد صوته وقال : يا أيها المصلي إن كنت تريد الله عز وجل بصلواتك فاخفض صوتك وإن كنت تريد الناس فإنهم إن يغنوا عنك من الله شيئاً ، فسكت عمر بن عبد العزيز وخفف ركعته فلما سلم أخذ نعليه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة . ويدل على استحباب الجهر ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع جماعة من أصحابه يجهرون في صلاة الليل فصوب ذلك ^(٧) وقد قال صلى الله

(١) حديث حذيفة « كانت لا يمر بآية عذاب إلا نعوذ ولا بآية رحمة إلا سأل ولا بآية تنزيه إلا سبح » أخرجه مسلم مع اختلاف لفظ (٢) حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند ختم القرآن اللهم ارحمني بالقرآن واجعله لي إماماً وهدى ورحمة اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لي حجة يارب العالمين » رواه أبو منصور المصنف بن الحسين الأرساني في فضائل القرآن وأبو بكر بن الضحاك في الشئان كلاماً من طريق أبي در الهروي من رواية داود بن قيس معصلاً (٣) حديث « فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية » قاله في لفظ آخر « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالسر بالصدقة » أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه من حديث عقب بن عامر باللفظ الثاني (٤) حديث « يفضل عمل السر على عمل العلانية سبعين ضعفاً » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة (٥) حديث « خير الرزق ما يكتفى وخير الذكر الخفي » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث سعد بن أبي وقاص (٦) حديث « لا يجهر بعضهم على بعض في القراءة بين المغرب والعشاء » رواه أبو داود من حديث البيهقي دون قوله « بين المغرب والعشاء » والبيهقي في الشعب من حديث علي « قبل العشاء وبعدها » وفيه الحارث الأعور وهو ضعيف (٧) حديث « أنه سمع جماعة من الصحابة يجهرون في صلاة الليل فصوب ذلك » ففي الصحيحين من حديث عائشة « أن رجلاً قام من الليل فقرأ فرفع صوته بالقرآن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله فلاناً ... الحديث » ومن حديث أبي موسى قال =

عليه وسلم ، إذا قام أحدكم من الليل يصلي فليجهر بالقراءة فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون قراءته ويصلون بصلاته ^(١) ، ومر صلى الله عليه وسلم بثلاثة من أصحابه رضى الله عنهم يختلفون الأحوال فرعى أبى بكر رضى الله عنه وهو يخافت فسأله عن ذلك فقال : إن الذى أناجيه هو يسمعى . ومر على عمر رضى الله عنه وهو يجهر فسأله عن ذلك فقال : أوقف الوسنان وأزجر الشيطان . ومر على بلال وهو يقرأ آيات هذه السورة وآيات هذه السورة فسأله عن ذلك فقال أخلط الطيب بالطيب . فقال صلى الله عليه وسلم : كلكم قد أحسن وأصاب ^(٢) . فالوجه فى الجمع بين هذه الأحاديث أن الإصرار أبعد عن الرياء والتصنع فهو أفضل فى حق من يخاف ذلك على نفسه فإن لم يخف ولم يكن فى الجهر ما يشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته أيضاً تتعلق بغيره فالخير المتعدى أفضل من اللازم ، ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه ، ولأنه يطرد النوم فى رفع الصوت ولأنه يزيد فى نشاطه للقراءة ويقلل من كسله ، ولأنه يرجو بجهره تيقظ نائم فيكون هو سبب إحيائه ، ولأنه قد يراه بطل غافل فينشيط بسبب نشاطه ويشتاق إلى الخدمة ، متى حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل . وإن اجتمعت هذه النيات تضاعف الأجر وبكثرة النيات تزكو أعمال الأبرار وتتضاعف أحوالهم فإن كان فى العمل الواحد عشر نيات كان فيه عشر أجور . ولهذا نقول قراءة القرآن فى المصاحف أفضل لما يزيد فى العمل النظر وتأمل المصحف وحمله فيزيد الأجر بسببه . وقد قيل الختمة فى المصحف بسبع لأن النظر فى المصحف أيضاً عبادة . وخرق عثمان رضى الله عنه مصحفين لكثرة قراءته منهما فكان كثير من الصحابة يقرءون فى المصاحف ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا فى المصحف . ودخل بعض فقهاء مصر على الشافعى رضى الله عنه فى السحر وبين يديه مصحف فقال له الشافعى : شغلكم الفكر عن القرآن إني لأصلى العتمة وأضع المصحف بين يدي فما أطبقه حتى أصبح (العاشر) تحسين القراءة وترتيبها بتريد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم فذلك سنة قال صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم » ^(٣) ، وقال عليه السلام « ما أذن الله لشيء إلا أذنه لحسن الصوت بالقرآن » ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منامن لم يتغن بالقرآن » فقيل أراد به الاستغناء وقيل أراد به الترم وترديد الألحان به وهو أقرب عند أهل اللغة . وروى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ليلة ينتظر عاتشة فأتته رضى الله عنها فأبطأت عليه فقال صلى الله عليه وسلم : ما حبسك قالت : يا رسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه ، فقام صلى الله عليه وسلم حتى استمع إليه طويلاً ثم رجع فقال صلى الله عليه وسلم : هذا سالم مولى أبى حذيفة الحمد لله الذى جعل فى أمي مثله » ^(٥) ، واستمع صلى الله عليه وسلم أيضاً ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهم فوقفوا طويلاً ثم قال

= « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رأيته وأتينا أسمع قراءتك البارحة . الحديث » ومن حديث أيضاً « لما أعرف أصوات رفعة الأشعرين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف ما رآهم من أصواتهم بالقرآن .. الحديث » (١) حديث « إذا قام أحدكم من الليل يصلي فليجهر بقراءته فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون لى قراءته ويصلون بصلاته » رواه نحوه زيادة فيه أبو بكر البزار ومهر لمقدسى فى المواعظ وأبو شجاع من حديث معاذ بن جبل وهو حديث منسك منقطع .

(٢) حديث « مروره صلى الله عليه وسلم بأبى بكر وهو يخافت وهو يجهر ويبلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة .. الحديث » تقدم فى الصلاة (٢) حديث « زينوا القرآن بأصواتكم » أخرجه أبو داود والنسائ وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث البراء بن عازب (٤) حديث « ما أذن الله لشيء إلا أذنه لحسن الصوت بالقرآن » متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ « ما أذن الله لشيء إلا أذن نبي يتعنى بالقرآن » زاد مسلم « لنبي حسن الصوت » وفى رواية له « كادته لنبي يتعنى بالقرآن » .

(٥) حديث « كان ينتظر عاتشة فأبطأت عليه فقال ما حبسك قالت يا رسول الله كنت أسمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه فقام صلى الله عليه وسلم حتى استمع إليه طويلاً ثم رجع فقال هذا سالم مولى أبى حذيفة الحمد لله الذى جعل فى أمي مثله » أخرجه أبو داود من حديث عائشة ورجال أساده ثقات .

صلى الله عليه وسلم « من أراد أن يقرأ القرآن غضا طرياً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود « اقرأ على فقال يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل فقال صلى الله عليه وسلم : إني أحب أن أسمعه من غيري فكان يقرأ وعينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تفيضان ^(٢) » واستمع صلى الله عليه وسلم إلى قراءة أبي موسى فقال « لقد أوتي هذا من مزامير آل داود » فبلغ ذلك أبا موسى فقال : يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لخبرت لك تحبيراً ^(٣) ورأى هيثم القارئ رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام قال : فقال لي أنت الهيثم الذي تزين القرآن بصوتك قلت نعم قال جزاك الله خيراً . وفي الخبر . كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن وقد كان عمر يقول لأبي موسى رضى الله عنهما : ذكرنا ربنا فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط فيقال يا أمير المؤمنين الصلاة الصلاة فيقول : أولسنا في صلاة ؟ إشارة إلى قوله عز وجل ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « من استمع إلى آية من كتاب الله عز وجل كانت له نورا يوم القيامة ^(٤) » وفي الخبر : كتب له عشر حسنات . ومهما عظم أجر الاستماع وكان التالي هو السبب فيه كان شريكاً في الأجر إلا أن يكون قصده الرياء والتصنع .

الباب الثالث : في أعمال الباطن في التلاوة وهي عشرة

فهم أصل الكلام . ثم التعظيم . ثم حضور القلب . ثم التدبر . ثم التفهم . ثم التخلي عن موانع الفهم . ثم التحصيل . ثم التأثر . ثم الترتي . ثم التبري . (فالأول) فهم عظمة الكلام وعلوه وفصل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه . فليحفظ كيف لطف بخلقهم في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بداته إلى أفهام خلقه ؟ وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله عز وجل إلا بوسيلة صفات نفسه . ولولا استتار كنهه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره . ولولا تبين الله عز وجل لموسى عليه السلام لما أطاق لسماع كلامه كما لم يطق الجبل مبادئ تجليه حيث صار دكا . ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حد فهم الخلق . ولهذا عبر بعض العارفين عنه فقال : إن كل حرف من كلام الله عز وجل في اللوح المحفوظ أعظم من جبل قاف وإن الملائكة عليهم السلام لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يقلوه ما أطاقوه حتى يأتي لإسرافيل عليه السلام وهو مالك اللوح ويرفعه فيقله بإذن الله عز وجل ورحمته لا يبقوته وطاقته ولكن الله عز وجل طوقه ذلك واستعمله به ، ولقد تألق بعض الحكماء في التعبير عن وجه اللطف في إيصال معاني الكلام مع علو درجته إلى فهم الإنسان وتبليته مع قصور رتبته وضرب له مثلاً لم يقصر فيه ؛ وذلك أنه دعا

(١) حديث « استمع ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو مسكر وعمر فوقوا طويلاً ثم قال من أراد أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » أخرجه أحمد والنسائي في الكبرى من حديث عمر والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود « أن أبا بكر وعمر بصراه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب أن يقرأ القرآن ... الحديث » قال الترمذي حسن صحيح (٢) حديث « أنه قال لابن مسعود : اقرأ فقال يا رسول الله أقرأ عليك أنزل فقال لي أحب أن أسمعه من غيري ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود . (٣) حديث « استمع إلى قراءة أبي موسى فقال لعدي أوتي هذا من مزامير آل داود » متفق عليه من حديث أبي موسى . (٤) حديث « من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نورا يوم القيامة » وفي الخبر « كتب له عشر حسنات » أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة « من استمع إلى آية من كتاب الله كتب له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة » وفيه ضعف وانقطاع .

بعض الملوك حكيم إلى شريعة الأنبياء عليهم السلام فسأله الملك عن أمور فأجاب بما لا يحتمله فهمه ؛ فقال الملك :
 رأيت ما أتى به الأنبياء إذا ادعت أنه لبس بكلام الناس وأنه كلام الله عز وجل فكيف يطبق الناس حمله ؟ فقال الحكيم :
 إننا رأينا الناس لما أرادوا أن يفهموا بعض الدواب والطيور ما يريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها ورأوا الدواب
 يقصر تمييزها عن فهم كلامهم الصادر عن أنوار عقولهم مع حسنه وترينه وبديع نظمه ، فنزلوا إلى درجة تمييز البهائم وأوصلوا
 مقاصدهم إلى بواطن البهائم بأصوات يضعونها لاثقة بهم من النقر والصفير والأصوات القريبة من أصواتها لكي يطيقوا حملها .
 وكذلك الناس يعجزون عن حمل كلام الله عز وجل بكنهه وكمال صفاته . وصاروا بما تراحموا بينهم من الأصوات التي سمعوا
 بها الحكمة كصوت النقر والصفير الذي سمعت به الدواب من الناس . ولم يمنع ذلك معاني الحكمة الخبوءة في تلك
 الصفات من أن شرف الكلام أى الأصوات لشرفها وعظم تعظيمها ، فكان الصوت للحكمة جسدا ومسكنا والحكمة
 للصوت نفسا وروحا . فكأن أحساد البشر تكرم وتعر لمكان الروح فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة
 التي فيها . والكلام على المنزلة رفيع الدرجة فاهر السلطان نافذ الحكم في الحق والباطل . وهو القاضي العدل والشاهد
 المرتضى يأمر وينهى . ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة كما لا يستطيع الطل أن يقول قدام شعاع الشمس
 ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس ، ولكنهم ينالون من
 ضوء عين الشمس ما تحيا به أبصارهم ويستدلون به على حوائجهم فقط . فالكلام كالمالك المحجوب الغائب وجهه
 النافذ أمره وكالشمس الغزيرة الظاهرة مكنون عنصرها وكالجموم الزهرة التي قد يهتدى بها من لا يقف على سيرها فهو
 مفتاح الحزائن النفيسة وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يمت ودواء الأسقام الذي من سقى منه لم يسقم . فهذا
 الذي ذكره الحكيم نذرة من تفهيم معنى الكلام والزيادة عليه لا تليق بعلم المعاملة فينبغي أن يقتصر عليه . (الثاني)
 التعظيم للمتكلم : فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغى أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من
 كلام البشر وإن في تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر فإنه تعالى قال (لا يمسه إلا المطهرون) وكما أن ظاهر حلد
 المصحف وورقه محروس عن طاهر نشرة اللامس إلا إذا كان متطهرا ، فباطن معناه أيضا بحكم عزه وجلاله محجوب
 عن باطن القلب إلا إذا كان متطهرا عن كل رجس ومستنيرا بنور التعظيم والتوقير . وكما لا يصلح لمس حلد المصحف
 كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل فلب . ومثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبي جهل إذا
 نشر المصحف غشى عليه ويقول : هو كلام ربى هو كلام ربى ؟ فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم ولن تحضره عظمة المتكلم
 ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله . فإذا حضر بباله العرش والكرسى والسموات والأرض وما بينهما من الجن
 والإنس والدواب والأشجار ، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد ، وأن الكل في قبضة قدرته
 مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته إن أنعم بفضله وإن عاقب فيعذله ، وأنه الذى يقول هؤلاء إلى الجنة
 ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي وهذا غاية العظمة والتعالى . فبال تفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم
 تعظيم الكلام (الثالث) حضور القلب وترك حديث النفس : قيل في تفسير (يا حيي خد الكتاب بقوة) أى يجد
 واجتهاد وأخذه بالجد أن يكون متجردا له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره ، وقيل لبعضهم : إذا قرأت القرآن
 تحدث نفسك بشئ ؟ فقال أو شئ أحب إلى من القرآن حتى أحدث به نفسى ! وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم
 يكن قلبه فيها أعادها ثانية وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم فإن المعظم الكلام الذى يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل
 عنه . ففى القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالى أهلا له فكيف يطلب الأنس بالفكر فى غيره وهو فى متزده ومتفرج

والدى يتفترج في المتزهات لا يتفكر في غيرها ؟ فقد قيل إن في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياضا وخانات فالميادين القرآن والراءات بساتين القرآن والحامات مقاصيره والمسبحات عرائس القرآن والحاميات ديابيج القرآن والمفصل رياضه والخانات ماسوى ذلك فإذا دخل القارئ الميادين وقطف من البساتين ودخل المقاصير وشهد العرائس ولبس الديابيج وتنزه في الرياض وسكن غرف الخانات استغرقه ذلك وشغله عما سواه فلم يحزب قلبه ولم يتفرق فكره .

(الرابع) التدبر : وهو وراء حضور القلب فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره . والمقصود من القراءة التدبر . ولذلك سن لأن الترتيل فيه الترتيل في الطاهر ليتمكن من التدبر بالباطن . قال على رضى الله عنه : لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها . وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام . فإنه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل الإمام بآية أخرى كان مسيئاً مثل من يشتغل بالتعجب من كلمة واحدة بمن يناجيه عن فهم بقية كلامه . وكذلك إن كان في تسبيح الركوع وهو متفكر في آية قرأها إمامه فهذا وسواس . فقد روى عن عامر بن عبد قيس أنه قال : الوسواس يعتريني في الصلاة ، فقيل : في أمر الدنيا ؟ فقال : لأن تختلف في الاستئذان أحب إلى من ذلك ، ولكن يشتغل قلبى بموقف بين يدي ربى عز وجل . وأنى كيف انصرف ، فعند ذلك وسواسا وهو كذلك فإنه يشغله عن فهم ما هو فيه والشيطان لا يقدر على مثله إلا بأن يشغله بهمهم ديني ولكن يمنعه به عن الأفضل . ولما ذكر ذلك للحسن قال إن كنتم صادقين عنه فما اصطنع الله ذلك عندنا . ويروى « أنه صلى الله عليه وسلم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة ^(١) » وإما ردها صلى الله عليه وسلم لتدبره في معانيها . وعن أبي ذر قال « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم ^(٢)) الآية » وقام تميم الدارى ليلة بهذه الآية (أم حسب الذين اجترحوا السيئات) الآية . وقام سعيد بن جبير ليلة يردد هذه الآية (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) وقال بعضهم : إنى لأفتح السورة فيوقفنى بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر . وكان بعضهم يقول : آية لا أنفهمها ولا يكون قلبى فيها لا أعد لها ثوابا ، وحكى عن أبي سليمان الداراني أنه قال : إنى لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ولولا أنى أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها . وعن بعض السلف أنه بقى في سورة هود ستة أشهر يكثرها ولا يفرغ من التدبر فيها . وقال بعض العارفين : لى في كل جمعة ختمة وفى كل شهر ختمة وفى كل سنة ختمة ولى ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد . وذلك بحسب درجات تدبره وتفقيته . وكان هذا أيضا يقول : أقمت نفسى مقام الأجراء فأنا أعمل مياومة ومجاعة ومتساهرة ومسانهة .

(الخامس) التفهم : وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل . وذكر أفعاله . وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام . وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره ، وذكر الجنة والنار .

أما صفات الله عز وجل فكقوله تعالى (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) وكقوله تعالى (الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر) فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها فتحتها معان

الباب الثالث : في أعمال الباطن في التلاوة

(١) حديث « أنه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة » رواه أبو ذر الهروى في معجمه من حديث أنى هريرة بسند ضعيف (٢) حديث أنى ذر « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ديا ليلة بآية يرددها وهي (إن تعذبهم فإنهم عبادك) » أخرجه النسائى وابن ماجه بسند صحيح

مدفونة لا تتكشف إلا للموفقين : وإليه أشار على رضى الله عنه بقوله ما أسر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً كتمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عز وجل عبداً وهما في كتابه فليكن حريصاً على طلب ذلك الفهم ^(١) وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن . وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عز وجل وصفاته إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أموراً لا ثقة بأفهامهم ولم يعثروا على أغوارها .

وأما أفعاله تعالى فكذلك خلق السموات والأرض وغيرها . فليعلم التالى منها صفات الله عز وجل وجلاله إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمتة على عظمتة . فينبغى أن يشهد في العفل الفاعل دون الفعل ، فمن عرف الحق رآه في كل شيء إذ كل شيء هو منه وإليه وبه وله فهو الكل على التحقيق . ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه . ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، لأنه سيدطل في ثاني الحال ؛ بل هو الآن باطل إن اعتبر ذاته من حيث هو إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله عز وجل وبقدرته فيكون له بطريق التبعية ثبات وبطريق الاستقلال بطلان محض . وهذا مبدأ من مبادئ علم المكاشفة : ولهذا ينبغى إذا قرأ التالى قوله عز وجل ﴿ أفرأيت ما تخرجون - أفرأيت ما تمنون - أفرأيت الماء الذي تشربون - أفرأيت النار التي تورون ﴾ فلا يقصر نظره على الماء والماء والحار والبارد والماء الذي بل يتأمل في المني وهو نقطة متشابهة الأجزاء ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المدمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالى ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ فيتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى عجب العجائب وهو الصفة التي منها صدرت هذه الأعاجيب فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع .

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام : فإذا سمع منها كيف كذبوا وضربوا وقتل بعضهم . فليفهم منه صفة الاستغناء لله عز وجل عن الرسل والمرسل إليهم وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر في ملكه شيئاً . وإذا سمع لصرتهم في آخر الأمر فليفهم قدرة الله عز وجل وإرادته لنصرة الحق .

وأما أحوال المكذبين ؛ كعناد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمتة وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل فرمما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية : وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما في القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منه لأن ذلك لا نهاية له وإنما لكل عند بقدر رزقه ، فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفدت البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ ولذلك قال على رضى الله عنه : لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب . فالغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهيم لينفتح بابه فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه . ومن لم يكن له فهم ما في القرآن ولو في أدنى الدرجات دخل في قوله تعالى (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا

(١) حديث على « ما أسر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً كتمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عبداً وهما في كتابه » أخرجه النسائي من رواية أبي جحيفة قال « سألت أبا علياً فقال هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء سوى القرآن ؟ فقال : لا والذي فلق الحمة ورأى الزمعة إلا أن يعطى الله عبداً فهما في كتابه .. الحديث » وهو عهد البخاري بلفظ « هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس في القرآن » وفي رواية « وقال مرة ما ليس عند الناس » ولأبي داود والنسائي « فقلنا هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً لم يعهد إلى الناس ؟ قال : لا إلا ما في كتابي هذا .. الحديث » ولم يذكر « العهد في القرآن »

خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ﴿ والطابع هي الموانع التي سبقت ذكرها في موانع الفهم . وقد قيل : لا يكون المرید مریدا حتى يجد في القرآن كل ما يريد ويعرف منه نقصان من المزيد ويستغنى بالمولى عن العيب (السادس) التخلي عن موانع الفهم فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسدها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن قال صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت ^(١) » ، ومعاني القرآن من حملة الملكوت وكل ما غاب عن الحواس ولم يدرك إلا بنور البصيرة فهو من الملكوت . وحجب الفهم أربعة ؛ أولها : أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها ، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه . فهذا يكون تأمله مقصورا على مخارج الحروف فأني تنكشف له المعاني ؟ وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبس . ثانياً ؛ أن يكون مقلداً للمذهب سمعه بالتقليد وجد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . وهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقفاً على مسموعه ، فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعاني التي تبين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حلة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك ، ويرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله . ولمثل هذا قالت الصوفية : إن العلم حجاب وأرادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للبدهاب وألقوها إليهم . فأما العلم الحقيقي الذي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة فكيف يكون حجاباً وهو منتهى المطلب ؟ وهذا التقليد قد يكون باطلاً فيكون مانعاً كمن يعتقد في الاستواء على العرش التمكن والاستقرار فإن خطر له مثلاً في القدوس أنه المقدس عن كل ما يجوز على خلقه لم يمكنه تقليده من أن يستقر ذلك في نفسه . . ولو استقر في نفسه لانجز إلى كشف ثان وثالث ولتواصل . ولكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته تقليده الباطل . وقد يكون حقاً ويكون أيضاً مانعاً من الفهم والكشف لأن الحق الذي كلف الخلق اعتقاده له مراتب ودراجات وله مبدأ ظاهر وغور باطن وجهود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغور الباطن - كما ذكرناه في الفرق بين العلم الظاهر والباطن في كتاب قواعد العقائد - ثالثاً : أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر أو مبتلى في الجملة بهوى في الدنيا مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدته ، وهو كالخبيث على المرأة فيمنع جليلة الحق من أن يتجلى فيه وهو أعظم حجاب للقلب وه حجب الأكثرين . وكلما كانت الشهوات أشد تراكمات معاني الكلام أشد احتجاباً وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلى المعنى فيه . فالقلب مثل المرأة والشهوات مثل الصدأ ومعاني القرآن مثل الصور التي تترامى في المرأة . والرياضة للقلب بإمالة الشهوات مثل تصفيل الحلاء للمرأة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم بزغ منها هيبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرموا بركة الوحي ^(٢) » ، قال الفضيل : يعنى حرموا فهم القرآن . وقد شرط الله عز وجل الإنابة في الفهم والتذكير فقال تعالى (تبصرة وذكري لكل عبد منيب) وقال عز وجل (وما يتذكر إلا من ينيب) وقال تعالى (إنما يتذكر أولو الألباب) فالذي أثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة

(١) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت » تقدم في الصلاة

(٢) حديث « إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم بزغ منها هيبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف حرموا بركة الوحي » رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف مرسلاً من حديث الفضل بن عياض قال . ذكر عن نبي الله صلى الله عليه وسلم

فليس من ذوى الأبواب ولذلك لا تكشف له أسرار الكتاب . رابعها: أن يكون قد قرأ تفسيراً طاهراً واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار فهذا أيضاً من الحجب العظيمة . وسنبين معنى التفسير بالرأى في الباب الرابع وأن ذلك لا يناقض قول على رضي الله عنه إلا أن يؤتى الله عبداً فهما في القرآن . وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول لما اختلفت الناس فيه (السابع) التخصيص وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن فإن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهى والمأمور وإن سمع وعداً أو وعيداً فكثّل ذلك ، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي صلى الله عليه وسلم وأمه . ولذلك قال تعالى ﴿ ما ثبت به فؤادك ﴾ فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لا تنتظار نصر الله تعالى . وكيف لا يقدر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لرسول الله خاصة بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين ؟ ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ وقال عز وجل ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم . هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد فهذا القارئ الواحد مقصود فإله ولسائر الناس فليقدر أنه المقصود قال الله تعالى (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) قال محمد بن كعب القرظي : من بلغه القرآن فكأنما كله الله . وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذى كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه . ولذلك قال بعض العلماء : هذا القرآن رسائل أتت من قبل ربنا عز وجل بعهوده تندبرها في الصلوات ونقف عليها في الخلوات وتنفذها في الطاعات والسنن المتبعات . وكان مالك بن دينار يقول : مازرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض . وقال قتادة : لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قال تعالى ﴿ هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ (الثامن) التأثير وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره . ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه فإن التضييق غالب على آيات القرآن فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عز وجل (وإني لغفار) ثم أتبع ذلك بأربعة شروط (لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وقوله تعالى (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) ذكر أربعة شروط وحيث اقتصر ذكر شرطاً جامعاً فقال تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) فالإحسان يجمع الكل وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره . ومن فهم ذلك تخدير بأن يكون حاله الخشية والحزن . ولذلك قال الحسن : والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا أكثر حزنه وقل فرحه وأكثر بكاءه وقل ضحكته وأكثر نصبه وشغله وقلت راحته وبطالته . وقال وهيب بن الورد نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئاً أرق للقلوب ولا أشد استجلاباً للحزن من قراءة القرآن وتفهمه وتندبره . فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة فحند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت . وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطهر من

الفرح . وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعاً لجلاله واستشعاراً لعظمته . وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عز وجل كذا كرم الله عز وجل ولدا وصاحبة يغض صوته ويكسر في باطنه حياء قبح مقاتلتهم . وعند وصف الحنة ينبعث بباطنه شوقاً إليها . وعند وصف النار ترتعد فرائضه خوفاً منها ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود « اقرأ على »^(١) قال : فافتتحت سورة النساء فلما بلغت ﴿ فكيف إذا حثنا من كل أمة بشهيد وجثنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ رأيت عينيه تدرقان بالدمع فقال لي : حسبك الآن ، وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية . ولقد كان في الخائفين من خثر مغشياً عليه عند آيات الوعيد . ومنهم من مات في سماع الآيات . فمثل هذه الأحوال يخرج عن أن يكون حاكياً في كلامه . فإذا قال ﴿ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ ولم يكن خائفاً كان حاكياً . وإذا قال ﴿ عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ ولم يكن حاله التوكل والإناابة كان حاكياً . وإذا قال ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا ﴾ فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجمد حلوة التلاوة . فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه في قوله تعالى ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ وفي قوله عز وجل ﴿ وهم في غفلة معرضون ﴾ وفي قوله ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ إلى غير ذلك من الآيات وكان داخلاً في معنى قوله عز وجل ﴿ ومنهم أमीون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ﴾ يعنى التلاوة المجردة وقوله عز وجل ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمترون عليها وهم عنها معرضون ﴾ لأن القرآن هو المدين لتلك الآيات في السموات والأرض ، ومهما تجاوزها ولم يتأثر بها كان معرضاً عنها . ولذلك قيل : إن من لم يكن متصفاً بأخلاق القرآن فإذا قرأ القرآن ناداه الله تعالى : مالك ولكلامى وأنت معرض عنى دع عنك كلامى إن لم تتب إلى . ومثال العاصى إذا قرأ القرآن وكرره مثال من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات وقد كتب إليه في عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه ؛ فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء واستحقاق المقت . ولذلك قال يوسف بن أسباط : إني لأهم بقراءة القرآن فإذا ذكرت ما فيه خشيت المقت فاعدل إلى التيسيح والاستغفار . والمعرض عن العمل به أريد بقوله عز وجل ﴿ فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرءوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم ولا نت له جلودكم فإذا اختلفتم فليستم تقرأونه - وفي بعضها - فإذا اختلفتم فقوموا عنه »^(٢) ، قال الله تعالى ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا يسمع القرآن من أحد أشهى ممن يخشى الله عز وجل »^(٤) ، يراد لاستجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به ؛ وإلا فالملؤنة في تحريك اللسان بحروفه خفيفة . ولذلك قال بعض القراء : قرأت القرآن على شيع لي ثم رجعت لأقرأ ثانياً فانتهرنى وقال جعلت القرآن على عملا اذهب فاقرأ على الله عز وجل . فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهاك . وبهذا كان شغل

(١) حديث « أنه قال لابن مسعود اقرأ على . الحديث « تقدم في الباب قبله (٢) حديث « اقرءوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم ولا نت له جلودكم فإذا اختلفتم فليستم تقرأونه - وفي بعضها - فإذا اختلفتم فقوموا عنه » متفق عليه من حديث جندب ابن عبد الله البجلي في اللفظ الثانى دون قوله « ولا نت جلودكم » (٣) حديث « إن أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى » أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف (٤) حديث « لا يسمع القرآن من أحد أشهى ممن يخشى الله تعالى » رواه أبو عبد الله الحاكم فيما ذكره أبو القاسم العافى في كتاب فضائل القرآن

الصحابة رضى الله عنهم في الأحوال والأعمال . فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة اختلف في اثنين منهم . وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين . وكان الذى يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم ^(١) ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فأتى إلى قوله عز وجل (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ^(٢)) قال : يكفى هذا وانصرف . فقال صلى الله عليه وسلم : انصرف الرجل وهو فقيه . وإنما العزير مثل تلك الحالة التي من الله عز وجل بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية . فأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى . بل التالى باللسان المعروض عن العمل جدير بأن يكون هو المراد بقوله تعالى (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) وبقوله عز وجل (كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أى تركتها ولم تنظر إليها ولم تعبأ بها فإن المقصر في الأمر يقال إنه نسى الأمر وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يتشارك فيه اللسان والعقل والقلب ، فخط اللسان تصحيح الحروف بالترتيل وحظ العقل تفسير المعاني وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والاتجار . فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعطف . (الناسع) الترقى : وأعنى به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه « فدرجات القراءة ثلاث ، أدناها : أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل واقفاً بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه ، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتلق والتضرع والابتهاال . الثانية : أن يشهد بقلبه كأن الله عز وجل يراه ويحاطبه بالطفاه ويناجيه بالنعامة وإحسانه فقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم . الثالثة : أن يرى في الكلام المتكلم وفي الكلمات الصفات فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه بل يكون مقصوراً لهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره . وهذه درجة المقرئين ومقابلته درجة أصحاب اليمين وما خرج عن هذا فهو درجات العاقلين . وعن الدرجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه قال : والله لقد تجلى الله عز وجل لخلق في كلامه ولكنهم لا يبصرون . وقال أيضاً وقد سأله عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر معتسيا عليه فلما سرى عنه قيل له في ذلك فقال : ما زلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم

(١) حديث « مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة - اختلف في اثنين منهم - وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين وكان الذى يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم » قلت : قوله « مات عن عشرين ألفاً » لعنه أراد بالمدين ، وإلا فقد روي عن أبي زرعة الرازى أنه قال : قبض عن مائة ألف وأربعة عشر ألفاً من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه انتهى . وإنما من حفظ القرآن في عهده في الصحابة من حديث أنس قال « جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة - كلهم من الأنصار - أبى بن كعب ومعاذ بن جبل وريد وأبو زيد » قلت : ومن أبو زيد ؟ قال . أحد عمومتى « وراى بن أبى شيبة كالمصب من رواية الشعمى مرسلاً وأبو الدرداء وسعيد بن عبيد وفي الصحابة من حديث عبد الله بن عمرو « استمرئوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب » وروى ابن الأبارى بسنده إلى عمر قال « كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة من يحفظ القرآن السورة ونحوها .. الحديث » وسنده ضعيف والترمذى وحسنه من حديث أبى هريرة قال « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً وهم ذو عدد فاستقرأهم فاستقرأهم رجل مامع من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم ساء فقال مامعك يا هلال ؟ قال معى كذا وكذا ، وسورة البقرة فقال : أمعك سورة البقرة ؟ قال . نعم » قال : اذهب فأت أميرهم ... الحديث » (٢) حديث « الرجل الذى جاء ليتعلم فأتى إلى قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) فقال يكفى هذا وانصرف ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انصرف الرجل وهو فقيه » أخرجه أبو داود والنسائى في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو قال « أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أفرئني يا رسول الله ... الحديث » وفيه « وأقرأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رلرت حتى فرع منها فقال الرجل : والذى بيئت بك بالحق لا أريد عليهما أداً ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أطلع الرويحل أطلع الرويحل » ولأحمد والنسائى في الكبرى من حديث معصمة هم الذردق أنه صاحب النص فقال « حسى لا بألى أن لا أسمع غيرها » .

بها فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته ، ففي مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة ولذة المناجاة . ولذلك قال بعض الحكماء : كنت أقرأ القرآن فلا أحد له حلاوة حتى تلوته كأنى أسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوه على أصحابه ، ثم رفعت إلى مقام فوقه كنت أتلهه كأنى أسمع من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله عليه وسلم ، ثم جاء الله بميزة أخرى فأنا الآن أسمع من المتكلم به فعندها وجدت له لذة ونعما لأصبر عنه . وقال عثمان وحديفة رضى الله عنهما : لو ظهرت القلوب لم تشيع من قراءة القرآن ، وإنما قالوا ذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم فى الكلام . ولذلك قال ثابت البناني : كابدت القرآن عشرين سنة وتعمت به عشرين سنة وبمشاهدة المتكلم دون ماسواه يكون العبد ممثلا لقوله عز وجل ﴿ ففروا إلى الله ﴾ ولقوله ﴿ ولا تجعلوا مع الله لها آخر ﴾ فمن لم يره فى كل شيء فقد رأى غيره وكل ما التفت إليه العبد سوى الله تعالى تضمن التفاته شيئا من الشرك الخفى ، بل التوحيد الخالص أن لا يرى فى كل شيء إلا الله عز وجل . (العاشر) التبرى : وأعنى به أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بين الرضا والتزكية . فإذا تلا بآيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك بل يشهد الموقنين والصدقين فيها ويتشوق إلى أن يلحقه الله عز وجل بهم ، وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمفصرين شهد على نفسه هناك وقدر أنه المخاطب خوفا وإشفاقا . ولذلك كان اس عمر رضى الله عنهما يقول : اللهم إني أستغفرك لظلمى وكفرى ، فقيل له : هذا الظلم فما بال الكفر ؟ فتلا قوله عز وجل (إن الإنسان لظالم كفار) وقيل لبوسف ابن أسباط : إذا قرأت القرآن بماذا تدعو ، فقال : بماذا أدعو أستغفر الله عز وجل من نصصيرى سبعين مرة . فإذا رأى نفسه بصورة التقصير فى القراءة كان رؤيته سبب قرب به . فإن من شهد البعد فى القرب لطف به فى الخوف حتى يسوقه الخوف إلى درجة أخرى فى القرب وراها . ومن شهد القرب فى البعد مكربه بالأمن الذى يفضيه إلى درجة أخرى فى البعد أسفل مما هو فيه . ومهما كان مشاهدا بنفسه بعين الرضا صار محجوبا بنفسه ، فإذا جاوز حد الالتفات إلى نفسه ولم يشاهد إلا الله تعالى فى قراءته كشف له سر الملكوت . قال أوسليمان الداراني رضى الله عنه : وعدان ثوبان أخاله أن يفطر عنده فأبطأ عليه حتى طلع العجر فلقية أحوه من العد فقال له : وعدتى أنك تفطر عدى فأخلفت فقال لولا ميعادى معك ما أخبرتك الذى حبسى عنك ! إلى لما صليت العتمة قلت . أوتر قبل أن أجيئك لأنى لا آمن ما يحدث من الموت فلما كنت فى الدعاء من الوتر رفعت إلى روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة هازلت أنظر إليها حتى أصبحت . وهذه المكاشفات لا تكون إلا بعد التبرى عن النفس وعدم الالتفات إليها وإلى هواها ثم تخصص هذه المكاشفات بحسب أحوال المكاشف حيث يتلو آيات الرجاء ويعلل على حاله الاستبصار تنكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها عيانا وإن غلب عليه الخوف كوشف بالمار حتى يرى أنواع عذابها . وذلك لأن كلام الله عز وجل يشمل على السهل اللطيف والشديد العسوف والمرح والخوف وذلك بحسب أوصافه ، إذ منها الرحمة واللفظ والانتقام والبطش . فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب فى اختلاف الحالات ، وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ويقار بها ؛ إذ يستحيل أن يكون حالة المستمع واحدا والمسموع مختلفا إذ فيه كلام راض وكلام غضبان وكلام منعم وكلام منتقم وكلام جبار متكبر لا يبالى وكلام خنان متعطف لا بهل .

الباب الرابع : فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل

لعلك تقول : عظمت الأمر فيما سبق فى فهم أسرار القرآن وما ينكشف لأرباب القلوب الزكية من معانيه

فكيف يستحب ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار »^(١) ؟ وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المقصرين المنسوبين إلى التصوف في تأويل كلمات في القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين وذهبوا إلى أنه كفر فإن صح ما قاله أهل التفسير فامعنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره ؟ وإن لم يصح ذلك فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ؟ فاعلم أن من زعم أن لامعنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه وهو مصيب في الإخبار عن نفسه ، واسكنه مخطئ في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومخطئ بل الإخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن منه ما لأرباب الفهم^(٢) قال على رضى الله عنه : إلا أن يؤتى الله عبدا فهما في القرآن . فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا »^(٣) ، ويروى أيضا عن ابن مسعود موقوفا عليه وهو من علماء التفسير . فامعنى الظهر والبطن والحد والمطلع ؟ وقال على كرم الله وجهه : لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب . فامعناه وتفسير ظاهرها في غاية الاختصار ؟ وقال أبو الدرداء . لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وحوها . وقد قال بعض العلماء : لكل آية ستون ألف فهم وما يق من فهمها أكثر . وقال آخرون : القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم لذكر كل كلمة علم . ثم يتضاعف ذلك أربعة أصعاف إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع . وترديد رسول الله صلى الله عليه وسلم « بسم الله الرحمن الرحيم » عشرين مرة^(٤) ، لا يكون إلا لتدبره باطن معانيها وإلا فترجمتها وتفسيرها ظاهر لا يحتاج مثله إلى تكرير . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد علم الأولين والآخرين فليستدبر القرآن . وذلك لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر . وبالجملة فالعلوم كلها داخلية في أفعال الله عز وجل وصفاته ، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته : وهذه العلوم لانهاية لها ، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها . والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن . وبمجرد ظاهره التفسير لا يشير إلى ذلك ، بل كل ما أشكل فيه على النظر واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إلهيه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها . فكيف يفي بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره ؟ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اقرءوا القرآن واتمسوا غرائبه »^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم في حديث على كرم الله وجهه « والذي بعثني بالحق نبيا ليفترق أمتي عن أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل فإن فيه نبا من كان قبلكم ونبا ما يأتي بعدكم وحكم ما بينكم ، من خالفه من الجبابرة قصمه الله عز وجل ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله عز وجل وهو جبل الله المتين ونوره المبين وشفاه النافع ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستقيم ولا تنقض عجمائه ولا يخلقه كثرة الترديد »^(٦)

الباب الرابع : في فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل

- (١) حديث « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » تقدم في الباب الثالث من العلم
(٢) حديث « الذين الدالة على أن في معاني القرآن مقسما لأرباب الفهم » تقدم قول على في الباب « إلا أن يؤتى الله عبدا فهما في كتابه » .
(٣) حديث « إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا » تقدم في قواعد المقائيد (٤) حديث « تكرير النبي صلى الله عليه وسلم السبعة عشرين مرة » تقدم في الباب قبله .
(٥) حديث « اقرءوا القرآن واتمسوا غرائبه » أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وأبو يعلى الموصلي والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بلفظ « أقرءوا » وسنده ضعيف (٦) حديث على « والذي بعثني بالحق ليفترق أمتي عن أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله فإن فيه نبا من كان قبلكم ... الحديث » بطوله هو عند الترمذي دون ذكر افتراق الأمة لفظ « ألا لأنها ستكون فئة مضلة فقلت ما المخرج منها بإرسال الله قال كتاب الله فيه نبا من كان قبلكم » فذكره مع اختلاف وقال غريب وإسناده مجهول
(٣٧ — إحياء علوم الدين — ١)

الحديث وفي حديث حذيفة « لما أحبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والفرقة بعده قال : فقلت يا رسول الله فإذا تأمرني أن أدركت ذلك ؟ فقال : تعلم كتاب الله وأعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك ، قال : فأعدت عليه ذلك ثلاثاً ، فقال صلى الله عليه وسلم ثلاثاً . تعلم كتاب الله عز وجل وأعمل بما فيه ففيه النجاة ^(١) » وقال على كرم الله وجهه : من فهم القرآن فسر به جمل العلم ، أشار به إلى أن القرآن يشير إلى محامع العلوم كلها ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ يعنى الفهم فى القرآن . وقال عز وجل ﴿ ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً ﴾ سمي ما آتاهما علماً وحكماً وخصص ما انفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم وجعله مقدماً على الحكم والعلم . فهذه الأمور تدل على أن فى فهم معانى القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه . فأما قوله صلى الله عليه وسلم : « من فسر القرآن برأيه » ونهيه عنه ^(٢) صلى الله عليه وسلم وفول أبى بكر رضى الله عنه أى أرض تقلى وأى سماء تطلنى إذا قلت فى القرآن برأى ؟ إلى غير ذلك مما ورد فى الأخبار والآثار فى النهى عن تفسير القرآن بالرأى ، فلا يخلو إما أن يكون المراد به الاختصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالفهم . أو المراد به أمراً آخر * وباطل قطعاً أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما يسمعه لوجوه (أحدها) انه يشترط أن يكون ذلك مسموعاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومُسنداً إليه وذلك مما لا يصادف إلا فى بعض القرآن . فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغى أن لا يقبل ويقال هو تفسير بالرأى لأنهم لم يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا غيرهم من الصحابة رضى الله عنهم . (والثانى) أن الصحابة والمفسرين اختلفوا فى تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها ، وسماع جميعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم محال ، ولو كان الواحد مسموعاً لرد الباقي « فتبين على القطع أن كل مفسر قال فى المعنى بما ظهر له باستنباطه ، حتى قالوا فى الحروف التى فى أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها فقيل : إن « الر » هى حروف من الرحمن ، وقيل إن الألف الله واللام لطيف والراء رحيم وقيل غير ذلك . والجمع بين الكل غير ممكن فكيف يكون الكل مسموعاً ؟ (والثالث) أنه صلى الله عليه وسلم « دعا لابن عباس رضى الله عنه وقال : اللهم فقهه فى الدين وعلّمه التأويل ^(٣) » فإن كان التأويل مسموعاً كالتأويل ومحفوظاً مثله فامعنى تخصيصه بذلك ؟ (والرابع) أنه قال عز وجل (لعلّهم الذى يستنبطونه منهم) فأثبت لأهل العلم استنباطاً ، ومعلوم أنه وراء السماع . وحلّة ما نقلناه من الآثار فى فهم القرآن يناقض هذا الخيال فبطل أن يشترط السماع فى التأويل ، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله . وأما النهى فإنه ينزل على أحد وجهين ، أحدهما : أن يكون له فى الشئ رأى وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه ، ولولم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وهذا تارة يكون مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم انه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه . وتارة يكون مع الجهل ولكن إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذى

(١) حديث حذيفة فى الاختلاف والفرقة منه « فقلت ما تأمرنى أن أدركت ذلك ؟ قال : تعلم كتاب الله وأعمل بما

فيه ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائى فى الكبرى وفيه « تعلم كتاب الله واتبع ما به - ثلاث مرات - »

(٢) حديث « النهى عن تفسير القرآن بالرأى » غريب . (٣) حديث دعائه لابن عباس « اللهم فقهه فى الدين وعلّمه التأويل »

تقدم فى الباب الثانى من العلم .

يوافق غرضه ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ، فيكون قد فسر برأيه أى رأيه هو الذى حمله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه . وتارة قد يكون له غرض صحيح يطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه مما يعلم أنه ما يريد به كمن يدعو إلى الاستعصار بالأسحار فيستدل بقوله صلى الله عليه وسلم « تسحر وافان في السحور بركة »^(١) ، ويزعم أن المراد به التسحر بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل ، وكذلك يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله عز وجل « اذهب إلى فرعون إنه طغى » ويشير إلى قلبه ويؤمى إلى أنه المراد بفرعون وهذا الخنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع وهو ممنوع . وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغريب الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة به . فهذه الفنون أحد وجهى الملع من التفسير بالرأى .. ويكون المراد بالرأى الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح والرأى يتناول الصحيح والفاسد والموافق للهوى قد يخصص باسم الرأى . والوجه الثانى أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المهمة والمبدلة وما فيه من الاختصار والحدف والإحصار والتقديم والتأخير . فمن لم يحكم بظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلظه ودخل في زمرة من يفسر بالرأى . فالنقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أو لا ليتقى به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط . والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ، ونحن نرمن إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها ويعلم أنه لا يحوز التهاون بحفظ التفسير الطاهر أولاً . ولا مطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر . ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب . أو يدعى فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك . فان ظاهر التفسير يجرى مجرى تعليم اللغة التى لا بد منها للفهم . وما لا بد فيه من السماع فنون كثيرة : منها الإيجاز بالحدف والإحصار كقوله تعالى « وآتيناهم ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها » معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها ، فانناظر إلى ظاهر العربية يطن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء ، ولم يدرك أنهم بماذا ظلموا غيرهم أو أنفسهم . وقوله تعالى « وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم » أى حب العمل ، لحذف الحب وقوله عز وجل « لاذنالك ضعف الحياة وضعف المات » أى ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى لحذف العذاب ، وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة والموت وكل ذلك جائز في فصيح اللغة . وقوله تعالى (واستل القرية التى كنا فيها والغير التى أقبلنا فيها) أى أهل الغير فالأهل فيهما محذوف مضمرة . وموله عز وجل (ثقلت فى السموات والأرض) معناه خفيت على أهل السموات والأرض والشئ إذا خفي ثقل وأبدل اللفظ به وأقيم (فى) مقام (على) وأضمر الأهل وحذف . وقوله تعالى (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) أى شكر رزقكم وقوله عز وجل (آتانا ما وعدتنا على رسلك) أى على السنة رسلك فحذف السنة وقوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) أراد القرآن وما سبق له ذكر . وقال عز وجل (حتى توارت بالحجاب) أراد الشمس وما سبق لها ذكر . وقوله تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) أى يقولون ما نعبدهم . وقوله عز وجل (فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ما أصابك من حسنة من الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) معناه لا يفقهون حديثاً يقولون ما أصابك من حسنة فمن الله فان لم يرد هذا كان مناقضا لقوله (قل كل من عند الله) وسبق إلى الفهم منه مذهب القدرية . ومنها المنقول المنقلب كقوله تعالى (وطور سينين) أى طور

(١) حديث « تسحروا فإن فى السحور بركة » تقدم فى الباب الثالث من العلم .

سيناء (سلام على آل ياسين) أى على الياس وقيل لإدريس ، لأن فى حرف ابن مسعود ﴿سلام على إدراسين﴾ ومنها المكرر القاطع لوصول الكلام فى الظاهر كقوله عز وجل ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن﴾ وقوله عز وجل ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾ معناه: الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا ومنها المقدم والمؤخر وهو مطنة الغلط كقوله عز وجل ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى﴾ معناه لولا الكلمة وأجل مسمى لكان لزاما ولولاه لكان نصبا كاللزام وقوله تعالى ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ أى يسألونك عنها كأنك حفي بها وقوله عز وجل (لهم مغفرة ورزق كريم كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) فهذا الكلام غير متصل وإنما هو عائد إلى قوله السابق (قل الانفال لله والرسول - كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) أى فصارت أنفال الغنائم لك إذ أنت راض بخروجك وهم كارهون فاعترض بين الكلام الأمر بالتقوى وغيره ومن هذا النوع قوله عز وجل (حتى تؤمنوا بالله وحده لإلا قول إبراهيم لأبيه) الآية . ومنها المبهم وهو اللفظ المشترك بين معان من كلمة أو حرف . أما الكلمة فكأشياء والقرين والأمة والروح ونظائرها قال الله تعالى (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يصدر على شيء) أراد به النفقة مما رزق وقوله عز وجل (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء) أى الأمر بالعدل والاستقامة وقوله عز وجل (فان اتبعنى فلا تسألنى عن شيء) أراد به من صفات الربوبية ، وهو العلوم التى لا يحل السؤال عنها حتى يبتدئ بها العارف فى أوان الاستحقاق . وقوله عز وجل (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) أى من غير خالق فر بما توهم به أنه يدل على أنه لا يخلق شيء إلا من شيء . وأما القرين فكقوله عز وجل ﴿وقال قرينه هذا ما لدى عتيد ألقيا فى جهنم كل كفار﴾ أراد به الملك الموكل به وقوله تعالى (قال قرينه رنا ما أطغيته ولكن كان) أراد به الشيطان . وأما الأمة فتطلق على ثمانية أوجه ، الأمة : الجماعة كقوله تعالى (وجد عليه أمة من الناس يسقون) وألباع الأنبياء كقولك عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ورحل حامع للخير يقتدى به كقوله تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله) والأمة : الدين كقوله عز وجل (إنا وحدنا آباءنا على أمة) والأمة : الحين والزمان كقوله عز وجل ﴿إلى أمة معدودة﴾ وقوله عز وجل (وادكر بعد أمة) والأمة : القامة يقال فلان حسن الأمة أى القامة ، وأمة : رجل منفرد بدين لا يشركه فيه أحد قال صلى الله عليه وسلم «يبحث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده»^(١) ، والأمة يقال هذه أمة زيد أى أم زيد . والروح أيضا ورد فى القرآن على معان كثيرة فلا نطول بإيرادها . وكذلك قد يقع الإيهام فى الحروف مثل قوله عز وجل (فأثرن به فقها فوسطن به جمعا) فالهاء الأولى : كناية عن الخوافر وهى المسوريات أى أثرن بالخوافر فقها والثانية : كناية عن الإغارة وهى المغيرات صبحا فوسطى به جمعا جمع المشركون فأغاروا بجمعهم وقوله تعالى (فأنزلنا به الماء) يعنى السحاب ﴿فأخرجنا به من كل الثمرات﴾ يعنى الماء . وأمثال هذا فى القرآن لا ينحصر . ومنها التدريج فى البيان كقوله عز وجل ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن﴾ إذ لم يظهر به أنه ليل أو نهار ، وبأن بقوله عز وجل (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) ولم يظهر به أى ليلة فظهر بقوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) وربما يظن فى الظاهر الاختلاف بين هذه الآيات ، فهذا وأمثاله مما لا يغنى فيه إلا النقل والسماع فالقرآن من أوله إلى آخره غير خال عن هذا الجنس لأنه أنزل بلغة العرب فكان مستملا على أصناف كلامهم من إيجاز وتطويل وإضمار وحذف وإبدال وتقديم وتأخير ، ليكون ذلك مفهوما لهم ومعجزا فى حقهم . فكل من اكتفى بفهم ظاهر العربية وبادر إلى تفسير القرآن ولم يستظهر بالسماع والنقل فى هذه الأمور فهو داخل فىمن فسر القرآن برأيه . مثل أن يفهم من الأمة المعنى الأشهر منه فبمبطل طبعه ورأيه البه فاذا سمعه فى موضع آخر مال برأيه إلى ماسمعه من مشهور

(١) حديث «يبحث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده» أخرجه النسائي فى الكبرى من حديث زيد بن حارثة وأسماء بنت أبى بكر يساندان بن جبير بن

معناه وترك تتبع النقل في كثير معانيه فهذا ما يمكن أن يكون منهيًا عنه دون التفهم لأسرار المعاني - كما سبق - فإذا حصل السماع بأمثال هذه الأمور علم ظاهر التفسير وهو ترجمة الألفاظ . ولا يكتفي ذلك في فهم حقائق المعاني . ويدرك الفرق بين حقائق المعاني وظاهر التفسير بمثال : وهو أن الله عز وجل قال ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فظاهره تفسير واضح وحقيقة معناه غامض . فإنه إثبات للرعى ونفى له . وهما متضادان في الظاهر مالم يفهم أنه رمى من وجه ولم يرم من وجه ومن الوجه الذي لم يرم رماه الله عز وجل . وكذلك قال تعالى ﴿ قاتلهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾ فإذا كانوا هم المقاتلين كيف يكون الله سبحانه هو المعذب ؟ وإن كان الله تعالى هو المعذب بتحريك أيديهم فما معنى أمرهم بالقتال ؟ لحقيقة هذا يستمد من بحر عظيم من علوم المكاشفات لا يغني عنه ظاهر التفسير وهو أن يعلم وجه ارتباط الأفعال بالقدرة الحادثة . ويفهم وجه ارتباط القدرة بقدرة الله عز وجل حتى ينكشف - بعد إيضاح أمور كثيرة غامضة - صدق قوله عز وجل ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ ولعل العمر لو أنفق في استكشاف أسرار هذا المعنى وما يرتبط بمقدماته ولواحقه لانقضي العمر قبل استيفاء جميع لواحقه وما من كلبة من القرآن إلا وتحقيقها محوج إلى مثل ذلك . وإنما ينكشف للراغبين في العلم من أسرار به قدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب . ويكون لكل واحد حد في الترقى إلى درجة أعلى منه . فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاماً فأسرار كلمات الله لانهية لما فتتفد الأبهر قبل أن تنفذ كلمات الله عز وجل . فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير وظاهر التفسير لا يغني عنه . ومثاله فهم بعض أرباب القلوب من قوله صلى الله عليه وسلم في سجوده أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ^(١) ، أنه قبل له الجهد واقترب فوجد القرب في السجود فنظر إلى الصفات فاستعاذ ببعضها من بعض ؛ فإن الرضا والسخط وصفان ثم زاد قربه فاندرج القرب الأول فيه فرقى إلى الذات فقال « أعوذ بك منك » ثم زاد قربه بما استجيا به من الاستعاذة على لسان القرب فالتجأ إلى الثناء فأثنى بقوله « لا أحصى ثناء عليك » ثم علم أن ذلك قصور فقال « أنت كما أثنيت على نفسك » فهذه خواطر تفتح لأرباب القلوب . ثم لها أغوار ورام هذا وهو فهم معنى القرب واختصاصه بالسجود ومعنى الاستعاذة من صفة بصفة ومنه به . وأسرار ذلك كثيرة : ولا يدل تفسير ظاهر عليه وليس اللفظ هو مناقضا لظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه عن ظاهره فهذا ما نوردته لفهم المعاني الباطنة لاما يناقض الظاهر والله أعلم . تم كتاب : آداب التلاوة . والحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين وعلى آل محمد وصحبه وسلم . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب : الأذكار والدعوات . والله المستعان لأرب سواه .

كتاب الأذكار والدعوات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الشاملة رأفته العامة رحمته الذي جازى عباده عن ذكرهم بذكرهم فقال تعالى (فاذكروني أذكركم)

(١) حديث « قوله صلى الله عليه وسلم في سجوده أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعافاتك من عقوبتك ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة .

أما بعد : فلبس بعد تلاوه كتاب الله عز وجل عبادة تؤدي باللسان أفضل من ذكر الله تعالى ورفع الحاجات بالادعية الخالصة إلى الله تعالى . فلاಿದೆ من شرح فضيلة الذكر على الجملة ثم على التفصيل في أعيان الأذكار . وشرح فضيلة الدعاء وشروطه وآدابه ونقل المأثور من الدعوات الجامعة لمقاصد الدين والدنيا والدعوات الخاصة لسؤال المغفرة والاستعاذة وغيرها . ويتحزّر المقصود من ذلك بذكر أبواب خمسة (الباب الأول) في فضيلة الذكر وفائدته جملة وتفصيلا (الباب الثاني) في فضيلة الدعاء وآدابه وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . (الباب الثالث) في أدعية مأثورة ومعزية إلى أصحابها وأسبابها (الباب الرابع) في أدعية منتجة ورفعة الإسناد من الأدعية المأثورة (الباب الخامس) في الأدعية المأثورة عند حدوث الحوادث .

ويدل على فضيلة الذكر على الجملة من الآيات : قوله سبحانه وتعالى (فاذكروني أذكركم) قال ثابت البناني رحمه الله : إني أعلم متى يدكرني ربّي عز وجل ، ففزعوا منه وقالوا . كيف تعلم ذلك ؟ فقال : إذا ذكرته ذكرني . وقال تعالى (اذكروا الله ذكرا كثيرا) وقال تعالى (فإذا أفضتكم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم) وقال عز وجل (فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا الله كدكركم آبائكم أو أشد ذكرا) وقال تعالى (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) وقال تعالى (فإذا قضيتُم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي بالليل والنهار في البر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر والمرض والصحة والسر والعلاية . وقال تعالى في ذم المنافقين (ولا يذكرون الله إلا قليلا) وقال عز وجل (واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) وقال تعالى (ولذكر الله أكبر) قال ابن عباس رضي الله عنهما : له وجهان أحدهما أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه ، والآخر : أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه . إلى غير ذلك من الآيات . وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذاكر الله في الغافلين كالمتقاتل بين الفارين ، وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفثاه في (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل ، قالوا يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ثم

(١) حديث « ذاكر الله في الماءين كالشجرة المعمره في وسط الهشم » أخرجه أبو نعم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقال « في وسط الشجر » الحديث . (٢) حديث « يقول الله تعالى أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه » أخرجه البيهقي وابن حبان من حديث أبي هريرة والحاكم من حديث أبي البرداء وقال صحيح الإسناد

تضرب به حتى ينقطع ، ثم تضرب به حتى ينقطع ^(١) فقال صلى الله عليه وسلم « من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل ^(٢) » وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الأعمال أفضل ؟ فقال : أن تموت ولسانك رطب بذكر الله عز وجل ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أصبح وأمس ولسانك رطب بذكر الله تصبح وتمسى وليس عليك خطيئة ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « لذكر الله عز وجل بالغداة والعشي أفضل من حطم السيوف في سبيل الله ومن إعطاء المسال سبعا ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تبارك وتعالى إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي وإذا ذكرني في ملاء خبير من ملئه وإذا تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا وإذا تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا وإذا مشى إلى هرولت إليه ^(٦) » ، يعنى بالهرولة سرعة الإجابة . وقال صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله عز وجل في ظله يوم لا ظل إلا ظله - من جملتهم - رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله ^(٧) » وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الورق والذهب وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم قالوا وما ذلك يا رسول الله ؟ قال ذكر الله عز وجل دائما ^(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ^(٩) » وأما الآثار : فقد قال الفضيل : بلغنا أن الله عز وجل قال عبدي إذا ذكرني بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما . وقال بعض العلماء : إن الله عز وجل يقول أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه . وقال الحسن الذكر ذكر الله عز وجل بين نفسك وبين الله عز وجل ما أحسنه وأعظم أجره وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند ما حرم الله عز وجل . ويروى « إن كل نفس تخرج من الدنيا عطشى إلا إذا ذكر الله عز وجل » وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : ليس يتحصر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرت بهم لم يدكروا الله سبحانه فيها ، والله تعالى أعلم .

- (١) حديث « ما عمل ابن آدم من عمل أحبى له من عذاب الله من ذكر الله قالوا يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب سيمك حتى يقطع - ثلاث مرات - أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والطبراني من حديث معاذ بإسناد حسن (٢) حديث « من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى » أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف ورواه الطبراني في الدعاء من حديث أنس وهو عند الترمذى بلفظ « إذا صرتم رياض الجنة فارتعوا » وقد تقدم في الباب الثالث من العلم (٣) حديث « سئل أى الأعمال أفضل ؟ قال أن تموت ولسانك رطب بذكر الله تعالى » أخرجه ابن حبان والطبراني في الدعاء والبيهقي في الشعب من حديث معاذ (٤) حديث « أمس وأصبح ولسانك رطب بذكر الله تصبح وتمسى وليس عليك خطيئة » أخرجه أبو القاسم الأنصاري في الترعيب والترهيب من حديث أنس « من أصبح وأمس ولسانه رطب من ذكر الله يمضى ويصبح وليس عليه خطيئة » وفيه من لا يبرف (٥) حديث « لذكر الله بالغداة والعشي أفضل من حطم السيوف في سبيل الله ومن إعطاء المسال سبعا » رويناه من حديث أنس بسند ضعيف في الأصل وهو معروف من قول ابن عمر كما رواه ابن عبد البر في التمهيد . (٦) حديث « قال الله عز وجل إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٧) حديث « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله - من جملتهم - رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » متفق عليه من حديث أبي هريرة أيضاً (٨) حديث « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم وأرفعها في درجاتكم .. الحديث » أخرجه الترمذى والحاكم وابن ماجه وصححه إسناده من حديث أبي الدرداء (٩) حديث « قال الله تعالى من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » أخرجه البخارى في التاريخ والزارى في المسند والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب وفيه صفوان بن أبي الصفا ذكره ابن حبان في الضعفاء وفي الثقات أيضاً

فضيلة مجالس الذكر

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله عز وجل إلا حفت بهم الملائكة وغشبتهم الرحمة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفوراً لكم قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات ^(٢) » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله سبحانه وتعالى فيه ولم يصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة ^(٣) » وقال داود صلى الله عليه وسلم: إلهي إذا رأيتني أحاوز مجالس الذاكرين إلى مجالس الغافلين فاكسر رجلي دونهم فإنها نعمة تنعم بها علي . وقال صلى الله عليه وسلم « المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفي مجلس من مجالس السوء ^(٤) » وقال أبو هريرة رضي الله عنه إن أهل السماء ليتراءون بيوت أهل الأرض التي يذكر فيها اسم الله تعالى كما تراءى النجوم . وقال سفيان بن عيينة رحمه الله إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى اعتزل الشيطان والدنيا فيقول الشيطان للدنيا : ألا ترين ما يصنعون ؟ فيقول الدنيا : دعهم فإنهم إذا تفرقوا أخذت بأعناقهم إليك . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه دخل السوق وقال : أراكم ههنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم في المسجد ؟ فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق فلم يروا ميراثاً ، فقالوا : يا أبا هريرة ما رأينا ميراثاً يقسم في المسجد ؟ قال : فماذا رأيتم ؟ قالوا : رأينا قوماً يذكرون الله عز وجل ويقروءون القرآن ، قال . وذلك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٥) وروى الأعمش عن أنى صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن لله عز وجل ملائكة سياحين في الأرض فضلا عن كتاب الناس فإذا وحدوا قوماً يذكرون الله عز وجل تنادوا هلموا بغيتكم فيحيثون فيحفون بهم إلى السماء فيقول الله تبارك وتعالى . أي شيء تركتم عبادي يصنعونه فيقولون تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويسبحونك فيقول الله تبارك وتعالى وهل رأوني فيقولون لا فيقول جل جلاله كيف لو رأوني فيقولون لو رأوك لكانوا أشد تسبيحاً وتحميداً وتمجيذاً . فيقول لهم من أي شيء يتعوزون فيقولون من النار فيقول تعالى وهل رأوها فيقولون لا فيقول الله عز وجل فكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد هرباً منها وأشد نفوراً فيقول الله عز وجل وأى شيء يطلبون فيقولون الجنة فيقول تعالى وهل رأوها فيقولون لا فيقول تعالى فكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً . فيقول جل جلاله إني أشهدكم أني قد غفرت لهم فيقولون كان فيهم فلان لم يردهم إنما جاء حاجة فيقول الله عز وجل هم القوم لا يشقى جلسهم ^(٦) » .

(١) حديث « ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله تعالى إلا حفت بهم الملائكة وعشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .
 (٢) حديث « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفوراً لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات » أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني بسند ضعيف من حديث أنس .
 (٣) حديث « ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله ولم يصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم فيه إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة » أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة .
 (٤) حديث « المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفي مجلس من مجالس السوء » ذكره صاحب الفردوس من حديث ابن وداعة وهو مرسل ولم يخرج له ولده وكذلك لم أجده له إسناداً .
 (٥) حديث أبي هريرة « أنه دخل السوق وقال أراكم ههنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم في المسجد فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق ... الحديث » أخرجه الطبراني في المعجم الصغير بإسناد فيه جهالة أو انقطاع .
 (٦) حديث الأعمش عن أنى صالح عن أبي هريرة أو أبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وسلم « أنه قال إن لله عز وجل ملائكة سياحين في الأرض فضلا عن كتاب الناس ... الحديث » رواه الترمذي من هذا الوجه والحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة وحده وقد تقدم في الباب الثالث من العلم

فضيلة التهليل

قال صلى الله عليه وسلم « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد توشأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم كأنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رءوسهم من التراب ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً لأبي هريرة « يا أبا هريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة إلا شهادة أن لا إله إلا الله فإياها لا توضع في ميزان ، لأنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقا ووضعت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن كان لا إله إلا الله أرجح من ذلك ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم (لو جاء قائل لا إله إلا الله صادقا بقراب الأرض ذنوبا لعصر الله له ذلك ^(٦)) وقال صلى الله عليه وسلم (يا أبا هريرة لقن الموتى شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تهدم الذنوب هدما ، قلت يا رسول الله هذا للموتى فكيف للأحياء قال صلى الله عليه وسلم : هي أهدم وأهدم ^(٧)) وقال صلى الله عليه وسلم (من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة ^(٨)) وقال صلى الله عليه وسلم (لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرده عن الله عز وجل شراد البعير عن أهله ف قيل يا رسول الله من الذى أبى ويشرد عن الله قال من لم يقل لا إله إلا الله ^(٩)) فأكثرُوا من قول لا إله إلا الله قبل أن

- (١) حديث « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله ... الحديث » تقدم في الباب الثاني من الحج
 (٢) حديث « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة . . الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣) حديث « مامن عبد توشأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله . . الحديث » أخرجه من حديث عقبة بن عامر وقد تقدم في الطهارة .
 (٤) حديث « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في النشور . . الحديث » أخرجه أبو يعلى والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف (٥) حديث « يا أبا هريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة إلا شهادة أن لا إله إلا الله فإياها لا توضع في ميزان ؛ لأنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقا ووضعت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن كان لا إله إلا الله أرجح من ذلك » قلت وصية أبي هريرة هذه موضوعة . وآخر الحديث رواه المستغفرى في الدعوات « ولو جعلت لا إله إلا الله » وهو معروف من حديث أبي سعيد مرفوعا « لو أن السموات السبع والأرضين السبع في كفة مالت بهن لا إله إلا الله » رواه النسائي في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وصححه .
 (٦) حديث « لو جاء حامل لا إله إلا الله صادقا بقراب الأرض ذنوبا لعصر الله له » غريب بهذا اللفظ . ولا ترمذى في حديث لأنس « يقول الله يا بن آدم لك لو أتيتني بقراب الأذى خطايا ثم أتيتني لأتبرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها معفرة » ولأبي الشيخ في الثواب من حديث أنس « يارب ماجزاه من همل مخلصا من قلبه قال جبرائيل أن يكون كيوم ولدته أمه من الذنوب » وفيه انقطاع .
 (٧) حديث « يا أبا هريرة لقن الموتى شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تهدم الذنوب ... الحديث » أخرجه أبو مسعود الدلبلى في مسند امرئوس من طريق ابن المقرئ من حديث أبي هريرة وفيه موسى ابن وردان مختلف فيه ورواه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في المختصرين من حديث الحسن مرسلا (٨) حديث « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة » أخرجه الطبراني من حديث ريد بن أرقم بإسناد ضعيف (٩) حديث « لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرده عن الله شرود البعير على أهله » أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة « كل أتى يدخلون الجنة إلا من أبى » زاد الحاكم وصححها « وشرده عن الله شرود البعير على أهله » قال البخارى « قالوا يا رسول الله ومن أبى قال من أطاعنى دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » ولأن عدى وأبى يعلى والطبراني في الدعاء من حديثه « أكثرُوا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها » وفيه ابن وردان أيضاً ، ولأبى الشيخ في الثواب من حديث الحكم بن عمير التمسلى مرسلا « إذا قلت لا إله إلا الله وهي كلمة =

يحال بينكم وبينها فإنها كلمة التوحيد وهي كلمة الإخلاص وهي كلمة التقوى وهي كلمة طيبة وهي دعوة الحق وهي العروة الوثقى وهي ثمن الجنة ، وقال الله عز وجل ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ فقيل الإحسان في الدنيا قول لا إله إلا الله وفي الآخرة الجنة . وكذا قوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ وروى البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير - عشر مرات - كانت له عدل رقبة أو قال نسمة ^(١) » وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال في يوم مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لم يسبقه أحد كان قبله ولا يدرکه أحد بعده إلا من عمل بأفضل من عمله ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال في سوق من الأسواق لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتا في الجنة » وروى « إن العبد إذا قال لا إله إلا الله أتمت إلى صحيفته فلا تمر على خطيته إلى محتها حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إلى جنبها ^(٣) » وفي الصحيح عن أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل صلى الله عليه وسلم ^(٤) » وفي الصحيح أيضا عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من تعاز من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم قال اللهم اغفر لي غفر له أو دعا استجيب له فإن تضرعا وصلى قبلت صلاته ^(٥) » .

فضيلة التسبيح والتحميد وبقيّة الأذكار

قال صلى الله عليه وسلم « من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد ثلاثا وثلاثين وكبر ثلاثا وثلاثين وختم المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر ^(٦) » وقافى صلى الله عليه وسلم « من قال سبحان الله وبحمده في اليوم مائة مرة حطت عنه خطايا وإن كانت مثل زبد البحر ^(٧) » وروى « أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : تولى عن الدنيا وقلت ذات

= التوحيد ... الحديث « والحكم ضعيف ، ولأن بكر بن الصالح في الشبان من حديث ابن مسعود في إجابة المؤذن « اللهم رب هذه الدعوة الجاهة المستجاب لها دعوة الحق وكلمة الإخلاص » ولأن عدى من حديث ابن عمر في إجابة المؤذن « دعوة الحق » والطبراني في الدعاء عن عبد الله بن عمرو « كلمة الإخلاص لا إله إلا الله ... الحديث » والطبراني من حديث سلمة بن الأكوع « وألزمهم كلمة التقوى قال : لا إله إلا الله » والطبراني في الدعاء عن ابن عباس « كلمة طيبة قال شهادة أن لا إله إلا الله » وله عنه في قوله « دعوة الحق » قال « شهادة أن لا إله إلا الله » وله عنه « وقد استمسك بالعروة الوثقى » قال « لا إله إلا الله » ولأن عدى والمستغفر من حديث أنس « ثمن الجنة لا إله إلا الله » ولا يصح شيء منها ^(١) حديث البراء « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... الحديث » أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وهو في مسند أحمد دون قوله « عشر مرات » .

^(٢) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أنه صلى الله عليه وسلم قال من قال في كل يوم مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... الحديث » أخرجه أحمد بلفظ « مائة » وكذا رواه الحاكم في المستدرک وسنده جيد وهكذا هو في بعض نسخ الإحياء .

^(٣) حديث « إن العبد إذا قال لا إله إلا الله أتت إلى صحيفته فلا تمر على خطيته إلا تحتها حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إليها » أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف ^(٤) حديث أبي أيوب « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل » متفق عليه ^(٥) حديث عبادة بن الصامت « من تعاز من الليل فقال لا إله إلا الله ... الحديث » رواه البخاري ^(٦) حديث « من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ^(٧) حديث « من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطايا وإن كانت مثل زبد البحر » متفق عليه من حديث أبي هريرة

(۸) حدیث سمرہ بن حذیب «أحب الكلام إلى الله أربع .. الحديث» رواه مسلم .

وروى أبو مالك الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والله أكبر يملآن ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فوبقها أو مشتر نفسه فمعتقها ^(١) » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كُتبتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ^(٢) » وقال أبو ذر رضي الله عنه « قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الكلام أحب إلى الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم ما اصطفى الله سبحانه للملائكة : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ^(٣) » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى اصطفى من الكلام : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ^(٤) » فإذا قال العبد « سبحان الله » كتبت له عشرون حسنة وتحط عنه عشرون سيئة وإذا قال « الله أكبر » فمثل ذلك وذكر إلى آخر الكلمات . وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة ^(٥) » وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : قال الفقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم « ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم فقال : أو ليس قد جعل لكم ما تصدقون به ؟ إن بكل تسبيحة صدقة وتحميدة صدقة وتهليل صدقة وتكبيرة صدقة وأمر بمعروف صدقة ونهي عن منكر صدقة ويضع أحدكم اللقمة في في أهله فهي له صدقة . وفي بضع أحدكم صدقة . قالوا يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ قالوا : نعم . قال : كذلك إن وضعها في الحلال كان له فيها أجر ^(٦) » وقال أبو ذر رضي الله عنه : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم « سبق أهل الأموال بالأجر يقولون كما نقول وينفقون ولا تنفق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلا أدلك على عمل إذا أنت عملته أدركت من قبلك وفقت من بعدك إلا من قال مثل قولك ؟ تسبح الله بعد كل صلاة ثلاثا وثلاثين وتحمده ثلاثا وثلاثين وتكبر أربعاً وثلاثين ^(٧) » وروى بسرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « عليكم بالتسبيح والتهليل والتقديس فلا تغفلن واعقدن بالأنامل فإنها مستطقات ^(٨) » يعنى بالشهادة في القيامة . وقال ابن عمر : رأيته صلى الله عليه وسلم يعقد التسبيح ^(٩) » وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما شهد عليه أبو هريرة وأبو سعيد الخدري « إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر قال الله عز وجل صدق عبدي لا إله إلا أنا وأنا أكبر وإذا قال العبد : لا إله إلا الله وحده لا شريك له قال تعالى صدق عبدي لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي ، وإذا قال لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة

(١) حديث أن مالك الأشعري « الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان .. الحديث » رواه مسلم وقد تقدم في الطهارة
(٢) حديث أبي هريرة « كُتبتان خفيفتان على اللسان .. الحديث » متفق عليه (٣) حديث أبي ذر « أى الكلام أحب إلى الله قال ما اصطفى الله للملائكة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » رواه مسلم وأبو داود والنسائي « قوله سبحان الله العظيم » .
(٤) حديث « إن الله اصطفى من الكلام سبحان الله والحمد لله .. الحديث » أخرجه النسائي في اليوم والليلة والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد إلا أنها قالوا في ثواب الحمد لله « كتبت له ثلاثون حسنة وحطت عنه ثلاثون سيئة » (٥) حديث جابر « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة » أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه (٦) حديث أبي ذر « قال الفقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم فقال : أو ليس قد جعل لكم ما تصدقون به ؟ إن بكل تسبيحة صدقة وتحميدة صدقة وتهليل صدقة وتكبيرة صدقة وأمر بمعروف صدقة ونهي عن منكر صدقة ويضع أحدكم اللقمة في في أهله فهي له صدقة . وفي بضع أحدكم صدقة . قالوا يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ قالوا : نعم . قال : كذلك إن وضعها في الحلال كان له فيها أجر ^(٦) » وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما شهد عليه أبو هريرة وأبو سعيد الخدري « إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر قال الله عز وجل صدق عبدي لا إله إلا أنا وأنا أكبر وإذا قال العبد : لا إله إلا الله وحده لا شريك له قال تعالى صدق عبدي لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي ، وإذا قال لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة

(١) حديث أن مالك الأشعري « الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان .. الحديث » رواه مسلم وقد تقدم في الطهارة
(٢) حديث أبي هريرة « كُتبتان خفيفتان على اللسان .. الحديث » متفق عليه (٣) حديث أبي ذر « أى الكلام أحب إلى الله قال ما اصطفى الله للملائكة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » رواه مسلم وأبو داود والنسائي « قوله سبحان الله العظيم » .
(٤) حديث « إن الله اصطفى من الكلام سبحان الله والحمد لله .. الحديث » أخرجه النسائي في اليوم والليلة والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد إلا أنها قالوا في ثواب الحمد لله « كتبت له ثلاثون حسنة وحطت عنه ثلاثون سيئة » (٥) حديث جابر « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة » أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه (٦) حديث أبي ذر « قال الفقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم فقال : أو ليس قد جعل لكم ما تصدقون به ؟ إن بكل تسبيحة صدقة وتحميدة صدقة وتهليل صدقة وتكبيرة صدقة وأمر بمعروف صدقة ونهي عن منكر صدقة ويضع أحدكم اللقمة في في أهله فهي له صدقة . وفي بضع أحدكم صدقة . قالوا يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ قالوا : نعم . قال : كذلك إن وضعها في الحلال كان له فيها أجر ^(٦) » وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما شهد عليه أبو هريرة وأبو سعيد الخدري « إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر قال الله عز وجل صدق عبدي لا إله إلا أنا وأنا أكبر وإذا قال العبد : لا إله إلا الله وحده لا شريك له قال تعالى صدق عبدي لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي ، وإذا قال لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة

(١) حديث أن مالك الأشعري « الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان .. الحديث » رواه مسلم وقد تقدم في الطهارة
(٢) حديث أبي هريرة « كُتبتان خفيفتان على اللسان .. الحديث » متفق عليه (٣) حديث أبي ذر « أى الكلام أحب إلى الله قال ما اصطفى الله للملائكة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » رواه مسلم وأبو داود والنسائي « قوله سبحان الله العظيم » .
(٤) حديث « إن الله اصطفى من الكلام سبحان الله والحمد لله .. الحديث » أخرجه النسائي في اليوم والليلة والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد إلا أنها قالوا في ثواب الحمد لله « كتبت له ثلاثون حسنة وحطت عنه ثلاثون سيئة » (٥) حديث جابر « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة » أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه (٦) حديث أبي ذر « قال الفقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم فقال : أو ليس قد جعل لكم ما تصدقون به ؟ إن بكل تسبيحة صدقة وتحميدة صدقة وتهليل صدقة وتكبيرة صدقة وأمر بمعروف صدقة ونهي عن منكر صدقة ويضع أحدكم اللقمة في في أهله فهي له صدقة . وفي بضع أحدكم صدقة . قالوا يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ قالوا : نعم . قال : كذلك إن وضعها في الحلال كان له فيها أجر ^(٦) » وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما شهد عليه أبو هريرة وأبو سعيد الخدري « إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر قال الله عز وجل صدق عبدي لا إله إلا أنا وأنا أكبر وإذا قال العبد : لا إله إلا الله وحده لا شريك له قال تعالى صدق عبدي لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي ، وإذا قال لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة

إلا بالله يقول الله سبحانه صدق عبدى لاحول ولا قوة إلا بالله ومن قالهن عند الموت لم تمسه النار^(١)، وروى مصعب ابن سعد عن أبيه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «أعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة فقيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم: يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ويحط عنه ألف سيئة^(٢)». وقال صلى الله عليه وسلم «يا عبد الله بن قيس - أو يا أبا موسى - ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ قال: بلى، قال: قل لاحول ولا قوة إلا بالله^(٣)» وفي رواية أخرى «ألا أعلمك كلمة من كنز تحت العرش: لاحول ولا قوة إلا بالله»، وقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا أدلك على عمل من كنوز الجنة من تحت العرش قول لاحول ولا قوة إلا بالله يقول الله تعالى أسلم عبدى واستسلم^(٤)»، وقال صلى الله عليه وسلم «من قال حين يصبح رضى الله ربا وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً رسولاً كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة^(٥)» وفي رواية «من قال ذلك رضى الله عنه»، وقال مجاهد إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله، قال الملك: هديت؛ فإذا قال: توكلت على الله، قال الملك: كفيت. وإذا قال: لاحول ولا قوة إلا بالله، قال الملك: وقيت فتتفرق عنه الشياطين فيقولون ماتريدون من رحل قد هدى وكفى ووقى؟ لاسبيل لكم إليه. «فإن قلت: فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها؟ فاعلم أن تحقيق هذا لا يليق إلا بعلم المكاشفة. والقدر الذى يسمح بذكره في علم المعاملة: أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى. وفي الأخبار ما يدل عليه أيضاً^(٦) وحضور القلب في لحظة بالذكر والذهول عن الله عز وجل مع الاشتغال بالدنيا أيضاً قليل الجدوى. بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أوفى أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية. والذكر أول وآخر؛ فأوله يوجب الأناش والحب لله وآخره يوجب الأناش والحب ويصدر عنه، والمطلوب ذلك الأناش والحب. فإن المريد في بداية أمره قد يكون متكلفاً بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس إلى ذكر الله عز وجل. فإن وفق للمداومة أنس به وانغرس في قلبه حب المذكر. ولا ينبغي أن يتعجب من هذا فإن من المشاهد في العبادات أن تذكر غائباً غير مشاهد بين يدي شخص وتكرر ذكر خصاله عنده فيحبه وقد يعشق بالوصف وكثرة الذكر. ثم إذا عشق بكثرة الذكر المتكلف أولاً صار مضطراً إلى كثرة الذكر آخراً بحيث لا يصبر عنه. فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره. ومن أكثر ذكر شيء - وإن كان تكلفاً - أحبه. وكذلك أول الذكر متكلف إلى أن يثمر الأناش بالمذكر والحب له ثم يتمتع الصبر عنه آخراً فيصير الموجب موجبا

(١) حديث أبي هريرة وأبي سعيد «إذا قال العبد لا اله الا الله والله أكبر قال الله صدق عبدى .. الحديث» أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وصححه (٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه «أعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة ... الحديث» أخرجه مسلم إلا أنه قال «أو يحط» كما ذكره المصنف وقال حسن صحيح . (٣) حديث «يا عبد الله بن قيس - أو يا أبا موسى - ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قال بلى قال لاحول ولا قوة إلا بالله» متفق عليه (٤) حديث أبي هريرة «عمل من كنز الجنة ومن تحت العرش قول لاحول ولا قوة إلا بالله يقول الله أسلم عبدى واستسلم» أخرجه النسائي في اليوم والليلة والحاكم «من قال سبحانه الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر لاحول ولا قوة الا بالله قال أسلم عبدى واستسلم» وقال صحيح الإسناد . (٥) حديث «من قال حين يصبح رضى الله ربا .. الحديث» أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث خادم النبي صلى الله عليه وسلم ورواه الترمذى من حديث ثوبان وحسنه وفيه نظر فقيه سعد بن المرزبان ضعيف جداً (٦) حديث «الدال على أن الذكر والقلب لاه قليل الجدوى» أخرجه الترمذى وقال حسن والحاكم وقال حديث مستقيم الإسناد من حديث أبي هريرة «واعلموا أن الله لا يقبل الدوام من قلب لاه» .

والأثر مشمرا . وهذا معنى قول بعضهم . كابدت القرآن عشرين سنة ثم تدمعت به عشرين سنة . ولا يصدر التمتع إلا من الأنس والحب . ولا يصدر الأنس إلا من المداومة على المكابدة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعاً . فكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الإنسان تناول طعام يستنشعه أولاً ويكابد أكله ويواظب عليه ويصير موافقاً لطبعه حتى لا يصبر عنه فالتنفيس معتادة متحملة لما تتكلفه هي النفس ماعودها تتعود به أى ما كلفها أولاً يصبر لها طبعاً آخراً . ثم إذا حصل الأنس بذكر الله سبحانه انتقطع عن غير ذكر الله وما سوى الله عز وجل هو الذى يفارقه عند الموت فلا يبقى معه فى القبر أهل ولا مال ولا ولد ولا ولاية ولا يبقى إلا ذكر الله عز وجل . فإن كان قد أنس به تمتع به وتلدذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه إذ ضرورات الحاجات فى الحياة الدنيا تصد عن ذكر الله عز وجل ، ولا يبقى بعد الموت عائق ؛ فكأنه حلى بينه وبين محبوبه فعظمت غمظته وتحلص من السجن الذى كان مموعا فيه عما به أنسه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفثت فى روعى أحب من أحببت فأبكت مغارقة (١) » أراد به كل ما يتعلق بالدنيا فإن ذلك ينفى فى حقه بالموت و (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وإنما تنفى الدنيا بالموت فى حقه إلى أن تنفى فى نفسها عند بلوغ الكتاب أجله . وهذا الأنس يتلدذ به العبد بعد موته إلى أن يزل فى جوار الله عز وجل ويترقى من الذكر إلى اللقاء . وذلك بعد أن يبعثر ما فى القبور ويحصل ما فى الصدور ولا يسكر بقاء ذكر الله عز وجل معه الموت فيقول إنه أعدم فكيف يبقى معه ذكر الله عز وجل ؟ فإنه لم يعدم عد ما يمنع الذكر بل عدما من الدنيا وعالم الملك والشهادة لامن عالم الملكوت . وإلى ما ذكرناه الإساره بقوله صلى الله عليه وسلم « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (٢) » ويقول صلى الله عليه وسلم « أرواح الشهداء فى حواصل طيور حصر (٣) » ويقول صلى الله عليه وسلم لقتلى بدر من المشركين « يا هلال يا قلال وقد سماهم النبي صلى الله عليه وسلم هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً (٤) » فسمع عمر رضى الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يسمعون وأنى يحيون وقد جيفوا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لسلامى منهم ولكنهم لا يقدرُونَ أن يحييوا » والحديث فى الصحيح هذا قوله عليه السلام فى المشركين فأما المؤمنون والشهداء فقد قال صلى الله عليه وسلم « أرواحهم فى حواصل طيور حصر معلقة تحت العرش (٥) » وهذه الحالة وما أشبهه باللفاظ إليه لا ينافى ذكر الله عز وجل وهال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون مرحباً بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) الآية ولأجل شرف ذكر الله عز وجل عظمت رتبة الشهادة لأن المطلوب الخاتمة ونفى بالخاتمة وداع الدنيا والفردوس على الله والقلب مستغرق بالله عز وجل منفطع العلائق

- (١) حديث « إن روح القدس نفثت فى روعى أحب من أحببت فأبكت مغارقة » تقدم فى الكتاب السامع من العلم .
 (٢) حديث « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » أخرجه الترمذى من حديث أنس بن مالك وأبو داود وقال عريش قلت فيه عبيد الله بن الوليد الواسع صعب (٣) حديث « أرواح الشهداء فى حواصل طيور حصر » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود « أنه سئل عن هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً) الآية قال : أما لما قد سألتنا عن ذلك فقال أرواحهم فى حواصل طيور حصر فلم يسم فيه إلى صلى الله عليه وسلم » وفى رواية الترمذى « أما لما سألتنا عن ذلك فأخبرنا » وذكر صاحب مسند الفردوس أن أنس مبيح صرح برأيه فى مسنده . (٤) حديث « لدائه لعلى بدر من المشركين يا هلال يا قلال وقد سماهم النبي صلى الله عليه وسلم هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » أخرجه مسلم من حديث أنس .
 (٥) حديث « أرواح المؤمنين فى حواصل طيور حصر معلقة تحت العرش » أخرجه ابن ماجه من حديث كعب بن مالك « أن أرواح المؤمنين فى طيور حصر تعلق بشعر الجنة » وروى النسائى بلفظ « إنما أسماء المؤمنين طائر » ورواه الترمذى بلفظ « أرواح الشهداء » وقال حسن صحيح .

عن غيره . فإن قدر عبد على أن يجعل همه مستغرقاً بالله عز وجل فلا يقدر على أن يموت على تلك الحالة إلا في صف القتال . فإنه قطع الطمع عن مهبته وأهله وماله وولده بل من الدنيا كلها فإنه يريد بها حياته وقد هون على قلبه حياته في حب الله عز وجل وطلب مرضاته فلا تجرد الله أعظم من ذلك ، ولذلك عظم أمر الشهادة وورد فيه من الفضائل ما لا يحصى . فمن ذلك أنه لما استشهد عبد الله بن عمرو الأنصاري يوم أحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر (ألا أبشرك يا جابر ! قال : بلى بشرك الله بالخير قال : إن الله عز وجل أحيا أباك فأقعدته بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى : تمتن على ياعبدى ماشئت أعطيك فقال يارب أن تردني إلى الدنيا حتى أقتل فيك وفي نبيك مرة أخرى . فقال عز وجل . سبق القضاء مني بأنهم إليها لا يرجعون ^(١)) ثم القتل سبب الخاتمة على مثل هذه الحالة فإنه لو لم يقتل وبقي مدة ربما عادت شهوات الدنيا إليه وغلبت على ما استولى على قلبه من ذكر الله عز وجل . ولهذا عظم خوف أهل المعرفة من الخاتمة . فإن القلب وإن أزم ذكر الله عز وجل فهو متقلب لا يتخلو عن الالتفات إلى شهوات الدنيا ولا ينفك عن فترة تعثره . فإذا تمثّل في آخر الحال في قلبه أمر من الدنيا واستولى عليه وارتحل عن الدنيا والحالة هذه فيوشك أن يبقى استيلاؤه عليه فيحن بعد الموت إليه ويتمنى الرجوع إلى الدنيا . وذلك لقلة حظه في الآخرة إذ يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه . فأسلم الأحوال عن هذا الخطر خاتمة الشهادة إذ لم يكن قصد الشهيد نيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك ^(٢) كما ورد به الخبر بل حب الله عز وجل وإعلاء كلمته فهذه الحالة هي التي عبر عنها (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) ومثل هذا الشخص هو البائع للدنيا بالآخرة . وحالة الشهيد توافق معنى قولك (لا إله إلا الله) فإنه لا مقصود له سوى الله عز وجل وكل مقصود معبود وكل معبود إلا فهذا الشهيد قائل بلسان حاله (لا إله إلا الله) إذ لا مقصود له سواه . ومن يقول ذلك بلسانه ولم يساعده حاله فأمره في مشيئة الله عز وجل ولا يؤمن في حقه الخطر . ولذلك فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم قول لا إله إلا الله على سائر الأذكار ^(٣) وذكر ذلك مطلقاً في مواضع الترغيب . ثم ذكر في بعض المواضع الترغيب . ثم ذكر في بعض المواضع الصدق والإخلاص فقال مرة (من قال لا إله إلا الله مخلصاً) ومعنى الإخلاص مساعدة الحال للمقال . فنسأل الله تعالى أن يجعلنا في الخاتمة من أهل لا إله إلا الله حالاً ومقالاً ظاهراً وباطناً حتى نودع الدنيا غير متلفتين إليها بل متبرمين بها ومحبين للقاء الله فإن من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه . فهذه مرامى إلى معاني الذكرات التي لا يمكن الزيادة عليها في علم المعاملة .

الباب الثاني : في آداب الدعاء وفضله وفضل بعض الأدعية المأثورة

وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فضيلة الدعاء

قال الله تعالى (وإذا سألك عبادى عنى فأنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى) وقال تعالى

(١) حديث « ألا أبشرك يا جابر قال بلى بشرك الله بالخير قال إن الله أحيا أباك وأقعدته بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى تمتن على ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن وابن ماجه والحاكم وصححه إسناده من حديث جابر . (٢) حديث « الرجل يقاتل لنيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك » متفق عليه من حديث أبى موسى « قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال الرجل يقاتل الذكر والرجل يقاتل الله-م والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن فى سبيل الله ؟ قال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » . (٣) حديث « تفضل لا إله إلا الله على سائر الأذكار » أخرجه الترمذى وقاله حسن والنسائى فى اليوم واليلة وابن ماجه من حديث جابر .

(ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين) وقال تعالى ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وقال عز وجل ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ وروى النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ ^(١) ، الآية - وقال صلى الله عليه وسلم (الدعاء مخ العبادة ^(٢)) وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال (ليس شيء أكرم على الله عز وجل من الدعاء ^(٣)) وقال صلى الله عليه وسلم (إن العبد لا يخطئه من الدعاء إحدى ثلاث : إما ذنب يغفر له وإما خير يعجل له وإما خير يدخر له ^(٤)) وقال أبو ذر رضى الله عنه : يكفي من الدعاء مع البر ما يكتفي الطعام من الملح . وقال صلى الله عليه وسلم (سلوا الله تعالى من فضله فإن الله تعالى يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج ^(٥)) .

آداب الدعاء وهي عشرة

(الأول) أن ترصد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة . ورمضان من الأشهر ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل قال تعالى ﴿ وبالسحار هم يستغفرون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم (ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له ^(٦)) وقيل إن يعقوب صلى الله عليه وسلم إنما قال (سوف أستغفر لكم ربى) ليدعوا في وقت السحر . ف قيل إنه قام في وقت السحر يدعو وأولاده يؤمنون خلفه فأوحى الله عز وجل لى قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء (الثانى) أن يعتنم الأحوال الشريفة . قال أبو هريرة رضى الله عنه: إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف فى سبيل الله تعالى وعند نزول الغيث وعند إقامة الصلوات المكتوبة فاغتنموا الدعاء فيها وقال مجاهد : إن الصلاة جعلت فى خير الساعات فعليكم بالدعاء خلف الصلوات . وقال صلى الله عليه وسلم (الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد ^(٧)) وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً (الصائم لا ترد دعوته ^(٨)) وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً إذ وقت السحر وقت صماء القلب وإخلاصه وفراغه من المتشوشات . ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها . وحالة السجود أيضاً أجدر بالإجابة قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال النبى

الياب الثاني في آداب الدعاء وفضله

- (١) حديث المغان بن بشير « إن الدعاء هو العبادة » أخرجه أصحاب السنن والحاكم وقال صحيح الإسناد وقال الترمذى حسن صحيح .
(٢) حديث « الدعاء مع العبادة » أخرجه الترمذى من حديث أسس وقال عريب من هذا الوجه لا يعرفه إلا من حديث ابن لهيعة .
(٣) حديث أبي هريرة « ليس شيء أكرم عند الله من الدعاء » أخرجه الترمذى وقال عريب وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد .
(٤) حديث « لمن العبد لا يحفظه من الدعاء لحدى ثلاث : لمادب يهرله ولماخير يسجل له ولماخير يدخر له » أخرجه الديلمى فى الفردوس من حديث أسس وفيه روح . أخرجه ابن مسافر عن أبان بن عياش وكلاما صميم ولأحمد والبخارى فى الأدب والحاكم وصححه لمسانده من حديث أنس سعيد « لما أن تعجل له دعوته ولما أن يدخر له فى الآخرة ولما أن يدفع عنه من البوء مثلهما » .
(٥) حديث « سلوا الله من فضله فان الله يحب أن يسأل وأفضل الصلاة انتظار الفرج » أخرجه الترمذى من حديث ابن مسعود وقال حماد بن واقد ليس بالحافظ قلت وضمه ابن معين وغيره .
(٦) حديث « ينزل الله كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل . . الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .
(٧) حديث « الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد » أخرجه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة والترمذى وحسنه من حديث أسس وضمه ابن عدى وابن القطان ورواه فى اليوم والليلة بإسناد آخر جيد وابن حبان والحاكم وصححه .
(٨) حديث « الصائم لا ترد دعوته » أخرجه الترمذى وقال حسن وابن ماجه من حديث أنس هريرة بزيادة فيه .

صلى الله عليه وسلم « أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثرُوا فيه من الدعاء »^(١) وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، « لاني نهيته أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً فأما الركوع فعظموا فيه الرب تعالى وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فإنه قمن أن يستجاب لكم »^(٢) ، (الثالث) أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه . وروى جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس ^(٣) ، وقال سلمان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « إن ربكم حي كريم يستحي من عبده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردّها صفراً »^(٤) ، وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم « كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه في الدعاء ولا يشير بأصبعيه »^(٥) ، وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم مر على إنسان يدعو ويشير بأصبعيه السبابتين فقال صلى الله عليه وسلم أحد أحد ^(٦) ، أى اقتصر على الواحدة . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه . ارفعوا هذه الأيدي قبل أن تغل بالأغلال . ثم ينبغي أن يمسح بهما وجهه في آخر الدعاء : قال عمر رضى الله عنه ، « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه في الدعاء لم يردّها حتى يمسح بهما وجهه »^(٧) ، وقال ابن عباس ، « كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه »^(٨) ، وهذه هيئات اليد ولا يرفع بصره إلى السماء قال صلى الله عليه وسلم « لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم »^(٩) ، (الرابع) خفض الصوت بين الخافتة والجهر لما روى أن أبا موسى الأشعري قال : قد منا مع رسول الله فلما دنونا من المدينة كبر وكبر الناس ورفعوا أصواتهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأصم ولا غائب إن الذي تدعون بكم وبين أعناق ركابكم ^(١٠) ، وقالت عائشة رضى الله عنها في قوله عز وجل ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها »^(١١) ﴿ أى بدعائك وقد أثنى الله عز وجل على نبيه زكرياء عليه السلام حيث قال ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ وقال عز وجل ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ (الخامس) أن لا يتكلف السجع في الدعاء فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع والتكلف لا يناسبه قال صلى الله عليه وسلم « سيكون قوم يعتدون في الدعاء »^(١٢) ، وقد قال عز وجل : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه

(١) حديث أبي هريرة « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثرُوا من الدعاء » رواه مسلم (٢) حديث ابن عباس « لاني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً ... الحديث » أخرجه مسلم أيضاً (٣) حديث جابر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس ... الحديث » أخرجه مسلم دون قوله « يدعو » فقال مكانها « واقفاً » والنسائي من حديث أسامة بن زيد « كنت رده بهرفات ورفع يديه يدعو » ورجاله ثقات .

(٤) حديث سلمان « أن ربكم حي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردّها صفراً » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وقال استأده صحيح على شرطهما (٥) حديث أنس « كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه في الدعاء ولا يشير بأصبعه » أخرجه مسلم دون قوله ولا يشير بأصبعه . والحديث متفق عليه لكن مفيد بالاستسقاء (٦) حديث أبي هريرة « مر على إنسان يدعو بأصبعيه السبابتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أحد » أخرجه النسائي وقال حسن وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد (٧) حديث عمر « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه في الدعاء لم يردّها حتى يمسح بهما وجهه » أخرجه الترمذي وقال غريب والحاكم في المستدرک وسكت عليه وهو ضعيف (٨) حديث ابن عباس « كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه » أخرجه الطبراني في الكبير بسند ضعيف .

(٩) حديث « لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال عند الدعاء في الصلاة (١٠) حديث أبي موسى الأشعري « يا أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأصم ولا غائب » متفق عليه مع اختلاف ، واللفظ الذي ذكره المصنف لأبي داود (١١) حديث عائشة في قوله تعالى ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ أى بدعائك متفق عليه . (١٢) حديث « سيكون قوم يعتدون في الدعاء » وفي رواية « والظهور » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن مغفل

لا يجب المعتدين) قيل معناه التكلف للأصباح والأولى أن لا يجاوز الدعوات المأثورة فإنه قد يعتدى في دعائه فيسأل مالا تقتضيه مصلحته فما كل أحد يحسن الدعاء ولذلك روى عن معاذ رضى الله عنه : إن العلماء يحتاج إليهم في الجنة إذ يقال لأهل الجنة تمنوا فلا يدرون كيف يتمنون حتى يتعلموا من العلماء ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم : إياكم والسجع في الدعاء حسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ^(١) ، وفي الخبر : سيأتى قوم يعتدون في الدعاء والطهور . ومرو بعض السلف بقاص يدعو بسجع فقال له : أعل الله تبالغ ؟ أشهد لقد رأيت حبيبا العجمي يدعو وما يزيد على قوله : اللهم اجعلنا جيدين اللهم لا تنفض عنا يوم القيامة اللهم وفقنا للخير ، والناس يدعوون من كل ناحية وراءه وكان يعرف بركة دعائه وقال بعضهم . ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق . ويقال إن العلماء والأبدال لا يريدون في الدعاء على سبع كلمات فادونها ويشهد له آخر سورة البقرة فإن الله تعالى لم يحبر في موضع من أدعية عبادة أكثر من ذلك . واعلم أن المراد بالسجع هو المتكلف من الكلام فإن ذلك لا يلائم الضراعة والذلة ولا في الأدعية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة كقوله صلى الله عليه وسلم : أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود لأنك رحيم ودود وإنك تفعل ما تريد ^(٢) ، وأمثال ذلك فليقتصر على المأثور من الدعوات أو ليلتمس بلسان التضرع والخشوع من غير سجع وتكلف والتضرع هو المحبوب عند الله عز وجل (السادس) التضرع والخشوع والرغبة والرهبة قال الله تعالى ﴿ لهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ وقال عز وجل ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : إذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه ^(٣) . (السابع) أن يحزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يقل أحدكم إذا دعا اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره له ^(٤) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل ^(٦) ، وقال سفيان بن عيينة : لا يمتنع أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله ﴿ إذ قال رب فانظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المظرين ﴾ (الثامن) أن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثا قال ابن مسعود :

(١) حديث « إياكم والسجع في الدعاء بحسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل » غريب بهذا السياق وللبخاري عن ابن عباس « وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإني عهدت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفعلون إلا ذلك » وابن ماجه والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد من حديث عائشة « عليك بالكوامل » وفيه « وأسألك الجنة ... إلى آخره » (٢) حديث « أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود لأنك رحيم ودود وإنك تفعل ما تريد » أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليلة حين فرغ من صلاته ... فذكر حديثا طويلا من جلته هذا » وقال حديث غريب انتهى . وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى سمي الحفظ (٣) حديث « إذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أسد « إذا أحب الله عبدا صب عليه البلاء صبا ... الحديث » وفيه « دعه فإن أحب أن أسمع صوته » وللطبراني من حديث أبي أمامة « إن الله يقول الملائكة انطلقوا لي عبيد فصبوا عليه البلاء ... الحديث » وفيه « فإني أحب أن أسمع صوته » وسندهما ضعيف (٤) حديث « لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره له » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٥) حديث « إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء » أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة .

(٦) حديث « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال غريب والحاكم وقال مستقيم الإسناد ترد به صالح المري وهو أحد رهاد البصرة قلت لكنه ضعيف في الحديث .

كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً^(١) ، وينبغي أن لا يستطىء الإجابة لقوله صلى الله عليه وسلم « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لي فإذا دعوت فاسأل الله كثيراً فإنك تدعو كريماً^(٢) » وقال بعضهم : انى أسأل الله عز وجل مند عشرين سنة حاجة وما أجابني وأنا أرحو الإجابة سألت الله تعالى أن يوفقني لترك ما لا يعنيني . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سأل أحدكم ربه مسألة فتعرف الإجابة فليقل الحمد لله الذى بنعمته تم الصالحات ومن أبطأ عنه من ذلك فليقل الحمد لله على كل حال^(٣) » . (التاسع) أن يفتح الدعاء بذكر الله عز وجل فلا يبدأ بالسؤال . قال سلمة بن الأكوع « مسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الدعاء بالاستفتاحه بقول : سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب^(٤) » قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يسأله حاجته ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فإن الله عز وجل يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع ما بينهما ، وروى في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا سألتكم الله عز وجل حاجة فابتدئوا بالصلاة على فإن الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضى إحداهما ويرد الأخرى^(٥) » ، رواه أبو طالب المسكي (العاشر) وهو الأدب الباطن وهو الأصل في الإجابة : التوبة ورد المظالم والإقبال على الله عز وجل بسكته الهمة فذلك هو السبب القريب في الإجابة . فيروى عن كعب الأحبار أنه قال : أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج موسى بنى إسرائيل يستسقى بهم فلم يسقوا حتى خرج ثلاث مرات ولم يسقوا ، فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام : إني لأستجيب لك ولألمن معك وفيكم تمام ، فقال موسى : يارب ومن هو حتى نخرجه من بيننا فأوحى الله عز وجل إليه : يا موسى أنها كم عن النعمة وأكون نعماً ! فقال موسى : ابني إسرائيل : توبوا إلى ربكم بأجمعكم عن النعمة فتابوا فأرسل الله تعالى عليهم الغيث . وقال سعيد بن جبير قحط الناس في زمن ملك من ملوك بني إسرائيل فاستسقوا فقال الملك لبني إسرائيل : ليرسلن الله تعالى علينا السماء أو لنؤذيه قيل له وكيف تقدر أن تؤذيه وهو في السماء ؟ فقال أقتل أوليائه وأهل طاعته فيكون ذلك أذى له فأرسل الله تعالى عليهم السماء . وقال سفيان الثوري : بلغني أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل وأكلوا الأطفال وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يسكون ويتضرعون ، فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم عليهم السلام لو مشيتم إلى بأقدامكم حتى تحني ركبتكم وتبلغ أيديكم عنان السماء وتكل ألسنتكم عن الدعاء فإني لأجيب لكم داعياً ولا أرحم لكم باكياً حتى تردوا المظالم إلى أهلها ففعلوا فطروا من يومهم . وقال مالك بن دينار . أصاب الناس في بني إسرائيل قحط فخرجوا مراراً فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى بأبدان نجسة وترفعون إلى أكفأ قد سفستكم بها الدماء وملائمت بطونكم من الحرام الآن قد اشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا مني إلا بعداً ، وقال أبو الصديق الناجي : خرج سليمان عليه السلام يستسقى فمر بنملة ملقاة على ظهرها رافعة قوائمها

(١) حديث ابن مسعود « كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً » رواه مسلم وأصله متفق عليه .

(٢) حديث « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لي » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث « إذا سأل أحدكم مسألة فتعرف الإجابة فليقل الحمد لله الذى بنعمته تم الصالحات ومن أبطأ عنه من ذلك شئ فليقل الحمد لله على كل حال » أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث أبي هريرة ولحاكم بحره من حديث عائشة مختصراً بإسناد صيف .

(٤) حديث سلمة بن الأكوع « مسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الدعاء بالاستفتاحه وقال سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد قلت فيه عمر بن راشد ليثاني ضعفه الجمهور (٥) حديث « إذا سألتكم الله حاجة فابتدئوا بالصلاة على فإن الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضى إحداهما ويرد الأخرى » لم أجده مرفوعاً وإنما هو موقوف على أبي الدرداء .

إلى السماء وهي تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب غيرنا ، فقال سليمان عليه السلام : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم . وقال الازعاعى : خرج الناس يستسقون فقام فيهم بلال بن سعد حمدا لله وأثنى عليه ثم قال يامعشر من حضر أستم مقترين بالإساءة ؟ فقالوا : اللهم نعم ، فقال : اللهم إنا قد سمعناك تقول ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ وقد أقررنا بالإساءة فهل تكون مغفرتك إلّا لمثلنا ؛ اللهم فاغفر لنا وارحمنا واسقنا ؛ فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا . وقيل لمالك بن دينار : ادع لنا ربك فقال لأنكم تستبطلون المطر وأنا أستبطل الحجارة . وروى أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه خرج يستسقى فلما ضجروا قال لهم عيسى عليه السلام : من أصاب منكم ذنبا فليرجع فرجعوا كلهم ولم يبق معه في المفازة إلّا واحد ، فقال له عيسى عليهم السلام : أمالك من ذنب ؟ فقال : والله ما علمت من شيء غير أنى كنت ذات يوم أصلى فرت بي امرأة فنظرت إليها بعيني هذه فلما جاوزتني أدخلت أصبعي في عيني فأنزعتها وتبعته المرأة بها . فقال له عيسى عليه السلام : فادع الله حتى أو من على دعائك ، قال : فدعا فتجللت السماء سحابا ثم صبت فسقوا ، وقال يحيى الغساني : أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام فاخترأوا ثلاثة من علمائهم نخرجوا حتى يستسقوا بهم فقال أحدهم : اللهم إنك أنزلت في توراةك أن نفعو عن ظلمنا اللهم إنا قد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا ؛ وقال الثاني : اللهم إنك أنزلت في نوراةك أن نعتق أرقاءنا اللهم إنا أرقاؤك فأعتقنا . وقال الثالث : اللهم إنك أنزلت في توراةك أن لا رد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا اللهم إنا مساكينك وقفنا ببابك فلا ترد دعاءنا فسقوا ، وقال عطاء السلمي : منعنا الغيث فخرجنا نستسقى فإذا نحن بسعدون المحنون في المقابر فنظر إلى فقال يا عطاء أهذا يوم النشور أو بئس ما في القبور ؟ فقلت : لا ولكننا منعنا الغيث فخرجنا نستسقى فقال يا عطاء : بقلوب أرضيه أم بقلوب سماوية ؟ فقلت : بل بقلوب سماوية فقال : هيات يا عطاء قل للمتبرجين لا تبرحوا فإن الناقد بصير . ثم رفق السماء بطرفه وقال إلهي وسيدى ومولاي لا تهلك بلادك بذنوب عبادك ولكن بالسر المكشون من أسمائك وما وارت الحجب من آلائك إلّا ماسقين ماء غدقا فرأنا تحيى به العباد وتروى به البلاد يامن هو على كل شيء قدير ، قال عطاء : فما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت وجادت بمطر كأفواه القرب فولى وهو يقول :

أفلح الزاهدون والعابدون إذ لمولاهم أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين العليلة جبا فانقضى ليلهم وهم ساهرون
شغلتهم عبادة الله حتى حسب الناس أن فيهم جنونا

وقال ابن المبارك : قدمت المدينة في عام شديد القحط فخرج الناس يستسقون فخرجت معهم إذا أقبل غلام أسود عليه قطعنا خيش قد اتزر بإحداهما وألقى الأخرى على عاتقه فجلس إلى جنبى فسمعتة يقول إلهي أخلقت الوجوه عندك كثرة الذنوب ومساوى الأعمال وقد حبست عنا غيث السماء لتودب عبادك بذلك فأسألك يا حليما ذا أناة يامن لا يعرف عباده منه إلّا الجليل أن تسقيهم الساعة الساعة فلم يرل يقول الساعة الساعة حتى اكتست السماء بالغمام وأقبل المطر من كل جانب ، قال ابن المبارك : فحجت إلى الفضيل فقال ما لي أراك كئيبا ؟ فقلت أمرسبقتنا إليه غيرنا فتولاه دوننا وقصصت عليه القصة فصاح الفضيل وخز مغشيا عليه . ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استسقى بالعباس رضى الله عنه فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس : اللهم لأنه لم ينزل بلاء من السماء إلّا بذنوب ولم يكشف إلّا بتوبة وقد توجه بي القوم إليك لسكانى من نبيك صلى الله عليه وسلم وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة وأنت

الراعى لا تهمل الضالة ولا تدع الكبير بدار مضيفة فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الاصوات بالشكوى وأنت تعلم السر وأخفى اللهم فأغثهم لغياثك قبل أن يقطوا فيهلكوا فإنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون قال فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال .

فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضله صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ وروى أنه صلى الله عليه وسلم « جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه فقال صلى الله عليه وسلم إنه جاءني جبريل عليه السلام فقال أمتري يا محمد أن لا يصلى عليك أحد من أمتك صلاة واحدة إلا صليت عليه عشرة ولا يصلى عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرة ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى على صلت عليه الملائكة ماضى على وليقال عند ذلك أو ليكثر ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أولى الناس بي أكرهم على صلاة ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « بحسب المؤمن من البخل أن أذكر عنده فلا يصلى على ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى على من أمتى كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يسمع الأذان والإقامة اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتى ^(٧) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى على من صليت عليه الملائكة يستغفرون له مادام اسمى في ذلك الكتاب ^(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن في الأرض ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام ^(٩) » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث « أنه صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه فقال إنه جاءني جبريل عليه الصلاة والسلام فقال أما رضى يا محمد أن لا يصلى عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرة ولا يصلى عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرة » أخرجه النسائي وابن حبان من حديث أبي طلحة باسناد جيد (٢) حديث « من صلى على صلت عليه الملائكة ماضى فليقلل عدد من ذلك أو ليكثر » أخرجه ابن ماجه من حديث عامر بن ربيعة باسناد ضعيف والطبراني في الأوسط باسناد حسن . (٣) حديث « إن أولى الناس بي أكرهم على صلاة » أخرجه الترمذى من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب وابن حبان (٤) حديث « بحسب امرئ من البخل أن أذكر عنده فلا يصلى على » أخرجه تميم بن أسبغ من حديث الحسن بن على هكذا والنسائي وابن حبان من حديث أخيه الحسين « البخل من ذكرت عنده فلم يصل على » ورواه الترمذى من رواية الحسين بن على عن أبيه وقال حسن صحيح . (٥) حديث « أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى من حديث أوس بن أوس وذكره ابن أبى حاتم في الملل وحكى عن أبيه أنه حديث منكر . (٦) حديث « من صلى على من أمتى كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات » أخرجه النسائي في اليوم واليلة من حديث عمرو بن دينار وزاد فيه « مخلصاً من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات ورفعه بها عشر درجات » وله في السير وابن حبان من حديث أنس نحوه دون قوله « مخلصاً من قلبه » ودون ذكر : نحو السيئات . ولم يذكر ابن حبان أيضاً : رفع الدرجات . (٧) حديث « من قال حين يسمع الأذان والإقامة اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتى » أخرجه البخارى من حديث حار دون ذكر الإقامة والشفاعة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وقال الباء والمستمرى في الدعوات « حين يسمع الدعاء للصلاة » وزاد ابن وهب ذكر الصلاة والشفاعة فيه بسند ضعيف وزاد الحسن بن على المعمرى في اليوم واليلة من حديث أبي الدرداء ذكر الصلاة فيه وله والمستمرى في الدعوات سند ضعيف من حديث أبى رافع « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الأذان » فذكر حديثاً فيه « وإذا قال قد قامت الصلاة قال اللهم رب هذه الدعوة التامة ... الحديث » وراد « وتقبل شفاعته في أمته » ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « إذا سمع المؤمن يقولون مثل ما يقول ثم صلوا على ثم سلوا الله على الوسيلة » وفيه « من سأل الوسيلة حلت عليه الشفاعة » . (٨) حديث « من صلى على من صليت عليه الملائكة تستغفرون له مادام اسمى في ذلك الكتاب » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو الشيخ في التواب والمستمرى في الدعوات من حديث أبى هريرة بسند ضعيف . (٩) حديث « إن في الأرض ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام » تقدم في آخر الحج .

« ليس أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أورد عليه السلام »^(١) ، و قيل له يا رسول الله كيف نصلى عليك ؟ فقال قولوا اللهم صل على محمد عبدك وعلى آله وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد »^(٢) ، وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكي ويقول : بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد كان جذع تخطب الناس عليه فلما كثر الناس اتخذت منبرا لتسمعهم فخر الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتهم ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن جعل طاعتك طاعته فقال عز وجل ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذنوب فقال تعالى ﴿ عما الله عنك لم أذنيت لهم ﴾ بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم فقال عز وجل ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم ﴾ الآية بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجرا تتفجر منه الأنهار فإذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر فإذا بأعجب من البراق حين سرى عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فإذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلتلك وهى مشوية فقالت لك الذراع : لا تأكلنى فإنى مسمومة ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد دعا نوح على قومه فقال رب لا تدرك على الأرض من الكافرين ديارا ولو دعوت علينا بثلثها لهلكنا فلقد وطئ ظهرك وأدى وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيرا فقلت اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد اتبعك فى قلة سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحا فى كثرة سنه وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله لو لم تجالس إلا كفؤا لك ما جالسنا ولو لم تسكح إلا كفؤا لك ما نكحت إلينا ولو لم تزاكل إلا كفؤا لك ما واكلتنا فلقد والله جالسنا ونكحت إلينا وواكلتنا ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك ووضعت طعامك على الأرض ولعقت أصابعك تواضعا منك صلى الله عليك وسلم »^(٣) . وقال بعضهم : كنت أكتب

(١) حديث « ليس أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أورد عليه السلام » أخرجه أبو داود من حديث أنى هريرة بسند جيد
(٢) حديث « قيل له يا رسول الله كيف نصلى عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته . الحديث » متفق عليه من حديث أبى حميد الساعدي . (٣) حديث عمر بن الخطاب الجذع ونعم الماء من بين أصابعه والإسراء على البراق إلى السماء السابعة ثم صلاة الصبح من ليلته بالأبطح وكلام الشاة المسمومة وأنه دعى وجهه وكسرت رباعيته فقال اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون وأنه لبس الصوف وركب الحمار وأردف خلفه ووضع طعامه بالأرض ولقى أصابعه « وهو غريب بطوله من حديث عمر وهو معروف من أوجه أخرى . لحديث حين الجذع متفق عليه من حديث جابر وابن عمر ، وحديث تبع الماء من بين أصابعه متفق عليه من حديث أنس وغيره وحديث الإسراء متفق عليه من حديث أنس دون ذكر صلاة الصبح بالأبطح ، وحديث كلام الشاة المسمومة رواه أبو داود من حديث سائر وفيه انقطاع ، وحديث أنه دعى وجهه وكسرت رباعيته متفق عليه من حديث سهل بن سعد فى غزوة أحد ، وحديث اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون رواه البيهقي فى دلائل النبوة والحديث فى الصحيح من حديث ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم حكاه عن نبي من الأنبياء ضربه قومه ، وحديث أسامة بن زيد ، وحديث وضع طعامه بالأرض رواه أحمد فى الزهد من حديث الحسن مرسلًا والبخارى من حديث أنس ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان قط ، وحديث لعقه أصابعه رواه مسلم من حديث كعب بن مالك وأنس بن مالك

الحديث وأصلى على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ولا أسلم فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي : أمانتم الصلاة على في كتابك ؟ فساكتت بعد ذلك إلا صليت وسلمت عليه . وروى عن أبي الحسن قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله بم جوزى الشافعي عنك حيث يقول في كتابه الرسالة « وصلى الله على محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون » ؟ فقال صلى الله عليه وسلم جوزى عنى أنه لا يوقف للحساب .

فضيلة الاستغفار

قال الله عز وجل ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ وقال علقمة والأسود قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنهم : في كتاب الله عز وجل آيتان مأذنب عبد ذنبا فقرأهما واستغفر الله عز وجل إلا غفر الله تعالى له ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ﴾ الآية وقوله عز وجل (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يمد الله غفورا رحيا) وقال عز وجل (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) وقال تعالى (والمستغفرين بالأسحار) وكان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول « سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أكثر من الاستغفار جعل الله عز وجل له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إني لاستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة »^(٣) ، هذا مع أنه صلى الله عليه وسلم غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقال صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبي حتى إني لاستغفر الله تعالى في كل يوم مائة مرة »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يأوى إلى فراشه استغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر - أو عدد رمل عالج أو عدد ورق الشجر أو عدد أيام الدنيا - »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر « من قال ذلك غفرت ذنوبه وإن كان فارا من الزحف »^(٦) ، وقال حذيفة . كنت ذرب اللسان على أهلى فقلت « يا رسول الله لقد خشيت أن يدخلنى لسانى النار ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فأين أنت من الاستغفار ؟ فأني لاستغفر الله في اليوم مائة مرة »^(٧) ، وقالت عائشة رضى الله عنها : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه فإن التوبة من الذنب الندم والاستغفار »^(٨) ، وكان صلى الله

(١) حديث « كان النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم » أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح إن كان أبو عبيدة سمع من أبيه والحديث متفق عليه من حديث عائشة « أنه كان يكثر أن يقول ذلك في ركوعه وسجوده » دون قوله « إنك أنت التواب الرحيم » .
(٢) حديث « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل غم مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث ابن عباس وضعفه ابن حبان .
(٣) حديث « إني لاستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة » أخرجه البخارى من حديث أنى هريرة إلا أنه قال « أكثر من سبعين » وهو في الدعاء للطبراني كما ذكره المصنف (٤) حديث « أنه ليبار على قلبي حتى إني لاستغفر الله في كل يوم مائة مرة » أخرجه مسلم من حديث الأغر (٥) حديث « من قال حين يأوى إلى فراشه استغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي سعيد وقال غريب لا يعرفه إلا من حديث عبد الله بن الوليد الوصافى . قلت الوصافى وإن كان ضعيفا فقد تابعه عليه عصام بن قدامة وهو ثقة ورواه البخارى في التاريخ دون قوله « حين يأوى إلى فراشه » وقوله « ثلاث مرات » (٦) حديث « من قال ذلك غفرت ذنوبه وإن كان فارا من الزحف » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث زيد مولى النبي صلى الله عليه وسلم وقال غريب « قلت ورجاله موثقون ورواه ابن مسعود والحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط الشيخين (٧) حديث حذيفة « كنت ذرب اللسان على أهلى .. الحديث » وفيه « أين أنت من الاستغفار » أخرجه النسائي في اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين (٨) حديث عائشة « إن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله فإن التوبة من الذنب الندم والاستغفار » =

عليه وسلم يقول في الاستغفار : اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير ^(١) ، وقال علي رضي الله عنه : كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً نفعتني الله عز وجل بما شاء أن ينفعني منه وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلته فإذا حلف صدقته ، قال : وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله عز وجل إلا غفر له ثم تلا قوله عز وجل (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم) ^(٢) الآية » وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها فإن زاد زادت حتى تغلف قلبه ^(٣) فذلك الزان الذي ذكره الله عز وجل في كتابه (كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله سبحانه ليرفع الدرجة للعبد في الجنة فيقول يا رب أنى لي هذه فيقول عز وجل باستغفار ولدك لك ^(٤) » ، وروى عائشة رضي الله عنها : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أذنب العبد ذنباً فقال اللهم اغفر لي فيقول الله عز وجل أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يأخذ بالذنب ويغفر الذنب عبدى اعمل ما شئت فقد غفرت لك ^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة ^(٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن رجلاً لم يعمل خيراً قط نظر إلى السماء فقال إن لي رباً يارب فاغفر لي فقال الله عز وجل قد غفرت لك ^(٨) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من أذنب ذنباً فعلم أن الله قد اطلع عليه غفر له وإن لم يستغفر ^(٩) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى يا هبأدى كلكم مذنب إلا من عافيته فاستغفروني أغفر لكم ومن علم أنى ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالي ^(١٠) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من قال سبحانك ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت له ذنوبه ولو كانت كدب الحمل ^(١١) » وروى

= متفق عليه دون قوله « فإن التوبة .. الخ » وزاد « أو توبى إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه » وللطبراني في الدعاء « فإن العبد إذا أدب ثم استغفر الله غفر له » ^(١) حديث « كان يقول اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير » ^(٢) حديث علي عن أبي بكر « ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له » أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذي ^(٣) حديث أبي هريرة « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه .. الحديث » أخرجه الترمذي وصححه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان والحاكم ^(٤) حديث أبي هريرة « من الله ليرفع العبد الدرجة في الجنة فيقول يا رب أنى لي هذه فيقول باستغفار ولدك لك » رواه أحمد بإسناد حسن . ^(٥) حديث عائشة « اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا » أخرجه ابن ماجه وفيه على بن زيد بن جدهان مختلف فيه .

^(٦) حديث « إذا أذنب العبد فقال اللهم اغفر لي يقول الله أدب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يأخذ بالذنب ويغفر الذنب .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة . ^(٧) حديث « ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أبي بكر وقال غريب وليس له إسناد بالقوى . ^(٨) حديث « إن رجلاً لم يعمل خيراً قط نظر إلى السماء فقال إن لي رباً يارب اغفر لي فقال الله تعالى قد غفرت لك » لم أقف له على أصل . ^(٩) حديث « من أذنب ذنباً فعلم أن الله قد اطلع عليه غفر له وإن لم يستغفر » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . ^(١٠) حديث « يقول الله يا هبأدى كلكم مذنب إلا من عافيته فاستغفروني أغفر لكم ومن علم أنى ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالي » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر وقال الترمذي حسن وأصله عند مسلم بلفظ آخر . ^(١١) حديث « من قال سبحانك ظلمت نفسي وعميت سوءاً فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت ذنوبه وإن كانت كدب الحمل » أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث علي « أن =

« إن أفضل الاستغفار اللهم أنت ربى وأنا عبدك خلقتنى وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء على نفسى بذنبي فقد ظلمت نفسى واعترفت بذنبي فاغفرلى ذنوبى ما قدمت منها وما أخرت فإنه لا يغفر الذنوب جميعها إلا أنت ^(١) » والآثار : قال خالد بن معدان يقول الله عز وجل إن أحب عبادى إلى المتحابون بحبى والمتعلقة قلوبهم بالمساجد والمستغفرون بالأسحار أولئك الذين إذا أردت أهل الأرض بعقوبة ذكرتهم فتركهم وصرفت العقوبة عنهم . وقال قتادة رحمه الله : القرآن يدللكم عن دائكم ردواكم . أما دأؤكم فالذنوب وأما دواؤكم فالاستغفار وقال على كرم الله وجهه : العجب من يهلك ومعه النجاة قيسل وما هى ؟ قال الاستغفار . وكان يقول : ما ألهم الله سبحانه عبدا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه . وقال الفضيل : قول العبد « أستغفر الله » تفسيرها : أقتل . وقال بعض العلماء : العبد بين ذنب ونعمة لا يصلحهما إلا الحمد والاستغفار . وقال الربيع بن خيثم رحمه الله : لا يقولن أحدكم أستغفر الله وأتوب إليه فيكون ذبياً وكذباً إن لم يفعل ؟ ولكن ليقول : اللهم اغفرلى وتب على . وقال الفضيل رحمه الله : الاستغفار بلا إفلاخ توبة الكذابين : وقالت رابعة العدوية رحمها الله : استعمارنا يحتاج إلى استعمار كثير . وقال بعض الحكماء : من قدم الاستغفار على الندم كان مستهزئاً بالله عز وجل وهو لا يعلم . وسمع أعرابي وهو متعلق بأستار الكعبة يقول : اللهم إن استعماري مع إصرارى للؤم وإن تركى استغفارك مع علمى بسعة عفوك لعجز ، فكم تتعجب إلى بالنعم مع غناك عنى وكم أتبغض إليك بالمعاصى مع فقرى إليك يا من إذا وعد وفى وإذا أوعد عفا أدخل عظيم جرمى فى عظيم عفوك يا أرحم الراحمين . وقال أبو عبد الله الوراق : لو كان عليك مثل عدد القطر وزبد البحر ذنوباً لحيت عنك إذا دعوت ربك بهذا الدعاء ملخصاً إن شاء الله تعالى « اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه وأستغفرك من كل ما وعدتك به من نفسى ولم أوف لك به وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فاستغنت بها على معصبتك وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيت في ضياء النهار وسواد الليل فى ملا أو خلا وسر وعلانية يا حلیم . ويقال إنه استغفار آدم عليه والسلام وقيل الخضر عليه الصلاة والسلام .

الباب الثالث : فى أدعية مأثورة ومعزية إلى أسبابها وأربابها عما يستحب

أن يدعو بها المرء صباحا ومساء وبعقب كل صلاة

فإنها : دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ركعتى الفجر قال ابن عباس رضى الله عنهما . بعثنى العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته ممسياً وهو فى بيت خالتي ميمونة فقام يصلى من الليل فلما صلى ركعتى الفجر قبل صلاة الصبح قال « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبى وتجمع بها شملى وتلم بها شعئى وترد بها الفتن عى وتصلح بها دينى وتحفظ بها غامى وترفع بها شاهدى وترزق بها عملى وتبيض بها وجهى وتلهمى بها رشدى وتعضى بها من كل سوء . اللهم أعطنى إيماناً صادقاً و يقيناً ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة . اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء ومرافقة الأنبياء . اللهم إني

= رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أعلمك كلمات تقولن لو كان عليك كمد الحمل - أو كمد النثر - ذنوب عمرها الله لك فذكره بزيادة « لا إله إلا أنت » فى أوله ونيه ابن لهيعة . (١) حديث « أفضل الاستعمار اللهم أنت ربى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث شداد بن أوس دون قوله « وقد ظلمت نفسى واعترفت بذنبي » ودون قوله « ذنوبى ما قدمت منها وما أخرت » ودون قوله « جميعاً » .

أنزل بك حاجتي وإن ضعف رأيي وقلت حيلتي وقصر عملي وافتقرت إلى رحمتك فأسألك يا كافي الأمور ويا شافي الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور . اللهم ما قصر عنه رأيي وضعف عنه عملي ولم تبلغه نيتي وأمنيته من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فإني أرغب إليك فيه وأسألكه يارب العالمين . اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين حربا لأعدائك وسلما لأوليائك نجيب بحبك من أطاعك من خلقك ونعادي بعداوتك خالفك من خلقك . اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة وهذا الجهد وعليك التكلان وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ذى الحبل الشديد والامر الرشيد أسألك إلا من يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقرئين الشهود والركوع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد . سبحان الذي لبس العز وقال به سبحان الذي تعطف بالمجد وتكرم به سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له سبحان ذى الفضل والنعم سبحان ذى العزة والكرم سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه . اللهم اجعل لي نورا في قلبي ونورا في قبري ونورا في سمعي ونورا في بصري ونورا في شعري ونورا في بشري ونورا في لحمي ونورا في دمي ونورا في عظامي ونورا من بين يدي ونورا من خلفي ونورا عن يميني ونورا عن شمالي ونورا من فوقي ونورا من تحتي . اللهم زدني نورا وأعطني نورا واجعل لي نورا (١) »

دعاء عائشة رضى الله عنها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها « عليك بالجوامع الكوامل قول اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأستعيذك بما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين (٢) »

دعاء فاطمة رضى الله عنها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به ؟ أن تقولي : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث لا تسكني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله

دعاء أبي بكر الصديق رضى الله عنه

علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه أن يقول « اللهم إني أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نبيك وعيسى كلمتك وروحك وبتوراة موسى والإنجيل عيسى وزبور داود وفرقان محمد صلى الله عليه وسلم

الباب الثالث : في أدعية مأثورة

(١) حديث ابن عباس « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شمل وتعلم بها شعبي ... الحديث » أخرجه الترمذي وقال غريب ولم يذكر في أوله : يا عباس فإنه عبد الله ولا نومه في بيت ميمونة ، وهو بهذه الزيادة في الدعاء للطبراني .
(٢) حديث قوله لعائشة « عليك بالجوامع الكوامل قول : اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديثها (٣) حديث « يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث لا تسكني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله » أخرجه النسائي في اليوم والليل والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

وعليهم أجمعين وبكل وحى أوحيت له أو قضاء قضيت له أو سائل أعطيت له أو غنى أفقرته أو فقير أغنيته أو ضال هديته وأسألك باسمك الذى أنزلته على موسى صلى الله عليه وسلم وأسألك باسمك الذى بثت به أرزاق العباد وأسألك باسمك الذى وضعت على الأرض فاستقرت وأسألك باسمك الذى وضعت على السموات فاستقلت وأسألك باسمك الذى وضعت على الجبال فرست وأسألك باسمك الذى استقل به عرشك وأسألك باسمك الطاهر الطاهر الأحد الصمد الوتر المنزل فى كتابك من لدنك من النور المبين وأسألك باسمك الذى وضعت على النهار فاستنار وعلى الليل فأظلم وبِعظمتك وكبريائك وبنور وجهك الكريم أن ترزقنى القرآن والعلم به وتخططه بلحمى ودى وسمعى وبصرى وتستعمل به جسدى بحولك وقوتك فإنه لا حول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين (١) .

دعاء بريدة الأسلمى رضى الله عنه

وروى أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيراً علمهن إياه ثم لم ينسهن إياه أبداً قال : فقلت بلى يا رسول الله قال قل : اللهم إني ضعيف فقو فى رضاك ضعفى وخذنى إلى الخير بناصيتى واجعل الإسلام منتهى رصاى ، اللهم إني ضعيف فقوئى وإني ذليل فأعزنى وإني فقير فأغنى يا أرحم الراحمين (٢) » .

دعاء قبيصة بن المخارق

إذا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « علمنى كلمات ينفعنى الله عز وجل بها فقد كبر سنى وعجزت عن أشياء كثيرة كنت أعملها فقال عليه السلام : أما لدينك فإذا صليت الغداة فقل ثلاث مرات سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فإنك إذا قلتين أمنت من الغم والجذام والبرص والفالج . وأما لآخرتك فقل : اللهم أهدنى من عندك وأفض على من فضلك وانشر على من رحمتك وأنزل على من بركاتك . ثم قال صلى الله عليه وسلم : أما إنه إذا وافى بهن عبد يوم القيامة لم يدعهن فتح له أربعة أبواب من الجنة يدخل من أيها شاء (٣) »

دعاء أبي الدرداء رضى الله عنه

قيل لأبي الدرداء رضى الله عنه : قد احترقت دارك - وكانت النار قد وقعت فى محلته - فقال ما كان الله ليفعل ذلك ، فقيل له ذلك ثلاثاً وهو يقول : ما كان الله ليفعل ذلك . ثم أتاه آت فقال : يا أبا الدرداء إن النار حين دنت من دارك طمئت ، قال . قد علمت ذلك ، فقيل له : ما ندرى أى قوليك أعجب ؟ قال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من يقول هؤلاء الكلمات فى ليل أو نهار لم يضره شيء وقد قلتين وهى « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن أعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً . اللهم إني أعوذ بك من شرنفسى

(١) حديث « علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر المدينى رضى الله عنه أن يقول اللهم إني أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى محبك وعيسى كلمتك ... الحديث » فى الدعاء لحفظ القرآن رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من رواية عبد الملك بن هارون بن عتبة عن أبيه « أن أبا بكر أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إني أعلم القرآن ودفلت مى » فذكره وعند الملك وأبوه صعبان وهو مقطوع بن هارون وأبى بكر . (٢) حديث « يا بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيراً علمهن إياه ... الحديث » أخرجه الحاكم من حديث بريدة وقال صحيح الإسناد (٣) حديث « إن قبيصة بن المخارق قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم علمنى كلمات ينفعنى الله بها فقد كبرت سنى وعجزت ... الحديث » أخرجه ابن السنى فى اليوم والليلة من حديث ابن عباس وهو عند أحمد فى المسند مختصراً من حديث قبيصة نفسه وفيه رجل لم يسم

ومن شر كل دابة أنت أخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ^(١) .

دعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام

كان يقول إذا أصبح : اللهم إن هذا خلق جديد فافتحه على بطاعتك واختمه لي بمغفرتك ورضوانك وارزقني فيه حسنة تقبلها مني وزكها وضعفها لي وما عملت فيه من سيئة فاغفرها لي إنك غفور رحيم ودود كريم . قال : ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه .

دعاء عيسى عليه الصلاة والسلام

كان يقول . اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو وأصبح الأمر بيد غيري وأصبحت مرتبها بعمل فلا فقير أفقر مني . اللهم لا تشمت بي عدوى ولا تسوئ لي صديق ولا تجعل مصيبتى في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا تسلط علي من لا يرحمي يا حي يا قيوم .

دعاء الخضر عليه السلام

يقال : إن الخضر وإلياس عليهما السلام إذا التقيا في كل موسم لم يفترقا إلا عن هذه الكلمات « بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله ما شاء الله كل نعمة من الله ما شاء الله الخير كله بيد الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله » فمن قالها ثلاث مرات إذا أصبح أمن من الحرق والغرق والسرقة إن شاء الله تعالى .

دعاء معروف الكرخي رضي الله عنه

قال محمد بن حسان ؛ قال لي معروف الكرخي رحمه الله ألا أعلمك عشر كلمات خمس للدنيا وخمس للآخرة من دعا الله عز وجل بهن وحده تعالى عندهن : قلت . اكتبها لي قال لا . ولكن أرددها عليك كما رددتها على بكر بن خنيس رحمه الله حسبي الله لديني حسبي الله لديناي حسبي الله الكريم لما أهمني حسبي الله الحليم القوي لمن بغى علي حسبي الله الشديد لمن كادني بسوء حسبي الله الرحيم عند الموت حسبي الله الرموف عند المسألة في القبر حسبي الله الكريم عند الحساب حسبي الله اللطيف عند الميزان حسبي الله القدير عند الصراط حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ، وقد روى عن أبي الدرداء أنه قال « من قال في كل يوم سبع مرات (فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) كفاه الله عز وجل ما أهمه من أمر آخرته صادقا كان أو كاذبا ، .

دعاء عتبة الغلام

وقد رأى في المنام بعد موته فقال : دخلت الجنة بهذه الكلمات « اللهم يا هادي المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقيل عثرات العائرين أرحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأخيار المرزوقين الذين أنعمت عليهم من التبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين .

دعاء آدم عليه الصلاة والسلام

قالت عائشة رضي الله عنها : لما أراد الله عز وجل أن يتوب على آدم صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت سبعا

(١) حديث « قيل لأبي الدرداء : أحرقت دارك فقال ما كان الله ليعمل ذلك ... الحديث » أخرجه الطبراني في الدعاء من حديث أبي الدرداء ضعف .

وهو يومئذ ليس بمبنى ربوة حراء ثم قام فصلى ركعتين ثم قال « اللهم إنك تعلم سرى وعلايتى فاقبل معذرتى وتعلم حاجتى فأعطني سؤلى وتعلم ماى نعى فأعفر لى ذنوبى . اللهم إنى أسألك إيماناً يباشر قلبى ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبته على والرضا بما قسمته لى ياذا الجلال والإكرام » فأوحى الله عز وجل إليه لى قد غفرت لك ولم يأتى أحد من ذريتك هيدعونى بمثل الذى دعوتى به إلا غفرت له وكشفت غمومه وهمومه ونزعت العقر من بين عينيه واتجرت له من وراء كل تاجر وجاءته الدنيا وهى راغمة وإن كان لا يريد بها .

دعاء على بن أبى طالب رضى الله عنه

رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله تعالى يمجّد نفسه كل يوم ويقول : إنى أنا الله رب العالمين . إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحى القيوم . إنى أنا الله لا إله إلا أنا العلى العظيم . إنى أنا الله لا إله إلا أنا لم ألد ولم أولد إنى أنا الله لا إله إلا أنا العفو الغفور . إنى أنا الله لا إله إلا أنا مبدئ كل شىء وإلى يعود العزيز الحكيم الرحمن الرحيم مالك يوم الدين خالق الخير والشر خالق الجنة والنار الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا العرد الوتر عالم الغيب والشهادة الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الكبير المتعال المقتر القهار الحليم الكريم أهل الشاء والمجد أعلم السر وأخفى القادر الرزاق فوق الخلق والخلق »^(١) ، وذكر قبل كل كلمة « إنى أنا الله لا إله إلا أنا » كما أوردناه فى الأول فمن دعا بهذه الاسماء فليقل « إنى أنا أنت الله لا إله إلا أنت كذا وكذا » فمن دعا بهن كتب من الساجدين الخبيتين الذين يحاورون محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى والنبين صلوات الله عليهم فى دار الجلال . وله ثواب العابدين فى السموات والأرضين وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى .

دعاء ابن المعتز وهو سليمان التيمي وتسبيحاته رضى الله عنه

روى أن يونس بن عبيد رأى رجلا فى المنام من قتل شهيدا ببلاد الروم فقال : ما أفضل ما رأيت ثم من الأعمال ؟ قال : رأيت تسبيحات ابن المعتز من الله عز وجل بمكان وهى هذه « سبحان الله والحد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم عدد ما خلق وعدد ما هو خالق وزنة ما خلق وزنة ما هو خالق وملء ما خلق وملء ما هو خالق وملء سمواته وملء أرضه ومثل ذلك وأضعاف ذلك وعدد خلقه وزنة عرشه ومنتهى رحمته ومداد كلماته ومبلغ رضاه حتى يرضى وإذا رضى وعدد ما ذكره به خلقه فى جميع ماضى وعدد ما هم ذاكره فيما بقى فى كل سنة وشهر وجمعة ويوم وليلة وساعة من الساعات وشم ونفس من الأنفاس وأبد من الآباد من أبد إلى أبد أبد الدنيا وأبد الآخرة وأكثر من ذلك لا ينقطع أوله ولا ينشد آخره » .

دعاء إبراهيم بن آدم رضى الله عنه

روى إبراهيم بن بشار خادمه : أنه كان يقول هذا الدعاء فى كل يوم جمعة إذا أصبح وإذا أمسى « مرحبا بيوم المزيد والصبح الجديد والكاتب والشهيد يومنا هذا يوم عيد اكتب لنا فيه ما نقول بسم الله الحيد الحيد الرفيع الودود الفعال فى خلقه ما يريد أصبحت بالله مؤمنا وبلقائه مصدقا وبحجته معترفا ومن ذنبى مستغفرا ولربوبية الله خاضعا »

(١) حديث على « إن الله تعالى يمجّد نفسه كل يوم فيقول لى أنا الله رب العالمين لى أنا الله لا إله إلا أنا الحى القيوم .. الحديث » بطوله لم أجده أصلا .

ولسوى الله في الآلهة جاحداً وإلى الله فقيراً وعلى الله متكللاً وإلى الله منيباً أشهد الله وأشهد ملائكته وأنبياءه ورسوله وحملته وعرشه ومن خلقه ومن هو خالقه بأنه هو الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً وأن الجنة حق وأن النار حق والحوض حق والشفاعة حق ومنكراً وبكيراً حق ووعدك حق ووعدك حق ولقائك حق والساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور على ذلك أحيا وعليه أموت وعليه أبعث إن شاء الله . اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك اللهم من شر ما صنعت ومن شر كل ذي شر . اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت ليك وسعديك والخير كله بيدك أنا لك وإليك أستغفرك وأتوب إليك . آمين اللهم بما أرسلت من رسول وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب وصلى الله على محمد النبي الأسمى وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً خاتم كلامي ومفتاحه وعلى أنبيائه ورسوله أجمعين آمين يارب العالمين . اللهم أوردنا حوض محمد واسقنا بكأسه مشرباً رويًا سائغاً هنياً لا نظماً بعده أبداً واحشرنا في زمرة غير خزايا ولا ناكثين للعهد ولا مرتابين ولا مفتونين ولا مغضوب علينا ولا ضالين . اللهم اعصمني من فتن الدنيا ووقفني لما تحب وترضى وأصلح لي شأني كله وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولا تغفلني وإن كنت ظالماً سبحانه ، سبحانه يا عظم يا باري يا رحيم يا عزيز يا حار سبحانه من سبحت له السموات بأكفافها وسبحان من سبحت له البحار بأمرائها وسبحان من سبحت له الجبال بأصدائها وسبحان من سبحت له الحيتان بلغاتها وسبحان من سبحت له النجوم في السماء بأبراجها وسبحان من سبحت له الأشجار بأصولها وثمارها وسبحان من سبحت له السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن سبحانه من سبحت له كل شيء من مخلوقاته تباركت وتعاليت سبحانه ، سبحانه يا حي يا قيوم يا حلیم سبحانه لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك نحي وتميت وأنت حي لا تموت بيدك الخير وأنت على كل شيء قدير .

الباب الرابع

في أدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضي الله عنهم

محدوفة الأسانيد منتخبة من جملة ما جمعه أبو طالب المكي وابن خزيمة وابن منذر رحمهم الله يستحب للمريد إذا أصبح أن يكون أحب أوراده الدعاء - كما سيأتي ذكره في كتاب الأوراد - فإن كنت من المريدين لحرق الآخرة المقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما دعا به فقل في مفتتح دعواتك ^(١) أعقاب صلواتك ^(٢) سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . وقل : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ^(٣) - ثلاث مرات - وقل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ^(٤) وقل : اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي وأقل

الباب الرابع : في أدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) حديث « افتتح الدعاء بسبحان ربى العلى الوهاب » تقدم في الباب الثانى فى الدعاء (٢) حديث « القول عقب الصلوات لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » متفق عليه من حديث المنيرة بن شعبة .
(٣) حديث « رضيت بالله رباً . الحديث » تقدم فى الباب الأول من الأذكار (٤) حديث « اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه » =

عراقي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك أن أغتال من تحتي ^(١) اللهم لا تؤمني مكرك ولا تولني غيرك ولا تنزع عني سترك ولا تنسني ذكرك ولا تجعلني من الغافلين ^(٢) وقل : اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ^(٣) - ثلاث مرات - وقل : اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري لا إله إلا أنت ^(٤) - ثلاث مرات - وقل : اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم وشوقاً إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أعتدى أو يعتدى علي أو أكسب خطيئة أو ذنبا لا تغفره ^(٥) اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة في الرشد وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك وأسألك قلبا عاشقا سليما وخلقا مستقيا ولسانا صادقا وعملا متقبلا وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم فإنك تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ^(٦) اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني فإنك أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير وعلى كل غيب شهيد ^(٧) اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونعيا لا ينفذ وقرة عين الأبد ومرافقة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم في أعلى جنة الخلد ^(٨) اللهم إني أسألك الطيبات وفعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين أسألك حبك وحب من أحبك وحب كل عمل يقرب إلى حبك وأن تتوب علي وتغفر لي وترحمني وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون ^(٩) اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني ما كانت الوفاة خيرا لي أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة العدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك وأعوذ بك من ضراء مضرة وفتنة مضلة . واللهم زينا

= أخرجه أبو داود والترمذي وصححه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة « أن أبابكر الصديق قال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلمات أفولحن إذا أصححت وإذا أسيبت قال قل اللهم » فذكره (١) حديث « اللهم إني أسألك العافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عورتى وآمن روعتى وأقل عثرتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر « قال لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسي وحين يصبح » (٢) حديث « اللهم لا تؤمني مكرك ولا تولني غيرك ولا ترفع عني سترك ولا تنسني ذكرك ولا تجعلني من الغافلين » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس دون قوله « ولا تولني غيرك » ولسانه ضعيف (٣) حديث « اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » أخرجه البخاري من حديث شداد بن أوس وقد تقدم (٤) حديث « اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري لا إله إلا أنت - ثلاث مرات - » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي بكره وقال النسائي جعفر بن ميمون ليس بالقوى (٥) حديث « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء .. الحديث » لى قوله « أوذنبا لا يغفر » أخرجه أحمد والحاكم من حديث زيد بن ثابت في أثناء حديث وقال صحيح الإسناد (٦) حديث « اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد ... الحديث » لى قوله « وأنت علام الغيوب » أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وصححه من حديث شداد بن أوس . قلت : بل هو منقطع وضعيف (٧) حديث « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ... الحديث » لى قوله « وعلى كل غيب شهيد » متفق عليه من حديث أبي موسى هون قوله « وعلى كل غيب شهيد » وقد تقدم في الباب الثاني من هذا الكتاب (٨) حديث « اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونعيا لا ينفذ وقرة عين الأبد ... الحديث » أخرجه النسائي في اليوم والليلة والحاكم من حديث عبد الله بن مسعود دون قوله « وقرة عين الأبد » وقال صحيح الإسناد والنسائي من حديث عمار بن ياسر بأسناد جيد « وأسألك نعيا لا يبيد وقرة عين لا تنقطع » (٩) حديث « اللهم إني أسألك الطيبات وفعل الخيرات » الخيرات . الحديث « لى قوله غير مفتون » أخرجه الترمذي من حديث مماذ « اللهم إني أسألك فعل الخيرات ... الحديث » وقال حسن صحيح ولم يذكر « الطيبات » وهي في الدعاء للطبراني من حديث عبد الرحمن بن عايش وقال أبو حاتم ليست له صحبة

بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين ^(١) اللهم اقم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا ومعاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا والآخرة ^(٢) اللهم املا وحوها منك حياء وقلوبنا منك فرقا واسكن في نفوسنا من عظمتك ما تذلل به حوارنا لخدمتك واجعلك اللهم أحب إلينا ممن سواك واجعلنا أخشى لك ممن سواك ^(٣) اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكريمة ومغفرة ^(٤) الحمد لله الذى تواضع كل شيء لعظمته وذلل كل شيء لعزته وخضع كل شيء للملك واستسلم كل شيء لقدرته والحمد لله الذى سكن كل شيء لهيبته وأظهر كل شيء بحكمته وتصاغر كل شيء لكبريائه ^(٥) اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأزواج محمد وذريته وبارك على محمد وعلى آل محمد وعلى إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد ^(٦) اللهم صلى على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي رسولك الأمين وأعطه المقام المحمود الذى وعدته يوم الدين ^(٧) اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين واستعملنا لمرضايتك عنا ووفقنا لنجاك منا وصرفنا بحسن اختيارك لنا ^(٨) نسألك جوامع الخير وفوائده وخواتمه ونعوذ بك من جوامع الشر وفوائده وخواتمه ^(٩) اللهم بقدرتك على تب على إنك أنت التواب الرحيم وبحملك على اعف عنى إنك أنت الغفار الحليم وبعلمك بى أرفق بى إنك أنت أرحم الراحمين وبملكك لى ملكنى نفسى ولا تسلطها على إنك أنت الملك الجبار ^(١٠) سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى ذنبى إنك أنت ربى ولا يغفر الذنوب إلا أنت ^(١١) اللهم ألهمنى رشدى وقى شر نفسى ^(١٢) اللهم ارزقنى حلالا لا تعاقبنى عليه وقمعى بما رزقتى

(١) حديث « اللهم انى أسألك بملك العيب وقدرتك على الخلق أحببى ما كانت الحياة خيرا لى ... الحديث » الى قوله « واجعلنا هداة مهتدين » أخرجه النسائى والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث عمار بن ياسر « قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو به » (٢) حديث « اللهم اقم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك .. الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائى فى اليوم والليلة والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى من حديث ابن عمر « أن ابي صلى الله عليه وسلم كان يختم بجملة بذلك » (٣) حديث « اللهم املا وحوها منك حياء وقلوبنا بك فرقا ... الحديث » الى قوله « واجعلنا أخشى لك من سواك » لم أقف له على أصل (٤) حديث « اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكريمة » أخرجه عبد بن حميد فى المنتخب والطبرانى من حديث ابن أوفى بالشر الأول فقط الى قوله « نجاحا » واسناده ضعيف .

(٥) حديث « الحمد لله الذى تواضع كل شيء لعظمته وذلل كل شيء لعزته ... الحديث » الى قوله « وتصاغر كل شيء لكبريائه » أخرجه الطبرانى من حديث ابن عمر بسند ضعيف دون قوله « والحمد لله الذى سكن كل شيء لهيبته » الى آخره وكذلك رواه فى الدعاء من حديث أم سلمة وسنده ضعيف أيضاً (٦) حديث « اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ... الحديث » الى قوله « حميد مجيد » تقدم فى الباب الثانى (٧) حديث « اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك الى الامى رسول الاميين وأعطه المقام المحمود يوم الدين » لم أجده بهذا اللفظ مجموعا والبخارى من حديث أبى سعيد « اللهم صل على محمد عبدك ورسولك » وابن حبان والدارقطنى والحاكم والبيهقى من حديث ابن مسعود « اللهم صل على محمد الى الامى » والنسائى من حديث حابر « وانشه المقام المحمود الذى وعدته » وهو عبد البخارى باللفظ « وابعثه مقاما محمودا » قال الدارقطنى لاساده حسن وقال الحاكم صحيح وقال البيهقى فى المعرفة لاسناده صحيح (٨) حديث « اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين ... الحديث » الى قوله « صرفنا بحسن اختيارك لنا » لم أقف له على أصل (٩) حديث « نسألك جوامع الخير وفوائده وخواتمه ونعوذ بك من جوامع الشر وفوائده وخواتمه » أخرجه الطبرانى من حديث أم سلمة « أنه كان يدعو بهؤلاء الكلمات » فذكر منها « اللهم لى أسألك فوائده الخير وخواتمه وأوله وآخره وباطنه والدرجات العلى من الجنة آمين » فيه عاصم بن عبيد لأعلم روى عنه إلا موسى ابن عتبة (١٠) حديث « اللهم بقدرتك على تب على إنك أنت التواب الرحيم وبحملك على اعف عنى ... الحديث » الى قوله « إنك الملك الجبار » لم أقف له على أصل (١١) حديث « سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى ذنبى أنت ربى لأنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » أخرجه البيهقى فى الدعوات من حديث على دون قوله « ذنبى إنك أنت ربى » وقد تقدم فى الباب الثانى (١٢) حديث « اللهم ألهمنى رشدى وقى شر نفسى » أخرجه الترمذى من حديث عمران بن حصين =

واستعلمني به صالحا تقبله مني ^(١) اللهم إني أسألك العفو والعافية وحسن اليقين والمعافاة في الدنيا والآخرة ^(٢) يامن لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لي مالا يصرك وأعطني مالا ينقصك ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين . أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين . أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم . ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم . ربنا آتتنا من لذك رحمة وهي لنا من أمرنا رشدا . ربنا آتتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . ربنا إنا سمعنا مناديا ينادي للإيمان - إلى قوله عز وجل - إنك لا تخلف الميعاد . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا - إلى آخر السورة ^(٣) - رب اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيرا . واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمات والأحياء منهم والأموات ^(٤) رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم وأنت خير الراحمين وأنت خير الغافرين وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على محمد خاتم النبيين وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ^(٥) .

أنواع الاستعاذة المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم

اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من أن أزدل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر ^(٦) اللهم إني أعوذ بك من طبع يهدي إلى طمع ومن طمع في غير مطمع ومن

= « أن النبي صلى الله عليه وسلم علمه لحسين » وقال حسن عريب ورواه النسائي في اليوم والليلة والحاكم من حديث حصين والدمعمران وقال صحيح على شرط الشيخين ^(١) حديث « اللهم ارحمني حلالا لا تافقي وبه وقني بما رزقتني واستعلمني به صالحا تقبله مني » أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس « كان أبي صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم فتنني بما رزقتني وبارك لي فيه وأخلف على كل غائبة لي بخير » وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ^(٢) حديث « اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافاة وحسن اليقين في الدنيا والآخرة » أخرجه النسائي من حديث أبي بكر الصديق « لفظ » سلوا الله المعافاة فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيرا من المعافاة « وفي رواية للبيهقي « سلوا الله العفو والعافية واليقين في الأولى والآخرة فإنه ما أوتي العبد بعد اليقين خيرا من العافية » وفي رواية لأحمد « أسأل الله العفو والعافية » ^(٣) حديث « يامن لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لي مالا يصرك وأعطني مالا ينقصك » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بن سعيد ^(٤) حديث « رب اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيرا واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمات والأحياء منهم والأموات » أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد حسن من حديث أبي أسيد الساعدي « قال رجل من بني سلمة هل بقي علي من برأبي شيء ؟ قال نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما ... الحديث » ولأن الشيخ ابن حبان في الثواب والمستغفر في الدعوات من حديث أنس « من استغفر للمؤمنين والمؤمنات رد الله عليه عن كل مؤمن مؤمنة من أول الدهر أو هو كاشي بل يوم القيامة » وسنده ضعيف وصحيح ابن حبان من حديث أبي سعيد « أيما رجل مسلم لم يكن عنده صدقة فيلعل في دعائه اللهم صل على محمد عبدك ورسولك وصل على المؤمنين والمؤمنات والمسلمات فلأنها زكاة » ^(٥) حديث « رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم وأنت خير الراحمين وخير المافرين » أخرجه أحمد من حديث أم سلمة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول رب اغفر وارحم واهدني السبل الأقوم » وفيه علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه ، وللطبراني في الدعاء من حديث ابن مسعود « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول لماذا سعى في بطن المسيل اللهم اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم » وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه ورواه موقفا عليه بسند صحيح ^(٦) حديث « اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من أن أزدل إلى أزدل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر » أخرجه البخاري من حديث سعيد بن أبي وقاص .

طمع حيث لا مطمع ^(١) اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لا تشبع .
وأعوذ بك من الجور فإنه يئس الضجيج ومن الحباثة فإنه يئس البطانة ومن الكسل والبخل والجبن والهرم ومن
أن أرد إلى أرذل العمر ومن فتنة الدجال وعذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات . اللهم إنا نسألك قلوباً أواهة بخيبة
منية في سبيلك . اللهم إني أسألك عزائم مغفرتك وموجبات رحمتك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر
والفوز بالجنة والنجاة من النار ^(٢) . اللهم إني أعوذ بك من السردى وأعوذ بك من الغم والفرق والهدم وأعوذ بك
من أن أموت في سبيلك مدبراً وأعوذ بك من أن أموت في تطلب الدنيا ^(٣) اللهم إني أعوذ بك شر ما علمت
ومن شر ما لم أعلم ^(٤) . اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والآهواء ^(٥) . اللهم إني أعوذ بك
من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء ^(٦) اللهم إني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر
وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة الدجال ^(٧) اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وشر لساني
وقلبي وشر مني ^(٨) . اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول ^(٩) . اللهم إني
أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والذلة والمسكنة وأعوذ بك من الكفر والفقر والفسوق والشقاق والتفاق
وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمعة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والعمى والجنون والجذام والبرص
وسوء الأسقام ^(١٠) اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحول عافيتك ومن فجأة نقيمتك ومن جميع سخطك ^(١١)
اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر وشر فتنة

(١) حديث « اللهم إني أعوذ بك من طبع يهوى إلى طبع وطبع في غير مطمع ومن طمع حيث لا مطمع » أخرجه أحمد
والحاكم من حديث معاذ وقال مستقيم الإسناد .

(٢) حديث « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ... الحديث » إلى قوله « والنجاة من النار »
أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح الإسناد وليس كما قال إلا أنه ورد مرفقاً في أحاديث جيدة الأسانيد

(٣) حديث « اللهم إني أعوذ بك من التردى وأعوذ بك من الغم ... الحديث » إلى قوله وأعوذ بك أن أموت في تطلب
الدنيا » أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي اليسر واسمه كتب عمر بزيادة فيه دون قوله « وأعوذ
بك أن أموت في تطلب الدنيا » وتقدم من عبد الجباري الاستعاذة من فتنة الدنيا . (٤) حديث « اللهم إني أعوذ بك من شر
ما علمت ومن شر ما لم أعلم » قلت : هكذا في غير نسخة « علمت » وأما هو « عملت » وأعمل » كذا رواه مسلم من حديث
عائشة ولأبي بكر بن الضحاک في الثمائل في حديث مرسل في الاستعاذة وفيه « وشر ما لم أعلم وشر ما لم أعلم » .

(٥) حديث « اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والآهواء » أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه واللعط
له من حديث قطبة بن مالك . (٦) حديث « اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء »
متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٧) حديث « اللهم إني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر وأعوذ بك من عذاب جهنم
وأعوذ بك من فتنة الدجال » أخرجه النسائي والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم « أنه كان يقول من الكفر والدين » وفي رواية للنسائي « من الكفر والفقر » ولمسلم من حديث أبي هريرة عن النبي
صلى الله عليه وسلم « أنه كان يتعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم وفتنة الدجال » وللشيخين من حديث عائشة في حديث قال فيه
« ومن شر فتنة المسيح الدجال » . (٨) حديث « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وشر بصري وشر لساني وقنبي وشر مني »
أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه والحاكم وصحح إسناده من حديث سهل بن حميد . (٩) حديث « اللهم إني أعوذ بك
من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول » أخرجه النسائي والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم
(١٠) حديث « اللهم إني أعوذ بك من القسوة والغلظة والذلة والمسكنة وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق
والنفاق والسمعة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسوء الأسقام » أخرجه أبو داود والنسائي
مقتصرين على الأربعة الأخيرة والحاكم بتمامه من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

(١٢) حديث « اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجأة نقيمتك ومن جميع سخطك » أخرجه مسلم من
حديث ابن عمر .

المسيح الدجال وأعوذ بك من المغرم والمأثم^(١) اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع وقلب لا يخشع وصلاة لا تنفع ودعوة لا تستجاب وأعوذ بك من شر الغم وفتنة الصدر^(٢) . اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماتة الأعداء^(٣) وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين آمين .

الباب الخامس : في الأدعية المأثورة عند حدوث كل حادث من الحوادث

إذا أصبحت وممعت الأذان فيستحب لك جواب المؤذن وقد ذكرناه وذكرنا أدعية دخول الخلاء والخروج منه وأدعية الوضوء في كتاب الطهارة . فإذا خرجت إلى المسجد فقل « اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً واجعل في سمعي نوراً واجعل في بصري نوراً واجعل خلقي نوراً وأماي نوراً واحمل من فوق نوراً اللهم أعطني^(٤) نوراً ، وقل أيضاً : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا إليك^(٥) فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تتقذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فإن خرجت من المنزل لحاجة فقل « بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجمل أو يجهل علي^(٦) بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم بسم الله التكلان على الله^(٧) ، فإذا انتهيت إلى المسجد تريد دخوله فقل « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم اغفر لي جميع ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك^(٨) ، وقدم رجلك اليمنى في الدخول فإذا رأيت في المسجد من يبيع أو يبتاع فقل « لا أبيع الله تجارتك^(٩) ، وإذا رأيت من ينشد ضالة في المسجد فقل « لا ردها الله عليك ، أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١٠) فإذا صليت ركعتي الصبح فقل « بسم الله اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي . . . السماء إلى آخره^(١١) »

(١) حديث « اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة العقر وشر فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من المأثم والمغرم » متفق عليه من حديث عائشة . (٢) حديث « اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع وقلب لا يخشع وصلاة لا تقع ودعوة لا تستجاب وأعوذ بك من سوء العمر وفتنة الصدر » أخرجه مسلم من حديث زيد بن أرقم في أثناء حديث « اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يشع ونفس لا تشبع وعمل لا يرفع ودعوة لا يستجاب لها وصلاة لا تنفع » وشك أبو المعتمر في سماعه من أسد والنسائي بإسناد حيد من حديث عمر في أثناء حديث « وأعوذ بك » وأبو داود من حديث أسد « اللهم إني أعوذ بك من سوء العمر وأعوذ بك من فتنة الصدر » . (٣) حديث « اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماتة الأعداء » أخرجه النسائي والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح على شرط مسلم .

الباب الخامس : في الأدعية المأثورة عند كل حادث من الحوادث

(٤) حديث « القول عند الخروج إلى المسجد اللهم اجعل لي قلبي نوراً وفي لساني نوراً ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس . (٥) حديث « اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا إليك ... الحديث » من حديث أبي سعيد الخنري بإسناد حسن . (٦) حديث « القول عند الخروج من المنزل لحاجته بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجمل أو يجهل علي » أخرجه أصحاب السنن من حديث أم سلمة قال الترمذي حسن صحيح . (٧) حديث « بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله التكلان على الله » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج من منزله قال بسم الله » فذكره إلا أنه لم يقل « الرحمن الرحيم » وفيه ضعف . (٨) حديث « القول عند دخول المسجد اللهم صل على محمد اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الترمذي حسن وليس لمسانده متصل ومسلم من حديث أبي حميد أو أبي أسيد « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك » وزاد أبو داود في أوله « فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم » . (٩) حديث « القول إذا رأى من يبيع أو يبتاع في المسجد لأرغب الله تجارتك » أخرجه الترمذي وقال حسن غريب والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي هريرة . (١٠) حديث « القول إذا رأى من ينشد ضالة في المسجد لاردها الله عليك » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (١١) حديث ابن عباس في القول بعد ركعتي الصبح « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي » الخ قد تقدم في الدعاء

كما أوردناه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فإذا ركعت فقل في ركوعك : اللهم لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت أنت ربى حسم سمعى ولصرى ومخى وعظمى وعصى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين ^(١) ، وإن أحببت فقل : سبحان ربى العظيم - ثلاث مرات - ^(٢) أو سبح قدوس رب الملائكة والروح ^(٣) ، فإذا رفعت رأسك من الركوع فقل : سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد ^(٤) ، وإذا سجدت فقل اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين اللهم سجد لك سوادى وخيالى وآمن بك فؤادى أبوء بنعمتك على وأبوء بذنبي وهذا ما جنيت على نفسى فاغفرلى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ^(٥) أو تقول : سبحان ربى الأعلى - ثلاث مرات - ^(٦) ، فإذا فرغت من الصلاة فقل : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام ^(٧) وتدعو بسائر الادعية التى ذكرناها . فإذا قمت من المجلس وأردت دعاء يكفر لغو المجلس فقل : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك عملت سوءا وطلعت نفسى فاغفرلى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ^(٨) فإذا دخلت السوق فقل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ^(٩) بسم الله اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها اللهم إني أعوذ بك من شرها وشر ما فيها اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يمينا فاجرة أو صفقة خاسرة ^(١٠) فإن كان عليك دين فقل : اللهم أكفنى بحلالك عن حرامك وأغننى بفضلك عمن سواك ^(١١) فإذا لبست ثوبا جديدا فقل اللهم كسوتنى هذا الثوب فلك الحمد أسألك من خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له ^(١٢) ، وإذا

- (١) حديث ابن عباس فى القول فى الركوع : اللهم لك ركعت ولك أسلمت ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث على
(٢) حديث القول فيه : سبحان ربى العظيم » ثلاثا أخرجه أبو داود والترمذى والبيهقى من حديث ابن مسعود وفيه انقطاع
(٣) حديث القول فيه : سبح قدوس رب الملائكة والروح » أخرجه مسلم من حديث عائشة
(٤) حديث القول عند الرفع من الركوع : سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث
أبى سعيد الخدرى وإن عباس دون قوله : سمع الله لمن حمده » فى فى اليوم واليلة للحسن بن على المعمرى وهو عند مسلم من
حديث ابن أبى أوفى وعند البخارى من حديث أبى هريرة (٥) حديث القول فى السجود : اللهم لك سجدت ... الحديث »
أخرجه مسلم من حديث على : اللهم سجد لك سوادى وخيالى وآمن بك فؤادى أبوء بنعمتك على وأبوء بذنبي وهذا ما جنيت
على نفسى فاغفرلى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح الإسناد وليس كما قال بل هو
ضعيف (٦) حديث : سبحان ربى الأعلى » ثلاثا أخرجه أبو داود والترمذى والبيهقى من حديث ابن مسعود وهو منقطع .
(٧) حديث القول إذا فرغ من الصلاة : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام » أخرجه مسلم
من حديث ثوبان (٨) حديث : كفارة المجلس سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت » أخرجه النسائى فى اليوم
واليلة من حديث رافع بن خديج بإسناد حسن (٩) حديث القول عند دخول السوق : لا إله إلا الله وحده لا شريك له
له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير » من حديث عمر وقال غريب والحاكم وقال
صحيح على شرط الشيخين . (١٠) حديث : بسم الله اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها اللهم إني أعوذ بك
من شرها وشر ما فيها اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يمينا فاجرة أو صفقة خاسرة » أخرجه الحاكم من حديث بريدة وقال
أقربها للتراث هذا الكتاب حديث بريدة . قلت فيه أبو هريرة جار لشعيب بن حرب ولعله حفص بن سليمان الأسدى يختلف فيه
(١١) حديث دعاء الدين : اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك » أخرجه الترمذى وقال حسن غريب
والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث على بن أبى طالب (١٢) حديث الدعاء إذا لبس ثوبا جديدا : اللهم كسوتنى هذا الثوب
فلك الحمد أسألك من خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » أخرجه أبو داود والترمذى وقال حسن
والنسائى فى اليوم واليلة من حديث أبى سعيد الخدرى ورواه ابن السنى بلفظ المصنف .

رأيت شيئاً من الطيرة تكهره فقل « اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لا حول ولا قوة إلا بالله ^(١) » ، وإذا رأيت الهلال فقل « اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والبر والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى والحفظ عن تسخط ، ربى وربك الله ^(٢) » ، ويقول « هلال رشد وخير آمنت بخالقك ^(٣) اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر ^(٤) » ، وتكبر قبله أولاً ثلاثاً . وإذا هبت الريح فقل « اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها ومن شر ما أرسلت به ^(٥) » ، وإذا بلغك وفاة أحد فقل « إنا لله وإنا إليه راجعون وإنا إلى ربنا لمنقلبون اللهم اكتبه في المحسنين واحمل كتابه في عليين واخلفه على عقبه في الغابرين اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله ^(٦) » وتقول عند التصديق « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » وتقول عند الخسران « عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون » وتقول عند ابتداء الأمور « ربنا آتانا من لدنك رحمة وهي لنا من أمرنا رشداً - رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري » وتقول عند النظر إلى السماء « ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقتنا عذاب النار - تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقميراً » وإذا سمعت صوت الرعد فقل « سبحانه من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ^(٧) » فإن رأيت الصواعق فقل « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك ^(٨) » ، قاله كعب . فإذا أمطرت السماء فقل « اللهم سقيا هنيئاً وصيباً نافعاً ^(٩) » اللهم اجعله صيب رحمة ولا تجعله صيب عذاب ^(١٠) » ، فإذا غضبت فقل « اللهم اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي

(١) حديث القول إذا رأى شيئاً من الطيرة يكرهه « اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لا حول ولا قوة إلا بالله » أخرجه ابن أبي شيبة وأبو نعيم في اليوم والليالي واليهيقي في الدعوات من حديث عروة بن عامر مرسلًا ورجاله ثقات وفي اليوم والليالي لابن السني عن عفة بن عامر لحقه مسنداً (٢) حديث « التكبير عند رؤية الهلال - ثلاثاً - ثم يقول : اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام ربى وربك الله » أخرجه الداريمى من حديث ابن عمر إلا أنه أطلق التكبير ولم يقل « ثلاثاً » ورواه الترمذى وحسنه من حديث طلحة بن عبيد الله دون ذكر التكبير واليهيقي في الدعوات من حديث قتادة مرسلًا « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلال كثر ثلاثاً » (٣) حديث « هلال خير ورشد آمنت بخالقك » أخرجه أبو داود مرسلًا من حديث قتادة « أنه بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى الهلال قال هلال خير ورشد هلال خير ورشد آمنت بالذي خلقك - ثلاث مرات - » وأسند الدارقطنى في الأفراد والطبرانى في الأوسط من حديث أنس وقال أبو داود وليس في هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث مسند صحيح (٤) حديث « اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر » أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد في مسنديهما من حديث عبادة بن الصامت وفيه من لم يسم بل قال الراوى عنه حدثني من لا أتهم (٥) حديث « القول إذا هبت الريح : اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح والسنن في اليوم والليالي من حديث أبي بن كعب (٦) حديث « القول إذا بلغه وفاة أحد لنا لله وإنا إليه راجعون وإنا إلى ربنا لمنقلبون اللهم اكتبه في المحسنين واجعل كتابه في عليين واخلفه على عقبه في الغابرين اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله » أخرجه ابن السني في اليوم والليالي وابن حبان من حديث أم سلمة « إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل لما لله وإنا إليه راجعون » وأسلم من حديثها « اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يارب العالمين واسحله في قبره ونوره فيه .

(٧) حديث « القول إذا سمع صوت الرعد : سبحانه من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » أخرجه مالك في الموطأ عن عبد الله بن الزبير موقوفًا ولم أجده مرصوعاً . (٨) حديث « القول عند الصواعق : اللهم لا تهلكنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » أخرجه الترمذى وقال غريب والسنن في اليوم والليالي من حديث ابن عمر وابن السني بإسناد حسن .

(٩) حديث « القول عند المطر : اللهم سقيا هنيئاً وصيباً نافعاً » أخرجه البخارى من حديث عائشة « كان إذا رأى المطر قال : اللهم اجعله صيباً نافعاً » وابن ماجه « سيباً » بالسين أوله والسنن في اليوم والليالي « اللهم اجعله صيباً هنيئاً » وأسندهما صحيح (١٠) حديث « اللهم اجعله صيب رحمة ولا تجعله صيب عذاب » أخرجه السنن في اليوم والليالي من حديث سعيد بن المسيب مرسلًا .

وأجرني من الشيطان الرجيم ^(١) ، فإذا خفت قوما فقل « اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم » ^(٢) ، فإذا غزوت فقل « اللهم أنت عضدى ونصيرى وبك أقاتل » ^(٣) ، وإذا طنت أذنك فصل على محمد صلى الله عليه وسلم وقل « ذكر الله من ذكرنى بخير » ^(٤) ، فإذا رأيت استجابة دعائك فقل الحمد لله الذى بعزته وجلاله تم الصالحات ، وإذا أبطأت فقل « الحمد لله على كل حال » ^(٥) ، وإذا سمعت أذان المغرب فقل « اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعائك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لى » ^(٦) ، وإذا أصابك هم فقل « اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزاته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء غمي وذهاب حزنى وهمى » ^(٧) ، قال صلى الله عليه وسلم « ما أصاب أحداً حزن فقال ذلك إلا أذهب الله همه وأبدله مكانه فرحاً فقيل له يا رسول الله أفلا نتعلمها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم بل ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها ، وإذا وجدت وجعاً فى جسدك أو جسد غيرك فارقه برقية رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا اشتكى الإنسان قرحة أو جرحاً وضع سبابة على الأرض ثم رفعها وقال بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا » ^(٨) ، وإذا وجدت وجعاً فى جسدك فضع يدك على الذى يتألم من جسدك وقل « بسم الله - ثلاثاً - وقل سبع مرات : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » ^(٩) ، فإذا أصابك كرب فقل « لا إله إلا الله العلى الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم » ^(١٠) ، فإن أردت النوم فتوضأ أولاً ثم توسد على يمينك مستقبل القبلة ثم كبر الله تعالى أربعاً وثلاثين وسبحه ثلاثاً وثلاثين واحمده ثلاثاً وثلاثين ^(١١) ، ثم قل « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك اللهم إني لا أستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثبتت على نفسك » ^(١٢) اللهم باسمك أحيا وأموت ^(١٣) اللهم رب السموات ورب الأرض ورب كل شئ ومليك فائق الحب والنوى ومنزل التوراة والإنجيل

(١) حديث « القول اذا عص : اللهم اغفر ذنبي وأذهب عيظ قلبي وأجرني من الشيطان الرجيم » أخرجه ابن السني في اليوم والليالي من حديث عائشة بسند ضعيف . (٢) حديث « القول اذا خاف قوما : اللهم اني أجمعك فى نحورهم وأعوذ بك من شرورهم » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليالي من حديث أبي موسى بسند صحيح . (٣) حديث « القول اذا عزا : اللهم أنت عضدى ونصيرى وبك أقاتل » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائي من حديث أس قال الترمذى حسن عريب .

(٤) حديث « القول عند طين الأذن : اللهم صل على محمد ذكر الله خير من ذكرنى » أخرجه الطبراني وابن عدى وابن السني في اليوم والليالي من حديث أنى رافع بسند ضعيف . (٥) حديث « القول اذا رأى استجابة دعائه : الحمد لله الذى بعثته تم الصالحات » تقدم فى الدعاء . (٦) حديث « القول اذا سمع أذان المغرب : اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعائك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لى » أخرجه الترمذى وأبو داود وقال غريب والحاكم من حديث أم سلمة دون قوله « وحضور صلواتك » فإنها عند الخرائطى فى مكارم الأخلاق والحسن بن على المعمرى فى اليوم والليالي . (٧) حديث « القول اذا أصابه هم : اللهم انى همك واس عبدك وان أمتك ناصيتي بيدك .. الحديث » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط مسلم ان سلم من ارسال عبد الرحمن عن أبيه فإنه مختلف فى سماعه من أبيه .

(٨) حديث « رقية رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا » متفق عليه من حديث عائشة . (٩) حديث « وضع يده على الذى يألم من جسده ويقول : بسم الله - ثلاثاً - ويقول : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر سبع مرات » أخرجه مسلم بن حديث عثمان بن أبى العاص . (١٠) حديث « دعاء الكرب لا إله إلا الله العلى الحليم .. الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس . (١١) حديث « التكبير عند اليوم أربعاً وثلاثين والتسبيح ثلاثاً وثلاثين والتحميد ثلاثاً وثلاثين » متفق عليه من حديث على . (١٢) حديث « القول عند اراءة اليوم : اللهم انى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك اللهم لا أستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثبتت على نفسك » أخرجه النسائي فى اليوم والليالي من حديث على وفيه انقطاع . (١٣) حديث « اللهم باسمك أحيا وأموت » أخرجه البخارى من حديث حذيفة ومسلم من حديث البراء .

والقرآن أعوذ بك من شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين وأغنني من الفقر (١) اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة (٢) باسمك ربى وضعت جنبي فاغفر لي ذنبي (٣) اللهم قنى عذابك يوم تجمع عبادك (٤) اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك والجلأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت ونييتك الذي أرسلت (٥) ، ويكون هذا آخر دعائك فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وليقل قبل ذلك اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك واستعملني بأحب الأعمال إليك تقربني إليك زلي وتبعدني من سخطك بعداً أسألك فتعطيني واستغفرني فتغفر لي وأدعوك فتستجيب لي (٦) ، فإذا استيقظت من نومك عند الصباح قل : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه اللشور (٧) أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله (٨) أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أئمتنا إبراهيم خيفاً وما كان من المشركين (٩) اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير (١٠) اللهم إني أسألك أن تبعثني في هذا اليوم إلى كل خير ونعوذ بك أن يجترح فيه سوءاً أو نجره إلى مسلم فإنك قلت ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ﴾ (١١) اللهم فالحق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه (١٢) بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله ما شاء الله

- (١) حديث « اللهم رب السموات والأرض رب كل شيء ومليكه فالحق الحب والنوى ... الحديث » إلى قوله « وأغننا من الفقر » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٢) حديث « اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاها . الحديث » إلى قوله « اللهم إني أسألك العافية » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . (٣) حديث « باسمك ربى وضعت جنبي فاغفر لي ذنبي » أخرجه النسائي في اليوم والليله من حديث عبد الله بن عمرو بسند جيد وللشيخين من حديث أبي هريرة « باسمك ربى وضعت جنبي وبك أرفعه ان أمسكت نفسي فاغفر لها » وقال البخاري « فأرحها وان أرسلتها فاحقها عما تحفظ به عبادك الصالحين » . (٤) حديث « اللهم قنى عذابك يوم تجمع عبادك » أخرجه الترمذي في التمهال من حديث ابن مسعود وهو عند أبي داود من حديث حفصة بلفظ « نعمت » وكذا رواه الترمذي من حديث حذيفة وصححه من حديث البراء وحسنه . (٥) حديث « اللهم إني أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك .. الحديث » متفق عليه من حديث البراء . (٦) حديث « اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك واستعملني في أحب الأعمال إليك تقربني إليك زلي وتبعدني من سخطك بعداً أسألك فتعطيني واستغفرني فتغفر لي وأدعوك فتستجيب لي » أخرجه أبو مصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس « اللهم استأني أحب الساعات إليك حتى تذكرني فذكرنا وسألك فتعطيني وتدعوك فتستجيب لنا وتستغفر لنا » وإسناده ضعيف وهو معروف من قول جيب الطائي كما رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء . (٧) حديث « القول : إذا استيقظ من نومه الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه اللشور » أخرجه البخاري من حديث حذيفة ومسلم من حديث البراء . (٨) حديث « أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة أم المؤمنين وأسحق بن عمار والحول والقوة والقدرة والسلطان والسموات والأرض وكل شيء لله رب العالمين » وله في الدعاء من حديث ابن أبي أوى « أصبحت وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والخلق والليل والنهار وما سكن فيها لله » وإسنادهما ضعيف ومسلم من حديث ابن مسعود « أصبحنا وأصبح الملك لله » . (٩) حديث « أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أئمتنا إبراهيم خيفاً وما كان من المشركين » أخرجه النسائي في اليوم والليله من حديث عبد الرحمن بن أبيزى بسند صحيح ورواه أحمد من حديث ابن أبيزى عن أبي بن كعب مرفوعاً . (١٠) حديث « اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان وحسنه الترمذي إلا أنهم قالوا « وإليك اللشور » ولا في المتن « وإليك المصير » . (١١) حديث « اللهم إني أسألك أن تبعثني في هذا اليوم إلى كل خير ونعوذ بك أن يجترح فيه سوءاً أو نجره إلى مسلم » لم أجده أوله والتزمذي من حديث أبي بكر في حديث له وأعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه وأن تقترف على أمسا سوءاً أو نجره إلى مسلم » رواه أبو داود من حديث أبي مالك الأشعري بإسناد جيد . (١٢) حديث « اللهم فالحق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس =

كل نعمة من الله ما شاء الله الخير كله بيد الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله ^(١) رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً - ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ^(٢) - وإذا أمسى قال ذلك إلا أنه يقول « أمسينا » ويقول مع ذلك أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ما ذرأ وبرأ ومن شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ^(٣) وإذا نظرتي المرأة قال الحمد لله الذي سوى خلقى فعدله وكرم صورة وجهي وحسنها وجعلني من المسلمين ^(٤) وإذا اشتريت خادماً أو غلاماً أو دابة نخذ بناصيته وقل اللهم إني أسألك خيره وخير ما جبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه ^(٥) وإذا هنأت بالنكاح فقل بارك الله فيك وبارك عليك وجمع بينكما في خير ^(٦) وإذا قضيت الدين فقل للمقضى له بارك الله لك في أهلك ومالك إذ قال صلى الله عليه وسلم « وإنما جزاء السلف الحمد والأداء » ^(٧) .

فهذه أدعية لا يستغنى المريد عن حفظها وماسوى ذلك من أدعية السفر والصلاة والوضوء ذكرناها في كتاب الحج والصلاة والطهارة . فإن قلت : فما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له ؟ فاعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء فالدعاء سبب

= والقمر حسبنا أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه « قلت هو مركب من حديثين فروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم فائق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبنا اقم عى الدين وأغنني من الفقر وقوني على الجهاد في سبيلك » وللدارقطبي في الأفراد من حديث البراء « نسألك خير هذا اليوم وخير ما بعده ولعود بك من شر هذا اليوم وشر ما بعده » وأبو داود من حديث أبي مالك الأشعري « اللهم إنا نسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وهدايته وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده » وسنده جيد وللحسن بن علي المعمرى في اليوم والليلة من حديث ابن مسعود « اللهم إني أسألك خير ما في هذا اليوم وخير ما بعده وأعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما بعده » والحديث عند مسلم في المساء « خير ما في هذه الليلة .. الحديث » ثم قال : ولذا أصبح قال ذلك أيضاً .

(١) حديث « بسم الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله ماشاء الله كل نعمة من الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله » عند في السكامل من حديث ابن عباس ولا أعلمه إلا صرفوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يلقى الخضر وإلياس عليهما الصلاة والسلام كل عام بالموسم يعني فيعطى كل واحد منهما رأس صاحبه فيفترقان عن هذه الكلمات « فذكره ولم يقل « الخير كله بيد الله » قال موضعا « لا يسوق الخير إلا الله » قال ابن عباس : من قاله حين يصبح وحين يمسي أمسه الله من العرق والحرق وأحسبه قال : ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب . أوردته في ترجمة الحسين بن زرير قال ليس بالمعروف وهو بهذا الإسناد منكر .

(٢) حديث « رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً » تقدم في الباب الأول . (٣) حديث « القول عند المساء مثل الصباح إلا أنك تقول : أمسينا » وتقول مع ذلك أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ما ذرأ وبرأ ومن شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث عبد الرحمن بن عوف « من قال حين يصبح أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ وذرأ اعتصم من شره الثقيل ... الحديث » وفيه « وإن قاله حين يمسي كن له كذلك حتى يصبح » وفيه إن لمعة ولأحمد من حديث عبد الرحمن بن حسن في حديث « إن جبريل قال يا محمد قل أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء ... الحديث » واستاده جيد ومسلم من حديث أبي هريرة في الدعاء عند النوم « أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها » وللطبراني في الدعاء من حديث أبي الدرداء « اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة ... الخ الحديث » وقد تقدم في الباب الثاني . (٤) حديث « القول إذا نظرتي المرأة : الحمد لله الذي سوى خلقى فعدله وكرم صورة وجهي وحسنها وجعلني من المسلمين » أخرجه الطبراني في الأوسط وابن السني في اليوم والليلة من حديث أنس بسند ضعيف . (٥) حديث « القول إذا اشتري خادماً أو دابة : اللهم إني أسألك خيره وخير ما جبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند جيد . (٦) حديث « التهنة بالنكاح : بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة قال الترمذي حسن صحيح .

(٧) حديث « الدعاء لصاحب الدين إذا قضى الله دينه : بارك الله لك في أهلك ومالك إنما جزاء السلف الحمد والأداء » أخرجه النسائي من حديث عبد الله بن أبي ربيعة قال « استقرض مني النبي صلى الله عليه وسلم أربعين ألفاً فجاءه مال فدفعه إلى » قال فذكره واستاده حسن .

لرد البلاء واستجلاب الرحمة كما أن الترس سبب لرد السهم والماء سبب لخروج النبات من الأرض فكما أن الترس يدفع السهم فيستدفعان فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان . وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح وقد قال تعالى ﴿ خذوا حذركم ﴾ وأن لا يسقى الأرض بعد بث البذر فيقال إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر وإن لم يسبق لم ينبت . بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلبح البصر أو هو أقرب وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدرج والتقدير هو القدر والذي قدر الخير قدره بسبب . والذي قدر الشر قدر لدفعه سببها فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته . ثم في الدعاء من الفائدة ما ذكرناه في الذكر فإنه يستدعى حضور القلب مع الله وهو منتهى العبادات ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة »^(١) ، والغالب على الخلق أنه لا تصرف قلوبهم إلى ذكر الله عز وجل إلا عند إمام حجة وإرهاق ملة فإن الإنسان إذا مسه الشر فدو دعاء عريض . فالحاجة تخرج إلى الدعاء والدعاء يرد القلب إلى الله عز وجل بالتضرع والاستكانة فيحصل به الذكر الذي هو أشرف العبادات . ولذلك صار البلاء موكلا بالأنساء عليهم السلام ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل لأنه يرد القلب بالافتقار والتضرع إلى الله عز وجل ويمنع من نسيانه وأما الغنى فسبب للبطر في غالب الأمور فإن الإنسان ليطفئ أن رآه استغنى . فهذا ما أردنا أن نورد من جملة الأذكار والدعوات والله الموفق للخير . وأما بقية الدعوات في الأكل والسفر وعيادة المريض وغيرها فستأتى في مواضعها إن شاء الله تعالى وعلى الله التكلان .

يجز كتاب الأذكار والدعوات ، بكتابه . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب : الأوراد . والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل

وهو الكتاب العاشر من إحياء علوم الدين

وبه اختتام ربع العبادات نفع الله به المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

حمد الله على آلائه حمدا كثيرا ونذكره ذكرا لا يغادر في القلب استكبارا ولا بهورا ونشكره إذ جعل الليل والنهار حلقة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ونصلى على نبيه الذي بعثه بالحق بشيرا ونذيرا وعلى آله الطاهرين وصحبه الأكرمين الذين اجتهدوا في عبادة الله غدوة وعشيا وبكرة وأصيلا حتى أصبح كل واحد منهم نجما في الدين هاديا وسراجا منيرا .

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الأرض ذلولا لعباده لالاستقروا في مناكها بل ليتخذوها منزلا فيتزودوا منها إذا يحملهم في سفرهم إلى أوطانهم ويكتنزون منها تحفا لنفوسهم عملا وفضلا محترزين من مصايدها ومعاطبها ويتحققون أن العمر يسير بهم سير السفينة براكبها . فالناس في هذا العالم سفر وأول منازلهم المهلد وآخرها اللحد والوطن هو الجنة أو النار . والعمر مسافة السفر ؛ فسنوه مراحلها ، وشهروه فرائضه ، وأيامه آمياله وأهله خطواته وظاعته بضاعته وأوقانه رموس أمواله ، وشهواته وأغراضه قطاع طريقه ، وربحه الفوز بقاء الله تعالى في دار السلام مع الملك

(١) حديث « الدعاء مخ العبادة » تقدم في الباب الأول

الكبير والمعيم المقيم ، وخسرانه الدحد من الله تعالى مع الأسكال والأغلال والعداب الاليم في دركات الجحيم . فالغافل في نفس من أنفاسه حتى يقضى في غير طاعة تقتره إلى الله زلفى متعرض في يوم التعاس لغيبته وحسرة ماله منتهى ولهذا الخطر العظيم والخطب الهائل شمر الموفقون عن ساق الحد وودعوا بالكلية ملاذ النفس واغتنموا بقايا العمر . ورتبوا بحسب تكرار الأوقات وظائف الأوراد حرصا على إحياء الليل والنهار في طلب القرب من الملك الجبار والسعى إلى دار القرار فصار من مهمات علم طريق الآخرة تفصيل القول في كيفية قسمة الأوراد وتوزيع العبادات التي سبق شرحها على مقادير الأوقات ويتضح هذا المهم بذكر بابين . (الباب الأول) في فضيلة الأوراد وترتيبها في الليل والنهار . (الباب الثاني) في كيفية إحياء الليل وفضيلته وما يتعلق به .

الباب الأول : في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها

فضيلة الأوراد وبيان أن المواظبة عليها هي الطريق إلى الله تعالى

اعلم أن الناظرين بنور البصيرة علموا أنه لا نجاة إلا في لقاء الله تعالى وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد بحبا لله تعالى وعارفا بالله سبحانه . وأن المحبة والأنس لا تحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه . وأن المعرفة به لا تحصل إلا بدوام الفكر فيه وفي صفاته وأفعاله . وليس في الوجود سوى الله تعالى وأفعاله . ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا بدواع الدنيا وشهواتها والاجتزاء منها بعدد البلغة والضرورة وكل ذلك لا يتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار في وظائف الأذكار والأفكار . والنفس لما حملت عليه من السامة والملال لا تصبر على فن واحد من الأسباب المعينة على الذكر والفكر بل إذا ردت إلى نمط واحد أظهرت الملال والاستئثار وأن الله تعالى لا يمل حتى تملوا . فمن ضروره اللطف بها أن نزوح بالتنقل من فن إلى فن ومن نوع إلى نوع بحسب كل وقت لتغزر بالانتقال لذتها وتعظم باللذة رغبتها وتدوم بدوام الرغبة مواظبتها . فلذلك تقسم الأوراد قسمة مختلفة فالذكر والفكر ينبغي أن يستغرقا جميع الأوقات أو أكثرها فإن النفس بطبعها مائلة إلى ملاذ الدنيا . فإن صرف العبد شطر أوقاته إلى تدبيرات الدنيا وشهواتها المباحة مثلا والشطر الآخر إلى العبادات رجح جانب الميل إلى الدنيا لموافقتها الطبع إذ يكون الوقت متساويا ؛ فأنى يتقاومان والطبع لاحدهما مرجح إذ الظاهر والباطن يتساعدان على أمور الدنيا ويصفو في طلبها القلب ويتجرد . وأما الرد إلى العبادات فتكلف ولا يسلم إخلاص القلب فيه وحضوره إلا في بعض الأوقات فمن أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليستغفر في أوقاته في الطاعة . ومن أراد أن ترجح كفة حسناته وتثقل موازين خيراته فليستوعب في الطاعة أكثر أوقاته فإن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فأمره مخطر ولكن الرجاء غير منقطع والعفو من كرم الله منتظر فعسى الله تعالى أن يغفر له بحوده وكرمه ؛ فهذا ما انكشف للناظرين بنور البصيرة ؛ فإن لم تكن من أهله فانظر إلى خطاب الله تعالى لرسوله واقتبسه بنور الإيمان فقد قال الله تعالى لأقرب عباده إليه وأرفعهم درجة لديه ﴿ إن لك في النهار سبحا طويلا واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾ وقال تعالى ﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ﴾ وقال تعالى ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾ وقال سبحانه ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ وقال تعالى ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن آناه الليل فسبح وأطراف النهار لعنك ترضى ﴾ وقال عز وجل ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ ثم انظر كيف وصف العائزين من عباده وبماذا وصهم فقال تعالى ﴿ أم هو قانت

آءاء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرحو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (وقال تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا) وقال عز وجل (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) وقال عز وجل (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسفار هم يستغفرون) وقال عز وجل (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وقال تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) فهذا كله يبين لك أن الطريق إلى تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على سنيل الدوام . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة لذكر الله تعالى ^(١) » ، وقد قال تعالى (الشمس والقمر بحسبان) وقال تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا) وقال تعالى (والقمر قدرناه منازل) وقال تعالى (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) فلا تظنن أن المقصود من سير الشمس والقمر بحسبان منظوم مرتب ومن خلق الظل والنور والنجوم أن يستعان بها على أمور الدنيا بل لتعرف بها مقادير الأوقات فتشتغل بها بالطاعات والتجارة للدار الآخرة يدلك عليه قوله تعالى (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) أى يخلف أحدهما الآخر ليتدارك فى أحدهما ما فات فى الآخر ويبين أن ذلك للذكر والتذكر لاغير . وقال تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) وإنما الفضل المبتغى هو الثواب والمغفرة ونسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه .

بيان أعداد الأوراد وترتيبها

اعلم أن أوراد النهار سبعة : فما بين طلوع الصبح إلى طلوع قرص الشمس ورد ، وما بين طلوع الشمس إلى الزوال ورداد ، وما بين الزوال إلى وقت العصر ورداد ، وما بين العصر إلى المغرب ورداد . والليل يقسم إلى أربعة أوراد : ورداد من المغرب إلى وقت نوم الناس ، ورداد من النصف الأخير من الليل إلى طلوع الفجر . فلنذكر فضيلة كل ورد ووظيفته وما يتعلق به .

فالورد الأول : ما بين طلوع الصبح إلى طلوع الشمس وهو وقت شريف ويدل على شرفه وفضله إقسام الله تعالى به إذ قال (والصبح إذا تنفس) وقدحه به إذ قال (فائق الإصباح) وقال تعالى (قل أعوذ برب الفلق) وإظهاره القدرة بقبض الظل فيه إذ قال تعالى (ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا) وهو وقت قبض طل الليل ببسط نور الشمس وإرشاده الناس إلى التسييح فيه بقوله تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وبقوله تعالى (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) وقوله عز وجل (ومن آءاء الليل وسبح وأطراف النهار لعلك ترضى) وقوله تعالى (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) .

فأما ترتيبه : فليأخذ من وقت انتباهه من النوم فإذا انتبه فليبغى أن يبتدئ بذكر الله تعالى فيقول الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور إلى آخر الأدعية والآيات التى ذكرناها دعاء الاستيقاظ من كتاب الدعوات

كتاب الأوراد وفضل إحياء الليل

الباب الأول فى فضيلة الأوراد

(١) حدث « أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأهلة لذكر الله » أخرجه الطبرانى والمالك وقال صحيح الإسناد من حديث ابن أبى أوفى بلفظ « خيار عباد الله »

وليلبس ثوبه وهو في الدعاء وينوي به ستر عورته امتثالاً لأمر الله تعالى واستعانة به على عبادته من غير قصد رياء ولا رعونة ثم يتوجه إلى بيت الماء إن كان به حاجة إلى بيت الماء ويدخل أولاً رجله اليسرى ويدعو بالأدعية التي ذكرناها فيه في كتاب الطهارة عند الدخول والخروج . ثم يستاك على السنة - كما سبق - ويتوضأ مراعيًا لجميع السنن والأدعية التي ذكرناها في الطهارة فإنما قدمنا آحاد العبادات لكي نذكر في هذا الكتاب وجه التركيب والترتيب فقط . فإذا فرغ من الوضوء صلى ركعتي الفجر أعنى السنة في منزله ^(١) كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقرأ بعد الركعتين سواء أداها في البيت أو المسجد الدعاء الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما ويقول اللهم إني أسألك رحمة من عندك نهدي بها قلبي إلا آخر الدعاء ... ^(٢) ، ثم يخرج من البيت متوجهاً إلى المسجد ولا ينسى دعاء الخروج إلى المسجد ولا يسعى إلى الصلاة سعيًا بل يمشي وعليه السكينة والوقار ^(٣) كما ورد به الخبر ولا يشبك بين أصابعه . ويدخل المسجد ويقدم رجله اليمنى ويدعو بالدعاء المأثور لدخول المسجد ^(٤) ثم يطلب من المسجد الصف الأول إن وجد متمسكاً ولا يتخطى رقاب الناس ولا يراحم - كما سبق ذكره في كتاب الجمعة - ثم يصلي ركعتي الفجر إن لم يكن صلاهما في البيت ويشغل بالدعاء المذكور بعدهما . وإن كان قد صلى ركعتي الفجر صلى ركعتي التهجئة وجلس منتظراً للجماعة . والأحب التغليس بالجماعة فقد كان صلى الله عليه وسلم يغلس بالصبح ^(٥) ولا ينبغي أن يدع الجماعة في الصلاة عامة وفي الصبح والعشاء خاصة فلهما زيادة فضل . فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في صلاة الصبح : من توضأ ثم توجه إلى المسجد ليصلي فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة ومحى عنه سيئة والحسنة بعشر أمثالها ، فإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة في جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة فإن جلس حتى يركع الضحى كتب له بكل ركعة ألفاً حسنة ، ومن صلى العتمة فله مثل ذلك وانقلب بعمره مبرورة ^(٦) ، وكان من عادة السلف دخول المسجد قبل طلوع الفجر . قال رجل من التابعين : دخلت المسجد قبل طلوع الفجر فلقيت أباهريرة قد سبقني فقال لي : يا ابن أخي لأي شيء خرجت من منزلك في هذه الساعة ؟ فقلت : لصلاة الغداة فقال : ألسر فإياكنا نعد خروجنا وقعودنا في المسجد في هذه الساعة بمنزلة غزوة في سبيل الله تعالى ^(٧) - أو قال - مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقة وفاطمة رضي الله عنهما وهما نائمان فقال : ألا تصليان قال علي : فقلت يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله تعالى فإذا شاء أن يبعثنا نبعثها فانصرف صلى الله عليه وسلم فسمعته وهو منصرف يضرب نخذه ويقول : وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ^(٨) . ثم ينبغي أن يشتغل بعد ركعتي الفجر ودعائه بالاستغفار والتسبيح إلى أن تقام الصلاة فيقول : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه سبعين مرة

(١) حديث « صلاة ركعتي الصبح في المنزل » متفق عليه من حديث حفصة . (٢) حديث « الدعاء بعد ركعتي الصبح : اللهم إني أسألك رحمة من عندك . الحديث » تقدم . (٣) حديث « المضي إلى الصلاة وعليه السكينة » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « الدعاء المأثور لدخول المسجد » تقدم في الباب الخامس من الأذكار . (٥) حديث « التغليس في الصبح » متفق عليه من حديث عائشة . (٦) حديث « أنس في صلاة الصبح : من توضأ ثم توجه إلى المسجد يصلي فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة ومحى عنه سيئة والحسنة بعشر أمثالها وإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة في جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة فإن جلس حتى يركع الضحى كتب له بكل ركعة ألفاً حسنة ومن صلى العتمة فله مثل ذلك وانقلب بحجة مبرورة » لم أجده إلا بهذا السياق وفي شعب الإيمان للبيهقي من حديث أنس بسند ضعيف « ومن صلى المغرب في جماعة كان له حجة مبرورة وعمره مثقلة » (٧) حديث أبي هريرة « كنا نعد خروجنا وقعودنا في المجلس في هذه الساعة بمنزلة غزوة في سبيل الله » لم أقف له على أصل . (٨) حديث علي « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقة وفاطمة وهما نائمان فقال ألا تصليان قال علي : فقلت يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله ... الحديث » متفق عليه .

وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ، ثم يصلي الفريضة مراعيًا جميع ما ذكرناه من الآداب الباطنة والظاهرة في الصلاة والقدوة . فإذا فرغ منها قعد في المسجد إلى طلوع الشمس في ذكر الله تعالى كما سنرتبه فقد قال صلى الله عليه وسلم « لأن أقعد في مجلسي أذكر الله تعالى فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب »^(١) ، وروى « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى الغداة قعد في مصلاه حتى تطلع الشمس - وفي بعضها - ويصلي ركعتين »^(٢) ، أي بعد الطلوع وقد ورد في فضل ذلك ما لا يحصى . وروى الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيما يذكره من رحمة ربه يقول إنه قال : يا ابن آدم اذكرني بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما »^(٣) ، وإذا طهر فضل ذلك فليقعد ولا يتكلم إلى طلوع الشمس بل ينبغي أن تكون وظيفته إلى الطلوع أربعة أنواع أدعية وأذكار ويكررها في سبحة وقراءة قرآن وتفكير . أما الأدعية : فكلها يفرغ من صلاته فليبدأ وليقل « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام حينًا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام » ، ثم يفتتح الدعاء بما كان يشتت به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله « سبحان ربّي الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون »^(٤) ، ثم يبدأ بالأدعية التي أوردناها في الباب الثالث والرابع من كتاب الأدعية فيدعو بجميعها إن قدر عليه أو يحفظ من جملتها ما يراه أوفق بحاله وأرق لقلبه وأخف على لسانه .

وأما الأذكار المكررة فهي كلمات وردت في تكرارها فضائل لم نطوّل بإيرادها وأقل ما ينبغي أن يكرر كل واحد منها ثلاثاً أو سبعاً وأكثره مائة أو سبعون وأوسطه عشر . فليكررها بقدر فراغة وسعة وقته وفضل الأكثر أكثر . والأوسط الأقصد أن يكررها عشر مرات فهو أجدر بأن يدوم عليه وخير الأمور أدومها وإن قل . وكل وظيفة لا يمكن المواظبة على كثيرها فقليلها مع المداومة أفضل وأشد تأثيراً في القلب مع كثيرها مع الفترة . ومثال القليل الدائم كمقطرات ماء تتقاطر على الأرض على التوالي فتحدث فيها حفيرة ولو وقع ذلك على الحجر . ومثال الكثير المتفرق ماء يصب دهنه أو دفعات متفرقة متباعدة الأوقات فلا يبين لها أثر ظاهر وهذه الكلمات عشرة (الأولى) قوله : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير^(٥) (الثانية) قوله : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله

(١) حديث « لأن أقعد في مجلسي أذكر الله فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب » أخرجه أبو داود من حديث أنس وتقديم في الباب الثالث من العلم . (٢) حديث « كان إذا صلى الغداة قعد في مصلاه حتى تطلع الشمس وفي بعضها ويصلي ركعتين أي بعد الطلوع » أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة دون ذكر الركعتين والترمذي من حديث أنس وحسنه « من صلى الفجر في جماعة ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمره تامة تامة تامة » . (٣) حديث الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيما يذكر من رحمة ربه أنه قال : يا ابن آدم اذكرني من بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما » أخرجه ابن المبارك في الزهد هكذا مرسلًا . (٤) حديث « كان يفتتح الدعاء بسبحان ربّي الأعلى الوهاب » تقدم . (٥) حديث « الفضل في تكرار لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير » تقدم من حديث أنس أيوب تكرارها عشرًا دون قوله « يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير » فإنها في اليوم واليلة للسائق من حديث أنس دون قوله « وهو حي لا يموت » وهي كلها عند البزار من حديث عبد الرحمن بن عوف فيما يقال عند الصباح والمساء وتقدم تكرارها مائة ومائتين والطبراني الدعاء من حديث عبد الله بن عمر ومكرارها ألف مرة وإسناده ضعيف .

العلي العظيم ^(١) (الثالثة) قوله : سبوح قدوس رب الملائكة والروح ^(٢) . (الرابعة) قوله : سبحان الله العظيم وبجمده ^(٣) (الخامسة) قوله : أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة ^(٤) (السادسة) قوله : اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الحد منك الجند ^(٥) (السابعة) قوله : لا إله إلا الله الملك الحق المبين ^(٦) (الثامنة) قوله : بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ^(٧) (التاسعة) اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم ^(٨) (العاشر) قوله : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم رب أعوذ بك من همزات النساطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ^(٩) فهذه العشر كلمات إذا كرر كل واحدة عشر مرات حصل له مائة مرة « فهو أفضل من أن يكرر ذكرا واحدا مائة مرة » لأن لكل واحدة من هؤلاء الكلمات فصلا على حياله وللقلب بكل واحد نوع تذبذبة وتلذذ وللنفس في الانتقال من كلمة إلى كلمة نوع استراحة وأمن من الملل . وأما القراءة فيستحب له قراءة جملة من الآيات

(١) حديث « الفضل في تكرار : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله » أخرجه النسائي في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وصححه . من حديث أنس بن سعيد الخدري « استكثروا من الباقيات الصالحات » فذكرها (٢) حديث « تكرار : سبوح قدوس رب الملائكة والروح » لم أجده ذكرها مكررة ولكن عند مسلم من حديث عائشة « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقولها في ركوعه وسجوده » وقد تقدم ولأن الشيخ في الثواب من حديث البراء « أكثر من أن تقول سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح » . (٣) حديث « تكرار : سبحان الله وبجمده » متفق عليه من حديث أبي هريرة « من قال ذلك في يوم مائة مرة حط خطايا ما كان مثل زبد البحر » . (٤) حديث « تكرار : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة » أخرجه المستغفرى في الدعوات من حديث معاذ « أن من قالها بعد الفجر وبعد العصر ثلاث مرات كسرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر » ولفظه « وأتوب إليه » وفيه ضعف وهكذا رواه الترمذي من حديث أنس بن سعيد في قولها « ثلاثا » وللبخاري من حديث أنس بن سعيد « أني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » ولم يقل الطبراني « أكثر » . (٥) حديث « تكرار : اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجند منك الجند » لم أجده تكرارها في حديث واما وردت مطلقة عقب الصلوات وفي الرفع من الركوع . (٦) حديث « تكرار : لا إله إلا الله الملك الحق المبين » أخرجه المستغفرى في الدعوات والحطيط في الرواة عن مالك من حديث علي « من قالها في يوم مائة مرة كان له أمان من الفقر وأمان من وحشة القبر واستجاب له الدعوى واستقر باب الجنة » وفيه الفصل بن غام ضعيف ولأن بن سيم في الحلية « من قال ذلك في كل يوم ولاية مائة مرة لم يسأل الله فيهما حاجة الا قضاها » وفيه سلم الخواص ضعيف وقال فيه : أطلقه عن علي . (٧) حديث « تكرار : بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عثمان « من قال ذلك ثلاث مرات حين يسمى لم يصبه حاة بلاء حتى يصبح ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم يصبه حاة بلاء حتى يمسي » قال الترمذي حسن صحيح غريب .

(٨) حديث « تكرار : اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وسلم » ذكره أبو القاسم محمد بن عبد الواحد المافقي في فضائل القرآن من حديث ابن أبي أوفى « من أراد أن يموت في السماء الرامة فليقل كل يوم ثلاث مرات » فذكره وهو منكر . قلت : ورد التكرار عند الصباح والمساء من غير تعيين لهذه الصيغة رواه الطبراني من حديث أبي الدرداء بافظ « من صلى على حين يصبح عشرا وحين يمسي عشرا أدركته شفاعة يوم القيامة » وفيه انقطاع .

(٩) حديث « تكرار : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم أعوذ بالله من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » أخرجه الترمذي من حديث معقل بن يسار « من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك .. الحديث » ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة وقال حسن عريب ولا بن أبي الدنيا من حديث أنس مثل حديث مقطوع قبله « من قالها حين يصبح عشر مرات أجبر من الشيطان إلى الصبح ... الحديث » ولأن الشيخ في الثواب من حديث عائشة « ألا أعلمك يا حاد كلمات تقولها ثلاث مرات قل : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » والحديث عند أبي داود والترمذي وحسنه والحاكم وصححه فيما يقال عند الفزع دون تكرارها ثلاثا من حديث عبد الله بن عمرو .

وردت الأخبار بفضلها وهو أن يقرأ سورة الحمد ^(١) وآية الكرسي ^(٢) وخاتمة البقرة ^(٣) من قوله آمن الرسول وشهد الله ^(٤) وقل اللهم مالك الملك الآيتين ^(٥) وقوله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخرها ^(٦) وقوله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق إلى آخرها ^(٧) وقوله سبحانه الحمد لله لم يتخذ ولدا ^(٨) الآية وخمس آيات من أول الحديد ^(٩) وثلاثاً من آخر سورة الحشر ^(١٠) وإن قرأ المسبعات العشر التي أهداها الخضر عليه السلام إلى إبراهيم التيمي رحمه الله ووصاه أن يقولها غدوة وعشية فقد استكمل الفضل وجمع له ذلك فضيلة جملة الأدعية المذكورة . فقد روى عن كرز بن وبرة رحمه الله وكان من الأبدال قال ، أتاني أخى من أهل الشام فأهدى لى هدية وقال : يا كرز اقبل مى هذه الهدية فإنها لعمت الهدية . فقلت : يا أخى ومن أهدى لك هذه الهدية ؟ قال : أعطانيها إبراهيم التيمي ، قلت أفلم تسأل إبراهيم من أعطاه إياها ؟ قال : كنت جالسا فى فناء الكعبة وأنا فى التهليل والتسبيح والتحميد والتمجيد فأتاني رجل فسلم على وجلس عن يميني فلم أر فى زمانى أحسن منه وجها ولا أحسن منه ثيابا ولا أشد بياضا ولا أطيب ريحا منه فقلت يا عبد الله من أنت ومن أين جئت ؟ فقال : أنا الخضر ، فقلت : فى أى شيء حثني ؟ فقال : جئتك للسلام عليك وجبا لك فى الله وعندى هدية أريد أن أهدىها لك فقلت : ما هى ؟ قال : أن تقول

(١) حديث « فضل سورة الحمد » أخرجه البخارى من حديث أبي سعيد بن المولى أنها أعظم السور فى القرآن ومسلم من حديث ابن عباس « فى الملك الذى رل الى الأرض وقال للنبي صلى الله عليه وسلم أبشر - يورين أو تيتهما لم يؤتتهما بى قبلك : فاتحة الكتاب وحواتم سورة البقرة ، لم تقرأ حرف منها إلا أعطيت » . (٢) حديث « فضل آية الكرسي » أخرجه مسلم من حديث أبي بكر « يا أبا المردى أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قلت : الله لا اله الا هو الحى القيوم ... الحديث » والبخارى من حديث أبي هريرة فى توكيله بحفظ تمر الصدقة ومجيء الشيطان إليه وقوله « إذا آويت إلى فراشك فاقرا آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ... الحديث » وفيه « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما له قد صدقت وهو كدوب » . (٣) حديث « فضل خاتمة البقرة » متفق عليه من حديث أبي مسعود « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » وتقدم حديث ابن عباس قبله بحديث (٤) حديث « فصل » شهد الله « أخرجه أبو الشيخ وأبو حبان فى كتاب الثواب من حديث ابن مسعود « من قرأ شهد الله - الى قوله - الإسلام ثم قال وأما شهد عا شهد الله به واستودع الله هذه الشهادة وهى لى عنده ودية جىء به يوم القيامة فقيل له عبدى هذا عهد لى عهدا وأنا أحق من وفى بالعهود أدخلوا عبدى الجنة » وفيه عمر بن الخطاب روى الأباطيل قاله ابن عدى وسياق حديث على بعده (٥) حديث « فضل : قل اللهم مالك الملك الآيتين » أخرجه المستعمرى فى الدعوات من حديث على « أن فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران شهد الله لى قوله الإسلام وقل اللهم مالك الملك لى قوله بغير حساب معلقات ما يهين وهى الله حجاب .. الحديث » وفيه « فقال الله لا يقرأ كن أحد من عبادى فى ركعة صلاة لا حملت الجبه مثواه ... الحديث » وفيه الحارث بن عمير وفى ترجمته ذكره ابن حبان فى الصعاء وقال موصوع لأصل له والحارث يروى عن الأنثاء الموصوعات . قالت : وثقه حماد بن زيد وابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم واللساني وروى له البخارى تعليقا . (٦) حديث « فصل : لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخرها أخرجه الطبراني فى الدعاء من حديث أنس بسند ضعيف « علمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحرز به من كل شيطان رجيم ومن كل جبار عبيد » وذكر حديثا وفى آخره « فقل حسبي الله لى آخر السورة » وذكر أبو القاسم الدافى فى فضائل القرآن فى رقائق القرآن لمد الملك بن حبيب من رواية محمد بن بكر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من لزوم قراءة لقد جاءكم رسول من أنفسكم ... لى آخر السورة - لم يمت هدا ولا غرقا ولا حرقا ولا صبرا بمديدة » وهو ضعيف . (٧) حديث « فضل : لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق » لم أجده فيه حديثا يحصها ، لكن فى فصل سورة الفتح ما رواه أبو الشيخ فى كتاب من حديث أبي بكر « من قرأ سورة الفتح فكأنما شهد فتح مكة مع النبى صلى الله عليه وسلم » وهو حديث موصوع . (٨) حديث « فضل : الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا .. الآية » أخرجه أحمد والطبراني من حديث معاذ بن أنس « آية المر : الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ... الآية كلها » ولمسانده ضعيف . (٩) حديث « فضل : خمس آيات من أول الحديد » ذكر أبو القاسم الدافى فى فضائل القرآن من حديث على « إذا أردت أن تسأل الله حاجة فاقرا خمس آيات من أول سورة الحديد لى قوله - هلم فذات الصدور - ومن آخر سورة الحضر من قوله - لو أنزلنا هذا القرآن على جبل - لى آخر السورة ثم تقول يام هو كذا افعل بى كذا وتدعو بما تريد . (١٠) حديث « فضل ثلاث آيات من آخر سورة الحشر » أخرجه الترمذى من حديث معقل بن يسار وقد تقدم قل هذا واليه فى الشعب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف « من قرأ خواتم سورة الحضر فى ليل أو نهار فأت من يومه أو ليلته فقد أوجب الله له الجنة » .

قبل طلوع الشمس وقبل انبساطها على الأرض وقبل العروب سورة الحمد وقل أعوذ برب الناس وقل أعوذ برب الفلق وقل هو الله أحد وقل يا أيها الكافرون وآية الكرسي كل واحدة سبع مرات وتقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر سبعا وتصل على النبي صلى الله عليه وسلم سبعا وتستغفر لنفسك ولوالديك والمؤمنين والمؤمنات سبعا وتقول : اللهم افعل بي وبهم عاجلا وآجلا في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ولا تفعل بنا يامولانا ما نحن له أهل لأنك غفور حلیم حواد كريم رءوف رحيم سبع مرات وانظر أن لاتدع ذلك غدوة وعشية فقلت : أحب أن تخبرني من أعطاك هذه العطية العظيمة ؟ فقال : أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم ^(١) فقلت : أخبرني بثواب ذلك ؟ فقال : إذا لقيت محمدا صلى الله عليه وسلم فأسأله عن ثوابه فإنه يخبرك بذلك ، فذكر إبراهيم التيمي : أنه رأى ذات يوم في منامه كأن الملائكة جاءت فاحتملته حتى أدخلوه الجنة فرأى ما فيها ووصف أمورا عظيمة مما رآه في الجنة قال . فسألت الملائكة فقلت : لمن هذا ؟ فقالوا : للذي يعمل مثل عملك وذكر أنه أكل من ثمرها وسقوه من شرابها قال : فأثنى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه سبعون نبيا وسبعون صفا من الملائكة كل صف مثل ما بين المشرق والمغرب فسلم على وأخذ يهدى فقلت : يا رسول الله الخضر أخبرني أنه سمع منك هذا الحديث فقال : صدق الخضر صدق الخضر وكل ما يحكيه فهو حق وهو عالم أهل الأرض وهو رئيس الأبدال وهو من جنود الله تعالى في الأرض فقلت يا رسول الله فمن فعل هذا أو عمله ولم ير مثل الذي رأيت في منامى هل يعطى شيئا مما أعطيت ؟ فقال والذي بعثني بالحق نبيا إنه ليعطى العامل بهذا وإن لم يرني ولم ير الجنة إنه ليغفر له جميع الكبائر التي عملها ويرفع الله تعالى عنه غضبه ومقته ويأمر صاحب الشبال أن لا يكتب عليه خطيئة من السيئات إلى سنة والذي بعثني بالحق نبيا ما يعمل بهذا إلا من خلقه الله سعيدا ولا يتركه إلا من خلقه الله شقيا ، وكان إبراهيم التيمي يمكث أربعة أشهر لم يطعم ولم يشرب فلعله كان بعد هذه الرقيا . وهذه وظيفة الفرامة ؛ فإن أضاف إليها شيئا مما انتهى إليه ورده من القرآن أو اقتصر عليه فهو حسن فإن القرآن جامع لفضل الذكر والمكر والدعاء مهما كان بتدبر كما ذكرنا فضله وآدابه في باب التلاوة . وأما الأفكار : فليكن ذلك إحدى وظائفه - وسياق تفصيل ما يتفكر فيه وكيفيته في كتاب التفكير من ربيع المنجيات - ولكن مجامعه ترجع إلى فنيين ؛ أحدهما : أن يتفكر فيما ينفعه من المعاملة بأن يحاسب نفسه فيما سبق من تقصيره ويرتب وظائفه في يومه الذي بين يديه ويدبر في دفع الصوارف والعوائق الشاغلة له عن الخير ويتذكر تقصيره وما يتطرق إليه الخلل من أعماله ليصلحه ويحضر في قلبه النيات الصالحة من أعماله في نفسه وفي معاملته المسلمين . والفن الثاني : فيما ينفعه في علم المكاشفة وذلك بأن يتفكر مرة في نعم الله تعالى وتواتر آلائه الظاهرة والباطنة لتزيد معرفته بها ويكثر شكره عليها أو في عقوباته ونقائمه لتزيد معرفته بقدرته الإله واستغاثته ويريد حوافه منها . ولكل واحد من هذه الأمور شعب كثيرة يتسع التفكير فيها على بعض الخلق دون البعض وإنما يستغنى ذلك في كتاب التفكير . ومهما تيسر الفكر فهو أشرف العبادات إذ فيه معنى الذكر لله تعالى وزيادة أمرين ، أحدهما : زيادة المعرفة إذ الفكر مفتاح المعرفة والكشف . والثاني : زيادة المحبة إذ لا يحب القلب إلا من اعتقد تعظيمه ولا تنكشف عظمة الله سبحانه وجلاله إلا بمعرفة صفاته ومعرفة قدرته وعجائب أفعاله . فيحصل من الفكر المعرفة ومن المعرفة التعظيم ومن التعظيم المحبة . والذكر أيضا يورث الأناس وهو نوع من المحبة ولكن المحبة التي سببها المعرفة

(١) حديث كرز بن وبرة من أهل الشام عن إبراهيم التيمي « أن الخضر علمه المسعات العشرة » وقال في آخرها « أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم » ليس له أصل ولم يصح في حديث قط اجتماع الخضر بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا عدم اجتماعه ولا حياته ولا موته .

أقوى وأثبت وأعظم ونسبة محبة العارف إلى أنس الذاك من غير تمام الاستقصار كنسبة عتيق من شاهد حال شخص بالعين واطلع على حسن أخلاقه وأفعاله وفضائله وخصاله الحميدة بالتجربة إلى أنس من كرر على سمعه وصف شخص غائب عن عييه بالحسن في الخلق والخلق مطلقا من غير تفصيل وجوه الحسن فيهما فليس محبته له كنسبة المشاهد وليس الخبر كالمعاينة . فالعباد الموابون على ذكر الله بالقلب واللسان الذين يصدقون بما جاءت به الرسل بالإيمان التقليدي ليس معهم من محاسن صفات الله تعالى إلا أمور جملة اعتقدوها بتصديق عن وصفها لهم . والعارفون هم الذين شاهدوا ذلك الحلال والجمال بعين البصيرة الباطنة التي هي أقوى من البصر الظاهر لأن أحدا لم يحيط بكنهه جلالة وجماله فإن ذلك غير مقدور لأحد من الخلق ولكن كل واحد شاهد بقدر ما رفع له من الحجاب ولا نهاية لجمال حضرة الربوبية ولا لحجبها . وإيما عدد حجبها التي استحقت أن تسمى نورا وكاد يظن الواصل إليها أنه قد تم وصوله إلى الأصل سبعون حجابا . قال صلى الله عليه وسلم : إن لله سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره ^(١) ، وتلك الحجب أيضا مترتبة وتلك الأنوار متفاوتة في الرتب تفاوت الشمس والقمر والكواكب ويبدو في الأول أصغرها ثم ما يليه وعليه أول بعض الصورية درجات ما كان يظهر لإبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم في ترقيه وقال ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ أي أظلم عليه الأمر ﴿ رأى كوكبا ﴾ أي وصل إلى حجاب من حجب النور فعبّر عنه بالكوكب وما أريد به هذه الأجسام المضيئة فإن آحاد العوام لا يخفى عليهم أن الربوبية لا تنلي بالأجسام بل يدركون ذلك بأوامل نظرهم فما لا يضل العوام لا يضل الخليل عليه السلام . والحجب المسماة أنوارا ما أريد بها الضوء المحسوس بالبصر بل أريد بها ما أريد بقوله تعالى ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ الآية ولنتجاوز هذه المعاني فإنها خارجة عن علم المعاملة ولا يوصل إلى حقائقها إلا الكشف التابع للفكر الصافي وقل من يفتح له بابه والمتمسك على حامير الخلاق الصكرفيا يفيد في علم المعاملة وذلك أيضا مما تغفر فائده ويعظم نفعه . فهذه الوظائف الأربع أعني : الدعاء والذكر والقراءة والفكر ، ينبغي أن تكون وظيفة المريد بعد صلاه الصبح بل في كل ورد بعد العشاء من وظيفة الصلاة فليس بعد الصلاة وطبيعة سوى هذه الأربع ، ويقوى على ذلك بأن يأخذ سلاحه ومجنته والصوم هو الجملة التي تضيق بجاري الشيطان المعادي الصارو له عن سبيل الرشاد . وليس بعد طلوع الصبح صلاة سوى ركعتي الفجر وفرض الصبح إلى طلوع الشمس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم يشتغلون في هذا الوقت بالأذكار ^(٢) وهو الأولى إلى أن يغلبه النوم قبل الفرض ولم يندفع إلا بالصلاة فلو صلى لذلك فلا بأس به .

الورد الثاني : ما بين طلوع الشمس إلى ضحوة النهار وأعني بالضحوة منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال وذلك بمضي ثلاث ساعات من النهار إذا فرض النهار اثنتي عشرة ساعة وهو الربع . وفي هذا الربع من النهار وظيفتان زائدتان ؛ إحداهما : صلاة الضحى . وقد ذكرناها في كتاب الصلاة . وأن الأولى أن يصلي ركعتين عند الإشراق وذلك إذا انبسطت الشمس وارتفعت قدر نصف ربح ويصلي أربعاً أو ثمانياً إذا رمضت المصال وضعت الأقدام بحز الشمس . فوقت الركعتين هو الذي أراد الله تعالى بقوله ﴿ يسبحن بالعشي والإشراق ﴾ فإنه وقت إشراق الشمس وهو ظهور تمام نورها بارتفاعها عن موازات البخارات والغبار التي على وجه الأرض

(١) حديث « إن لله سبعين حجابا من نور ... الحديث » تقدم في قواعد العقائد .

(٢) حديث « اشتغاله بالأذكار من الصبح إلى طلوع الشمس » تقدم حديث جابر بن سمرة عند مسلم في جلوسه صلى الله عليه وسلم إذا صلى العجر في مجلسه حتى تطلع الشمس وليس به ذكر اشتغاله بالذكر ولذا هو من قوله عما تقدم من حديث أنس .

(٣) — لأحياء علوم الدين — (١)

فإنها تمنع إشرافها التام ، ووقت الركعات الأربع هو الضحى الأعلى الذى أقسم الله تعالى به فقال ﴿ والضحى والليل إذا يحى ﴾ وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يصلون عند الإشراف فنادى بأعلى صوته : ألا إن صلاة الأوابين إذا رمضت المصالح ^(١) ، فلذلك نقول إذا كان يقتصر على مرة واحدة في الصلاة فهذا الوقت أفضل لصلاة الضحى وإن كان أصل الفضل يحصل بالصلاة بين طرفى وقتى الكراهة وهو ما بين ارتفاع الشمس بطلوع نصف رمح بالتقريب إلى ما قبل الزوال في ساعة الاستواء . واسم الضحى ينطلق على الشكل وكان ركعتى الإشراف تقع في مبتدأ وقت الإذن في الصلاة وانقضاء الكراهة إذ قال صلى الله عليه وسلم : إن الشمس تطلع ومعهما قرن الشيطان فإذا ارتفعت فارقه ^(٢) ، فأقل ارتفاعها أن ترتفع عن بخارات الأرض وغبارها وهذا يراعى بالتقريب .

الوظيفة الثانية في هذا الوقت : الخيرات المتعلقة بالناس التى جرت بها العادات بكثرة من عيادة مريض وتشجيع جنازة ومعاونة على بر وتقوى وحضور مجلس علم وما يجرى مجراه من قضاء حاجة لمسلم وغيرها . فإن لم يكن شيء من ذلك عاد إلى الوظائف الأربع - التى قد منها من الأدعية والذكر والقراءة والفكر والصلوات - المتطوع بها إن شاء فإنها مكروهة بعد صلاة الصبح وليست مكروهة الآن . فتصير الصلاة قسما خامسا من جملة وظائف هذا الوقت لمن أرادها أما بعد فريضه الصبح فتكره كل صلاة لا سبب لها . وبعد الصبح الأحب أن يقتصر على ركعتى الفجر وتحية المسجد ولا يشتغل بالصلاة بل بالآذكار والقراءة والدعاء والفكر .

الورد الثالث : من ضحوة النهار إلى الزوال وتعنى بالضحوة المنتصف وما قبله بقليل ، وإن كان بعد كل ثلاث ساعات أمر بصلاة فإذا انقضى ثلاث ساعات بعد الطلوع فعندها وقبل مضى صلاة الضحى . فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالظهر . فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالعصر . فإذا مضت ثلاث أخرى فالمغرب . ومنزلة الضحى بين الزوال والطلوع كنزلة العصر بين الزوال والغروب ، إلا أن الضحى لم تعرض لانه وقت انكباب الناس على أشغالهم تخفف عنهم . الوظيفة الرابعة : في هذا الوقت الأقسام الأربعة ، وزيد أمران : أحدهما : الاشتغال بالكسب وتدبير المعيشة وحضور السوق فإن كان تاجرا فينبغى أن يتجر بصدق وأمانة وإن كان صاحب صناعة فنصح وشفقه ولا ينسى ذكر الله تعالى في جميع أشغاله ويقتصر من الكسب على قدر حاجته ليومه مهما قدر على أن يكتسب في كل يوم لقوته . فإذا حصل كفاية يومه ما يرجع إلى بيت ربه ولا يتزود لآخرته فإن الحاجة إلى زاد الآخرة أشد والتنع به أدوم فاشتغاله بكسبه أهم من طلب الزيادة على حاجة الوقت . فقد قيل : لا يوجد المؤمن إلا في ثلاث مواطن مسجد يعمره أو بيت يستره أو حاجة لا بد له منها . وقل من يعرف القدر فيما لا بد منه بل أكثر الناس يقتدرون فيما صنه بد أنه لا بد لهم منه وذلك لأن الشيطان يعدم الفقر ويأمرهم بالفحشاء فيصغون إليه ويجمعون مالا يأكلون خيفة الفقر والله يعدم مفرقة منه وفصلا فيعرضون عنه ولا يرغبون فيه . الأمر الثانى : القيلولة وهى سنة يستعان بها على قيام الليل كما أن التمسح سنة يستعان به على صيام النهار . فإن كان لا يقوم بالليل لكن لو لم يتم لم يشتغل بخير وربما خالط أهل الغفلة وتحدث معهم فالتوم أحب له إذا كان لا ينبعث نشاطه للرجوع إلى الآذكار والوظائف المذكورة إذ في النوم الصمت والسلامة ، وقد قال بعضهم : باتى على الناس زمان الصمت والنوم فيه أفضل أعمالهم . وكمن عابد أحسن أحواله التوم وذلك إذا كان يرائى بعبادته ولا يخلص فيها فكيف بالغافل

(١) حديث « خرج على أصحابه وهم يصلون عند الإشراف فنادى بأعلى صوته : ألا إن صلاة الأوابين إذا رمضت المصالح » أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم دون قوله « نادى بأعلى صوته » وهو عند مسلم دون ذكر الإشراف . (٢) حديث « لن العس تطلع ومعهما قرن الشيطان فإذا ارتفعت فارقه » تقدم في الصلاة .

الفاسق ؟ قال سفيان الثوري رحمه الله : كان يعجبهم إذا تفرغوا أن يناموا طلبا للسلامة فإذا كان نومه على قصد طلب السلامة ونية قيام الليل كان نومه قربة . ولكن ينبغي أن يتنبه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة بالوضوء وحضور المسجد قبل دخول وقت الصلاة فإن ذلك من فضائل الأعمال وإن لم ينم ولم يشتغل بالكسب واشتغل بالصلاة والذكر فهو أفضل أعمال النهار لأنه وقت غفلة الناس عن الله عز وجل واشتغالهم بهموم الدنيا فالقلب المتفرغ لخدمة ربه عند إعراض العبيد عن بابه جدير بأن يزيه الله تعالى ويصطفيه لقربه ومعرفته . وفضل ذلك كفضل إحياء الليل فإن الليل وقت الغفلة بالنوم وهذا وقت الغفلة باتباع الهوى والاشتغال بهموم الدنيا وأحد معنى قوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر ﴾ أى يحلف أحدهما الآخر فى الفضل والثانى : أنه يخلفه فيتدارك فيه ما فات فى أحدهما .

الورد الرابع : ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر ورائته وهذا أقصر أوراد النهار وأفضلها : فإذا كان قد توصلاً قبل الزوال وحضر المسجد فهما زالت الشمس وابتدأ المؤذن الأذان فليصبر إلى الفراغ من جواب أذانه ثم ليقيم إلى إحياء ما بين الأذان والإقامة فهو وقت الإظهار الذى أراده الله تعالى بقوله ﴿ وحين تظهرون ﴾ وليصل فى هذا الوقت أربع ركعات لا يفصل بينهما بتسليمة واحدة ^(١) وهذه الصلاة وحدها من بين سائر صلوات النهار نقل بعض العلماء أنه يصليها بتسليمة واحدة ولكن طعن فى تلك الرواية ، ومذهب الشافعى رضى الله عنه أنه يصلى مثنى مثنى كسائر التوافل ويفصل بتسليمة ^(٢) وهو الذى صحت به الأخبار وليطول هذه الركعات إذ فيها تفتح أبواب السماء كما أوردنا الخبر فيه فى باب صلاة التطوع وليقرأ فيها سورة البقرة أو سورة من المثني أو أربعاً من المثاني فهذه ساعات يستجاب فيها الدعاء . وأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرتفع لفيها عمل ، ثم يصلى الظهر بجماعة بعد أربع ركعات طويلة - كما سبق - أو قصيرة لا ينبغي أن يدعها . ثم ليصل بعد الظهر ركعتين ثم أربعاً فقد كره ابن مسعود أن تتبع العريضة بمثلها من غير فاصل ويستحب أن يقرأ فى هذه النافلة آية الكرسي وآخر سورة البقرة والآيات التى أوردناها فى الورد الأول ليكون ذلك جامعاً له بين الدعاء والذكر والقراءة والصلاة والتحميد والتسبيح مع شرف الوقت .

الورد الخامس : ما بعد ذلك إلى العصر ويستحب فيه العكوف فى المسجد مشتعلاً بالذكر والصلاة أو فنون الخير ويكون فى انتظار الصلاة معتكفاً . فمن فضائل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة وكان ذلك سنة السلف كان الداخل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع المصلين دوياء كدوى النحل من التلاوة . فإن كان بيته أسلم لدينه وأجمع لهمه فالبيت أفضل فى حقه فإحياء هذا الورد وهو أيضاً وقت غفلة الناس كإحياء الورد الثالث فى الفضل . وفى هذا الوقت يكره النوم لمن نام قبل الزوال إذ يكره نومتان بالنهار قال بعض العلماء : ثلاث يمقت الله عليها ، الضحك بغير عجب والأكل من غير جوع والنوم بالنهار من غير سهر بالليل . والحد فى النوم أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة فالاعتدال فى نومه ثمان ساعات فى الليل والنهار جميعاً فإن نام هذا القدر بالليل فلامعنى للنوم بالنهار ، وإن نقص منه مقدارا استوفاه بالنهار حسب أن آدم إن عاش ستين سنة أن يقص من عمره عشرون سنة . ومهما نام ثمان ساعات وهو الثلث فقد نقص من عمره الثلث ولكن لما كان النوم عداء الروح كما أن الطعام غذاء الأبدان

(١) حديث « صلاة أربع بعد الروال تسليمة واحدة » وفيه « أنها فيها تفتح أبواب السماء وأنها ساعة يستجاب فيها الدعاء وأحب أن يرفع لى فيها عمل صالح » أخرجه أبو داود وابن ماجة من حديث أبى أيوب وقد تقدم فى الصلاة فى الباب السادس .
(٢) حديث « صلاة الليل والنهار مثنى مثنى » أخرجه أبو داود وابن حبان من حديث ابن عمر .

وكما أن العلم والذكر غذاء القلب لم يمكن قطعه عنه وقدّر الاعتدال هذا والنقصان منه ربما يفيض إلى اضطراب البدن إلا من يتعود السهر تدريجاً فقد يمتن نفسه عليه من غير اضطراب . وهذا الورد من أطول الأوراد وأمتعها للعباد وهو أحد الآصال التي ذكرها الله تعالى إذ قال ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ وإذا سجد لله عز وجل الجمادات فكيف يجوز أن يغفل العبد العاقل عن أنواع العبادات ؟

الورد السادس : إذا دخل وقت العصر دخل وقت الورد السادس وهو الذي أقسم الله تعالى به فقال تعالى ﴿ والعصر ﴾ هذا أحد معني الآية وهو المراد بالآصال في أحد التفسيرين وهو العشي المذكور في قوله ﴿ وعشيا ﴾ وفي قوله ﴿ بالعشي والإشراق ﴾ وليس في هذا الورد صلاة إلا أربع ركعات بين الأذان والإقامة - كما سبق في الظهر - ثم يصلي الفرض ويستغل بالاقسام الأربعة المذكورة في الورد الأول إلى أن ترتفع الشمس إلى رءوس الحيطان وتصفّر . والأفضل فيه إذ منع عن الصلاة تلاوة القرآن بتدبر وتمهم إذ يجمع ذلك بين الذكر والدعاء والفكر فيندرج في هذا القسم أكثر مقاصد الأقسام الثلاثة .

الورد السابع : إذا اصفرت الشمس بأن تقرب من الأرض بحيث يغطي نورها العبارات والبخارات التي على وجه الأرض ويرى صفرة في ضوئها دخل وقت هذا الورد وهو مثل الورد الأول من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لأنه قبل الغروب كما أن ذلك قبل الطلوع وهو المراد بقوله تعالى ﴿ فسبحان الله حين تمشون وحين تصبحون ﴾ وهذا هو الطرف الثاني المراد بقوله تعالى ﴿ فسبح وأطراف النهار ﴾ قال الحسن . كانوا أشد تعظيماً للعشي منهم لأول النهار . وقال بعض السلف : كانوا يجعلون أول النهار للدنيا وآخره للآخرة : فيستحب في هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة وسائر ما ذكرناه في الورد الأول مثل أن يقول : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة وسبحان الله العظيم وبحمده ، مأخوذ من قوله تعالى ﴿ واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار ﴾ والاستغفار على الأسماء التي في القرآن أحب كقوله ﴿ أستغفر الله إنه كان عصافراً - أستغفر الله إنه كان ثوباً - رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين - فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين - فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ ويستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس : والشمس وضحاها والليل إذا يعشي والمعوذتين . ولتغرب الشمس عليه وهو في الاستغفار فإذا سمع الأذان قال ، اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار هارك وأصوات دعائك - كما سبق - ثم يجيب المؤذن ويستغل بصلاة المغرب . وبالمغرب قد انتهت أوراد النهار فينبغي أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه فقد انقضى من طريقه مرحلة ، فإن ساوى يومه أمسه فيكون مغبوناً وإن كان شراً منه فيكون معلوناً فقد قال صلى الله عليه وسلم ، لا بورك لي في يوم لا أزداد فيه خيراً ^(١) ، فإن رأى نفسه متوفراً على الخير جميع نهاره مترفعاً عن التجشم كانت بشارة فليشكر الله تعالى على توفيقه وتسديده إياه لطريقه وإن تكن الأخرى فالليل خلقة النهار فليعزم على تلافي ماسبق من تفريطه فإن الحسنات يذهبن السيئات . وليشكر الله تعالى على صحة جسمه وبقاء بقية من عمره طول ليله ليشتغل بتدارك تقصيره وليحضر في قلبه أن نهار العمر له آخر تغرب فيه شمس الحياة فلا يكون لها بعدها طلوع . وعند ذلك يخلق باب التدارك والاعتذار فليس العمر إلا أياماً معدودة تنقضي لا محالة جملةً بانقضائه آحادها .

(١) حديث « لا بورك لي في يوم لا أزداد فيه خيراً » تقدم في العلم في الباب الأول إلا أنه قال « علماً ، بدل « خيراً » .

بيان أوراد الليل وهي خمسة

الأول : إذا غربت الشمس صلى المغرب واستغل بإحياء ما بين العشاءين فآخر هذا الورد عند غيبوبة الشفق أغنى الحرة التي بغيبوبتها يدخل وقت العتمة وقد أقسم الله تعالى به فقال ﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ والصلاة فيه هي ناشئة الليل لأنه أول نسو ساعاته وهو أن من الآناء المذكورة في قوله تعالى ﴿ ومن آناء الليل فسيح ﴾ وهي صلاة الأوابين . وهي المراد بقوله تعالى ﴿ تتجاني جنوبهم عن المضاجع ﴾ روى ذلك عن الحسن وأسند ابن أبي زياد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنه سئل عن هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم : الصلاة بين العشاءين ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاعات النهار وتهذب آخره ^(١) ، والملاعات جمع ملغاة من اللغو . وسئل أنس رحمه الله عن أيام بين العشاءين فقال : لا تفعل فإنها الساعة المعنية بقوله تعالى ﴿ تتجاني جنوبهم عن المضاجع ﴾ وسيأتي فضل لإحياء ما بين العشاءين في الباب الثاني . وترتيب هذا الورد أن يصلي بعد المغرب ركعتين أولاً يقرأ فيهما قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ويصليهما عقيب المغرب من غير تخلل كلام ولا شغل ثم يصلي أربعاً يطيلها ثم يصلي إلى غيبوبة الشفق ما تيسر له . وإن كان المسجد قريباً من المنزل فلا بأس أن يصليها في بيته إن لم يكن عزمه العكوف في المسجد وإن عزم على العكوف في انتظار العتمة فهو الأفضل إذا كان آمناً من التصنع والرياء .

والورد الثاني : يدخل بدخول وقت العشاء الآخرة إلى حد نومة الناس وهو أول استحكام الظلام وقد أقسم الله تعالى به إذ قال ﴿ واللبل وما وسق ﴾ أي وما جمع من ظلمته وقال ﴿ إلى غسق الليل ﴾ فهناك يغسق الليل وتستوسق ظلمته . وترتيب هذا الورد بمراجعة ثلاثة أمور (الأول) أن يصلي سوى فرص العشاء عشر ركعات : أربعاً قبل الفرض لإحياء لما بين الأذانين وستاً بعد الفرض ركعتين ثم أربعاً ويقرأ فيها من القرآن الآيات المخصوصة كآخر البقرة وآية الكرسي وأول الحديد وآخر الحشر وغيرها . (والثاني) أن يصلي ثلاث عشرة ركعة آخرهن الوتر فإنه أكثر ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بها من الليل ^(٢) والأوكياس يأخذون أوقاتهم من أول الليل والأقويام من آخره . والحزم التقديم فإنه ربما لا يستيقظ أو يشغل عليه القيام إلا إذا صار ذلك عادة له فآخر الليل أفضل . ثم ليقرأ في هذه الصلاة قدر ثلثمائة آية من السور المخصوصة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر قراءتها مثل يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والزمر والواقعة ^(٣) فإن لم يصل فلا يدع قراءة هذه السور أو بعضها

(١) حديث « مثل عن قوله تعالى ﴿ تتجاني جنوبهم عن المضاجع ﴾ فقال الصلاة بين العشاءين ثم قال عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاعات النهار وتهذب آخره » قال المصنف أسنده ابن أبي الزناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : لمعنا هو إسماعيل بن أبي زياد بالبلاء المتناة من تحت رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية إسماعيل بن أبي زياد الداهي عن الأعمش . حدثنا أبو العلاء العنبري عن سلمان قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاعات أول النهار ومهذبة آخره » وإسماعيل هذا متروك يضع الحديث قاله الدارقطني . وسمعت أبي زياد مسلم وقد اختلف فيه على الأعمش ولا بن مردويه من حديث أنس « أنها نزلت في الصلاة بين المغرب والعشاء » والحديث عند الترمذي وحسنه بإفظ « نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة » .

(٢) حديث « الوتر ثلاث عشرة ركعة يعني بالليل وأنه أكثر ما صلى به النبي صلى الله عليه وسلم من الليل » أخرجه أبو داود من حديث عائشة « لم يكن يوتر بأكثر من سبع ولا بأكثر من ثلاث عشرة ركعة » والبخاري من حديث ابن عباس « وكانت ملائكة ثلاث عشرة ركعة يعني بالليل » ومسلم « كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة » وفي رواية للشيخين « منها ركعتا المعر » ولها أيضاً ما كان يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة . (٣) حديث « أكثرنا صلى الله عليه وسلم من قراءة يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والزمر والواقعة » غريب لم أقف على ذكره إلا كسائر فيه وابن حبان من حديث »

قبل النوم فقد روى في ثلاث أحاديث ما كان يقرؤه رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ليلة أشهرها : السجدة وتبارك الملك ^(١) والزمر والواقعة وفي رواية : الزمر وبني إسرائيل ^(٢) وفي أخرى : أنه كان يقرأ المسبحات في كل ليلة ويقول فيها آية أفضل من ألف آية ^(٣) وكان العلماء يجعلونها ستاً فيزيدون سبح اسم ربك الأعلى إذ في الخبر أنه صلى الله عليه وسلم كان يحب سبح اسم ربك الأعلى . وكان يقرأ في ثلاث ركعات الوتر ثلاث سور سبح اسم ربك الأعلى ^(٤) وقل يا أيها الكافرون والإخلاص ^(٥) فإذا فرغ قال : سبحان الملك القدوس ثلاث مرات ، (الثالث) الوتر : وليوتر قبل النوم إن لم يكن عادته القيام قال أبو هريرة رضي الله عنه : أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أنام إلا على وتر ^(٦) وإن كان معتاداً صلاة الليل فالتأخير أفضل . قال صلى الله عليه وسلم : صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خمت الصبح فأوتر بركعة ^(٧) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر ^(٨) ، وقال علي رضي الله عنه : الوتر على ثلاثة أنحاء إن شئت أوترت أول الليل ثم صليت ركعتين ركعتين يعني أنه يصير وترًا بما مضى وإن شئت أدترت بركعة فإذا استيقظت شفعت إليها أخرى ثم أوترت من آخر الليل وإن شئت أخرت الوتر ليكون آخر صلاتك ، هذا ما روى عنه والطريق الأول والثالث لا بأس به وأما نقض الوتر فقد صح فيه نهى فلا ينبغي أن ينقض ^(٩) وروى مطلقاً أنه صلى الله عليه وسلم قال دلاوتران في ليلة ^(١٠) ، ولمن يتردد في استيقاظه تلتطف استحسنة بعض العلماء وهو أن يصلي بعد الوتر ركعتين جالساً على فراشه عند النوم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزحف إلى فراشه ويصليهما ويقرأ فيهما إذا زلزلت وألهاكم ^(١١) لما فيهما من التحذير والوعيد وفي رواية قل يا أيها الكافرون لما فيهما من التبرئة وإفراد العبادة لله تعالى ، فقيل إن استيقظ قاماً مقام ركعة واحدة وكان له أن يوتر بواحدة في آخر صلاة الليل وكأنه صار ماضياً شفعا بهما . وحسن استئناف الوتر واستحسن هذا أبو طالب المكي وقال فيه ثلاثة أعمال قصر الأمل وتحصيل الوتر والوتر آخر الليل ، وهو كما

= جندب « من قرأ يس في ليلة ابتداء وجه الله غفر له والترمذي من حديث جابر « كان لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك » وله من حديث عائشة « كان لا ينام حتى يقرأ بني إسرائيل والزم » وقال حسن عريب وله من حديث أبي هريرة « من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » قال غريب ولأن الشيخ في الثواب من حديث عائشة « من قرأ في ليلة الم تنزيل وببارك الذي بيده الملك واقترت كن له نوراً ... الحديث » ولأن منصور المظفر بن الحسين المزبوي في فضائل القرآن من حديث علي « ياعلى أكثر من قراءة يس ... الحديث » وهو منكر وللحارث بن أبي أسامة من حديث ابن مسعود بسند ضعيف « من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » والترمذي من حديث ابن عباس « شيتني هود والواقعة .. الحديث » وقال حسن غريب . (١) حديث « كان يقرأ في كل ليلة السجدة وتبارك الملك » أخرجه الترمذي وتقدم في الحديث قبله . (٢) حديث « كان يقرأ في كل ليلة الزمر وبني إسرائيل » أخرجه الترمذي وتقدم أيضاً .

(٣) حديث « كان يقرأ المسبحات في كل ليلة ويقول : فيهن آية أفضل من ألف آية » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن والسائي في الكبرى من حديث عراب بن سارية .

(٤) حديث « كان يحب سبح اسم ربك الأعلى » أخرجه أحمد والبخاري من حديث علي بسند ضعيف . (٥) حديث « كان يقرأ في ثلاث ركعات الوتر يسبح اسم ربك الأعلى وقل يا أيها الكافرون والإخلاص » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح وتقدم في الصلاة من حديث أنس . (٦) حديث أبي هريرة « أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أنام إلا على وتر » متفق عليه بلفظ « أن أوتر قبل أن أنام » . (٧) حديث « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة » متفق عليه من حديث ابن عمر . (٨) حديث عائشة « أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر » متفق عليه . (٩) حديث « انتهى عن نقض الوتر » قال المصنف صح فيه نهى قلت : ولما صح من قول عابد بن عمرو وله حجة كما رواه البخاري ومن قوله ابن عباس كما رواه البيهقي ولم يصرح بأنه مرفوع فظاهر أنه إنما أراد ما ذكرناه عن الصحابة . (١٠) حديث « لاوتران في ليلة » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث طلق بن هلى . (١١) حديث « الركعتين بعد الوتر جالساً » تقدم في الصلاة رواه مسلم من حديث عائشة .

ذكره لكن ربما يخطر أهمها لشفعتا ماضى لكان كذلك ، وإن لم يستيقظ وأبطل وتره الأول فكونه شافعا إن استيقظ غير مشفع إن نام فيه فطر إلا أن يصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم إيتاره قبلهما وإعادته الوتر فيفهم منه أن الركعتين شفع بصورتها وتر بمعنهما فيحسب وتر أن لم يستيقظ وشفعا إن استيقظ . ثم يستحب بعد التسليم من الوتر أن يقول سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات والأرض بالعظمة والجبروت ، وتعززت بالقدره وقهرت العباد بالموت روى « أنه صلى الله عليه وسلم ما مات حتى كان أكثر صلاته جالسا إلا المكتوبة ^(١) » وقد قال « للقاعد نصف أجر القائم وللنائم نصف أجر القاعد ^(٢) » ، وذلك يدل على صحة النافلة دائما .

الورد الثالث : النوم ولا بأس أن يعد ذلك في الأورد فإنه إذا روعيت آدابه احتسب عبادة فقد قيل : إن للعبد إذا نام على طهارة وذكر الله تعالى يكتب مصليا حتى يستيقظ ويدخل في شعاره ملك فإن تحرك في نومه فذكر الله تعالى دعا له الملك واستغفر له الله ^(٣) ، وفي الخبر « إذا نام على طهارة رفع روحه إلى العرش ^(٤) » ، هذا في العوام فكيف بالخواص والعلماء وأرباب القلوب الصافية ؟ فإنهم يكاشفون بالأسرار في النوم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح ^(٥) » ، وقال معاذ لأبي موسى : كيف تصنع في قيام الليل ؟ فقال أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئا وأفوق القرآن فيه تفوقا قال معاذ : لكني أنا أنام ثم أقوم واحتسب في نومي ما احتسب في قومي . فذكرنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : معاذ أفقه منك ^(٦) وآداب النوم عشرة (الأول) الطهارة والسواك : قال صلى الله عليه وسلم « إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة وإن لم ينم على طهارة قصرت روحه عن البلوغ فتلك المنامات أضغاث أحلام لا تصدق ^(٧) » ، وهذا أريد به طهارة الظاهر والباطن جميعا ، وطهارة الباطن هي المؤثرة في انكشاف حجب الغيب (الثاني) أن يعد عنه رأسه سواكه وطهوره وينوى القيام للعبادة عند التيقظ وكلما يتنبه يستاك ؛ كذلك كان يفعله بعض السلف . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان يستاك في كل ليلة مرارا عند كل نومة وعند التنبه منها ^(٨) » وإن لم يتسر له الطهارة يستحب له مسح الأعضاء بالماء فإن لم يجد فليقعد وليستقبل القبلة وليستغل بالذكر والدعاء والتفكير في آلاء الله تعالى وقدرته فذلك يقوم مقام قيام الليل . وقال صلى الله عليه وسلم « من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من الله تعالى ^(٩) » (الثالث) أن لا يبيت من له وصية إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه فإنه لا يأمن

(١) حديث « ما مات حتى كان أكثر صلاته جالسا إلا المكتوبة » متفق عليه من حديث عائشة « لما بدن إلى صلى الله عليه وسلم وثقل كان أكثر صلاته جالسا » . (٢) حديث « للقاعد نصف أجر القائم وللنائم نصف أجر القائم » أخرجه البخاري من حديث عمران بن حصين . (٣) حديث « قيل إنه إذا نام على طهارة ذكر الله تعالى يكتب مصليا ويدخل في شعاره ملك » الحديث « أخرجه ابن حبان من حديث ابن عمر » من بات طاهرا بات في شعاره ملك فلم يستيقظ إلا قال الملك اللهم اعمر لعبدك فلان فإنه بات طاهرا » . (٤) حديث « إذا نام على الطهارة رفع روحه إلى العرش » أخرجه ابن المبارك في الرهد موقوفا على أبي الدرداء والبيهقي في الذم موقوفا على عبد الله بن عمرو بن العاص . وروى الطبراني في الأوسط من حديث علي « ما من عبدا ولا أمة تمام فتثقل يوما إلا عرج بروحه إلى العرش فالذي لا يستيقظ إلا بعد العرش فتلك الرؤيا التي تصدق والذي يستيقظ دون العرش فهي الرؤيا التي تكتب » هو ضعيف . (٥) حديث « نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح » قلت المعروف فيه الصائم دون العالم . وقد تقدم في الصوم (٦) حديث « قال معاذ لأبي موسى كيف تصنع في قيام الليل ؟ فقال أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئا وأفوق القرآن تفوقا قال معاذ لكني أنا أنام ثم أقوم واحتسب في نومي ما احتسب في قومي فذكر ذلك لأبي صلى الله عليه وسلم فقال : معاذ أفقه منك » متفق عليه بحقه من حديث أبي سعيد وليس فيه « أنها ذكرنا ذلك لأبي صلى الله عليه وسلم » ولا قوله « معاذ أفقه منك » وإنما زاد فيه الطبراني « فكان معاذ أفضل منه » . (٧) حديث « إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة » الحديث تقدم . (٨) حديث « أنه كان يستاك في كل ليلة مرارا عند كل نومة وعند التنبه منها » تقدم في الطهارة . (٩) حديث « من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة من الله عليه » أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أبي الدرداء بسند صحيح .

القبض في النوم فإن من مات من غير وصيه لم يؤذن له في الكلام بالبرزخ إلى يوم القيامة ، ينزوره الأموات ويتحدثون وهو لا يتكلم فيقول بعضهم لبعض هذا المسكين مات من غير وصية ، وذلك مستحب خوف موت المعناه وموت المعناه تخفيف إلا لمن ليس مستعداً للرب بكونه مثقل الظاهر بالمظالم (الرابع) أن ينام تأمناً من كل ذنب سليم القلب لجميع المسلمين لا يحدث نفسه بظلم أحد ، ولا يعزم على معصية إن استيقظ ، قال صلى الله عليه وآله وسلم « من أوى إلى فراشه لا ينوي ظم أحد ولا يحد على أحد غفر له ما أحترم »^(١) ، (الخامس) أن لا يتنعم بتمهيد الفرش الناعمة بل يترك ذلك أو يقتصد فيه . كان بعض السلف يكره التمهيد للنوم ويرى ذلك سكفاً . وكان أهل الصفة لا يجعلون بينهم وبين التراب حاجزاً ويقولون منها حلقتنا وإليها نرد وكانوا يرون ذلك أرق لقلوبهم وأجدر بتواضع نفوسهم فمن لم تسمح بذلك نفسه فليقتصد (السادس) أن لا ينام مالم يغلبه النوم ولا يتكلف استجلابه إلا إذا قصد به الاستعانة على القيام في آخر الليل فقد كان نومهم غلبة وأكلهم فاقة وكلامهم ضرورة ولذلك وصفوا بأنهم كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وإن غلبه النوم عن الصلاة والذكر وضار لا يدرى ما يقول فليتم حتى يعقل ما يقول . وكان ابن عباس رضي الله عنه يكره النوم قاعداً وفي الخبر « لا تكابدوا الليل »^(٢) وقيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن فلانة تصلي بالليل فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل فنهى عن ذلك وقال : لصل أحدكم من الليل ما تيسر له فإذا غلبه النوم فليرقد »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « تسكفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لن يمل حتى تملا »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « خير هذا الدين أيسره »^(٥) ، وقيل له صلى الله عليه وسلم « إن فلانا يصلي فلا ينام ويصوم فلا يفطر فقال لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر هذه سنتي فمن رغب عنها فليس مني »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يغلبه فلا تبغض إلى نفسك عبادة الله »^(٧) ، (السابع) أن ينام مستقبلاً القبلة . والاستقبال على ضربين أحدهما . استقبال المخضر . وهو المستلقي على قفاه . فاستقباله أن يكون وجهه وأخصاه إلى القبلة . والثاني : استقبال اللحد وهو أن ينام على جنب بأن يكون وجهه إليها مع قبالة بدنه إذا نام على شفه الأيمن (الثامن) الدعاء عند النوم فبقول باسمك ربى وضعت جنبي وباسمك أرفعني إلى آخر الدعوات المسأورة التي أوردناها في كتاب الدعوات^(٨) ويستحب أن يقرأ الآيات المخصوصة مثل آية الكرسي وآخر البقرة وغيرها وقوله تعالى ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو ﴾ إلى قوله ﴿ لقوم يعقلون ﴾ يقال إن من قرأها عند النوم حفظ الله عليه القرآن فلم ينسه ويقرأ من سورة الأعراف هذه الآية ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴾ إلى قوله

(١) حديث « من أوى إلى فراشه لا ينوي ظم أحد ولا يحد على أحد غفر له ما أحترم » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب النية من حديث أنس « من أسح ولم يظم ظم أحد غفر له ما أحترم » وسنده صحيح . (٢) حديث « لا تكابدوا الليل » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف وفي جامع سفيان الثوري موقوفاً على أن سمعوه « لا تكابدوا هذا الليل » . (٣) حديث « قيل له إن فلانة تصلي فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل فنهى عن ذلك وقال : لصل أحدكم من الليل ما تيسر له » متفق عليه من حديث أنس . (٤) حديث « تسكفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملا » متفق عليه من حديث عائشة سقط « اسكفوا » . (٥) حديث « خير هذا الدين أيسره » أخرجه أحمد من حديث مجاهد بن الأدرع ومسلم في العلم . (٦) حديث « قيل له إن فلانا يصلي ولا ينام ويصوم ولا يفطر فقال : لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر هذه سنتي فمن رغب عنها فليس مني » أخرجه النسائي من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله « هذه سنتي » الخ وهذه الرواية لابن خزيمة « من رغب عن سنتي فليس مني » وهي متفق عليها من حديث أنس . (٧) حديث « لا تشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يغلبه ولا تنس إلى نفسك عبادة الله » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة « لن يشاد هذا الدين أحداً إلا غلبه فسددوا وحاربوا » وقيل هو من حديث جابر « إن هذا الدين متين فأوغل فيه بروق ولا تنس إلى نفسك عبادة الله » ولا يصح إسناده . (٨) حديث « الدعاء المسأورة عند النوم باسمك اللهم رب وضعت جنبي ... الحديث » إلى آخر الدعوات المسأورة التي أوردناها في الدعوات تقدم هناك وبقيّة الدعوات .

(قريب من المحسنين) وآخر بنى لإسرائيل (قل ادعوا الله) الآيتين فإنه يدخل في شعاره ملك يوكل بحفظه فيستغفر له ويقرأ المعوذتين وينفض يده ويمسح بهما وجهه وسائر جسده ، كذلك روى من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) وليقرأ عشرا من أول الكهف وعشرا من آخرها وهذه الآي للاستيقاظ لقيام الليل . وكان على كرم الله وجهه يقول : ما أرى أن رجلا مستكملا عقله ينام قبل أن يقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة وليقل حسنا وعشرين مرة : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . ليكون مجموع هذه الكلمات الأربع مائة مرة (التاسع) أن يتذكر عند النوم أن النوم نوع وفاة واليقظ نوع بعث قال الله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) وقال (وهو الذي يتوفاكم بالليل) فسماء توفيا وكما أن المستيقظ تكشف له مشاهدات لا تناسب أحواله في النوم فكذلك المبعوث يرى ما لم يحظر قط بباله ولا شاهده حسه . ومثل النوم بين الحياة والموت مثل البرزخ بين الدنيا والآخرة . وقال لقمان لابنه : يا بني إن كنت تشك في الموت فلا تتم فكما أنك تنام كذلك تموت ، وإن كنت تشك في البعث فلا تلتبه فكما أنك تلتبه بعد نومك فكذلك تبعث بعد موتك . وقال كعب الأحبار : إذا نمت فاضطجع على شقك الأيمن واستقبل القبلة بوجهك فإنها وفاة . وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى وهو يرى أنه ميت في ليلته تلك اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء ومليك ^(٢) ، الدعاء إلى آخره كما ذكرناه في كتاب الدعوات . حقق على العبد أن يفتس عن ثلاثة عند نومه : أنه على ماذا ينام وما الغالب عليه حب الله تعالى وحب لقائه أوجب الدنيا ؟ وليتحقق أنه يتوفى على ما هو الغالب عليه ويحشر على ما يتوفى عليه فإن المرء مع من أحب ومع ما أحب (العاشر) الدعاء عند التنبيه فليقل في تيقظاته وتقلباته مهما تذب به ما كان يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ^(٣) ، وليجتهد أن يكون آخر ما يحرى على قلبه عند النوم ذكر الله تعالى وأول ما يرد على قلبه عند التيقظ ذكر الله تعالى فهو علامة الحب . ولا يلزم القلب في هاتين الحالتين إلا ما هو الغالب عليه فليجرب قلبه به فهو علامة الحب فإنها علامة تكشف من باطن القلب وإنما استحبت هذه الأذكار لتستجر القلب إلى ذكر الله تعالى ، فإذا استيقظ ليقوم قال : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور . إلى آخر ما أوردناه من أدعية التيقظ .

الورد الرابع . يدخل بمضى النصف الأول من الليل إلى أن يبقى من الليل سدسه وعند ذلك يقوم العبد للتهجد . فاسم التهجد يختص بما بعد الهجوع وهو النوم وهذا وسط الليل ويشبه الورد الذي بعد الزوال وهو وسط النهار وبه أقسم الله تعالى فقال (والليل إذا سجى) أى إذا سكن وسكونه هدوءه في هذا الوقت فلا تبقى عين إلا نائمة سوى الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم . وقيل إذا سجد إذا امتد وطال وقيل إذا أظلم . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الليل أسمع ؟ فقال جوف الليل ^(٤) » ، وقال داود صلى الله عليه وسلم : ألمهى لى أحب أن أعبد لك فأى وقت أفضل ؟ فأوحى الله تعالى لى يا داود لا تقم أول الليل ولا آخره ، فإن من قام

(١) حديث « قراءة المعوذتين عند النوم ينم يده ويمسح بهما وجهه وسائر جسده » متفق عليه من حديث عائشة .

(٢) حديث عائشة « كان آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ..

الحديث « تقدم في الدعوات دون : وضع اليد وتقدم من حديث حفصة . (٣) حديث « كان يقول عند تيقظه :

لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار » أخرجه ابن السني وأبو نعيم في كتابيهما عمل اليوم واليلة من حديث عائشة . (٤) حديث « سئل أى الليل أسمع ؟ قال : جوف الليل » أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من

حديث عمرو بن عبسة .

أوله بام آجره ، ومن قام آخره لم يقم أوله ، ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بي وأخلو بك ، وارفع إلى حوائجك وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الليل أفضل ؟ فقال : نصف الليل الغابر ^(١) » ، يعنى الباقي وفى آخر الليل وردت الأخبار باهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن ومن نزول الجبار تعالى إلى سماء الدنيا ^(٢) وغير ذلك من الأخبار . وترتيب هذا الورد أنه بعد الفراغ من الأدعية التى للاستيقاظ يتوضأ وضوءاً - كما سبق - بسننه وآدابه وأدعيته . ثم يتوجه إلى مصلاه ويقوم مستقبلاً القبلة ، ويقول « الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً » ثم يسبح عشراً وليحمد الله عشراً ويهلل عشراً وليقل « الله أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة » ، وليقل هذه الكلمات فإنها مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قيامه للتهجد اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن أنت الحق ومنك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنشور حق والنبىون حق ومحمد صلى الله عليه وسلم حق . اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفرلى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وأسرفت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ^(٣) اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها ^(٤) اللهم اهدنى لأحسن الأعمال لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ^(٥) أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المفقير الدليل فلا تجعلنى بدعائك رب شقياً وكن بى رءوفاً رحيماً يا حير المسولين وأكرم المعطين ^(٦) وقالت عائشة رضى الله عنها « كان صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته قال . اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيماً ^(٧) » ، ثم يفتتح الصلاة ويصلى ركعتين خفيفتين . ثم يصلى مثنى مثنى ما تيسر له ويختتم بالوتر لم يكن قد صلى الوتر . ويستحب أن يفصل بين الصلاتين عند تسليمه بمائة تسبيحة ليستريح ويزيد نشاطه للصلاة وقد صح فى صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالليل أنه صلى أولاً ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين دون التين قبلهما ثم لم يزل يقصر بالتدريج إلى ثلاث عشرة

(١) حديث « سئل أى الليل أفضل ؟ قال : نصف الليل الغابر » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث أنس بن مالك « الغابر » وهو فى بعض طرق حديث عمرو بن عيسى . (٢) الأخبار الواردة فى اهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن فى آخر الليل ونزول الجبار إلى سماء الدنيا ؟ أما حديث النزول فقد تقدم وأما الباقي فهو آثار رواها محمد بن نصر فى قيام الليل من رواية سعيد الجريرى قال « قال داود : يا جبريل أى الليل أفضل ؟ قال : ما أدري غير أن العرش يهتز من السحر » وفى رواية له عن الجريرى عن سعيد بن أنس بن الحسن قال « لما كان من السحر أترى كيف تهوح ريح كل شجر » وله من حديث أبى الدرداء صرفوا « لأن الله تبارك وتعالى لينزل فى ثلاث ساعات بقر من الليل يفتح الذكر فى الساعة الأولى » وفيه « ثم ينزل فى الساعة الثانية إلى حبة عدن ... الحديث » وهو مثله . (٣) حديث « العول فى قيامه للتهجد : اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله « أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت زين السموات والأرض » ودون قوله « ومن عليهن ومنك الحق » . (٤) حديث « اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها » أخرجه أحمد بإسناد جيد من حديث عائشة « أنها فقدت إلى صلى الله عليه وسلم من مضجعه فاستبى بها فوقت عليه وهو ساجد وهو يقول رب أعط نفسى تقواها ... الحديث » . (٥) حديث « اللهم اهدنى لأحسن الأعمال لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت » أخرجه مسلم من حديث على بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا قام إلى الصلاة » فذكره بلفظ « لأحسن الأخلاق » وفيه زيادة فى أوله . (٦) حديث « أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المضطر الدليل .. الحديث » أخرجه الطبرانى فى المعجم من حديث ابن عباس « أنه كان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم عشية عرفة » تقدم فى المحج . (٧) حديث عائشة « كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال : اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ... الحديث » رواه مسلم .

ركعة ^(١) وسئلت عائشة رضى الله عنها « أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر في قيام الليل أم يسر ؟ فقالت : ربما جهر وربما أسر ^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركة ^(٣) » وقال « صلاة المغرب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل ^(٤) » وأكثر ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قيام الليل ثلاث عشرة ركعة ^(٥) ويقرأ في هذه الركعات من ورده من القرآن أو من السور المخصوصة ما خف عليه وهو في حكم هذا الورد قريب من السدس الأخير من الليل .

الورد الخامس : السدس الأخير من الليل وهو وقت السحر فإن الله تعالى قال ﴿ وبالسحر هم يستغفرون ﴾ قيل يصلون لما فيها من الاستغفار وهو مقارب للفجر الذى هو وقت انصراف ملائكة الليل وإقبال ملائكة النهار وقد أمر بهذا الورد سلمان أبى الدرداء رضى الله عنهما ليلة زاره ^(٦) في حديث طويل قال في آخره « فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان : نم فنام ثم ذهب ليقوم فقال له : نم فنام فلما كان عند الصبح قال له سلمان : قم الآن ، فقاما فصليا فقال : إن لنفسك عليك حقا وإن لضيفك عليك حقا وإن لاهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه ، وذلك أن امرأة أبى الدرداء أخبرت سلمان أنه لا ينام الليل قال : فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فدكرا ذلك له فقال : صدق سلمان . وهذا هو الورد الخامس وفيه يستحب السجود وذلك عند خوف طلوع الفجر والوظيفة في هذين الوردتين الصلاة . فإذا طلع الفجر انقضت أوراد الليل ودخلت أوراد النهار فيقوم ويصلى ركعتي المجر وهو المراد بقوله تعالى ﴿ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ ثم يقرأ ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة ﴾ إلى آخرها . ثم يقول وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه وشهدت به ملائكته وأوار العلم من خلقه وأستودع الله هذه الشهادة وهي لى عند الله تعالى رديعة وأسأله حفظها حتى يتوفى عليها . اللهم احفظ عني بها وزرا واجعلها لى عندك ذخرا واحفظها على وتوفى عليها حتى ألقاك بها غير مبتدل تبديلا . فهذا ترتيب الأوراد للعباد وقد كانوا يستحبون أن يجمعوا مع ذلك في كل يوم بين أربعة أمور صوم وصدقة وإن قلت وعبادة مريض وشهود جنازة ففي الخبر « من جمع بين هذه الأربع في يوم غفر له ^(٧) » وفي رواية « دخل الجنة » فإن أنفق بعضها وعجز عن الآخر كان له أجر الجميع بحسب نية وكانوا يكرهون أن ينقضى اليوم ولم يتصدقوا فيه بصدقة ولو بتمرة أو بصلصة أو كسرة خبز لقوله صلى الله عليه وسلم « الرجل في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس ^(٨) » ولقوله صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمرة ^(٩) » ودفعت عائشة رضى الله عنها إلى سائل عتبة واحدة فأحدها فنظر من كان عندها بعضهم إلى بعض فقالت : ما لكم إن فيها لمناقب ذر كثير ؟ وكانوا لا يستحبون رد السائل إذ كان من أحلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك

(١) حديث « أنه صلى بالليل أولا ركعتين حقيقتين ثم ركعتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون المتين قبلهما ثم لم يزل يقصر بالتدريج إلى ثلاث عشرة ركعة » أخرجه مسلم من حديث زيد بن خالد الجهني . (٢) حديث « سئلت عائشة أكان يجهر رسول الله صلى الله عليه وسلم في قيام الليل أم يسر ؟ فقالت رعا حبر وريء أسر » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه

باسناد صحيح . (٣) حديث « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا حمت الصبح فأوتر بركة » متفق عليه وقد تقدم .

(٤) حديث « صلاة المغرب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل » أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بإسناد صحيح .

(٥) حديث « القيام من الليل ثلاث عشرة ركعة فإنه أكثر ما صح عنه » تقدم . (٦) حديث « زار سلمان أبى الدرداء

فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان م فنام .. الحديث » وفي آخره فقال « صدق سلمان » أخرجه البخارى

من حديث أنى حيفة . (٧) حديث « من جمع بين صوم وصدقة وعبادة مريض وشهود جنازة في يوم غفر له » وفي رواية

« دخل الجنة » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة « ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة » . (٨) حديث « الرجل في ظل صدقته

حتى يقضى بين الناس » تقدم في الركاة . (٩) حديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة » تقدم في الزكاة .

ماسأله أحد شيئاً فقال : لا ، ولكنه إن لم يقدر عليه سكت ^(١) وفي الخبر « يصبح ابن آدم وعلى كل سلامى من جسده صدقة يعنى المفصل وفى جسده ثلثمائة وستون مفصلاً فأمرك بالمعروف صدقة ونهيك عن المنكر صدقة وحملك عن الضعيف صدقة وهدايتك إلى الطريق صدقة وإمطتك الأذى صدقة حتى ذكر التسبيح والتلهيل . ثم قال وركعتا الضحى تأتى على ذلك كله أو تجمعن لك ذلك كله ^(٢) . .

بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

اعلم أن المريد لحرق الآخرة السالك لطريقها لا يخلو عن ستة أحوال فإنه : إما عابد وإما عالم وإما متعلم وإما وال وإما محترف وإما موحد مستغرق بالواحد الصمد عن غيره (الأول) العابد : وهو المتجرد للعبادة الذى لا شغل له غيرها أصلاً ولو ترك العبادة لجلس لطلا لا فترتيب أوراده ما ذكرناه ، نعم لا يبعد أن تختلف وطائفه بأن يستغرق أكثر أوقاته إما فى الصلاة أو القراءة أو فى التسبيحات فقد كان فى الصحابة رضى الله عنهم من ورده فى اليوم اثنا عشر ألف تسبيحة . وكان فيهم من ورده ثلاثون ألفاً . وكان فيهم من ورده ثلثمائة ركعة إلى ستمائة وإلى ألف ركعة . وأقل ما نقل فى أورادهم من الصلاة مائة ركعة فى اليوم واللييلة . وكان بعضهم أكثر ورده القرآن وكان يختم الواحد منهم فى اليوم مرة وروى مرتين عن بعضهم : وكان بعضهم يقضى اليوم أو الليل فى التفكير فى آية واحدة يرددها . وكان كرز بن وبرة مقياً بمكة فكان يطوف فى كل يوم سبعين أسبوعاً وفى كل ليلة سبعين أسبوعاً وكان مع ذلك يختم القرآن فى اليوم واللييلة مرتين . حسب ذلك فكان عشرة فراسخ ويكون مع كل أسبوع ركعتان فهو مائتان وثمانون ركعة وختمتان وعشرة فراسخ . فإن قلت : فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد فاعلم أن قراءة القرآن فى الصلاة قائماً مع التدبر يجمع الجميع ولكن ربما تعسر المواظبة عليه فالأفضل يختلف باختلاف حال الشخص ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره وتحليته بذكر الله تعالى وإيناسه به فليست المريد إلى قلبه فما يراه أشد تأثيراً فيه فليواظب عليه . فإذا أحس بملالة منه وليستقل إلى غيره ولذلك نرى الأصوب لاكثر الخلق توزيع هذه الخيرات المختلفة على الأوقات - كما سبق - والانتقال فيها من نوع إلى نوع لأن الملل هو الغالب على الطبع وأحوال الشخص الواحد فى ذلك أيضاً تختلف . ولكن إذا فهم فقه الأوراد وسرها فليتبمع المعنى فإن سمع تسبيحة مثلاً وأحس لها بوقع قلبه فليواظب على تكرارها مادام يجد لها وقعا . وقد روى عن إبراهيم بن أدهم عن بعض الأبدال أنه قام ذات ليلة يصلى على شاطئ البحر فسمع صوتاً عالياً بالتسبيح ولم ير أحداً فقال من أنت أسمع صوتك ولا أرى شخصك ؟ فقال : أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر أسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت قلت : فما اسمك ؟ قال : مهلهيايل قلت : فما ثواب من قاله ؟ قال : من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له . والتسبيح هو قوله « سبحان الله العلى الديان سبحان الله الشديد الأركان سبحان من يذهب بالليل ويأتى بالنهار سبحان من لا يشغله شأن عن شأن سبحان الله الختان المنان سبحان الله المسبح فى كل مكان ، فهذا وأمثاله إذا سمعه المريد ووجد له فى قلبه وقعا فليلازمه . وأياً ما وجد القلب عنده وفتح له فيه خير فليواظب عليه (الثانى) العالم الذى ينفع الناس بعلمه فى فتوى أو تدريس أو تصنيف فترتيبه الأوراد يحالف ترتيب العابد ؛ فإنه يحتاج إلى المطالعة للكتب وإلى التصنيف والإفادة ، ويحتاج إلى مدة لها لا محالة فإن أمكنه استغراق الأوقات فيه فهو أفضل ما يشتغل

(١) حديث « ماسأله أحد شيئاً فقال لا إن لم يقدر عليه سكت » أخرجه مسلم من حديث جابر وللبرار من حديث أس « أو سكت » . (٢) حديث « يصبح ابن آدم وعلى كل سلامى من جسده صدقة... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي ذر .

به بعد المكتوبات ورواتها . ويدل على ذلك جميع ما ذكرناه في فضيلة التعليم والتعلم في كتاب العلم . وكيف لا يكون كذلك وفي العلم المواظمة على ذكر الله تعالى ؟ وتأمل ما قال الله تعالى وقال رسوله . وفيه منفعة الخلق وهذا بهم إلى طريق الآخرة ورب مسألة واحدة يتعلمها المتعلم فمصلح بها عبادة عمره ولو لم يتعلمها لكان سعيه ضائعاً . وإنما نعى بالعلم المقدم على العبادة العلم الذي يرب الناس في الآخرة ويذهبهم في الدنيا أو العلم الذي يعينهم على سلوك طريق الآخرة إذا تعلموه على قصد الاستعانة به على السلوك ، دون العلوم التي تزيد بها الرغبة في المال والجاه وقبول الخلق والأولى بالعالم أن يقسم أوقاته أيضاً فإن استغرق الأوقات في ترتيب العلم لا يحتمله الطبع . فينبغي أن يخص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد كما ذكرناه في الورد الأول . وبعد الطلوع إلى ضحوة النهار في الإفادة والتعليم إن كان عنده من يستفيد علماً لأجل الآخرة ، وإن لم يكن فيصرفه إلى الفكر ويتفكر فيما يشكل عليه من علوم الدين فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهوم الدنيا يعين على التفطن للمشكلات . ومن ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة لا يتركها إلا في وقت أكل وطهارة ومكتوبة وقبلولة خفيفة إن طال النهار . ومن العصر إلى الاصفرار يشتغل بسماع ما يقرأ بين يديه من تفسير أو حديث أو علم نافع . ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالذكر والاستغفار والتسبيح فيكون ورده الأول قبل طلوع الشمس في عمل اللسان . وورده الثاني في عمل القلب بالفكر إلى الضحوة . وورده الثالث إلى العصر في عمل العين واليد بالمطالعة والكتابة . وورده الرابع بعد العصر في عمل السمع ليرقح فيه العين واليد فإن المطالعة والكتابة بعد العصر ربما أضرا بالعين . وعند الاصفرار يعود إلى ذكر اللسان فلا يخلو جزء من النهار عن عمل له بالجوارح مع حضور القلب في الجميع . وأما الليل فأحسن قسم فيه قسمة الساعات رضي الله عنه إذ كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء ثلثا للمطالعة وترتيب العلم وهو الأول وثلثا للصلاة وهو الوسط وثلثا للنوم وهو الأخير . وهذا يتيسر في ليالي الشتاء ، والصيف ربما لا يحتمل ذلك إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار وهذا ما نستحبه من ترتيب أوراد العالم (الثالث) المتعلم : والاشتغال بالتعلم أفضل من الاشتغال بالأذكار والموافل فحكه حكم العالم في ترتيب الأوراد ولكن يشتغل بالاستفادة حيث يشتغل العالم بالإفادة وبالتعليق والنسخ حيث يشتغل العالم بالتصنيف ويرتب أوقاته كما ذكرنا . وكل ما ذكرناه في فضيلة التعلم والعلم من كتاب العلم يدل على أن ذلك أفضل . بل إن لم يكن متعلماً على معنى أنه يعلق ويحصل ليصير عالماً . بل كان من العوام فحضوره مجالس الذكر والوعظ والعلم أفضل من اشتغاله بالأوراد التي ذكرناها بعد الصبح وبعد الطلوع وفي سائر الأوقات . ففي حديث أبي ذر رضي الله عنه : أن حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة وشهود ألف جنازة وعبادة ألف مريض ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها فقيل يا رسول الله وما رياض الجنة ؟ قال خلق الذكر ^(٢) ، وقال كعب الأحبار رضي الله عنه : لو أن ثواب مجالس العلماء بدا للناس لاقتتلوا عليه حتى يترك كل ذي إمارة إمارة وكل ذي سوق سوقه . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة ، فإذا سمع العالم خاف واسترجع عن ذنوبه وانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب ، فلا تفارقوا مجالس العلماء فإن الله عز وجل لم يخلق على وجه الأرض تربة أكرم من مجالس العلماء . وقال رجل للحسن رحمه الله أشكو إليك قساوة قلبي فقال : أدبه من مجالس الذكر .

(١) حديث أبي ذر « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ... الحديث » تقدم في العلم .

(٢) حديث « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها ... الحديث » تقدم في العلم .

ورأى عمار الزاهدي مسكينة الطفاوية في المنام وكانت من المواظبات على خلق الذكر فقال : مرحباً يا مسكينة فقالت : هيات هيات ذهبت المسكينة وجاء الغنى ! فقال : هيه ! فقالت : ما تسأل عمن أبيع لها الجنة بخذاً فإراها ؟ قال : وبم ذلك ؟ قالت : بمحالة أهل الذكر . وعلى الجملة فما ينجل عن القلب من عقد حب الدنيا بقول واعظ حسن الكلام زكي السيرة أشرف وأنفع من ركعات كثيرة مع اشتغال القلب على حب الدنيا (الرابع) المحترف الذي يحتاج إلى الكسب لحياله فليس له أن يضيق العيال ويستغرق الأوقات في العبادات بل ورده في وقت الصناعة حضور السور والاشتغال بالكسب ولكن ينبغي أن لا ينسى ذكر الله تعالى في صناعته بل يواظب على التسيجات الأذكار وقراءة القرآن فإن ذلك يمكن أن يجمع إلى العمل . وإما لا يتيسر مع العمل الصلاة إلا أن يكون ناطوراً فإنه لا يعجز عن إقامة أوراد الصلاة معه . ثم مهما فرغ من كهائنه ينبغي أن يعود إلى ترتيب الأوراد . وإن داوم على الكسب وتصدق بما فضل عن حاجته فهو أفضل من سائر الأوراد التي ذكرناها لأن العبادات المتعدية فائدتها أنفع من اللازمة والصدقة والكسب على هذه النية عادة له في نفسه تقربه إلى الله تعالى ثم يحصل به فائدة للغير وتتجذب إليه بركات دعوات المسلمين ويتضاعف به الأجر (الخامس) الوالي : مثل الإمام والقاضي والمتولي في أمور المسلمين فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة لحقه أن يشتغل بحقوق الناس نهاراً ويقتصر على المكتوبة ويقيم الأوراد المذكورة بالليل ، كما كان عمر رضي الله عنه يفعل . إذ قال : مالي وللنوم فلو نمت بالنهار صيغت المسلمين ولو نمت بالليل ضيغت نفسي . وقد فهمت بما ذكرناه أنه يقدم على العبادات الدنية أمران أحدهما : العلم ، والآخر : الرفق بالمسلمين ، لأن كل واحد من العلم وفيل المعروف عمل في نفسه وعبادة تفضل سائر العبادات يتعدى فائدته وانتشار حدواه فكانا مقدمين عليه (السادس) الموحد المستغرق بالواحد الصمد الذي أصبح وهمومه هم واحد فلا يحس إلا الله تعالى ولا يخاف إلا منه ولا يتوقع الرزق من غيره ولا ينظر في شيء إلا ويرى الله تعالى فيه . من ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة لم يقتصر إلى تنويع الأوراد واحتلافها بل كان ورده بعد المكتوبات واحد وهو حضور القلب مع الله تعالى في كل حال ، فلا يحيط بقلوبهم أمر ولا يقرع سمعهم قارع ولا يلوح لأبصارهم لائح إلا كان لهم فيه عبرة وفكر ومزید ، فلا يحرك لهم ولا مسك إلا الله تعالى فهو لأه جميع أحوالهم تصلح أن تكون سبباً لآريادهم فلا تتميز عندهم عبادة عن عبادة وهم الذين فروا إلى الله عز وجل كما قال تعالى ﴿ لعلمكم تذكرون ففروا إلى الله ﴾ وتحقق فيهم قوله تعالى (وإذا عتزلتموهما وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته) وإليه الإشارة بقوله (إني ذاهب إلى ربي سيدين) وهذه منتهى درجات الصديقين ولا وصول إليها إلا بعد ترتيب الأوراد والمواظبة عليها دهرًا طويلاً فلا ينمى أن يعثر المرید بما سمعه من ذلك فيدعيه لنفسه ويفتر عن وظائف عبادته فذلك علامته أن لا يهتس في قلبه وسواس ولا يحيط في قلبه معصية ولا ترجعه هواجس الأهوال ولا تستفزة عظام الأشغال . وأنى ترزق هذه الرتبة لكل أحد . فيتعين على الكافة ترتيب الأوراد كما ذكرناه وجميع ما ذكرناه طرق إلى الله تعالى قال تعالى (قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً) فكلهم مهتدون وبعضهم أهدى من بعض . وفي الخبر « الإيمان ثلاث وثلاثون وثلاثمائة طريقة من لقي الله تعالى بالشهادة على طريق منها دخل الجنة ^(١) » وقال بعض العلماء : الإيمان ثلاثمائة وثلاثة عشر خلقاً

(١) حديث « الإيمان ثلاث وثلاثون وثلاثمائة طريقة من لقي الله بالشهادة على طريق منها دخل الجنة » أخرجه ابن شاهين واللاسكاني في السنة والطبراني والبيهقي في الشعب من رواية الميرة بن عبد الرحمن بن سعد عن أبيه عن جده « الإيمان ثلاثمائة وثلاثون وثلاثون شريعة من وافى شريعة منهم دخل الجنة » وقال الطبراني والبيهقي « ثلاثمائة وثلاثون » وفي إسناده جهالة .

بعدد الرسل هكل مؤمن على خلق منها فهو سالك الطريق إلى الله . فإذا الناس وإن اختلفت طرقهم في العبادة فكلهم على الصواب (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) وإنما يتفاوتون في درجات القرب لاقبصله ، وأقربهم إلى الله تعالى أعرفهم به ، وأعرفهم به لا بد وأن يكون أعبد لهم له ؛ فمن عرفه لم يعبد غيره . والاصل في الأوراد في حق كل صنف من الناس المداومة فإن المراد منه تغيير الصفات الباطنة . وآحاد الأعمال يقل آثارها بل لا يحس بآثارها وإنما يترتب الأثر على المجموع فإذا لم يعقب العمل الواحد أثراً محسوساً ولم يردف بثان وثالث على القرب انمحي الأثر الأول وكان كالفقيه يريد أن يكون فقيه النفس فإنه لا يصير فقيه النفس إلا بتكرار كثير ؛ فلو بالغ ليلة في التكرار وترك شهراً أو أسبوعاً ثم عاد وبالع ليلة لم يؤثر هذا فيه . ولو وزع ذلك القدر على الليالي المتواصلة لأثر فيه . ولهذا السر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل (١) . وسئلت عائشة رضي الله عنها عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملاً أثبته (٢) ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : من عوده الله عبادة وتركها ملالة مقتته الله (٣) ، وهذا كان السبب في صلاته بعد العصر تداركاً لما فاته من ركعتين شغله عنهما الوفاء ثم لم يزل بعد ذلك يصليهما بعد العصر ولكن في منزله لاقى المسجد كيلاً يقتدى به (٤) رونه عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما : فإن قلت : فهل لغيره أن يقتدى به في ذلك مع أن الوقت وقت كراهية ؟ فاعلم أن المعاني الثلاثة التي ذكرناها في الكراهية من الاحتراز عن التشبه بعبدة الشمس أو السجود وقت ظهور قرن الشيطان أو الاستراحة عن العبادة حذراً من الملل لا يتحقق في حقه فلا يقاس عليه في ذلك غيره . ويشهد لذلك فعله في المنزل حتى لا يقتدى به صلى الله عليه وسلم .

الباب الثاني : في الأسباب الميسرة لقيام الليل وفي الليالي التي يستحب إحيائها

وفي فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين وكيفية قسمة الليل

فضيلة إحياء ما بين العشاءين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روت عائشة رضي الله عنها : إن أفضل الصلوات عند الله صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا عن مقيم فتح بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار فمن صلى المغرب وصلى بعدها ركعتين بنى الله له قصر في الجنة (٥) ، قال الراوي : لأدري من ذهب أوفضة ؟ ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر له ذنب عشرين سنة أو قال أربعين سنة ، وروى أم سلمة وأبو هريرة رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة كاملة أو كأنه صلى ليلة القدر (٦) ، وعن سعيد بن جبيرة عن ثوبان

(١) حديث « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » متفق عليه من حديث عائشة . (٢) حديث « سئلت عائشة عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملاً أثبته » رواه مسلم . (٣) حديث « من عوده الله عبادة وتركها ملالة مقتته الله » رواه مسلم . (٤) حديث « شغل الوفاء عن ركعتين فصلاهما بعد العصر لم يزل يصليهما بعد العصر في منزله » متفق عليه من حديث أم سلمة . (٥) أنه صلى بعد العصر ركعتين وقال شمل بن ماس من عبد القيس عن أنركعتين بعد الظهر ، ولها من حديث عائشة « ما تركهما حتى لقي الله وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصليهما ولا يصليهما في المسجد مخافة أن يقل على أمته » والله الموفق للصواب .

الباب الثاني : في الأسباب الميسرة لقيام الليل

(٥) حديث عائشة « إن أفضل الصلاة عند الله صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا عن مقيم . الحديث » رواه أبو الوليد يونس بن عبيد الله الصمار في كتاب « الصلاة » ورواه الطبراني في الأوسط مختصراً ومُساده ضعيف . (٦) حديث أم سلمة عن أبي هريرة « من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة أو كأنه صلى ليلة القدر » أخرجه الترمذي وابن ماجه بلفظ =

قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من عكف نفسه فيما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قرآن كان حقا على الله أن يبني له قصرين في الجنة مسيرة كل قصر مئمة عام ويعرس له بيدهما عرايا لوطاوه أهل الدنيا لوسعهم ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من ركع عشر ركعات ما بين المغرب والعشاء بنى الله له قصرًا في الجنة فقال عمر رضي الله عنه : إذا تكثرت قصوربا يارسول الله فقال : الله أكثر وأفضل - أو قال - أطيّب ^(٢) » وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى المغرب في جماعة ثم صلى بعدها ركعتين ولم يتكلم بشيء فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ في الركعة الأولى فاتحة الكتاب وعشر آيات من أول سورة البقرة وآيتين من وسطها وله واحد لاله إلا هو الرحمن الرحيم إن في خلق السموات والأرض إلى آخر الآية وقال هو الله أحد خمس عشرة مرة ثم يركع ويسجد فإذا قام في الركعة الثانية قرأ فاتحة الكتاب وآية الكرسي وآيتين بعدها إلى قوله (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وثلاث آيات من آخر سورة البقرة من قوله ما في السموات وما في الأرض إلى آخرها وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة ^(٣) » وصف من ثوابه في الحديث ما يخرج عن الحصر وقال كرز بن وبرة وهو من الأبدال : قلت للخضر عليه السلام عني شيئًا أعمله في كل ليلة فقال إذا صليت المغرب فقم إلى وقت صلاة العشاء مصليًا من غير أن تتكلم أحدًا أو قبل على صلاتك التي أنت فيها وسلم من كل ركعتين وقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاثًا فإن هرغت من صلاتك انصرف إلى منزلك ولا تكلم أحدًا وصل ركعتين وقرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد سبع مرات في كل ركعة ثم استغفر الله واستغفر الله تعالى سبع مرات وقل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم سبع مرات ، ثم ارفع رأسك من السجود واستو جالسًا وارفع يديك وقل يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام يا إله الأولين والآخرين يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما يا رب يا رب يا رب يا الله يا الله يا الله ، ثم قم وأنت رافع يديك وأدع بهذا الدعاء ، ثم نم حيث تشئت مستقبل القبلة على يمينك وصل على النبي صلى الله عليه وسلم وأدم الصلاة عليه حتى يذهب بك النوم . فقلت له : أحب أن تعلمي ممن سمعت هذا ؟ فقال : إني حضرت محمدًا صلى الله عليه وسلم حيث علم هذا الدعاء وأوحى إلي به فكنت عنده وكان ذلك بمحضر مني فتعلمته ممن علمه إياه ^(٤) ويقال إن هذا الدعاء وهذه الصلاة من داوم عليهما بحسن يعين وصدق نية رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه قبل أن يخرج من الدنيا ؛ وقد فعل ذلك بعض الناس فرأى أنه أدخل الجنة ورأى فيها الأنبياء ورأى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكله وعلمه . وعلى الجملة ما ورد في فضل إحياء ما بين المغرب والعشاء من كثير حتى قيل لعبيد الله مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بصلاة غير المكتوبة ؟ قال : ما بين المغرب والعشاء ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى ما بين المغرب والعشاء تلك

= اثنتي عشرة سنة وضعفه الترمذي وأما قوله « كانه صلى ليلة القدر » فهو من قول كعب الأحبار كما رواه أبو الوليد الصمار ، ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس « من صلى أربع ركعات بعد المغرب قل أن يكلم أحدًا وصعته في عليين وكان كمن أدرك ليلة القدر في المسجد الأقصى » وسنده ضعيف . (١) حديث سعيد بن جبير عن نومان « من عكف نفسه ما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قرآن كان حقا على الله أن يبني له قصرين في الجنة » لم أجده أصلا من هذا الوجه وقد تقدم في الصلاة من حديث ابن عمر . (٢) حديث « من ركع عشر ركعات بين المغرب والعشاء بنى الله له قصرًا في الجنة فقال عمر إذا تكثرت قصوربا يارسول الله ... الحديث » أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث عبد الكريم ابن الحارث مرسلًا . (٣) حديث أنس « من صلى المغرب في جماعة ثم صلى بعدها ركعتين ولا يتكلم بشيء . فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وعشر آيات من أول البقرة وآيتين من وسطها وله واحد لاله واحد .. الحديث » أخرجه أبو الشيخ في الثواب من رواية زياد بن ميثون عنه مع اختلاف يسير وهو ضعيف . (٤) حديث كرز بن وبرة « أن الخضر علمه صلاة بين المغرب والعشاء وفيه أن كرزًا سأله الحصر ممن سمعت هذا ؟ قال : إني حضرت محمدًا صلى الله عليه وسلم حين علم هذا الدعاء ... الحديث » وهذا باطل لأصل له . (٥) حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل له « هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بصلاة غير المكتوبة ؟ قال ما بين المغرب والعشاء » رواه أحمد وفيه رجل لم يسم .

فضيلة قيام الليل

(١) حديث « من صلى ما بين المغرب والعشاء فذلك صلاة الأوابين » تقدم في الصلاة .

(٢) حديث « يَمُوتُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَائِمِهِ رَأْسُ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عَقَدٍ .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث « ذكر عنده رجل نام حتى أصبح فقال : ذاك رجل بال الشيطان في أذنه » متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٤) حديث «إن الشيطان سموطا ولموقا وذورورا... الحديث»، أخرجه الطبراني من حديث أس «إن الشيطان لموطا وكلا

فإذا لقي الإنسان من لعوقه درب لسانه بالشر وإذا كحله من كحله نامت عيناه عن الذكر، ورواه الثرثار من حديث سمرة بن جندب

وسندهما ضعيف . (٥) حديث « رَكَعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا الْعَبْدُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ حَيْرَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَوْلَا أَنْ اشْفَى عَلَى أُمَّتِي

لهرضتهما عليهم « أخرجه آدم بن أبي إياس في الثواب ومحمد بن نصر المروزي في كتاب قيام الليل من رواية حسان بن عطية مرسله

ووصله أبو منصور الديلمي في مسند الردوس من حديث ابن عمر ولا يصح . (٦) حديث الغيرة بن شعبة ، قام رسول الله

صلى الله عليه وسلم حتى تقطرت قدماه... الحديث « متفق عليه . (٧) حديث « يا أبا هريرة أتريد أن تكون راحة الله عليك

حيا وميتا ومقبورا قم من الليل فصل وأنت تريد رضا ربك ، يا أبا هريرة صل في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور

(٥) — احياء علوم الدين — (١)

ومطرده للداء عن الجسد ومنهارة عن الإثم^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما من امرئ تكون له صلاة بالليل فغلبه عليها النوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر « لو أردت سفرا أعددت له عدة؟ قال : نعم ، قال : فكيف سفر طريق القيامة ألا أنبئك يا أبا ذر؟ ما ينفعك ذلك اليوم؟ قال : بلى بأبي أنت وأمي ، قال : صم يوما شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور وحج حجة لعظام الأمور وتصدق بصدقة على مسكين أو كلبة حق تقولها أو كلبة شر تسكت عنها^(٣) » ، وروى « أنه كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول : يارب النار أجرني منها ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : إذا كان ذلك فأذنوني فأناها فاستمع فلما أصبح قال : يا فلان هلا سألت الله الجنة؟ قال : يا رسول الله إني لست هناك ولا يبلغ عملي ذاك فلم يلبث إلا يسيرا حتى نزل جبرائيل عليه السلام وقال : أخبر فلانا أن الله قد أجاره من النار وأدخله الجنة^(٤) » ، وروى « أن جبرائيل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم : نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل ، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فكان يداوم بعده على قيام الليل^(٥) » ، قال نافع : كان يصلي بالليل ثم يقول : يا نافع أسحرنا؟ فأقول : لا ، فيقوم لصلاته ثم يقول يا نافع أسحرنا؟ فأقول : نعم ، فيقع فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الصبح . وقال علي بن أبي طالب شبع يحيى بن زكريا عليهما السلام من خبز شعير فنام عن ورده حتى أصبح فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى أوحدت دارا خيرا لك من دارى؟ أم وحدث جوارا خيرا لك من جوارى؟ فوعزني وجلالى يا يحيى لو اطلعت إلى الفردوس اطلاعة لذاب شحمك ولزهرت نفسك اشتياقا ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعة لذاب شحمك ولبكيت الصديد بعد الدموع ولبست الجلد بعد المسوح . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق فقال : سينهاه ما يعمل^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم ، رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت فإن أبت نضح في وجهها الماء^(٧) » وقال صلى الله عليه وسلم ، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ثم أيقظت زوجها فصلى فإن أبي نضحت في وجهه الماء ، وقال صلى الله عليه وسلم « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبنا من الأكرام^(٨) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل^(٩) » ، وقال

(١) حديث « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم . . . الحديث » أخرجه الترمذى من حديث بلال وقال عريب ولا يصح ورواه الطبرانى والبيهقى من حديث أبي أمامة بسند حسن وقال الترمذى له أصح .

(٢) حديث « ما من امرئ يكون له صلاة بالليل يلمبه عليها يوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه » أخرجه أبو داود والنسائي من حديث عائشة وفيه رجل لم يسم سماء النسائي في رواية الاسود بن يزيد لكن في طريقه ابن جعفر الرازى قال النسائي ليس بالقوى ورواه النسائي وابن ماجه من حديث أنى الدرداء نحوه بسند صحيح وتقدم في الباب قبله .

(٣) حديث « لو أردت سفرا أعددت له عدة فكيف سفر طريق القيامة ألا أنبئك يا أبا ذر؟ ما ينفعك ذلك اليوم؟ قال بلى بأبي وأمي قال صم يوما شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور . . . الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التهم من رواية السرى بن مخلد ومرسلا والسرى ضعفه الأردى .

(٤) حديث « أنه كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول : يارب النار أجرني منها . فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : إذا كان ذلك فأذنوني . . . الحديث » لم أقف له على أصل . (٥) حديث « أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم : نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل . . . الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر « أن إلى صلى الله عليه وسلم قال ذلك » وليس فيه ذكر لجبريل . (٦) حديث « قيل له لمن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق قال سينهاه ما يعمل » أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة . (٧) حديث « رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت . . . الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي هريرة . (٨) حديث « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبنا من الأكرام » أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي سعيد بسند صحيح . (٩) حديث « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة

عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قال صلى الله عليه وسلم « من نام عن حربه أو عن شيء منه بالليل فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنما قرأه من الليل » (١) ، الآثار : روى أن عمر رضى الله عنه كان يتر بالآية من ورده بالليل فيسقط حتى يعاد منها أياما كثيرة كما يعاد المريض . وكان ابن مسعود رضى الله عنه إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوى كدوى الجمل حتى يصبح ويقال : إن سفيان الثوري رحمه الله شبع ليلة فقال : إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله فقام تلك الليلة حتى أصبح . وكان طاوس رحمه الله إذا اضطجع على فراشه يتقلى عليه كما تتقلى الحبة على المقلاة ثم يثب ويصلى إلى الصباح ثم يقول : طير ذكر جهنم نوم العابدين . وقال الحسن رحمه الله : ما نعلم عملا أشد من مكابدة الليل ونفقة هذا المال فقيل له : ما بال المتجهدين من أحسن الناس وجوها ؟ قال : لأنهم خلوا بالرحمن وألبسهم نورا من نوره . وقدم بعض الصالحين من سفره فهد له فراش فنام عليه حتى فاته ورده فحلف أن لا ينام بعدها على فراش أبدا . وكان عبد العزيز بن رواد إذا جن عليه الليل يأتي فراشه فيمقر يده عليه ويقول : إنك للين ووالله إن في الجنة لألين منك ولا يزال يصلى الليل كله . وقال الفضيل : إنى لاستقبل الليل من أوله فيهلونى طوله فأفتتح القرآن فأصبح وما قضيت نهيتى . وقال الحسن : إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل . وقال الفضيل : إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم وقد كثرت خطيئتك . وكان صلة بن أشيم رحمه الله يصلى الليل كله فإذا كان في السحر قال : إلهى ليس مثلى يطلب الجنة ولكن أجرنى برحمتك من النار . وقال رجل لبعض الحكماء : إنى لأضعف عن قيام الليل ، فقال له « يا أخى لا تعص الله تعالى ولا تقم بالليل . وكان للحسن بن صالح جارية فباعها من قوم فلما كان في جوف الليل قامت الجارية فقالت : يا أهل الدار الصلاة الصلاة فقالوا : أصبحنا أطلع الفجر ؟ فقالت : وما تصلون إلا المكتوبة ؟ قالوا : نعم ؛ فرجعت إلى الحسن فقالت : يا مولاي بعتنى من قوم لا يصلون إلا المكتوبة ؟ ردنى . فردها ، وقال الربيع : بت في منزل الشافعى رضى الله عنه ليالى كثيرة فلم يكن ينام من الليل إلا يسيرا . وقال أبو الحويرية . لقد صحبت أبا حنيفة رضى الله عنه ستة أشهر فما فيها ليلة وضع جنبه على الأرض . وكان أبو حنيفة يحى نصف الليل فتر يقوم فقالوا : إن هذا يحى الليل كله : فقال : إنى أستحى أن أوصف بما لا أفعل فكان بعد ذلك يحى الليل كله . ويروى أنه ما كان له فراش بالليل . ويقال : إن مالك بن دينار رضى الله عنه بات يردد هذه الآية ليلة حتى أصبح (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآية : وقال المغيرة بن حبيب : رمت مالك بن دينار فتوصأ بعد العشاء ثم قام إلى مصلاه فقبض على لحيته فخنقته العبرة فجعل يقول حرم شيمة مالك على النار إلهى قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار فأى الرجلين مالك ؟ وأنى الدارين دار مالك ؟ فلم يزل ذلك قوله حتى طلع الفجر . وقال مالك بن دينار : سهوت ليلة عن وردى ونمت فإذا أنا في المنام بجارية كأحسن ما يكون وفى يدها رقعة فقالت لى : أتمسك تقرأ ؟ فقلت : نعم ، فدفعت إلى الرقعة فإذا فيها :

ألهتك اللذائد والأمانى عن البيض الأوانس في الجنان
تعيش مخلدا لاموت فيها وتلهو في الحنان مع الحسان
تنبه من منامك إن خيرا من النوم التهجى بالقرآن

وقبل حج مسروق فما بات ليلة إلا ساجدا . ويروى عن أزهر بن مغيث وكان من القوامين أنه قال : رأيت في

(١) حديث عمر « من ام عن حربه أو عن شيء منه فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنه قرأه من الليل » رواه مسلم

النام امرأة لا تشبه نساء أهل الدنيا فقلت لها : من أنت ؟ قالت : حوراء ؛ فقلت : زوجيني نفسك ؛ فقالت اخطبني إلى سيدي وأمهرني ؛ فقلت : وما مهرك ؟ قالت : طول التهجد . وقال يوسف بن مهران : بلغني أن تحت العرش ملكاً في صورة ديك برائته من لؤلؤ وصنصنه من زبرجد أخضر فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقيم القائمون فإذا مضى نصف الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقيم المتجددون ؛ فإذا مضى ثلثا الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقيم المصلون ؛ فإذا طلع الفجر ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقيم الغافلون وعليهم أوزارهم . وفيل إن وهب بن منبه اليماني ما وضع جنبه إلى الأرض ثلاثين سنة وكان يقول : لأن أرى في بيتي شيطاناً أحب إلى من أن أرى في بيتي وسادة لأنها تدعو إلى النوم ، وكانت له مسورة من آدم إذا غلبه النوم وضع صدره عليها وخفق خفقات ثم يفرغ إلى الصلاة . وقال بعضهم : رأيت رب العزة في النوم فسمعتة يقول : وعزتي وجلالي لا كرم من مثوى سليمان التيمي فإنه صلى لي الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة . ويقال كان مذهبه أن النوم إذا حامر القلب بطل الوضوء ، وروى في بعض الكتب القديمة عن الله تعالى أنه قال : إن عبدي الذي هو عبدي حقاً الذي لا ينتظر بقيامه صباح الديكة .

بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل

اعلم أن قيام الليل عسير على الخلق إلا على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهراً وباطناً

فأما الظاهرة فأربعة أمور (الأول) أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام . كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول : معاشر المريدين لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتتحسروا عند الموت كثيراً . وهذا هو الأصل الكبير وهو تخفيف المعدة عن ثقل الطعام (الثاني) أن لا يتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تعيا بها الجوارح وتضعف بها الأعصاب فإن ذلك أيضاً مجلبة للنوم (الثالث) أن لا يترك القيلولة بالنهار فإنها سنة للاستعانة على قيام الليل (١) (الرابع) أن لا يحتجب الأوزار بالنهار فإن ذلك مما يقسى القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة . قال رجل للحسن : يا أبا سعيد إنني أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعدت طهوري فما بالي لا أقوم ؟ فقال : ذنوبك قيدتك . وكان الحسن رحمه الله إذا دخل السوق فسمع لغتهم ولغومهم يقول : أظن أن ليل هؤلاء ليل سوء فإنهم لا يقيمون . وقال الثوري : حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبت ، قيل وما ذاك الذنب ؟ قال : رأيت رجلاً يبكي فقلت في نفسي هذا مرأى وقال بعضهم : دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكي فقلت أذاك نعي بعض أهلك ؟ فقال : أشد ؛ فقلت : وجع يؤمك ؟ قال : أشد ؛ قلت : فذاك ؟ قال : باني مغلق وستري مسبل ولم أقرأ حزبي البارحة وما ذاك إلا بذنب أحدثته . وهذا لأن الخير يدعو إلى الخير والشريد يدعو إلى الشر والقليل من كل واحد منهما يحترق إلى الكثير . ولذلك قال أبو سليمان الداراني : لا تفوت أحدا صلاة الجماعة إلا بذنب وكان يقول الاحتلام بالليل عقوبة والجناية بعد . وقال بعض العلماء : إذا صمت يا مسكين فأنظر عند من تفطر وعلى أي شيء تفطر فإن العبد ليأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه ولا يعود إلى حالته الأولى . فالذنوب كلها تورث قساوة القلب وتمنع من قيام الليل ، وأخصها بالتأثير تناول الحرام . وتؤثر اللقمة الحلال في تصفية القلب وتحريكه إلى الخير مالا يؤثر غيرها ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له . ولذلك قال بعضهم : كم من أكلة منعت قيام ليلة وكم من نظرة منعت قراءة سورة ؟ وإن العبد ليأكل أكلة أو يفعل فعلة فيحرم بها قيام سنة . وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الخيرات . وقال بعض السجابين

(١) حديث « الاستعانة بقيلولة النهار على قيام الليل » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس وقد تقدم .

كنت سجانا نياما وثلاثين سنة أسأل كل مأخوذ بالليل أنه هل صلى العشاء في جماعة فكانوا يقولون : لا ؟ وهذا تنبيه على أن بركة الجماعة تنهى عن تعاطي الفحشاء والمنكر .

وأما الميسرات الباطنة وأربعة أمور : (الأول) سلامة القلب عن الحقد على المسلمين وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا فالمستغرق لهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام ، وإن قام فلا يتفكر في صلاته إلا في مهماته ولا يجول إلا في وساوسه وفي مثل ذلك يقال :

يحبرني البوّاب أنك نائم وأنت إذا استيقظت أيضاً فنائم

(الثاني) : حوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل فإنه إذا تفكر في أهوال الآخرة ودركات جهنم طار نومه وعظم حدره كما قال طاوس : إن ذكر جهنم طير يوم العابدين . وكما حكى أن غلاما بالبصرة اسمه صهيب كان يقوم الليل كله فقالت له سيدة : إن قيامك بالليل يضرب لعمرك بالنهار ، فقال : إن صهيبا إذا ذكر النار لا يأتيه النوم وقيل لغلام آخر وهو يقوم كل الليل فقال : إذا ذكرت النار اشتد خوفي وإذا ذكرت الجنة اشتد شوقي فلا أقدر أن أنام وقال ذو النون المصري رحمه الله :

مع القرآن بوعدده ووعيده مقل العيون بليها أن تهجعا
فهموا عن الملك الجليل كلامه فرقابهم ذلت إليه تخضعا

وأنشدوا أيضاً :

يا طويل الرقاد والغفلات كثرة النوم تورث الحشرات
إن في القبر إن نزلت إليه لرقادا يطول بعد الممات
ومهادا ممهدا لك فيه بذنوب عملت أو حسنات
أأمنت البيات من ملك الموت وكم نال آمنا ببيات

وقال ابن المبارك :

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسمر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

(الثالث) أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار حتى يستحكم به رجاءه وشوقه إلى ثوابه فيهبجه الشوق لطلب المزيد والرغبة في درحات الجنان ؛ كما حكى أن بعض الصالحين رجع من غزوته فهدت امرأته فراشها وجلست تنتظره فدخل المسجد ولم يزل يصلي حتى أصبح فقالت له زوجته : كنا ننتظرك مدة فلما قدمت صليت إلى الصبح ؟ قال : والله إنني كنت أتفكر في حوراء من حور الجنة طول الليل فنسيت الزوجة والمنزل فقامت طول ليلتي شوقا إليها .

(الرابع) وهو أشرف البواعث ؛ الحب لله وفوة الإيمان بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناج ربه وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يحطر بقلبه وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه ، فإذا أحب الله تعالى أحب لأحالة الحلوة به وتلذذ بالمناجاة فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام . ولا ينبغي أن يستبعد هذه اللذة إذ يشهد لها العقل والنقل . فأما العقل فليعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله أو لملك بسبب إنعامه وأموره أنه كيف يتلذذ به في الخلوة ومناجاته حتى لا يأتيه النوم طول ليله ؟ فإن قلت : إن الجميل يتلذذ بالنظر إليه وإن الله تعالى لا يرى ؟ فاعلم

أنه لو كان الجميل المحبوب وراء ستر أو كان في بيت مظلم لكان المحب يتلذذ بمجاورته المجردة دون النظر ودون الطمع في أمر آخر سواه . وكان يتذم بإظهار حبه عليه وذكره بلسانه بمسمع منه . وإن كان ذلك أيضا معلوما عنده * فإن قلت : إنه ينتظر جوابه فليتلذذ بسماع جوابه ولبس يسمع كلام الله تعالى ؟ فاعلم أنه إن كان يعلم أنه لا يجيبه ويسكت عنه فقد بقيت له أيضا لذة في عرض أحواله عليه ورفع سريره إليه كيف والموقف يسمع من الله تعالى كل ما يرد على خاطره في أثناء مناجاته فيتلذذ به ؟ وكذا الذي يخلو بالملك ويعرض عليه حاجاته في جنح الليل يتلذذ به في رحاء إنعامه . والرجاء في حق الله تعالى أصدق وما عند الله خير وأبقى وأرفع مما عند غيره فكيف لا يتلذذ بعرض الحاجات عليه في الخلوات ؟ وأما النقل فيشهد له أحوال قوام الليل في تلذذهم بقيام الليل واستقصاها له كما يستقصر المحب ليلة وصال الحبيب حتى قيل لبعضهم : كيف أنت والليل ؟ قال : ماراعته قط يريني وجهه ثم ينصرف وماتأمله بعد . وقال آخر : أنا والليل فرسا رهان مرة يسبقني إلى الفجر ومرة يقطعني عن الفكر . وقيل لبعضهم : كيف الليل عليك ؟ فقال : ساعة أنا فيها بين حالتين أفرح بظلمته إذا جاء وأغتم بفجره إذا طلع ، ماتم فرحى به قط وقال على بن بكر : منذ أربعين سنة ما أحزنتي شيء سوى طلوع الفجر . وقال الفضيل بن عياض : إذا غربت الشمس فرحت بالظلام لحلوق ربى وإذا طلعت حزنت لدخول الناس على . وقال أبو سليمان : أهل الليل في ليلهم ألد من أهل اللهو في لهوهم ولولا الليل ما أجبت البقاء في الدنيا . وقال أيضا : لو عوض الله أهل الليل من ثواب أعمالهم ما يجدونه من اللذة لكان ذلك أكثر من ثواب أعمالهم . وقال بعض العلماء : ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يحده أهل التلق في قلوبهم بالليل من حلاوة المساجاة . وقال بعضهم : لذة المناجاة ليست من الدنيا إنما هي من الجنة أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها سواهم ، وقال ابن المنكدر : ما بقى من لذات الدنيا إلا ثلاث قيام الليل ولقاء الإخوان والصلاة في الجماعة . وقال بعض العارفين : إن الله تعالى ينظر بالأسفار إلى قلوب المتقين فيملؤها أنواراً فتزد الفوائد على قلوبهم فتستدير ثم تنتشر من قلوبهم العوافى إلى قلوب الغافلين . وقال بعض العلماء من القدماء : إن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لي عبادا من عبادى أحبهم ويحبونى ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ويدكرونى وأذكروهم وينظرون إلى وأنظر إليهم فإن حدوث طريقهم أحبتك وإن عدات عنهم مقتك ، قال يارب وما علامتهم ؟ قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى غنمه ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها فإذا جههم الليل واختلط الظلام وخللا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم وافترشوا إلى وجوههم وباجونى بكلامى وتملقوا إلى يانعامى فبين صارح وباكى وبين متأوه وشاكى بعينى ما يتحملون من أجلى وبسمعى ما يشتكون من حى أول ما أعطيهم أقذف من نورى في قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية : لو كانت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهما في موازينهم لاستقلتها لهم . والثالثة : أقبل بوجهى عليهم أفترى من أقبلت بوجهى عليه أعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟ وقال مالك بن دينار رحمه الله إذا قام العبد يتجهد من الليل قرب منه الجبار عز وجل . وكانوا يرون ما يجدون من الرقة والحلاوة في قلوبهم والأنوار من قرب الرب تعالى من القلب وهذا له سر وتحقيق ستأتى الإشارة إليه في كتاب المحبة . وفي الأخبار عن الله عز وجل : أى عبدى أنا الله الذى اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نورى ، وشكا بعض المريدين إلى أستاذه طول سهر الليل وطلب حيلة يجلب بها النوم فقال أستاذه : يابنى إن الله نعمات في الليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة وتخطى القلوب النائمة فتعرض لتلك النفحات ؛ فقال : ياسيدى تركتى لأنام بالليل ولا بالنهار

واعلم أن هذه النفحات بالليل أرجى لما في قيام الليل من صفاء القلب واندفاع الشواغل ، وفي الخبر الصحيح عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه إياه »^(١) ، وفي رواية أخرى : « يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه وذلك كل ليلة » ، ومطلوب القائم تلك الساعة وهي مهمة في جملة الليل كليلة القدر في شهر رمضان وكساعة يوم الجمعة وهي ساعة النفحات المذكورة والله أعلم .

بيان طرق القسمة لأجزاء الليل

اعلم أن إحياء الليل من حيث المقدار له سبع مراتب (الاولى) لإحياء كل الليل وهذا شأن الأتقياء الذين تجردوا لعبادة الليل وتلدؤوا بمناجاته وصار ذلك غذاء لهم وحياة لقلوبهم فلم يتعبوا بطول القيام وردوا المنام إلى النهار وفي وقت اشتغال الناس ، وقد كان ذلك طريق جماعة من السلف كانوا يصلون الصبح بوضوء العشاء . حكى أبو طالب المكي أن ذلك حكى على سبيل التواتر والاشتهار عن أربعين من التابعين وكان فيهم من واطب عليه أربعين سنة ، قال : منهم سعيدين المسيب وصموان بن سليم - المدنيان - وفصيل بن عياض ووهيب بن الورد - المكيان - وطاوس ووهب بن منبه - اليمانيان - والربيع بن خيثم والحكم - الكوفيان - وأبوسليمان الداراني وعلي بن بكار - الشاميان - وأبو عبد الله الخواص وأبو عاصم - العباديان - وحبيب أبو محمد وأبو حابر السلمي - الفارسيان - ومالك بن دينار سلمي التيمي ويزيد الرقاشي وحبيب بن أبي ثابت ويحيى البكاء - البصريون - وكهمس بن المهال وكان يختم في الشهر تسعين ختمة ومالم يفهمه رجع وقرأه مرة أخرى . وأيضا من أهل المدينة : أبو حازم ومحمد بن المنكدر في جماعة يكثر عددهم (المرتبة الثانية) أن يقوم نصف الليل : وهذا لا ينحصر عدد المواظبين عليه من السلف . وأحسن فيه أن ينام الثلث الأول من الليل والسدس الأخير منه حتى يقع قيامه في حوف الليل ووسطه فهو الأفضل (المرتبة الثالثة) أن يقوم ثلث الليل : فينبغي أن ينام النصف الأول والسدس الأخير ، وبالجملة نوم آخر الليل محبوب لأنه يذهب النعاس بالغداة ، وكانوا يكرهون ذلك ، ويقلل صفرة الوجه والشهرة به فلو قام أكثر الليل ونام سحرا قلت صفرة وجهه وقل نعاسه . وقالت عائشة رضي الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهم وإلا اصططع في مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذنه للصلاة »^(٢) ، وقالت أيضا رضي الله عنها : « ما ألفتيه بعد السحر إلا نائما »^(٣) ، حتى قال بعض السلف : هذه الضجعة قبل الصبح سنة ، منهم أبو هريرة رضي الله عنه . وكان نوم هذا الوقت سببا للكاشفة والمشاهدة من وراء حجب الغيب وذلك لأرباب القلوب وفيه استراحة

(١) حديث جابر : « من من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة » رواه مسلم .

(٢) حديث : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهم وإلا اصططع في مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة » أخرجه مسلم من حديث عائشة : « كان ينام أول الليل ويحيى آخره ثم إن كان له حاجة إلى أهله قصى حاجته ثم ينام » وقال النسائي : « فإذا كان من السحر أوتر ثم أتى فراشه فإذا كان له حاجة إلى أهله ، ولأبي داود : « كان إذا قضى صلاته من آخر الليل نظر فإن كنت مسقة قطعة حدثني وإن كنت مائة أيقظني وصلى الركعتين ثم اصططع حتى يأتيه المؤذن فيؤذنه صلاة الصبح فيصلي ركعتين خفيفتين ثم يخرج إلى الصلاة » وهو متفق عليه بلفظ : « كان إذا صلى فإن كنت مسقة قطعة حدثني » وإلا اصططع حتى يود - بالصلاة » وقال مسلم : « إذا صلى ركعتي الفجر » (٣) حديث عائشة : « ما ألفتيه بعد السحر الأعلى إلا نائما » متفق عليه بلفظ : « ما ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم السحر الأعلى في بيتي أو عندي إلا نائما » لم يقل البخاري : « الأعلى » وقال ابن ماجة : « ما كنت ألقى أو ألقى النبي صلى الله عليه وسلم من آخر الليل إلا وهو نائم عدي »

تعين على الورد الأول من أورد النهار وقبام ثلث الليل من النصف الأخير . ونوم السدس الأخير قيام داود صلى الله عليه وسلم (المرتبة الرابعة) أن يقوم سدس الليل أوحسه وأفضله أن يكون في النصف الأخير وقبل السدس الأخير منه (المرتبة الخامسة) أن لا يراعى التقدير فإن ذلك إنما يتيسر لنبي يوحى إليه أو لمن يعرف منازل القمر ويوكل به من يراقبه ويواظبه ويوقظة ثم ربما يضطرب ليلى الغيم ، ولكنه يقوم من أول الليل إلى أن يغلبه النوم فإذا انتبه قام فإذا غلبه النوم عاد إلى النوم . فيكون له في الليل نومتان وقومتان وهو من مكابدة الليل وأسد الأعمال وأفضلها ، وقد كان هذا من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) ، وهو طريقة ابن عمرو وأولى العزم من الصحابة وجماعة من التابعين رضى الله عنهم . وكان بعض السلف يقول : هي أول نومة فإذا انتبهت ثم عدت إلى النوم فلا أنام الله لي عينا . فأما قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث المقدار فلم يكن على ترتيب واحد بل ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو سدسه ^(٢) يختلف ذلك في الليالي ودل عليه قوله تعالى في الموصعين من سورة المرملة (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه) فأدنى من ثلثي الليل كأنه بصفه ونصف سدسه فإن كسر قوله (ونصفه وثلثه) كان نصف الثلثين وثلثه يقرب من الثلث والربع وإن نصب كان نصف الليل وقالت عائشة رضى الله عنها كان صلى الله عليه وسلم يقوم إذا سمع الصارخ ^(٣) « يعنى الديك وهذا يكون السدس فادونه . وروى غير واحد أنه قال « راعيت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر لئلا فنام بعد العشاء زماناً ثم استيقظ فظفر في الأفق فقال (ربنا ما خلقت هذا باطلاً) حتى بلغ (لك لا تخلف الميعاد) ثم استل من فراشه سوا كافاستاك به وتوضأ وصلى حتى قلت : صلى مثل الذى نام . ثم اضطجع حتى قلت نام مثل ما صلى . ثم استيقظ فقال ما قال أول مرة وفعل ما فعل أول مرة ^(٤) » (المرتبة السادسة) وهى الأقل : أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين أو تتعدر عليه الطهارة فيجلس مستقبل القبلة ساعة مشغلا بالذكر والدعاء فيكتب في حمله قوام الليل برحمة الله وفصله . وقد جاء في الأثر : صل من الليل ولو قدر حلب شاة ^(٥) فهذه طرق القسمة فليختار المريد لنفسه ما يراه أيسر عليه . وحيث يتعذر عليه القيام في وسط الليل فلا ينبغي أن يهمل لإحياء ما بين العشاءين والورد الذى بعد العشاء . ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر فلا يدركه الصبح

(١) حديث « قيامه أول الليل إلى أن يملأه النوم فاداً الله قام فاداً غلبه عاد إلى النوم فيكون له في الليل نومتان » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أم سلمة « كان يصلى ويام قدر ما صلى ثم يصلى قدر ما نام ثم يام قدر ما صلى حتى يصبح » ولابن خبارى من حديث ابن عباس « صلى العشاء ثم جاء فصلى أربع ركعات ثم نام ثم قام » وفيه « فصلى خمس ركعات ثم صلى ركعتين ثم نام حتى سمعت غطيطة ... الحديث » .

(٢) حديث « ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو سدسه » أخرجه الشيطان من حديث ابن عباس « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اتصف الليل أو قبله قليل أو بعده بقليل استيقظ ... الحديث » وفي رواية للبخارى « لما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء ... الحديث » ولأبى داود « قام حتى إذا ذهب ثلث الليل أو نصه استيقظ ... الحديث » لمسلم من حديث عائشة « فبعثه الله معها شاة أن يبعثه من الليل » . (٣) حديث عائشة « كان يقوم إذا سمع الصارخ » متفق عليه . (٤) حديث « غير واحد قال : راعيت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر ليلاً فنام بعد العشاء زماناً ثم استيقظ فظفر في الأفق فقال ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبجناك - حتى بلغ - أنك لا تخلف الميعاد ثم استل من فراشه سوا كافاستاك وتوضأ وصلى حتى قلت صلى مثل ما نام .. الحديث » أخرجه النسائى من رواية حميد بن عبد الرحمن بن عوف « أن رجلاً من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قاله : قلت وأنا في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لأرقين رسول الله صلى الله عليه وسلم » فذكر نحوه وروى أبو الوليد بن ميث في كتاب الصلاة من رواية اسحق بن عبد الله بن أبى طلحة « أن رجلاً قال لأرمق صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم » فذكر الحديث وفيه « أنه أخذ سواكه من مؤخر الرجل » وهذا يدل أنه أيضاً كان في سفر .

(٥) حديث « صل من الليل ولو قدر حلب شاة » أخرجه أبو يعلى من حديث ابن عباس في صلاة الليل مرفوعاً « نصه ثلثه ربعه فواق حلب ناقة فواق حلب شاة » ولأبى الوليد بن ميث من رواية إياس بن معاوية مرسلاً « لا بد من صلاة الليل ولو حلقة ناقة أو حلب شاة » ،

نأتمها ويقوم بطرفي الليل (وهذه هي المرتبة السابعة ومهما كان النظر إلى المقدار فترتيب هذه المراتب بحسب طول الوقت وقصره : وأما في الرتبة الخامسة والسابعة لم ينظر فيها إلى القدر فليس يجرى أمرهما في التقدم والتأخر على الترتيب المذكور إذ السابعة ليست دون ما ذكرناه في السادسة ، ولا الخامسة دون الرابعة .

بيان الليالي والأيام الفاضلة

اعلم أن الليالي المخصوصة بمزيد الفضل التي يتأكد فيها استجواب الإحياء في السنة خمس عشرة ليلة لا ينبغي أن يغفل المريد عنها فإنها مواسم الخيرات ومطازن التجارات . ومتى غفل التاجر عن المواسم لم يربح ومتى غفل المريد عن فضائل الأوقات لم ينجح . فستة من هذه الليالي في شهر رمضان : خمس في أوتار العشر الأخير إذ فيها يطلب ليلة القدر . وليلة سبع عشرة من رمضان - فهي ليلة صبيحتها يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، فيه كانت وقعة بدر ، وقال ابن الزبير رحمه الله : هي ليلة القدر - وأما التسع الأخر : فأول ليلة من المحرم . وليلة عاشوراء وأول ليلة من رجب وليلة النصف منه . وليلة سبع وعشرين منه وهي ليلة المعراج وفيها صلاة مأثورة فقد قال صلى الله عليه وسلم ، للعامل في هذه الليلة حسنات مائة سنة (١) ، فمن صلى في هذه الليلة اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة من القرآن ويتشهد في كل ركعتين ويسلم في آخرهن ثم يقول « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة » ثم يستغفر الله مائة مرة ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة ويدعو لنفسه بما شاء من أمر دنياه وآخرته ويصبح صائما فإن الله يستجيب دعاءه كله إلا أن يدعو في معصية - وليلة النصف من شعبان - ففيها مائة ركعة يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة سورة الإخلاص عشر مرات كانوا لا يتركونها كما أوردناه في صلاة التطوع - وليلة عرفة . وليلتا العيدين : قال صلى الله عليه وسلم « من أحيا ليلتي العيدين لم يموت قلبه يوم تموت القلوب (٢) » .

وأما الأيام الفاضلة فتسعة عشر يستحب مواصلة الأوراد فيها : يوم عرفة . ويوم عاشوراء . ويوم سبعة وعشرين من رجب - له شرف عظيم روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من صام يوم سيع وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهرا (٣) » ، وهو اليوم الذي أهبط الله فيه جبرائيل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة - ويوم سبعة عشر من رمضان - وهو يوم وقعة بدر - ويوم النصف من شعبان . ويوم الجمعة ، ويوم العيدين والأيام المعلومات وهي عشر من ذي الحجة . والأيام المحدودات وهي أيام التشريق . وقد روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة (٤) » ، وقال بعض العلماء : من أخذه مهنة في الأيام الخمسة في الدنيا لم ينل مهنة في الآخرة وأراد به العيدين والجمعة وعرفة وعاشوراء ومن فواضل الأيام في الأسبوع يوم الخميس والاثنتين ترفع فيهما الأعمال إلى الله تعالى : وقد ذكرنا فضائل الأشهر والأيام للصيام في كتاب الصوم فلا حاجة إلى الإعادة والله أعلم ، وصلى الله على كل عبد مصطفى من كل العالمين .

(١) حديث « الصلاة المأثورة في ليلة السابع والعشرين من رجب » ذكر أبو موسى المديني في كتاب فضائل الأيام الليالي : أن أبا عبد الحميد الجباري روى عن طريق الحاكم أبي عبد الله من رواية محمد بن الفضل عن أبي أنس مرفوعا ، وعبد بن الفضل وأبان ضعيفان جدا والحديث مسكر . (٢) حديث « من أحيا ليلتي العيدين لم يموت قلبه يوم تموت القلوب » أخرجه بإسناد ضعيف من حديث أبي أمامة . (٣) حديث أبي هريرة « من صام يوم سيع وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهرا وهو اليوم الذي هبط فيه جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم » روى أبو موسى المديني في كتاب فضائل الليالي والأيام من رواية نهر بن حوشب عنه . (٤) حديث أنس « إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة » تقدم في الباب الخامس من الصلاة فذكر يوم الجمعة فقط وقد روى بحديثه ابن حبان في الضعفاء وأبو سيم في الحلية من حديث عائشة وهو ضعيف .

تم الربع الأول من كتاب : لإحياء علوم الدين ، وهو ربيع العبادات ويتلوه : الربع الثاني ، وهو ربيع العادات



فهرس

الجبرء الأول

من إحياء علوم الدين

صحيفة

صحيفة

- ب ترجمة الإمام الغزالي
 د ترجمة الإمام العراقي
 ١ خطبة الكتاب
 ٤ كتاب العلم وفيه سبعة أبواب
 الباب الأول في فضل العلم والتعليم والتعلم
 وشواهد من النقل والعقل
 فضيلة العلم
 ٨ فضيلة التعلم
 ٩ فضيلة التعليم
 ١٢ في الشواهد العقائدية
 ١٣ الباب الثاني في العلم المحمود والمذموم
 وأقسامهما وأحكامهما وفيه بيان ماهو
 فرض عين وما هو فرض كفاية وبيان أن
 موقع الكلام والفقهاء من علم الدين إلى أي حد
 هو تفضيل علم الآخرة
 بيان العلم الذي هو فرض عين
 ١٩ بيان العلم الذي هو فرض كفاية
 ٢٩ الباب الثالث فيما يعمده العامة من العلوم
 المحمودة وليس منها وفيه بيان الواحد الذي
 قد يكون به بعض العلوم مذمومًا . بيان
 تبديل أسماء العلوم وهو الحق والعلم
 والتوحيد والتذكير والحكمة وبيان القدر
 المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم
 منها . بيان ألة دم العلم المذموم
 ٣١ بيان ما يدل من ألقاظ العلوم
 ٣٨ بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة
 ٤١ الباب الرابع في سبب إقبال الخلق على
 علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة
 والجدل وشروط لإباحتها
 ٤٢ بيان التلبيس في تشبيه هذه المناظرات
 بمشاورات الصحابة ومفاديات السلف
 رحمهم الله تعالى
 ٤٥ بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من
 مهلكات الأخلاق
 ٤٨ الباب الخامس في آداب المتعلم والمعلم أما المتعلم
- فآدابه ووظائفه الظاهرة وكثيرة ولا يمكن
 تفتنظم تماريقها في عشر جمل
 ٥٥ بيان وظائف المرشد المعلم
 ٥٨ الباب السادس في آفات العلم وبيان علامات
 علواء الآخرة والعلماء السوء
 ٨٣ الباب السابع في العقل وشرفه وحقيقته
 وأقسامه . بيان شرف العقل
 ٨٥ بيان حقيقة العقل وأقسامه
 ٨٧ بيان تفاوت النفوس في العقل
 ٨٩ كتاب قواعد العقائد
 وفيه أربعة فصول
 الفصل الأول في ترجمه عقيدة أهل السنة
 في كلمتي الشهادة الخ
 ٩٤ الفصل الثاني في وجه التدرج إلى الإرشاد
 وترتيب درجات الاعتقاد
 ١٠٤ الفصل الثالث من كتاب قواعد العقائد في
 لوازم الأدلة للعقيدة التي ترجمناها بالقدس
 وفيها أركان أربعة
 ١٠٥ وأما الركن الأول من أركان الإيمان في
 معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وأن الله
 تعالى واحد ومداره على عشرة أصول
 ٨ الركن الثاني العلم بصفات الله تعالى ومداره
 على عشرة أصول
 ١١٠ الركن الثالث العلم بأفعال الله تعالى
 ومداره على عشرة أصول
 ١١٤ الركن الرابع في السمعيات وتصديقه عليه السلام
 فيما أخبر عنه ومداره على عشرة أصول
 ١١٦ الفصل الرابع في الإيمان والإسلام
 وما بينهما من الاتصال والانفصال
 وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان
 ووجه استثناء السلف فيه وفيه ثلاث مسائل
 مسألة اختلفوا في أن الإسلام هو
 الإيمان أو غيره الخ

١٢٠ مسألة فإن قلت فقد اتفق السلف على

أن الإيمان يزيد وينقص الخ

١٢١ مسألة فإن قلت ما وجه قول السلف

أنا مؤمن لأن شاء الله الخ

١٢٥ كتاب أسرار الطهارة

وهو الكتاب الثالث من ربيع العبادات

١٢٨ القسم الأول في طهارة الخبث والنظر فيه

يتعلق بالمزال والمزال به والإزالة. الطرف

الأول في المزال

الطرف الثاني في المزال به

١٣٠ الطرف الثالث في كيفية الإزالة

القسم الثاني طهارة الأحداث ومنها الوضوء

والغسل والقهيم ويتقدمها الاستنجاء

باب آداب قضاء الحاجة

١٣٢ كيفية الاستنجاء

كيفية الوضوء

١٣٥ فضيلة الوضوء

١٣٦ كيفية الغسل

كيفية التيمم

١٣٧ القسم الثالث في النظافة والتنظيف عن

الفضلات الظاهرة وهي نوحان أو ساخ

وأجزاء

النوع الأول الأوساخ والرطوبات

المترسخة وهي ثمانية

١٤٠ النوع الثاني فيما يحدث في البدن من

الأجزاء وهي ثمانية

١٤٥ كتاب أسرار الصلاة ومهماتها

وفيه سبعة أبواب

١٤٦ الباب الأول في فضائل الصلاة والسجود

والجماعة والأذان وغيرها

فضيلة الأذان

فضيلة المكتوبة

١٤٧ فضيلة إتمام الأركان

١٤٨ فضيلة الجماعة

١٤٩ فضيلة السجود

١٥٠ فضيلة الخشوع

١٥١ فضيلة المسجد وموضع الصلاة

١٥٢ الباب الثاني في كيفية الأعمال الظاهرة

من الصلاة والبداءة بالتكبير وما قبله

١٥٣ القراءة

١٥٤ الركوع ولو احمقه

السجود

١٥٥ التشهد

١٥٦ المنهيات

١٥٧ تمييز الفرائض والسنن

١٥٩ الباب الثالث في الشروط الباطنة من

أعمال القلب الخ

بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب

١٦١ بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة

١٦٣ بيان الدواء الدافع في حضور القلب

١٦٥ بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب

عند كل ركن وشروط من أعمال الصلاة

١٧١ حكايات وأخبار في صلاة الخاشعين

١٧٣ الباب الرابع في الإمامة والقدوة الخ

١٧٨ الباب الخامس في فضل الجمعة وآدابها

وسننها وشروطها

فضيلة الجمعة

١٧٩ بيان شروط الجمعة

وأما السنن الخ

١٨٠ بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة وهي

عشر رجل

١٨٥ بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب

السابق الذي يعم جميع النهار وهي سبعة أمور

١٨٨ الباب السادس في مسائل متفرقة تعم بها

البلوى ، ويحتاج المرید إلى معرفتها

١٩٢ الباب الرابع في النوافل من الصلوات

وفيه أربعة أقسام

صحيفة

١٩٣ القسم الأول ما يتكرر بتكرر الأيام والليالي وهي ثمانية

١٩٧ القسم الثاني ما يتكرر بتكرر الأسابيع
٢٠٠ القسم الثالث ما يتكرر بتكرر السنين

٢٠٣ القسم الرابع من الترافل ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالموافقت وهي تسعة

٢٠٨ كتاب أسرار الزكاة

وفيه أربعة فصول

٢٠٩ الفصل الأول في أنواع الزكاة وأسباب

وجوبها

النوع الأول زكاة النعم

٢١٠ النوع الثاني زكاة المعشرات

النوع الثالث زكاة النقدين

٢١١ النوع الرابع زكاة العجارة

النوع الخامس الركاز والمعدن

النوع السادس في صدقة الفطر

٢١٢ الفصل الثاني في الأداء وشروطه الباطنة

والظاهرة

٢١٣ بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

الوظيفة الأولى أي من الوظائف التي على

مريد طريق الآخرة فهم وجوب الزكاة الخ

٢١٥ الوظيفة الثانية في وقت الأداء

الوظيفة الثالثة الإسرار

٢١٦ الوظيفة الرابعة أن يظهر حيث يعلم أن في

إظهاره ترغيباً للناس الخ

الوظيفة الخامسة أن لا يفسد صدقة

بالمُن والأذى

٢١٨ الوظيفة السادسة أن يستصغر العطية

الوظيفة السابعة أن يلتقي من ماله أجوده

وأحبه إليه وأجله رأطيه

٢١٩ الوظيفة الثامنة أن يطلب لصدقته من

تزكو به الصدقة الخ

٢٢١ الفصل الثالث في القابض وأسباب

استحقاقه ووظائف قبضه

بيان أسباب الاستحقاق

صحيفة

٢٢٢ بيان وظائف القابض

٢٢٥ الفصل الرابع في صدقة التطوع وفضلها

وآداب أخذها وإعطائها

بيان فضيلة الصدقة

٢٢٧ بيان إخفاء الصدقة وإظهارها

٢٣٠ بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة

كتاب أسرار الصوم

وفيه ثلاثة فصول

٢٣٢ الفصل الأول في الواجبات والسنن الظاهرة

واللوازم بإفساده

أما الواجبات الظاهرة ف ستة

٢٣٣ لوازم الإفطار أربعة

٢٣٤ الفصل الثاني في أسرار الصوم وشروطه

الباطنة

٣٣٧ الفصل الثالث في التطوع بالصيام وترتيب

الأوراد فيه

٢٣٩ كتاب أسرار الحج

وفيه ثلاثة أبواب

الباب الأول وفيه فصلان

الفصل الأول في فضائل الحج وفضيلة

البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى

وشد الرجال إلى المساجد

فضيلة الحج

٢٤١ فضيلة البيت ومكة المشرفة

فضيلة المقام بمكة حرسها الله وكرامته

٢٤٣ فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد

٢٤٥ الفصل الثاني في شروط وجوب الحج

وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته

٢٤٦ الباب الثاني في ترتيب الأعمال الظاهرة من

أول السفر إلى الرجوع وهي عشرة حمل

الجملة الأولى في السير من أول الخروج

إلى الإحرام وهي ثمانية

٢٤٨ الجملة الثانية في آداب الإحرام من الميقات

إلى دخول مكة وهي خمسة

صيفة

- ٢٩٤ الباب الاول في فضيلة الذكر وقائده على
الجملة والتفصيل من الآيات والاخبار
والآثار
- ٢٩٦ فضيلة مجالس الذكر
- ٢٩٧ فضيلة التهليل
- ٢٩٨ فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الاذكار
- ٣٠٣ الباب الثاني في آداب الدعاء وفضله
وفضل بعض الادعية المأثورة وفضيلة
الاستغفار والصلاة على رسول الله
صلى الله عليه وسلم . فضيلة الدعاء
- ٣٠٤ آداب الدعاء وهي عشرة
- ٣٠٩ فضيلة الصلاة على رسول الله
عليه وسلم وفضله
- ٣٠٩ فضيلة الاستغفار
- ٣١٣ الباب الثالث في أدعية مأثورة ومعزية
إلى اسبابها وأربابها بما يستحب أن يدعو
بها المرء صباحا ومساء . وبمقب كل صلاة
- ٣١٤ دعاء عائشة رضي الله عنها
دعاء فاطمة رضي الله عنها
- دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه
- ٣١٥ دعاء بريدة الأسلمي رضي الله عنه
دعاء قبيصة بن المخارق
- دعاء أبي الدرداء رضي الله عنه
- دعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام
- دعاء عيسى صلى الله عليه وسلم
- دعاء الخضر عليه السلام
- دعاء معروف الكرخي رضي الله عنه
- دعاء عتبة الغلام
- دعاء آدم عليه الصلاة والسلام
- ٣١٧ دعاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه
- دعاء ابن المعتز وهو سليمان التيمي
وتسبيحاته رضي الله عنه
- دعاء إبراهيم بن آدم رضي الله عنه

صيفة

- ٢٩٩ الجملة الثالثة في آداب دخول مكة إلى
الطواف وهي ستة
- ٣٥٠ الجملة الرابعة في الطواف الخ .
- ٣٥٢ الجملة الخامسة في السعي
- ٣٥٣ الجملة السادسة في الوقوف وما قبله
- ٣٥٥ الجملة السابعة في بقية أعمال الحج بعد
الوقوف من المبيت والرمي والنحر
والحلق والطواف
- ٣٥٧ الجملة الثامنة في صفة العمرة وما بعدها
إلى طواف الوداع
- ٣٥٨ الجملة التاسعة في طواف الوداع
- الجملة العاشرة في زيارة المدينة وآدابها
- ٣٦١ فصل في سنن الرجوع من السفر
- الباب الثالث في الآداب الدقيقة والأعمال
الباطنية
- بيان دقائق الآداب وهي عشرة
- ٣٦٥ بيان الأعمال الباطنة ووجه الاخلاص
في النية وطريق الاعتبار بالمشاهد
التريفة وكيفية الافكار فيها والتذكر
لاسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره
- ٣٧٢ كتاب آداب تلاوة القرآن
وفيه أربعة ابواب
- الباب الاول في فضل القرآن وأمله وذم
المفسرين في تلاوته
- فضيلة القرآن
- ٣٧٤ في ذم تلاوة الغافلين
- ٣٧٥ الباب الثاني في ظاهر آداب التلاوة
وهي عشرة
- ٣٨٠ الباب الثالث في أعمال الباطن في التلاوة
وهي عشرة
- ٣٨٨ الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره
بالرأى من غير نقل
- ٣٩٣ كتاب الاذكار والدعوات
وفيه خمسة ابواب

صحيفة

٣١٨ الباب الرابع في أدعية مأثورة عن النبي
صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضي
الله عنهم محذوفة الأسانيد منتخبة من
جملة ما جمعه أبو طالب المكي وابن
خزيمة وابن منذر رحمهم الله
٣٢١ أنواع الاستعاذة المأثورة عن النبي
صلى الله عليه وسلم
٣٢٢ الباب الخامس في الأدعية المأثورة
عند حدوث كل حادث من الحوادث
٣٢٩ كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء
الليل وهو الكتاب العاشر من إحياء
علوم الدين وبه اختتام ربع العبادات
وفيه بابان
٣٣٠ الباب الأول في فضيلة الأوراد وترتيبها
وأحكامها

صحيفة

٣٣٠ فضيلة الأوراد وبيان أن المواظبة عليها
هي الطريق إلى الله تعالى
٣٣١ بيان أعداد الأوراد وترتيبها
٣٣٢ بيان أوراد الليل والنهار
٣٤٨ بيان اختلاف الأوراد باختلاف
الأحوال
٣٥١ الباب الثاني في الأسباب الميسرة لقيام
الليل وفي الليالي التي يستحب إحيائها
وفي فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين
وكيفية قسمة الليل
٣٥١ فضيلة إحياء ما بين العشاءين
٣٥٣ فضيلة إحياء الليل
٣٥٦ بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل
٣٥٩ بيان طرق القسمة لأجزاء الليل
٣٦١ بيان الليالي والأيام الفاضلة

تم الفهرس